



صلاح نصر

**الحرب
الثوريّة
الشيوعيّة**

صلاح نصر

الحرب الثوريّة الشيوعيّة

الغزو الشيوعي

الوطن العربي

مكتبة

تتبعنا بعد تسوية علينا

جميع الحقوق محفوظة

بعد علينا أيضا

الطبعة الثانية

١٩٨٥

الوفاء

الى روح ابي

مقدمة

أدى التطور الكبير في وسائل الاتصال الحديثة، ونمو الوعي السياسي بين شعوب العالم، الى تيسر الوصول الى عقول الناس، بصورة أكثر شمولاً، وبطريقة أسرع مما كانت عليه في القرون السابقة. كما أدى هذا بدوره، إلى إمكان تنظيم المجتمعات الانسانية وفقاً للاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة.

وأصبح العالم الشاسع الذي كان يعدّه الانسان فيما مضى بمثابة مجاهل تطلبت جهداً ضخماً من اعمال الكشف والتنقيب أقرب منالاً وأسهل اتصالاً. كما أصبحت الأحداث التي تقع في أي بقعة من بقاع الارض، تؤثر على مجريات الامور في باقي دول العالم، بل دأبت هذه الاحداث على التأثير بدورها بما يجري في هذه الدول.

وزاد الامر تعقداً، قيام نظامين متعارضين يواجه كل منهما الآخر ويدعي كل جانب بحقه في زعامة دول العالم، كما يزعم انه الخير كله، وأن خصمه الشر بأجمعه، محاولاً جذب اكبر عدد من الدول الى صفه.

وفي وسط هذا الجو المعقد المضطرب، قامت الماركسية كواحد من النظامين معتمداً على نظرية معينة - يبشر بخلص الانسان على يديها من الاستغلال والظلم والرق، وتعد ب حياة أفضل، وديمقراطية أسمى وأمن أوفر. ولكن لم يكن ذلك إلا مجرد آمال وأحلام، اثبتت السنون الطويلة وما تم من انجازات، أن السير وراء هذه الوعود لم يكن سوى رحلة شقاء تصل الطريق الى الفردوس المفقود.

وهكذا ادت العقائد الماركسية الى جعل النظام الشيوعي وزعمائه أسرى عميان لا يديولوجيتهم الخاصة، مقررين مسلمات يتمسكون بها، ولا يرضون عنها بديلاً.

واليوم، وقد انتشرت الشيوعية في جميع انحاء العالم، نجد أن بليوناً من الناس تحتشد تحت لوائها. ومع ذلك لن تقنع الشيوعية حتى تغزو العالم أجمع، وحتى تصبح القوة العالمية الرائدة الوحيدة. فإذا ما تم لها ذلك، تخضع الدول غير الشيوعية لممارسات الشيوعية الدولية ونفوذها.

إن الهدف الاول للشيوعية الدولية في أي مكان في العالم - هو التغلغل في الدولة المستهدفة، تمهيداً للاستيلاء على السلطة، وتقويض الحكم القائم، ثم الاستيلاء على السلطة. وهي في سبيل ذلك تستخدم جيوشاً غير مسلحة، نظمت بغرض الغزو، جيوشاً بعيدة عن ميادين الحرب العسكرية السافرة، والمعارك المتعارف عليها.

وبالرغم من أن الفاشية والنازية والعسكرية اليابانية قد دفعت بهذه المعارك خطوات مناسبة، فإن الشيوعيين كان لهم السبق في استخدام الأساليب الحديثة لمعالجة الجماهير. لقد نمت الماركسية اليوم بدرجة كبيرة، وتمكن الحزب الشيوعي السوفييتي من أن يسيطر الآن على امبراطورية ضخمة، ويقوم بتوجيه أنشطة ملايين من أعضاء الأحزاب الشيوعية خارج حدود الكتلة الصينية السوفيتية. ومع ذلك، فإن جزءاً ضخماً من هذه الامبراطورية تم السيطرة عليه

نتيجة حصاد الحرب العالمية الثانية، إذ قامت الجيوش الحمراء الزاحفة باكساح دول كثيرة وضمتها. ولم تستخدم الحرب الثورية حينئذ الا بقدر محدود.

وربما يكون اصطلاح « الحرب الثورية » هذا، الذى أطلقناه على هذا الكتاب أول مصطلح استخدم ليغطي تلك الأنشطة التى تقوم بها الشيوعية الدولية فى نطاق أيديولوجيتها لغزو العالم. وسنرى فى الفصل الأول من الباب الأول أن الحرب الثورية مرادفة لأسماء كثيرة، مثل الحرب النفسية عند الأمريكين والحرب السياسية عند البريطانيين، وغير ذلك من التسميات، ومن ثم كان لزاما علينا أن نخصص فصلا كاملا، كي نحدد فيه تعريفا للحرب الثورية، ونبين الاختلافات الرئيسية بين هذا المصطلح، وبين التسميات الأخرى، حتى تقوم الدراسة على أساس علمى سليم.

على أن الحرب الثورية الشيوعية - شأنها فى ذلك شأن أي حرب أخرى - تحتاج الى آلة ضخمة تديرها وتعد جيوشها وتنظم أساليبها وتدريب افرادها. ولقد أنشأت إدارة صراع الحرب الثورية قواعد أساسية معينة: فأولا، ينبغي أن تكون هناك نظرية شاملة للتحويل وللأهداف المنشودة تعتمد أساسا على الأيديولوجية الماركسية اللينينية. وثانيا، يجب أن يكون هناك تنظيم كفاء قادر على أن يعمل لتحقيق هذه الأهداف، ويتمثل فى الحزب الشيوعى السوفييتي. وأخيرا، ينبغي أن تكون هناك طرق علمية توضع لهذا الغرض، هى الوسائل والأساليب التى تستخدمها لتحقيق الأهداف الشاملة.

ونود أن نذكر القارىء أن الحرب الثورية الشيوعية لا تنظر إلى الشعب على أنه مجرد كيان قائم تمثله فقط حكومة معينة، بل هو مجموعات اجتماعية واقتصادية وسياسية، كل منها تناضل فى صراع العصر، وكل منها تؤثر على هذا الصراع، كما تتأثر بالاتجاهات والقرارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة.

ولقد امتد اليوم صراع الحرب الثورية ليشمل كل أركان المعمورة، مستخدما جميع وسائل السلطة الميسورة من دبلوماسية وحرب اقتصادية وتآمر وتخريب، الخ.... كى يؤثر مباشرة على النسيج السياسى الاجتماعى للدولة

المستهدفة. كما أن الحرب الثورية تشكل مخبرات الدولة المعادية أى صورة هذه الدولة فى فهم الأحداث، ومن ثم يمكن للحرب الثورية أن تحاصر عملية صنع القرار فى الدولة المستهدفة.

على أن الشيوعيين يحققون النجاح من خلال المهارات التنظيمية، التى تصاغ فى تصور عملى لاستقطاب السلطة. فالشيوعى ينحاز إلى أى قتال، ويعاون أى قضية قد تمكنه من الحصول على فرص الوصول الى مراكز السلطة. فإذا ما نجح فى الاستيلاء على السلطة، أصبحت الخطوة التالية تصفية المعارضة كلها واحتكار تلك السلطة وحده.

وبلا جدال، فالحرب الثورية الشيوعية أداة للتوسع والتغلغل الماركسى، وهى فى هذا المجال لها مطالب استراتيجية وأخرى تكتيكية: كما أن لها مطالب بعيدة المدى ومطالب مباشرة، ولكن كل منها مرتبطة بالأخرى وتؤثر عليها.

ومن ثم، خصص الباب الأول لدراسة آلة الحرب الثورية، وسبر أغوار الطابع الاجتماعى لها. كما أنه يفسر تصور الشيوعيين للحرب الثورية، وكيف أن الحزب الشيوعى صمم ليضطلع بمهام هذه الحرب، بالإضافة إلى دراسة أسلوب احتكار الشيوعيين للسلطة، وسبل الإعداد للغزو الخارجى.

وفى الباب الثانى من هذا الكتاب، نرى الحرب الثورية تدار فى نطاق أيديولوجية معينة، يتمسك بها الشيوعيون فى أغلب الأحيان، بالرغم من تعرضها عبر الحقب المتتالية لعوامل تفكك وتماسك معينة، أزالت عنها كثيرا من نكهتها التى استهوت الكثيرين فى بادئ الأمر، الأمر الذى جعل الشيوعيين يدخلون التعديلات التى تتواءم والواقع، مع احتكارهم للسلطة وتدعيمهم لحكمهم. وهكذا، فإن أى دارس للحرب الثورية الشيوعية لا بد أن يلم بهذه الأيديولوجية.. عناصرها، وعوامل تماسكها وتفككها، ودورها فى هذه الحرب. ذلك أنه لا يمكننا تقييم الدور الهام المثابر للتصورات الايديولوجية فى فكر الزعماء السوفييت وأعمالهم، ما لم ننظر اليه بنظرة تضع فى تقديرها العوامل المختلفة التى تشكل الأيديولوجية السوفيتية. فالأيديولوجية السوفيتية فى ايجاز، هى مجموعة من الافتراضات والأغراض الواعية، كما أنها جزء من الخلفية التاريخية والاجتماعية والشخصية للقادة السوفييت.

على أن الشيوعيين يتدثرون برداء الاشتراكية، حينما يقومون بالهجوم على أيديولوجية غير شيوعية، كما أنهم ينظرون الى أى أيديولوجية غير ماركسية على أنها مجرد أفكار بالية عفنة.

ومن ثم خصصنا الفصل الأول من الباب الثاني للإجابة عن التساؤلات الكثيرة التي تدور حول علاقة الايديولوجية بالحرب الثورية. وما دمتنا قد تحدثنا عن الايديولوجية السوفيتية، أصبح لا مفر من أن نقوم بدراسة موضوع مرتبط ارتباطا وثيقا بها، هو تصور الشيوعيين السوفيت للتعايش والحرب والسلام.

فبالرغم من أن موسكو تعلن في فرص كثيرة أنها رائدة السلام فى العالم، فإن جيوش حربها الثورية - أسمى الاحزاب الشيوعية في كل مكان - تقوم بشن حربها الداخلية فى نطاق خطة غزو العالم. كما أن من بين المميزات الخاصة بدفعات السلام السوفيتي، تلك الطريقة التي تربط بين المطالب وبين فكرة السلام، إذ تكمن خلف هذه الطريقة تلك النظرية التي تنص على أن الحروب التي يشنها الكرملين أو يوافق عليها، هي مجرد حروب عادلة، أما باقي الحروب الاخرى فهي إما حروب امبريالية وإما حروب شنت لمصلحة الاستغلال الرأسمالي - أى حروب وول ستريت - كما يجلو لهم تسميتها. وهكذا، فإن السلام يعنى عند الماركسيين أن يشنوا الحرب على تجار الموت، ومرابي الذخيرة، وكبار رجال الاعمال. ومن ناحية أخرى، يزعمون أن حروبهم بمثابة حروب مشروعة دفاعية، تشن في سبيل مصالح الشعوب.

وعلى أساس هذا التلفيق الفكرى، يوعز إلى العمال فى انحاء العالم بالأى يساعدوا حروب الامبرياليين، وبأن عليهم تدميرها من خلال الاضرابات، وفرض المطالب المبالغ فيها، وتحويل حرب الامبرياليين إلى حرب أهلية. وتلقن الشعوب الملونة بشكل خاص الانتفاض على حروب الامبرياليين، وبهزيمة الامبريالية البيضاء، يمكن لهذه الشعوب أن تحصل على حرياتها وهكذا، يتم ربط شعار العالمى للسلام، بالمطالب المباشرة والمطالب البعيدة المدى التي شكلها الشيوعيين لكل طبقة من طبقات المجتمع. ووفقا لمزاعم الماركسية، يمكن تحقيق كل هذا من خلال المساعدة التي يقدمها كل فرد لقهر حكومته الرأسمالية. ومن ثم، يمتزج

هدف هزيمة الحكومة المعارضة مع طعم النصر الشهي للجماهير، عن طريق تحالف الجماهير مع الاتحاد السوفييتي .

وإذا كان لدى المرء أي شك لهذا التفسير، فإن التقرير الذي أقره مؤتمر موسكو للأحزاب الشيوعية الواحدة وثمانين لعام ١٩٦١، يوضح هذا بجلاء لا يتطرق إليه شائبة فهو يقول:

«التعايش السلمي..... لا يعنى نبذ صراع الطبقة.... إن تعايش الدول المتباينة النظم الاجتماعية هو شكل من صراع الطبقة بين الاشتراكية (الشيوعية) وبين الرأسمالية.»

وفي حالة التعايش السلمي نسمح الفرص المناسبة لتطور صراع الطبقة في هذه البلاد الرأسمالية، وفي حركة التحرر الوطني لشعوب المستعمرات والبلاد غير المستقلة. وفي مقابل ذلك، يهيبء نجاح الطبقة الثورية وصراع التحرر الوطني فرص التعايش السلمي.....

«والتعايش السلمي.... لا يعنى مصالحة بين الأيديولوجيتين الاشتراكية (الشيوعية) والبورجوازية. بل على العكس يتضمن تكثيف حدة صراع الطبقة العاملة، وصراع جميع الأحزاب الشيوعية، لنصرة الأفكار الاشتراكية (الشيوعية)....»

ومن خلال صراع نشط صلب وبواسطة الاشتراكية (الشيوعية) وباقي البلاد المحبة للسلام وبواسطة.... الجماهير الشاسعة في جميع البلاد، يمكن عزل الدوائر العدوانية، وإحباط تسابق التسليح، وإجبار الامبرياليين على الاتفاق على نزع السلاح العام.»

على أن ما يدور في عقل الغرب، هو أنه طالما ظل الشيوعيون يحكمون الاتحاد السوفييتي، فإن مخاطر الحرب النووية والحرب المحدودة وحرب العصابات ستظل قائمة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. ويوصي البعض بأنه ينبغي على الأمريكيين أن يميزوا بين العقيدة والنوايا الشيوعية وبين القدرات الشيوعية، كي يمكنهم وضع تقدير سليم دقيق للسلوك الشيوعي. كما يرى البعض ضرورة تفهم الغرب للعقيدة العسكرية الشيوعية، وتفسير واقعها، دون أن تضلله الخداعات الشيوعية، والقراءات السفسطائية للنظرية الماركسية.

ويذهب البعض الى أبعد من ذلك ، فيقولون إن المشاكل الاستراتيجية لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ليست على نسق واحد. ولذلك فإن تحقيق الهدف من وجهة نظر الولايات المتحدة يجيء عن طريق عرقلة الأغراض الشيوعية ، فالشيوعيون في سبيل تحقيق أغراضهم قد لا يكتفون بقهر الولايات المتحدة عسكريا ، ولكنهم قد يحتلون ويحولونها الى الشيوعية. ويقول هؤلاء إن انجاز هذا الهدف - في ضوء التكنولوجيا وقوة النيران والاستيلاء على السلطة - سوف يظل قائما ما لم يتمكن الأمريكيون من التفوق على قدرات السوفييت .

ويشرح الفصل الثاني من الباب الثاني معاني التعايش والحرب والسلام من وجهة نظر الشيوعيين السوفييت ، كما يوضح مدى العلاقات التي تربط كل من هذه المسائل الرئيسية ببعضها البعض .

إن الشيوعيين ينفردون بعدة مزايا وبسمات خاصة معينة في استخدامهم للدعاية ، التي تعد سلاحا رئيسيا في ترسانة الحرب الثورية السوفياتية . ومن السمات الخاصة بالدعاية الشيوعية : الإثارة ، والتثقيف ، والتلقين ، والتدريب . كما أن الدعاية السوفياتية ليست مجرد عملية خارجية ، بل يوجه جزء كبير منها إلى الداخل .. أعني المستمعين الشيوعيين ، حيث تقوم الدعاية بغرس فكرة « تطويق الغرب للاتحاد السوفياتي » في عقول المستمعين .

ولقد صمم الحزب الشيوعي على أساس استغلال جيشان الصراع الأيديولوجي والاجتماعي المستمر في المجتمعات الحديثة . ويقدم الحزب حلا شاملا للنزاع ، يبدو ظاهريا أنه لصالح أشد الطبقات تعرضا للظلم ، نعني طبقة البروليتاريا . وفي كل دولة يقوم فيها حزب شيوعي ، يعمل الحزب على تضخيم الصراع أكثر من العمل على تلطيفه ، وذلك بإثارة الطبقات المتنافسة في المجتمع بعضها على بعض ، وباختراق التنظيمات القائمة واستخدامها لأغراضه الخاصة ، وأخرا يعمل على خلق الأزمات كوسيلة من وسائل الاستيلاء على السلطة . على أن جميع الأحزاب الشمولية سواء كانت شيوعية أو فاشية لها سمات معينة هي :

(١) أنها تستخدم الأعمال العدائية لجعل دعايتها عملية وملموسة ومؤثرة .

(٢) أنها أحزاب مركزية على مستوى عام، كما أن كيائها ذو قوام واحد.
(٣) أنها بمجرد أن تستولي على السلطة تخضع المعارضة كلها وتقوم بتصفيتها.
ويصبح الحزب الجماعي حينئذ دولة جماعية، وبعد إخضاع جميع الصراعات
الداخلية، تصبح الدولة دولة عسكرية، وتحول العداءات الداخلية نحو الخارج.
ومع ذلك، فهناك على المستوى التكتيكي اختلافات جسيمة بين الأحزاب
الشيوعية والأحزاب الفاشية. فالكراهية في الدعاية الشيوعية أساسا كراهية
اجتماعية، وهي توجه لإثارة كراهية الطبقة، واستغلال العداء الطبقي، بينما
الدعاية الفاشية أساسا دعاية وطنية وسلالية، وإن كانت الشيوعية تستخدم
القومية إذا خدمت أغراضها، شأنها في ذلك شأن الفاشية حينما تستغل كراهية
الطبقة في دعايتها.

ومن ثم، جاء الباب الثالث ليناقد عدة موضوعات رئيسية في الحرب
الثورية هي: «الدعاية والاثارة» ووظائفها، والطواع الشيوعية للدعاية
والسيطرة، وسبل الدعاية في الحرب، وأخيرا دور الحزب في الجبهة
العسكرية.

والحرب الثورية الشيوعية تستخدم أسلحة معينة - شأنها في ذلك شأن أي
حرب أخرى - ولكن أسلحتها تختلف عن أسلحة الحروب الأخرى، في
طبيعتها وفي أساليب استخدامها. ومن ثم كان لهذه الحرب ترسانة ضخمة من
الأسلحة الخاصة التي تحقق بها أهدافها.

وبالرغم من أن سلاح «الدعاية والاثارة» وما يتبعه من عمليات تثقيف
وتلقين يعد السلاح الرئيسي في الحرب الثورية، فإن هناك أسلحة عدة أخرى،
لا تقل أهمية عن هذا السلاح الذي خصصنا له الباب السابق مثل: استخدام
التجارة السوفيتية والهجوم الاقتصادي، والمظاهرات والاضرابات، والعمل
السري والمناورات في الأمم المتحدة. هذا بالإضافة الى سلاح فعال، يسمح
للشيوعيين بالمرونة والتوغل داخل الدولة الهدف، أعنى استخدام البوذية
بثابة حصان طروادة الذي يدفع الى قلب معسكر العدو.

وهكذا نجد أن تجارة السوفييت الخارجية تدار لا لغرض التجارة ذاتها
فقط كما يحدث في دول الغرب وقت السلم، بل تدار كوسيلة لتحقيق أهداف

سياسية .

وتعتمد الحرب الثورية هنا على أسلوب احتكار الدولة للتجارة الخارجية ، التي تتقرر سياستها ليس تبعاً لما تتطلبه احتياجات الشعب ، ولكن وفقاً لما تمليه سياسة الدولة .

ومن ثم لعبت الجاسوسية الصناعية في الحرب الثورية الشيوعية دوراً فعالاً ، في سبيل حصول السوفييت على المعرفة الصناعية . ولا تتوانى موسكو في استخدام وفود السوفييت الثقافية ووفود الزيارات ، في الحصول على المعلومات الفنية ، وتقوم بتزويد هذه الوفود بأفراد مدربين على التقاط كل شيء يتعلق بالصناعة ، أثناء زيارتهم المصانع والمؤسسات الخاصة بالدول المختلفة .

وفي مجال الحرب الثورية الشيوعية تستخدم وسائل الحرب الاقتصادية في ثلاث مجالات رئيسية : أولاً ، سياسة الاغراق وأي إغراق الأسواق بالسلع بأسعار منخفضة . وثانياً ، منع التجارة كنوع من الثأر أو حينما يكون الحرمان وسيلة لمعاونة الأحزاب الشيوعية ، وأخيراً تسهيلات القروض والتجارة والمعونة الفنية والتسليح ، للدول التي تنتهج سياسة موالية للأهداف الشيوعية ، أو التي قد ترقى في النهاية في أحضان الفلك السوفييتي .

إن المعونة السوفييتية الفنية ، تعد جزءاً من عملية التغلغل في البلاد النامية والمتخلفة ، وبناء النفوذ السياسي السوفييتي بها . ولا شك أن المعونة السوفييتية مجدولة بمهارة في الخطة السياسية للفرز الشيوعي ، ذلك أن بقاء الفنيين السوفييت في البلد المستهدف ، سوف يضمن استمرار فعالية النفوذ لمدى طويل .

ويجدر بالقارىء أن يتذكر دائماً أن أعمال الشغب والعنف جزء حيوي في خطة الحرب الثورية الشيوعية ، وهي أسلوب راسخ من أساليب الماركسية ، فقد تصور لينين المظاهرات الجماهيرية على أنها عملية تجريبية تختبر استجابات الجماهير ، وسلطة الحكومة القائمة .

على أن الشيء الغريب الذي يستحق الملاحظة هو استخدام الشيوعيين للأمم المتحدة كوسيط لا يبارى لعمليات حربهم الثورية . وبالرغم من أن الكرمليين عضو في الأمم المتحدة وبالرغم من أنه يؤثر

على القرارات التي تتخذها، فهو لا يسمح لها ولا للمؤسسات والمجالس التابعة لها- مثل اليونسكو- كي تعمل خلف الستار الحديدي. هذا بالإضافة إلى أن تكتيكات السوفييت في استخدام الأمم المتحدة، تتمتع بنفس المرونة والمدى اللذين يصاحبان تصور الجبهة الشيوعية.

وتزعم الشيوعية أنها تهدف إلى تحقيق مجتمع المساواة الإنسانية والأخوة في العالم -شأنها في ذلك شأن باقي الأديان- مع أنها في مثالياتها وقيمها الأخرى وفي تطبيقاتها، تتناقض كلية مع الأديان. فهي تنادي بدكتاتورية سياسية لطبقة معينة، ولا تتسامح مع أعدائها، وتسلب الإنسان حريته وكرامته. كما أنها تبرر في سلوكها كل الوسائل اللاإنسانية التي تستخدمها عملاً بقاعدة أن الغاية تبرر الوسيلة. هذا بالإضافة إلى أن حربها الثورية تهدف إلى تمزيق المجتمع غير الشيوعي، وتنمية السلطة الطفوانية وتدعيمها، وذلك بعد أن تكون قد قضت على المعايير الأخلاقية، وقوضت دعائم الدين، ودمرت المعنويات، وسلبت الحريات باسم ديموقراطية مزعومة زائفة.

لقد كان الاتحاد السوفييتي أول دولة أدركت قيمة الثقافة كسلاح فعال في الحرب الثورية، ولكن مع ذلك هناك تصور في النظرية الماركسية إزاء الثقافة والفكر، يكمن في تلك الفكرة التي تفصل الآراء السياسية لعالم أو أديب أو فنان أو مفكر، عن قيمته العلمية أو الأدبية أو الفنية أو الفكرية.

ويميز الجمود النظرية الماركسية وتسم بالتفرد، كما أنها تهيب بأتباعها ألا يسلموا بأي وجهة نظر أخرى تخالف آراءهم، ويقوموا بتدمير أي شكل يخالف أشكالهم، ويخيموا على عقول الناس بالقهر، كبتا يؤدي إلى تحطيم نفوسهم وأرواحهم.

ولقد لعب الكومينفورم منذ إنشائه، دوراً كبيراً في حملات التهجم على الغرب، مستخدماً أعداداً ضخمة من الدعاة، كما استهلك أموالاً طائلة في أنشطته. وكان من أبرز أنشطته في هذا المجال، تنديده بمشروع «مارشال» للانعاش الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية. فاذا ما صاحب ذلك نشاط اتحاد العمال الدولي في مجال الدعاية ضد هذا المشروع لاتضح لنا الدور الكبير الذي

يمكن للدعاية السوفييتية المنظمة أن تلعبه، كي تخلق ظروفًا من الفوضى والاضطراب، تعد بيئة خصبة لترعرع الشيوعية.

على أن هناك سلاحاً آخر، لا يقل أهمية عن الأسلحة الأخرى التي تستخدمها الحرب الثورية الشيوعية. وبالرغم من أن هذا السلاح يبدو للمراقب العادي وكأنه قليل الأهمية، فهو في الحق يلعب دوراً فعالاً في الحرب الثورية الشيوعية. هذا السلاح هو استخدام وفود الزيارات التي تصل إلى الاتحاد السوفييتي، لتحقيق أهداف سياسية. وعلى ما يكتنف هذه العملية من قصور وأخطاء، فضلاً عن الأموال الطائلة التي تنفقها موسكو على هذا النوع من النشاط، تبدو الفوائد التي يجنيها الشيوعيون من وراء هذه الزيارات شيئاً لا يمكن إغفاله.

وهكذا، قمنا بتخصيص الباب الرابع من هذا المؤلف لدراسة أهم الأسلحة والوسائل التي يستخدمها الشيوعيون في حربهم الثورية. ويجدر بنا هنا أن نتذكر أن موضوعات هذا الباب وحده تحتاج إلى مؤلف أو أكثر للدراسة، ومن ثم آثرنا أن نسلك سبيل الانتقاء للموضوعات، وأسلوب الإيجاز غير المخل خلال دراستنا لتلك المواضيع.

فإذا ما نحينا أسلحة الحرب الثورية، كي نتحدث عن أرض المعركة، أو بمعنى أدق الميادين أو الدول التي دارت على أرضها معارك هذه الحرب نجد أنفسنا أمام موضوع متشابك متشعب لا نهاية له. ولذا انتقينا ثلاثة نماذج مختلفة في قارات ثلاث: الأول نموذج الثورة الصينية، وكيف ارتقت حتى أمسكت بزمام السلطة، وما أعقب ذلك من أحداث، والثاني التجربة الكوبية ودول أمريكا اللاتينية، أما النموذج الثالث فيوضح الأنشطة الشيوعية في القارة الأفريقية.

إن هذه النماذج الثلاث تعطي لنا صورة كافية عن الأساليب والاستراتيجيات التي يستخدمها الشيوعيون في مناطق مختلفة، تقطنها شعوب متباينة في الجنس والتراث واللون والحضارة. إن الباب الخامس يجيب عن كثير من التساؤلات التي تدور عن هذه المسألة ويوضح الوسائل والأساليب التي يستخدمها الشيوعيون في غزوهم الدول خارج الستار الحديدي كما يبين إلى أي

مدى يمكن تطبيق هذه الاساليب في أماكن أخرى .
والحرب الثورية - كأى حرب أخرى - لها حرب مضادة، هي تماما كما يحدث فى الحرب العسكرية، سواء من ناحية اكتشاف نقط الضعف المعرضة للهجوم، أو من ناحية التخطيط وشن الهجوم المضاد .

وكما أن للحرب العسكرية أسلحة تستخدم فى معاركها الحربية، فإن للحرب الثورية الشيوعية المضادة أسلحة أيضاً، هي نفس اسلحة الحرب الثورية، التى قمنا بشرحها فى الأبواب السابقة .

وهكذا كان لا مفر من أن نختتم الكتاب - الذى وضعته كاملا فى السنتين الأخيرتين من سجنى الأول - بباب نتحدث فيه عن كيفية استغلال نقط الضعف المعرضة فى النظام الشيوعى لتخفيف وطأة الضغوط الشيوعية على الحرية، كذا وضع خطة دفاع مقترحة لمواجهة أى عدوان شيوعى .

على اني، أود أن أذكر القارئ أننى لم أعالج موضوعا هاما يدخل فى نطاق الحرب الثورية وهو غسيل المخ، وذلك لسببين: أولها أننا قمنا بمعالجة هذا الموضوع بالتفصيل فى الجزء الثانى من كتابنا الحرب النفسية - معركة المعتقد - وثانيها أنه لا يمكننا تغطية هذا الموضوع الحيوى مهما أوجزنا فى صفحات، ومن ثم خشينا أن يشط بنا الاسهاب فى مقال ليس له مقام .

كما أود التأكيد هنا على أن موقفى من القضية الشيوعية ليس مجديداً، فأنا - كرجل حرّ - أرى فى الشيوعية الدولية خطرا يهدد ديننا وحررتنا وقوميتنا، وإن كنت فى الوقت ذاته أو من بجرية أى عقيدة نابعة من وجدان الانسان، ما دامت لا تدفع به الى عجلة الظلم، أو تسلبه حريته وكرامته .

وبعد، فالله أسأل أن يجنب مصر والعالم العربى أى فكر زائف مستورد، وأهيب بكل مؤمن بربه مخلص لدينه ووطنه أن يجاهد بقدر ما يستطيع حتى لا تتعرض أمتنا لمثل ما عانت منه أمم تصيدها المغامرون وتناوشتها أسنتهم وسننهم وربى خير حافظ .

صلاح نصر

القاهرة فى ٢٣ يونيو ١٩٨٠

الباب الأول

آلة الصراع

صعب ان نسبر أغوار الحرب الثورية دون التعرض لتلك الآلة الضخمة التي تدير هذا الصراع، ودون ان نتعرف قواعدها الأساسية وحدودها ومجالاتها، ولقد كان علينا أن نقرب من أصحاب هذه الحرب، ونتبع كيف صمموا آلتهم - وهي هنا الحزب الشيوعي - كي تحقق أهداف هذه الحرب.

والواقع ان هذه الحرب تتسم بالتفرد في طابعها، ومن ثم انشئت لها ثلاث قواعد ذات عناصر رئيسية:

- (١) نظرية شاملة للتحويل وللأهداف المرسومة.
- (٢) تنظيم كفاء قادر على تحقيق هذه الاهداف.
- (٣) وسائل عملية تستخدم لتحقيق هذا الغرض.

والفصول الثلاثة الأولى من هذا الباب تفسر لنا التعريف والتصوير وتنظيم الحزب الشيوعي وطابعه، وتبين كيف صمم هذا الحزب ليناسب عمليات هذه الحرب.

الفصل الأول

لماذا حرب ثورية؟

اصطلاح حديث:

حين شرعت في وضع هذا الكتاب، وجدت من الضرورة أن أعرّض على مصطلح علمي دقيق يغطي عناصر الموضوعات التي يشملها هذا المؤلف، ولكنني حينما تعمقت في البحث اتضح لي أن هناك عشرات من التسميات استخدمها المؤلفون والكتاب المتخصصون كمرادفات في علم الاتصال الجماهيري. وبدأ لي أن سوء الفهم الذي نشأ خلال الربع قرن الماضي ازاء المدلول السليم لهذه المصطلحات المتعددة، وازاء مجالات استخداماتها، قد أدّى إلى تشوش كبير في المفهوم والتطبيق. لقد تباينت التفسيرات تبعاً لمدى المجال الذي يغطيه كل مصطلح، ووفقاً لمدى العلاقات بين هذه المجالات. كذلك لم أجد بين هذه المصطلحات تسمية تصلح لهذا الموضوع. ولذا رأيت أن البحث عن تسمية جديدة تعطي تعريفاً جديداً ودقيقاً قدر الامكان وقد هداني تفكيري في النهاية الى أن أطلق على هذا الموضوع «الحرب الثورية الشيوعية».

وكان لا مفر من أن نبين للقارئ الاصطلاحات التي استخدمت من قبل، وان نحدد مجالاتها، حتى نصل في النهاية إلى التعريف الجديد، ولكي نضع خطاً فاصلاً بين هذه التعريفات المتباينة، ونذكر حدود ومجال استخدامات كل منها، مبتدئين بأكثر الاصطلاحات شيوعاً وهو «الحرب النفسية».

الحرب النفسية اصطلاح امريكي:

هذا المصطلح امريكي الأصل، ولكن المؤلفين والكتاب بالرغم من استخدامهم الواسع له فقد اختلفوا اختلافاً بيّناً حول مدلول اللفظ. ومع أن هذا المصطلح أكثر التسميات شيوعاً فإنه ليس أكثرها شمولاً. فبعض الكتاب

يرى أن الحرب النفسية تشمل فقط تلك الأنشطة التي تدار وقت الحرب، أو حيناً تنشب أزمة دولية خطيرة. ويرى آخرون أنها تتضمن الأنشطة التي تصمم للتأثير على عقول مجموعات أجنبية معينة وعلى سلوكها، سواء في وقت السلم أو زمن الحرب. على أن بعض الأفراد يجدد الاصطلاح في صورة ضيقة ليتضمن فقط تلك الأعمال التي توصف بأنها من قبيل الدعاية التي تعاون العمليات العسكرية تعاوناً مباشراً، بينما يذهب البعض إلى مدى أوسع من هذا النشاط، مثل تلك الأعمال التي تهدف إلى تضليل مجموعات معينة أو خداعها بالنسبة لقدرات الجانب الآخر ورغباته ونواياه.

تعريف الحرب النفسية:

والواقع أن اصطلاح الحرب النفسية يحتاج إلى مدلول محدد، وقد ظهر أنه ليس ثمة اتفاق عام على تحديد دلالة أي اصطلاح يغطي أوجه النشاط في هذا الموضوع المتشعب. ونحن نسلم بادئ ذي بدء أن تحديد الاصطلاح ليس بالأمر الهين، ذلك أنه ينبغي قبل تحديد الاسم، أن يتم الاتفاق على معالم الأنشطة التي توصف بأنها «حرب نفسية».

ففي مارس من عام ١٩٥٥، وزعت إدارة الجيش الأمريكي كتيباً ميدانياً معدلاً، أدخلت فيه آخر الآراء الرسمية عن تصورات الجيش وعقيدته في الحرب النفسية، ويعرف هذا الكتيب الحرب النفسية على النحو التالي:

«الحرب النفسية هي الاستخدام المخطط للدعاية والأعمال الأخرى التي يكون غرضها الرئيس التأثير على الآراء والمشاعر والاتجاهات والسلوك لمجموعات معادية أو محايدة أو صديقة، بطريقة تساعد إنجاز الأهداف والأغراض القومية».

وينبغي على القارئ أن يلاحظ أن التعريف لم يقصد استخدام الحرب النفسية على زمن الحرب أو وقت إعلان الطوارئ، كما أنه يحتوي على

« الاستخدام المخطط.... لأعمال أخرى ».

وعالجت مسودة كتاب للبحرية الأمريكية الحرب النفسية على أساس ضيق
فقد جاء بها:

« إن المهمة الأساسية للحرب النفسية هي فرض ارادتنا على
ارادة العدو، كي نسيطر على أعماله، بوسائل غير عسكرية وغير
اقتصادية.

« والحرب النفسية في عملياتها ذات مدى قصير ومدى طويل.
فانشطتها ذات المدى القصير تتضمن دعاية استراتيجية، ودعاية
قتال، ونشر الأنباء، وخداع منظم مخطط للعدو، ودعاية خفية.
» اما الحرب النفسية طويلة المدى فتتكون بدرجة كبيرة من نشر
الأفكار بالوسائل المختلفة لمعاونة السياسة الخارجية لشعب ما،
كي ترفع من هيئته، وتكسبه التعاطف والدعم.»

التصورات العامة للحرب النفسية:

على أن الاصطلاحات لا تفسر معانيها فقط بواسطة الرسميين الحكوميين،
او من خلال مجموعات المعاجم ودوائر المعارف والكتب الرسمية، بل إن
الاصطلاحات الفنية غالبا ما تدخل في اطار افكار الكتاب ومذكرات
الشخصيات البارزة، ومن ثم يجدر بنا ان نتفهم التعريفات الاخرى التي قام
بوضعها غير الرسميين ووردت خارج نطاق الموسوعات المعروفة، وهنا نرى
جنرال مارك كلارك يقول:

« إن الاصطلاح العريض للحرب النفسية يتضمن أى اعمال قد
تجبر العدو على تحويل الرجال والمعدات من جبهة نشطة، او
تجبره على تقييد الرجال والأسلحة المعدة لدفاع ضد هجوم لن
يأتي قط. لقد كانت خدعتنا البرمائية عند « وونسان » مجرد
مناورة، إذ اجبرنا العدو على بذل قدر ضخم من الجهد، وعلى
تحريك عدد ضخم من الرجال وكثير من المهات، ليدعم دفاعات
شاطيء ليس لدينا أى نية للهجوم عليه.»

صعوبة التعريف:

ويمكن ان نقول إن صعوبة تعريف الحرب النفسية على المستوى العالمى ، يمكن ان تُحَسَّ من الاختلاف الكبير للمصطلحات التى تم تداولها لوصف الأزمات العالمية التى قامت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وفيما يلي مجموعة صغيرة من المصطلحات الشائعة:

- | | |
|---|---------------------------------|
| ١ - الحرب الباردة | ٩ - المعلومات الدولية |
| ٢ - حرب الآراء | ١٠ - المعلومات فيما وراء البحار |
| ٣ - الصراع فى سبيل عقول الرجال وإرادتهم | ١١ - حملة الصدق |
| ٤ - الحرب فى سبيل عقول الرجال | ١٢ - الدعاية |
| ٥ - حرب الافكار | ١٣ - الدعاية الدولية |
| ٦ - الحرب العقائدية | ١٤ - حرب الدعاية |
| ٧ - حرب الاعصاب | ١٥ - حرب الكلمات |
| ٨ - الحرب السياسية | ١٦ - العدوان غير المباشر . |
| | ١٧ - الإثارة |
| | ١٨ - الاتصال الدولى . |

واستخدمت بعض هذه المصطلحات كمرادفات للحرب النفسية بواسطة بعض الكتاب ، الذين عادلوا - على سبيل المثال - الدعاية بالحرب النفسية .

ولقد نشأت صعوبة اخرى ، نتيجة أن الاستخدام الرسمى المقبول لاصطلاح « الحرب النفسية » فى الولايات المتحدة تعرض لتطور وتوسع سريع خلال الخمس سنوات (١٩٤٨ - ١٩٥٣) ، بينا تعلق كثير من الاخصائيين - غير الحكوميين - بالتعريفات الضيقة ، ومن ثم اختلفت المعاني والتفسيرات من خبير لآخر .

وربما كان أفضل التعريفات للحرب النفسية العسكرية ، ما وصفه بول لينبارجر ، أحد رواد هذا الموضوع . ففى كتابه الشهير الحرب النفسية الذى طبع عام ١٩٤٨ ، واعد طبعته عام ١٩٥٤ ، عرف لينبارجر الحرب النفسية

في معناها الضيق بأنها: «استخدام الدعاية ضد عدو ما، بالاشتراك مع اجراءات عملية أخرى ذات طبيعة عسكرية، أو اقتصادية، أو سياسية، التي قد نحتاج إليها لاستكمال الدعاية» ثم يضيف قائلاً: «الاستخدام المخطط لأي شكل من اشكال الاتصالات يهدف إلى التأثير على عقول ومشاعر مجموعة معينة معادية أو محايدة أو صديقة، لتحقيق غرض استراتيجي أو تكتيكي خاص» (★)

وقرابة هذا الوقت، استعير اصطلاح «الحرب النفسية» من العسكريين بواسطة المدنيين الامريكيين، لاستخدامه وقت السلم في برنامج معلومات ضخمة فيما وراء البحار. ولأغراض التعريف، فإن الحرب النفسية بعد استخدامها بواسطة المدنيين، اخذت التعريف التالي:

«استخدام وسائل الاتصال الحديث بغرض الوصول إلى الجماهير المستمعة، كي تقنعهم بقبول معتقدات أو أفكار معينة».

ومع ذلك لم يمر وقت طويل، قبل أن تأخذ الحرب النفسية وصفاً أكثر فخامة. ففي المعنى الواسع، قام لينبارجر بتعريف الحرب النفسية بأنها: «تطبيق اجزاء من علم النفس ليدعم جهود العمليات السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية. وبدأ بعض الثقة أمثال لاسويل وباريت، يتحدثون عن الأسلحة الأربعة التي تستخدمها سياسة الولايات المتحدة الخارجية على أنها: الدبلوماسية والعسكرية والاقتصاد، والدعاية».

واخيراً أضفى على الحرب النفسية المعنى التالي: «الصراع في سبيل عقول الرجال واراوتهم

الحرب السياسية استخدام أفضل.

ومن ثم نجد أن مصطلح الحرب السياسية بالرغم من أنه مصطلح بريطاني

* Paul. M. A. Linebarger, psychological Warfare, 2nd , Combat Forces press, Washington. D. C, 1954, PP. 39 - 40

الأصل ، أطلقه البريطانيون على الأنشطة التي يضعها الأمريكيون تحت عنوان الحرب النفسية ، فقد يكون أنسب المصطلحات التي أطلقت على أنشطة الشيوعية الدولية في محاولتها غزو العالم . لقد اخذ الشيوعيون هذا المصطلح عن البريطانيين وطوّروه ليشمل مجالا اوسع ومفهوما أشمل وتطبيقا اعم . وفي خلال الحرب العالمية الثانية ، كانت اللجنة التنفيذية للحرب السياسية هي إحدى الوكالات البريطانية الرئيسية التي كانت تقوم بشن برنامج دعاية عدائي . ومع ذلك ينبغي على القارئ أن يضع في ذهنه ، أنه حتى هذا التصور غير دقيق بصفة عامة .

ويصف سير روبرت لوكهارت المدير العام للجنة التنفيذية للحرب السياسية البريطانية في الحرب العالمية الثانية الحرب السياسية بأنها :
« ملاءمة الدعاية لاحتياجات الحرب الشاملة... إن غرضها الرئيس تمهيد الطريق للقوات المسلحة وتسهيل واجبها » (★) .

ولا يختلف هذا التصور من أي جانب هام عن تعريف الحرب النفسية الذي جاء في الأعمال المقبولة للكتاب الأمريكيين امثال لينبارجر ، ليرنر ، لاسويل . ومع ذلك ، فإن هذا الرأي الضيق عن طبيعة الحرب السياسية لا يمثل بالضرورة العقيدة البريطانية ، بالرغم من المراكز الرفيعة التي شغلها السير روبرت لوكهارت في وكالات الدعاية والوكالات السياسية البريطانية .

على أن ثمة ورقة رسمية بريطانية تعطي اتجاهها مختلفا تماما عن تصور الحرب السياسية . ومتضمناتها ، إذ تقول هذه الورقة :

« يمكن تعريف الحرب السياسية كشكل من اشكال النزاع ، بين الدول ، حيث يقوم كل متخاصم بفرض إرادته على معارضييه بطرق غير استخدام القوة المسلحة . وللغراض العملية فإن السلاح الرئيس للحرب السياسية يمكن وصفه

* Sir Robert H Lockhart, Political Warfare, journal of the Royal United Service Institution, London, May 1950, PP. 193

بأنه عملية مشتركة من الدعاية والدبلوماسية « (★)

إن تصور الحرب السياسية الذي تبناه لوكهارت يميل بوضوح نحو استخدامها فقط في أزمدة النزاع المسلح، وعلى عكس ذلك، فإن البيان البريطاني الرسمي يقترح أنها شيء يستخدم على نطاق واسع، إن لم يكن شاملاً، وقت السلم أو الحرب الباردة.

ولقد وصل اصطلاح الحرب السياسية الأدب الأمريكي، ويمكن أن نجده في كتابات عدد من المؤلفين الأمريكيين. ومع ذلك فهناك اختلاف بين في وجهة النظر حول كيفية تعريف الاصطلاح.

ان لاديسلاس فاراجو الرجل الوحيد المسئول عن تعميم اصطلاح الحرب النفسية في الولايات المتحدة، يصف الحرب السياسية على أنها مترادفة للحرب النفسية.

يقول فاراجو:

«إن الحرب السياسية اصطلاح بريطاني. وفي الدول الأخرى يطلق على النشاط أسماء مختلفة... ففي الولايات المتحدة تسمى الحرب النفسية.

«إنها هذا الشكل من عمليات المخابرات التي تستخدم الأفكار للتأثير على السياسات. وهي تتعامل مع الآراء ومع اتصالاتها بالآخرين. إنها عملية «إقناع منظمة دون استخدام وسائل العنف، على عكس الحرب العسكرية حيث تفرض إرادة المنتصر على المهزوم بالعنف والتهديد به» (★★)

ولقد كتب جون سكوت وهو مؤلف أمريكي ومراسل اجنبي، كتابا بعنوان

* The Strategy of political Warfare, official statement, government of GB.

** Ladislav Farago, War of wits, the Anatomy of Espionage and Intelligence, Funk and Wagnelle Co New York, 1954, p 323.

« الحرب السياسية دليل لتعايش تنافسي ». وفي هذا العمل قام بتعريف الاصطلاح على انه يتضمن تلك الأنشطة التي اختارها ليطلق عليها الصفة « غير التقليدية » يقول سكوت:

« إن الغرض الأساسي من الحرب السياسية المدمرة هو إضعاف العدو، وإذا أمكن تدميره، وذلك باستخدام المناورات الدبلوماسية والضغط الاقتصادي، والمعلومات المضللة، والإثارة والإرهاب، والتخريب، والرعب، كذلك عن طريق عزل العدو عن أصدقائه ومعاونيه.

« إن الوسيلة الكبرى لشن حرب سياسية هي اتصال الأفكار » (★)

ولقد ميز كل من لاسويل، ولينبارجر الحرب السياسية بقولها انها اصطلاح أكثر من شامل، ذلك أن لينبارجر عرفها على النحو التالي:

« تتكون الحرب السياسية من تشكيل سياسة قومية بطريقة تساعد الدعاية أو العمليات العسكرية، سواء بالنسبة إلى العلاقات السياسية المباشرة للحكومات بين بعضها البعض، او في علاقتها بمجموعات الناس التي تمتلك طابعاً سياسياً » (★★)

وهناك اتجاه سائد سواء بين الكتاب أو بين الدوائر الرسمية التي تعمل في ميدان الحرب النفسية - يرى أن يفضل اصطلاح الحرب السياسية على الحرب النفسية إلا في تلك الحالات التي تخص التطبيقات العسكرية، وان كان البعض على تسمية هذه الحالات « الحرب النفسية العسكرية ».

غير أن الاتصال الجماهيري ليس قاصراً فقط على الكلمة المنطوقة او المطبوعة او الصور، بل إنه يستخدم ايضاً الوسائل الأخرى مثل الأفعال البدنية والإبتكارات الغنية إن الاغتيال ينطق على هذا النشاط، بينما لا يعد

* John Scott, Political Warfare, A Guide to compete the John Day Company New York, 1955, PP. 28 - 30.

** Paul. M. A. Linebarger, Psychological Warfare, 2 nd , Combat Forces press, Washington. D. C, 1954, PP. 39 - 40

القتل طريقة تقليدية للاتصال، بالرغم من أنه استخدم غالباً للتأثير على الاتجاهات السياسية*).

والواقع أن فكرة الحرب النفسية أقل شمولاً بنوع ما، من باقي الاصطلاحات التي ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً. إن التصور الأكثر شمولاً هو «اصطلاح» «الحرب السياسية» الذي يتضمن استخدام أكثر من وسائل الاتصال الجماهيري، أو استخدام الأسلحة كي تزيد من وطأة الضغط على إرادة المقاومة. فالحرب السياسية تضيف فكرة هامة، باستخدام كل أدوات السياسة التي لها علاقة متبادلة مع ادارة دفة الحرب.

فمثلاً يمكن استخدام الدبلوماسية للاحتفاظ بجياد العدو المحتمل، أو لفصل الحلفاء من العدو. كذلك يمكن استخدام الدبلوماسية للتعجيل بانتهاء الحرب، عن طريق اتخاذ إجراءات سرية مع العناصر الساخطة في دولة العدو. وبينما يوجه الاتصال الجماهيري إلى عدد ضخم من المستمعين، فإن الدبلوماسية تقوم على أساس المفاوضات الرسمية، حيث يتعامل ممثلون من قوى مختلفة مباشرة مع بعضهم البعض، وغالباً ما تكون الدبلوماسية فعالة، إذا ما صاحبت الحرب السياسية بطريقة سليمة

كما أن الحرب السياسية تتضمن استخدام الوسائل الاقتصادية بجانب الأدوات الأخرى، التي ذكرت من قبل فمثلاً لكي يحرم العدو من استخدام المعادن أو أي مصادر أخرى، يقوم الطرف الآخر، بشراء مخزونات منها من دول محايدة. ومن الأهمية بمكان أن تنسق الدعاية مع هذه العمليات كي يكتسب تعاون الرسميين الضمني في البلاد المحايدة الذين قد يتدخلون على عكس ذلك.

وعند الامعان في الحرب السياسية وادوات السياسة الأخرى التي لها علاقة بها، ينبغي أن نضع في اذهاننا أنها يمكن استخدامها وقت السلم ووقت الحرب على حد سواء. إن الاختلاف بين الحرب والسلم لا يمكن تحديده، دائماً بدقة، كما

* Lasswell D. Harold, Political and Psychological Warfare, A Psychological Warfare case book, the Jhon Hopkins University, Baltimore 18, MD. P. 22.

هو مشاهد في الحرب الباردة. ذلك أنه يمكن أن يقال إن الحرب قائمة، إذا ما نشبت أعمال عدوانية نشطة بين قوتين، أو إذا ما كان متوقعا استئناف الأعمال العدوانية في أي لحظة.

إن الادوات الرئيسة للسياسة في الحرب والسلم هي:

الدبلوماسية - الدعاية - الاقتصاد - الاسلحة

وفي وقت الحرب تكون للأسلحة أهمية بارزة وهي:

الحرب المسلحة - الحرب البدنية - الحرب النفسية - الحرب السياسية - حرب الدعاية - الحرب الاقتصادية.

إن الحرب والسلام نموذجان يدخلان في ادوات السياسة الشاملة في كل الاوقات.

الحرب الثورية أصلح المصطلحات

على ذلك النحو نرى إلى أي حد هي قاصرة تلك المصطلحات التي وقفنا عندها، فإن كل مصطلح منها ضيق المجال والاستخدام. ومن جانب آخر لا يغطي الوسائل أو المجالات للأنشطة التي يقوم بها الشيوعيون للوصول إلى مراكز السلطة ثم الاستيلاء على الحكومة وتدعيم حكمهم. كما أنه لا يتضمن تلك المبادئ الايديولوجية أو الوسائل الشاملة التي يستخدمها الشيوعيون لغزو العالم غير الشيوعي ونشر الشيوعية الدولية، ولا الطرق الثورية لتنفيذ ثورتهم العالمية.

اقترح بتعريف الحرب الثورية:

ومن ثم نقترح اصطلاحاً جديداً محوره الحرب الثورية، أو يكون كذلك فعلاً، وهنا يمكن أن نقول على سبيل الشرح أو التفصيل:

«ان الحرب الثورية هي تلك الأنشطة التي يمارسها الشيوعيون بهدف الاستيلاء على السلطة في دولة معينة وتدعيم حكمهم فيها، وتشمل تلك الجهود التي تهدف إلى نخر معنويات العدو وتقويض عقائده، وتدمير كيانه. وذلك باستخدام المناورات السياسية والضغط الاقتصادي

والمعلومات المضللة والإثارة والإرهاب، والتخريب.. الخ، على أن يتم ذلك في إطار الأيديولوجية شاملة، وأساليب ثورية محددة.»

وعلى أية حال، ومهما تكن التعريفات أو التسميات، فإن الحرب الثورية تستخدم لتقوية بعض المجموعات المتعارضة أو إضعاف الأخرى، أو لتنظيم القوى التي يمكن توجيه انشطتها إزاء غايات مرغوبة، أو لمعاونة مجموعات معينة في تحقيق الأهداف التي تتلاءم مع مصالحها، أو الوصول إلى مراكز السلطة والنفوذ، وأخيرا الاستيلاء على الحكومة. إن هذه الطرق تتدرج من مجرد اظهار التعاطف، إلى عمليات تمويل الحركات السياسية وتنظيمها وإعدادها، ومن مجرد صداقات شخصية بين الساسة إلى القيام بالتغلغل أو الاستيلاء على الوكالات السياسية الهامة في الدول المستهدفة، إلى إثارة حركات العصيان والحروب الأهلية.

ومن المؤكد أن غرض الحرب الثورية الأساسي، هو تغيير اتجاه المعارضة ونزع أسلحتها. فعلى المستوى التكتيكي تهدف الحرب الثورية إلى إثارة الأغراء بالرغبة في الاستسلام بين الشعوب المتعارضة. أما على المستوى الاستراتيجي فالحرب الثورية تسعى إلى نخر قلب الكيان المعنوي والسياسي والاقتصادي الكامل لشعب ما، وبخاصة فيما يتعلق بقرارات الحكومة.

وهكذا فإن الكتلة الشيوعية في شنها الحرب الثورية تشكل سياستها الشاملة بطريقة تمكنها من الحصول على نتائج السلطة السياسية من الصدمات الدعائية، وتجارب الفضاء، والضغط الاقتصادي، وفتح القوات العسكرية، أو حتى من القرارات السياسية للحكومات المتعارضة. على أن الحرب الثورية، كما مارسها الشيوعيون عملية أكثر من «اتصال جماهيري» وأكثر من استخدام أسلحتها في تقويض إرادة الخصم. ففي عرف الشيوعيين، فإن كل أدوات السياسة المطلوبة تستخدم كل ما له علاقة به وتدعمه.

كذلك تتكون الحرب الثورية من أنشطة الدبلوماسية والتجارة الخارجية والمعلومات، والنشاطات المدنية الأخرى حكومية أو غير حكومية، كذلك العمل العسكري.

ولا يمكن للمرء أن يتصور العلاقات بين أدوات الحرب الثورية المتعددة، ما لم يدرك أن استخدامها يرتبط بمبادئ أساسية معينة ففي المقام الاول، تتطلب الحرب الثورية موقفا ايدولوجيا ثابتا، وهذا حقيقي بالنسبة للرأسمالية والشيوعية على حد سواء . فالأيدولوجية السوفيتية تقوم على أساس فلسفة عمل متكاملة، والايديولوجية الرأسمالية تقوم أيضا على فلسفة عمل متكاملة، وكل منها تحتوي على إغراءات ومزايا، ويكمن في كل منها بذور شر ونقائص . ولكن الميزة في الفلسفة الشيوعية أنها تحاول أن تبلغ بالمذهب مستوى العقيدة الدينية عند الآخرين، إن لم تحاول تجاوزه .

لقد كانت العقيدة والإيمان والعمل الصالح عوامل هامة في كل الأديان، وفي تراث الانسانية، وما زالت حتى اليوم لها تأثيرها الفعال في صراعات المذاهب القائمة اليوم في السياسات الدولية .

إن الشيوعيين يرون أن أفكارهم مقنعة بينما قد يشك الفرد في بعض العناصر المعينة للعقيدة بين يوم وآخر مثل المسيحي الطائفي الذي قد يتساءل عن شيء معين من عقيدته دون ان يضع دينة محل جدال، أو المسلم الذي قد يجتار تفكيره في مسألة ما من أمور التفسير دون أن يحاول أن يمس دينه ككل، فإن الشيوعي يجد أن توليفة الماركسية اللينينية مقنعة . إن ذلك لا يجيء نتيجة أن التوليفة تثبت نجاحها، بل لأن الشيوعي بالضرورة يجب أن يؤمن بأنه ما دام لم يتمكن من الاحتفاظ بتكامل شخصيته، فإن عليه أن يؤمن بأسطورة الماركسية التي لم تبرهن على نجاحها بعد . وهناك من بين معتقداتهم هذا الرأي الذي يقول إن الامبريالية التي يصفونها بأنها آخر مراحل الرأسمالية سوف تكتشف تناقضاتها الداخلية، وتؤدي إلى انهيارها الذاتي، وإلى انتصار الاشتراكية . هذه هي رسالة الحزب الذي عليه أن يحملها إلى أولئك الذين يصغون أذانهم اليه، والذين قد يغرون ليصبحوا مريدين حقيقيين . إن عقيدة الشيوعي عن الامبريالية بمثابة غاية للبحث، وحيث انها تتطلب الاقناع، فلا بد من ابتكار وسيلة .

الفصل الثاني

التصور السوفيتي للحرب الثورية

سلاح تنظيمي أم سلاح كلمة

ربما كان التصور السوفيتي للحرب الثورية غامضا، ذلك أنها بالنسبة للشيوعيين سلاح تنظيمي أكثر من كونها سلاح كلمة. كما أنه ليس لديهم فاصل بين الكلمات والأفعال، ولا بين الحرب الثورية والحرب العسكرية.

وقد يقال إن الشيوعيين اكتشفوا بعض القوى الجديدة الغامضة للكلمة. ولكن ما اكتشف في الجملة ليس دقيقا، وقد تؤدي إلى مخاطر جمة.

وعلى الرغم من كل شيء، فإن المعلومات الكافية أصبحت ميسورة الآن، وهي قادرة على أن تزيل معظم الغشاوة عن التصور الشيوعي للحرب الثورية. والواقع أن بعض المناقشات القيمة حول الموضوع تيسرت منذ وقت طويل في أعمال كل من لينين وستالين⁽¹⁾ كذلك تيسرت أعمال السوفييتات العليا والتنظيمات الأخرى التي ناقشت هذه العمليات في كتيبات للمثبرين أو المهيجين، وفي مراجع المدارس الشيوعية، وفي كثير من الصحف التي تخدم الدعاية، وتقدم المادة للدعاة. كذلك أصبح في متناول اليد كثير من المؤلفات مثل كتاب فيليب

* See (a) Vladimir I. Linin, a training pamphlet, 1920.

(b) Vladimir I. Linin, Selected Works, International publishers Co, Inc, New York, 1935.

(c) Vladimir I. Linin, Collected Works, International publishers. Co. Inc, New York, 1927, 1 - 226.

(d) Joseph Stalin, problems of Leninism. Foreign language publishing House, Moscow, 1940, 211.

سيلزنيك عن استراتيجية النظرية البلشفية وتكتيكاتها ، ومؤلف ميرل فينسود المعنون باسم « كيف تحكم روسيا؟ » ، وكتاب والت هوايتان روستوف عن ديناميكية المجتمع السوفييتي ، ولقد صدرت هذه الكتب الثلاثة أوائل الخمسينات . كذلك ظهرت في هذه الفترة عدة مؤلفات أخرى مثل « الدستور العملي للمكتب السياسي « البوليتبيرو » الذي كتبه « ناثن ليتس » ونشرته شركة ماك جرو - هيل للكتب عام ١٩٥١ ، ومثل كتاب الكسندر انكلس الذي نشر عام ١٩٥٠ باسم « الرأي العام في الاتحاد السوفييتي » ، وكتاب لويس ميمزر المعنون باسم « هيئة الموظفين في الكرملين وجهاز اللجنة المركزية ، والحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي » . وبالإضافة إلى هذه المؤلفات ، فقد نشرت حتى الآن دراسات كثيرة عن الدعاية السوفييتية ، وطرق التسلسل والاستيلاء على السلطة ، كما ظهرت كميات وفيرة من المعلومات استقت من المرتدين ومن مصادر أخرى في المجال السوفييتي . وبالطبع فإنه أمام هذا القدر من المعلومات ، يصعب على المرء أن يجزم بأن التصور السوفييتي للحرب الثورية تصور غامض .

على أنه من المضلل أن نفكر في هذه العمليات السوفيتية في حدود الكلمة ، لأن الكلمة لا تقف وحدها في التخطيط السوفيتي . ومنذ البداية ذكر الزعماء للشيوعيين أن الكلمات وحدها ليست كافية ، وأنها ينبغي أن ترتبط بالأعمال ، وأن ينبثق الاثنان من تنظيم . إن الحقيقة العارية كما وضحها هارولد لاسويل^(١) وغيره ، هي أن الشيوعيين لا يقاتلون معركة في سبيل عقول الرجال مطلقا ، إلا إذا كانت هناك ضرورة لاكتساب عقول معينة في سبيل الحصول على المصادر المادية للسلطة التي يمكن بها التأثير بفعالية على عقول الجماهير .

ولذلك حينما نحاول وصف العمليات النفسية السوفيتية ، لا نتكلم كثيرا عن سلاح الكلمة بقدر ما نتحدث عن السلاح التنظيمي ، كما يحلو لفيليب

* Harold D.Lassarell, «The Strategy of Soviet propaganda», proceedings of the Academy of political Science, 1951, Reprinted in Wilbur Schramm, The process and Effects of Mass communications, University of Illinois Press, Urbana, 111, 1954, pp. 537 - 547.

سليزنيك أن يسميه. ذلك أنه إذا كان الشيوعيون قد اكتشفوا شيئاً جديداً، فإن هذا الشيء ليس قوة الكلمة، ولكن قوة حزب مقاتل صلب على درجة عالية من النظام، ومكرس لخدمة قضيته. وقد نخطئ إذا حاولنا تفسير هذا النوع من العمليات في حدود المفهوم الشائع في دول الغرب وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا عن الحرب النفسية. فوفقاً للمفهوم الأمريكي، يبدو المقاتلون النفسانيون مجموعة خاصة من الأفراد - عادة لا يكونون علماء نفسانيين ولا مقاتلين يقومون بالقاء الكلمات على العدو بينما يقوم المقاتلون الحقيقيون بواجباتهم المكلفون بها. في ميدان الصدام الدموي، ويرى البعض أن في قدرة هؤلاء القتال في الحرب الباردة بكفاءة، إلى الحد الذي يمكن فيه الاستغناء عن المقاتلين الحقيقيين.

ومن ثم لا ينبغي أن نحاول أن نفهم العمليات السوفييتية من بداية هذا المنطق، إذ أن التصور السوفييتي أكثر واقعية من ذلك وأشد تماسكاً. فالعقلية السوفييتية لا تحدد فاصلاً محددًا بين الكلمات والأفعال، أو بين الحرب الثورية والحرب العسكرية - إن هناك تصوراً آخر - هو عمل الحزب - مستخدماً الكلمات والأفعال في نماذج وتركيبات وفقاً للحاجة إليها، سواء في وقت الحرب أو السلم، وذلك لدفع صراع الطبقة. ومن ثم فإن الطريق إلى تفهم الحرب الثورية السوفييتية يجيء من خلال تفهم هذا الحزب المقاتل: تنظيمه، ومعتقداته، وجهة نظره العالمية، وأهدافه، وعقيدته التكتيكية... إلخ، كما سيأتي بالتفصيل في الفصول القادمة.

نموذج العمل

إن أول خطوة في النموذج الشيوعي، الحصول على العاملين، ثم تجنيدهم لبناء نواة لتنظيم مقاتل صلب على درجة عالية من النظام والطاعة. ويطلق لاسويل على هذه العملية «إنشاء النواة الأولى التي تعد أفراداً لقنوا تثقيفاً كاملاً ليكرسوا عملهم كله في سبيل القضية. إن هذا مذكور بعناية ودقة في وثائق الحزب. فمن بين موضوعات المؤتمر الثاني للشيوعية الدولية الذي عقد عام ١٩٢٠ نجد هذه القاعدة:

« إن القاعدة الأساسية لكل العمل التنظيمي للحزب الشيوعي وللأفراد الشيوعيين، إنشاء نواة شيوعية في كل مكان يجدون فيه بروليتاريا - أو شبه بروليتاريا - حتى ولو في اعداد صغيرة »

وكان لينين قد كتب قبل ذلك بثمانية عشر عام ما يلي:

« إن تدريب شبكة من العاملين على التوزيع السريع والسليم للمؤلفات والنشرات والبيانات... الخ، يكون قد انجز بذلك النصف الأكبر من عمل التحضيرات لمظاهرات نهائية، ثم القيام بالثورة. ويصبح الوقت متأخرا اذا ما بدأنا تنظيم عملية توزيع المؤلفات في لحظات الاضراب أو الاضطراب.

« بل ينبغي أن نحاول ان نصل بالآلة الى درجة الكمال، بحيث يمكن توجيه النصح إلى كل الطبقة العاملة من السكان، واتمام التعبئة في ليلة واحدة »

وتكمن المشكلة في هذه المرحلة في اكتساب أتباع، وتحويلهم من مجرد أتباع يعطون قبولا جزئيا، إلى عاملين يمكن ان يقوموا باعطاء الموافقة الشاملة المطلوبة. ولهذا، فان الدعاية التي توجه إلى هذا الغرض ينبغي أن تتضمن محتوى عقائديا رفيعا، وأن يكون هناك اعتماد كبير على تدريب الحزب.

تنظيم الصفوة الطليعية

ووفقا للتعليم الذي يجري في كلية لينين، فإن هدف موسكو من شن الحرب الثورية في الدول غير الشيوعية، هو أن الصفوة الطليعية ينبغي أن تكون قادرة على العمل في كل القطاعات الاجتماعية. ولا تكمن مهمة الحزب في أن يكون قوة حافزة للجماهير فحسب، بل عليه أن يقرر الاتجاه الذي ينبغي أن تسير الجماهير نحوه.

إن إنشاء حزب شيوعي يتطلب أولاً جمع العناصر النشطة من بين المثقفين الساخطين الخائبين في حياتهم، ثم تلقينهم الأهداف البعيدة المدى للماركسية - اللينينية - وما ان يتم تثقيفهم وتدريبهم، حتى يصبح من الممكن تنظيمهم في صفوة طليعية تستخدم للاستيلاء على السلطة. وعلى عكس الأحزاب البرلمانية التقليدية التي تنظم أعضائها على أساس المناطق الجغرافية فقط، يقوم الحزب

الشيوعي بتنظيم افراده على أساس محل العمل ، في المصنع والمناجم والكلليات والجامعات والمكاتب الحكومية .

وتنشد خلايا « محل العمل » تنظيم المستخدمين تحت لواء النفوذ الشيوعي ، إذا لم يكن تم تنظيمهم ، أو الاستيلاء على تنظيمات المستخدمين واستالتهم من الداخل اذا لم يكن تم تشكيلهم . إن مهمة مثل هذه الوحدات التي نطلق عليها بتعبير الحزب ، « النويات » كما جاء سلفا ، هي أن تجعلهم يألفون تماما مكان العمل والتكنولوجيا المستخدمة به ، والأفراد الذين يعملون فيه ، كذلك عليها ان تجعلهم يستغلون كل ساخط تقع أعينهم عليه . ثم دفعها أخيراً الى الاستمرار في عمليات الخلق . وإذا كان المكان له أهمية استراتيجية ، فإنها تخطط لعرقلة أعماله من خلال الاضرابات وأعمال التخريب . وترسل المعلومات المتعلقة بمكان العمل إلى الحزب المحلي ، فإذا ما كانت لها قيمة جوهرية ، تحول إلى موسكو .

وكقاعدة عامة ، فإن عضوية هذا النوع من الوحدات تكون سرية وبخاصة في المكان الاستراتيجي ، وتضل الوحدة صغيرة الحجم . فاذا ما تمت عضوية الحزب في مصنع أو مشروع كبير ، تجزأ الخلية أو النواة وفقا للاقسام الجزأة أو الادوات . فاذا ما تمت عضوية الحزب في مصنع أو مشروع كبير ، تجزأ الخلية أو النواة ، وفقا للاقسام الجزأة أو الادوات . واذا ما ظلت كبيرة الحجم ، فإنها قد تجزأ مرة أخرى ، ثم تنطق من خلال لجان سرية . ذلك أن الخلايا الصغيرة هي صمام الأمن ضد تغلغل العناصر المعادية .

دور النواة في الحرب الثورية .

ان « النواة » او « الفرع الصناعي » يلعب في الحرب الثورية الدور الذي تلعبه المشاة في الحرب التقليدية ، أعني أنها تقوم بعملية الاختراق واحتلال الارض ، وهكذا فإن الحرب الثورية سواء كانت بعيدة المدى أو قصيرة ، تهدف إلى إضعاف أيولوجية العدو ، وتدمير مقاومته ، وهي تسد بعامة طريق الزحف . وبدون النواة لا يمكن استغلال غلالات الدعاية والإشارة ، شأنها في ذلك شأن المشاة في الحرب العسكرية ، التي تستولي على الأرض التي دكتها نيران المدفعية .

تنظيمات الجبهة والتنظيمات الأسيرة

وتقوم تنظيمات الجبهة والتنظيمات الأسيرة بتقديم معونة جانبية إلى أنشطة كل «نواة». وتنظيم الجبهة اداة تقوم بتنظيم المتعاطفين مع الشيوعية ورفاق الطريق حول اهداف معينة محددة. وفي مخطط التنظيم الذي يدرس في مدرسة لينين، تخدم الجبهات كنقط مساعدة لكل نواة، من نويات الحزب،، إذ أن نويات الحزب هي الوحدات الهجومية الرئيسة لتنظيم الحزب الشيوعى، أما تنظيمات الجبهة فهى وحدات فرعية.

وتعد «العصبة» وحدة الهجوم الأساس الثانية، وهى وحدة تتكون من أعضاء حزبيين داخل تنظيم غير حزبي، بغض النظر عما إذا كان هذا التنظيم غير الحزبي صديقا أم معاديا. والشيوعى قد يكون عضوا فى أربع تنظيمات أو أكثر، وهكذا يتبع أربع عصب أو أكثر في وقت واحد. وحتى العصبة، فإنها قد تشكل داخل جبهة من جبهات الحزب كجهاز رقابة للحزب.

على أن «عصبة» الحزب التى تعمل فى تنظيم غير شيوعى معاد أو محتمل أن يصبح معاديا، تعارض أى تحركات قد تبدو معادية لأهداف الحزب الشيوعى. وهدفها البعيد هو تحقيق السيطرة على التنظيم الذى تعمل بداخله، ولهذا الغرض، تنشُد - بواسطة المتعاطفين والعناصر الساخطة - غرس الموالين للشيوعية فى المصالح الحكومية. وفى التنظيمات المعادية تعمل العصبة فى سرية تامة، فى حين أن ما تستطيع أن تقوم به علانية هو قيامها بتشكيل لجان جبهة أو جماعات تتبنى الدفاع عن اهداف تقدمية او اصلاحية. وفى حالة اتحادات العمال، فإن أعضاء الحزب ذاتهم الذين يشكلون «نويات» أو «أفرع اقتصادية» هم أيضا أعضاء فى عصبة الاتحاد. وحينما يجتمعون كعصبة، فإنهم يشغلون انفسهم بأهداف محددة نسبيا للاتحاد وبمشاكل سيطرة الحزب عليه. وحينما يجتمعون كأعضاء فى نواة الحزب، تصبح أنشطة الحزب الشيوعى محل تركيزهم واهتمامهم الاول.

ويخدم نظام «العصبة» كوسيط لتنسيق الحزب داخل تنظيم وطنى غير شيوعى أو مضاد للشيوعية. ولهذا الغرض يعين «عصبة» قائدة بواسطة المكتب

السياسي لتقود الحزب الشيوعي المعين، وتتكون من أقدر أعضاء الحزب داخل التنظيم الذي تم الاستيلاء عليه. فإذا كان التنظيم الوطني قد تم للشيوعيين السيطرة عليه، فإن أعضاءه الوطنيين الذين كانوا أعضاء في الحزب، ينضمون إلى «العصبة» القائمة. وفي كل عصبة أدنى لجنة وسكرتارية، تنتخب هيئتها، وتخضع لتصديق لجنة الحزب العليا المناظرة لها. ويتم التنسيق خلال لجان وسكرتاريات تبدأ من «العصبة القائمة» أي تلك الموجودة في القمة، إلى تلك الموجودة في المستويات الأدنى. ويخضع الجميع لتوجيه «المكتب السياسي للحزب الشيوعي»

على أن كل الأنشطة الشيوعية في اتحادات الجبهة الموجودة داخل دولة ما، أو على المستوى الدولي، يتم تنسيقها من خلال لجنة متخصصة في هذا الشأن، وينطبق الشيء ذاته على تنظيمات الشباب والنساء والمجاهدين.

إن نظامي «النواة» و «العصبة» صمما على أساس إرشاد الجماهير واستالتها. كما أن أعمالها الداخلية تكون سرية أو شبه سرية، وكلما كان المناخ الذي تعمل فيه أكثر عداءاً للشيوعية كانت وسائل عملها أكثر سرية وأكثر مهارة في التمويه.

وتعد النويات التي انشئت في القوات المسلحة ومكاتب الحكومة الاستراتيجية والسلطة والمخابرات ووكالات المخابرات المضادة، أكثر النويات، ويكون هذا النوع من الوحدات التنظيمية صغيراً للغاية، ولا يتصل إلا عن طريق الجهاز السري للحزب. ومن خلال هذا الطريق تتصل بمخابرات موسكو ووكالات المخابرات المضادة ويجند كثير من عملاء المخابرات السوفيت خارج الستار الحديدي من داخل هذه الوحدات. ويطلق على هذه الوحدات اسم «وحدات هاجعة» Sleeping Units أعني أنه لا يناط بها كثير من النشاطات السياسية حتى يصبح الوقت ملائماً، ويجيء هذا الوقت المناسب حينما تصاب الدولة المعنية بهزيمة عسكرية كبرى أو تواجه أزمة سياسية أو اقتصادية، أو حينما ترتبط الحكومة بوشائج الصداقة مع الكرملين. وفي مثل هذه الحالات، فإن الوحدات الهاجعة السرية تظهر على السطح في الحياة السياسية ولكن بحذر،

كي تعاون في أرجحة سياسة الحكومة في اتجاه مصلحة موسكو، أو تعاون على انحلال الأداة الحكومية، أو الخط من هيبته ومعنوياتها.

وقد تقف النويات مناصرة للحزب الموجود في السلطة، ثم تجد كي تنظم مستخدمي الحكومة في الاتحاد الذي قد يسيطر عليه الشيوعيون، أو تنشأ اختراق مؤسسات الحكومة الوظيفية. كذلك قد تنمى تنظيم حزبها المرتقب، بتشكيل مجموعات «دراسة» وصدقة.

إن هذه الوحدات حتى خلال فترة «هجومها» لها قيمة عظيمة للحزب الشيوعي إذ تضعه دائماً في الصورة عما يجري داخل الحكومة. ذلك أنها تعمل عيوننا وأذاننا لحزب موسكو، أعني أنها جهاز مخبرات الحزب. وحينما يجيء الوقت المناسب، يمكن استخدامها للتأثير على سياسة الحكومة أو تحويلها أو تخريبها. وبايجاز، فإن هذه الوحدات الخاصة ليست وحدات مخبرات فحسب، ولكنها أيضاً أسلحة سياسية.

المناوره

وما إن يتم انشاء «النويات» حتى يبدأ الحزب الشيوعي بالمناوره، فيقوم بالعمل من الداخل، وتصبح اهدافه حينئذ المراكز العصبية للمجتمع - الصناعات الهامة، الأحزاب، التنظيمات الأخرى التي تحقق الاحتياجات الدائمة.

وقد أدى التوجيه الماركسي للبلاشفة الى التركيز على الطبقة العاملة. وفي هذا المجال يقول لينين:

«ينبغي أن نكون قادرين على الصمود أمام هذا كله، وان نقبل أي تضحية - وحتى اذا تطلب الامر - علينا أن نلجأ إلى استخدام جميع انواع الاستراتيجيات والخداع، والطرق غير المشروعة، والمراوغات والحجج، فقط لكي نندس في اتحادات العمال، ونظل بداخلها، كي نقوم بالأعمال الشيوعية داخلها باي ثمن.» (*)

* Vladimir I. Lenin, a Training Pamphlet, 1920.

على أن لينين حينما ذكر «الاتحادات» ولم يذكر الجماهير العاملة إنما أعطى انعكاسا ميمزا لنوايا البلاشفة في تعبئة التنظيم القائم. وعلى ما جاء في مؤتمر الدولية الثانية: «فان الشيوعيين لا يحشون تنظييات العمال الكبيرة التي لا تتبع أي حزب، حتى لو كانت ذات طابع رجعي متأصل، ويقوم الحزب الشيوعي بعمله داخل مثل هذه التنظييات، ويلقن العمال بلا كلل».

وما إن تحرك مركز الشيوعية من حدود أوروبا، تجاه آسيا والبلاد الأخرى الأقل تقدما في الصناعة، حتى تحولت جهود التنظيم والاستيلاء على السلطة نحو مجموعات أخرى مثل العمال الزراعيين. ففي الصين على سبيل المثال، كانت المزارع مركز ثقل أكبر للحركة الشيوعية، من الميدان الصناعي. ولكن الأخير كان يمثل المصادر المتيسرة للتوتر الجماهيري والقوى الكامنة، ومن ثم كانت أول مناورة - كالعادة - هي بناء القوة داخل هذه المجموعات القائمة.

وما إن يتسلل عمال الحزب الى هذه المراكز العصبية... من المجتمع، حتى تبدأ المناورة في مجال الحكومة ذاتها. ويصبحون حينئذ أقوىاء بدرجة تمكنهم من العمل كحزاب واتحادات... الخ، ويقومون بعقد تحالفات مع قوى المجموعات الأخرى. ولقد قال ستالين:

«إن الذين لا يعتمدون على أنفسهم هم فقط الذين يحشون الدخول في تحالفات مؤقتة مع الشعوب التي لا يعول عليها؟. ولكن ستالين والزعماء الآخرين حذروا الحزب من الاستخدام غير السليم للتحالف. إذ يجب أن نضع في الأذهان أن الحليف المؤقت هو عدو المستقبل. وكما يقول لبيتس: «فإن الحزب الذي يدخل في أي علاقات أخرى غير النزاع السافر مع مجموعة خارجية، ينبغي عليه أن يستخدم هذه المجموعة، وإلا فإنها ستستخدمه. ذلك انه يجب أن يكون التحالف مؤقتا فقط لمعاونة المجموعات الخارجية. ومن ثم، فإن مثل هذه التحالفات بمثابة علاقات عابرة، يدخلها الشيوعيون بحذر وانتباه، وتستخدم كخطوات في سبيل القضية الكبرى».

فإذا ما طبقنا ذلك على المسرح العالمي، نجد أن هذه المرحلة قامت، حينما ارتبط الاتحاد السوفييتي بتحالف مع الولايات المتحدة وقوى الغرب، ضد ألمانيا

في الحرب العالمية الثانية، ولكنه سلك معهم مسلكا مشوبا بالشك والحذر، ثم نبذ حلفاءه بمجرد أن أتم التحالف مهمته. وخلال هذه الفترة، كانت مهمة الدعاية أن تغرس بين حلفائها القائمين واعدائها المحتملين الشعور بالرضى ازاء الحزب، وأن تحول الانتباه إلى العدو المشترك، وان تشجع على التفكك والبلبلة بين قوى المجموعات الاخرى.

ويعد التشجيع على النزاع بين الأعداء المحتملين مرحلة متأخرة من مراحل المناورة السياسية خلال التحالفات. ولقد قال لينين: «يجب أن نعرف كيف نستفيد من الخصومات والتناقضات القائمة بين الامبرياليين. فإذا لم تتبع هذه القاعدة، لكان كل واحد منا قد شق نفسه منذ زمن طويل على شجرة من الحور». إن هذا ينطبق تماما ليس على المناورة داخل دولة ما فحسب، بل ينطبق أيضا على المناورة على المسرح الدولي.

ولنقتبس مرة أخرى من لينين قوله: «إن الجزء العملي للسياسة الشيوعية هو... ان تحرض قوة عدو ما ضد اخرى». ويكون الهدف هو تحديد المرحلة للعمل النهائي في المسرحية، أي استيلاء الحزب على السلطة».

وفي النزاع بين قوتين، يحاول الحزب التدخل متأخرا في النزاع وبشكل حاسم. وقد كان ذلك واضحا في سياسة السوفييت ازاء دخولها الحرب ضد اليابان. في ذلك الصراع قال ستالين: «إن الحزب ينبغي ألا يقف مكتوف اليدين. ينبغي علينا أن نخرج، ولكن بعد خروج الآخرين. ويجب أن نخرج بغرض القاء ثقل فعال في ميزان المصير».

إن الحزب ينبغي دائما أن يكون مستعدا للانتفاع بمثل هذه الأزمات، ذلك أنه في مثل هذه الفترات تسنح فرصة كبرى للتقدم. وهكذا، وعلى سبيل المثال، كان الحزب مستعدا حينما انهار شيانج كاي شيك، وحينما سقطت المانيا. ويرى «لييتس»: إنه لو كانت روسيا قد استطاعت أن تطور أسلحة نووية قبل الولايات المتحدة، لكان الحزب الشيوعي على استعداد لتقدم سريع آخر». والواقع أن هذا هو الهدف من تنظيم الحزب وتدريبه، كي يكون على استعداد - بالاساليب الثابتة، والنظام الراسخ، والهدف الواضح المدرك -

لاستغلال كل فرصة صغيرة أو كبيرة.

وفي المرحلة الأخيرة من نموذج السير، حينما يصبح الحزب قويا بدرجة كافية، كي يصفى تحالفاته المؤقتة، ويمسك بالسلطة، فإن واجب الدعاية يكون حينئذ تقويض معنويات العدو، وتدعيم الثقة في الحزب وحينما يكتسب الحزب السلطة والقوة، يقوم بالمحافظة على التوجيه السليم للجماهير.

الكلمات والأفعال

عرف ستالين القيادة السياسية: بأنها: «القدرة على إقناع الجماهير بسلامة سياسة الحزب». كما قال أيضاً: «إذا ما عرجت دعاية حزبنا لسبب أو آخر، فإن دولتنا كلها وعمل الحزب لا مفر من أن يذويا».

وقال لينين: «إن للدعاية أهمية متشابكة في تحقيق النصر النهائي للحزب». ولكنه أضاف في وقت آخر قوله: «لقد نجحت دكتاتورية البروليتاريا، لأنها عرفت كيف تشرك القهر بالاقناع: إن الكلمات وحدها ليست كافية».

لقد لمز لينين وستالين أعضاء الحزب الذين اعتمدوا على التأثير الذاتي للعنف الشفهي. وعلى سبيل المثال قال ستالين عام ١٩٣١: «إنني أعرف عدداً من المنفذين حينما كانوا يجاربون القصور في تحمل المسؤولية الفردية، كانوا يمحرون أنفسهم بالحديث في الاجتماعات هنا وهناك، يقذفون السباب للقصور في تحمل المسؤولية الفردية».

لم يكن هذا قط هو سبيل البلاشفة المتعارف عليه. لقد بين الزعماء في ظروف مختلفة، أنه لن يستطيع حتى ملايين من الرجال أن يحرزوا النصر وحدهم. ويقول لينين: «طالما كانت المسألة - كما أنها ما زالت - الظفر بطليعة البروليتاريا للشيعوية، فإن الدعاية إلى هذا الحد تحتل المكان الأول، حتى أن الدوائر الدعائية بكل نقائصها مفيدة في ظل هذه الظروف، وتنتج نتائج مثمرة. ولكن حينما تصبح المسألة هي الإجراء العملي للجماهير، وتنظيمها، وانحياز كل قوى الطبقة في المجتمع المعين للمعركة الحاسمة النهائية، فإن عادة

الدعاية في مجرد تكرار صواب الشيوعية الخالصة تعد عبثاً باطلاً. *
إن وظيفة الدعاية حينئذ، هي إقناع الطليعة، ولكن واجب مناورة
الجمهير خلال المعركة ضد الرأسمالية ليست مهمة رجال الدعاية وحدهم.

وفي كلمات أخرى، تمثل الدعاية والإثارة والتنظيم سلسلة متكاملة داخل
الحرب الثورية السوفيتية. وبالطبع فإن الدعاية تعتمد على أساليب وسائل
الإتصال. ولا تتضمن الإثارة الإتصال والقدوة فحسب بل تتضمن أيضاً
التغلغل المنظم بواسطة الكوادر التي تم تثقيفها. إن هذا التصور كما وضحه
« سيلزنيك » جيداً، يقبع في ظل استمرار الدعاية والتنظيم والإثارة.

لقد قال لينين: « ينبغي على كل نواة، وعلى كل لجنة حزبية، أن تكون
قاعدة تعاون العمل الإثاري والدعائي والتنظيمي بين الجماهير، واعنى أنه يجب
أن تذهب أينما تذهب الجماهير وتحاول أن توجه وجدانهم نحو الإشتراكية عند كل
خطوة، وينبغي عليها أن تقرن كل مسألة خاصة بواجبات البروليتاريا، كما
يجب عليها أن تستخدم كل محاولة تنظيمية لدفع قضية تدعيم الطبقة، وبواسطة
نشاطها وتأثيرها المعنوي تحصل على الصدارة في كل تنظيم بروليتاري
شرعي (**)

ويعد بلخانوف أول كاتب ميز بين الإثارة والدعاية فرجل الدعاية كما يقول
يعرض أفكاراً كثيرة لشعب واحد أو شعوب قليلة، بينما المثير يعرض فقط فكرة
واحدة أو أفكاراً قليلة، ولكن لجمهور من الناس.

وللتعليق على هذا التمييز، نقتبس مما ذكره لينين إذ يقول: « إن المثير
سوف يثبت انتباهه على الظلم الصارخ. المتغلغل نتيجة التناقضات المتوارثة
الرأسمالية، ومن هذه الخلفية، سوف يحاول أن يثير سخط الجماهير وعدم رضائهم
ضد الظلم الصارخ، تاركاً لرجل الدعاية مسؤولية إعطاء شرح كامل لهذا

* Philip Selznick, The Organizational Weapon, A Study of Bolshovik Strategy and
Tactics, Mc Graw Hill Book comp Inc, New York, 1952, p. 9

** J. Peters, The Communist Party - A manual on organization Workers library,
New York, 1935, p. 02.

التناقض. هذا هو السبب في أنَّ رجل الدعاية يعمل أساساً من خلال الكلمة المكتوبة، بينما يعمل المثير من خلال الكلمة الشفهية.»

وهكذا، ليس هناك في التفكير الشيوعي فاصل محدد بين رجل الدعاية والمثير، فكلاهما مطلوب في معركة الحزب، كما أن الكلمات والأفعال تناسب كل منها أنشطة الحزب التنظيمية.

التنظيم للقتال

ليس لنا بالضرورة أن نصف هنا التركيب الشامل للحزب، فسوف نناقش ذلك بالتفصيل في الفصل القادم، ولكن قد يكون من المرغوب فيه أن نوضح العلاقة بين الدعاية والإثارة وباقي التركيب كظاهرة خاصة في الاستخدام الشيوعي.

إن أول نقطة يجب أن نوضحها، هي أن السيطرة على هذه الأنشطة تتم في أعلى نقطة من السلم الهرمي للحزب، فإدارة الدعاية والإثارة هي واحدة من عدة إدارات إدارية للجنة المركزية للحزب. ولسنوات طويلة مضت كان اندريه زدانوف أحد أعضاء المكتب السياسي، مسؤولاً عن هذه الإدارة، وخدم لفترة كرئيس لها، ثم خلفه آخر لم يكن من مستواه في الحزب، ولكن الإدارة استمرت محتفظة بسلطاتها الواسعة.

وكما بين انكليس Inkeles فإن هذه السلطة مست كل دائرة من دوائر الجهود الفكرية وكل شكل من الأنشطة المنظمة التي تُصوّر على أنها تؤثر على الرأي العام. ولا تقوم الإدارة بوضع سياسات دعائية أساسية، لأن هذا من مسؤولية اللجنة المركزية ذاتها.

كما أن هذه الإدارة لا تدير في الواقع برنامج الدعاية والإثارة، والأنشطة المتعلقة به إذ أن مسؤولية البرنامج اليومي للعمل تقوم به الوكالات الحكومية، ولكن الإدارة تقوم بجمع المعلومات الأساسية وتحليلها، كي تضع اللجنة المركزية على أساسها قراراتها المتعلقة بمسائل السياسات النفسية. وتقوم الإدارة بعد ذلك بتغيير هذه القرارات ونشرها ومن خلال وحداتها المرؤوسة والمقابلة لها في الحزب بالاقليم والمراكز والادارات المحلية وسكرتاريات إدارة الدعاية والإثارة -

تقوم بالتأكد من أن الآلة بأجمعها تسير بكفاءة.

ويمكن ان يوصف نشاط الحزب في هذا الميدان عن طريق توضيح الوحدات المرؤوسة داخل الإدارة الرئيسة «الدعاية والاثارة». فهناك قسم مسؤول عن تعليم أعضاء الحزب والمثقفين غير الحزبيين العقيدة الشيوعية وتجاربها. كذلك هناك قسم «للإثارة» مسؤول عن التعليم السياسى للجماهير، وتعبئة السكان كي يعملوا وفقاً لارادة الحزب، ويقوم قسم صحافة مركزى بالإشراف على صحافة موسكو على المستوى الوطنى، وهو يجمع رؤساء التحرير لتلقينهم ونقدهم، كما يفحص الانتاج. ويصدر قسم الصحافة المحلى توجيهات لسبعة آلاف صحيفة، ويعقد مؤتمرات اقليمية لرؤساء التحرير، ثم يجرى فحصاً للمادة المنشورة. وهناك قسم آخر يقوم بوظيفة مشابهة للمطبوعات الصناعية السوفييتية، التى ربما تكون اكثر المطبوعات انتشارا فى العالم. وبالرغم أن السينما والاذاعة تديرهما مباشرة وكالات الحكومة، فإن إدارة «الدعاية والاثارة» تشمل أقسام السينما والاذاعة لتوجيه نشاطها ومراقبتها. وهناك قسم آخر يختص بمضمون المطبوعات. وبالإضافة إلى ذلك هناك قسم آخر يمارس إشرافا مباشرا على المسائل الفنية - المسرح والموسيقى والرسم. الخ. ويشرف قسم علمى على التثقيف واستخدام الأفراد العلميين، كما يقوم قسم آخر بشرح سياسات الكرملين، ويراقب الانضباط والنظام ويقوم بجمع معلومات عن المشاكل التى تحتاج لتوجيهات جديدة. واخيرا هناك قسم التنوير الثقافى الذى يوجه أنشطة اكثر من ثمانية آلاف ناد، ومراكز اتحادات العمال، وغرف قراءة، ومراكز ثقافة من خلال السوفييتات.

إن هذا التركيب كيان متكامل من زاويتين: أولاً، أنه تركيب غير عادى بالنسبة للعناية الفائقة التى توجه كى تضبط تعقدات الأنشطة المختلفة للفنانين، والكتاب، والممثلين، والمدرسين، والعلماء، ورؤساء التحرير، والمثيرين، فى وتيرة واحدة تلائم إرادة زعماء القمة فى الحزب الشيوعى السوفييتى. وهو من زاوية أخرى، كيان متكامل ايضا، فيما يطلق عليه البعض «البرنامج الشامل»، أعني أن حياة المواطن كلها تصبح غرض البرنامج. وتقوم المدارس من المرحلة الابتدائية فصاعدا بالزنى فى آذان المواطن بخط الحزب. أما الصحف فكما قال

لينين: «إنه لا يتوقع منها أن تكون مجرد سيل دعاية أو إثارة جماعية، بل ينبغي أن تكون أيضا بمثابة «منظمين جماعيين» وينبغي أن يقوم العلم والموسيقى والفن والإعلام والادب كما قال زدانوف، بتفسير إرادة الحزب. ويجب أن يكون المثيرون والمراقبون موجودين في كل الاوقات. وفي ضوء كلمات ديميتروف ينبغي أن يعارضوا بلا هوادة أى انحرافات عن خط الحزب». إن هذه المؤثرات تصاحب المواطن في بيته وفي وقت فراغه. إنها توجه إلى فكره وسلوكه الكامل. ويصبح هدفها كما يقول «دوميناش»: «خلق الرجل السوفييتي الجديد... شخصية واهنة تابعة ممسوكة في شبكة محكمة من التأثيرات المتقاربة.» (★)

وهكذا نجد أن العمليات النفسية داخل الفلك السوفييتي، تركز لها الدول بالشيوعية أكثر من ٩٠٪ من جهد دعايتها ولكن خارج الحدود السوفيتية تختلف الصورة في الدرجة والتوقيت فقط. إن الحزب المقاتل يعمل في كل مكان، ويستخدم الأسلحة التنظيمية ذاتها، ويستجيب لسيطرة متكاملة متشابهة. على أنه خارج الستار الحديدي، يجري تكوين الحزب مرحلة مبكرة من الخطة العظمى، في بعض الاماكن يكون الحزب في دور إنشاء النواة، وفي أماكن اخرى يكون في مرحلة التسلل. وفي أماكن غير هذه او تلك يكون في دور عقد تحالفات أو في دور المناورات للحصول على السلطة. كما نجد في بعض الاماكن الحزب وهو يعمل سافرا، وفي أماكن اخرى يتخذ أسلوب العمل السرى. ولكن على اية حال فإن الأمر لا يغير شيئا من كونه الحزب نفسه والتركيب نفسه، كما سيتم شرحه بالتفصيل فيما بعد.

التثقيف.

في النظام الشيوعي تعمل أدوات القوة وادوات الاقناع بعضها مع البعض، كما تتبثق قوى الحزب وجيوش السلام دون تمييز. ونجد ان نماذج التجنيد والتثقيف والتنظيم والمناورات والاستيلاء على السلطة والمحافظة عليها مقطوعة

* Jean - Maria Domenach, Leninist propaganda, Public Opinion Quartly, 15: 272, 1951.

كلها من نسيج واحد . ولكن قد يكون من المرغوب فيه أن نناقش أحد عناصر هذا النظام ، ومن ثم نتحدث في ايجاز عن التثقيف داخل الحزب المقاتل .

وفي مجال التفسير يقول زينو فيف: « إن الدعاية والإثارة بالنسبة لنا مبنية على التلقين .. إن الدعاية والتلقين والإثارة وحدة ينبغي التحقق منها وفقا لتصور التعليم اللينيني » . إن هذا التصور قد يتضمن ثلاثة جوانب:

(١) سيادة العقيدة الماركسية - أو الماركسية اللينينية - الستالينية - بواسطة المجموعة الصغيرة من الزعماء التقدميين الذين بدورهم ...

(٢) يشرفون على تلقين الجماهير وتنظيمها على الأقل بروح هذه العقيدة وبوسائل ...

(٣) كل ابتكارات التعليم ، رسمية وغير رسمية ، متضمنا ذلك المدارس والاجتماعات ، والاتصالات الجماهيرية وتعليمات القيادة .

وإذا ما نظرنا إلى هذا النظام من الخارج ، نجد أن عمله يبدو كأنه مقسم إلى ثلاث عمليات: أولاً ، تثقيف زعماء الحزب وإعدادهم بعناية فائقة . إن نظام التثقيف للحزب ينظم في شكل هرمي يرتفع من الفصول المسائية ، ومجموعات الدراسة لأعضاء الحزب والمرشحين في أنحاء العالم السوفييتي ، إلى الدورات الأطول التي قد تمتد الى سنتين لقيادة الحزب المحليين الإقليميين ، ثم أخيراً إلى منهاج السنوات الثلاث لمدرسة الحزب العليا واكاديمية العلوم الاجتماعية . والواقع ان هذا نظام هرمي ، يمكن لقائد يرجي منه أن يصعد خلاله الى صدارة الحزب .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن تثقيف الحزب عملية مستمرة . كما تعقد دورات تنشيطية بصفة مستمرة على كل مستويات النظام الهرمي . وغالبا ما يتبع الدورات التعليمية ذات السنتين او الثلاث ، دورات تنشيطية لفترة تسعة اشهر ، وسنشرح ذلك بالتفصيل في الفصل الأول من الباب الثالث .

إنجازات هذا التركيب للحرب الثورية:

ليس هناك حاجة لأن يقال إننا نستطيع أن نتوقع أن نجد الحزب المقاتل

جيد التدريب. إن الدليل على ذلك نجده في الفقرات السالفة، وفي أنشطة الحزب في جميع أنحاء العالم. إن روسيا السوفيتية أول شعب على الأرض ينتج مثل رجال الدعاية هؤلاء، المدربين على مثل هذا التدريب والمتفرغين تفرغا كاملا، كذا الإداريين والمثبرين والمنظمين لخدمة الحزب المقاتل. كما أن روسيا السوفيتية هي أول دولة على الأرض تكافىء فيها أنشطة هذا الحزب المقاتل وتمجدها.

على أن تركيب الحزب المقاتل له انجاز آخر في إدارة الحرب الثورية، هو حجم موارد القتال المتيسرة له وتنوعها. ذلك أن حجم الحزب الشيوعي يزيد عن عشرة ملايين عضو، ويعمل كل عضو فيه كرجل دعاية أو مثبر. لقد أعلنت الصين الشيوعية أن لديها أربعة ملايين مثبر. وفي عالم الاتحاد السوفيتي فإن نظام الاتصال بأكمله يعمل في خدمة الحزب، كذا جهاز الترفيه بأكمله.

وقد نتوقع أن يكون البرنامج السوفيتي شاملا، ومن المتوقع أيضا أن نجد الحزب المقاتل - وهو يعمل خارج الفلك السوفيتي - يقترب من أهدافه مستخدما كلا سلاح مناسب ومتيسر: الاقناع، التسرب، التجسس، المناورة، التشهير، الوعود، التهديدات، وأى وسيلة يحتاجها الحزب. أما في داخل البلاد السوفيتية، فإن البرنامج يخطط على أساس مس المواطن في كل مرحلة من مراحل حياته، فهو يسيطر على الأغاني التي يترنم بها، والألعاب التي يلعبها، منذ السنة الأولى من حياته المدرسية، والكتب والدوريات التي يقرأها، والموسيقى التي يسمعها في شيخوخته. كما أنه يقرر نوع التنظيمات التي يتبعها، ويحتكر ما يقال له منذ الكلمات الأولى التي يسمعها حتى آخر كلمات في حياته كذلك يسيطر البرنامج على نوع العمل الذي يتوقعه وهو شاب ويهدده بجرمانه منه إذا ما حط من مستواه في سن متقدمة. هذا بالإضافة إلى استخدام الخوف والمراقبات كاسلحة نفسية سوفيتية. إن تدفق اللاجئين من كوريا الشمالية، وقصص المرتدين من دول أوروبا الشيوعية وحجم الشرطة السرية واهميتها في الاتحاد السوفيتي، وتطهير الرجال، ونشر الكتب، والسيطرة على الفنون، كل هذا يدل على أسلحة السيطرة وبجانب هذا

البرنامج الشامل، هناك أسلحة الاقناع، وأسلحة القهر، وتعليقات واوامر، ومهيجون، وجهاز الأمن السوفييتي، وسيجيء شرح كل هذه الوسائل بالتفصيل فيما بعد.

على أنه ينبغي أن نذكر إنجازا ربما يكون أقل وضوحا وأقل رسوخا من الانجازات السابقة، وإن كان أكثر الانجازات أهمية. ذلك هو الاختلاف بين أسلوب الحرب الثورية الذى يصاغ فى خطط السوفييت وتركيبها العملى، وبين الأسلوب الذى يصاغ فى خطط الغرب وتكويناتها. ففى الديمقراطيات، ينظر الى كلمة «دعاية» على أنها ذات مستوى هابط، مما أدى إلى تردد قوى الغرب فى استخدام تجربة الدعاية الشيوعية، على نطاق واسع، أما فى الاتحاد السوفييتي، فإنهم لا ينظرون اليها هذه النظرة، ولذا لا يواجهون أى متاعب حينما يربطون العمليات النفسية بالعمل العسكرى والسياسى. فضلا عن ذلك، فإن السوفييت فى قدرتهم مكافأة المثيرين ورجال الدعاية والمنظمين وأفراد «القوات النفسية» الأخرى. ومن ثم، قد يكون من الغباء ألا نقر بالقوة العملية لهذا التكوين المقاتل للحزب.

الأهداف

لا يجانبنا الصواب إذا افترضنا أن قادة الحزب يرون ثلاثة أهداف رئيسية لعمليات حربهم الثورية خارج الحزب ذاته.

أول هذه الاهداف بالطبع العدو الرئيسى ذاته. وهنا يكون التكتيك المصدق عليه هو الضغط، الدبلوماسية، الاقتصاد، الدعاية، والعمل العسكرى اذا تطلب الأمر. إن السبيل الوحيد الذى يجعل الحزب يحصل على مكاسب هو الصراع الواسع، والضغط القصوى. ولقد حذر الزعماء منذ عهد لينين من أية جهود لا تصل إلى درجتها القصوى. إن أحد نماذج مثل هذا الضغط من خلال الدعاية هو التعبير العدائى الذى لا يتوقف. وهناك نوع آخر عن طريق استخدام التهديد إما صريحا وإما ضمنيا.

أما ثانى هذه الأهداف فهو هذا الجزء الذى يشكل قوة العدو وتعنى بذلك تلك الأجزاء من تركيبات قوة العدو التى لا يسيطر عليها الحزب، ولكنها

«نضجت للالتقاط» ويشمل ذلك مناطق التوتر والسخط، مثل بلاد المستعمرات والبلاد المتخلفة وشبه الاقطاعية، وهذه تكون معرضة للاقتراب الشيوعي.

وفي التعامل مع هذا النوع من الأهداف فإن السلاح التنظيمي للحزب المقاتل لا يفوقه سلاح آخر. ويحذر الحزب من أن يتوقع في كل حالة، تحول إحدى هذه الدول مباشرة الى الشيوعية. وتساعد وجهات النظر هذه على توضيح سبب قيام الحزب المقاتل في آسيا بعرض تقسيم الأرض على العامة من الناس أكثر من عرضهم التجميع الزراعي.

وتعد البلاد المستعمرة، أو التي سبق استعمارها من قبل، والدول المتخلفة في آسيا والشرق الاوسط وافريقيا وامريكا اللاتينية، كلها اهدافا للحزب المقاتل، الذي يكون لديه الرغبة في قبول أي تقدم صغير، حينما يكون التقدم الكبير غير ممكن، وهو يشغل نفسه باستمرار في هذه الاماكن، بحرب تنظيمية. كما أنه يأمل نزع مناطق من القوى المضادة للشيوعية عن طريق التسلل والمناورة.

أما ثالث الاهداف فهو الجماهير السوفيتية. لقد وضح كل من لينين وستالين أنه حتى بعد استيلاء الحزب على السلطة يظل البروليتاريا في حاجة الى الإقناع، وربما إلى القهر. ويكون الصراع في هذه الحالة ضد ما اطلق عليه لينين «القوة الرهيبة» للقيم والسلوك التي جرى بناؤها في سنوات طويلة في ظل الرأسمالية. إن جميع الدلائل الخارجية تبدو أنها تشير إلى أن قادة الحزب الشيوعي السوفييتي ما زالوا يشعرون بأن الجماهير السوفيتية ما زالت تكتسحها «رواسب البورجوازية» البائدة. إن المراقبة المحكمة، وأدوات القوة التي تستخدم لمنع تشكيل قوى مضادة للصفوة، والسيطرة المحكمة على وسائل الاتصال، والستار الحديدي الذي تم انشاؤه ضد التشكيلات والأفكار الخارجية. والبرنامج العريض للإثارة، والتكرار الذي لا ينتهي للاطروحات البسيطة، كل هذه الوسائل تشير إلى أن الزعماء السوفييت بعد مضي ما ينوف عن نصف قرن من الحكم السوفييتي، لا يزالون يعولون على ولاء جماهيرهم كما كانوا يتوقعون.

الخلاصة:

وبعد، فما حاولنا توضيحه هو أن هناك حزبا مقاتلا ماهرا قادرا وعلى درجة من النظام والطاعة، مكرس للقضية، وموجة بعقيدة مبنية على أساس فلسفة صراع الطبقة، التي تتصور أن أى مجموعة لا يسيطر عليها الحزب تمثل عدوا، ولا تسمح هذه الفلسفة بأى حل للتوتر العالمى حتى يسيطر الحزب على كل المجموعات الأخرى أو يدمرها. إن هذا الحزب يستخدم الكلمات بمهارة، يستخدمها سلاحا من بين أسلحة أخرى كثيرة. وخلال العالم غير السوفييتى فإن الحزب ينهمك فى استخدام تكتيكات التشقيف، والتنظيم والتسلل والمناورة، والاستيلاء على السلطة. أما فى داخل العالم السوفييتى، فإن الحزب يكرس ذاته فى تدعيم مكاسبه مشركا الاقناع مع القهر، ومحاولا خلق مواطنين سوفييت من نوع جديد يخضعون للحزب خضوعا مطلقا.

الفصل الثالث

طبيعة الحزب الشيوعي وتنظيمه

كان الإنسان خلال حركة سير التاريخ ملتزماً بولاءات كثيرة لاسرته، ثم لقبيلته أو عشيرته أو لِسادة الاقطاع، كذلك لدينه أو مليكه، وفي العصور الوسطى أصبح الولاء إلى دولة الوطن. أما الشيوعي فليس له سوى ولاء واحد، هو ولاؤه للشيوعية الدولية. إن الولاء هنا ليس للدولة ولكنه ولاء للحزب! ولما كان الاتحاد السوفيتي يصور نفسه على أنه قلب الشيوعية الدولية، فإنه يفترض أن يكون الولاء له من جميع الشيوعيين في أى مكان من العالم. فإذا ما كان الشعب أو الدولة لا يدين بالشيوعية، فإن الحزب يقود أعضائه للعمل على تدمير الدولة. إن العهد التالي الذى كان أعضاء الحزب الشيوعى الجدد يقطعونه على أنفسهم فى نيويورك خلال الثلاثينات يعبر عن ذلك بوضوح، فقد جاء به: «أتعهد بأن احشد الجماهير للدفاع عن الاتحاد السوفيتي، كما اتعهد بأن أظل دائماً ساهراً مدافعاً بصلابة عن الخط اللينيني للحزب.... ذلك الخط الوحيد الذى يؤكد انتصار قوى السوفييت على الولايات المتحدة» (*)

تكوين الحزب الشيوعي

ومن ثم كان الإلزام بتنظيم الحزب الشيوعي وطبيعته ومهمته كأداة وظيفية، ضرورة للتفهم العميق للحرب الثورية الشيوعية، إذ أنها تعتمد بدرجة كبيرة على شكل تنظيم الحزب، كما أن قاعدة التجنيد بدورها حساسة للتحويلات التى تحدث فى العقيدة الاستراتيجية.

وتحتوى القواعد والقوانين الفرعية للحزب الشيوعى السوفيتي على قسم فى

* William R. Kintner and Joseph Z. Kornfeder , the New Frontier of War, Henry Regnery Company, Chicago 1902, P. 48.

المقدمة يوضح المفهوم الجوهرى للدور الذى يلعبه الحزب كما وضحه لينين وستالين. وتنص هذه القواعد على أن الحزب هو الطليعة المنظمة للطبقة العاملة فى الاتحاد السوفييتي. وهو عبارة عن هيئة متاسكة موحدة ومنظمة هرميا. ويؤكد الحزب أنه العنصر المركزى فى قيادة كل منظمات الطبقة العاملة أو الكادحة - سواء منها الخاصة أو الحكومية - وهو الذى يقود الشعب لدعم دكتاتورية البروليتاريا، وبناء نظام اشتراكى يفضى إلى مجتمع شيوعى. ويسير الحزب فى هذا النشاط طبقا لنظريات ماركس ولينين.

ويتكون الحزب من سلم تصاعدى يتميز بوجود ثلاثة مستويات رئيسية. ففي قاعدة المثلث توجد منظمات الحزب الأولية والتي يطلق عليها الغرب اسم «الخلايا الشيوعية» أو «النويات» كما يسميها الشيوعيون، وهي موجودة فى المصانع والقرى والمزارع الجماعية والمكاتب والوحدات العسكرية وغيرها كما بينا فى الفصل السابق.

و يتم الحصول على عضوية الحزب عن طريق عضوية المنظمات الأولية. وتجتمع هذه المنظمات الأولية لتصبح وحدات متوسطة - هي منظمات الحى - التى تكوّن بدورها المنظمات الاقليمية والمنظمات الخاصة بأراضى الدولة ومنظمات الجمهورية. أما أعلى جزء فى الحزب - وهو المركز - فهو الذى يقرر السياسة العامة وطريق العمل ويشرف على عملية التنفيذ.

مبدأ المركزية الديمقراطية

ويعرف المبدأ الاساسى الذى يعمل جهاز الحزب وفقه بمبدأ المركزية الديمقراطية. وهو يتضمن اربعة عناصر:

الاول: تطبق عملية الانتخاب فى اختيار كل الأجهزة الموجهة - ابتداء من المكتب التنفيذى للمنظمات الأولية حتى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى.

الثانى: تكون هذه الأجهزة الموجهة مسؤولة أمام منظماتها.

الثالث: النظام الشديد بحيث تخضع الاقلية لشيئة الأغلبية.

الرابع: تسرى القاعدة التي تقول بأن كل قرارات الأجهزة العليا تكون ملزمة بالنسبة للأجهزة الأقل.

وواضح أن العنصرين الأولين يمثلان المظهر الديمقراطي لمبدأ المركزية الديمقراطية، بينما يمثل العنصران الآخران مظهر المركزية^(١) ومن الناحية العملية نجد أنه في الفترة الأخيرة من فترات تطور الحزب بقيادة ستالين، تم تجاهل العناصر الديمقراطية إلى حد كبير، وكان من نتيجة تدعيم مبدأ المركزية أن ذوت المبادئ الديمقراطية.

وللمنظمات المحلية استقلال ذاتي عند اقرار الموضوعات المحلية، ولكن يجدد هذا الاستقلال شرط عدم تعارض هذا القرار مع قرارات الحزب العامة. كما أن هذا الاستقلال يجده من جهة أخرى «مبدأ الانتاج الاقليمي» الذي ينص على أن الوحدة الحزبية التي تخدم منطقة أو فرعا من عمل، ينظر إليها على أنها أعلى من الوحدة التي تخدم جزءا من هذه المنطقة، أو جزءا من هذا العمل الفرعي.

وكان من نتيجة هذا التحديد، جعل الأقسام المتوسطة من الحزب أجهزة إدارية للقيادة المركزية التي تقوم بتنفيذ سياسة القيادة العليا في منطقة معينة، ثم تقوم بإبلاغ القيادة العليا عن أحوال المنظمات الأولية الفرعية.

مؤتمر الحزب الشيوعي:

على أن أعلى جهاز في الحزب هو مؤتمر الحزب الشيوعي الذي يتكون من مندوبين يتناسب عددهم مع حجم الوحدات المحلية. ويتمتع المؤتمر بأوسع السلطات، ويدخل في ذلك سلطة إعادة النظر في لوائح الحزب، وتقرير الخطوط العريضة للحزب في كل المواضيع الرئيسية. وتنص اللوائح على دعوة المؤتمر إلى الانعقاد مرة واحدة على الأقل كل ثلاث سنوات. ولكن الواقع أن

(١) قد يبدو لأول وهلة أن المبدأ الثالث الخاص بخضوع الأقلية لرأي الأغلبية هو أحد العناصر الديمقراطية. ولكن يفسر هذا المبدأ يعني ان الأغلبية هي وحدها التي تقرر. وهكذا يكون هذا المبدأ مركزيا أكثر منه ديمقراطياً.

الفترة بين انعقاد المؤتمر والمؤتمر الذى يليه كانت تزيد على ثلاث سنوات، بل زادت فى بعض الاحيان على عشر سنوات.

اللجنة المركزية:

على ان إطالة الفترة التى بين المؤتمرات لها معناها، إذا أدركنا أن الذى يدعو المؤتمر للإنعقاد هو اللجنة المركزية الدائمة للحزب، التى تقوم بانتخاب المؤتمر. ذلك أن اللجنة المركزية هى التى تخول لها سلطة التصرف فى الفترة التى بين المؤتمر والمؤتمر الذى يليه. فهذه اللجنة المركزية هى التى لها حق الاشراف على كل ألوان الأنشطة التى يقوم بها الحزب. كما أن لها سلطة إنشاء الاجهزة الحزبية وتوجيه أعمالها، وتوزيع موارد الحزب، وإدارة اعتماداتها، وتوجيه عمل المنظمات العامة - مثل نقابات العمال.. والمنظمات الحكومية - عن طريق الجماعات الحزبية الداخلة فيها.

وحق فى المناسبات القليلة التى انعقدت فيها المؤتمرات فى السنوات الاخيرة، نجد أن دوراتها كانت قصيرة، كما كانت مناقشاتها مقتضبة، لا تخرج عن الحدود التى يقررها القادة. وكانت القرارات مقصورة على الموافقة على تلك التى سبق للجنة المركزية أن أقرتها. بمعنى آخر إن أعلى جهاز فى الحزب، لم يكن فى الواقع هو المؤتمر، وإنما كان لجنة الحزب المركزية. ويدل هذا على الميل العام عند الاتحاد السوفييتى لتركيز السلطة فى يد مجموعة صغيرة من الرجال، وهذا الميل له قبيل مماثل فى البناء الحكومى، حيث تكمن السلطة النهائية فى يد المجلس السوفييتى الأعلى بصفة اسميه فقط، والحقيقة الواقعة أن هذه السلطة تقع فى يد رئاسة المجلس السوفييتى ومجلس الوزراء.

واللجنة المركزية هى هيئة تتكون من حوالى سبعين عضواً ومن مثل هذا العدد كبداية لهم أو مرشحين. وتنص القواعد على أن اللجنة المركزية تكون مكتبا تنظيميا يقوم بتوجيه عمل البناء العام، كما تكون سكرتارية تعمل كمكتب إدارى. بالإضافة إلى تكوين لجنة إشراف على الحزب تشرف على تنفيذ قرارات الحزب عند المستويات الدنيا، وعلى تشكيل لجنة رقابة مركزية، كما تقوم بتكوين المكتب السياسى الذى تحدد وظيفته فى العمل السياسى.

وتتركز في يد المكتب السياسى السلطة السياسية الفعلية في الدولة السوفيتية، ويبلغ عدد أعضائه أربعة عشر ومثلهم من البدلاء، مع أن القواعد لا تحدد حجمه. وفي عهد ستالين كان المكتب يتكون من ستالين ومعاونيه من أمثال مولوتوف ومالينكوف وزدانوف. ولقد ظلت عضويته ثابتة منذ ان تدعم مركز ستالين في أواسط الثلاثينات. وفي المراحل الأولى من تكوين الحزب أيام ستالين، لم يفكر احد في تركيز السلطة بهذه الطريقة. وفي الحقيقة، لا تشير حتى القواعد المعمول بها الآن إلى الأهمية العظمى للمكتب السياسى، الذى يمارس سلطة فعلية أكثر منها سلطة شرعية. وهذا يعبر عن التكوين غير الرسمى للحزب الذى يفوق التكوين الرسمى.

وبالإضافة إلى الوحدات الكبرى السابق ذكرها، تضم اللجنة المركزية عدة إدارات أخرى، مهمتها العملية تنفيذ قرارات الحزب. وتنص قواعد عام ١٩٣٩ على أن هذه الإدارات خمس: إذ انشئت إدارة الدعاية والإثارة وإدارة الكوادر، كما انشئت ثلاث إدارات للتنظيم والإدارة والزراعة والمدارس. أما منظمات الحزب الدنيا، فتتبع النظام نفسه الذى لادارات اللجنة المركزية عن طريق لجان المدينة ولجان الحى، وان كان ذلك بقدر ما.

لجنة الرقابة

وتبدو لجنة الرقابة أكثر اللجان الكبرى غير العادية في الحزب، وتقوم بمهمة فرض النظام والطاعة، وطرد العناصر المعادية. وهى تعد فريدة في هذا الشأن، ذلك أنها ليست كباقي إدارات الحزب لها علاقات بنشاط الجماهير، وإنما هي إدارة شرطة للحزب، وتعكس عادة عقدة الشرطة الموروثة في عقل الشيوعى. وحينما يكون الحزب في موقف المعارضة، تقوم لجنة الرقابة بحصر نشاطها على حراسة اعضاء الحزب. فإذا ما استولى الحزب على السلطة، تستمر هذه اللجنة كشرطة خاصة، فتقوم بتنسيق انشطتها وفقا للضرورة، مع الشرطة السياسية النظامية لأي حكومة تطبق النموذج السوفييتى. وعلى سبيل المثال، فإن تطهير الحزب يعد من مسؤولية لجنة الرقابة.

وكان من المفترض في الاتحاد السوفييتى أن تقوم لجنة الرقابة باقتناص

الجواسيس أعداء الشيوعية داخل الحركة، كما كان عليها أن تراقب الأخلاق داخل الحزب، وتحاكم المرتدين عن خط الحزب المتغير. وكانت سلطتها القضائية تقف عند أبواب اللجنة المركزية، التي كان لها السيادة في التنظيم الحزبي. أما القضايا التي تتضمن أعضاء من اللجنة المركزية فتقدم للمحاكمة امام اللجنة المركزية ذاتها.

ولقد أدى الصراع الدامي بين الاخوة داخل الحركة الشيوعية، والذي صاحب صعود ستالين إلى السلطة، إلى تحويل لجنة الرقابة إلى أداة في يد زمرة ستالين الحاكمة. وكان على أعضاء الحزب أن يتجسسوا على بعضهم البعض، وأن يقدموا تقارير إلى لجنة الرقابة. فإذا ما اشتبه في قائد حزبي، تقوم لجنة الرقابة بامداده بمساعد تكون مهمته الادعاء الباطل على رئيسه. أما أعضاء الحزب من المراتب الأرفع فكان يطلب منهم أن يقدموا سيرة كاملة عن أنفسهم. وتجمع المعلومات عن أنشطتهم الماضية ومعارفهم وعائلاتهم واصدقائهم، وعن المواقف التي اتخذوها حيال خلافات الحزب المختلفة، وسلوكهم. ازاء المرتدين والمنحرفين، كذا علاقاتهم الشخصية في الماضي، ثم تفحص كل هذه المعلومات لتستخدم ضدهم في حالة انحرافهم عن الخط او الاشتباه فيهم.

وفي الدول غير الشيوعية لا يكون لدى لجان الرقابة للأحزاب الشيوعية أي سجون أو معسكرات، ولكنها تستطيع أن تهيب للشخص المنفي تسهيلات الإقامة أو تسبب له ازعاجات. ولقد اكتشفت حالات من سوء المعاملة الانسانية من الدرجة الثالثة، بل كانت هناك في بعض الظروف حالات قتل. ومع ذلك، وقاعدة عامة - فإن لجان الرقابة في الدول تحد من نشاطها، وتقصره كلما أمكن على تلويث السمعة، والطرده من الحزب، ومطاردة الفرد لمنعه من الحصول على عمل. إن الانسان يستطيع أن ينضم إلى الحزب الشيوعي باختياره الحر، ولكنه لا يستطيع ان يتركه دون التعرض للمخاطرة. كذلك، فإن الارتداد عن الحزب تبلغ درجة خطورته أشد من العداء المكشوف للشيوعية.

إدارة الدعاية والاثارة:

وفي ضوء ما اشرنا إليه في الفصل السابق فإن إدارة الدعاية والاثارة

التابعة للجنة المركزية تقوم بمهمة المسؤولية العامة لتشكيل الرأي العام في الاتحاد السوفييتي، وتعبئته، في سبيل المساعدة على تحقيق الأهداف البعيدة المدى والقصيرة المدى، التي قامت قيادة الحزب بتحديددها. أي أنها توحد النشاط الواسع المتعدد الألوان وتوجيهه بقصد التأثير في الرأي العام، وهو نشاط يقوم به الحزب والحكومة والأجهزة العامة التي يشرف عليها الحزب.

وتقرر إدارة الدعاية والإثارة - في داخل نطاق قرارات السياسة الأساسية التي يتخذها المكتب السياسي - الخطوط العريضة وأسلوب العمل في كل المواضيع المتصلة اتصالا مباشرا بالرأي العام السوفييتي بكل مستوياته. إنها الاداة التي توصل قرارات الحزب وقرارات الحكومة للشعب، وتوضحها له، وتكسب تأييد الشعب، كما تقوم بتعبئة الشعب لتنفيذها. وليست هذه الإدارة مقصورة على أن تكون الطريق الرئيسي الموصل بين الحزب وبين الشعب، ولكنها الاداة الرئيسية التي توصل وجهة نظر الجماهير للقادة. إنها انبوبة ذات فتحتين، ولذلك يجب أن تحرص دائما على أن تظل باستمرار مفتوحة من أعلى لأسفل، ومن أسفل لأعلى. ولذا يتراوح نشاطها من معالجة المواضيع الصعبة الحساسة كتفسير النصوص الماركسية، إلى القيام بعملية التفسير لعامل عادي عن السبب الذي حدا بمعدلات انتاجه أن تتغير، كما يتراوح نشاطها من اختيار الشعارات الشائعة عند الاحتفال بذكرى الثورة السنوية، إلى النقد المفصل لصحيفة حائط مجهولة في مصنع أو في مزرعة.

وعلى الرغم من اتساع مدى مسؤولياتها فإن هذه الإدارة ليست هيئة عملية، فهي لا تقوم بأعمال نشر ضخمة، كما أنها لا تدير الاذاعة السوفييتية ولا تقوم بعمل الافلام.

إنها تركز مجهودها لتحديد السياسة وتنفيذها بواسطة الحزب والحكومة والهيئات العامة التي تتولى فعلا تشغيل وسائل الإعلام. إنها تمارس وظيفتها على مستوى قومي، وإن كان أثرها يمتد إلى المستويات الدنيا.

ولما كانت إدارة الدعاية والإثارة ذات مجال هام في عمل الحزب، فقد أصبحت جزءا أساسيا في جهاز الحزب. وليس المجال هنا كي نسرّد تفصيل

تطورها ، وإن كان القاء الضوء يقتضي تعليقا مختصرا عليها .
ففي المدة التي سبقت استيلاء البلاشفة على الحكم ، عندما كان الحزب لا يزال يركز على تثبيت التنظيم وتوجيهه نحو الهدف الأوحد ، هدف إثارة الثورة ، لم يكن هناك اختلاف في وظيفتها داخل الحزب . كان المتوقع من كل بلشفي ان يكون مثيرا وقائما على الدعاية . وبذلك كان جهاز الحزب كله يؤدي وظيفة أصبحت واحدة من وظائف أخرى يضطلع بها . وإلى حد كبير ظلت فترة الثورة والحرب الأهلية دون تخصص . وفي عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ أنشئت عدة مراكز للإثارة وبخاصة في القوات المسلحة ، كما قامت قطارات إثارة خاصة وبواخر إثارة خاصة ، بالتجول في جميع أنحاء البلاد ، لتنفيذ أنشطة الإثارة ، ولكن كانت مجهوداتها مفتتة موزعة .

وفي نهاية فترة التدخل الأجنبي - عندما وجه الحزب انتباهه إلى إعادة بناء اقتصاد البلاد المنهار ، وإلى إعادة بناء البلاد السياسي - أصبح من الضروري تنويع الوظائف داخل الحزب . ونتيجة لهذا الاتجاه أنشئت إدارة الدعاية والإثارة عام ١٩٢٠ في سكرتارية اللجنة المركزية مع الوحدات المماثلة في هيئات الحزب الاقليمية . وقد تبلور هذا الاتجاه عن إصدار قانون خاص في نوفمبر ١٩٢١ فصل تنظيم ادارة الدعاية والإثارة وأعمالها . وقد صدر تعريف لهذه الإدارة على أنها الأداة التي تعمل اللجنة المركزية بواسطتها على توجيه مجهودات الحزب وتوحيدها في عالم الدعاية والإثارة ، شفويا وكتابة . لقد أسندت إليها مسؤولية توجيه العمل الايديولوجي داخل الحزب وخارجه ، وتوجيه النشاط التعليمي للمنظمات الحكومية ونقابات العمال والتعاونيات وغيرها ، والإشراف عليها . كان اختصاصها واسعا للغاية ، إذ كانت تعمل على تعليم الجماهير تعليما سياسيا هاما ، كما عملت على تطويرهم وإعدادهم للمشاركة الواعية في بناء نظام المجتمع الجديد ، وكان مجال نشاطها يتراوح من الاكاديميات الشيوعية إلى مدارس بسيطة لمحو الأمية .

وعندما تم إعادة تنظيم الحزب وجهازه في أواخر عام ١٩٢٩ ، قسمت إدارة الدعاية والإثارة الى وحدتين هما : إدارة الإثارة والحملات الشعبية ، وإدارة الثقافة والدعاية . وظلت هاتان الإدارتان تحتفظان بشكلهما وواجباتها دون

تغيير يذكر حتى عام ١٩٣٤. غير أنه عندما انعقد مؤتمر الحزب السابع عشر في هذه السنة، انتقدت الطريقة الوظيفية التي تعمل بها. لقد كان المفروض في إدارة الدعاية والإثارة أن تكون مثالية، ولذلك أعيد النظر في قواعد الحزب للتخلص من كل هذه الإدارات الوظيفية، كي تحل محلها إدارات صناعية متكاملة. وكان هذا معناه أن الإدارة الزراعية الجديدة - مثلا - تشرف على كل النشاط المتصل بالإنتاج الزراعي، ويدخل في ذلك الإثارة والدعاية للإنتاج في المناطق الريفية. وبالمثل أعطيت الإدارات الجديدة الأخرى كالصناعة والنقل والتجارة - مسؤولية الإثارة والدعاية في كل مجالات عملها.

ولم يبق حينئذ شيء من إدارة الدعاية والإثارة القديمة، إذ أطلق عليها اسم إدارة الثقافة والدعاية اللينينية. وفي مجال عملها احتفظت بالإشراف على التدريب الماركسي داخل الحزب، كما أسند إليها الإشراف على بعض الهيئات الحكومية، مثل قوميساريات التعليم والصحة العامة. وبعد ان سلخ منها كثير من وظائف سابقتها، أصبحت الإدارة الجديدة هيئة إدارية وكان عمرها قصيرا، ففي عام ١٩٣٥ قررت اللجنة المركزية أن تحل محل الأخيرة خمس إدارات مستقلة: المدارس والعلوم والمخترعات العلمية، الصحافة والنشر، الأعمال التربوية والثقافية، الدعاية والإثارة. وهكذا أعيدت إدارة الدعاية والإثارة بالاسم، لأن الإشراف على الصحافة والعلوم والمدارس والمكاتب والإثارة الجماهيرية للإنتاج، ظلت مع إدارات الصناعة وغيرها من الإدارات الأخرى.

وسرعان ما ظهرت العيوب الناتجة عن تشتيت مسؤولية الدعاية والإثارة، وأصبح كل من التداخل والارتباك والتناقض يعرقل مجهودات الحزب في تشكيل الرأي العام وتعبئته. وفام ستالين واندريه زدانوف بإعادة النظر في هذا الميدان في جلسة اللجنة المركزية بتاريخ مارس ١٩٣٧. وفي عام ١٩٣٨ كجزء من القرار الأساسي الخاص بدعاية الحزب والذي صاحب في نفس الوقت نشر «تاريخ الحزب» الرسمي الجديد، أصدرت اللجنة المركزية أمرها بتوحيد إدارة الدعاية والإثارة وإدارة الصحافة والنشر بقصد تحسين نشاط الدعاية. وجاء المؤتمر الثامن عشر المنعقد في عام ١٩٣٩، ووافق رسميا على إلغاء فرع

الإدارة الصناعية. لقد قرر المؤتمر أن يكون للجنة المركزية جهازاً قوياً للدعاية والإثارة على شكل إدارة جديدة تتركز فيها كل أشكال ومظاهر الدعاية والإثارة الشفوية والمطبوعة. وهكذا عادت سلطات الإدارة الأولى إلى سابق شكلها الأصلي. وما زالت لها هذه السلطات حتى الوقت الحاضر.

وهناك نقطة واحدة بمناسبة هذا العرض الموجز ترتبط بتركيز المسؤولية في المواضيع المتصلة بالرأي العام، وتستحق الذكر هنا. لم تكن تجربة الحزب الخاصة بتوزيع السلطة في المواضيع المتصلة بالرأي العام تجربة مرضية. لقد اكتشف الحزب أن الرأي العام إذا أريد استغلاله بنجاح لتأييد العمل الإجماعي والسياسي والاقتصادي في الحرب الثورية، ينبغي العمل على تركيز السياسة والإدارة.

إن الإدارة الحالية ووحداتها على المستوى المحلي تجمع في يدها كل ما يتصل بالدعاية الشفوية والمطبوعة وبقالينينية والماركسية، كذلك ما يتصل بالنشاط الإثاري للجماهير. ويعنى هذا إما المسؤولية المباشرة وإما الرقابة والإشراف على صحافة الحزب، ونشر مطبوعات الدعاية والإثارة، وتنظيم الدعاية الماركسية اللينينية الشفوية والمطبوعة، والمادة الأيديولوجية للدعاية، واختيار الأشخاص المنوط بهم القيام بأعمال الدعاية وتقييمهم، وتدريب رجال الحزب وإعادة تدريبهم، وتنظيم عملية الإثارة السياسية الجماهيرية.

وحتى تستطيع الإدارة المركزية أن تضطلع بمسؤولياتها الخاصة بهذه الألوان من النشاط، يجرى تقسيمها إلى عدد من القطاعات، لكل منه عملياته الخاصة. ويحتص قطاع الدعاية بعضوية الحزب وبالمثقفين غير الحزبيين وهم بثقيفهم وتلقينهم المبادئ الماركسية اللينينية وتأكيد صلاتها الأيديولوجية. وعلى ما يصدر عنه السوفييت، فإنها الحارس أو القيم أو الوصى على الكلمة البلشفية المقدسة. أما قطاع الإثارة الجماهيرية فيختص بالتربية السياسية للجماهير الطبقة العاملة بروح الشيوعية. كما أن القطاع نفسه مسئول عن نشاط الإثارة الجماهيرية المنوط به تعبئة الشعب، حتى يستطيع النهوض بالأعمال التي يحددها له الحزب. أما الوحدة الثالثة فهي قطاع التنوير الثقافي الذي يشرف على نشاط أكواخ

الإدارة الصناعية. لقد قرر المؤتمر أن يكون للجنة المركزية جهازاً قوياً للدعاية والإثارة على شكل إدارة جديدة تتركز فيها كل أشكال ومظاهر الدعاية والإثارة الشفوية والمطبوعة. وهكذا عادت سلطات الإدارة الأولى إلى سابق شكلها الأصلي. وما زالت لها هذه السلطات حتى الوقت الحاضر.

وهناك نقطة واحدة بمناسبة هذا العرض الموجز ترتبط بتركيز المسؤولية في المواضيع المتصلة بالرأي العام، وتستحق الذكر هنا. لم تكن تجربة الحزب الخاصة بتوزيع السلطة في المواضيع المتصلة بالرأي العام تجربة مرضية. لقد أكتشف الحزب أن الرأي العام إذا أريد استغلاله بنجاح لتأييد العمل الإجماعي والسياسي والاقتصادي في الحرب الثورية، ينبغي العمل على تركيز السياسة والإدارة.

إن الإدارة الحالية ووحداتها على المستوى المحلي تجمع في يدها كل ما يتصل بالدعاية الشفوية والمطبوعة وفقاً للينينية والماركسية، كذلك ما يتصل بالنشاط الإثاري للجماهير. ويعنى هذا إما المسؤولية المباشرة وإما الرقابة والإشراف على صحافة الحزب، ونشر مطبوعات الدعاية والإثارة، وتنظيم الدعاية الماركسية اللينينية الشفوية والمطبوعة، والمادة الأيديولوجية للدعاية، واختيار الأشخاص المنوط بهم القيام بأعمال الدعاية وتقييمهم، وتدريب رجال الحزب وإعادة تدريبهم، وتنظيم عملية الإثارة السياسية الجماهيرية.

وحتى تستطيع الإدارة المركزية أن تضطلع بمسؤولياتها الخاصة بهذه الألوان من النشاط، يجرى تقسيمها إلى عدد من القطاعات، لكل منه عملياته الخاصة. ويحتص قطاع الدعاية بعضوية الحزب وبالمتقنين غير الحزبيين ويهتم بتثقيفهم وتلقينهم المبادئ الماركسية اللينينية وتأكيد صلاتها الأيديولوجية. وعلى ما يصدر عنه السوفييت، فإنها الحارس أو القيم أو الوصي على الكلمة البلشفية المقدسة. أما قطاع الإثارة الجماهيرية فيختص بالتربية السياسية للجماهير الطبقة العاملة بروح الشيوعية. كما أن القطاع نفسه مسئول عن نشاط الإثارة الجماهيرية المنوط به تعبئة الشعب، حتى يستطيع النهوض بالأعمال التي يحددها له الحزب. أما الوحدة الثالثة فهي قطاع التنوير الثقافي الذي يشرف على نشاط أكواخ

القراءة بالقرية ، ودور الثقافة بالحى والمتاحف وأمثالها . ويقوم بتعيين موظفي هذه الهيئات وتمويلها ، قوميساريات التربية والتعليم ، وتقابات العمال ، ولكن يقوم على توجيه اعمالها قطاع التنوير الثقافى ، لضمان مساهمته فى تقدم خطوط الحزب العريضة فى مجال الرأى العام .

وكانت الرقابة على أعمال الصحف ، والإشراف على نشر الكتب ، وتدريب العاملين فى الصحافة ومن يجلب محلهم ، فى يد ادارة صحافة موحدة تعمل داخل الإدارة العامة حتى نهاية الحرب ، أما الآن فقد قسمت ووزعت على عدد من الوحدات الصغيرة المتخصصة . فيشرف على أعمال الصحف والمجلات غير الأدبية ثلاثة قطاعات : (١) قطاع الصحافة المركزية (٢) قطاع الجمهورية والصحافة الاقليمية ، (٣) قطاع الصحافة المحلية . أما مسئولية الإشراف على الكتب والمجلات الأدبية فيضطلع بها قطاع مستقل للأدب .

أما صناعة السينما والاذاعة فتشرف عليها هيئات حكومية إشرافا مباشراً ، وهناك على أية حال وزارة للسينما ولجنة للإذاعة . ولكن هذه الوسائل الاعلامية تمثل قطاعات خاصة فى ادارة الدعاية والإثارة ويجدر بنا أن نذكر هنا قطاع الفن الذى يشرف على نشاط التمثيل ، والكتاب والموسيقين والرسمين وغيرهم من الجماعات التى تقوم بالإشراف عليها فعلا لجنة الفن الحكومية التابعة لمجلس الوزراء . وأخيراً هناك قطاع العلوم وقطاع المدارس .

وبين هذا العرض لإدارة الدعاية والإثارة ظاهرتين جوهريتين : الظاهرة الأولى ، هي إتساع مدى نشاط هذه الإدارة ، ذلك أنه ليس هناك مجال فكرى أو نشاط منظم من شأنه أن يؤثر فى الرأى العام ، يعفيه الحزب من الرقابة والفحص ، أما الظاهرة الثانية ، فهي أن تشكيل الإدارة يقسم العمل بين الحزب وبين الدولة . فالإدارة اليومية متروكة للهيئات الحكومية . ولكننا نجد فى كل مجال أن لكل هيئة حكومية وحدة معادلة فى الحزب مسئولة عن الرقابة والتوجيه الدائمين لهذه الهيئة .

ويحمل رئيس الإدارة لقب مدير . ويعاونه فى عمله ثلاثة وكلاء أو أربعة ويشرف كل وكيل على مجموعة متجانسة من القطاعات مثل القطاعات الأربعة

أو الخمسة التي تتولى أمر الصحافة والنشر . ولكل قطاع رئيس إداري خاص .
وتقوم لجنة الحزب المركزية بتعيين المدير والوكلاء .

وقبل الحرب العالمية الثانية قام أندريه زدانوف بتسليم إدارة الدعاية والإثارة إلى جورج الكسندروف ، وإن كان الأول قد استمر حتى وفاته عام ١٩٤٨ يتولى المسؤولية العامة - داخل نطاق المكتب السياسي - عن كل أنشطة الحزب الأيديولوجية . وكان الكسندروف فيلسوفا وعالما في السياسة أكثر منه رجل حزبي . وقد تولى منصبه بنجاح حتى منتصف عام ١٩٤٧ ، عندما فقد الخطوة بسبب ميوله البورجوازية التي وضحت في كتابه «تاريخ فلسفة أوروبا الغربية» ، الذي حصل فيه على جائزة ستالين . وقد حل محله ميخائيل سيسلوف وهو رجل حزبي .

ولكل قسم من الاقسام الإقليمية الدنيا في تشكيل الحزب الهرمي - من اللجنة الجمهورية حتى لجنة المدينة ولجنة الحي - إدارة للدعاية والإثارة معادلة للإدارة العامة ، وذلك على مستوى قومي . أما المنظمات الأولية للحزب فيشرف عليها سكرتير خاص مسئول عن نشاط الدعاية والإثارة داخل منظمته . ويقوم بانتخاب اعضاء هذه الإدارات المحلية أو اختيارهم منظمة الحزب ، بعد موافقة وحدة الحزب الأعلى في حالة تعيين أكثر من عضو مسئول . وكل وحدة محلية خاصة بالدعاية والإثارة تقوم بنفس الوظيفة التي تقوم بها الإدارة العامة بالنسبة للجنة المركزية والحزب بصفة عامة . وتشرف على كل إدارة الإدارة التي تليها في الهرم التصاعدي ، حتى تصل الى قمة الهرم فنجد الادارة المركزية .

وهكذا نجد أن الرقابة المطلقة على كل الشؤون المتصلة بالرأي العام مركزة في يد إدارة الدعاية والإثارة ، التي تمتد سلطتها حتى تصل إلى أدنى سكرتير للدعاية والإثارة في اللجنة التنفيذية في تنظيم الحزب داخل مصنع أو قرية .

مهمة الحزب كأداة وظيفية

على أن المهمة الخاصة للحزب كأداة وظيفية غير مفهومة جيدا خارج الفلك الشيوعي . ومع ذلك ، فإن الحزب الشيوعي ليس حزبا بالمفهوم الذي وضّحه

« بول او ستروجورسكى » حوالى عام ١٩٠٠ فى كتابه « الديموقراطية وتنظيم الحزب السياسى » La Democratic et L'organization de la partie politique ، فالشيوعيون يقومون بتنظيم الحزب لتدمير كل الأحزاب الأخرى ، فليس هناك مجالا للمنافسة بين المجموعات المختلفة. وبهذا المفهوم كانت النازية أقصى ضراوة ، وأكثر أمانة من الشيوعيين إزاء المصطلحات والتسميات ، حينما أصرت النازية على أن الحزب النازى ليس فى الواقع حزبا بل حركة « Bewegung » ، سوف تكتسح أمامها كل الحركات الأخرى .

ويعد التنظيم الشيوعى أو عمل الحزب من أعظم الابتكارات الثورية التى شاهدتها التكنولوجيا السياسية منذ عصر ميكافيللى . فالحزب هو الذى حوّل الشيوعية من لعبة سحرية للمثقفين إلى سلسلة من الإمبراطوريات ، أضخم حجماً وأكثر قسوة من أى نظام آخر وضعه المغول!

ويتطور الحزب الشيوعى فى مرحلتين مميزتين ، كما أنه يتبدل شأنه فى ذلك شأن الحشرات التى تتبدل تكويناتها بمجرد تركها مرحلة اليرقة . فقبل اكتساب السلطة ، يكون الحزب عبارة عن أداة تبحث عن السلطة والتحول . وبمجرد الاستيلاء على السلطة يصبح الحزب أداة سياسية لا نظير لها فى العالم الحديث . وهناك ارتباط عضوى بين تكوين الحزب الشيوعى وبين الطرق المستخدمة قبل وما بعد الاستيلاء على السلطة . ولنلق نظرة على الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى ، الذى لا يزال يلعب الدور الرئيسى فى الحركة العالمية .

إن الحزب الشيوعى السوفييتى لا يماثل التنظيمات السياسية التى تطورت فى الديموقراطيات الغربية ، اذ يتضمن نظاما جديداً : صفوة سياسية تهدف إلى احتكار السلطة الشاملة على المجتمع . والحزب الشيوعى لا يعمل على التنافس مع الأحزاب الأخرى ، ولكنه يعمل على طردها أو تدميرها . ولذا فإن التركيب التنظيمى للحزب الشيوعى ، ونظام الأسلحة ، ووسائل العمليات تنشأ كلها لتخدم هذا الغرض . كما أن دولة الحزب الواحد الشيوعية التى تشكلت بعد الاستيلاء على السلطة ، قد وضحت مسبقاً فى تنظيم أى حزب شيوعى يبحث عن السلطة ، كما وضحت فى تكوينه ، وفى الوسائل التى يستخدمها .

إن التحولات في تكوين الطليعة - الحزب الشيوعي السوفييتي - وفي استراتيجيتها، تؤثر حتماً على مجرى الحرب الثورية الشيوعية، سواء في داخل الفلك الشيوعي أو خارجه، ولذا فإن التحليل السليم للحرب الثورية الشيوعية ينبغي أن يبدأ بألة الحزب الحالية.

لقد بدأ نموذج الحزب السياسي الشيوعي يبرز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد أن تجسدت مبادئه الأساسية في «المانيفستو» أو البيان الشيوعي، الذي نشره كارل ماركس وفردريك انجلز. لقد تبنى البيان وجهة نظر إلغاء مجتمع الديمقراطية الغربية الذي كان قائماً لصالح مجتمع تكون فيه كل الملكيات مملوكة للدولة. وعلى الدولة أن تصبح «دكتاتورية الطبقة العاملة» إلى أن يتم التحول إلى شكل مجتمع جديد، أما بالنسبة للتخلف الثقافي بين الطبقة العاملة، فكان الأمر يتطلب الحاجة إلى حزب صفوة يقودها نحو هذا الهدف.

ومن الأمور المميزة أن المعماريين الذين شيدوا تنظيم النموذج الشمولي، والذي تمخض عنه الآن الحزب الشيوعي، كانوا جميعاً اشتراكيين سابقين^(١) ومن الأسماء الجديرة بالذكر نيقولاى لينين ورفاقه، والاشتراكي السابق بنيتو موسوليني في إيطاليا وادولف هتلر في ألمانيا وآخرون. وبالرغم من أنهم لم يكونوا اشتراكيين، إلا أنهم استخدموا النموذج الذي وضعه لينين أو قاموا بتقليده.

تصوّر لينين الأول

ولقد ظهر تصوّر لينين الأول للحزب في عام ١٩٠٢ وذلك في كتاب بعنوان: «ما يجب أن نفعله؟ ونتيجة لذلك دعا إلى حزب «الثوريين المحترفين» Revolutionary Professional، الذين عليهم مهمة تكريس حياتهم لفرض

(١) إن الاستثناء الوحيد من ذلك قادة حزب «الكومنتانج» في الصين، الذين اتبعوا رئيسهم الدكتور صن يات سن، إذ طبقوا على حزبهم النظام السوفييتي الكامل عام ١٩٢٤، دون أن يطلوا المبادئ الصينية الراسخة أو الطابع الصيني.

السلطة من حزب يوجه مركزيا، وعلى مستوى رفيع من النظام... حزب المركزية الديمقراطية. وبمرور الوقت ذبلت الديمقراطية، وبقيت المركزية فقط كما أشرنا في الفصل السابق.

ولقد أدمج لينين في برنامج حزبه بعض تصورات النقابيين الفوضويين، عن استخدام نقابات العمال للأغراض الثورية. ولقد تصور لينين الفكرة - على نقيض ما تصوره ماركس - بأنه بدون التحالف مع عناصر أصحاب الملكيات الصغيرة والفلاحين، لا يمكن الإستيلاء على السلطة في روسيا. وبخلاف هذه التعديلات في التنظيم والاستراتيجية، فإن لينين تبع أفكار ماركس الرئيسية حول الاشتراكية، التي تنص على ضرورة قيام الحزب الذي يبنى من الطبقة العاملة. لقد ولد من رحم حركة ماركس الاشتراكية حزب جديد، ابتعد شيئا فشيئا عن الاتجاهات الديمقراطية للحركة الاشتراكية في أوروبا الغربية.

وجاء حزب لينين إلى السلطة نتيجة انهيار القيصرية الملكية في الحرب العالمية الأولى. ولم يكن على لينين بذل الكثير للاطاحة الحقيقية بالقيصرية، ولكنه بمعاونة المانيا الامبريالية، قوض الحكومة الديمقراطية التي تلت الحكومة القيصرية. لقد كان من بين أول الأعمال التي قام بها حزب لينين البلشفي، القيام بالحل الجبري للجمعية الدستورية المنتخبة حديثا، والتي كانت بمثابة البرلمان الوحيد في تاريخ روسيا كله الذي تمت انتخاباته في ظروف حرة.

الثورة البورجوازية الديمقراطية

ولقد زعم لينين أنه ينشد ديمقراطية أسمى من الديمقراطية الغربية، وأن هذه الديمقراطية ستولد بواسطة دكتاتورية البروليتاريا. إن هذا الزعم لعبة أيديولوجية ماهرة لا تؤدي في النهاية إلا لحكم طغوائي جماعي، كما حدث في جميع الدول التي استولت عليها الأحزاب الشيوعية، شأنها في ذلك شأن الدول ذات الحزب الواحد سواء أكانت حمراء، أم خضراء، أم زرقاء.. إن المطالبة بحقوق الفرد في المجتمع لا بد وأن تؤدي إلى الديمقراطية، بينما دكتاتورية أي حزب سوف تؤدي إلى الطغوائية

وما لا شك فيه، ومع التعديلات التي أدخلت على النظرية فإن كتابات

ماركس ما زالت المرجع الأساسي للمادية الجدلية. لقد طوّر لينين من النظرية، وابتكر نظرية أطلق عليها «الثورة البورجوازية الديمقراطية». وهى ثورة تتباين تماما عما تصوره ماركس، الذي تنبأ بأن الثورة الاشتراكية سوف تقوم فقط في الدول المتقدمة صناعيا مثل المانيا حيث هناك اعداد ضخمة من الطبقة العاملة. لقد تخيل لينين احتمال قيام الثورة في الدول الأقل تقدما في الصناعة مثل روسيا حيث حجم الطبقة العاملة أقل من عدد الفلاحين، ومن ثم هيات نظريته فرصة التحالف الشيوعي مع الفلاحين.

ويؤيد ذلك ما جاء في أعمال لينين حيث يقول: «إن مجرى الثورة قد أكد وجهة نظرنا. ففي بادىء الأمر زحفت طبقة البروليتاريا مع الفلاحين ككل، ضد الملكية والاقطاع وضد آثار العصور الوسطى البائدة. وإلى هذا الوضع، فإن الثورة مازالت بورجوازية، أو بورجوازية ديموقراطية. وبعد ذلك زحفت البروليتاريا مع الفلاحين الفقراء ومع اشباه البروليتاريا والطبقة التي استغلت ضد الرأسمالية وضد تجسيدها في الريف، أعنى الكولاك والمضاربين، بحيث أصبحت الثورة الآن ثورة اشتراكية» (*).

وهكذا بينما نظر ماركس إلى الفلاحين كمتاع للملاك، منحهم لينين الأرض لاغرائهم على مسانده للوصول للسلطة، ثم نزعها منهم في مرحلة لاحقة.

ومن ثم فإن لينين كان يرى نوعين من الثورة: ثورة اشتراكية في الدول الصناعية المتقدمة، وثورة بورجوازية ديموقراطية في المجتمعات الزراعية. ولقد تصور - كهيجل. أن منهج الثورة والتنافس سوف يقوم بالتنظيم ذاته - الحزب الشيوعي. وهذا الالتواء النظرى ربط لينين نتيجة ذلك - في توليفة جديدة - بين الحركة الثورية في المستعمرات الحامدة حينئذ، وبين الحركة الثورية الاشتراكية في الغرب.

كذلك اختلفت أفكار لينين حول سلطة الحزب الشيوعي كتنظيم محترف منظم عن وجهات نظر ماركس. ذلك أن كارل ماركس خلال إقامته في إنجلترا

* Nicolay Lenin , Collected Works (Russian edition) Vol. XV. PP. 508 - 509.

في منتصف القرن التاسع عشر، كان قد أوضح وجهة نظر سليمة بنوع ما عن البورجوازية كطبقة حاكمة. ومن ناحية أخرى، فإن لينين رأى أن البورجوازيين ضعاف في الرؤية الإجتماعية، وفي التماسك القيادي. لقد ظن أنهم طبقة من الناس تتنزع دائما في سبيل الكسب الفردي. ونتيجة لذلك فإن حزبا منظما تنظيما عاليا من مهيجين وتكتيكيين في استطاعته أن ييز البورجوازية.

ستالين محور آلة السلطة

إن كارل ماركس وفردريك إنجلز - المؤسسين للحركة الشيوعية - لم يزعجا نفسيهما بمشاكل مجتمع العمال الاشتراكي. لقد تصورا مجرد نظرية تعارض المجتمع القائم. وكان هناك القليل في كتاباتها عن ذلك، عدا توقعات غامضة تتعلق بدور البروليتاريا بعد الاستيلاء على السلطة.

وأجبر لينين وتروتسكي على إعادة تفسير ماركس كي يقوموا بحكم روسيا. ومع ذلك، فإن لينين لم يعيش طويلا ولم تسنح له الفرصة إلا كي يقود آلة الحرب الثورية خلال الحرب الأهلية، وكي يرأس المراحل الأولى للحكومة السوفيتية الجديدة. وترك الأمر لستالين بعده كي يصفى تروتسكي، ويشعل مشاعل الطريق الذي تتبعه الشيوعية القائمة في السلطة. واستنفذت سبع سنوات من حياة ستالين السياسية (١٩٢٣ - ١٩٣٠) ليصبح محور آلة السلطة السياسية السوفيتية، وثمان سنوات أخرى ليصبح حاكمها المطلق، ولكن نمودجه في الحرب الثورية أصبح واضحا في أقرب وقت (*)

وفي عام ١٩٢٨ تحولت الدفة من البروليتاريا إلى الفلاحين للتأكيد بأن الريف هو « محور الثورة الاستعمارية ».

وعلى الرغم من أن « ماوتسي تونج » هو صاحب الفضل في نقل المحور من البروليتاريا الحضرية في الصين، فإن عملية النقل إلى الفلاحين « كمحور الثورة الاستعمارية » تبناه المؤتمر السادس للكومنترن الذي عقد في موسكو عام ١٩٢٨. إن فكرة « ماو » في استقلاله المقترح عن خط « كومنترن » ستالين غامض إلى حد

* احتاج خروشوف في جيل لاحق إلى المدة ذاتها كي يعزز مركزه.

كبير ذلك أن ماوتسى تونج - الذي رأى التحصن في الريف كمبدأ أساسي، وليس كابتكار استراتيجي مؤقت - لم يكن شيوعيا منحرفا، بل كان مثل الرجل الذي يفضل استخدام العصا بدل المدفع، لانه لن يجد في الغابة سوى العصى ليقاقل بها. وبلا جدال، فإن «ماو» لم يكن مجرد «أحمق»، ذلك أنه وأتباعه لم يعدوا أنفسهم مطلقا قادة حزب الفلاحين، بالرغم من أن «لا تيمور» زعم أنه خلال العشر سنوات التي سبقت الحرب اليابانية الصينية، انفصل الشيوعيون الصينيون عن المدن وعمال المدينة، وأصبحوا يكونون حزب الفلاحين. ولكن أعمال «ماو» وأتباعه كانت تحكمها مصالح القرى أو تجدها. وحينما أجبرت ظروف الحرب الأهلية الشيوعيين الصينيين للعمل في الريف، توقعوا دائما العودة إلى المدن. وحينما تم استيلاؤهم على المدن، فعلوا تماما ما قام به البلاشفة بعد ثورة أكتوبر *

صراع ستالين لاحتكار السلطة

كانت مشكلة تراكم رأس المال من أخرج المشاكل التي واجهت ستالين، ولذا تم مناقشة هذه المشكلة في موسكو عام ١٩٢٨، ونتج عنها سلسلة من العواقب، لها ارتباطات وثيقة بالعمليات السياسية التي ابتكرها ستالين.

كان التراكم الأولى «لرأس المال» المطلوب للهدف المنشود وبالخطى المطلوبة، لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق واحد فقط هو: العنف، ثم العنف الأشد فالأشد، فالأكثر شدة. لقد استخدم العنف ضد الطبقة العاملة والمزارعين، الذين عدوا أنفسهم مظفرى الحرب الأهلية، والذين تعلموا أن ينظروا إلى ذاتهم - والبروليتاريا بخاصة - كطبقة حاكمة.

لقد دعت خطة ستالين إلى «حرب على المزارعين الروس» فحط من قدرهم وأنزلهم إلى حالة رق للدولة. وكان المزارعون هم الضحايا الأولى لعملية تراكم رأس المال، إذ أصبحوا مجموعة من «المستعمرات الداخلية»^(١) Inner

* Karl A. Wittfogel, Oriental Respotism, p. 442.

Colonial تستغل بواسطة الطبقة الحاكمة الجديدة. ولقد تم اختيارهم لأنهم كانوا يمتلكون الثروة الوحيدة التي يمكن تصديرها للتبادل مقابل التكنولوجيا الغربية. وخلال تلك المرحلة من الخطة، تم تعبئة البروليتاريا نفسها ضد المزارعين. وهكذا اختفى التحالف بين العمال والمزارعين، الذي كان أساس توليفة لينين في سبيل الاستيلاء على السلطة.

وكان للحرب الأهلية الجديدة التي قادها ستالين تأثيرا بالغا على روسيا، إذ تطلبت فناء ملايين من الضحايا، كما أن معسكرات العمل الجبرى امتلأت بالملايين من الأنفس. ونضب معين تموين الطعام للمدن وتطلب الأمر نظاما صارما لتوزيع الطعام.

كذلك منحت الحرب ضد الفلاحين ستالين فرصة إنشاء اداته المفضلة - الشرطة السرية السياسية - وبخاصة فرعها العسكرى. وبعد أن تم له تدمير العمود الفقرى لمقاومة المزارعين عام ١٩٣٥، كان على استعداد ليدير الدفة في مواجهة الطبقة العاملة ذاتها.

إن التراكم الأولى بالخطى التي أرادها ستالين - وهذه ما كانت تتحقق دون نوع من الاستقلال - أدّى إلى انخفاض ظروف الحياة بالنسبة للسكان العاملين إلى مستوى الكفاف. كما أن زحف ستالين الجبرى تجاه التصنيع تطلب وسائل بدنية تقود قوى ضخمة من العمل الرخيص. ولذا فإن حزب لينين الذى ورثه ستالين، ما كان يمكن استخدامه لشن حرب قاسية على الطبقة العاملة التي كانت تدعى أنها تجسيد للحزب، والمثلة التاريخية له. وهكذا، ألغى حزب لينين، وحل محله آخر هو الشرطة السرية العسكرية، التي أسسها ستالين لشن حربه على المزارعين. وبالطبع فإن الشرطة السرية كانت من تركة روسيا الامبريالية، ولكن ستالين استخدم هذه الأداة بصورة أكثر ضراوة مما حدث في عهد أى قيصر.

وقام ستالين بتطهير الحزب بواسطة الشرطة السرية، ويعد هذا الإجراء المرحلة الأولى لشن الحرب على الطبقة العاملة. وبحلول عام ١٩٣٦، كانت المرحلة فى عنفوانها الكامل، حيث تم إعدام آلاف من الناس واعتقال مئات

الآلاف. وفي عام ١٩٣٨ ، حينما وصل الرعب الى نهايته ، كان معظم صفوفة الشيوعيين القدامى الذين تحملوا وطأة الحرب الأهلية وأقاموا الحكومة السوفييتية ، إما في عداد الموتى ، وإما في معسكرات العمل الجبري . وهكذا اندحرت المقاومة على هذه الجبهة ، وسيطر ستالين وشرطته السياسية على الميدان .

لقد انتصر ستالين في الحرب على شعبه ذاته!

وبدأت حرب جديدة ، وجهت هذه المرة إلى البروليتاريا ، وذلك بموجب لائحة حولت اتحادات العمال إلى رق كامل للدولة ، كما منعت حرية التحرك من مصنع لآخر ومن مدينة لأخرى . كذلك تم التوسع في قوانين التخريب وأعيد تحديدها ، وعد الوصول المتأخر إلى محل العمل جريمة تتعرض لأشد العقاب ، متضمنا ذلك السجن .

وبموجب هذه الحملات المتعددة على المزارعين والحزب والعمال ، تم تدمير حزب لينين ، بالرغم من المحافظة على شكله . ومرة اخرى تم هذا باسم لينين وبإسم الحزب لقد هاجم ستالين اعداءه باسم آهتهم العقائديين . وكانت مناورات ستالين السياسية تجرى على الاقل فوق السطح ، ووفقا للأسفار الشيوعية ، وبينما كان ضحاياه يعانون الارتباك والتشوش ، وجه ستالين ضربته إليهم .

تكوين طبقة سوفييتية جديدة:

وبزغت في المجتمع السوفييتي نتيجة هذه التطورات الداخلية ، طبقات اجتماعية جديدة ، فصار التكوين الطبقي على النحو التالي:

(١) الصفوة السياسية أعني الحزب الشيوعي .

(٢) طبقة الادارة .

(٣) العمال أو البروليتاريا .

(٤) مزارعي التجميع الزراعي .

(٥) عمال السخرة .

على أن جميع هذه الطبقات الكبرى مقسمة في حد ذاتها ، إلى طبقات فرعية

مثل العمال المهرة، وأنصاف المهرة، والعمال اليدويين.. إلخ. كما ان الطبقة الحاكمة الجديدة، جديدة في كل ناحية - القاب جديدة، ومزايا جديدة، وأجور عالية، وسلطة متزايدة على العامة. إن مميزات الطبقة الجديدة بينها بوضوح ميلوفان جيلاس النظري اليوغوسلافي السابق للحزب الشيوعي اليوغوسلافي بقوله: «إن النظرية التي تنص على أن الشيوعية المعاصرة ضرب من الطغوائية الحديثة ليست فقط واسعة الانتشار، بل أنها أكثر النظريات دقة. ومع ذلك فإن الإدراك الحقيقي للاصطلاح «الطغوائية الحديثة» حيث يمكن مناقشة الشيوعية ليس واسع الانتشار بنوع ما.

«إن الشيوعية المعاصرة ضرب من الطغوائية يتكون من ثلاث عناصر رئيسة للسيطرة على الشعب، أولها السلطة، وثانيها الملكية، وثالثها الأيديولوجية. هذه العوامل يجتكرها الحزب السياسي الوحيد، أو وفقا لتفسيرى السابق وعلم الاصطلاحات - طبقة - وهي في الوقت الحاضر اوليجاركية هذا الحزب أو هذه الطبقة. وليس هناك نظام جماعي في التاريخ، حتى المعاصر منه - باستثناء الشيوعية - نجح في ادماج كل هذه العوامل في وقت واحد للسيطرة على الشعب بهذه الدرجة» (★)

تمويل الأحزاب الشيوعية

إذا كان رجل الشارع لا يعرف إلا القليل عن الأعمال التنظيمية لنظام الحزب الشيوعي، فانه يعرف الأقل عن وسائل تمويل العمليات الخاصة بنشاط الحزب. ومن المفترض عادة أن تكاليف بعض نشاطات الحزب تغطي بواسطة الاشتراكات كما يحدث في كل حزب شيوعي بأي دولة، أو قد تقوم موسكو بالدفع لمعظم هذه الاحزاب. ولكنها لا تدفع للأحزاب التي تعمل في الدول خارج الستار الحديدي اكثر من ٢٠٪ من تكاليف عمليات هذه الأحزاب. ومن ثم فإن موسكو تتوقع أن تقوم الأحزاب في هذه الدول بتدبير ٨٠٪ من تكاليف أنشطتها من داخل الدولة التي تعمل بها.

* Milovan Djilas, The New Class, PP. 166 - 167.

إن السياسة الشيوعية هنا تحمل شعار «دع الرأسمالية تدفع في سبيل تدمير ذاتها». على أن العشرين في المائة التي تدفعها موسكو لا يمكن دفعها بالروبلات، ذلك أن وحدة العملة السوفيتية لا قيمة لها خارج الستار الحديدي، ومن ثم ينبغي الدفع بالدولارات أو بأي عملة أجنبية.

وتظهر العشرون في المائة التي دفعها السوفييت للأحزاب في الدول الرأسمالية في شكل «منح استراتيجية»، أعني أن موسكو تقر كيف تصرف هذه الأموال، ومن خلال ممثلها تتأكد أن هذه الأموال صرفت فعلاً في اغراضها.

وعلى أية حال فإن النموذج العام لتخصيص هذه الأموال هو كما يلي:

أولاً: بالنسبة للحفاظ على الجهاز المركزي للحزب، وأنشطة الدعاية، والصحف المركزية مثل «الديلي وركر»، لا تدفع موسكو التكاليف كلها، بل تتكفل بالعجز فقط وهكذا تضمن استمرار الجهاز المركزي للحزب.

ثانياً: تدفع المنح الاستراتيجية اللازمة للتسلل أو تنظيم الأنشطة بين عمال المواصلات كذا الأموال اللازمة للتغلغل بين عمال الموانئ الحيوية، وعمال السكك الحديدية.

ثالثاً: تدفع المنح اللازمة للتسلل في الصناعات الاستراتيجية، مثل الفحم والحديد والفضة والنحاس، الأعمال الكيميائية، ومصانع الصلب.

رابعاً: تدفع المنح اللازمة للتسلل في القوات المسلحة وأنشطة الشباب.

خامساً: تدفع المنح اللازمة للتسلل الايديولوجي والتنظيمي بين الافراد ذوى الياقات البيضاء في مصالح الحكومة والمعامل والصحف - الخ.

على أن معظم هذه الأنشطة باهظة التكاليف في مراحلها المبديية، وعائدها بطيء. ومن ثم تستخدم منح موسكو لتمهيد الطريق، بينما يغطي الحزب التكاليف التي تجيء بعد ذلك. كما أن ما هو استراتيجي أو غير استراتيجي يختلف من دولة إلى أخرى. ففي الدول المتخلفة، قد تستهلك معظم المنحة في العمليات التي تجرى بين الفلاحين والطلبة والمثقفين، وتكون النسبة أقل من العمليات الخاصة بالعمال.

وإذا أصبحت دولة ما هدفاً أولياً، فإن منح موسكو سوف تزداد قيمتها، ولكنها قد تحدد فقط وفقاً لقدرة التنظيم لامتناعها بكفاءة. وقد تزداد المنحة إذا كانت الدولة على وشك أن تصبح هدفاً مباشراً للغزو. ففي هذه الحالة، تدبر الاعتمادات لشراء الصحف المرغوب فيها من خلال حزب ثالث، وذلك لإفساد الأحزاب الصغرى المتنافسة وزعمائها، ولتدمير الأسلحة. وعلى العكس، إذا أصبحت الدولة أقل أهمية فإن المنحة تخفض إلى الحد الذي تضمن المحافظة على الجهاز المركزي للحزب. وعلى أية حال، فإن سياسة موسكو في المنح التي تدفعها للأحزاب الشيوعية المختلفة. مرنة للغاية، وتكيف نفسها وفقاً للاستراتيجية الشاملة.

وبالرغم من حجم رئاسة التنظيم الشيوعي في موسكو، إلا أن الحزب الشيوعي السوفييتي فقط هو الذي يدفع نصيبه. ومن الناحية الرسمية فإن الحركة الشيوعية الدولية تظهر اليوم كاتحاد فيدرالي عالمي أخوي مكون من أحزاب شيوعية ذاتية الاستقلال أو شبه مستقلة، ولا تعتمد على الحكومة السوفييتية. وفي عام ١٩٢٨، أدخل في دستور «الكومنترن» بند ينص على أن كل الأحزاب ينبغي أن تساهم بالمستحق عليها. ولقد أضيف هذا البند لتدعيم هذا الوهم، ولكنه لم يعمل به قط. إن هذا يوضح أن الأحزاب الشيوعية ورئاستها العالمية تعتمد على الحكومة السوفييتية، وتعمل كأدوات، ومن ثم فإن «الكومنترن» هو النظام السياسي العالمي الوحيد الذي لا تسدد فيه أنصبة المنضمين للحفاظ على رياسته، كما أن فروعه تدفع لها المنح بدلاً من أن تساهم بالمستحق عليها.

والآن يجدر بنا أن نشير في إيجاز إلى كيفية تدبير الأحزاب المحلية للأموال. ولنتذكر هنا أنه برغم أن جميع أنشطة الحركة الشيوعية موجهة، فإن معظمها ينفذ طواعية، أعني أن العضو الفرد يهب وقته لها، ويشارك بماله في التمويل. ولا يتناول أجراً في الحزب سوى الصفوة المتفرغة تفرغاً كاملاً لنشاط الحزب، وهي أجور تقارب في الدول الرأسمالية أجر العامل الماهر، وفي بعض الأحيان تكون أقل من ذلك.

على أن الاعتمادات التي يدبرها الحزب تغطي مصروفات الدعاية والإثارة، والرئاسات وأجور الصفوة، واجتماعات الجماهير وحملاتها.

وبين حين وآخر، يتدثر الحزب برداءات « سامرية »، وينفذ حملة قومية ضخمة لصالح الأفراد الشيوعيين الذين حكم عليهم بالإعدام، وبمثل هذا الأسلوب قاد الشيوعيون حملة ساكو-فانزيتي في أواخر العشرينات، وحملة روزنبرج في الخمسينات، وحملة أولاد سكوتسبورو Scottsboro boys في الثلاثينات. ويعبأ في مثل تلك الحالات قدر كبير من اعمال الاثارة، كما تنظم الاجتماعات الجماهيرية بين أنحاء العالم، ويقوم الخطباء بزيارة كل التنظيمات غير الشيوعية الممكن اللقاء معها. وتزحف مظاهرات الشوارع كما تقوم الاضرابات. كذلك تطبع طوابع التبرع وتجمع في الشوارع لصالح ضحايا الطبقة والتمييز العنصرى. إن هذه الحملات المثيرة، بجانب قيمتها السيكولوجية - السياسية، تعد مصدر تمويل قيم للحزب.

وتعد حملات مشابهة بين حين وآخر إزاء اضرابات معينة يختارها الحزب للقيام بمسرحية معينة وسوف تقوم الحملة بجمع الاكتتابات لمعاونة المضربين وفك اعتقالهم. وسوف تبتز جميع الاتحادات المسيطر عليها إلى أقصى درجة باسم هؤلاء الضحايا وبالطبع فإن جزءا كبيرا من هذه الأموال، سوف يجد سبيله الى خزينة الحزب.

وفي دول بعينها - كإيطاليا - يقوم الحزب بإدارة أعمال تكون كمصدر دخل للحزب. ويقوم الحزب الشيوعى فى إيطاليا بالعمل فى تجارة الجملة للمواد الزراعية، كذلك أعمال السمسة فى عمليات الشركات التجارية بين الغرب والشرق.

الخلاصة:

على هذا النحو كانت الحرب الثورية الشيوعية ولا تزال - أساسا - حربا اجتماعية فى محتواها، ولتنظيم الحزب الصلب دور ضخم فى تأدية مهمته كأداة وظيفيه فى الحرب الثورية الشيوعية. ويكون هدف هذا الحزب الصلب

تدمير كل الأحزاب الاخرى، وليس التنافس معها. ولقد صمم تنظيم الحزب على أساس المركزية الديوقراطية التي أدت الى احتكار السلطة ثم الى النظام الطغوائى. والحق أن ذلك أفاد حكام الكرملين، لأنه هياً لهم سيادة تامة على جميع وسائل الحرب الثورية وأسلحتها كما ساعدهم على احتكار السلطة التي استخدمت بصورة عنيفة فى فترات مختلفة، حيث ادت اعمال العنف الى مجزرة رهيبة وحمامات بشعة من الدم.

على أنه من ناحية أخرى أدخلت تعديلات على نظرية الحزب بواسطة زعمائه ليتمكنوا من الحكم، عن طريق احتكار السلطة والسيطرة على الجماهير، ووصل الأمر فى النهاية الى أن ستالين خاض غمار حرب على حزبه ذاته.

وبقدر ابتعاد النظام فى روسيا عن طبقتة الأساسية، فان الحرب الثورية الشيوعية الداخلية قد تحررت يقينا من قيودها السابقة، ومع ذلك فما زال هناك خارج سيادة الدولة أوهاام فى عقول الناس، واستغلالات واضرار لحقت ٣٣. إن الابتعاد الكبير عن الماركسية وحتى اللينينية يعد جزءا من الإرث الذى خلفه عهد ستالين.

وعلى الرغم من حملات التنديد التى أدانت حكم ستالين، والتى انتهت بإزالة جسده من مزار لينين القائم فى الميدان الأحمر بموسكو، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل الدور الذى لعبه ستالين فى الحرب الثورية، والجهود التى بذلها فى إرساء قواعد التصنيع السوفييتى والقوة العسكرية السوفيتية على حساب حياة وآلام ملايين من البشر داخل الاتحاد السوفييتى.

وأخيرا فإن عمليات تمويل الأحزاب الشيوعية تتسم بثلاث سمات رئيسية: أولها مرونتها وتكيفها.. وفقا للمواقف المختلفة، وثانيها عمليات ابتزاز الأعضاء وثالثها جعل الرأسمالية تدفع لدمارها.

احتكار السلطة والسيطرة

وضع لينين أسس النظرية الشيوعية عن الدولة، وقام خلفاؤه باستكمالها، وهي نظرية تؤيد فكرة الدكتاتورية الجماعية لبيروقراطية الحزب. وهناك عنصران جوهريان في هذه النظرية هما: نظرية الدولة وحدها، ونظرية ذوبان الدولة. ويقترن كل من هذين العنصرين بالآخر تبادليا، ويمثلان - وهما مجتمعان - النظرية بأكملها.

لقد حول لينين الدولة إلى قوة، وبمعنى أدق إلى عنصر من عناصر الطغيان، الذي تستخدمه إحدى الطبقات بفرض الجور على الطبقات الأخرى. وأدرك لينين كذلك وظائف أخرى للدولة، ولكنه كشف في هذه الوظائف عما كان يعده أكثر الأدوار الضرورية التي تلعبها الدولة - وهو استخدام إحدى الطبقات القوة البربرية ضد الطبقات الأخرى.

وتصور لينين في بادئ الأمر - مؤيدا ماركس - بأنه من الممكن قيام مجتمع بلا دولة، وحاول تبرير افتراضه دون الدخول في مناقشات. كان يتخيل مجتمعاً لا طبقياً، خالياً من الطبقات وصراعاتها، ومن ثم لا تصبح هناك ضرورة لقيام الدولة. ولكن إلى أن يحين هذا الوقت، فإن دكتاتورية البروليتاريا هي أنسب الأشكال الديمقراطية للدولة، ذلك لأنها وفقا لتصوره تلغى الطبقات.

وكان لا مفر من قيام حزب يؤدي دوره في هذه الرسالة، ولكنه حيناً بدأ يزحف نحو السلطة ليمسك بزمامها، تغيرت مفاهيمه، وعدلت النظرية لتدعم احتكار الحزب للسلطة.

مراحل التكيف

إن العملية التي قام بها الحزب الشيوعي لاحتكار السلطة في روسيا أولاً، ثم

في أنحاء الأراضي الشاسعة التي يطلق عليها الآن اسم «الاتحاد السوفيتي»، قد تبعها تكيف محلي أينما نجح الشيوعيون في السيطرة. وتنقسم هذه العملية الى ثلاث مراحل: سيادة سياسية من خلال سلطة الشرطة، ثم سيادة اقتصادية عن طريق مصادرة ملكيات الطبقات، واخيرا تقويض الأيديولوجية البوجوازية وبخاصة تلك الأجزاء المتعلقة بالحقوق النظرية للفرد.

على أنه قبل الحديث عن السيادة السياسية التامة في الاتحاد السوفيتي، ينبغي أن نمر في عجالة بصورة هذا الاتحاد. إن من الأهمية بمكان أن ندرك أن الاتحاد السوفيتي في حد ذاته ليس تركيبا من كيان واحد، إنما هو اتحاد جبري يسوده العنصر الروسي، وأساسا الحزب الشيوعي. كما أن العنصر السلافي الروسي في الاتحاد السوفيتي يشكل أكثر من نصف مجموع السكان بقليل. وفي الواقع، ووفقا لما قاله ادوارد جرانكشو، فإن روسيا هي إحدى القوى الاستعمارية العظمى، وهي ليست كبريطانيا ولا فرنسا، إذ أنها لم تتخل عن بوضة واحدة من الأراضي التي اغتصبتها من الشعوب الصغيرة. إن غزو سيبيريا قد تم تقريبا دون أن يلاحظه العالم الخارجي. وتحركت روسيا عبر القرون ببطء نحو الشرق حتى وصلت إلى المحيط الهادئ. ولكن الغزو تضمن مع ذلك حروبا صغيرة تفوق الحصر، بالإضافة إلى عمليات اخضاع وتحقير لقبائل وقوميات أسيوية لا حصر لها.

وجدير بالذكر ان نقول إن الشيوعيين من الناحية النظرية والعملية، يدركون أنهم في نزاع مستمر مع جميع الطبقات والأيديولوجيات الأخرى، ومن ثم فإنهم يحددون مسلكهم وفقا لذلك. وهكذا لا يكتفون فقط باستئصال المعارضة الفعلية فحسب، بل يقومون أيضا بتصفية المعارضة المحتملة.

ففي دول البلطيق أبعد آلاف الناس في ليلة واحدة بحجة العثور على وثائق تشير الى اعتناقهم فيما مضى آراء سياسية أو أيديولوجية مختلفة. وكانت مذجة غابة كاتين التي أعدم فيها آلاف من الضباط البولنديين ذات طابع مماثل.

لا جرم إنه في ظل الشيوعية، يستمر استخدام وسائل الارهاب والقهر الى ما بعد تنفيذ الثورة بوقت طويل. على أنه في بعض الأحيان يتم اتقان هذه

الوسائل، وتغدو أكثر اتساعا وشمولا مما كانت عليه إبان قيام الثورة، مثل ما حدث عند القيام بتصفية القولاق.

تحقق السيادة السياسية:

لقد صاحب قيام الثورة إنهار للسلطة المركزية إزاء القوميات الأخرى، ذلك أن امبراطورية شاسعة كانت تتحرك نحو التفكك والانفصال. ولم يتضمن ذلك القوميات الآسيوية فحسب، ولكن شمل أيضا الاوكرانيين وقوميات البلطيق الصغيرة. ومن بين كل هذه القوميات احتفظت قوميات البلطيق فقط بكيانها المستقل، حتى أعيد احتلالها مرة أخرى بواسطة الروس عام ١٩٤٠. وهكذا تم تكوين الاتحاد السوفيتي.

وتحققت السيادة السياسية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في اوائل عام ١٩٢٨، ولكن مع ذلك لم تتم السيطرة الاقتصادية الكاملة له الا بعد مصادرة أملاك المزارعين بعد عشر سنوات لاحقة.

إن الحرب الثورية الشيوعية تعمل في الوقت ذاته ضد الدول غير الشيوعية، وضد الشعوب في الدول التابعة لسيادتها. وتشن حرب تعزيز مستمرة بواسطة التنظيم الشيوعي الكهنوتي في الدول التي تسيطر عليها الشيوعية. أما خارج الكتلة الصينية السوفيتية، فإن الحرب تشن بواسطة الأحزاب الشيوعية - الشرعية وغير الشرعية - التي تعارض الحكومات القائمة، بالمساندة الضمنية للدول الشيوعية.

وهكذا فإن للحرب الثورية الشيوعية جبهتين: داخلية وخارجية. كما أن الحرب في الجبهة الداخلية تؤثر على الأعمال في الجبهة الخارجية، التي سنتحدث عنها في الفصل السادس من هذا الباب.

تحول الحزب

ومما يذكر أن ستالين تخيل الحرب على الجبهة الداخلية، وبالرغم من تقويض الستالينية، فإن أثرها في الحزب الشيوعي ما زال ملموسا. وكانت الاجراءات التي لعبت الدور الأكبر في تحول الحزب خلال حكم ستالين هي:

(١) القضاء على المناقشات المفتوحة داخل الحزب .

(٢) بناء الشرطة السرية .

(٣) تطهير الحزب .

(٤) الابتكارات المتعلقة بضم أعضاء جدد .

ولم يكن ستالين من أصحاب النظريات ، فقد شارك في المناقشات النظرية فقط وبقدر الضرورة اللازمة لتأمين ادارته لجهاز الحزب وسيطرته عليه . وأدرك أنه في نظام الحزب الواحد ، يصبح من يسيطر على جهاز الحزب هو المسيطر في النهاية على السلطة كلها .

ولقد بدأ تركيز السلطة المتزايدة في يدي جهاز حزب ستالين البيروقراطي ، باغتصاب سلطة الإدارة باسم اللجنة المركزية للحزب ، ثم باسم المكتب السياسي ، واخيرا بإسم سكرتارية الحزب وفروعه التنظيمية . واختفت الديمقراطية داخل الحزب تبعا لتركيز السلطة في يدي ستالين . وحدث كل شيء تحت واجهة دستور الحزب ، وفي حمى اللجنة المركزية التي انكشفت اجتماعاتها يوما بعد يوم ، كلما مرت السنون كما نوهنا من قبل .

وحيثما كانت تجتمع اللجنة ، كانت تتم اجتماعاتها لمجرد التصديق على أعمال ستالين . كذلك أصبحت اجتماعات الحزب نادرة ، وكانت تعقد فقط للتصديق على ما اتخذته ستالين من قرارات .

كان ستالين لا يثق في الناس ، حتى بالنسبة إلى اقرب المقربين ، ومن ثم انشأ الشرطة السرية كإدارة قهرية تضمن سيطرته على الحزب . وكانت الشرطة السرية أشبه بجستابو هتلر ، وكالة عسكرية مختارة ومدربة تدريباً عالياً ، وتدين بالطاعة العمياء لستالين بصفته سكرتيراً عاما للحزب . ولقد استخدم ستالين الشرطة السرية في بادئ الامر ضد أعداء الطبقة ، ولكنها استمرت تنمو وتزدهر حتى بعد القضاء على «أعداء الطبقة» . واخيرا استخدم ستالين الشرطة لاختضاع الحزب ذاته .

وكان للشرطة السرية وحدات للعمل السرى في كل مكان ، في المصنع ، وفي السكك الحديدية ، وفي القوات المسلحة ، وحتى في رئاسة الحزب .

أما معسكرات عمل الرق، فكانت مجال سيادة الشرطة بلا منازع، كما أوكلت إليها مهمة حراسة الحدود.

ولم يشعر ستالين بالأمن الكامل حتى مع قيام جهازى الحزب والشرطة فى قبضته. لقد كانت القوات المسلحة مثار قلق دائم. وافترض الزعيم السوفييتى - لأسباب معينة - أن الرجال المجندين من بين الشعب يحملون له ولنظامه نفس الكراهية التى يكنها له الشعب ذاته. ولم يكن فى استطاعة ستالين أن يستغنى عن الجيش والبحرية والقوات البحرية، ولكنه استطاع أخضاعها للسلطة السياسية، وذلك بإنشاء الإدارة السياسية، التى ربطت خلايا الحزب مع القوات المسلحة، كما قام بتعيين قومسييرين سياسيين ليقوموا بدور كلاب الحراسة ضد الضباط والجنود. وكتديير وقائى نهائى، قام ستالين بجرمان القوات المسلحة من السيطرة على الذخيرة، التى وضعت فى حراسة الوحدات العسكرية لشرطة الدولة. وهكذا أيقن ستالين من عدم احتمال نشوب ثورة ناجحة ضده بواسطة القوات المسلحة.

وبمرور الزمن، أصبح ستالين من خلال إعادة التنظيم يسيطر على أجهزة قوى ثلاث: الحزب، والشرطة، والقوات المسلحة. وكان رؤساء كل مجموعة وفروعها يتم اختيارهم بواسطة ستالين. هذا أساسا هو النموذج الذى يتبعه القادة فى جميع الأحزاب الشيوعية بعد الاستيلاء على السلطة، بل وفى أى دولة ذات حزب واحد.

نقل السلطة

لقد استخدمت الأحزاب السياسية المتعددة وسائل عدة كى تضمن السيطرة السياسية، ولكن مهما كانت الطريق المستخدمة، فإن كل حزب شيوعي يتم بناؤه بحيث يمكن تحويله بسهولة الى جهاز سلطة، كما أنه يصمم كى يشكل الإطار الذى تبنى عليه سلطة الدولة الجماعية.

إن الاستيلاء على السلطة فى النظام الشيوعي عملية طبيعية تتم كما يلى:

- (١) تصفية كل العناصر التى تبدو معادية.
- (٢) الاستيلاء على كل المنظمات الحكومية والخاصة بالقوة، حتى تصبح كل

الأحزاب السياسية المنافسة والتنظيمات الأخرى لا قيمة لها، كما يتم اعتقال زعمائها وقادتها .

(٣) إنشاء نظام شرطة جديد يديره الشيوعيون كلية، ويصبح حمل السلاح احتكارا لهم، عدا القوات المسلحة التي يعاد تنظيمها كي يضمن ولاؤها للحزب .

(٤) تأمين كل المشروعات الكبرى والأرض ومصادرة املاك البورجوازية الغنية فوراً .

وخلال المرحلة الأولى، فإن الأفراد الذين يعدون معادين، إما أن يعتقلوا، وإما ان يعدموا . أما حلفاء الشيوعيين والمحايدين للحزب فيجرى استغلالهم، أو يتركون لمعالجة أمرهم فيما بعد . إن هذا حقيقي خاصة حينما يفتقر الحزب الشيوعى الى النفوذ والتعداد، أو حينما يصبح معتمدا مؤقتا على الحلفاء مثلا حدث خلال السنة الاولى من ثورة كاسترو فى كوبا، كما سيجىء فيما بعد .

وتعطل الاجراءات القضائية خلال هذه الفترة، أو يستبدل بها قضاء ثوري، يعتمد على محاكم استثنائية تشبه إلى حد كبير محاكم الميدان العسكرية .

وتعد المرحلة السياسية من أسهل المراحل الثلاث الكبرى للثورة الشيوعية . وفى خلالها تصادر الثروات المتراكمة للبورجوازية وأملاكهم، كذا ثروات الأعداء الآخرين واملاكهم، ويصبح اعضاء الحزب - جماعة وأفراداً - المنتفعين الرئيسيين .

حقا إن الشيوعيين حينما يتسلمون زمام السلطة، لا يلاقون صعوبة فى تصفية حساباتهم مع البورجوازيين وملاك الضياع الكبرى، ذلك لأن التطور التاريخى معاد لهم ولأملاكهم، مما يسهل إثارة الجماهير ضدهم . كما أن الاستيلاء على املاك البورجوازيين وملاك الضياع الكبرى امر سهل للغاية . ولا تنشأ أية صعوبات إلا عند الاستيلاء على الأملاك الصغيرة . ولما كان الشيوعيون قد اكتسبوا القوة من خلال عمليات المصادرة المبكرة، فإنهم يستطيعون كذلك مصادرة الملكيات الصغيرة، وسرعان ما تحتفى الطبقات القديمة، والملاك القدامى، ويبدأ الناس الحياة بأسلوب جديد .

إن الطريق نحو الطغيان الشيوعي هو إحدى تراكمات السلطة المستمرة في أيدي قلائل فالأقل وهكذا دواليك. ذلك أن الحزب لا يقوم بمصادرة كل الطبقات الأخرى المعادية فحسب، بل يحمل على كاهله أيضا سلطة كل التنظيمات الاجتماعية. وفي نهاية الأمر، يصبح جهاز الشرطة الداخلي الذي أنشأه الحزب هو المسيطر على جهاز الحزب.

معسكرات السخرة

ولقد قام الشيوعيون بعد قيام الثورة الشيوعية مباشرة باغتصاب حق الحرية من العمال في الاتحاد السوفييتي، غير أن حاجة النظام إلى التصنيع العاجل، حالت دون السعي إلى إلغاء مثل هذه الحرية إلغاء كاملا. ولم يحدث ذلك إلا بعد أن انتصرت الثورة الصناعية، وبعد أن قامت الطبقة الجديدة. ففي عام ١٩٤٠، صدر قانون يجرم حرية التوظيف ويعاقب أي فرد يترك عمله. وفي تلك الفترة وبعد الحرب العالمية الثانية، ظهر شكل من أشكال هذا العمل - وأعني معسكرات السخرة -

والواقع أن معسكرات السخرة « هي أسوأ أشكال العمل الإجباري وأكثرها تطرفا. وقد يسود هذا الطابع بصفة مؤقتة في ظل نظم الحكم الأخرى، ولكن هذه الأشكال الإجبارية ظلت في كنف الشيوعية من المعالم الدائمة.

إن العمل الإجباري في النظم الشيوعية ليس إلا نتيجة لاحتكار الملكية كلها، أو احتكار كل الممتلكات القومية تقريبا. وتصبح الدولة المستخدم الوحيد، ومن هنا ليس للعامل أي خيار، بل عليه أن يقبل الشروط التي يملها عليه المستخدم.

وفي المرحلة السياسية تجرى عمليات التطهير والتصفيات على نطاق واسع. ولكي نستطيع أن ندرك كيف يعمل الشيوعيون بعد الاستيلاء على السلطة، نتقنس فيما يلي قائمة بأنواع الطوائف التي أعدت للاعتقال في معسكرات السخرة أو لإعدامها بواسطة الشرطة السرية بعد اجتياح دول البلطيق^(١)

(١) أصدر « برياً » الأوامر التي نفذها « سيروف » في ٢٨ من نوفمبر عام ١٩٤٠. بعد =

(١) جميع الاعضاء السابقين في الأحزاب السياسية المعادية للسوفييت ،
وفي التنظيمات والمجموعات الآتية: التروتسكيين ، الأجنحة اليمينية ،
والمناشقة ، والاشتراكيين الديمقراطيين والفوضويين الخ ...

(٢) جميع الأعضاء السابقين في الأحزاب الوطنية والمتطرفة والمعارضة
للسوفييت ، والوطنيين ، والديمقراطيين المسيحيين والاعضاء ذوي
النشاط في تنظيمات الطلبة والحرس الوطني .. الخ .

(٣) رجال الشرطة السابقين ، وضباط الشرطة السياسية والجنائية
والسجون .

(٤) ضباط الجيش السابقين ، وكل أعضاء المحاكم العسكرية .

(٥) الأشخاص الذين طردوا من الحزب الشيوعي ومن تنظيمات
الشباب الشيوعي لهجومهم المتكرر على الحزب .

(٦) واللاجئون السياسيون ، والمهاجرون ، والعائدون الى أوطانهم
والمهربون .

(٧) جميع مواطني الدول الاجنبية ، ومثلي الشركات الأجنبية
والمستخدمين في مؤسسات الدول الاجنبية ، والمستخدمين السابقين في
الشركات المساهمة ، واصحاب الامتيازات الأجنبية ، والبعثات
الدبلوماسية الأجنبية .

(٨) الأفراد الذين لهم اتصال شخصي أو يتراسلون مع الدول الاجنبية
والسفارات والقنصليات ، وهواة الطوابع البريدية والمتراسلون باللغة
العالمية .

(٩) الرسميون السابقون في مصالح الوزارات .

(١٠) الرسميون السابقون في الصليب الأحمر .

(١١) سكرتيرو المجتمعات الدينية والقسس الارثوذكس ، والرومان
الكاثوليك ، والأعضاء النشيطون في الجماعات الدينية .

(١٢) النبلاء السابقون ، وملاك الضياع ، والتجار ، ورجال المصارف ،

= اجتياح الاتحاد السوفييتي لدول البلطيق .

ورجال الأعمال، وملاك المصانع والمخازن التجارية والفنادق،
والمطاعم.

الثورة الاقتصادية

ما إن يتم التخلص من أعداء الثورة الحقيقيين وأعدائها المحتملين، حتى تأتي المرحلة التالية الأكثر صعوبة، وهي مرحلة الثورة الاقتصادية. ذلك أنه بمجرد مصادرة سلع النظام القديم واستهلاكها، يصبح من الضروري أن يقوم النظام الجديد بالانتاج، ولكي ينتج، فإن الأمر لا يتطلب نظاما وادارة فحسب، بل يحتاج أيضا الى مهارة.

وبالطبع، فإن تنمية الاقتصاد القومي ككل، أمر هام لتدعيم النظام، ذلك أنه من المحال أن نفصل التقدم في أحد فروع الانتاج عن الآخر بصفة دائمة. ومن ثم يصبح التخطيط ذا أهمية قصوى في كل نظام شيوعي إزاء جميع فروع الاقتصاد.

على أن هذه الفروع هي التي تزيد من قدر دور البيروقراطية وقوتها وامتيازاتها. كما أنها هي التي تدعم النظام في علاقاته مع الدول الأخرى، وتهيء الفرصة للنظام كي يقوم بالتصنيع بدرجة أكبر.

على أن التصنيع في النظام الشيوعي يخضع اساسا لاعتبارات عسكرية وسياسية وخارجية أكثر من أي اعتبار آخر. ومن ثم فإن فروع عديدة من فروع الاقتصاد تعثر ولا تعمل بكفاءة، وهكذا أصبح لا مفر من سوء التوزيع، وازدياد تكاليف الانتاج، وتفشي التضخم المزمن.

كما يرجع تعثر الإنتاج أيضا إلى تشتت رجال الإدارة والمهندسين، ونتيجة تآكل المعدات. وخلال الثورة كانت لجان المصانع التي تولت الإشراف على عملية الانتاج، مجرد مجموعات جدل لا تستطيع أن تقوم بأعمال الادارة. لقد تطلب الأمر استخدام السلطة مصحوبة بالمعرفة والخبرة، وسرعان ما تحققت السلطة في شكل مديري المصانع الذين تم تعيينهم من القمة، بينما خفضت سلطة اللجان كي تصبح مجرد ادوات استشارية، وفي النهاية الغيت كلية. وفي السنوات التالية، طرحت الاتحادات داخل الاتحاد السوفييتي جانبا، وتولى

حزب الدولة الوظيفة الشاملة لتحديد ظروف العمل والأجور والأسعار .

ويجدر بنا أن نذكر ان التخطيط السوفييتي له سمة معينة، فهو لم ينبثق نتيجة التطور التكنولوجي، ولا نتيجة لوعي مبتكرية، ولكنه انبثق نتيجة قيام نوع خاص من الحكومة والملكية. واليوم، تؤثر عوامل فنية وغيرها في هذا النوع من التخطيط. غير أن العوامل الأخرى لم تكف بعد عن التأثير في تطور هذا النوع من التخطيط. إن من الأهمية بمكان أن نركز انتباهنا على ذلك، لأنه المفتاح الذي يمكننا من ادراك طابع هذا النوع من التخطيط، وقدرة الاقتصاد الشيوعي .

ومع كل هذا، فقد استطاعت روسيا التي كان يسودها التخلف أن تصل إلى المركز الثاني في الانتاج العالمي في أهم فروع الاقتصاد، أعنى الصناعة. ولقد تمكنت من خلق طبقة عاملة قوية، وقاعدة عريضة من الفنيين، كذا المواد اللازمة لانتاج السلع الاستهلاكية. وليس بالضرورة أن ينتاب الدكتاتورية الوهن نتيجة ذلك، كما لا توجد أسباب أخرى تدعو إلى الاعتقاد بأن مستوى المعيشة لا يمكن ان يتحسن بالنسبة لقدرات البلاد الاقتصادية.

على أن هناك اعتبارات الملكية والاعتبارات السياسية التي يكون التخطيط مجرد اداة لها، وهذه حدثت من فرصة احتمال اضعاف الدكتاتورية إلى حد معين، أو من فرصة رفع مستوى المعيشة، إن الاحتكار الشاغل للجماعة واحدة في ميدان الاقتصاد والسياسة على السواء، كذا التخطيط الذي يستهدف زيادة قوتها ومصالحها في الداخل وفي دول العالم، يعملان باستمرار على تأجيل رفع مستوى المعيشة، وتأجيل النمو الاقتصادي المتناسق. وبلا ريب فإن مصادرة الحرية هي السبب القاطع والأكثر أهمية لهذا التأجيل. لقد اصبحت الحرية في ظل النظام الشيوعي مشكلة اقتصادية رئيسية وعامة.

التجميع الزراعي

إن ما عرف « باسم الإرهاب الاكبر » لم يبدأ في روسيا إلا عام ١٩٣٥، ولكن استخدام الإرهاب كمبدأ للقضاء على المعارضة ضد النظام، كان ظاهرة لحكم البلاشفة منذ قيامه رسميا عام ١٩١٨ بواسطة لينين وكان التجميع

الزراعي ١٩٢٨ - ١٩٣٣ هو التطبيق الشامل له في الريف .

ولا يعرف أي انسان، بل لن يعرف أحد كيف قضى على الملايين من البشر في مجزرة جنونية، وصفها ستالين ذاته بعد ذلك بسنوات - في حديث مع ونستون تشرشل - بأنها كانت أخرج الأزمات التي واجهت الاتحاد السوفييتي، واشد من أزمة الحرب العالمية الثانية ذاتها.

وفي عام ١٩٣٣ بعد أن تمت عملية التجميع، انخفض الإنتاج الزراعي والحيواني في الاتحاد السوفييتي إلى أكثر من النصف. وفي عشية الغزو الألماني لروسيا عام ١٩٤١، لم يكن السوفييت قد عادوا إلى مستوى انتاج عام ١٩٢٨ أى إلى مستوى الانتاج الذي كان قائماً قبل التجميع الزراعي.

والواقع ان التجميع كان شرا عظيما على مستوى كبير، أدت عواقبه إلى تخريب مستمر للاقتصاد السوفييتي. لقد وصل الحال باللاجئين أنهم لم يجدوا الخبز، ومات الآلاف جوعا.

وقام ستالين بدون إخطار سابق، وقدم خطابه الشهير «الترنج مع النجاح» ملقيا لوم الإسراف في عملية التجميع على العاملين من أعضاء الحزب المجليين، وجعل منهم اكباش فداء لتغطية الاخفاق، شأنه في ذلك شأن اي دكتاتور حينما يخفق، فيقدم ضحايا ابرياء. لقد عد خطاب ستالين تحفة ادبية. ومن ثم وجهت ضربة قوية من قيادة الحزب إلى الرجال المسؤولين.

ولقد وصف شولوخوف في كتابه «التربة العذراء تنقلب» الظروف التي كانت سائدة في التجميع. لقد وضع شولوخوف كتابه في أثناء حياة ستالين، ولذا لم يكن لديه الاختيار، فقام بوصف التجميع وفقا للتفسيرات الستالينية. ولما ذاع اخفاق التجميع، لقن الزعماء وأعضاء الحزب ان يلقوا اللوم على القولاق المتآمرين، واليمينيين، والتروتسكيين، والزينوفيفين إزاء كل ما حدث. كما كان هناك دائما التفسير السهل لتخريب الثورة المضادة، وهو أسلوب معروف وشائع في أنظمة الحزب الواحد.

الوحدة الايديولوجية:

لا يتسم الحزب الشيوعي بطابعه الفريد فحسب، لكونه حزبا ثوريا مركزيا

يحافظ على الأهداف المحددة له ، او لأنه يتمتع بمميزات اخرى ، بل لانه ينفرد أيضاً بالوحدة الأيديولوجية ، وفي « التصور المنفرد » للعالم وتطور المجتمع وفقاً لمشيئة أعضائه . بيد أن هذا لا ينطبق إلا على الذين يعملون في تشكيلات الحزب العليا ، أما الآخرون الذي يعملون في التشكيلات الأدنى ، فعليهم أن يدعوا للآراء الأيديولوجية المتماثلة ، ويقومون بتنفيذ الأوامر التي تصدر عنها .

وبالرغم من أن لينين لم يبد وجهة نظر عن إجبار أعضاء الحزب على التمسك بآراء واحدة ، فإنه مع ذلك أدحض كل رأى لم يبد ماركسيا ، على خلاف ما فعل ستالين حينما قام بقتلهم أو نفيهم أو تعذيبهم .

كان ستالين في حاجة إلى « وحدة أيديولوجية » أى آراء فلسفية وغيرها مفروضة ، بالإضافة إلى الوحدة السياسية كمنطقة التقاء لجميع أعضاء الحزب ، كى يدعم حكمه . لقد أصبحت فكرة « إجماع الآراء » أثناء حكمه هى المطالب غير المدونة لجميع الأحزاب الشيوعية ، وظل الأمر كذلك حتى يومنا هذا .

ولم تطرأ تغيرات جوهرية على الوحدة الأيديولوجية الجبرية للحزب ، وحتى بالنسبة لحرية المناقشة لو تيسرت ، فإنها تتم فى أضيق نطاق فى ظل الزعامة الجماعية القائمة .

ولكن ماذا تعنى الوحدة الجبرية فى الحزب ، وإلى أين تمضى ؟

إنها تعنى أن القوة فى الحزب الشيوعى تكمن فى زعمائه وتشكيلاته العليا ، كما أن الوحدة الأيديولوجية باعتبارها التزاما وبخاصة فى الحزب الشيوعى المركزى تجلب معها حتما السلطة « هيئة الزعامة المركزية » التي تفرضها على أفكار أعضاء الحزب .

لقد كانت النتائج الاجتماعية للوحدة الأيديولوجية ، أن كانت دكتاتورية لينين صارمة بينما أصبحت دكتاتورية ستالين مستبدة وكان إلغاء كل صراع أيديولوجي فى الحزب ، يعنى انهاء كل الحريات فى المجتمع ، طالما عجزت طبقات المجتمع المختلفة عن أن تجد سبيلاً للتعبير عن آرائها الا عن طريق الحزب . وكان التعصب ضد كل الآراء الأخرى ، والإصرار على افتراض أن الماركسية ذات طبيعة علمية فريدة ، هما بداية احتكار زعماء الحزب للأيديولوجية ، التي

تطورت فيما بعد لتصبح احتكارا كاملا للمجتمع بأسره .

مصادرة الحقوق

إن عدم المساواة في الشيوعية لا يقوم على أساس الصفات فحسب ، بل يقوم أيضاً على أساس الامتيازات التي تتوزع وفقاً للمركز والمرتبة ، ولقد تحققت هذه المرحلة في روسيا السوفيتية في منتصف الثلاثينات من هذا القرن .

ونجد في بداية الأمر أن أولئك الذين لم يفقدوا أى ملكية ، لا يعدون أنفسهم محرومين من أى قيمة أساسية ، بل على العكس ، يرون أنهم أثروا . وإذا لم يكن ذلك حقيقة ، فهناك على الأقل احتمال بذلك . لقد توقعوا أن يؤكدوا حقوقهم الفردية من خلال التنظيمات الجماهيرية التي ازدهرت في ركاب الثورة . ولم يحس الشعب باختفاء الحقوق الفردية في دولة الحزب الجديدة ، إلا بعد أن حرمت هذه التنظيمات نفسها من سلطتها .

ولقد مر ضياع الحقوق في الاتحاد السوفيتي بالمراحل التالية :

- (١) إلغاء كل حقوق الملكية في مراحل معينة .
- (٢) إلغاء حق مغادرة أرض الوطن .
- (٣) إبطال حقوق الاتحادات في تقرير الأجور وظروف العمل .
- (٤) إلغاء حق الإضراب .
- (٥) إلغاء حق تغيير العمل والتنقل بحرية داخل أرض الوطن .
- (٦) إلغاء شبه الاستقلال الذاتي للتعاونيات وإدماجها في جهاز تجارة الدولة .
- (٧) تقييد حقوق سوفياتات القرية ، وإلغاؤها الفعلي نتيجة المزارع الجماعية الجبرية .

كذلك قيدت الحرية المدنية ، مثل حق الاجتماع والتنظيم والحديث بحرية ، خلال المرحلة المبدئية للثورة السياسية ، ثم ألغيت كلها بعد ذلك .

وقد أسس الحزب كل من لينين وتروتسكي ايديولوجيا على قاعدة مصادرة جميع ممتلكات الملاك ، وليس على قاعدة مصادرة الحقوق الجماعية للجماهير . بل على العكس ، كان من المفترض في ظل ملكية دولة الحزب ، ان تنمو حقوق

الجهاهير بدلا من الغائها .

وبازدياد حجم الحزب العددي عد نفسه مركز ثقة جماهيري، وليس اداة لمصادرتهم. فضلا عن ذلك، فإنه حتى لو اختفت حقوق الجماهير، فلمن تكون الدولة اذن؟ من صاحب هذه الدولة؟ بل من صاحب المنفعة فيها؟ إن هذه التساؤلات ما زالت تحتاج إلى اجابات شافية.

على أن النزاعات التي كانت قائمة، لم تلاحظ بوضوح كما حدث بعد ذلك، بفضل النظر والتمعن في الماضي، لقد استشعرت هذه النزاعات داخل الحزب مبكرا في عام ١٩٢١، وذلك حينما طالبت معارضة العمال بحق الانشقاق أو السماح بقيام الديموقراطية داخل الحزب. ولكن الانشقاق الفردي كان لا يزال مسموحا به. وتجنب المنشقون الذين أثاروا النزاع حول الحقوق والسلطات على الممتلكات الجماعية، الطرد من الحزب، وكان لينين لا يسمح بأى تحرك بالسلطة أو بممتلكات دولة الحزب - جماعيا أو فرديا على حد سواء. وبمرور الزمن أصبح الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي أداة بيروقراطية خاضعة للشرطة السياسية التي أنشأها الحزب. أما تنظيمات الجماهير المجردة من كل سلطة، فقد ألزمت بمراقبة العمال لها. لقد ركزت السلطان السياسية والاقتصادية في قبضة واحدة وأصبح الاتحاد السوفييتي دولة بوليسية تعمل في ظل لواء الحزب الشيوعي غير المنظم والمعزول، والذي يتعرض لحركات التطهير المستمرة.

على أن التحول القهري للممتلكات الخاصة إلى ممتلكات الدولة، يؤدي إلى تصفية الحقوق الأساسية، فبدون الحماية التي تمدها الملكية الخاصة، يصبح من العسير على المرء أن يقاوم الدولة، إذا ما حرم ايضا من حقوقه في الممتلكات الجماعية.... إنه يصبح مجرد حيازة للحكومة. إن التفسير الشيوعي للاشتراكية هو: أنها عملية مصادرة الفرد من جميع ممتلكاته الخاصة، ومن حقوق الملكية الجماعية.

التطهير

تعد حمامات الدم أو عملية التطهير من أكثر المميزات المحيرة في النظام الشيوعي، فبمجرد أن يستولى حزب شيوعي على السلطة، يبدأ عرضا ضخما من

عمليات الإعدام، وتقام معسكرات السخرة والنفى. وما إن تحتفى الرأسمالية «العدو القديم للشيوعية»، حتى يزداد نزلاء السجون، وينمو جهاز الشرطة الذى ينتشر فى السجون. وتلك ظاهرة موروثه فى النظام الشيوعى، وستظل قائمة فى كل الانظمة الشيوعية بما فى ذلك الصين وكوبا.

إن المتمعن فى التطهير الذى قام فى روسيا، يكشف أن الروس اتبعوا عن كذب التغيرات المتعددة فى السياسة التى عكست المراحل المتعددة لثورة الحزب الشيوعى.

كان ستالين يقوم عادة بتطهير جهاز واحد فى وقت واحد. فحينئذ تم تطهير جهاز الحزب، ترك الشرطة والجيش. وبعد تطهير العسكريين، كان جهاز الشرطة هو الذى يمد التطهير بوسائل المعونة. وكان جهاز الشرطة أقل الأجهزة التى مسها ستالين، إذ أجرى التطهير فيه بعد موت ستالين، بمساندة الحزب والجهاز العسكرى. على أن القصة الكاملة لتطهير جهاز الشرطة فى ظل خروشوف لم يكشف عنها بعد، ولكنها تضمنت إعدام برياً، وطرد سيروف، وإعادة تنظيم وزارة الداخلية.

لقد استؤصلت نخبة الحزب الشيوعى السوفييتى فى أعمال العنف البربرية، التى تأجج لهيبها فى عمليات التطهير، وفى فيها كثير من زعماء الحزب الأصليين وقادة السوفييت العسكريين.

ذلك أن ستالين قام بتطهير الحزب باكتساح بدأ بالمعارضين عام ١٩٣٦، وانتقل إلى اليمينيين عام ١٩٣٨، حينما قدم للمحاكمة ريكوف وبوخارين وقادة آخرين من الحزب وتم اعدامهم.

ولكى نبين التقييم الحقيقى لعملية التطهير، يجب أن نذكر مسرحيات المحاكمات التى تمت.

فبينما كان التطهير يحشد قواه عام ١٩٣٥، كان ستالين يعد اول مسرحية كبرى للمحاكمة التى اطلق عليها «محاكمة المعارضين الليننجراديين».

كان اداة المحاكمة ج. ج. ياغودا رئيس قومسييرية الشعب للشئون الداخلية،

الذي أنشأ لأول مرة نظام العمل الجبرى السوفييتى. وأجريت هذه المحاكمة فى أغسطس من عام ١٩٣٦ وأطلق عليها محاكمة مركز الإرهاب التروتسكى - الزينوفييفى. وقد انتهت باعدام اقرب زملاء لينين رميا بالرصاص - ج. ا زينوفييف، ل. ب. كامبتييف، بالاضافة إلى أربعة عشر آخرين.

وبعد ذلك مباشرة نحى «ياجودا» لقصور فى حماسة، وحل مكانه ن. يزوف، وهو شخصية مريضة، قزم، سار التطهير فى ظله بقسوة، واصبح الإرهاب شاملا.

وعرضت المسرحية الثانية للمحاكمات التى أعدها «يزوف» فى يناير من عام ١٩٣٥، وعرفت باسم «المركز التروتسكى المعادى للسوفييت» وكان الضحايا الرئيسيون فيها بياتاكوف صنيعة لينين، ج سوكرلنكوف عضو اول «بوليتبيرلو» فى عهد لينين، ك. راديك الصحفى اللامع، وأربعة عشر آخرين.

وجرت محاكمة الخيانة العظمى الثالثة أكثر المحاكمات مظهراً فى مارس من عام ١٩٣٨. وقد أعد يزوف هذه المحاكمة ايضا. وقد نسجت خيوطها لمحاكمة الكتلة المعادية للسوفييت من اليمينيين والتروتسكيين. وبلغ عدد المتهمين واحداً وعشرين، على رأسهم بوخارين، ريكوف خليفة لينين فى رئاسة قومسييرية الشعب للشئون الداخلية

وفى كل هذه المحاكمات وجهت إلى المتهمين تهمة التآمر على قتل ستالين، وتهمة عمالتهم لإدارات المخابرات الاجنبية، وتهم كثيرة اخرى.

وفى صيف عام ١٩٣٧، وبين مسرحيتي محاكمتي ١٩٣٧، ١٩٣٨، جرت محاكمة سرية أعدم فيها صفوة القيادة العليا للجيش الأحمر، وعلى رأسهم مارشال «توخا شيفسكى» مساعد قومسيير الشعب للدفاع، وسبق هذا الحدث التصفية السرية لما يقرب من نصف عدد ضباط الجيش.

واستمر التطهير فى تحرك جنونى حتى نهاية عام ١٩٣٨، حينما جاء دور ييروف لينهل من الكأس ذاته. وقد خلفه «لا فرنتى بريا» رئيس قومسييرية الشعب للشئون الداخلية فى جورجيا. وكان اول واجب له هو ان يقوم بتطهير الذين قاموا بأعمال التطهير من قبل.

إن معظم الضحايا بما في ذلك كثير من أكثر الناس تحمسا لستالين والذين كانوا يتقلدون مناصبا رفيعة، إما اعتقلوا وإما عذبوا ثم أطلقت عليهم النار في النهاية دون محاكمة أو نشر، وإما اختفوا من المسرح ببساطة.

وخلال تلك الفترة بدأ الحزب يفقد سلطته ويخضع إلى سيطرة قومسييرية الشعب للشئون الداخلية. ومن ثم فقد الحزب دوره القيادي.

ويصف خروشوف هذا في مذكراته بقوله:

« وعلى جميع المرشحين لعضوية لجان مدينة موسكو والأقاليم، أن يتقدموا للفحص بواسطة قومسييرية الشعب للشئون الداخلية وأن يحصلوا على تصديقه. ولم يكن في قدرة اللجنة المركزية أو سلطة الحزب أن ترفع أى عضو، إذ كانت الكلمة الاخيرة لتحديد أنشطة اعضاء الحزب، وتقرير ما إذا كان يمكن انتخاب العضو في مناصب القمة بالحزب، تأتي من قومسييرية الشعب للشئون الداخلية. لقد تكيفنا على ان نؤمن بان هذه التجربة ساعدت تنظيمات الحزب المحلية في كشف الحزب الحاكم. » *

ووفقا للينين، فقد كان على الحزب أن يصل الى القرارات الجماعية عن طريق المناقشة، وكان يتم تنفيذ هذه القرارات من خلال النظام والالتزام. ويعمل النظام الشيوعى الآن إلى حد ما عن طريق البريزديم. أما في أى مكان آخر فان القرارات تفرض من القمة، ويصبح التطهير ضرورة لتنفيذ هذه القرارات.

ولا يسمح الحزب للمعارضة بفرصة التحول إلى قوة: إذ تصل تقارير الشرطة السرية التي تحذر من نشاط المعارضة، وقبل أن تكشف المعارضة عن نفسها، فإن أعضائها يكونون في طريقهم إما إلى المنفى وإما إلى السجن، وهو المكان الوحيد في الفلك الشيوعى الذى يمكن ان تجرى فيه أى نوع من انواع المناقشات الصريحة. وعلى عكس الأسطورة الخرافية التي ما زالت تقول إن هذه القرارات تتخذ بجرية في الحزب الشيوعى، فإن الحزب يعد أسير نظام حكومته الخاص.

* Nikita Khrushchev, Remembers, Low and Brydone (printers) Ltd, London 1971, p.81.

ذلك أن القرارات تتخذ عن طريق النزوات والتأمر. ويتم التصديق عليها بالرعب، وتحل الخلافات بالعنف. إن ثورتي المجر وبولندا عام ١٩٥٦ وثورة تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ تعطينا الأمثلة الوحيدة عن مدى نجاح المعارضة في تحدى القيادة مؤقتا.

وكان ثمة سبب آخر للتطهير، ما أطلق عليه ستالين مصطلح «تغيير الحارس» (changing of Guard) وقد تضمن ذلك التخلص من الثوار الذين انضموا إلى الحركة خلال فترة تدمير النظام الرأسمالي القديم، سواء قبل الاستيلاء على السلطة السياسية أو بعدها. ذلك أنهم لقيامهم بالثورة توقعوا الكثير منها. وأصبحت عادة النقد سلبية وإن لم تكن مدمرة خلال فترة إعادة البناء التي تلت الثورة. ولقد هدف ستالين إلى إزاحة الثوريين المحترفين وتغييرهم بمريدين محترفين، كانت مصلحتهم الوحيدة تكمن في البحث عن المركز والسلطة، والإدانة له بالولاء.

والواقع ان عمليات التطهير تعد وسيلة لتحويل كراهية السكان من قيادة القمة في الحزب إلى الصفوف الأدنى من بيروقراطية دولة الحزب. وفي النهاية، فإن عمليات التطهير تعد وسيلة لاستبدال الخامة البشرية التي تقتقر إلى الكفاءة، والتي تكون قد انهكت كذا لترفع افراد آخرين من بين الصفوف.

ولا يجاز عملية التطهير، يمكننا أن نرى مراحل مميزة، فالأولى تصاحب الثورة السياسية (المصادرة)، حيث تظهر العناصر المعادية من جهاز الدولة، ومن المحتمل أن يحدث ذلك في جهاز الحزب أيضا. ثم تأتي المرحلة التالية باغتصاب كل السلطة المفروضة على الملكية الجماعية، كذا إلغاء حقوق الجماهير. وخلال هذه المرحلة توجه عملية التطهير ضد الشيوعيين القدامى، وتنشأ أزمة إذ يحدث تغيير في غرض الحزب، لتحوله من الثورة إلى الحكم. أما المرحلة الثالثة التي تجيء بعد إلغاء الحقوق، فتتكون من استخدام التطهير كأسلوب للحكم.

وما ساقه زيجنييف بريزنسكي من مركز البحوث في جامعة كولومبيا نقتبس ما يلي:

« ليس هناك اية دلائل تشير بأن آخر الانظمة (خروشوف) قد سلمت حتى في أبعاد جوانبها بسلطتها السياسية. وطالما يستمر النظام على شكله الحالي، فإن الظروف التي تدفع التطهير وتمنحه طابع العنف المطلق سوف تستمر ايضا. وربما لا تستمر نتائجها بعد كتطهير جماهيري، فلم يعد له ضرورة... إن التطهير سوف يستمر مستخدما العنف للضرورة - في تصفية اولئك الذين يميلون الى تمزيق وحدة طبقة القمة. لقد ولى عصر ستالين، ولكنه ترك التطهير الستاليني كإرث أخير*»

سيادة القانون

إن استقلال القضاء وسيادة القانون يؤديان حتما إلى ظهور المعارضة. ولكن سيادة القانون لا مكان له في النظام الشيوعي، ذلك أن الدولة حينما تصدر بحق الشفعة كل الحقوق لنفسها، لا يصبح ثمة مكان للعدالة، بل يكون هناك شيء واحد فقط هو إنزال العقاب.

والغريب أنه ليس هناك - على سبيل المثال - قانون في النظام الشيوعي يعارض حرية التعبير عن الرأي أو حرية التنظيم. كما أن القوانين في النظم الشيوعية تضمن جميع أنواع الحقوق للمواطنين، وترتكز على مبدأ استقلال القضاء. ومع ذلك، ليس هناك شيء من ذلك في التطبيق.

إن النظام الشيوعي يعترف بالحريات رسميا، ولكنه يضع شرطا حاسما ضروريا لممارسة هذه الحريات، هو أن تستخدم الحريات فقط وفقا لمصالح النظام الاشتراكي، الذي يمثله الزعماء الشيوعيون، او تبعا لما يتلائم مع مصالح حكمهم.

ومن ثم تغيب حقوق الفرد، وتقوم الإجراءات الادارية بطرد العدالة وتحل مكانها. ويصبح لا مفر من أن تؤدي تلك التجربة عكس قواعدها القانونية إلى استخدام الحزب والشرطة لوسائل استثنائية قاسية غير انسانية، وفي عهد

(*) Brezinski, Zbigniew K. The Permanent Purge, Cambridge, Harvard University Press. 1956, PP. 1966 - 167.

ستالين كانت الشرطة الدياسية تعمل في سرية، وتمثل القاضي والمرع والمنفذ.

وفي النظام الشيوعي، لا يمكن فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية. وكان لينين يرى في ذلك حلا متقنا، ويقتنع بذلك أغلب الشيوعيين. ذلك أنه في ظل نظام الحزب الواحد، يعد هذا المزج أحد مصادر الاستبداد والسلطة في الحكومة.

وهكذا، فإن أي دولة يحكمها حزب شيوعي لا يكون لها حكومة قوانين، بل يكون لديها حكومة تضم رجلا يحكمون بظلم وطفغان. كما أن اللوائح والقوانين التي تقن لإرضاء الدكتاتور قد تسحب أو تغير أو تفسر. وحينما يكون الدكتاتور هو القاضي الأعلى، فإن القضاة يشكلون جزءا من جهاز الدولة التنفيذي، ومن ثم يمكن طردهم أو تطهيرهم كأى موظف في الدولة.

إن فكرة استقلال القضاء هي أسمى صور العدالة في أى مجتمع، ولو قارنا صورة القضاء في إنجلترا مثلا بما عليه الحال في الدول الشيوعية، نجد أنه في الأولى وفقا لمبدأ تقسيم السلطات ليس معادلا للسلطتين التنفيذية والتشريعية، فحسب بل غالبا ما ينسخها بموجب تفسير الدستور.

أما في ظل الشيوعية فليس هناك أى فصل بين السلطات. ومع ذلك فهناك جهاز قضائى له مدعون وقضاة ووكلاء ادعاء للجرائم. وفي ظل الشيوعية يطلق سراح المجرمين العاديين بعد تنفيذ احكامهم، أما السياسيون فيخضعون لقرارات إدارية.

وفي عهد ستالين شهدت روسيا سلسلة رهيبة من أعمال التطهير على نطاق واسع، وحتى إذا كانت أعمال التطهير قد توقفت وعهد بها إلى المحاكم، فإن ذلك لا يغير من الجوهر شيئا. ذلك لان الشيوعيين لا يصفون حساباتهم مع خصومهم نتيجة اقترافهم لجرائم ما، بل مجرد أنهم خصوم لهم.

وحيثما يتحول المواطنون تلقائيا ضد إجراءات النظام، تقوم السلطات الشيوعية بالتعامل معهم دون النظر لأى اعتبار دستورى او قانونى. إن التاريخ الحديث لم يسجل إى صور من الاجراءات التي اتخذت ضد معارضة الجماهير،

مثل تلك الاجراءات الوحشية والبربرية وغير القانونية التي تلجأ اليها الحكومات الشيوعية

على انه في النظام الشيوعي من المحال سيادة القانون في التطبيق، أو فصل سلطة الشرطة عن سلطة القضاء، فأولئك الذين يقومون بمهمة الاعتقال هم الذي يقومون بالمحاكمة، وهم الذين يوقعون العقوبات. وفي كثير من الحالات، يقومون بالتنفيذ فوراً كما حدث في عقوبات الاعداء بمحاكم التطهير. وهكذا نجد الحلقة مغلقة، فالسلطات التنفيذية والتشريعية والادعاء والقضاء وتنفيذ العقاب كلها واحدة ومتشابهة.

ولنتساءل، لماذا إذن تقوم الشيوعية باستخدام القوانين على هذا النطاق الواسع؟ ولماذا كان ينبغي عليها ان تخفى احوالاً وراء المظاهر القانونية؟

للإجابة عن ذلك نجد سببين: اولهما الدعاية السياسية الأجنبية وتهديد المواطنين الذين يستمعون اليها، وثانيهما تأمين حقوق ومصالح الطبقة الجديدة التي يعتمد عليها الحزب. ولكن طالما كانت هذه القوانين من الناحية الرسمية توضع لجميع المواطنين، وطالما انهم لا يتمتعون بها إلا بشروط معينة - هي ألا يكونوا أعداء للشيوعية فإنه نتيجة لذلك، يعترى الشيوعيين القلق دائماً من احتمال اجبارهم على تنفيذ القوانين التي وصفوها.. ومن ثم فإنهم يتركون دائماً ثغرة او يضعون استثناء ما، قد يمكنهم من التحايل على قوانينهم.

حرية لقمة العيش

ليس هناك حرية سياسية دون حرية اقتصادية. ولكن الدكتاتورية الشاملة تتطلب القضاء على كل من الحريتين. وفي ظل الشيوعية - أكثر اشكال الدكتاتوريات اكتمالا في التاريخ - فإن حزب الدولة وحده يقرر من الذي يأكل، ومن يتسلم المسكن، ومن يتمتع بمزايا الحياة الأخرى. وتيسر مواد الغذاء للشعب لا وفقا لاحتياجاته، ولكن تبعا لاهميتها لحزب الدولة. وتعد الشرطة السياسية وبيروقراطية الحزب العليا أكثر الطبقات امتيازاً فهم يتناجون السلع من مخازن مخصصة لهم وبأسعار منخفضة، يلي ذلك أفراد القوات المسلحة وبخاصة الضباط، ثم الأفراد الرفيعة المركز في الصناعات الاستراتيجية، ثم

الأعضاء الأقل أهمية من البيروقراطية السياسية ورجال الإدارة. كذلك يحصل العمال على التمويل وفقا لدرجة اهميتهم في المؤسسة أو المشروع الذي يعملون به ، أما اولئك الذين يعملون في الصناعات الخفيفة فهم اقل الطبقات امتيازاً .

ومن ثم فإن هذا الامتياز يسمح للحكومة باحتكار مواد الطعام والضرورات الأخرى وفقا للسياسة ، وهذا يضمن الإمداد بمواد الطعام للأفراد الضروريين للاحتفاظ بالسلطة ، بغض النظر عن ندرة هذه المواد .

وقد يستخدم هذا الامتياز في اخضاع المناطق المتمردة ، وذلك من خلال قطع التمويل بالطعام عنها قطعاً كاملاً - كذلك استخدم - ومن ثم يمكن استخدامه في اى وقت لمعاينة الأفراد الذين تم تطهيرهم ولم يعتقلوا ، وذلك يدفعهم هم وعائلاتهم إلى البحث عن الطعام في يأس ، كى يجرموا من أى وقت يسنح لهم للتفكير فى أى شىء .

وبالإضافة إلى هذا النظام المقيد ، فهناك - وبخاصة فى المدن الكبيرة - مخازن عامة يمكن للمرء أن يبتاع منها سلعا معينة حرة . كذلك يمكن أن يتراخى الإمداد بالطعام أو يشد وفقا لأهواء الكرملين .

وتتمتع موسكو بأسبقية أولى فى مواد الطعام ، ذلك لان بها عددا ضخماً من افراد الحكومة فضلا عن أنها تعامل كمكان عرض نسبي .

على انه لا يمكن اقامة سيطرة كاملة دون اخضاع المزارعين اخضاعاً كاملاً ، لأنه طالما كان المزارع مسؤولاً عن الانتاج الاصلى لمواد الطعام ، فإن المدن سوف تظل معتمدة عليه .. ولم يستطع ستالين ان يضيف عملية السيطرة على الطعام إلى وسائله للسيادة المطلقة الا بعد ان قام بقهر المزارعين .

ويلاحظ فى النظام الشيوعى ان الصفوف العليا من البيروقراطية الإدارية والحزبية ، تتمتع بتسهيلات المساكن المرفهة ، والخدم ، والسيارات . ولكن وثيقة الامتلاك تبقى فى يد الحكومة وادارات الحزب ، كما أن التفويض المطلق للأفراد يمنح من يستخدم الأشياء امتيازات الملكية ، ويعفية من المسؤوليات . واثناء الخدمة ، فإن هؤلاء الناس يتناولون طعامهم فى أماكن الطعام المميزة ، ويقضون عطلاتهم فى فيلات صيفية ، أو فى المصايف على نفقة الحكومة . كذلك كان يسمح

لهم دائما بارتداء أزياء مميزة، ويستعرضون مراكزهم في زهو وخيلاء، وكان ستالين راغبا في أن يكون كريما مع مرؤوسيه في المسائل المادية، طالما أن كل واحد منهم يدين لقيادته بالطاعة.

كذلك تغيرت السياسات إزاء العمال، ولكن لم يكن ذلك في سبيل رفاهية الفرد. فبحلول عام ١٩٣٦، كان نفوذ اتحادات العمال، قد انهار، واستبدل بنظام الأجر بالساعة نظام الأجر بالقطعة، وذلك في جميع أنحاء البلاد وسنت حملة دعائية مخادعة، تغري العمال بمزايا العمل بالقطعة كوسيلة لبناء الاشتراكية. وخلال هذه العملية، قدم اقتراح بأن يربح أى انسان وفقا لقدرته، مع رفع أى قيود على المدخول. والواقع، أن الاجور سارت بصورة مختلفة تماما. وربما عملت معدلات العمل بالقطعة على زيادة المدخول، لو أن هذه المعدلات لم تنخفض باستمرار أو لو أن الإدارة كانت تتمتع بالكفاءة أو كانت الظروف السائدة في الدولة ظروفا عادية. لقد كان معظم رجال الإدارة هواة غير محنكين، كما كانت معظم معدات المصانع بالية، وغالبا ما كانت تتعطل. كذلك لم تصل المواد الخام الخاصة بالعملية في الوقت المناسب عادة، هذا بالإضافة إلى أنها لم تكن كافية.

وأدى كل هذا إلى قدر ضخم من الإسراف، لم يستطع أن يغطي تكاليف نظام العمل بالقطعة. لقد كان القصور في التنسيق والكفاءة، والقصور في الادارة الشيوعية قد ازيحا من على كاهل العامل.

وكان على البعض أن يدفع قيمة الازدياد في نفقات التسليح ونفقات الامتيازات المادية للصفوة الادارية الجديدة. ومن ثم فإن نظام العمل بالقطعة كان يجعل العامل يتحمل هذا. هكذا كان الحزب الشيوعي السوفييتي في الجيل الذي جاء بعد استيلاء الشيوعيين على السلطة.

الخلاصة:

لا نجانب الصواب اذا قلنا إن الشيوعية السوفيتية قد مرت خلال أطوار ثلاثة، وهذه الاطوار هي:

الثورية، والمذهبية، والشيوعية غير المذهبية. وبمعنى آخر يمكن أن نقول ان أولها مرحلة الثورة أو اغتصاب السلطة المتمثلة في استيلاء لينين على

السلطة ، وثانيها المذهبية وقد تمثلت في ستالين وبناء النظام السوفيتي ، وثالثها التقنين أو توطيد دعائم النظام المتمثل في الزعامة الجماعية .

على أنه في الواقع ليس هناك خطأ فاصلا يفصل كل مرحلة عن الأخرى ، بل أن عناصر كل منها متداخلة في الأخرى . ففي عهد لينين توسعت المذهبية وبدأ فعلا بناء الاشتراكية . وفي عهد ستالين خلال قيامه ببناء النظام ، لم ينبذ ستالين الثورة ولم يتخل عن المذهب اللذين اصطدما مع النظام ، كما أن الشيوعية غير المذهبية القائمة الآن هي شيوعية غير مذهبية مشروطة ، فهي لن تتخلى حتى عن اقل المزايا العملية شأنًا لأسباب مذهبية .

وبتفسير أدق فإنها - نتيجة هذه المزايا - سوف تكون في الوقت ذاته في موقف يمكنها من القضاء بفظاظة على اقل شك يتعلق بصواب المذهب أو نقائه . وهكذا فإن الشيوعية التي انبثقت من الاحتياجات العملية والقدرات ، قد طوت أسرع الثورة او قيدت توسعها العسكري ، ولكنها لم تتخل عن هذا او ذاك .

وتلعب السلطة دورًا كبيرًا في أطوارها الثلاثة . ففي مرحلة الثورة كان بالضرورة الاستيلاء على السلطة ، كما كان ضروريا - في بناء الاشتراكية - خلق نظام جديد باستخدام وسائل تلك السلطة ، وأما اليوم فالسلطة ينبغي أن تحافظ على النظام القائم .

وفي خلال مراحل التطور من الطور الأول إلى الطور الثالث ، تحول جوهر الشيوعية ، أي السلطة ، من كونها وسيلة ، فاصبحت غاية في حد ذاتها . حقيقة كانت السلطة تقريبا هي الغاية دواما ، ولكن الزعماء الشيوعيين - وقد ظنوا أنهم سوف يبلغون الهدف المثالي باستخدام السلطة كوسيلة - لم يصدقوا أنها يمكن أن تكون غاية في حد ذاتها . وكان في وسع السلطة أن تبدو كوسيلة في الطورين الأول والثاني ، ولكنها لم تعد تستطيع إخفاء أن الطور الثالث هو الغاية الرئيسية الحقيقية ، بل هو جوهر الشيوعية .

ونتيجة لأن الشيوعية آخذة في الانطفاء كأيدولوجية ، أصبح من الضروري أن تحتفظ بالسلطة كوسيلة رئيسية للسيطرة على الشعب .

وكان من الطبيعي خلال الثورة ، كما هي الحال في أي نوع من انواع

الحروب أن تحشد الجهود أساسا في السلطة لكسب الحزب،. ومن ثم يمكن اعتبار التركيز على السلطة في فترة التصنيع أمرا طبيعيا، ذلك لأن إقامة الصناعة أو بناء المجتمع الاشتراكي الذي بذلت من اجله هذه التضحيات، كان ضرورة لا بد منها، ولكن حينما اكتملت كل هذه الاشياء، أصبح واضحا أن السلطة في الشيوعية لم تكن فقط مجرد وسيلة، بل أصبحت الغاية الرئيسية، وإن لم تكن الوحيدة.

واليوم، فإن السلطة هي وسيلة الشيوعيين وغايتهم، وذلك كي يستطيعوا المحافظة على امتيازاتهم وملكياتهم.

ولكن طالما كانت هذه الامتيازات والملكية، شكلين خاصين من السلطة أصبح استخدام الملكية أمرا لا يتحقق إلا من خلال السلطة فقط. إن السلطة هي « البداية والنهاية » للشيوعية، حتى لو حاولت ان تكافح للحيلولة دون ذلك.

قد يمكن للشيوعيين تغيير الأفكار والمبادئ الفلسفية والاعتبارات الأخلاقية والامة والناس وحتى الملكية، ولكن بالنسبة للسلطة لا يمكنهم عمل ذلك، لان هذا سوف يشير إلى أن الشيوعية قد تنكرت لذاتها وجوهرها.

إن كل نوع من أنواع السلطة يعد وسيلة وغاية في الوقت ذاته، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين يطمحون إليها. فالسلطة تكاد تكون الغاية الفريدة في الشيوعية، أو تكون مصدر جميع امتيازاتها، والضمان الوحيد للحفاظ عليها. ذلك أن الامتيازات المادية وملكية الطبقة الحاكمة للسلع القومية لا يتحقق إلا بواسطة السلطة وعن طريقها. إن السلطة هي التي تقرر قيمة الأفكار، وهي التي تجمد التعبير عنها او تسمح به.

إن تحليلاتنا للحزب الشيوعي بعد استيلائه على السلطة مستقاه من التجربة السوفييتية الطويلة. ومع ذلك فقد تكرر النموذج ذاته من الاحداث في كل دولة قامت بها دكتاتورية شيوعية. وحقيقة أن الحركة الشيوعية قد اصبحت في قلبها سلطة كلبية للصفوة، تفسر قدرتها على جذب الرجال الطموحين بقسوة تحت لوائها. لقد استبدلت مثالية الشيوعيين في العشرينات بشهوة السلطة حتى في السبعينات.

الحرب الثورية أساس للتغلغل السوفيتي

ان الحرب الثورية السوفيتية فريدة في نجاحها نجاحا فعالا في اعمال التغلغل، ذلك أن هناك عناصر كثيرة تؤيدها وتوازرها، وهي تعمل في المراكز الحيوية من العالم غير الشيوعي. هذه العناصر تتدرج من منظمات الاعداء وأجهزة الاعلام، إلى المنظمات التي تقوم بتنفيذ القرارات ذات الطابع السياسي.

على أن نجاح المجهود الدعائي الشيوعي يرجع إلى قدرته على شق طريقه إلى الجماهير. وما لا شك فيه أن البلشفية تستخدم أسلوب «الديسة» الذي نادى به ماكيافيلي في عصر الأمراء، والذي انتهجه لينين في معاملته للجماهير. هذا بالإضافة إلى أن البلاشفة يستخدمون عددا لا يحصى من الأدوات والوسائل مثل اللجان والخلايا والنوادي الثقافية والنقابات وغير ذلك - وهي أدوات تتمتع كلها بالقدرة على التغلغل. ولما كانت هذه الوسائل تحت إشراف الكرملين المباشر أو غير المباشر، فإنها تلعب دورا فعالا في الحصول على ثمرات الدعاية التي بذرت بذورها من قبل.

جماعة مساعدي الشيوعية:

على أن الشيوعية التي تتمسك بإخلاص بتقاليدها الخاصة، لها قدرة عارمة على العمل السري، وتجربة عريضة في ميدان اكتساب مناطق النفوذ، عن طريق استخدام أشخاص معينين لا يظهرون بصورة سافرة كعملاء يخدمون الشيوعية.

ويجد نظام الدعاية والتغلغل الشيوعي في هؤلاء الأشخاص أدوات نافعة له إذ يسهلون له العمل على أساس أنهم لا يقومون بنشر نظام اجتماعي معين، أو اكتساب مراكز جديدة للحزب، إنما يعملون على نشر وتدعيم الآراء والنظريات، التي تخدم بطريقة ما السياسة الخارجية السوفيتية.

وتضم جماعة مساعدي الشيوعية مجموعة متباينة المشارب فهي من ناحية تجمع بين المتطرف والرجل الذي يقوم بتنفيذ الأوامر، ومن ناحية أخرى تضم الصديق الذي يندفع للعمل على أثر جرعة من الإثارة، ثم يعلق أنه يتصرف دائماً وفقاً لما يمليه عليه ضميره، وربما دون أن يشعر أن هذا الضمير واقع من زمن بعيد تحت تأثير معين.

وبين هذين القطبين تتجمع درجات أخرى من أنصار الشيوعيين ورفاق الطرق، وجميعهم محاصر أو أسرى لنظام دقيق من الضغوط المختلفة. التي تعتمد على عوامل مختلفة مثل: المال، أو المشاعر أو المطامع أو الثقة، أو الضعف الخلقى، أو المصالح المهنية.

وبمثل هذا التنظيم الدقيق، نجد أن الأدوار التي يقوم بها هؤلاء المساعدون رسمت بعناية، بحيث يقوم كل منهم بدوره منفصلاً، عن الآخرين، ومتجمعاً معهم في نهاية الأمر. وبينما يقوم البعض بترويج الأكاذيب التي ترفع من شان النظام السوفيتي، يجتهد الآخرون للحيلولة دون إذاعة الحقائق عن أي عمل منافٍ يرتكبه السوفييت.

وبالرغم من تنوع هؤلاء المساعدين الشيوعيين، فإنهم يتميزون بطابعين مميزين:

أولهما- هناك طابع خاص يجمعهم، وذلك بأن تقوم جماعة منهم بصفة دائمة، وبإصرار مستمر بتأييد المواقف السياسية الدولية للاتحاد السوفيتي، وأن تكون على استعداد بتغييرها وفقاً لمشيئة موسكو.

ثانيهما- العمل على إظهار النظام السوفيتي في أبهى صورة، بينما يظهرون الصورة العامة للنظام الغربي على أسوأ ما يكون. والذين يقومون بهذا العمل يكونون أشد المجموعات خطورة. لأن الكثير من أعضائها

يتصرفون أو يتصورون أنهم يتصرفون بحسن نية، في حين أن التجربة أثبتت ان الذين يتم اجتذابهم عن طريق الاقتناع، أشد خطرا من الذين ينالهم الفساد عن طريق الرشوة والمال.

التنظيم السري:

وتفضى موسكو بضرورة قيام كل حزب منتم إليها بإنشاء إدارة سرية. وتوجه أعمال هذه الادارة وتشرف عليها سكرتارية وطنية حزبية خاصة، لا يعرفها إلا الأقل القليل من الافراد. وتعد هذه الإدارة جهازا، لا يسمح فيه بأى اسئلة . وعادة، فإن هذه الإدارة - حينما يعمل الحزب سافرا تقوم فقط بمعالجة الحالات الأكثر سرية من نشاط الحزب، مثل الاتصال مع الإدارة السرية السوفييتية التي تقوم بنقل افراد الحزب المناسبين لمعاونة هذه الادارات السرية أو إمدادها بالأفراد، كما تقوم بالعمل مع خلايا التغلغل السرية في الإدارات والمصالح الحكومية الاستراتيجية.

كذلك تعالج الإدارة السرية مسائل مواصلات الحزب السرية مع موسكو وفي داخل أرض الوطن، سواء عن طريق المواصلات اللاسلكية أو مواصلات الشفرة أو حاملي الحقائق. وتتجاوز هذه المواصلات الرياضات الرسمية أو الشخصية المعروفة في الحزب، فتقوم بدلا من ذلك باستخدام أسماء وعناوين أشخاص يكون انتمائهم للحزب غير مشكوك فيه.

وتعدُّ الإدارة السرية أيضا، جميع التحضيرات اللازمة للحزب كي يعود بنشاطه إلى العمل السرى، وذلك في حالة نشوب حرب ضد-الاتحاد السوفييتي، أو حينما يصبح الحزب الشيوعي طريد القانون. وفي وقت الحرب، يتوقع الحزب أن يعتقل جميع الشيوعيين المعروفين الذين يمكن للسلطة وضع اليد عليهم ويودعون في السجون. ولكن الحزب يأمل أن بعض أفراداه المهمين، سوف يستطيعون تجنب الاعتقال، ولذلك يركز اعتماد الحزب الرئيسي على « جهاز هاجع» يتكون من أعضاء من الحزب، أو من أفراد موثوق بهم من المشايخين تكون اتصالاتهم الشيوعية غير معروفة أو غير مشتبه فيها.

وفي وقت السلم، حينما يتعرض الحزب لمطاردة القانون، فإن الخطط تنشد

أن يعمل جهاز الحزب العام تحت ساتر مناسب، كي تحتفى أنشطة أنوية الحزب وعصبها.

ولما كانت موسكو تُعد مركز الشيوعية الدولية، فإن جميع الأحزاب الشيوعية كان لا بد أن تخضع لموسكو من خلال تنظيم عالمي، هو الكومنترن. وبالرغم من أن هذا الكومنترن القديم قد فقد لقبه الشائع، فإن تكوين تنظيمه الأساسى لم يغير من غرضه الأسمى أو طبيعته. وحتى قبل أن يتم إلغاء الكومنترن رسمياً، كان الشيوعيون يفخرون بتأكيدهم أن الكومنترن قد نما إلى «حزب عالمي» أصيل، وأنه وصل إلى مرحلة أصبحت فيها كل الأحزاب الشيوعية تنفذ الخط الوحيد للكومنترن.

ولا تهدف موسكو إلى غزو العالم في ظل الشيوعية الدولية فحسب - وهو هدف غير محدود - بل تهدف أيضاً إلى فرض نظام عالمي، عن طريق تدمير الكيان الاجتماعى داخل كل دولة، وهى فى سبيل ذلك، لا تتوانى عن استخدام ما يطلق عليه «الصراع الدبلوماسى»، لتحقيق ما تهدف إليه.

ان هذا التحذير لا بد أن نضعه موضع الاهتمام بدلا من أن نضيع الوقت فى مناقشات أكاديمية حول ضرورة أو عدم ضرورة مواجهة النشاط الشيوعى. ذلك أن الشيوعية تستخدم كل سلاح معروف فى صراعها السياسى، كما يصحب ذلك كل انواع الجريمة حتى القتل والاختطاف، وإثارة الإشاعات والتشهير وغير ذلك.

وهكذا، فاننا إما نريد تكرار المأساة التى وقعت فى فلسطين حيث انهمكت الدول العربية فى وقت ما فى مناقشات ومجادلات لا نهاية لها، وخلافات دامية يؤسف لها، بينما كان اعداؤها من الصهيونيين يتهاونون لاقتحام قلب العروبة. وإما ان نعمل على منع تكرار مثل هذه المأساة.

كما يوكل للعمل السرى أيضا مهمة اخفاء أدوات الطباعة والنسخ ومعدات المواصلات اللاسلكية، التى يكون من الصعب الحصول عليها وقت الحرب.

وتتطلب الحرب الثورية جهازا سافرا. إن المرء يحتاج إلى القيام بالدعاية واعمال الإثارة كى يستطيع أن يجند اعضاء للحزب. ولهذا السبب، يقوم الحزب

باستخدام كل منفذ للعمل خلال الجبهات والتنظيمات الأسيرة للحزب. وفي حالات الضرورة، فإن الحزب سوف يستخدم أعمال التمويه ويصقل برنامجه كي يظهر كحزب شرعى مكشوف. وإذا لم يستطع أن يحافظ على وضعه الشرعى، فإن الحزب يركز أنشطته فى ظل تموهات تنسق بواسطة العمل السرى. وفى هذه الحالة يصبح التنظيم السرى فى الواقع هو الحزب، كما تصبح التنظيمات المكشوفة بمثابة أدوات التنقل إلى الجماهير. وعلى سبيل المثال، فإن قرار المحكمة العليا الأمريكية الذى صدر عام ١٩٦١، معلنا أن الحزب الشيوعى فى الولايات المتحدة عميل لقوة اجنبية، قد أجبر الحزب على العمل بهذا الأسلوب.

وثمة وظيفة أخرى للتنظيم السرى الشيوعى، تكمن فى أنه يهيء القاعدة للتجسس السوفييتى ولأعمال التخريب المحتملة. وبلا جدال، فإن الاتحاد السوفييتى يسيطر على أضخم أعمال التجسس فى العالم، وتتكلف هذه الشبكة الضخمة أموالا طائلة، ليس نتيجة الأجور التى يتسلمها العملاء ولكن نتيجة تكاليف مصروفات عمليات التجسس الباهظة.

على أنه ينبغى على المرء الذى يتعامل مع الشيوعيين أن ينبذ فكرة العملاء الذين يخونون وطنهم، مقابل بضع قطع فضية. إن أى إنسان يفكر فى التجسس السوفييتى بهذا الأسلوب، لن يستطيع أن يدرك الاسس التى يرتكز عليها التجسس السوفييتى.

ويعد التجسس السوفييتى عملية فعالة، لأنه كيان مشيد من معالم الحرب الثورية. إن كل من هارى ديكستر هوايت، بونيتكورفو، فوش، الن نون ماى، دورنبرج، الجبرهيس، قد تحول فى بادئ الأمر إلى الشيوعية، وثبتت خيانتهم من الأيديولوجية. وفى بعض الظروف، تبتاع الجاسوسية السوفييتية المعلومات، ولكن ذلك ليس إلا مظهراً ضئيلاً من العمليات الشاملة إن الجاسوسية السوفييتية سوف تتكرر مرات ومرات، طالما كانت الشيوعية كأيديولوجية تتمتع بأى جاذبية.

على أنه ليس كل عضو فى الحزب أو كل متعاطف مع الشيوعية جاسوساً شيوعياً، ولكنه يهياً عقلياً كي يقوم بهذه المهمة إذا طلبت منه. ولا يحاول

الكرملين أن يورط كل أعضائه في أعمال التجسس، بل على العكس، نجد أن المخابرات السوفيتية جهاز مختار. ولكن من ناحية أخرى، فإن كل حزب شيوعي يعمل بمثابة مخزن يمكن أن يجند منه العملاء. وليست الجاسوسية هي الإدارة الوحيدة التي يجعلها الحزب وسيلة سوفيتية للسيطرة. بل هي مجرد جزء من عمل ضخم للإخضاع، وهي ليست غالبا الجزء الأكثر أهمية.

وهناك عملية أقل شهرة من أعمال السوفييت السرية تلك التي تتعلق بالتخريب وليس هذا التخريب تخريب هواة، إنما تخريب يقوم به أفراد محترفون، يجمعون بين المعرفة للتكنولوجيا الحديثة والعلم، وبين فن التنظيم الرفيع. ويجند المحربون أيضا من بين صفوف الأحزاب الشيوعية المختلفة.

التغلغل السياسي:

يجعلنا لفظ التغلغل نشير هنا إلى نظام الروابط الثقافية؛ التي تتيح الفرصة للتأثير داخل العالم غير الشيوعي وداخل خلايا جميع أجهزته ومنظّماته وذلك بخلق مواقف واتجاهات مؤيدة للاتحاد السوفيتي.

على أن هذا الفصل يختص بقطاع التغلغل السياسي، الذي يرمى إلى نشر النظريات الشيوعية وتدعيمها في حين يظل بعيدا - كلما أمكن - عن شبكة الجاسوسية الشيوعية، التي من شأنها جمع المعلومات وتبليغها، والتي سنتحدث عنها في فصل آخر.

والطريقة التي تتبع في ذلك معروفه؛ فمثلا قد يغير شخص أو أكثر اتجاهه وينضم إلى المنظمة التي تعد لاستخدامها في عملية التغلغل. ويظل هذا أو ذاك على اتصال دائم بالمساعدين في الخارج، وهم الذين يقومون بدورهم بتوجيه عملاء من أنصار الشيوعية.

على أن الاتصال بين هذه الأنواع الكثيرة من المساعدين يتم بوسائل مختلفة، تتغير بتغير الظروف في البيئة التي يعملون فيها، وهم يعملون تبعا للمبدأ الذي يقول بأنه ليس هناك أي نظام اجتماعي أو سياسي أو ديني، لا يعدم العثور فيه على أي سند لسياسة موسكو الخارجية، الأمر الذي يسهل القيام به، طالما أن العملية تتم دون الإشارة إلى المذهب الشيوعي.

إن اتساع رقعة التغلغل السوفييتي هو الذى يضاعف من قوى الأحزاب الشيوعية فى دول العالم غير الشيوعى ، وهو الذى يفتح لها الطريق للاستيلاء على السلطة .

ويكفى مثال واحد من ذلك لإعطاء فكرة عن مدى هذا الاتساع: ففي المكسيك نجد أن الحزب الشيوعى فى هذه الدولة التى يربو مجموع سكانها عن ثلاثين مليوناً ، لا يصل أعضاؤه إلى عشرة آلاف عضو ، وبالتالى لا يحصل فى البرلمان إلا على مقعد لنائب واحد وآخر لشيخ واحد .

ومع هذا فإن الصحافة الشيوعية التى تعمل فى المكسيك تضم الصحيفة اليومية ، والمجلة النظرية الشهرية ، والصحف التى تصدرها إحدى المنظمات العمالية مرة كل شهرين ، فضلاً عن عدة مجلات تصدر كل شهر أو كل شهرين ، وملاحق أدبية ، لصحيفتين كبيرتين لهما نفوذ ضخم . وإلى جانب ذلك ، فإن دار النشر المعروفة باسم « جارسيا فالسيكا » التى تقوم بطبع اثنتين وثلاثين صحيفة اقليمية ونشرها تمارس نشاطاً كبيراً فى المكسيك . وهناك كذلك ثلاث جامعات يغلب عليها طابع المتعاطفين مع الشيوعية ، وتعمل على نشر النظريات المؤيدة للسوفييت ، معتمدة فى ذلك على ثلاث دور للنشر ، وثلاث مكاتب كبيرة بفروعها المتعددة .

على أنه قبل أن نتحدث عن بعض المنظمات الشيوعية الأساسية المتغلغلة فى العالم غير الشيوعى ، نرى أن نم سريعاً بدور الكرمليين فى تنظيم الشيوعية الدولية .

دور موسكو فى تنظيم الشيوعية العالمية

إن كل حزب شيوعى جزء من تنظيم عالمى له السلطة العليا فى موسكو . ففي المؤتمر الثانى العالمى للدولة الثالثة ، الذى عقد فى موسكو عام ١٩٢٠ أعد لينين تنظيم الحزب الشيوعى فى كل دولة من دول العالم ، وقام لينين بشخصه بوضع مسودة الشروط الأحدى وعشرين ، اللازمة لانتساب أى حزب شيوعى للكومنترن . كانت أهم هذه الشروط اللازمة للعضوية ، الامتثال المطلق لأوامر الكومنترن أى الخضوع لها .

واستمر التنظيم الثوري العالمي الذي تم إنشاؤه في موسكو عام ١٩٢٠ يؤدي وظيفته، وولت الأيام التي كانت تستعرض فيها الوفود الدولية ذاتها في ضوء النهار الساطع وبصلف، معلنة أغراضها للعالم. لقد أصبح الكومنترن القديم بكل مسرحياته في ذمة التاريخ، وأصبح من العسير إعادة تجميع الكومنترن مرة أخرى. ذلك أن الأجزاء المكونة له لم تمزق فحسب بل أنها بعثرت لأغراض سرية إلى عشرات من فروع الحزب والحكومة في الاتحاد السوفيتي. كان الجزء الوحيد المسيطر تماما قد أصبح في يد رئيس الحزب الشيوعي السوفيتي والوزراء الكبار يمثل مخاطر كثيرة. ولذا فإن التنظيم الدولي ترك ممزقا في سبيل كيان الاتحاد السوفيتي، ولكنه تكامل من الناحية العملية لصالح الحركة الشيوعية الدولية الشاسعة.

وبالرغم من أن الكومنترن القديم فقد لقبه الشائع فإن تكوين تنظيمه الاساسي لم يغير من غرضه الأصلي، وطبيعته. ولقد أعاد البرنامج الذي تبناه المؤتمر السادس العالمي للكومنترن عام ١٩٢٨ تأكيد اهداف الشيوعية القديمة، إذ جاء به: «إن الدولة الشيوعية تبرز كمنظم لثورة البروليتاريا الدولية.

ولقد صدق ستالين على مسودة برنامج المؤتمر السادس العالمي وكان قد جاء بها «إن المسودة تهيء برنامجا لا يخص حزبا شيوعيا وطنيا منفردا فحسب، بل كذلك الأحزاب الشيوعية مجتمعة، وهي تشمل كل ما هو عام وأساسي لها. ومن ثم فإن طابع البرنامج اتسم بسمة المبادئ والنظرية.... وهكذا تقبلت جميع الأحزاب عن وعي الطابع الدولي لمسودة البرنامج.

وقام الكومنترن بتنفيذ عمليات ثورية على مستوى عالمي حتى عام ١٩٤٣، إلى أن تم الغاؤه نتيجة الغرض المزعوم الخاص بتنمية وحدة فترة الحرب بين الاتحاد السوفيتي والغرب، ولكن الكومنترن لم يحل مطلقا. ولقد صرح «أجور جوزنكو» سكرتير السفارة السابق في السفارة السوفيتية في اتاوة، بأن الالغاء الصوري للكومنترن قد تم لأغراض سياسية وخداعية.

على أن الأحزاب الشيوعية في العالم لم يتم نموها تلقائيا، ولكنها زرعت وتم رعايتها بواسطة موسكو. وما ان امتدت جذورها في الأراضي الأجنبية، حتى

قلت تدريجيا الحاجة إلى ان يقوم الكومنترن بإرسال منظمين روس أو عملاء تجنيد إلى الخارج. وصعد إلى قيادة العمليات الشيوعية في كل دولة، قادة شيوعيون وطنيو المولد، روسيو التدريب.

وتيسرت السيطرة المركزية نتيجة أن كل حزب سار على هدى التنظيم اللينيني. ومنذ الوقت الذي قام فيه بلاشفة لينين بغزو السلطة، عالج الحزب الشيوعي الروسي بنشاط المسائل المتعلقة بالدولية الشيوعية، وبكل حزب منبثق عنها. ولقد واجهت بعض الأحزاب بعض المصاعب نتيجة قيامها بنوع من الشعب، إذ قامت بين حين وآخر بالتنافس متعاونة مع بكين للسيطرة على الآخرين، مثل ما حدث في اليابان عام ١٩٦١.

وقبل أن يتم الغاء الكومنترن رسميا، كان الشيوعيون يفخرون بتأكيدهم أن الكومنترن قد نما إلى حزب عالمي «أصيل»، وأنه وصل إلى مرحلة أصبحت فيها كل الأحزاب الشيوعية تنفذ الخط الوحيد للكومنترن. وباتت السياسات التي وضعها الكومنترن مبادئ مرشدة لكل الأحزاب الشيوعية، وليس للحزب الروسي فقط.

ولسنوات عدة كان هناك شك واقع، يوحي بقيام علاقة قيادة مباشرة بين موسكو والأحزاب الشيوعية الوطنية المتعددة والآن تؤكد الأدلة الساحقة اتجاه خط موسكو. إن الدلائل على سيادة موسكو للعالم الشيوعي يمكن أن تبدو في عدد من الطرق، بالرغم من أن الشيوعيين ذاتهم سوف ينكرون هذه السيادة أو يؤكدونها، معتمدين في ذلك على خط موسكو القائم اليوم.

إن أي شيوعي منذ عهد ستالين قد تم تجنيده اختياريا في الحركة الثورية. ومن ثم، فإن عالما لم يستطع اكتسابه اختياريا، ينبغي اكتسابه عن طريق خطة منظمة، تتطلب تنظيما رفيعا لتنفيذ ذلك، كما أن قيام تنظيم مجاهد عالمي، يتطلب إنشاء مركز رئاسة مركزي دولي.

وقد يعن لنا ان نتساءل ما دور مركز رئاسة موسكو في الحرب الثورية الشيوعية؟ إن جميع الادارات التنظيمية في أي حزب شيوعي - أفقية كانت أم رأسية - لها ارتباط مباشر مع الإدارات المرادفة لها في موسكو. ونتيجة

لذلك، فإن جميع الأحزاب - حتى الصغرى منها - تتضمن في تنظيمها إدارات « للإثارة والتهيج » ولاتحاد العمال، « والشباب » وللأعمال السرية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مركز رئاسة موسكو يشمل على عدد من السكرتيريات المتخصصة في تنسيق نشاطات الأحزاب المتعددة في مجالات السياسة المختصة. فمثلا سكرتارية الشرق الأقصى تخصص لدول آسيا، وسكرتارية أمريكا اللاتينية تختص بدول أمريكا الجنوبية، وهكذا دواليك. كما أن موسكو لديها عدد من مراكز الرئاسة الجغرافية - السياسية الميدانية التي تقع خارج روسيا - مثل مكتب وسط أوروبا، ومكتب أمريكا اللاتينية. وتدار هذه المكاتب والسكرتاريات بواسطة خبراء قمة من موسكو متخصصين في عمليات الحرب الثورية على أن كل حزب شيوعي، مجبر على إيفاد ممثل استشاري إلى موسكو، يكون عادة عضوا في لجنة الحزب المركزية. كما أن الأحزاب الكبرى ترسل محلل تقارير أو أكثر ليعالج سيل التقارير واثناء اقامتهم في موسكو، يعدون اعضاء للسكرتارية الجغرافية - السياسية المنشأة للمنطقة التي تقع فيها دولتهم.. ولكن المكاتب الجغرافية السياسية الميدانية، يرأسها عادة أفراد من الروس. ومع ذلك فإن عضوية المكتب الميداني تتكون من ممثلين عن أحزاب المنطقة. ولتنفيذ تعليمات الإدارات والسكرتاريات والمكاتب الميدانية، يلحق على أي حزب شيوعي ممثلون ومدربون. ويشمل هذا ممثلا سياسيا بالإضافة الى اخصائيين في التنظيم والإثارة واتحادات العمال والشباب، ويعمل هؤلاء خلف الواجهة الرسمية للحزب، وبصفة عامة، فهم ليسوا مواطنون من الدول التي يعملون بها، ولا أعضاء من الحزب الذي يوجهونه، ولكنه نادرا ما يكونون من الروس. لقد تعلم المديرون الروس - لأسباب واضحة - أنه ينبغي عليهم أن يظلوا في الخلف.

ولربط كل هذه الأنشطة معا في مركز رياسة موسكو، هناك سكرتارية شاملة عامة تعمل مباشرة تحت رئاسة «المكتب السياسي» للحزب الشيوعي السوفييتي. وبينما يدير السكرتاريات والمكاتب الميدانية الاخرى أو قد يرأسها في بعض الاحيان رجال غير روس محل ثقة فإن السكرتارية العامة تتكون دائما من مواطنين سوفييت. ويصدق ذلك على رؤساء الإدارات الرئيسية في موسكو،

مثل إدارات التنظيم، والإثارة واتحادات العمال والشباب وإدارة النشاط السري. ولقد رأس « ديمتري مانوليسكى » السكرتارية العامة لعدة سنوات. قسم الكادر:

ومن بين المعالم الأقل شهرة في رئاسة موسكو، نظام قيادة التدريب والمراكز، أو قسم الكادر للحزب الشيوعي السوفييتي. ذلك أن قسم الكادر يمد كليات الحرب الثورية ومكاتبها بالأفراد. وتقوم هذه الكليات بتدريب أفراد الحزب الشيوعي السوفييتي والأحزاب الأخرى. على أن منهاج التعليم واحد في كل كلية، ولكنه يركز بخاصة على المناطق الجغرافية التي سوف يعمل بها أولئك الصفوة، وعلى الطلبة أن يتعلموا بطلاقة لغة اجنبية رئيسية على الأقل. وسناقش موضوع التدريب في الفصل القادم.

التغلغل في المنظمات الرئيسية:

والآن نحاول في إيجاز غير مغل، بحث المنظمات الرئيسية خارج الستار الحديدي، وهي المنظمات التي تعد هدفا لتغلغل الشيوعيين وهي:

١ - الصحافة: إن الصحف التي تنشر الأخبار قليلة، حتى تلك التي يغلب عليها الطابع البورجوازي، والتي لم تقع تحت السيطرة السوفيتية. وفي هذا الميدان نجد أن النشاط الذي يقوم به المساعدون موجه في اغلب الاحوال إلى إخضاع مدير الصحيفة، أو على الأقل اجتماع الصحفيين الذين يعملون في الإدارة، بغير علم المدير.

والتغلغل هنا يكون قد وصل إلى أبعاد معينة، مما لا يهيء لأي اتجاه محافظ أو ليبرالي، القدرة على الوقوف في وجه الصحيفة، أو جعلها تأخذ وضعا مناوئا لموسكو، في حين أن نفس أصحاب هذه الصحيفة لا يكونون على بينة بأن صحيفتهم قد انحازت إلى موسكو.

ويلاحظ أن أكثر عمليات التغلغل هي قطاعات التعليق على السياسة الدولية، والأبواب التي تتحدث عن الكتب وعن السينما.

وهناك بعد ذلك باب الرسائل التي يتلقاها المحرر ويقوم بالرد عليها، فالمعروف أن عددا من المساعدين المتخصصين الذين يتخفون في

ستار قراء للصحيفة، يكتبون سلسلة من الرسائل إلى الصحيفة، وتحتوى هذه الرسائل على موضوعات تتعلق باتخاذ مواقف مؤيدة للسوفييت، ومن ثم تخدم الهدف المطلوب.

والمعروف أن عددا كبيرا من المساعدين السوفييت قد تغلغلوا إلى صفوف مراسلي الصحف في الخارج، الذين يتعرضون للإغراء نتيجة بعدهم عن الوطن ووجودهم في بيئة مختلفة.

وهناك نوع آخر من هؤلاء المراسلين الذين يعملون في الوكالات الصحفية لدول العالم غير الشيوعي، يمكن التأثير عليهم عن طريق الدعاية السوفييتية، في حين أن عددا لا بأس به ينتمي مباشرة إلى فئة المساعدين السوفييت

٢ - المدرسة:

إن عدد المساعدين السوفييت مرتفع جدا في القطاع التعليمي الذي يخضع لنوع خاص من المعالجة، نظرا لأهميته الحاسمة في تكوين النشء.

ففي فرنسا هناك عشرون ألف مدرس سجلوا جميعا في عضوية الحزب الشيوعي، في حين أن هناك أكثر من عشرين في المائة من هيئة التدريس، تقوم بالتدريس مستوحية الاتجاهات الشيوعية التي تحصل عليها من المصادر المختلفة، مثل المجلات المتخصصة، والنشرات الدورية، وزيارات المسؤولين.

وفي إيطاليا ترتفع هذه النسبة إلى أربعين في المائة. وحتى في بريطانيا، كما هو الحال في الجزء الأكبر من دول أوروبا، فإن الجامعة هي المجمع الرئيس الذي يلتقي فيه رفاق الطريق.

هذه الجامعة هي التي تبرر النظريات التي تقوم عليها الحركات المؤيدة للشيوعيين في إفريقيا وفي آسيا...

٣ - الأحزاب والنقابات والجمعيات الدينية:

ويلفت النظر، هذا التغلغل الذي يحدث في دور النشر، ولا سيما بين

قراء المخطوطات . وفي الاذاعات بالراديو وبالتليفزيون التي توجه اليها عادة تهمة خدمة الحكومة ، نجد أن عملها الأكبر الذي تشربه للشعب ، هو بث الدعاية الشيوعية واكتساب التأييد للسوفييت .

كذلك الحال في السينما والمسرح . وحتى في الوزارات نفسها وبخاصة وزارة الداخلية ، حيث تعد التقارير الداخلية التي تستوحي افكارها من وجهات النظر السوفيتية .

وهناك بعض النقابات والأحزاب التي لا يكتفي فقط باجراء التغلغل فيها ، بل يمكن القول بأنه تم استعمارها ، إلى الحد الذي يجعلها تنشيء فيها أشباها للأحزاب الشيوعية ، في حين أن الكثيرين من المساعدين السريين يعملون داخل هذه الاحزاب والنقابات الحرة ، بأمل تحقيق مهمة معينة ، هي توجيه السياسة داخل هذه الاحزاب ، كي تؤيد السوفييت ، وتخلق تيارات معارضة تعمل على الاستيلاء على الادارة أو وضعها أمام ازمات متلاحقة .

وحتى الجمعيات الدينية أصبحت معرضة للتغلغل ، في حين أن المعتقد هو العكس .

ففي فرنسا نجد أن حوالي خمسين في المائة من الصحف الكاثوليكية - ومن بينها المجلة الاسبوعية التي تعد أكثر هذه الصحف انتشارا وهي مجلة الشاهد المسيحي - أصبحت أدوات تعكس النظريات الموالية للسوفييت ، وتحارب الحزب الذي يقوم على أسس كاثوليكية ، أو الذي ينادي بسياسة الوحدة الأوروبية .

وفي الولايات المتحدة ، اكتشف مدى التغلغل المؤيد للصين في جمعية الكنائس البروتستانتية ، وهي الجمعية التي قام عدد كبير من اعضائها بتنظيم عدد من الرحلات الى موسكو وبكين .

ويمكن القول بلا جدال أن التغلغل داخل الجماعات الدينية المختلفة هو أحد الأهداف الأساسية للجهاز الدعائي السوفيتي .

٤ - منظمات أخرى:

وهناك منظمات تنشأ لأول مرة، أو قد تستخدم منظمات كانت قائمة بالفعل ثم خضعت لعملية التغلغل وبالتالي إلى استعمارها، بحيث يمكنها تغطية جميع القطاعات، سواء كانت سياسية، أو ثقافية أو فنية أو محايدة، وذلك بهدف توجيه هذه القطاعات إلى التأييد السوفيتي والشيوعي.

إن المنظمات في هذا العالم الحافل بالأعمال المتناقضة، تمثل أكثر من طابع فهي تبدأ من المنظمات التي تتبع الحزب مباشرة، مثل الاتحاد العام للعمل وأنصار السلام وغير ذلك، إلى المنظمات التي تتبع عقيدة شيوعية دون أن يشك أحد في ذلك، مثل الجمعية الدولية للمحلفين الديمقراطيين، والاتحاد الجامعي الفرنسي، وجمعية الدراسات والاستعلامات الاتحادية، والاتحاد الرياضي للعمل، ولجنة تنمية التجارة الدولية، والاتحاد القومي للمثقفين، وجمعية أصدقاء الطبيعة وغير ذلك.

وفي جميع الدول - حتى تلك التي تدين بالنظام الرأسمالي - يعمل عدد غير قليل من المنظمات المؤيدة للشيوعية: ففي فرنسا هناك مائة واربعين منظمة، ولكل منها ادارتها الخاصة، ومقرها العام، وهيئة قيادتها، ووسائل النشر التي تستخدمها.

على أن الكثير من هذه المنظمات لها شكلها الدولي، فضلا عن شكلها الذي تتخذه داخل الوطن.

وفي داخل هذه المنظمات نجد أن الدعاية وطرق التلاعب بأعضاء هذه المنظمات الذين لا يدرك الكثير منهم أنهم قد انضموا إلى أجهزة تعمل في خدمة موسكو، تتم وفقا للخطط التي وضعتها الشيوعية.

فالأعضاء الذين يوثق بهم - وهم من الأعضاء الشيوعيين أو المساعدين الذين يدينون لعقيدة راسخة - يشكلون مجموعات تجتمع على حدة وبصفة سرية، قبل اجتماع الجمعيات العامة، كي توزع الأدوار المختلفة والطرق التي تتبع في المناقشات. وبفضل هذه الخطة، تتمكن مجموعة صغيرة من الرجال من

السيطرة على الجمعيات العامة مها كان عددها، لا لشيء إلا لأن أعضاء هذه الجمعيات يعزل كل منهم عن الآخر، ولا يقفون على آخر أبناء العالم السياسية والمذهبية وتطوراتها.

والواقع أن كل هذا البناء الدعائي الذي شيدته موسكو، والذي تحدثنا عنه في مواضع عدة، إنما يقوم على أساس هرمي للجماعات السرية. فالزعماء الكبار الذين يقفون على قمة أي حزب شيوعي، يمكن تشبيههم بجماعة تتغلغل في الحزب، ويمكن تشبيه أفراد الحزب بجماعة أخرى تتغلغل داخل المنظمات المؤيدة للسوفييت، التي تشبه بدورها جماعات تتغلغل داخل المجتمع في مجموعة.

ومن القمة الى قاعدة الهرم، نرى أن كل شيء قد تم تنظيمه بطريقة تجعل الجميع يخضعون للفكرة الأساسية للشيوعية، ألا وهي إخضاع الاغلبية العددية المجردة من الوعي والتماكس للاقلية المتماكة فيما بينها.

هذه المنظمات المتوازية هي الأدوات الثمينة التي يستخدمها التوسع السوفييتي، وذلك أنه نتيجة قيامها بإثارة مختلف المواقف داخل الدوائر المتعددة، إنما تتضمن انتشارا واسعا، ودويا هائلا للمعارك التي تخوضها موسكو في سبيل النظريات التي تنشرها، أبعد مما يمكن للحزب الشيوعي وحده القيام بتحقيقه.

وإذا ما ظهر الحزب الشيوعي على المسرح بطابعه المعروف، يصبح معزولا. أما بفضل المنظمات الأخرى التي تعمل في القطاعات المختلفة، يستطيع الحزب خلق وهم بأن النظريات السوفييتية ما هي إلا تعبير برىء لحركة قومية أكثر شمولا.

وتبدو هذه الخطة بسيطة في حد ذاتها، فالأمر لا يتعدى القيام بتسجيل الموسيقى التي تديعها موسكو في آلات التسجيل لدى النقابيين والفلاسفة ودعاة السلام المسيحيين وغيرهم، ثم اقناعهم في الوقت ذاته، بأن ما يعزفونه ليس من وضع أحد غيرهم، بل من وضعهم شخصا.

دور المنظمات في الدول المتخلفة:

لا يمكن الاستفادة من الدور الذي تقوم به هذه المنظمات في الدول المتخلفة

والدول المستعمرة .

ذلك أنه لما كانت الدعاية الموالية للسوفييت في هذه الدول تشد أول كل شيء أوتار « القومية » ، و « مناهضة الاستعمار » ، فإن عملية تحويل العقول وتثبيت العملاء السوفييت حول هيئات القيادة ، قد عهد بها إلى تلك المنظمات ، بينما تتمكن الشيوعية من تغطية نفسها تماما .

ولكن إلى جانب هذه الأدوات الدائمة للعمل الشيوعي ، فإن الكرملين غالبا ما ينظم حركات مؤقتة كالجبهات ، وأيام التضامن ، والمؤتمرات التي تعقد في المناسبات ، مثل المؤتمر الخاص باطلاق سراح روزنبرج ، والمؤتمر الذي ينظم ضد اتحاد الدفاع الأوروبي ومؤتمر وقف التجارب النووية وغير ذلك . إن هذه المؤتمرات لها طابع مشترك هو الاختفاء وراء ستار الحياد السياسي .

وحينا يصادف الزحف السوفييتي أية عقبات في طريقة ، تنتفخ هذه الجبهات وهذه اللجان إلى حد التحول إلى عواصف حقيقية مليئة بشحنة موثرة ، وحافلة بالتحذيرات والتهديدات ، لكي تفرغ نفسها بأية وسيلة ، ابتداء من الكلمة الى المظاهرة إلى المكالمة التليفونية ، التي توجهها إلى أشخاص معينين .

وفي نطاق هذه الحركات التي تقوم أساسا على خلافات مؤقتة وليدة الساعة ، تصبح للجبهات الشعبية التي كانت دائما أكثر الأدوات فعالية للتوسع السوفييتي مكانة من الدرجة الأولى ، حيث تبدأ فوراً الدول الأوروبية التابعة للفلك الشيوعي بالعمل المرسوم لها .

إن التكتيك الذي تتبعه هذه الجبهات الشعبية واحد على الرغم من تغير المواقف . ومن الغريب أن عقلية الرجال الذين يشرفون على السياسة الديمقراطية تبلغ حدّاً من السذاجة ، يجعلهم يقعون ضحايا للوهم الساذج الذي تخلقه لهم كل مرة الدعاية الشيوعية .

فالحزب الشيوعي ، وهو يزايد بالشعار المعروف عنه من حيث هو حزب يساري ، يستغل جميع الخلافات التي تبدو فيها روح التهديد الحقيقية او المفتعلة ، كي يقترح على الأحزاب اليسارية الأخرى ان تتحد فيما بينها معه ،

مكونة الجبهة الشعبية.

وعندما تلتقط هذه الأحزاب الطعم الذي القاه الشيوعيون لهم، تتكون لجان موحدة، حيث يروح الشيوعيون مباشرة بممارسة ضغوطهم عليها ببراعة فائقة. وهم ينجحون عادة في إخضاعها لسيطرتهم، ثم يضعون أيديهم على الوسائل العديدة التي تكون قد وضعت تحت تصرفهم.

هذه الجبهات الشعبية تطور نفسها بعد أن تدعم بالعناصر الغوغائية، إلى أن تصبح شبكة واسعة من الدسائس التي تتعدد أشكالها، وتظل تعمل بجرية في الميدان.

نظام التبادل:

ومن بين الأسلحة الكثيرة التي يستخدمها السوفييت لإثارة الاضطرابات السياسية، نجد دورا ملحوظا يعهد به الى « نظام التبادل » بين الدول الشيوعية وغير الشيوعية.

إن الدبلوماسية السوفييتية ليست دبلوماسية بالمعنى التقليدي المعروف، وإنما هي أحد تفاصيل الحركة الدعائية، ولذا نجد التبادلات المختلفة سواء كانت دبلوماسية أم ثقافية أم تجارية أم فنية أم رياضية، ليست إلا حركات نظمتها موسكو لأهداف دعائية، ولإحداث أثر سيكولوجي تستفيد منه النظريات السوفييتية وانتشارها.

وحتى في هذا القطاع نجد خطرا كبيرا يجثم فوق صدر العالم غير الشيوعي، الذي يجد نفسه ومنذ البداية في وضع ليس في صالحه، نتيجة لاختلاف هدف كل من الجانبين الشيوعي وغير الشيوعي فيما يتعلق بنفس العمل. فالسير في التبادل يعني بالنسبة للعالم غير الشيوعي تخفيف حدة التوتر واقتسام الأرباح، في حين أنه بالنسبة للسوفييت يرمى إلى مضاعفة القواعد التي ينطلقون منها إلى العمل التخريبي الذي يريدون القيام به.

لذلك فإن الفكرة التي تقول أن الاتصالات بالسوفييت بصورة مطلقة، تفيد في توسيع آفاقهم وجعل نظرتهم إلى العالم تتسم بالطابع الإنساني هي فكرة خطأ وخادعة وستظل كذلك ما دام السوفييت مستمرين في إرسال رجال إلى الخارج

لا يستمعون لما تمليه عليهم ضمائرهم الحرة، وإنما رجال يعدون أدوات طيعة في الجهاز، ويخلصون له خوفا مما قد يتعرض له ذووهم في روسيا، وسوف نعالج هذه المواضيع بالتفصيل في فصول قادمة.

الصراع الدبلوماسي:

بينما يقوم الاتحاد السوفييتي بكثير من الأنشطة المستورة في الخارج ويدعمها، فإن للدبلوماسية السوفييتية بالضرورة مسؤولية علنية للدولة ومعترف بها. وبالتمعن في دور الدبلوماسية كأداة رئيسة في الحرب الثورية السوفييتية، يصبح من الضروري أن ندرك أن الشيوعيين يعملون دائما كشيوعيين. إذ يجب عليهم أن يعدلوا من أنفسهم تكتيكيا وفقا للتنظيم الذي يعملون من خلاله، سواء كان اتحاد عمال أم عصابة فلاحين أم سفارة. ففي حالة السفارة، فإنهم يتوافقون مع بروتوكول الدبلوماسية ويستخدمونها كساتر لعملياتهم التأميرية. وقد تأكدت هذه الحقيقة من الشهادات والوثائق التي تم الحصول عليها من المرتدين من الدبلوماسيين السوفييت.

وقبل الحرب العالمية الثانية، حينما كانت الدولة السوفييتية متخذة وضع الدفاع، قامت بإخفاء دورها في الحرب الثورية. فهي غالبا ما أخفت هذا النشاط بتظاهرها بالتمسك بالبروتوكول الدبلوماسي. وكان المظهر الوحيد لمشاركتها في الحرب الثورية، هو دورها في حملات السلام السوفييتية، وفي مناوراتها لإثارة الديموقراطية ضد قوى المحور بعد صعود هتلر. وبإيجاز، فإن دبلوماسيتها جاهدت في استغلال سياسات القوى الأخرى، والاعتماد عليها.

وبعد الحرب العالمية الثانية ومخروج الرأسمالية منها ضعيفة، وكانت الولايات المتحدة تقريبا غير مسلحة، تحولت موسكو بجدة نحو العدوان. وأصبحت الدبلوماسية السوفييتية بعد الحرب صراعا دبلوماسيا بكل معانيه. وفي فترة بلشفة الدول. التابعة، قدم أفراد السفارة السوفييتية إلى القيادة السياسية كل ما تحتاج إليه وكانت الأحزاب الشيوعية في الدول التابعة - باستثناء تشيكوسلوفاكيا - صغيرة للغاية. وكان عليها أن تبني ذاتها في عجلة عن طريق المعالجة وأعمال القسر للأحزاب الاشتراكية الكثيرة، ولأحزاب

الفلاحين البورجوازية الصغيرة، كي تتحد في الجبهة المتحدة مع الشيوعية توطئه لامتصاصها تماما. أما الذين قاوموا، فقد فروا أو اختفوا ولقد أظهرت أنشطة هذه السفارات التي عملت دون أى عرقلة، طبيعة الدبلوماسية السوفييتية كأداة للغزو.

وفي يوليو عام ١٩٦١، جاء تقرير من «جمعية الدول الاوربية الأسيرة» يعرض الاجراءات التي استخدمها الشيوعيون السوفييت في فرض حكمهم على دول اوروبا الشرقية والوسطى. ويذكر التقرير مدعما بوثائق كافية، كيف وصل السوفييت إلى السلطة ليس عن طريق الاستفتاء، ولكن باستخدام المكائد وأعمال القسر:

«لقد فرضوا نظامهم بالعدوان المباشر وغير المباشر، وباستخدام القوة أو التهديد بها. إن هذا النظام محمي الآن من الخارج بالاسلاك الشائكة، وبحقول الألغام على الستار الحديدي، ومحافظ عليه من الداخل بواسطة الحراب السوفييتية، وبعرض كل شرك الدول البوليسية، وبانكار الحقوق الانسانية الأساسية للشعوب التي تحكمها، فإن الانظمة الشيوعية في وسط وشرق اوروبا لا تمثل عدا سادتها السوفييت» (★).

دبلوماسية الدولة السوفييتية.

ومن المؤلف أن يحتلط دور الاتحاد السوفييتي في الحرب الثورية مع الحرب التي تشنها الأحزاب الشيوعية في الدول غير الشيوعية. وعلى سبيل المثال، فإن الاتحاد السوفييتي كدولة، لا يمكن أن يتوقع منه أن يشغل نفسه فيما يجرى داخل اتحاد محلي أو تنظيم فلاحين في دولة ما، ولكن الحزب الشيوعي يستطيع القيام بذلك ومن ناحية أخرى لا يستطيع الحزب الشيوعي أن يعرض السلام لأن هذا من وظيفة الدول.

إن الدبلوماسية تعكس طبيعة الحكومة التي تخدمها. وتخدم الدبلوماسية التقليدية أغراض تسهيلات التجارة، والعلاقات الأخرى بين الدول. فإذا ما

حدثت احتكاكات، فإنها تهيء وسيلة تلطيف عن طريق الأخذ والعطاء. وإذا ما أخفقت فقد تتخذ قرارات حرجة عن طريق التهديد بالحرب. وقبل ظهور السلطات الجماعية، كانت الحروب محددة بأهداف ثابتة معينة، وبعد تحقيق هذه الأهداف فإن العلاقات السابقة تستأنف.

ولا تهدف الحكومة السوفيتية الى غزو العالم في ظل الشيوعية الدولية فحسب - وهو هدف غير محدود - بل تهدف أيضا الى تدمير الكيان الاجتماعي داخل كل دولة. إنها تنشئ دولة عالمية، وتصبو إلى نظام اجتماعي عالمي، حيث تلغى فيه علاقات الدولة التقليدية، سواء كانت دبلوماسية أو غير ذلك. إن الدبلوماسية السوفيتية تستخدم كأداة للوصول إلى هذه الأهداف بعيدة المدى.

وبقيام السوفييت بعد الحرب كقوة عسكرية من الدرجة الاولى، أصبح الاتحاد السوفيتي لا يسود الحركة الشيوعية الدولية بفعالية أبعدها فعل أصلا فحسب، بل أصبح يتدخل أيضا في نشاط أكبر من خلال الحرب الثورية. وبالرغم من أن الكومنترن حل رسميا في شهر مايو من عام ١٩٤٣، فإن الأحزاب الشيوعية المختلفة لا تفتأ توجه من الحزب الشيوعي السوفيتي، وإن كان بطريقة مستورة. وبينما حرمت الأحزاب الشيوعية من استقلالها عن موسكو، فإن جهاز موسكو استمر في البناء سواء في حجم عملياته أم في درجة سلطته على الأحزاب الشيوعية الوطنية. وزاد حجم السفارات والقنصليات، كذلك جهاز الشرطة السياسية السرية السوفيتية في البلاد الرأسمالية. كما أن جهاز التجارة كان أكبر بكثير من حجم التجارة مع السوفييت. وكلما ازدادت صداقة الدولة الرأسمالية مع السوفييت، كلما أسرع نمو الجهاز السوفيتي في هذه الدولة. فإذا ما تقرر أن الدولة أصبحت ناضجة لعملية تدمير كامل، فإن الجهاز السوفيتي يضاعف مرتين أو ثلاث مرات. أما الدول الشيوعية التابعة، التي توجه سياستها من موسكو، فإنها سوف تتحرك أيضا وتنشئ سفاراتها وقنصلياتها، التي يسبقها الجهاز السوفيتي ويوجهها.

إن الحكومة التي تكون أهدافها غير محددة، والتي تتورط في حرب ثورية

لإعداد العالم للغزو، تحتاج إلى معلومات أكبر نسبيا - إستراتيجية أو تكتيكية - عن أي حكومات أخرى، وإذا كان المرء يقود جيوشا ضخمة للتدمير، فإنه يحتاج هيئة قديرة لتوجيه مثل هذه العمليات. إن أفضل العاملين السياسيين المدربين وذوي الخبرة في هذا المجال، تجدهم - كقاعدة عامة - في السفارات السوفيتية والقنصليات. أما الخبراء في التنظيمات السرية والعمل السري من الأنواع المختلفة، فيكونون في جهاز الشرطة السياسية، ويلحق بعض منهم في السفارات والقنصليات.

ولا يؤمن الكرملين بقداسة المعاهدات الدولية، فالاستراتيجية الشيوعية تخدر البورجوازية كي تهجع بموجب معاهدة بينما يقوم الكرملين بأعداد خطئه. فإذا ما استولى الكرملين على دولة عن طريق التخريب، فإنه سيصر باسم السيادة القومية للدولة المعنية، على ضرورة قيام قوى الغرب بخلع أيديها. ولكن إذا ما ثارت دولة شيوعية تابعة كالمجر عام ١٩٥٦، وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، فإن هذه السيادة ينبغي أن تسحق. وهذا يعني أن ما غزته لا بد أن تحافظ عليه، وأن تستولي على أكثر منه - كل ذلك باسم السلام.

الخلاصة

تحوض الشيوعية الدولية صراعا جبارا لا ينقطع ضد العالم غير الشيوعي، وبخاصة الدول النامية التي خرجت حديثا من بين براثن الاستعمار. كما أن الشيوعية منهمكة في الوقت ذاته في عملية أخرى واسعة النطاق بهدف نشر الشيوعية الدولية والسيطرة على العالم، عن طريق التغلغل.

وفي نطاق هذه العملية الأخيرة، هناك دور هام للجهود التي تبذل من أجل تغذية الشكوك التي تدور حول مراكز معينة في الدول الديمقراطية، وفي الدوائر المناهضة للشيوعية التي تعمل فيها.

والشيوعية في تغلغلها في الدول غير الشيوعية، تعتمد أساسا على العمل السري، الذي يضطلع في المرحلة التي تسبق الاستيلاء على السلطة بعدة مهام منها: إخفاء أنشطة الخلايا، وأدوات الطباعة والنشر، وتهيئة قاعدة للتجسس السوفيتي وأعمال التخريب المحتمل.

أما المنظمات الرئيسية في العالم غير الشيوعي التي يحاول الشيوعيون التغلغل فيها، فهي الصحافة وأجهزة الاعلام، وقطاع التعليم، والأحزاب والنقابات والجمعيات الدينية، هذا بالإضافة الى منظمات الجبهة الاخرى مثل الاتحاد العام للعمال، وجماعة انصار السلام.... الخ.

الإعداد للغزو الشيوعي

يكمن مفتاح السيطرة الشيوعية والغزو الشيوعي في تشكيل صفوة تقوم أولاً باستخدام الصراع الطبقي الكامن، ثم تقوم بعد الاستيلاء على السلطة بفرض ذاتها كطبقة سائدة أو وحيدة ومثل هذه الطبقة نادراً ما حكمت عبر التاريخ، ذلك أن الحكم الحقيقي كان يمارسه رجال صفوة المزمّن الذين عاشوا فيه. فمثلاً كانت صفوة الملكية والاقطاع تعمل دائماً ضد مصالح الأرستقراطية الأقل شأنًا، فتحالفت مع البورجوازية الناشئة حينئذ وبالمثل تحالفت البورجوازية بعد ذلك مع حركات العمال الناشئة ضد الملكية والاقطاع بالرغم من معارضة أقسام كبيرة من البورجوازية.

ونادراً ما تكون الطبقات قادرة على الاتفاق على الجوهريات، وبنوع ما على الاستراتيجيات والتكتيكات، فترك تقريرها للزعامة. إن نظرية ماركس عن حكم الطبقات في التاريخ هي استكمال غير جائز لحد كبير، أو في أفضل الظروف نصف حقيقي.

والفكرة الشيوعية التي تقول بأن من الممكن أن تكون هناك طبقة عاملة هي في الوقت نفسه طبقة حاكمة، فكرة نظرية مجتة. وإيما كانت تطبق النظرية فإن الطبقة العاملة حملت سادتها الجدد على ظهورها منذ البداية. وبالتجربة، فإن المخطط أدى إلى علاقة جديدة بين سيد ومسود.

إن صفوة الطليعة لدى ماركس ولينين تهدف إلى حكم المجتمع بأكمله. وبينما

نجد أن أهداف صفوة البورجوازية الديمقراطية محدودة، يلاحظ أن أهداف الشيوعيين تحتكر جميع موارد الدولة. فاذا ما وضعنا المميزات الرئيسية لصفوة طليعة لينين في اذهاننا، نرى بالضرورة دراسة الوسائل والأساليب التي يستخدمها الشيوعيون للإعداد لغزو العالم غير الشيوعي.

التدريب:

تحدثنا في الفصل السابق عن تدريب الكوادر الشيوعية، أما في هذا الفصل فسنحدث عن تدريب الشيوعيين القادمين من خارج الستار. إن الكرملين يهتم بتدريب الشيوعيين على جميع المستويات وهم في سبيل الغزو الخارجي يبذلون جهداً ضخماً في تدريب كوادر الشيوعيين القادمين من الأحزاب الخارجية. وتقوم الكليات الروسية بتدريب أفراد الأحزاب الشيوعية غير الروسية القادمين من مناطق جغرافية - سياسية معينة، فتقوم جامعة الشرق الأقصى بتدريب شعوب آسيا، وتقوم الجامعة الغربية بتدريب الشيوعيين من أوروبا الشرقية، أما جامعة لينين فتختص بالدول المتقدمة صناعياً، كما أن هناك معهداً جديداً لأفريقيا وأمريكا اللاتينية يطلق عليه «جامعة صداقة الشعوب»، ولقد قام خروشوف بافتتاح هذا المعهد في موسكو لتدريب الدول الحديثة في أفريقيا والدول الأكثر فقراً بين دول أمريكا اللاتينية القديمة. وترتكز هذه الكليات على الحرب النفسية، وهي لا تقوم بتعليم التخريب أو التجسس أبعد مما يشير إليه دورها في الحرب الثورية. أما أعمال المخبرات والتخريب، وشفرة المواصلات، كذا جميع فنون الأعمال السرية، فإنها تدرس في مدارس خاصة يديرها القسم الأجنبي للشرطة السرية.

وفيما يلي حدود الموضوعات التي تدرس في كليات الحرب الثورية الشيوعية:

عام:

- (١) تعاليم ماركس ولينين المتعلقة بدور الحكومة والدولة والحزب، وأدوارها في المجتمع.
- (٢) التنظيم التمردى للحزب الشيوعي، وتكوينه، ووسائله.
- (٣) اتحادات العمال كأداة للحرب الاقتصادية والسياسية ضد المجتمع

الرأسمالي الديموقراطي .

- (٤) استراتيجية تحييد معنويات الطبقة الوسطى أو تقويضها .
- (٥) استراتيجية اكتساب حياض سكان المزارع في الدول المتقدمة .
- (٦) سياسة الاستعمار الشيوعي ، على أساس تعاليم لينين وتعديلات ستالين .
- (٧) المزارع كقاعدة اساسية لإشعال الثورة الاستعمارية .

الحرب السرية:

- (١) دور الشيوعي في حالة الحرب ضد الإتحاد السوفيتي .
- (٢) التغلغل في القواب المسلحة .
- (٣) العلاقة بين الأنشطة المكشوفة القانونية، والانشطة السرية غير المشروعة، وضرورة القيام بها معا في وقت واحد .
- (٤) الغرض من التغلغل في مصالح الحكومة ووسائله .
- (٥) دور التخريب والتجسس في الحرب الثورية .

التمرد المسلح:

- (١) كيفية تشكيل قوة مقاتلة شبه عسكرية .
- (٢) وسائل تسليح مثل هذه القوة .
- (٣) دور مثل هذه القوة في حالة الحرب ضد الاتحاد السوفيتي .
- (٤) الخطة العامة لاحتلال مدينة .
- (٥) إدارة المدينة بعد احتلالها .
- (٦) سيادة المفاجأة في تنفيذ تمرد ناجح .
- (٧) أسلوب حرب العصابات وأهدافه .
- (٨) الاجراءات المضادة المحتملة التي تقوم بها الحكومة ضد التمرد ووسائل التغلب عليها .
- (٩) تعزيز السلطة .

على أننا قد نجد في كليات الحرب الثورية الاجنبية طلبه من الروس، يتم تعيينهم - كقاعدة عامة - في وزارة الخارجية، كما تلتحق نسبة مئوية عالية

من المواطنين السوفييت في مدارس الشرطة السرية وكلية الأركان العامة. كذلك فإن جميع أعضاء الحزب الشيوعي الأجنبي الذين يدرسون في هذه الكليات ويطبقون في الاتحاد السوفييتي لمدة تزيد على ستة شهور، ويصبحون أعضاء في الحزب الشيوعي السوفييتي عن طريق النقل.

ان نموذج التنظيم الشيوعي السوفييتي - نظريا أو عمليا - يشمل الأفكار القديمة والحديثة على حد سواء. فالحزب كما رأينا منظم تنظيما هرميا، وينبغي ان يكون مرناً، ولكنه في الوقت ذاته يكون صلباً ازاء اي تبديل للاستراتيجية أعنى خط الحزب.

وإذا ما اقتفينا أثر الاستراتيجية العامة، فإن أعضاء الحزب في الدول المختلفة يفسرون بطريقتهم الخاصة تعليمات موسكو. وقد يجنون كثيراً في اختيار التكتيكات، ذلك ان كل «نواة» او «عصبة» عليها أن تقرر كيف تعالج مشاكلها على المستوى المحلي، وكل ما هو مطلوب منها، هو أن تنفذ التكتيكات بعامة بحيث تتوافق مع الاستراتيجية التي تضعها موسكو.

تجميع الصفوة:

ولنفحص الآن استخدام القوى البشرية المدربة في آلة الحرب الثورية الشيوعية الضخمة. وطالما تم اولا انشاء الكليات والمعاهد فإن عشرات الآلاف من الرجال والنساء دربوا أو تم تعيينهم في مراكز مختلفة على امتداد قارات خمس. ويظل حوالي ٣٠% من الخريجين تحت الاشراف العام لقسم الكادر، أما الباقون فيوضعون تحت تصرف الأحزاب الشيوعية المختلفة التي جاءوا منها، ولكن يمكن استدعائهم إلى موسكو في أي وقت. وتصدر كل التعيينات باسم اللجنة المركزية.

ويستخدم الخريجون في تزويد مراكز رئاسة الحرب الثورية في موسكو ومكاتبها الميدانية بالأفراد. وهم يعملون في الدول الرأسمالية كممثلين ميدانيين، ومدربين، او يعملون أخصائيين في القنصليات.

كذلك يسدون الفراغ في المراكز القيادية في الأحزاب الشيوعية بالدول التي قدموا منها. وفي الأصل فإن قيادة الحزب الشيوعي في معظم الدول لم تتدرب

في موسكو، ولكن ما ان توفر المدربون الروس حتى حلوا مكان الآخرين .
على ان تدريب الضباط وأفراد الصفوة على هذا الضرب من العمليات، لا
يغطي لنا القصة بأكملها. ذلك أن القوى المدربة ينبغي أن تكون خفيفة الحركة
لاستخدامها استخداما كاملا. وتعنى خفة الحركة التنظيمية أن القوة يمكن أن
تتركز عند نقطة استراتيجية في الوقت المناسب.

وتقوم موسكو بتحديد أسبقيات لأدوات حربها الثورية على أساس
اعتبارات بعيدة المدى، أو متوسطة المدى. وعلى سبيل المثال، فإن الولايات
المتحدة أصبحت الآن « غرضا أوليا » على أساس اعتبارات بعيدة المدى، أما
الدول المجاورة للستار الحديدي فتعد منطقة اهداف ذات أسبقية عالية، حتى
بالرغم من أنها لا يمكن اغتصابها فورا.

وهناك مناطق أهداف ثانوية - مثل أندونيسيا - حيث يمكن عمل
اختراق عن طريق التغفل، بالرغم من بعد المسافة الشاسع عن الحدود السوفييتية
وعلى اية حال، فإن تدفق الأفراد المدربين والموجهين من موسكو، كذا المصادر
السوفييتية والأسلحة إلى هذه المناطق، سوف يتوقف على الظروف المحلية، وعلى
التغيير الكامل للاستراتيجية الشيوعية.

كما ان منطقة الهدف الحيوى قد تتوقع أن يتدفق إليها سيل ضخم من
الدبلوماسيين ورجال التجارة وحرب العصابات والأخصائيين العسكريين
وافراد الحرب النفسية السياسية. وتفتح لهم الاعتمادات المالية لإفساد الرسميين،
ورشوة الصحف المحلية، وتهيئة سائر عمليات في شكل حرف او مزارع او
شركات تصدير واستيراد، أو تهريب الأسلحة، أو الحصول على الاسلحة من
المصادر المحلية.

وكلما تتقدم عملية التسلل الداخلى في الحكومة، تتهيأ لها التسهيلات ويزداد
حجمها. وفي النهاية، يقوم الاتحاد السوفييتي بالإشراف على هذه المسألة مباشرة
من خلال سفارته كما أشرنا من قبل.

وفي الدول التي تعد اهدافا بعيدة المدى، تتبع العملية ذاتها ولكن التركيز
على عمليات الحرب الثورية والتجسس يصبح الهدف.

ولكى تستطيع رئاسة موسكو تجميع صفوف مدربة على الحرب الثورية في اى منطقة منشودة فإنها تحتفظ بتنظيم ضخم لتزييف أوراق الهويات الشخصية والجوازات. ويستطيع مركز جوازات السفر ان يمد اى فرد بجواز سفر صالح بالاختام الضرورية والطابع المطلوبة الى اى دولة كما ان هذا التنظيم او المركز يقوم ايضا بتزييف شهادات الميلاد وتصاريح الشرطة وتأشيرات الدخول والخروج. وتستخدم سير أعضاء الحزب في جميع انحاء العالم لخلق شخصية حقيقية أما الأوراق المزيفة لإخفاء الاصل والهوية فيمكن استخدامها بواسطة روسي يتحدث لغة اجنبية، أو قد يستخدمها أفراد قوميات اخرى قد يتعرضون للكشف لو انهم استخدموا هوياتهم الخاصة، كذلك يستخدمها أولئك الذين لا يستطيعون الحصول على الاوراق اللازمة لسفرياتهم. وفي العادة يدرّب العملاء على الحصول على اوراقهم الخاصة باسم هوية شخص آخر. أما أفراد السلك الدبلوماسي السوفييتي فانهم يستخدمون في سفرياتهم اوراقهم الخاصة، ولكن البيانات المدرجة بها لا تكون دائماً صحيحة.

التنسيق

وبالإضافة الى القدرة على حشد مواردها المطلوبة، فإن الحرب الثورية الشيوعية تستغل ايضا التخصص. ولكي تحصل على أمهر الاخصائيين ينبغي أن يكون هناك تنسيق أفقي وآخر رأسى. ويتم التنسيق الأفقي من خلال لجان القسم او لجان القرية، وعلى مستوى أعلى من خلال لجان الاقليم أو الدولة أما على المستوى الأعلى من ذلك فيتم من خلال اللجان المركزية أو اللجان الوطنية، بمشاركة المكتب السياسي «البوليتيرو» للجنة المركزية.

وهناك ايضا تنسيق عام من خلال لجان موسكو. وتقوم اللجان الافقية بتنسيق أنشطة الأنوية والعصب على أساس جغرافى، تلك الأنشطة التي تعالج المسائل العامة سواء كانت ذات طابع محلى أو اقليمي أو وطنى أو حتى عالمى.

أما الجهاز الرأسى فهو الذى يوجه نشاط الحرب الثورية المتخصصة على جميع المستويات. ولقد بينا كيف أن العصب التي تعمل داخل صناعة خاصة أو داخل تنظيم غير شيوعى، تنسق كي تتبع كل الأنشطة الشيوعية نموذجاً واحداً فمثلا يشرف رئيس لجنة إتحاد العمال أو سكرتيرها - وهو في الوقت ذاته عضو

في اللجنة المركزية- على كل أنشطة الاتحادات. كذلك فإن أنشطة عصب الحزب داخل التنظيمات النسائية غير الشيوعية توجه بواسطة فرع المرأة أو لجنة المرأة. أما اللجنة الثقافية فتقوم بتوجيه نشاطات السينما والمسارح والمجالات المرتبطة بها ونستطيع أن نرى أن أعمال هذه اللجنة، لا تقتصر على الحقول الثقافية ووسائل الترفيه. ففي خلال شهري مايو ويونيو من عام ١٩٦١، قبل بناء سور برلين بشهور قليلة، ظهر أكثر من خمسين عرضاً سينمائياً وتليفزيونياً عن ألمانيا النازية في منطقة نيويورك الدولية. وربما جاءت الرغبة في تذكير العالم بالنازية عن طريق الصدفة. ولكن ربما قامت زمرة من الشيوعيين بإشغال هذه الذكرى، طالما كانت مصلحة موسكو تكمن في الربط بين ملوك ألمانيا الغربية حينئذ وسلوك النازي في الماضي. أما في حقل التعليم، فإن الأفكار الشيوعية والعقيدة الممزقة، كانت تنسج بمهارة في بعض الأحيان في أفلام تعليمية خاصة. تنتج للمدارس والمصانع والقوات المسلحة.

على أن ذروة النشاط السري داخل القوات المسلحة يتم مراقبته عن طريق لجنة مراقبة «العسكرية المضادة» كما يتم إنشاء إدارات أخرى لتوجيه الأنشطة في مجالات خاصة هذه الإدارات تعد شبه مكشوفة إذ أن كيانها معلن عنه، ولكن أنشطتها مثل «الزمر» التي توجهها، تعمل في سرية دائماً.

كما أن لنشاط الشباب إدارة مميزة في الحزب، ويدار بواسطة تنظيم خاص يعرف بـ «رابطة الشباب الشيوعي».

وقد يكون للحزب أيضاً إدارة أو لجنة تباشر الرياضة. وفي أوروبا حيث التنظيمات الرياضية الصحية مثل «السوكولز» في تشيكوسلوفاكيا، يصبح الغرض إختراق هذه التنظيمات والتنسيق بين نشاط العصب داخليا، ويحتفي خلف أنشطة التنظيمات الرياضية عناصر قتال مدربة يقوم الحزب بتنظيمها، لاستخدامها في الأنشطة العنيفة التي يوجهها فهي قد تستخدم لحماية المظاهرات والإجتماعات الشيوعية والإغارة على مراكز اتحاد العدو، أو لقهر الزعماء المرتدين أو المضادين للشيوعية، كما يمكن استخدامها في أعمال التخريب.

ويعمل الشيوعيون تحت ستار الوطنية، فتقوم وحدات الدفاع أو التنظيمات

الرياضية بالانضمام الى قوات المناضلين الشيوعيين، ولقد ظهرت قوة هذه التنظيمات في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية وفي أثناء تقهقر الألمان من فرنسا وإنهيار السلطة المحلية، تقدم الشيوعيون مدعين ضرورة معاينة المتعاونين مع العدو، وقاموا بتصفية معارضيهم، واستولوا على دور الصحف. وأغاروا على البنوك واستولوا على الرئاسات والمكاتب الحكومية، وأقاموا من أنفسهم قوات شرطة في كثير من المدن وسقطت كميات ضخمة من الأسلحة في أيديهم. وحقت هذه المجموعات قدرا كبيرا من الغزو وربما كان في استطاعتهم الاستيلاء على الحكومة، لولا أن فرنسا كانت في المنطقة الانجلواميركية، وكانت القوات السوفيتية ما زالت على مسافة بعيدة جداً وفي إيطاليا قامت عملية مشابهة تحت ستار المقاومة، إذ تقدم الشيوعيون مستغلين شعار الحلفاء «عمليات الحلفاء ضدو العدو المشترك»، ولكن الشيوعيون استخدموا هذا التحرك لأغراضهم الخاصة، ويعزى النمو السريع الكبير للحزبين الشيوعيين الإيطالي والفرنسي إلى هذه الأنشطة التي قام بها الشيوعيون بعد الحرب العالمية الثانية.

كما أن لدى الحزب الشيوعي إدارات يقوم من خلالها بتوجيه التنظيم والدعاية وأعمال الإثارة والسيطرة. إن الإدارات التي تسيطر على هذه الأنشطة هي من أولى التنظيمات التي تنشأ في أي حزب، ذلك أن التنظيمات الأخرى قد تشكل أو تحل تبعاً للظروف، ولكن هذه الإدارات المسؤولة عن الدعاية والتنظيم والإثارة تكون قائمة دائماً.

وتختص إدارة التنظيم في تنظيم الأساليب والإستراتيجية المتعلقة بكل مراحل الحركة، سواء أكانت سافرة أم سرية، نواة أم عصابة، جهات أم إتحادات. وتقوم هذه الإدارة بتعليم هذه الأساليب في مدارس الحزب، وفي المؤتمرات. ونظراً للمجال الواسع للأنشطة الشيوعية، فإن الشيوعيين قد أنتجوا أوسع المؤلفات في تنظيم أي حركة سياسية.

وكما بيّنا من قبل فإن إدارة الدعاية والإثارة تقوم بمعاونة كل جهود الشيوعيين التنظيمية. ذلك أن إدارة الإثارة والتهيج - كما هو معروف في الحزب- تخطط الاستراتيجية الشاملة لحملة الحرب النفسية وتكتيكاتها. كما

أنها تقوم بالتنسيق بين أنشطة صحافة الحزب، وطبع المنشورات، ومدارسها التدريبية، والمكتبات، والمحاضرات، والأنشطة التثقيفية، هذه الإدارات شأنها شأن إدارة التنظيم، لها أيضاً إدارات إقليمية، ومن ثم فهناك نموذج على نسق واحد لأعمال الإثارة والدعاية سواء على المستوى الوطني أو المستوى الدولي.

الخدمة السرية السوفييتية

اعتمدت الخدمة السرية السوفييتية كلية على الأحزاب الشيوعية الوطنية المختلفة، حينما أنشئت في أوائل العشرينات من هذا القرن. وفي السنوات اللاحقة، أصبحت أنشطة المخابرات متخصصة، وأنفصلت عن الأحزاب الشيوعية ولكنها ظلت تعتمد على الأحزاب في مسألة الأفراد واجراء تنقلاتهم. على أن توجيه شبكة الأعمال هذه يتم من خلال الأجهزة الدبلوماسية السوفييتية أو وكالات التجارة.

وفي أقصى ظروفها الحرجة يتم العمل من خلال عملاء سرين مقيمين في أرض الدولة المستهدفة، حيث يعملون خارج الوكالات السوفييتية غير الرسمية. أما الآن، فتعمل كل شبكة سوفييتية من خلال مجموعات من العملاء منفصلة وكثيرة، ولا تعرف الشبكات بعضها البعض، حتى لا تتعرض العملية الشاملة لخطر الكشف، لو اكتشفت إحدى الشبكات. وإذا ما فقد الإتصال، يمكن إعادته من خلال جهاز إتصال الحزب. أما إذا ما عين عضو من الحزب الشيوعي للعمل في الخدمة السرية السوفييتية، فإنه يبعد عن جميع أنشطة الحزب الشيوعي الأخرى، أو ينقل إلى إدارة الخدمة السرية، ويهجر الحزب ليقوم بنشاط أكثر حذرا في الجهاز السري.

والشيوعي لا يكون على الإطلاق عميل مخابرات بالمعنى الضيق، وبغض النظر عن العمل الذي يقوم به، فهو شخص ذو حساسية سياسية، ويتم تدريجه، ويكون على استعداد للاشتراك في أي نوع من أنواع النشاط التأمري، وربما يكون اليوم مجرد عميل سري، ولكنه على استعداد كى يصبح في اليوم التالي قائد تمرد. وكقاعدة عامة، فإن الشيوعي لا يميل إلى أن يكون جاسوسا محترفا، ولكن إذا تطلب الأمر ذلك، فإنه يقوم بدوره في سبيل القضية الكبرى التي

يخدمها ، والخدمة السرية السوفيتية تتمتع باستجابة عالية وعداد ضد أي اضطرابات ايدولوجية في الحركة كما أن الشيوعي في ميدان التخريب صاحب سبع صنائع ، وهكذا فإن عميل المخابرات السوفيتية المتخصص الذي يعمل اليوم بالإتصال مع الحزب الشيوعي ، قد يصبح غدا من أمهر الكوادر العليا للثورة .

ولكى يفهم المرء العمل السرى السوفيتي وجهازه السياسى ، فينبغى عليه أن يبعد عن ذهنه أى فكرة لها ارتباط بالمبادئ ، كما أن جهاز الخدمة السرية ليس تنظيمياً يعمل على اسس وقواعد ، لكن كل شىء فيه يعد مقبولاً ما دام يخدم الغرض كذلك فإن العميل السرى غير مجبر على الدفاع عن الشيوعية بل على العكس من المفروض أن يتنصل منها .

إن القسم السياسى للعمل السرى السوفيتي شهير بالتوغل في ميادين الحرف والمهن عن طريق وسطاء وطنيين ، أو عن طريق استخدام مهن أعضاء الحزب والمتعاطفين ، للقيام بأعمال التهريب وغيرها من الأغراض . كما أن العمل السرى يزرع أفراده في محطات الإذاعة ، ودور الصحف والنشر للمعاونة في الأنشطة التخريبية^(١)

و الخدمة السرية هى المصفاة الأخيرة فى التنظيم التأمري السوفيتي وهى لا تعمل من خلال جبهات الحزب الشيوعى ، ولكنها تترك هذا الطور من العملية للحزب . إنها تعمل من خلال أفراد رئيسيين تكون هويتهم السياسية غامضة أو غير معروفة ، فيقومون بتحريك الأفراد والتنظيمات الأخرى التى لا تشك فى ان عملاء الشيوعيين هم من محركونهم . وبطبيعة الحال ، فإن أكثر الأفراد انقيادا نحو هذا الغرض ، اولئك الذين يعتقدون فى الاقتصاد الجماعى ، والسلام غير المشروط أو أى نظريات أخرى تتمشى مع خطط السوفيت .

لقد بدأت سيطرة الدولة السوفيتية على الحرب الثورية أكثر من سيطرة

* الزرع اصطلاح مهني في علم المخابرات يعني خلق قصة وهمية تعاون تغلغل عميل المخابرات في مكان ما بحيث يبدو إنسانا عادياً يقوم بعمل مشروع .

الأحزاب الشيوعية عليها، منذ إلغاء الكومنترن عام ١٩٤٣، وأخذت هذه السيطرة تنمو في اطراد منذ ذلك الوقت. ومن الناحية النظرية، فإن دور الأحزاب الشيوعية كتنظيمات قائمة تظل على ما هي عليه، ولكن ثقل الدولة السوفيتية أصبح ذا أهمية مطردة. ويفسر ذلك نمو حجم هيئات السفارات السوفيتية والوكالات التجارية، كما انه يبين نمو تنظيمات الخدمة السياسية السرية السوفيتية وعملياتها. وبالرغم من أن المعدل الدقيق لهذا النمو غير معروف، فإن السجلات المعروفة توضح أنه كان عاليا نسبيا.

وقد يدعى بعض المدافعين عن تنظيم الخدمة السرية السوفيتية بقولهم أن الحكومات الأخرى تتورط أيضا في عمليات مخابرات سرية. والرد على ذلك ان الخدمة السرية السوفيتية ليست أساسا عملية مخابرات، فالمخابرات فيها جزء فقط من نشاطها. ذلك أن العمل السري السوفيتي هو أساسا عملية سياسية، تحرض على النزاع الداخلي وتقوم بتنسيقه، كما أنه متخصص في التخريب المعنوي الداخلي، والتحلل والتمزق.

ويقوم عمال العمل السري السوفيتي باختيار أصلح الأفراد الذين يحققون أغراضهم من بين الاتهامات المتباينة القائمة في كل دولة حرة. وهم لا يحتاجون للكشف عن هويتهم السياسية الحقيقية، بل على العكس، تصدر التعليمات باخفائها. وفي حالات خاصة، قد يسمح لهم بأن يتظاهروا بأنهم اعداء للشيوعية. ولكن هذا غير ممكن للشيوعي العلني، ويصلح فقط للشيوعي غير المكشوف، وبخاصة إذا لم يكن قد انضم رسميا للحركة او أى جبهة من جبهاتها المعروفة. إن عدم كشف هوية الشيوعي السري هام للغاية في عملية التسلل إلى النقط الحساسة في الحكومة، وفي وسائل الاتصال الحديثة، وفي باقى القوى الاستراتيجية الأخرى الخاصة بالعالم غير الشيوعي.

تدمير كيان الأمن الداخلي والعسكري

ان الحظ من شأن ادارات المخابرات للدول المستهدفة عن طريق استخدام «التزييف الشيوعي» جزء من نموذج مستمر وعريض للتخريب. ووفقا لآراء ماركس وإنجلز ولينين، فإن أول وصية للانتصار الثوري هي: تدمير كيان الأمن

الداخلي والعسكري للحكومة المستهدفة. ولقد انتهى لينين عام ١٩٠١ - بعد مراقبته فرقة من العمال الساخطين، والفلاحين والثوريين، وهم يشتبكون مع الشرطة بصورة غير فعالة - إلى أن مثل هذه المجموعات المنظمة في تراخ، لا يمكنها أن تبارى وكالات الأمن المدربة ومن ثم، جاء بجل بلشفي مطابق هو: «دمر العدو عن طريق التخريب والتغلغل».

وطور لينين وأتباعه هذا التكتيك مستعينين بمهارة الثوريين السوفييت المعادين للعسكرية، ثم استخدم خلال الحرب العالمية الأولى لتدمير معنويات القوات العسكرية الروسية وقهرها. فبدون هذه العملية ما استطاع البلاشفة أن يحرزوا النصر في ثورة ١٩١٧. وفي عام ١٩٢٠، حينما أذاع لينين وثيقته المشهورة «المطالب الواحدة وعشرين»، ذكر فيها أن مهام الشيوعيين الأجانب ينبغي أن تكتمل كي تتوافق مع موسكو. ولقد اصرر لينين على ان الجهود المنسقة للتسلل والاختراع وتدمير العسكرية الرأسمالية وقوات الأمن، هي من الواجبات الرئيسة. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت المهمة الرئيسة للشيوعي المهيج في ارجاء العالم، هي محاولة عرقلة الجهود العسكرية وأنشطة الامن الخاصة بحكومة معينة من الداخل ومن الخارج.

لقد حدث في فرنسا في الفترة من عام ١٩٣٥ - ١٩٤٠، أن تيار الحملة الشيوعية الذي كان يهدف للحط من شأن العسكرية الامريكية، قد أعد بعد الزحف الشيوعي لتقويض معنويات القوات المسلحة الفرنسية، والذي يعزى اليه انهيار فرنسا عام ١٩٤٠.

وفي إحدى الدراسات التي أعدها «روبرت بيرستيشر» عام ١٩٥٨ في جامعة «جورج تاون» جاء ما يلي:

«إن الشيوعيين يعدون الفاشيين أهم العوامل السياسية في فرنسا. ولقد صور الشيوعيون الفاشيون بأنهم موجودون في أشكال واماكن كثيرة في فرنسا. ولكن نتيجة تركيزهم الأساسي في دعايتهم وأعمال إثاراتهم على الفاشيين في القوات المسلحة، فإن «مارسيل كاشين» الناصح المرشد للشيوعيين الفرنسيين زعم أن الهجوم الفاشي الشامل

في فرنسا كان يقوده ضباط عسكريون متعاقدون، عملوا عن كثب مع إخوتهم الضباط الذين ما زالوا في الجيش العامل... لقد أصدر الحزب الشيوعي نداءات لتطهير القوات المسلحة، وقدم اقتراحا بإنشاء لجان جند للدفاع عن الدستور والجمهورية. وتكون مهمة هذه اللجان قمع أى أنشطة تخريبية للضباط الفاشيين وللتنظيمات داخل القوات المسلحة»

وانتهت هذه الدراسة في جامعة جورج تاون الى نتيجة: بأن سقوط فرنسا احتفل به في كل من موسكو وبرلين، ذلك لأن فرنسا كانت ضحية للشيوعية المعادية للعسكرية بقدر ما كانت ضحية للعسكرية الالمانية.

الشيء ذاته حدث في اعقاب هزيمة مصر في حرب يونيو سنة ١٩٦٧... ففي اليوم الذي تحققت فيه الهزيمة، كانت موسكو ساهرة تحتفل بذلك... ومن المعروف ان المحلات العامة ودور اللهو في موسكو تخضع لرقابة صارمة من الحكومة... لقد امتدت السهرة حتى الصباح حيث صدحت الموسيقى، وشربت الأنخاب، ورقص الراقصون احتفالا بهزيمة اصدقائهم المصريين.

الخلاصة

بعد استيلاء الشيوعيين على السلطة، وتدعيم حكمهم، يصبح الغزو الشيوعي الخارجي هو الهدف التالي. إن أول مرحلة من مراحل الإعداد، هي تدريب كوادر الشيوعيين القادمين من الأحزاب خارج الستار الحديدي وهي في ذلك تبذل جهدا شاملا متكاملا.

وفي بادئ الامر، لم تتدرب قيادات الاحزاب الشيوعية في معظم الدول نتيجة النقص في عدد المدربين الروس، ولكن ما إن توفر المدربون حتى وفدت إلى المعاهد والكليات المختصة بموسكو الآلاف من الشيوعيين الأجانب.

وتقوم موسكو بتحديد أسبقيات لأدوات حربها الثورية على اساس اعتبارات بعيدة المدى أو متوسطة المدى. كما أنها خلال تغلغلها تغطي عملياتها بساير ويتخذ أشكالا متعددة مثل شركات التصدير والاستيراد، أما في

شكل حرف ومهن مختلفة . هذا بالإضافة إلى الفيض الكبير من الشيوعيين الذي يعمل تحت سائر السلك الدبلوماسي .

كما أن الحرب الثورية تستغل التخصص إلى أقصى الحدود . وهي لكي تحصل على أمر الاختصاصيين ، تتطلب قيام تنسيق افقي وآخر رأسي على جميع المستويات .

وتلعب الخدمة السوفييتية دورا كبيرا في الإعداد لعمليات الغزو الخارجي ، فهي المصفاة الأخيرة في التنظيم التأمري السوفييتي وهي لا تعمل من خلال جبهات الحزب الشيوعي ولكنها تترك هذا الطور من العملية للحزب . على أن أهم نقطة يجب أن نتذكرها هي أن العمل السري السوفييتي هو أساسا عملية سياسية ، تحرص على النزاع الداخلي وتقوم بتنسيقه ، كما أنه متخصص في التخريب المعنوي الداخلي .

وأخيرا فإنه لما يراه ماركس وانجلز ولينين ، فإن اول وصية للانتصار الثوري الشيوعي هي : تدمير كيان الأمن الداخلي والعسكري للحكومة المستهدفة .

المطالب الاشتراكية والتكتيكية

هدف الأسلوب الشيوعي

يستهدف الأسلوب الشيوعي المنتظم الى تحقيق ثلاثة عناصر أساسية:

أولا : الهدف الشامل أى الاستيلاء على السلطة .

ثانيا : مطالب بعيدة المدى تعمل على توفيق الاستراتيجية القومية العامة كي تحقق الهدف الشامل .

ثالثا : مطالب فورية وهي الانجاز التكتيكي للاستراتيجية .

إن العنصرين الأولين يشكلان الدعاية، بينما يعد العنصر الثالث شكلا من اشكال الإثارة، وهي عملية منفصلة. تعدل من نفسها وفقا لكل شريحة من السكان ووفقا للموقف .

والآن نحاول أن نتحدث عن المطالب الاستراتيجية والتكتيكية الشيوعية بشيء من التفصيل:

تنقسم مطالب الشيوعيين إلى مطالب اشتراكية ومطالب بورجوازية، فالمطالب الاشتراكية لا تتطلب إلا معالجة قصيرة لأنها معروفة ومفهومة جيدا، أما المطالب البورجوازية فهي أكثر خداعا ومرارة .

وفي أيام كارل ماركس، كانت جميع المطالب اشتراكية، كما كانت كذلك معظم المطالب في المرحلة الاولى من الشيوعية. وادخل لينين فكرة المطالب البورجوازية الديمقراطية، وهي فكرة نمت على المستوى التكتيكي إلى مدى

أبعد بواسطة ستالين، وهي الآن تسود الحرب الثورية الشيوعية خارج الستار الحديدي ومع ذلك لم يتخل عن مطالب الاشتراكية وبخاصة في تلك الدول حيث تقوم الاحزاب الاشتراكية أيضا بالتنافس على العمال.

المطلب الاشتراكي:

إن المطلب الاشتراكي هو ذلك الذي يهدف إلى تقويض أساس الرأسمالية، فالتأمين مطلب من المطالب بعيدة المدى، ذلك أنه بمطالبة الحكومة بتملك المصانع، والمناجم، ومصادر التربة، ووسائل المواصلات الرئيسية، إنما يكمن فيها هدف هو تصفية البورجوازية الكبيرة، وبذلك تنشأ ثغرة في الجبهة البورجوازية.

التأمين مطلب الشيوعية والاشتراكية:

وليس التأمين مطلب الشيوعية فحسب، بل أنه أيضا مطلب الاشتراكيين. لقد أظهرت التجربة أنه إذا انحصر مطلب التأمين على مشروعات الصناعة الكبيرة، يصبح من الممكن للاشتراكية أن تجمع لصفها ليس المجموعات الكبيرة من المثقفين فحسب، بل يمكنها أيضا أن تضم إليها الفلاحين وبخاصة في البلاد المتخلفة. ذلك أن هناك حقيقة واقعة تكمن في أن الفلاحين نادرا ما يميلون إلى تمويل الصناعات الكبيرة، ومن ثم يمكن للأسواق التعاونية أن تستغل في هذه المناورة.

على أن الشيوعيون لهم اهتمام كبير في التأمين كإصلاح اشتراكي، وهم يهتمون به كوسيلة إلى غاية. على أنه بالنسبة للشيوعيين تعد تصفية البورجوازية الكبيرة من خلال التأمين بداية انقلاب شامل، فتأمين المشروعات الكبرى يمكن أن ينتهي بتأمين شامل لكل شيء ولكل فرد.

ولقد صمم نموذج المطلب الشيوعي الإستراتيجي بعيد المدى على أساس إضعاف الكيان العالمي للبورجوازية الديمقراطية، وذلك بسلخ البورجوازية الاستعمارية العالمية تحت شعار «العداء للامبريالية»، بينما يبحث في الوقت ذاته تصفية البورجوازية الكبيرة في كل من الدول المستعمرة والوطنية تحت شعار التأمين. وحتى بالرغم من أن الشيوعيين قد يخفقون في الوصول إلى الهدف

النهائي لمثل هذه الحركة الذاتية فإنه يتحقق على أقل الأهداف بمرح الكيان الإجتاعي للعدو أو نخره.

وبصفة عامة فإن مطلب التأميم قد يصبح فعالا، وذلك خلال فترات الازمات السياسية والاقتصادية، حينما يضعف النظام القائم ولقدأمدت الحرب العالمية الثانية بريطانيا بئمال جيد. ولسوف يعتمد نجاح هذا المطلب على العوامل الموضوعية بقدر أستمرار عمليات الدعاية والإثارة وفعاليتها.

إن الأوركسترا التكتيكية التي تصحب دفعة التأميم تتضمن الحط من شأن الملكية الخاصة كمؤسسة اجتماعية ولذا يستمر الإصرار على مطالبة الحكومة بالسيطرة عليها بدرجة أكبر، كما تولد كراهية الطبقة وتثار الى الحد الذي ينخفض فيه الانتاج المعنوي، بينما تزداد مطالب الأجور، وتخفض ساعات العمل، والمزايا الأخرى.

وفي الوقت ذاته، تدفع الاتحادات الشيوعية القائمة ولجان المصنع كي تقوم بوظائف الادارة. وبهذه العملية يصبح كل شئ أيدولوجيا وتنظيما لتجنب الملك، ويصبح التأميم حقيقة واقعة.

وقد يعمل الشيوعيون والاشتراكيون معا مباشرة أو غير مباشرة، الى الحد الذي يتم فيه تأميم مصالح البورجوازية الكبيرة، فإذا لم يتحقق للشيوعيين السيادة، وأصبحوا بذلك عملاء للتأميم، فإنهم يستمرون في شن الحرب ضد الرؤساء الجدد - وهم مديري الصناعة في الدول الاشتراكية - بدرجة أشد عنفا عما كانت عليه من قبل. ويقوم الشيوعيون بالضغط على الدولة الاشتراكية الجديدة بمطالب جديدة حتى لو كانت مبالغا فيها، وإذا كان لدى الشيوعيين نفوذ مناسب، فإن الاضراب والتوقف عن العمل يستمران، ومن ثم ينخفض الانتاج المعنوي. ذلك أن النظام الجديد سوف يحط من شأنه كدولة رأسمالية، ويدمغ الاشتراكيون بأنهم خانوا الطبقة العاملة. ويستمر القتال في سبيل السيادة حتى على حساب الاقتصاد القومي.

وبينا تنفذ هذه العمليات المفتتة في معسكر العدو، فإنه يبحث على الاتجاه العكسي في الاتحاد السوفييتي، فهناك نجد أن النظام والطاعة في العمل المتماusk

هو نظام العمل اليومي . ونستطيع أن نقبس العبارة التالية من التوجيه السوفييتي الايديولوجي الصادر في يناير عام ١٩٦٠ :

« ... تقنية سلوك الشيوعي إزاء العمل والصراع في سبيل الانجازات العملية في ظل الظروف الحاضرة عملاً مبدأً أن من لا يعمل لا يأكل ... كذا الصراع ضد المتعطلين وفلول العناصر المتطفلة البائدة ، التي تريد أن تعيش عالة على المجتمع دون أن تعطى شيئاً . كل هذا لم يشغل مكاناً مناسباً في العمل الدعائي » .

إن الاقتراب الشيوعي الاستراتيجي والتكتيكي للجهايز في الدول الديمقراطية نادراً ما يحدث من خلال النظرية الشيوعية ، ولكن يبدو أنه يتم من خلال مطالب مرغوبة عاجلة ، ومطالب بعبدة المدى . ولكن الاشتراكيين الذين ابتدعوا هذه المطالب توقفوا عن استخدام هذا السبيل وهكذا نجد أن الاشتراكيين في كثير من الدول - مثل المانيا والنمسا والسويد - قد يسدوا الطريق أمام الشيوعيين بكفاءة ومن ثم فإن المرارة المستديمة التي يكنها الشيوعيون للإشتراكيين المحنكين أمر يمكن تفسيره .

على أن إيمان الاشتراكيين بالاصلاحات التي يتبنونها أمر له مغزى . ذلك أن الاصلاحات بالنسبة للشيوعيين مجرد وسيلة لغاية او حيلة حربية « للانتهازية الثورية » كما كان لينين يسميها . ويتولد إيمان الاشتراكيين بإصلاحهم أو مطالبهم من حقيقة أنهم يهدفون إلى تحويل الرأسمالية بتدرج اكبر عن طريق الاقتناع ، فضلاً عن الضغوط السياسية والاقتصادية . أما الشيوعيون فيبحثون عن السلطة عن طريق الاقتناع الذي يدعمه استخدام العنف .

الضرائب التصاعديّة :

ولقد تولد مع الاشتراكيين في بداية القرن العشرين مطلب مصاحب للتأميم وهو الضرائب التصاعديّة . ذلك أن الضرائب التصاعديّة الوفيرة يمكن ان تكون اسلوباً اجتماعياً بناءً لزيادة المدخول . على أنه في كثير من الحالات كانت مشاريع الضرائب التصاعديّة تصمم أصلاً لتغطية نفقات التسليح ، والإصلاحات التي طالب بها الاشتراكيون للطبقات الدنيا .

ولقد وجد الفاشيون في ظل موسوليني الذي كان زعيماً اشتراكياً سابقاً

استخدامات عديدة لفكرة الضرائب التصاعدية. وتخيل موسوليني الضرائب التصاعدية كبديل للتأميم. وبايجاز، فإن الضرائب تهدف الى أخذ الأرباح بينما تترك الملاك يحتفظون بملكاتهم. على أن الشرائح يمكن أن توضع تدريجياً ويمكن ان يسمح للطبقات العليا بأن تحتفظ بقدر كاف من الأرباح، حتى يمكن المحافظة على رضائهم النسبي، ويمكن للحكومة بعد تدعيمها بالضرائب أن تسيطر على اقتصاد الدولة.

ولم تكثر القيادة الشيوعية العليا في بادئ الامر كثيرا باستخدام الضرائب التصاعدية كمطلب. ولقد كانوا مراقبين حذرين لوسائل استخدام منافسيهم المباشرين - الاشتراكيين والفاشيين - لطرق الحرب الثورية. ولقد لاحظوا بخاصة أن الفاشيين والنازيين بينما كانوا مشغولين في هجوم مباشر بالمواجهة على الشيوعيين والاشتراكيين، قاموا بالاضطلاع بالدولة الديمقراطية البورجوازية تحت سائر الشرعية أعني عن طريق التسلل. ولم يقيم الشيوعيون بتدمير الدولة البورجوازية كما وضع لينين، ولكنهم اضطلعوا بها بشكل شبه قانوني، ثم قاموا بعد ذلك بتدميرها خطوة خطوة.

وفي محاولة استعارة الشيوعيين من أعدائهم تكتيكات التسلل السياسي، تبنا عام ١٩٥٣ ما أطلق عليه «تكتيك حصان طروادة» وذلك في المؤتمر السابع للدولية الشيوعية. ذلك أن الدولية الشيوعية طلبت من الاحزاب الشيوعية التسلل الى التنظيمات الديمقراطية في الغرب، وقام جورجي ديمتروف البلغاري الذي كان واجهة ستالين في الكومنترن، بتسمية هذه التكتيكات « طرق الوصول الى قلب العدو » استعداداً « للرحلة التالية من المعارك الخاصة بالثورة البروليتارية. »

وأصبح التكتيك الجديد معروفاً في الغرب باسم « الجبهة الديمقراطية الشعبية » إذ قام الشيوعيون بدعوة كل من ادانوه من قبل - عدا النازية والفاشية - إلى الإنضمام اليهم، وحققت هذه المناورة نجاحاً أكبر مما توقعته موسكو. ومع ذلك يشك في أن ستالين الذي شارك هتلر في ازدراء السياسيين البورجوازيين قد توقع أثر صدمة التكتيك الجديد على الولايات المتحدة الساذجة سياسياً! وبحلول عام ١٩٣٦ كانت الجبهات الموحدة قد نمت في كل

المناطق الريفية الاجتماعية الأمريكية، وأخذت تتبنى الدفاع عن اصلاحات وفيرة وكانت هذه الاصلاحات تتطلب مصروفات لم يكن هناك سبيل لتديرها إلا عن طريق زيادة شرائح الضرائب التصاعدية، والحد من الدخول إلى الدرجة التي تصبح فيها العمليات أقرب إلى المصادرة. وهكذا فإن تراكم رأس المال نقل من قاعدته الخاصة السابقة إلى يدي الحكومة.

كذلك كانت هناك مجموعات أخرى تدافع عن الضرائب في الولايات المتحدة، ولكن الشيوعيين كانوا أكثر المجموعات نشاطا. ولقد خلق الكساد مناخا مناسباً لهذه الافكار، كما أن نشوب الحرب العالمية الثانية فرض زيادة الضرائب.

ويعطي لنا التاريخ درساً بأن معالجة موقف أزمة ما كالكساد، قد تحل بواسطة طرق عدة. فالشيوعيون وقد تصنعوا أنهم شركاء متعاطفون مع الجبهة الديمقراطية، كان لديهم اهتمام مجلها بطرق لو نفذت بصورة مطلقة، لأدت إلى إضافة التركيب الأساسي للنظام.

إن الاتجاه نحو الضرائب التصاعدية - مثل مذهب الاتحاد السياسي - أصبح أداة للحرب السياسية الاقتصادية الشيوعية، إذ يمكن توجيهها إلى طبقة معينة من المجتمع البورجوازي الديمقراطي، وهي طبقة المديرين الذين يعد حافزهم ونشاطهم عاملين حيويين للإنتاج. وهكذا لم تقم الضرائب التصاعدية بالنسبة للشيوعيين على أساس مبدأ، ولكنها كانت مجرد تكتيك يخدم غرضاً شيوعياً معيناً.

وظلت مطالب الهدف الشيوعي بعيدة المدى في الدول الغربية الكبرى على ما هي عليه، أعني إضعاف قاعدتي الرأسمالية من مشروعات خاصة أو ملكية رأسمالية، وذلك يجعل هذه المؤسسات غير آمنة، إذ أنه بمجرد أن يزول الاحساس بالاستقرار والأمن، تنشأ حالة من الميوعة المناسبة وتظل ميدانا لأشكال متعددة من الحرب الثورية الشيوعية.

استخدام مطالب الثورة البورجوازية الديمقراطية التي لم تكتمل بدأ استخدام الشيوعيين لمطالب البورجوازية الديمقراطية بنظرية لينين عن «تنفيذ البروليتاريا للثورة البورجوازية الديمقراطية». ولقد نشر لينين

عدة أطروحات منها: أولاً، أن البورجوازية اخفقت في عدة دول في تنفيذ برنامجها البورجوازي الديمقراطي، وهذا حقيقي بخاصة في المستعمرات المتخلفة وفي الدول شبه المستعمرة التي وقعت تحت السيادة السياسية للشعوب الصناعية. ثانياً، ان البورجوازية وفقاً لما قاله لينين قد أصبحت سياسياً مشرفة على الموت خلال القرن التاسع عشر. ثالثاً، طالما أصبحت البورجوازية متدهورة، فإن البروليتاريا وحدها هي التي تستطيع أن تنفذ المهام التي لم تحققها الثورة البورجوازية الديمقراطية. وخلال هذه العملية تقوم بتحويل الديمقراطية الليبرالية إلى ثورة اشتراكية.

لقد أقامت الثورة البورجوازية الديمقراطية في فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة الحرية الفردية وألغت الرق والعبودية، كما وصفت جيداً المساواة والأخوة بين الرجال واطلقت عن طريق السوق الحرة القوى الانتاجية للصناعة. ولقد قام لينين خلال سعيه في استغلال الحافز الثوري، بإضافته مطالب أخرى لم تكن بالضرورة متناقضة. لأغراض الثورة البورجوازية الديمقراطية، مثل تفتيت الضياع الشاسعة، وحق الحصول على عمل والحق في التعليم المجاني. وفي عهد ستالين، اتسع نطاق تكتيك الدفاع عن مطالب البورجوازية الديمقراطية. ومنذ أواخر الثلاثينات، كان الشيوعيون يستخدمون مطالب البورجوازية الديمقراطية البعيدة المدى والعاجلة. وهذا الامتزاج استطاع الشيوعيون اختراق الطبقة المثقفة في الغرب والطبقة الوسطى الأدنى.

على أن مطالب النموذج الاشتراكي - كقاعدة عامة - أكثر ظهوراً، لأنها تصوب نحو علاقات الملكية التي تعد الصخرة الأساسية للرأسمالية. ومن ناحية أخرى، فإن مطالب البورجوازية الديمقراطية لا توجه مباشرة ضد جوهريات النظام، إنما تصمم كي تجهد النظام وتنخره استعداداً لمطالب اشتراكية مباشرة. فالضرائب في حد ذاتها ليست مطلباً اشتراكياً، ولكن حينما تصل الضرائب إلى حد المصادرة، تصبح معادية للملكية. على أن الرأسمالية وهي أكثر الأنظمة الاجتماعية مرونة، تستطيع أن تمتص التأميم إلى مستوى معين. ومع ذلك، فحينما يغزو التأميم الإنتاج والتجارة، وحينما يقوم بتحديد الميادين التي قد تزيد فيها

المنافسة من فرص الكفاءة، فانه يصوب حينئذ نحو جذور النظام. وربما كانت الحاجة أم لابتكار لينين السياسي. ذلك أن البروليتاريا كانت عام ١٩١٧ شريحة صغيرة من سكان روسيا. ومن ثم كان على لينين أن يحصل على معونة الأشراف البورجوازية والفلاحين كي ينتصر ويظل في السلطة وهكذا تظاهر لينين بتعاطفه مع الثورة البورجوازية الديمقراطية، واستطاع ان يكسب بجانبه هؤلاء المرتدين ولقد طبقت هذه الخطة فيما بعد في الصين بعد إجراء تعديلات عليها بواسطة ستالين وماوتسى تونج. كذلك سارت إلى مدى أبعد في كوبا بعد انقلاب كاسترو. وهكذا، فإن فكرة قيام حزب على أساس طبقة البروليتاريا مدعياً بأنه ينفذ المهام الثورية للبورجوازية، بينما تكون في نيته إلغاء البورجوازية كطبقة اجتماعية، يوضح مجال التفكير السياسي للينين واصحابه وجرأته، ويعكس هذا ثيهم في قدرتهم ليس فقط على خداع البورجوازية، بل على خداع منافسيهم الاشتراكيين ايضا.

إن تظاهر الشيوعيين بأنهم عملاء للثورة البورجوازية، كان لعنة لماركسية القرن التاسع عشر، ولكن لينين دافع عن اطروحته قائلاً: بأنها ماركسية القرن العشرين. فوفقاً لما يراه ماركس و لينين، فإن الرأسمالية في حد ذاتها قوة بناءة ومدمرة في الوقت ذاته، فهي بناءة في تحريرها قوى الانتاج من قيود الاقطاع، وبذلك اتاحت الفرصة لقيام الانتاج العصري. وينظر الشيوعيون الى الرأسمالية على أنها مدمرة لذاتها، لأنها أثناء نموها تميل إلى تصفية المشروعات الخاصة الصغيرة لصالح المؤسسات الكبرى. وبذلك، تخلق ظروف دمارها من خلال محاولة تحويل ملاك المشروعات الصغيرة السابقين إلى طبقة البروليتاريا، ومن خلال خفض مستوى معيشة العمال إلى مستوى الكفاف.

حقيقة ان عدم زيادة الفقير فقرا في الدول الصناعية، يعد أحد الأخطاء الجوهرية في التحليل الماركسي. ومع ذلك، فإن مشكلة الشيوعيين - من وجهة نظر استراتيجية الحرب الثورية هي كيف يمكنهم أن يستغلوا هذه الدعاوى المفترضة المتناقضة، كي يعجلوا بتدمير النظام.

ولقد ساهم لينين بأطروحة ناقشها في كتابه المعنون باسم «الامبريالية آخر مراحل الرأسمالية»، قائلاً إن مجرى التقدم المبدئي في الدول البورجوازية المتقدمة انتهى باستغلالهم مستعمراتهم. وفي الوقت ذاته، ووفقاً لرأى لينين، فإن

هذا الاستغلال - خلافا لذلك - أوقف السقوط الحتمي لبروليتاريا المصنع في هاوية الفقر المدقع، ولكن بجانب هذا المكسب القصير المدى، فإن الرأسمالية تكسبت نتيجة تضخمها في الدول المتقدمة، ونتيجة تحالفها مع اقطاع الأرض في المستعمرات. وحينما وصلت الرأسمالية إلى هذه المرحلة، اقتنع لينين بأن الأهداف التي لم تحققها الثورة البورجوازية الديمقراطية يمكن تنفيذها فقط بواسطة الطبقة التقدمية الجديدة - أي طبقة البروليتاريا.

مطالب كبرى:

وبوضع هذا الاطار النظري في أذهاننا، نحاول اعادة النظر في مطالب البورجوازية الديمقراطية الرئيسة التي يضغط عليها الشيوعيون، مع الالتفات إلى « فكرهم المزدوج » إزاء الموضوع، أعنى:

« لاتفعل مثلما أفعل، ولكن افعل كما أقول »

(١) التحرر الوطني، وهو مطلب لو تحقق، لضعف عدد الدول الشيوعية في أوروبا وآسيا. ولكن هذا بالطبع ليس الهدف الحقيقي للشيوعيين طالما كان الاتحاد السوفيتي في حد ذاته مقسما إلى ما لا يقل عن دسنة من الشعوب، وطالما كانت الصين مقسمة الى عدة بلاد مميزة. ومن الواضح أن الهدف الاستراتيجي خلف هذا المطلب الديمقراطي، هو تفتيت المعسكر غير الشيوعي إلى وحدات عديدة ضعيفة.

(٢) تقسيم الأرض لصالح صغار الفلاحين أو المزارعين، دون دفع أي تعويض للملاك الحاليين. ولقد نفذ هذا المطلب - مع دفع تعويض محدود - في اليابان بواسطة سلطات الاحتلال الأمريكي في ظل الجنرال دوجلاس ماك آرثر. وقد يكون هذا سلاحا ذا حدين قادرا على تدعيم الرأسمالية الديمقراطية في بعض الدول. ومن ثم فإن الشيوعيين لا يستخدمونه الا في المناطق التي تخدم أغراضهم، وفي الاوقات التي تتلاءم مع اهدافهم.

(٣) إلغاء العبودية والرق الجبري وكل معوقاتهما. وحيث أن هذا المطلب تم تنفيذه في معظم المناطق قبل أن يظهر الشيوعيون على المسرح، فإن تركيزهم وجه إلى المشاكل الناتجة. ومن ثم، فإنهم قد يضغطون على انهاء نظام المشاركة في المحصول، والتمييز العنصري، والتمييز الجنسي، وديون الربا، وبقايا آثار

الاقطاع الأخرى. هذه المطالب أيضا يستخدمها الشيوعيون فقط في الوقت أو المكان الذي يلائم موسكو.

ويمكن لأي من هذه المطالب البعيدة المدى ذات الأهمية الدولية أن تكون ناسفة، إذ تضيي جوا ملائما، أو على الأقل تهىء لقيام تنظيم شيوعى جنينى، فعن طريق إذاعة سخافات كافية فى الدوائر الحكومية، يستطيع الشيوعيون تحطيم الاستقرار السياسى.

على أنه ما زالت هناك مطالب ديموقراطية بورجوازية مثل: تحديد أجور تكفى مستوى المعيشة، ومنح معاشات لكبار السن، وتأمين العاطلين. ولقد تحسنت هذه المطالب فى الدول الصناعية الأكثر تقدما، وكان للشيوعيين فى هذا الميدان مناقشات واسعة لتبرير آرائهم، إن كل مطلب منها صمم على ملاءمته لآمال مجموعة خاصة فى المجتمع الجماهيرى. وكقاعدة عامة، فإن الشيوعيين صاغوا إطار المطالب المتوسطة كى تهىء لهم الطابع العدائى اللازم للأغراض الشيوعية. وبذلك، جذبوا إلى جانبهم العناصر الأكثر عداءً وتطرفا فى كل مجموعة من مجموعات الضغط بالمجتمع.

على ان الفلاح الصغير المحافظ التقليدى فى الدول الأكثر تقدما يجد نفسه غالبا فى ضغط محكم لأسباب خارجة عن ارادته. فهو يشتري بأسعار عالية ويبيع بأثمان التكلفة أو أقل منها. إن ذلك يسنح للشيوعيين فرصة التحرك واكتساب «رأس ثغرة»، عن طريق الحث على المطالب الديمقراطية مثل:

- (١) مساواة فى الأسعار ١٠٠٪ كى تعطي للفلاح دخلا يتناسب مع دخل عمال الصناعة.
- (٢) تأمينات ضد الحريق والصقيع والفيضانات والكوارث الطبيعية. كى تحمي الفلاح من ضياع دخله نتيجة أسباب خارجة عن ارادته.
- (٣) إعفاءات ضرائبية للمزارعين ذوى الدخول الدنيا ومزارعى التعاونيات الصغيرة.
- (٤) تقسيم الأرض فى مناطق الضياع الزراعية.

الخلاصة

هكذا يتضح من الأمثلة القليلة المقتبسة، أن الحرب الثورية الشيوعية تشن أساسا على مطالب ذات طابع اجتماعى. ويقوم الشيوعيون بالمبالغة فيها، كى يتمكنوا من أن يصبحوا قوة مدمرة للمجتمع ذاته.

الباب الثاني

بين النظرية والتطبيق

يعتمد الشيوعيون السوفييت اعتقادا كبيرا على
الأيدولوجية الماركسية - اللينينية في تدعيم سلطتهم
وتوطيد حكمهم، كما أنهم ينظرون الى أى أيدولوجية غير
شيوعية على أنها مجرد أفكار بالية عديمة النفع. وهم لا يكلون
عن الهجوم عليها، متدثرين في أثناء ذلك برداء الاشتراكية.
وهم يحاولون دائما تعديل هذه الأيدولوجية لتوائم الواقع
فظالما كانت الايدولوجية لديهم بمثابة أداة لتوطيد سلطتهم،
تحتل السلطة لديهم مكان الصدارة. ومن ثم، يصبح
بالضرورة أن نقوم بتقسيم الدور الهام للتصورات
الايدولوجية الكامنة في فكر الزعماء السوفييت وأعمالهم،
وأن نسبر أغوار العوامل المختلفة التي تشكل الأيدولوجية
السوفييتية، وكيف يستخدم الشيوعيون هذه الايدولوجية
في حربهم الثورية.

وترتبط الأيديولوجية الشيوعية بمسائل الحرب والسلام والتعايش، وهي مسائل جوهرية تشغل حيزا كبيرا من عقول زعماء الكرملين، كما أنها من الناحية النظرية تختلف عن التطبيق، ومن ثم وجدت ثغرات سمحت للشيوعيين باستخدامها للخداع وتحقيق أغراضهم.

فبالرغم من أن موسكو تعلن في فرص كثيرة أنها رائدة السلام، فهي تستخدم هذا الشعار لتشن تحت ستاره حربها الثورية. وهي تدعى أن الحروب التي تبدأها أو توافق عليها هي وأتباعها، حروب عادلة، أما بقية الحروب فهي إما حروب امبريالية، وإما حروب تشن لمصلحة الاستغلال الرأسمالي.

وتحكم العقيدة العسكرية السوفييتية جميع العقائد الشيوعية كما تطورت من ماركس إلى حكام اليوم، كما أن الأيديولوجية الماركسية اللينينية تمد بدورها الشيوعيين برؤية عن كيفية استخدام القوة العسكرية لمتابعة أهدافهم.

على أن ما يلفت النظر تلك «التوليفة» التي أخرجها خروشوف تحت عنوان «التعايش السلمي» كأساس للتعايش بين الأنظمة المتباينة النظم الاجتماعية، فهي شكل من خداع الطبقة بين الشيوعية والرأسمالية. ذلك أن التعايش السلمي لا يعنى مصالحة بين الأيديولوجيتين الشيوعية والبورجوازية. إنما على العكس يعمد الى تكثيف حدة صراع الطبقة العاملة، وصراع جميع الأحزاب الشيوعية لنصرة الأفكار الشيوعية.

إن هذا الباب وقد اطلقنا عليه بين النظرية والتطبيق سوف يغطي هذه النقاط فالفصل الاول يناقش دور الأيديولوجية في الحرب الثورية، وأما الفصل الثاني فقد خصص لدراسة شاملة عن الحرب والسلام والتعايش السلمي من وجهة نظر السوفييت

الفصل الأول

الأيديولوجية والحرب الثورية.

من العسير أن نسبر أغوار الحرب الثورية الشيوعية دون أن نلم بإطار الأيديولوجية الشيوعية، وبوسائل الشيوعيين في الهجوم على كل شعارات الأيديولوجيات غير الشيوعية.

على أنه لا يمكننا تقييم الدور الهام المثابر للتصورات الأيديولوجية في فكر الزعماء السوفييت وأعمالهم ما لم ننظر إليه بنظرة تضع في اعتباراتها العوامل المختلفة التي تشكل أيديولوجية ما. ذلك لأن الأيديولوجية السوفييتية في إيجاز هي: «عبارة عن مجموعة من الافتراضات والأغراض الواعية، كما أنها جزء من الخلفية التاريخية والاجتماعية والشخصية الشاملة للقادة السوفييت، التي تعد ذات أهمية جوهرية في تشكيل هذه الأيديولوجية.

عوامل صياغة الأيديولوجية:

وبعيداً عن العرض المفصل لمضمون الأيديولوجية السوفييتية وجوهرها. قد يكون من المفيد أن نتذكر في شكل نقاط بعض العوامل الرئيسية التي عملت على صياغتها، والتي جعلتها جزءاً من الواقع السوفييتي، ثم نقوم بربطها مع الحياة الاجتماعية الحقيقية في روسيا. وهكذا فإن كثيراً من العوامل المختلفة تفاعلت ديناميكياً لتعطي الأيديولوجية السوفييتية نكهتها الخاصة، وهذه العوامل هي: المحتوى التاريخي العام، ودور الأفراد في تشكيل الأيديولوجية، والوسيلة التي لقنت بها الأيديولوجية وشربت في عقول النشء، وبروز الحزب

الشيوعي بتجربته العملية، وأخيرا تشكيل المجتمع الجديد.

ولكى ندرك كيفية انبثاق هذه الايديولوجية وتطورها، ينبغي أن ننظر إلى العوامل المكونة لها مجتمعة، ذلك أنه لا يمكن لأي عامل منها - منفردا - أن يحدد طابعها. وفي إيجاز، يمكن أن نقول إن المبادئ والافتراضات المثالية هي جزء من الإطار الأيديولوجي الذي يقيم به القادة السوفييت إدراكهم للعالم الخارجى. هذه المبادئ والافتراضات هي: ان العقيدة الماركسية هي المصدر الأساسى لالتزامهم بالحتمية الاقتصادية والجدلية فى التاريخ كما أن صراع الطبقة هو عجلة التاريخ... ومع هذا التصور «العلمى» للتاريخ، هناك الصورة التنبؤية عن المستقبل، واعتقادهم بانتصار نظامهم الاجتماعى.

ولقد أدت تجربة القادة البلاشفة فى فترة ما قبل الثورة وما بعدها، إلى ظهور سلسلة من المسلمات الرئيسية، التى إذا ضمت إلى العوامل السالفة تشكل الإطار الايديولوجى للسوفييت. ومن المحتمل أن تكون أهم هذه المسلمات فى التصور السوفييتى، أن بناء الاشتراكية فى أي مكان يتطلب أن يقوم الحزب الشيوعي بمفرده بتشكيل السلطة. وتمتد جذور هذا الاعتقاد بنوع ما فى التجربة الروسية، كما يعكس هذا التصور بنوع ما مصالح الصفوة الحاكمة، بالإضافة إلى أنه اصبح منهاجا رئيسا للزعماء السوفييت.

وينبغى ألا نخط من قيمة تأثير هذا التطور على رؤيتهم للعلم، إذ أنه يلون بخاصة تقديرهم للتغيرات التى تحدث فى أجزاء العالم المتخلف. وبالمثل، فإن الافكار اللينينية عن مسألة الاستيلاء على السلطة وتأكيدها على استخدام العنف فى الثورة، ذهبت إلى مدى بعيد فى اتجاه سيادة «الوعى» على «التلقائية» فى المراحل التاريخية. كما أن تمسك السوفييت «بالدكتاتورية الموحدة»، والتشديد على صراع الطبقة كسمتين ضروريتين «لبناء الاشتراكية»، إنما يعكسان مرة أخرى ضرورة الجمع بين المذهب والتجربة لتشكيل الأيديولوجية.

مناقشة لينين للامبريالية

وبالمثل، فإن مناقشة لينين حول طبيعة الامبريالية، عكست ادراكه البراجماتي بأن النظرية يجب أن ترتبط بواقع معين. وفى عصره كان ذلك يهيم

رؤية ذات مغزى للديناميكية الداخلية للعالم المتخلف. ولقد كان الاقتراب الماركسي أساس النظرية اللينينية عن الامبريالية، إذ أعطى لينين منهاج تحول، كذا الوسائل الأساسية لتحليلاته. ومع ذلك فقد مزج العقيدة الماركسية بالتجربة الروسية الثورية، وبالتخلف الاجتماعي الاقصادى ومصالح الطبقة الحاكمة من البلاشفة. كما طوّر الفكرة التي تقول بأن التنمية الاجتماعية خلال العالم تعمل على أساس فكرة محددة دقيقة، وهي تدل في حد ذاتها على عدااء مستحکم بين الدولة الاشتراكية المنبثقة وباقي العالم.

ولقد اشتركت كل هذه العوامل التصورية والتحليلية في خدمة تنظيم فكر السوفييت إزاء المسائل الدولية، فهم يحددون الأهداف ثم يُقيّمون الواقع. ولا ينبغي الخلط بين هذه الجوانب وبين عناصر الكمال في الايديولوجية، ذلك أن الخلط بينها، أو الإخفاق في التمييز بين النظرية الماركسية والايديولوجية، قد يؤدي الى استنتاج ساذج مؤداه أن الايديولوجية السوفييتية مجرد زيف «كلبى» يناور به الزعماء السوفييت. وبالمثل قد يؤدي أيضا الى استنتاج مخالف ومطلق، وهو أن اقتراب السوفييت نحو الواقع يمكن أن يدرك بمجرد الرجوع الى كتيب ماركسى. ولقد بينا أن الايديولوجية الشيوعية السوفييتية ينبغي أن ينظر إليها على أنها مجموعة افتراضات عقائدية معينة بالاشترك مع مبادئ استقت من النظرية، ولكنها تعكس واقعا مميزاً لأولئك الذين ينتمون إلى الايديولوجية. وتصبح الايديولوجية حينئذ جزءا من الواقع، وعاملا قائما مستقلا، يحدد السلوك إزاء اختيار تبادلات سياسية مختلفة قد تنشأ في أى لحظة معينة.

دور الايديولوجية وتأثيرها على المسائل الدولية.

كيف إذن تؤثر الايديولوجية الشيوعية السوفييتية على اقتراب السوفييت من المسائل الخارجية؟ ينبغي هنا أن نرسم خطا فاصلا بين الأهداف قصيرة المدى وبين الأهداف بعيدة المدى. وعادة تقرر الأولى حتميات الظروف القائمة. فعلى سبيل المثال، نجد أن السوفييت في صيف عام ١٩٣٩، حددت لهم الايديولوجية نتيجة بأن غرض الغرب كان اقحام الاتحاد السوفييتي في حرب

مع ألمانيا ، وقد أملت هذه النتيجة على السياسة السوفيتية بأن تقوم بتهيئة الظروف لقيام نزاع بين القوى الرأسمالية ، مهية بذلك للألمان فرصة حرية العمل التي شعروا أنها ضرورية لبدء العمليات الحربية . ومع ذلك ، فإن الأهداف قصيرة المدى تكون غالبا نتيجة لارتباطات معينة بعيدة المدى يقوم بها السوفيت أنفسهم . وفي ضوء هذا المعنى فإنها تعد نتاج العوامل التي تشكل طبيعة الالتزامات بعيدة المدى . ومن هذا الموقف يشعر السوفيت بتأثير الأيديولوجية على سلوكهم الخارجى وسياستهم الخارجية .

ويتأثر الاقتراب السوفيتى العام للمسائل الدولية بدرجة كبيرة ، بالافتراض السوفيتى الأساسى الذى ينص على أن الواقع المادى كله يتغير باستمرار من خلال صدام التناقضات المتعارضة . ويقال إن هذا الاحتكاك هو القانون الأساسى للتطور الاجتماعى ، حتى يجيء الوقت الذى تصبح فيه الاشتراكية نظاما عالميا . ونتيجة لذلك فإن الاقتراب السوفيتى من المسائل الدولية ، يتميز باهتمام كبير بالتغير . وهذا الإدراك للتغير المستمر مع الاقتناع بأن الطابع الداخلى لهذا التغير لا يفهمه سواهم ، قد ارسى دعائم الاعتقاد عند القادة السوفيت بأنهم فسروا المنطق الفعلى للتاريخ ، وبأن سياساتهم بمثابة تقدير علمى وليست مجرد آمال .

وبالرغم من التحولات والتغيرات فى السياسة الخارجية السوفيتية فى الحقب القليلة الماضية ، فإن اصرارها المستمر لم يتزحزح عن التزاماتها إزاء المساعدة على انتشار الشيوعية فى جميع أنحاء العالم . إن هذا الهدف العلمى يجعل سياسة السوفيت الخارجية تختلف عن سياسة القياصرة الخارجية .

ويوضح المظهر العالمى لأهداف السياسة السوفيتية الخارجية ، أنه بالرغم من أن تطور « المصالح الوطنية » قد لا تكون مرتبطة بتصورات السياسة الشيوعية الخارجية ، فإن المصالح الوطنية ينبغى أن ترتبط بالأهداف الأيديولوجية المطلقة . وإلى أقصى ما يهتم القادة الشيوعيون ، فإن المصالح الوطنية تكمن فى زيادة قدرة الاتحاد السوفيتى وامكانياته على تنمية قوة الشيوعية .

وهكذا فإن الايديولوجية الشيوعية لم تثر مشكلة «الأهداف الدولية ضد الأهداف الوطنية»، على الأقل حتى خرج للوجود عدد من الدول الشيوعية. ومن ثم فإن اندماج المصالح الوطنية والدولية يعد عنصرا ايدولوجيا آخرا يسمح للقادة السوفييت بتدعيم سلطتهم دون أن تصبح السلطة فقط هي النهاية الحتمية لأعمالهم. إن الايديولوجية التي تجعل السلطة أداة ونهاية، تسمح للقادة السوفييت بالاهتمام بأقصى درجة بسلطتهم، دون أن تكون هذه السلطة عائقا لتحقيق قيمهم الأيديولوجية.

ومن المسلم به أن العامل الأيديولوجي غالبا ما يخلق المصاعب، فقد يؤدي إلى مبالغة مذهبية في تقييم الموقف، أو قد يبحث على تفاؤل قبل أوانه، أو قد يضل في بعض الأحيان. وبالإضافة إلى ذلك فإنه بقدر ما يدرك القادة السوفييت عن وعى الدور الأيديولوجي كرباط موحد للشيوعية الدولية، بقدر ما يميل هؤلاء القادة إلى تقييد حرية عملهم ما لم تتصدع هذه الوحدة.

ومع ذلك، فإن الأدوات المختلفة للايديولوجية لا يمكن النظر إليها كمجرد مسؤولية، إذ أن هناك ميلا في الغرب للنظر إلى الايديولوجية كشيء سخي غير منطقي، كما يضعونها في كفة الميزان مع البرجماتية والمذهب التجريبي. ومهما تكن هذه الافتراضات منطقية أم سخيفة فإنها على الأقل تراح من الاهتمامات المباشرة، ولا تسبب احتكاكا بين الايديولوجية والاقتراب المنطقي للواقع ذلك أن الهدف المطلق لمجتمع الشيوعية الدولي، يقرر بواسطة التاريخ وقد يكون غير منطقي، ولكنه لا يفرض بالضرورة سلوكا غير منطقي.

ولقد ساهمت الايديولوجية الشيوعية السوفيتية بدور فعال إزاء تحول السياسات الدولية من لعبة معينة شائعة لها قواعدها، إلى نزاع شديد عميق، لا حل له دون حدوث تحول اجتماعي ضخم، سواء لبعض المجتمعات المشتركة، أو على الأقل من وجهة نظر الصفوة التي تحكمها.

التدثر برداء الاشتراكية

ويعشق الشيوعيون في هجومهم على العقلية البورجوازية، أسلوب إفساد كل الشعارات الايديولوجية غير الشيوعية. ومن الطبيعي أن يرى الشيوعيون جميع

الأفكار غير الماركسية بالية ومعاكسة للماركسية ولهذا تصبح من وجهة نظرهم فاشية .

على أن تصورات هامة معينة تمدنا بشرح مختزل للعلاقات المعقدة القائمة بين الشيوعية والنظم غير الشيوعية. ففي العالم الغربي، هناك كلمات مثل « الحرية والديمقراطية » والدين والعدل تحوى معان ثابتة، ولها دور معاون في تشكيل الأحكام السياسية. لقد جد الشيوعيون في العمل على تقويض هذه الأعمدة ذات المدلولات المعنوية، كي يعرقلوا عمل العالم غير الشيوعي وانشطته السياسية .

لقد قام لينين أولا بتجربة أسلوب « التفتت » المعنوي على الاشتراكيين أكثر من استخدامه مع البورجوازيين، وذلك بتنقيحه لماركس، وبادعائه بأن تفسيره الخاص كان اشتراكية ماركسية أصيلة تطابق ظروف القرن العشرين. وبهذا الابتكار، سعى إلى احتواء الحركة الاشتراكية في روسيا القيصرية من الداخل وحتى حينما أنكر المثقفون الاشتراكيون في أوروبا ابتكار لينين، وأجبر على وضع تسمية لحزبه باسم « الحزب الشيوعي » ظل لينين يدعى أن شيوعيته اشتراكية أصيلة، وأطلق على دولته الجديدة اسم « اتحاد السوفييت للجمهوريات الاشتراكية ». على أن إصرار لينين في التمسح برداء الاشتراكية لم يكن مجرد نزوة، ففي وقت الحرب العالمية الأولى، كان للحركة الاشتراكية ملايين من الاتباع في أنحاء المعمورة. إذ بادعاء لينين أنه جزء منها ولو انه لم يدع لها - سنحت له الفرص كي يجند أفرادا من اقسام ضخمة محايدة من الحركة الاشتراكية الدولية على أن شعار كلمة الاشتراكية بالنسبة للعالم الاوروبيين ولكثير من المفكرين الأوروبيين، كان له أهمية مناسبة يمكن مقارنتها بالليبرالية بين الامريكيين. ولو لم يدخل لينين الحركة الاشتراكية الأوروبية، ولو لم يقم بهدم معنوياتها، لظلت الاحزاب الشيوعية الفرنسية والالمانية مجرد نحل صغيرة. كذلك فإن الأحزاب الاخرى - مثل الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة ما كانت تشكلت قط، لو ان الشيوعية لم تتدثر بلباس الاشتراكية.

وبعد أن سحقت طبقة البروليتاريا داخل روسيا في سلسلة من الخطوات

بدأت من اخضاع ثورة ال « كرونستدات » عام ١٩٢١ إلى حركة التطهير الكبرى في السنوات من ١٩٣٥ - ١٩٣٨ - أصبحت السلطة السياسية في الاتحاد السوفييتي تعتمد على طبقة « الإدارة العليا الجديدة » التي تقودها « بيروقراطية سياسية ». وكان التعديل في علاقات الطبقة داخل الاتحاد السوفييتي، قد وصل إلى « ثورة مضادة » محجبة نفذت في ظل « الرداء المعنوي » للينينية. ولم يلاحظ هذا التحول إلا خارج روسيا بواسطة الشيوعيين المنشقين. واليوم أصبح الحزب الشيوعي طليعة الطبقة الادارية، كما أن السياسات الشيوعية داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه عكست العلاقة الجديدة. لقد استمرت الدفعة نحو السياسة المطلقة والامبراطورية العالمية، ولكن التغيير في جميع النواحي الأخرى كان وفيرا.

واليوم بعد أن أبعد الكرملين الحرب الثورية عن مرمى الطبقة العاملة، أعيد تقييم التناقض الداخلي للرأسمالية من وجهة نظر استغلالها بدرجة قصوى لمكاسب سياسية. وهذا بالطبع لا يعنى، أن ما يطلق عليه الكرملين « التناقض المركزي » لن يظل الهدف الأيديولوجي الرئيس، ولكنه يعنى توسيع التكتيكات « المفتتة » للطبقات الأخرى، كى يمكن استخدام التناقض المركزي بكفاءة أكبر.

ولم تعد المشكلة تكمن فقط في كيفية الوصول إلى العقلية الاشتراكية، ولكن أصبحت تكمن أيضا في كيفية الوصول إلى العقلية البورجوازية. ويمكن تحقيق ذلك نادرا عن طريق التسرب إلى المحافظين الذين دمغهم الشيوعيون « بالرجعية ». ولقد ركز الشيوعيون على المثقفين من الأساتذة، والمعلمين، والكتاب، والوزراء، والعلماء، والسياسيين، وبإيجاز كل من يشكلون الرأي العام أو يعملون وفقا له.

ولتيسير هذا الهجوم الجديد، أسقط كثير من العبارات الشيوعية والاشتراكية القديمة، واستبدل بها شعارات بورجوازية ديموقراطية. ففي الولايات المتحدة بدا الشيوعيون كطليعة ليبرالية، إذ قام الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة بسحب مرشحيهم من الانتخابات، كما قدم الشيوعيون العون

للأحزاب البورجوازية الليبرالية التقدمية في كثير من الدول وكانت الليبرالية المشكلة حديثاً ضرباً من خداع الحرب الثورية. لقد استمرت عمليات التطهير الدامية داخل الاتحاد السوفييتي، بينما أخذ التحول الليبرالي للسياسات الشيوعية يجرى خارج الاتحاد السوفييتي.

وحتى لو كان الشيوعيون بُلْهًا لما كان في استطاعتهم بسهولة أن يتجنبوا الظروف التي فرضها التاريخ عليهم. لقد أدَّى زوال الوهم في الغرب عام ١٩٢٩ نتيجة النظام الاقتصادي القائم، إلى دفع كثير من الأفراد الحساسين المثقفين نحو اليسار. كذلك أدَّت وحشية الفاشية والنازية الضارية في إيطاليا وألمانيا، والعدوان الياباني في منشوريا والصين، والمعارك المؤلمة في الحرب الأهلية الإسبانية إلى تحول كثير من الأفراد نحو المعسكر الشيوعي. ولقد قابلهم الشيوعيون، وانضموا إليهم ودخلوا معهم في تحالف. على أن مؤلف جورج أورويل «ولاء نحو كاتالونيا» كذا مؤلف أرنست هيمنجواي «لمن يدق الجرس» يعدان من سجلات إزالة الوهم. ولكن لم يتيسر الوقت للآخرين كي يزول عنهم الوهم، فأرسلهم الشيوعيون إما إلى الموت، وإما أن قتلوا خلف الجبهة ولا يزال هناك الكثيرون حلفاءً للشيوعيين. فأينما كان يرتكب الشيوعيون أخطاء كان هتلر واليابانيون يستغلون هذا الخطأ لصالحهم، فيقومون بعمل من أعمال العنف أو الأعمال البهيمية، التي دفعت «الجبهة المتحدة» للشيوعيين واليساريين المخلصين للتكتل مرة أخرى.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الاستعراض الشيوعي تحت أعلام الحرية الحديثة، ما كان يبدو فعالاً لو لم يكن هناك نوع من التقاء في الأفكار.

مطامح التفكك الأيديولوجي

إن عملية تشكيل مبادئ جديدة، أو تغيير القديم منها لا يمكن أن تتم دون حدوث توترات ويمكن للمرء أن يقول إن هناك نوع من العلاقة «الجدلية» بين الحزب الموجه أيديولوجياً، وبين الواقع. إن الحزب الأيديولوجي يحاول أن يغير الواقع، وهو في هذا السبيل، قوة ثورية. ويتلاءم الواقع الجديد مع الأيديولوجية لفترة ما، حتى أثناء تغييره التدريجي ذاته، ولكن بمرور الزمن، قد تصبح

الأيديولوجية قوة محافظة، ومن ثم تجرى قسرا عملية موازنة جديدة في النهاية وتصبح الأيديولوجية قوة ثورية مرة أخرى. إن المراحل المتغيرة للأيديولوجية الشيوعية السوفييتية - اللينينية - الستالينية - الخروشيفية، وعمليات التحول العنيفة الملزمة لها، يمكن أن ينظر إليها على أنها جزء من العلاقة الجدلية بين الأيديولوجية والواقع. ومع ذلك، فإن هذه الملاءمة تسمح للأيديولوجية بممارسة نفوذ مستمر، وتمنعها من أن تصبح عقيمة غير مقبولة، وهكذا تسمح لها بالاحتفاظ بكيان خاص معين.

تهديد دور الحزب.

وبالرغم من ذلك، فإن ثمة عاملين في الوقت الحاضر يهددان بتحويل عملية التغيير هذه إلى عملية تفكك أيديولوجي. إن رفع علم «البناء الشيوعي» الذي نادى به المؤتمر الخامس والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي كمجهود لإعادة انعاش المعنى الأيديولوجي للهدف الشيوعي، كان متوقعا كمواجهة بين الواقع والأيديولوجية. وربما كانت هذه المواجهة بمثابة تهديد لدور الحزب كعامل للتاريخ، كما كانت تهديدا لسلامة الأيديولوجية الشيوعية. وطالما كان الحزب نشطا في تشكيل المجتمع السوفييتي، وطالما كان هذا المجتمع مجرد أداة في يد قادة الحزب، فإن وضع الحزب لم يكن من الممكن منازعته. ولكن من ناحية أخرى، فإن قيام مجتمع سوفييتي مُصنَّع يدرك عن وعي مستديم مدى إنجازاته، سوف يؤدي إلى نبذ الوسائل السلبية، والبدء في ممارسة الضغط حتى على الحزب ذاته. ويبدو أن هذه الضغوط أصبحت الآن أكثر كبحا، وإن كانت لا تزال قائمة في مثيرات الحياة الأولية.

على أنه في المرحلة الأولى من نشأة الكتلة الشيوعية، عملت الكتلة على تدعيم القناعة الأيديولوجية التي تنص على أن التاريخ في جانب الشيوعية والعكس صحيح. ويبدو أن انتشار الشيوعية لتشمل ثلث العالم - سواء عن طريق القوة المسلحة أو بالثورة - قد أعطى لها الحماس الثوري القديم. لقد عاد التاريخ إلى مرحلته الديناميكية. واليوم يقوم القادة السوفييت - وهم مزهوون بانتصاراتهم في حجم سكان المعسكر - بالاستشهاد بذلك كدليل على أن

«الرياح الشرقية تطرد الرياح الغربية» وبالإضافة إلى ذلك، فإنه طوال مدة حياة ستالين، لم يؤد امتداد نطاق المعسكر إلى إثارة أي مصاعب أيديولوجية خطيرة. وكانت النظرية القديمة حول تطويق الرأسمالية، ما زالت قائمة حتى عام ١٩٥٨، ولكن نبذ هذه النظرية لم يتضمن أي اعتبار أيديولوجي هام، أكثر من كونه إعادة تقييم علاقات القوى القائمة على المسرح الدولي، والوصول إلى نتيجة أكثر تفأؤلاً.

قصور في التطبيق:

وما إن ظهرت دولة جديدة يحكمها النظام الشيوعي، حتى تبنت بعد فترة تحول قصيرة النموذج الستاليني في التصورات الأيديولوجية وتكويناتها. وقضت التجربة السوفييتية في بناء الاشتراكية بسلامة استخدامها على النطاق الدولي، ومن ثم شكلت أيديولوجية سوفييتية عكست أسلوب التطبيق الماركسي في الاتحاد السوفييتي. ولكن موت ستالين كشف عن قصور وخلل جوهري في هذا التطبيق، وأظهرت الأحداث التالية ضرورة البحث عن أشكال جديدة للأيديولوجية وعن وحدة سياسية داخل المعسكر، مما أدّى إلى التعقد الكامل لمشكلة تطبيق الأيديولوجية السوفييتية - باطاحتها العالمية - في الدول التي تختلف فيها ظروفها الوطنية عن الظروف السائدة في الاتحاد السوفييتي.

مشاكل التوليفة الأيديولوجية المشتركة

على أنه يمكن ملاحظة أن الجهود التي بذلت لوضع توليفات أيديولوجية مشتركة للمعسكر السوفييتي بعد عهد ستالين، واجهت مشكلتين واضحتين متصلتين هما: أولهما مسألة اختلاف العلاقات الاجتماعية التي بلغت درجة من النضوج داخل أيديولوجية معينة، وثانيتهما مشكلة المراحل المتباينة للتصور الاشتراكي. أما أولى هاتين المشكلتين فيمكن تجاهلها طالما كانت سلطة ستالين أو هيئته واردة على تسوية هذه المشكلة على مستوى الكتلة الشيوعية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المرحلة المبكرة من الحكم الشيوعي في الدول التابعة الحديثة، كانت تهدف إلى دفع الجهود الشيوعية نحو تدعيم السلطة وتدمير المجتمع القديم. ولم تثر هذه الواجبات السلبية أية مشاكل أيديولوجية حادة مثل المشكلة

الخاصة ببناء مؤسسات اشتراكية جديدة .

ومع ذلك فإن موت ستالين وانقشاع الستالينية ، أدّى إلى تحول انتباه القادة الشيوعيين الى الهدف الثاني . وفي سياق عملية استرخاء نسبية بالإضافة إلى مواجهة القادة الشيوعيين بمشاكل محلية خاصة بمجتمعاتهم - ابتعد بعض القادة الشيوعيين باطراد عن الحلول السوفيتية ، وبدأوا يحسون بثقل تقاليدهم الاجتماعية الخاصة ، فضلا عن ادراكهم الحسى الخاص لأيديولوجيتهم . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك انبثاق خلاف ايديولوجي ، ميز الكتلة في الفترة من عام ١٩٥٦ الى عام ١٩٥٧ ، وهو لا يزال قائما حتى اليوم ، بالرغم من الجهود الواعية التي بذلتها الصفوة الحاكمة لإعادة الوحدة الايديولوجية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المراحل المتغيرة للتطور الاقتصادي الاجتماعي في الدول المختلفة داخل الكتلة السوفيتية ، انتجت بالضرورة مشكلات مختلفة تطلبت حولا متباينة . فعلى سبيل المثال ، فإن قيام ثورة اجتماعية اقتصادية في الصين مجتذى أسرع من الاتحاد السوفيتي لم يمكنها من تفادى إستخدام ايديولوجية تبرر تطبيق العنف الذى زاد من قوة سلطة الحزب ، والذى نظر إلى أى اتجاهات عصرية بنظرة الشك المريب . أما الاتحاد السوفيتي وقد اصبح على حافة تحقيق الشيوعية ، فقد كان تواقا لجنى حصاد تضحيات الحزب الاجتماعية لحقبات عدة ، ومن ثم كان مهتما باطراد باستخدام التعقل فى عملياته سواء فى مجتمعه او داخل الكتلة السوفيتية . وأصبحت بعض البلاد الشيوعية مثل بولندا والمجر ورومانيا ، التى عانت من غمرات التحول من مجتمعات ريفية إلى مجتمعات صناعية ، واقعة تحت تأثير «التنقيح المذهبي» ، أى التخلي عن التصور الايديولوجي السوفيتي ، والنظر إلى مشاكل التحول الاجتماعي كعمليات عضوية عالمية النطاق ، تتطلب تحولا تدريجيا مستمرا للوعى الاجتماعي . ومن ناحية أخرى ، فإن زعماء البلاد الشيوعية المتقدمة صناعيا مثل المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا ، لم يواجهوا الحن الاقتصادية الاجتماعية ، ومن ثم كانوا متعاطفين مع التصور الصينى طالما كان يهوى التبرير السياسى لأنظمتهم السياسية غير المستقرة .

ولقد ظهر دليل قوى على هذا فى الاحتفال بالذكرى السنوية العاشرة للصين

الشيوعية في بكين في أكتوبر من عام ١٩٥٩، إذ تبنت كل من ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا الخط الأكثر حماسا، إزاء مسائل السياسة الخارجية، وتكتيكات السياسة المحلية للصين، بما في ذلك تكتيكي «قفزة كبرى للامام» والكوميونات، وكان ذلك على نقيض اتجاه الاتحاد السوفيتي وبولندا.

انبثاق الخلاف

وكانت نتيجة هذه الظروف الأيديولوجية المتباينة، واختلاف مراحل التنمية داخل الدول الاشتراكية، بالإضافة الى اختلاف مصالح الصفوة الحاكمة في كل دولة داخل الكتلة، أن عكست خلافا عرضيا على عدد من المسائل الهامة المختلفة. على أنه بالنسبة للصين والاتحاد السوفيتي، يبدو أن هذا الخلاف يتضمن مسألة ليست جديدة على الشيوعيين السوفيت هي إلى أي حد يمكن لثوري ماركسي أن يتعاون مع القوى الاجتماعية القائمة، كي يبرز اتجاهات ملحوظة نحو النصر الحتمي؟ وإلى أي مدى ينبغي عليه أن يظل بعيدا عن العالم منبوذا ويقاوم في استماتة في سبيل تحويل العالم عن طريق أول تدمير له؟ ربما لا نكون قد غالينا في تبسيط الأمور، بقولنا أن عقدة المشكلة تكمن في عما إذا كان التعايش السلمى مع أعداء الشيوعية يمكن ان يكون مرحلة انتقالية.....

على أن بعض الدول الشيوعية من أوروبا الشرقية أثارت تحديا مختلفا ويمكن أن نجد هذه الصورة من «التنقيح المذهبي» في أقصى درجاته في البرنامج الذى تبناه الحزب الشيوعي اليوغوسلافي عام ١٩٥٩. وكان رد المعسكر العام على هذا البرنامج، أن قامت دول المعسكر بصب اللعنة على اليوغوسلافين. ومع ذلك فإن مثل هذه الآراء قد سلم بها كثير من أعضاء الأحزاب الشيوعية الحاكمة في أوروبا، وبخاصة الطبقة المثقفة، وقد هيا ذلك جوا من التفكك الأيديولوجي المحتمل. وكان سبب ذلك، هو أن الايديولوجية السوفيتية لن تعكس عمدا الواقع في أوروبا الشرقية أو تشكله ما لم تيسر القوة السوفيتية لمساندته. إن المرء الذى يلم بالتقاليد الأيديولوجية للاشتراكية اليسارية في بولندا وبالمناخ الثقافى للدولة، وبمؤجها السياسى، كذا بالدور الذى لعبه الكتاب الشعبيون في المجر لتشكيل الراديكالية المجرية، سوف يوافق

على ضرورة اتخاذ اجراءات عنيفة لمنع أى تنقيح أو تعديل للماركسية - اللينينية، وذلك حينما تجيء هذه الايديولوجية لتتجسد بواسطة حركات جماهيرية ضخمة. ولكن مثل هذه الاجراءات العنيفة استخدمتها الأقليات الماركسية - اللينينية القائمة في هذه البلاد، ولكنهم وجدوا أنه من الصعب أن يظلوا محصنين من البيئة التي يعيشون فيها. ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن بعض الدول التي تحكم حكما شيوعيا.

تنقيح خروشوف.

واستجابة لاحتياجات المجتمع السوفييتي، وفي محاولات تفسير «انحرافات الستالينية» قام خروشوف بالتنديد بمبدأ تصاعد صراع الطبقة كتحرير ستالين للماركسية اللينينية. ومع ذلك ففي عام ١٩٥٩، حينما واجه خروشوف في أوروبا الشرقية مشكلة المعارضة الاجتماعية «للبناء الاشتراكي»، خشي من أن تخليه عن هذا المبدأ الستاليني قد يدعم اتجاه المنقحين في أوروبا الشرقية، ومن ثم حوره في صورة جدلية بقوله:

«لقد نقد مؤتمر حزبنا العشرين رأى جوزيف ستالين الخاطيء بأن صراع الطبقة ينمو بحدة مع التقدم في البناء الاشتراكي. ولكن نقد هذا الرأي لا يعنى بالتأكيد أننا يمكننا أن لا ننكر حتمية صراع الطبقة الحتمي في فترة البناء الاشتراكي... إن هذا التصور لا يتقدم على خط مستقيم. إن صراع الطبقة في عصر بناء الاشتراكية يمكن أن يسند في فترات معينة بالارتباط مع بعض التغيرات في الموقفين الداخلي والخارجي، كما يمكنه أن يتخذ شكلا حادا مطلقا إلى الحد الذي يتضمن الصدام المسلح، كما كانت عليه الحال في المجر عام

١٩٥٦.»

لقد كانت جهود خروشوف كنائية نتيجة الضرورة المتزايدة لمواءمة الأيديولوجية بالظروف الوطنية المختلفة. وبالرغم من جهوده هذه، فإن الظروف الراديكالية المختلفة التي واجهتها الصفوة من الحكام الشيوعيين في أوروبا الشرقية - بمقارنتها بروسيا عام ١٩١٧، والصين عام ١٩٤٩ -

فرضت مشكلة مستمرة بالنسبة لوحدة التجربة الشيوعية، ومن ثم لوحدة الأيديولوجية.

توسيع معنى الأيديولوجية

وبالرغم من جهود السوفييت للاحتفاظ بتوازن أيديولوجي فإن الخلاف المتزايد الناتج، كذا مرونة السوفييت في الاستجابة، قد وسعا من نطاق معنى الأيديولوجية. لقد تعود الزعماء السوفييت لمدى اربعين عاما على نبذ اولئك الذين يتحدثون لغة مختلفة عن لغتهم، كما كانوا يلفظون الذين يستخدمون اللغة ذاتها في عدم الموافقة على خطتهم. واليوم ولأول مرة يتسامحون مع الشيوعيين الذين يستخدمون تصورات مشابهة للوصول إلى نتائج مختلفة... وحتى اليوم فإن المرء ينبغي عليه أن يتحدث بإطراد لا عن الأيديولوجية الشيوعية ولكن بالأحرى عن الأيديولوجية السوفيتية، والأيديولوجية الصينية، والأيديولوجية اليوغوسلافية.

ولكن طالما نادى الأيديولوجية الماركسية - اللينينية بالعالمية، التي دفعت في الأصل السوفييت إلى تورطهم، ليس فقط في سيادتهم على جيرانهم ولكن أيضا في توجيه طابع التحول المحلي، فإن الخلاف المتزايد في المفهوم الأيديولوجي يهدد الصلاحية العالمية حتى للأيديولوجية السوفيتية، ومن ثم تقوض عاملا من العوامل التي تشكل اقتراب السوفييت من العالم. كذلك تهدد الشيوعية المحلية الأيديولوجية السوفيتية، عن طريق إنكار مزعمها الرئيسي بأنها صالحة عالميا، ومن ثم تصبح صالحة للتطبيق المحلي.

إن الجهود التي تبذل لتأكيد الوحدة ردا على هذا التهديد، يمكنها أن تفصل الأيديولوجية عن الواقع، بينما يهدد التسامح وامتداد الخلاف الناتج، بإدخال عناصر خطيرة على التماسك الأيديولوجي.

وبعد استيلاء السوفييت على السلطة كان على زعمائه أن يوائموا الواقع الدولي الذي لم يكن ملائما لتوقعاتهم المبكرة. ولم تكن عملية المواءمة سهلة، إذ تضمن سلسلة من النزعات بين الواقع والأيديولوجية، مثل المشادة التي حدثت في محادثات « برست ليتوفسك » مع الألمان. وحتى بعد تدعيم السوفييت لسلطتهم،

فإن انتشار الثورة توقعه قادة الكرملين ، وعملوا على إثارته . وهكذا بدأت الأيديولوجية تدريجيا وبمرارة تتلاءم مع الواقع ، كما بزغ مبدأ «الإشترابية في دولة واحدة» . وقد استنفذ وقت طويل كي يبطل هذا المبدأ وتأصلت جذور الأعمال السوفييتية بعد الحرب إزاء جيرانهم الشيوعيين الجدد في هذا المبدأ ، الذي تلكأ خلف الموقف السياسي الجديد .

عوامل موازنة

وتغير الموقف بنمو سلطة السوفييت وبإحساس السوفييت بالثقة . ويبدو أن القادة السوفييت أحسوا لأول مرة منذ عام ١٩٢٠ أن يوم النصر ليس ببعيد . ومع هذا ، فإن عدة عوامل ترتبط بالمسائل الدولية توازن الموقف ، وهي عوامل قد تساعد على قيام السوفييت بتعديل مفهومهم الأيديولوجي . ويمكننا معالجة هذه العوامل تحت ثلاثة عناوين رئيسة : اولها ، الاستقرار الذي يسود المجتمع الغربي ، وثانيها ، نماذج التطور في المجتمعات المتخلفة وآخرها ، طبيعة أنظمة الأسلحة الحديثة . فبالنسبة للعامل الأول ، يبدو أن الزعامة السوفييتية ما زالت منذ عام ١٩٤٧ تتلمس بعض الأمل في قيام هبات ثورية في فرنسا وإيطاليا واليونان ، ولكن إخفاق محاولات الشيوعيين في دول غرب أوروبا وما تلاها من حركة انعاش بارزة في أوروبا الغربية ، يبدو أنها أقنعا الزعماء السوفييت بأنه لا يمكنهم في المستقبل القريب الاعتماد على النموذج اللينيني أو الستاليني ، أعنى الاستيلاء على السلطة أو الاحتلال العسكري .

لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فبدوا كأنهم راغبين في التنازل عن ذلك في حالة المجتمعات الموسرة المستقرة ديموقراطيا ، ورأوا إمكان قيام شكل من التحول من مرحلة الرأسمالية إلى مرحلة الاشتراكية . ولقد بين خروشوف ذلك ، حينما قال في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي العشرين إن لينين على العكس رأى إمكان قيام الحزب الشيوعي بالاستيلاء السلمي على السلطة ، كما أنه يمكن استخدام وسائل برلمانية لهذه الغاية» . ولقد جاء هذا التصور عن كذب من التخلي عن اللينينية ، ولم يكن الزعماء السوفييت يعلمون ذلك . ولذلك أحجموا عن مباركة الخطوة التالية التي اتخذها اليوغوسلافيون ، أعنى التسليم بأن

الاشتراكية يمكن بناؤها بواسطة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، واستمروا يصرون على أن الحزب الشيوعي هو السبيل الوحيد لمثل هذا التحول الحقيقي .
أما الدول الحديثة التي ما زالت متخلفة، فقد أظهرت التحدى بالادعاء بأنها تقوم ببناء مجتمعات ذات نظام شيوعي، وذلك من خلال وسائل سياسية ديمقراطية وبطرق اقتصادية برجائية ليست في الواقع سوفيتية ولا رأسمالية غربية. فإذا ما قدر لها النجاح - وقد يتحقق ذلك بمساعدة الاشتراكية السوفيتية أو الرأسمالية الغربية - فإن النتيجة سوف تؤدي إلى إعادة تجديد عملية التطور الاقتصادي الاشتراكي، مهما اختار الايديولوجيون السوفيت أسماء أخرى للمجتمع الجديد. إن مثل هذا التطور لن يصب فقط إلى الايديولوجية وصورتها، ولكن أيضا إلى أسسها العقائدية.

أما أكثر الجوانب أهمية وهو العامل الأخير الخاص بطبيعة أنظمة الأسلحة الحديثة، فيمكنه أن يهيء الطريق لتفكك الأيديولوجية. لقد كان الاتحاد السوفيتي يرى دائما أن قوته تعد عاملا هاما في تقرير سياستها. وإلى مدى ما تعنى الإستراتيجية العسكرية، فإن الزعماء السوفيت وبخاصة ستالين رأوا أن مجتمعهم ينبغي أن يكون معدا جيدا لحوض غمار حروب إبادة طويلة. ولقد ظل هذا الرأي سائدا في العقيدة السوفيتية حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وبعد موت ستالين وما تبعه من فترة نقاش استراتيجي داخلي، استمرت صدارة الأسلحة النووية في الفكر العسكري السوفيتي تصاحب التأكيد على القوة الضاربة، واستخدام عنصر المفاجأة. وما أن وصل هذا الفكر إلى رؤوس القمة من السوفيت حتى أصبحت المسألة عملية وقت، كي يقرروا أن وجود استراتيجيات مشابهة لدى الخصم قد تؤدي إلى نتائج حاسمة أيضا.

حتمية الحرب.

وكان لهذا تأثير مباشر على الفكر السوفيتي الخاص بحتمية الحرب. ولزمن طويل استمر السوفيت يتصورون حتمية الحروب، طالما اعتادت الرأسمالية وبخاصة الامبريالية، أن تخلق الأساس الاقتصادي للحروب. وقد أعاد ستالين قول هذا المبدأ عام ١٩٥٢. ومع ذلك، فلو قدر لمثل هذه الحرب أن تنشب، ولو

جرّ السوفييت إليها، فلن يكون هناك غير نتيجة واحدة من وجهة نظرهم هي: نهاية الرأسمالية. وبتصاعد احتمالات التدمير المتبادل تدريجياً، اجبر الزعماء السوفييت على الوصول الى نتيجة مجتمية الحرب، وصفها خروشوف في مؤتمر الحزب العشرين بقوله «الحتمية الفتاكة». وتضمن هذا التحول التسليم بأن الحرب سوف تكون مدمرة للجانبين ولن يستفيد منها احدهما.

وبالطبع يمكن القول إن هذا التغير يعكس الثقة السوفييتية المتزايدة بأن عجلات التاريخ قد سارت في النهاية لصالح الشيوعية، ومن ثم ينبغي تجنب الأعمال العنيفة. وفي كلمات أخرى، فإن المواءمة لم تصبح مجرد نتاج الحاجة فحسب، ولكن أيضاً نتاج المصلحة السوفييتية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الميزان العسكري لو تغير لصالح السوفييت بحيث يجعل الاتحاد السوفييتي غير معرض للهجوم، لتغيرت وجهة نظره مرة أخرى. ومع ذلك، فإن النقطة الهامة، هي أنه في ظل تأثير العامل الأكثر حيوية اعني «مشكلة حق البقاء» فإن الأيديولوجية السوفييتية ينبغي أن توائم من نفسها مرة أخرى.

على أن التعايش السلمي كبديل للتدمير المتبادل، لا يمكن أن يتعادل مع بعض الحتميات التاريخية الملتصقة بالأيديولوجية حتى لو تم تعريف مثل هذا التعايش السلمي على أنه تنافس. وقد يكون من السذاجة بالطبع أن نفترض أن التزام السوفييت يمثل هذا التعايش السلمي يتضمن التزاما لا ينقض، ولكن نتيجة خوف الزعماء السوفييت العام من الحرب، فإنهم سوف يفكرون مرتين على الأقل قبل الالتجاء الى مبدأ «حتمية الحرب».

قوى التماسك

على أن هناك عدة التزامات فائئة داخل الاتحاد السوفييتي تعمل كقوى مضادة قوية، تحمي الأيديولوجية من التفكك. ويعد الالتزام الدستوري في شكل الحزب الحاكم أهم هذه القوى وليس هناك حاجة كبيرة للحديث عن هذا العامل الهام. ذلك أنه إذا ما ذوت الأيديولوجية وبخاصة بين أعضاء الحزب، فإن سلطة الحزب لا بد أن تتعرض للتهديد، بالرغم من أن الطقوس الحزبية قد تؤجل هذا التفكك. وتدرك الصفوف العليا من الحزب عن وعى هذا

الامر. إن الخطوات التي اتخذها خروشوف لإعادة بناء دور الحزب في المجتمع السوفييتي، كذا الإجراءات الحديثة التي اتخذت لغرس التثقيف الايديولوجي بين السكان على مستوى كبير، توحى كلها بأن الحزب مصمم على الاحتفاظ بالوعي الايديولوجي بين صفوفه. وليست هناك أسباب كبيرة تدعو إلى عدم إمكان الحزب القيام بذلك في المستقبل القريب.

ويساند الالتزام الدستوري للأيديولوجية التزام شخصي. ذلك أن الأيديولوجية بالنسبة لأشخاص مثل الزعماء السوفييت تعد تصورا لرؤيتهم للواقع، ومصدرا وجدانيا يحميهم من الزلل، وأخيرا مصدرا لمشاعرهم الخاصة إزاء الحياة.

كذلك يُعد الالتزام الاجتماعي العريض عنصرا دفاعيا آخر. ذلك أنه ما إن يتشرب الناس قيما اجتماعية معينة، حتى يصبحوا معارضين للقيم الجديدة. إن إعادة بناء المجتمع السوفييتي على أساس الأيديولوجية، وعلى أساس التثقيف الذي أجرى في حقبات كثيرة، قد خلق راسبا اجتماعيا سوف يقاوم إدخال أى افكار جديدة، حتى لو جرت اليها العناصر المثقفة الواعية. إن تأثير هذه العناصر يكون فعالا فقط لو أنها استطاعت أن تتسلل إلى الحزب أو نجحت في ربط المجتمع بمعايير وآراء جديدة.

الخلاصة

إن ناقل الافكار الجديدة في المجتمع السوفييتي، لن يجد مهمته يسيرة مالم تنشب أزمة كبيرة تعصف باستقرار المجتمع. وعلى أية حال، يمكن القول أن التحضر والتصنيع اللذين يتحققان داخل محتوى ايديولوجي، وبواسطة حركة تحركها ايديولوجية معينة، سوف يميلان إلى استمرار الأيديولوجية. فأولا، قام السوفييت بخلق بيئة صناعية على أساس مطامح ايديولوجية، وبمرور الوقت بدأت تعمل، كحاجز تصادم لهذه الأيديولوجية. وثانيا، هيا السوفييت من خلال انجاز واع متين قبولوا واسع الانتشار للأيديولوجية. التي وإن كانت تفتقر إلى حماسها الثوري القديم، أصبحت تسود تدريجيا وثالثا، فإن المجتمع الصناعي الحديث الذي يقوم على أساس ملكية اجتماعية يتطلب توضيحا مستمرا

للأهداف الاجتماعية، كي تساعد هذه على الاحتفاظ بالغرض العريض المقبول. إن هذه العوامل مجتمعة عدائية الطابع ضد التفكك السريع للأيدولوجية. وأخيرا فإن التزام العمل يحمي الأيدولوجية، فالعمل يثير ردود فعل وينمي العداء والنزاع، ومن ثم يدعم الإيمان. إن العمل الذي يكمل بالنجاح بدعم الأيدولوجية بصورة أعمق! وإلى أقصى ما تعنى الجماهير فإن الزعامة السوفييتية، قد بذلت جهودا جبارة لتوضيح نجاحاتها في تجارب الفضاء، وفي معدل النمو الاقتصادي بواسطة ايدولوجيتها. حقا، قد يكون من الأمور الساخرة، أن يكون رأى السوفييت عن الشيوعية هو أن القدرات العسكرية السوفييتية قد تصبح عنصرا ينمي الإيمان الأيدولوجي، ويدعمه.

على أنه بالنسبة لأعضاء الحزب، فإن الإنجازات السوفييتية الدولية تصبح باستمرار طريقة بديلة لاثبات صواب الايدولوجية، ومن ثم تحافظ على الحس الداخلي للغرض الأيدولوجي الذي قد يتحلل الحزب بدونه.

وهكذا فإن هذه القوى تحول دون تفكك الايدولوجية، وتمنع الزعماء السوفييت من قبول المسائل الدولية على أنها لعبة لها مجموعة قواعد. ولكن هذه القوى بدلا من ذلك تجعلهم يصرون على معالجة المسائل الدولية كنزاع له حل واحد. وفي الوقت الحاضر فإن النتيجة الخطرة على الأقل، هي أن نقول أنه بينما تنمو ضغوط التفكك الأيدولوجي، فإن القوى المحافظة للأيدولوجية ما زالت راسخة، لم تفقد قدرتها على ممارسة نفوذها.

الفصل الثاني

التعايش بين الحرب والسلام

هوة بين المعاني:

حقا إن العائق الاساسي لتحقيق حالة من «التعايش السلمى» الحقيقى في هذا العالم المضطرب يكمن في أن هناك هوة واسعة بين المعاني التي ترتبط بهاتين الكلمتين في المجتمعات والأنظمة السياسية المختلفة. إن هذه الفجوة بالطبع مثال آخر لاختلاف المعاني التي تفوق كل جهد يسعى للتبادل المخلص للأفكار عبر الجواجز الايديولوجية والنفسية. فعلى سبيل المثال، هناك كلمات مثل الحرية والديموقراطية والتقدم، تستخدم في الكتلتين بصور ومعان مختلفة.

لقد وجه سؤال إلى احد اللاجئيين من المجر إلى دولة غربية عما إذا كان قد قام بالدفاع عن وطنه فأجاب: «إن وطنى هو حيثما أجد الحرية». إذن فهناك وطن للجميع، وطن يستحق الدفاع عنه، كما أن هناك فكرة هي الحرية.

كذلك هناك عائق آخر يكمن في مواجهة المطلق، أى اصرار جانب ما على الخير الشامل لمبادئه والشر المطلق في أسلوب حياة الجانب الآخر، الذي يسعى إلى التفكك والتدمير. إن هذا المعنى الذي يخدم كمجرد أداة للتاريخ، يبرر في عقول اصحاب هذا المبدأ ومدعموه عجرفة الاستقامة الذاتية. ذلك أنه بالنسبة لهؤلاء يصبح خصمهم ليس هالكا فقط، ولكنه من الناحية المعنوية مخطيء في كل عمل أو فكر يقوم به.

الكشف العلمي

وهكذا يصبح الدرع الايديولوجي الذي يحمى الزعماء الشيوعيين مطروقا من هذا التناقض في معنى مصطلح «الكشف العلمي». إن النظرية التي وضعت منذ مائة عام مضى في بداية العصر الصناعي، ينبغي أن يثبت أنها سليمة منزهة عن الخطأ. ومن ثم فإن أولئك الذين يجراون على إعادة فحص أى جزء من تعاليمه الجوهرية لا بد من اسكاتهم وتدميرهم.

والواقع أن الحرب الثورية ظاهرة قديمة، عادت إلينا اليوم بعد ان تدرث بكساء جديد. كما أن الحرب بعامة ظاهرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع، لم يستغن عنها الانسان طوال حياته على الارض في حل مشاكله التي يستعصي حلها بالوسائل الأخرى.

ومن ثم، فإن الذين يتحدثون عن مجرد التهذئة، إنما يتحدثون عن أمر تجريدى لا ينهى وضعا بعينه. فالحرب قد أصبحت جزءاً من الطبيعة البشرية، وهي بذلك تكون ظاهرة طبيعية للمجتمع وللتعديلات التي تدخل عليه. إننا عندما ندين الحرب نظلم الذين قاموا بها، لأنهم لو لم يخوضوها، لكان من المتعين عليهم أن يفعلوا ذلك.

لقد وضع العلم تحت تصرف المجتمع وسائل تتيح له القضاء على عدوه، قبل أن يحاول هذا العدو الهجوم عليه. وهذا يؤدى بنا إلى الوصول إلى الشكل الجديد للحرب باعتبارها حرباً ثورية.

لقد استفاد حزب معين من هذه المظاهر الخاصة، كي يصيغ الحرب باللون السياسي، وسار فيها شوطاً كبيراً، بحيث أخرج لنا نظرية محددة المعالم عن الحرب الثورية، وإن لم تكن مصاغة.

العلاقة بين القوة العسكرية والقوة السياسية

للقوة العسكرية اهمية حاسمة في نمو القوة السياسية ويقول ماوتسي تونج في هذا الشأن:

«ينبغي على كل شيوعي أن يدرك الحقيقة بأن القوة السياسية تنمو

من فوهة المدفع. فبمعاونة المدفع، مهد الشيوعيون الروس للاشتراكية... وتعلمنا من تجربة صراع الطبقة في عصر الامبريالية، أن الطبقة العاملة والجاهير الكادحة لا يمكنها أن تقهر البورجوازية المسلحة وملاك الأراضي الا بقوة المدفع. وبهذا الإدراك نستطيع حتى ان نقول أن العالم بأجمعه يمكن إعادة تشكيله بالمدفع.

إن الواجب الرئيسي والشكل الأعلى للثورة هو الاستيلاء على السلطة السياسية بقوة الاسلحة وحل المشاكل بالحرب(★)

ولقد ظهرت العلاقة بين قوة السوفييت العسكرية وبين ادارة الشيوعيين للحرب الثورية بوضوح في أسلوب معالجة السوفييت لأزمة السويس عام ١٩٥٦. ذلك أن مناشدتهم الوصول إلى تسوية بوقف العدوان الثلاثي، تدعمت بخطوات درامية بالتهديد باستخدام الأسلحة النووية ضد المعتدين.

ومع أن هذا التهديد جاء بعد قرار الولايات المتحدة بإنذار الدول المعتدية وتهديدها بالتدخل، فإن التهديد السوفييتي لعب حينئذ دورا ضخما في مجال الحرب الثورية. ومن ناحية اخرى فإن تجربة السوفييت عام ١٩٦١ لسلاح نووي قوته ٥٠ ميغا طن، لفت الأنظار إلى ذكريات عن هتلر، وعكس الاطراد في استخدام القوة العسكرية في الحرب الثورية الشيوعية.

لقد سخر كل من لينين وستالين شأنها في ذلك شأن ماوتسى. تونج - من الرأي الذي يقول إن أى حرب يجب ان تكون شاملة. لقد أكدوا على عكس خبراء عسكريين آخرين، أن الصراع المحدود وبخاصة صراع حرب العصابات يمثل نوعا من الحرب، حيث تستطيع السياسة والوسائل العسكرية أن تشرك بسهولة جميع العناصر النفسية والبدنية ضد أضعف نقط الخصم.

ويرى « ماو » أن الشروط التالية ضرورية للنصر الشيوعي:

- (١) القتال بصلابة في كل نزاع أو معركة يكون النصر مضمونا فيها.
- (٢) تجنب أى قرار نهائي في أى نزاع أو معركة يكون تحقيق النصر فيه

* Mao Tse - Tung, Selected Work [New York International Publishers 1954] Vol. 21, P 272.

مجال شك .

(٣) تجنب - بأى ثمن - أى قرار استراتيجي يعرض كيان النظام الشيوعي للخطر .

لقد حدد «ماو» الاستراتيجية الشيوعية بأنها حرب طويلة «محدودة» . ولقد دلت التطورات بعد الحرب العالمية الثانية بوضوح أن العمليات المحدودة التي تهيء دائما طريقا مفتوحا للتقهقر، سوف تكون جزءاً هاماً من الاستراتيجية الشيوعية في المستقبل . وبالرغم من ذلك فإن السوفييت سوف يستغلون أقصى المنفعة من إنجازاتهم النووية وصواريخهم العابرة للقارات، وتجاربهم في غزو الفضاء . لقد قام خروشوف مرارا بتمجيد صواريخه التي كان يعشقها .

المرحلة الحالية للاستراتيجية الشيوعية

إن المرحلة الحالية للاستراتيجية الشيوعية هي تجنب حرب نووية بالعمل على نشوب حروب تقليدية محدودة على النمط الكورى وفيتنام والشرق الأوسط ، مع التركيز على استخدام حرب العصابات ، تلك الحروب التي يطلق عليها الشيوعيون «حروب التحرر الوطنى» . ففي الخطاب الذى ألقاه خروشوف في ٦ من يناير عام ١٩٦١ تساءل ببلاغة: «ما سلوك الماركسيين ازاء مثل هذه الانتفاضات؟» وأجاب على ذلك بقوله: «إنه دورايجابى . إن هذه الانتفاضات ينبغي ألا تشبه بالحروب التي تنشب بين الدول ، أو الحروب المحلية ، طالما كانت هذه الانتفاضات تخوضها الشعوب لتحقيق حقها في تقرير المصير ، وفي الاستقلال الاجتماعى ، والتنمية القومية . إن هذه الانتفاضات تقوم ضد الأنظمة الرجعية العفنة ، وضد المستعمرين . إن الشيوعيين يساندون مساندة كاملة مثل هذه الحروب ، ويزحفون في صفوف الجبهة مع الشعوب التي تشن صراعات التحرر» .

وبنمو القوة العسكرية ، أصبحت أسلحة الحرب الثورية الحديثة متيسرة . وتتطلب الوسائل الجديدة طرقا حديثة ، إما لتكملة الطرق القديمة وإما لاستبدالها .

والحرب الثورية ليست حرباً جامدة ثابتة، فهي تعدل وفقاً للوسائل والظروف والبيئة. وكما يحدث في الحرب العسكرية، فإن طرق الأمتس قد تصبح باطلة اليوم. وعلى سبيل المثال، فإن الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية والصين لم تصل إلى مركز السلطة بمجهودها الخاصة - كما يدعى الشيوعيون - ولكن بواسطة المعونة العسكرية والسياسية من الاتحاد السوفيتي، سواء كانت مباشرة أم غير مباشرة.

وفيما مضى، كانت الحرب الثورية السوفيتية تقوم تقريباً لإثارة الجماهير في الدول الرأسمالية، ولكن موسكو تلعب اليوم دوراً ذا شقين: فهي كدولة تمد العون إلى الدكتاتوريين الجدد أو الذين يحتمل أن يصبحوا دكتاتوريين، وذلك في البلاد التي حصلت على استقلالها حديثاً، وفي الوقت ذاته تستخدم الأحزاب الشيوعية في هذه الدول لتخطب ودّ الجماهير. ويفضل الشيوعيون أسلوب التسلسل إلى الثورة الشرعية التي قام بها أناس غيرهم. وتؤدي هذه المشاركة إلى وضع القادة الثوريين الذين يعملون في هذه الظروف في مركز صعب أمام شعوبهم، ذلك أنهم يصبحون معتمدين كلية على الدولة السوفيتية، وبالإضافة إلى خوفهم من جماهيرهم، فإنهم يوضعون دائماً تحت أعين الأحزاب الشيوعية التي يسيطر عليها السوفييت. فإذا ما فقد الزعيم سيطرته على شعبه وتخلي عن الحكم، فإن الرجل الذي سيخلفه سوف يكون أقرب للشيوعية من الناحية الأيديولوجية، وقد يمهد الطريق في النهاية لحكم شيوعي.

ومنذ أكثر من ربع قرن بقليل، لم يكن في استطاعة السوفييت أن يغامروا باستخدام الشكل الموسع الجديد للحرب. لقد كان عليهم أن يحدوا أنفسهم في أعمال الدعاية والتخريب، اللذين قامت على أساسها الأحزاب الشيوعية في الأصل، إذا استثنينا من ذلك عمليات حرب العصابات الصغيرة نسبياً في داخل الصين. ولا تزال الأحزاب الشيوعية تبنى أساساً على الحرب الثورية، ولكن حدث تغير في المناطق المضطربة حتى تلك التي تبعد عن الإمبراطورية السوفيتية. وهناك، أصبحت «حرب العصابات» المحدودة الزاحفة، هي الشكل الوسيط للغزو، حيث تدمج فيها الحرب النفسية والسياسية. وإذا ما عن للمرء أن يحدّد أعضاء الحزب الشيوعي المدرب الذي شارك في ربع

القرن الماضي في حرب العصابات في آسيا واوروبا والشرق الأوسط وامريكا اللاتينية وشمال افريقيا، فإن العدد قد يصل الى ستة ارقام.

العقيدة العسكرية السوفيتية

تحكم العقيدة العسكرية جميع العقائد الشيوعية كما تطورت من ماركس إلى حكام اليوم. ذلك أن القوة السياسية الدافعة للعقيدة العسكرية السوفيتية لا يمكن فهمها إلا عن طريق هذا الإدراك. ولهذا فإن العقيدة العملية للماركسية - اللينينية تمثّل الشيوعيين برؤية عن كيفية استخدام القوة العسكرية لمتابعة أهدافهم. (*)

وتبين الكتابات العسكرية السوفيتية أن الأغراض السياسية الجوهرية تقرر الاستراتيجية العسكرية. يقول كولونيل سوفييتي: «إن هدف الاستراتيجية العسكرية هو خلق - بوسائل عسكرية - تلك الظروف التي تكون السياسة في ظلها في وضع يحقق الأغراض التي تضعها لنفسها». وكما هو معروف فإن كلوزوفيتش يرى أن الحرب استمرار للدبلوماسية ولكن بوسائل أخرى. لقد عدل السوفييت هذا الرأي ليصبح من وجهة نظرهم هو: السلم استمرار للنزاع، ولكن بوسائل أخرى!

ويقول رموند جارثوف: «إن الاستراتيجية العسكرية والسياسة جوهرية في ضوء هذا المعنى لوحدة الغرض، كي تدعم أهداف السياسة السوفيتية وبمعنى آخر فإنها متكاملان يعيشان مع بعضها البعض في كل الأوقات، أحدها يسود وقت السلم والآخر يسود زمن الحرب. وكل منهما يخطط بتفاوتات عدة، كي يناسب الطوارئ المتعددة التي يمكن تصورها. ومن الجوهرى لكي نتفهم العقيدة الشيوعية أن نعرف أنهم ينظرون إلى الصراع على أنه الأساس العضوى».

إن الشيوعيين لديهم استراتيجية راسخة وشاملة. وهم يشنون الصراع

* For The Contemporary military doctrine of the soviet Union in H. S. Dimerstein, War and the Soviet Union, PP. I - 257 of Raymond Garthoff, The Soviet Image of Future War P. P 1 - 137.

بمجموعة من الاساليب، ويداومون على تعلم اساليب حديثه. كما أن قيادة الصراع العالمي هو القلب المركزي لكيان السلطة الشيوعية السوفيتية. وفي أرض الوطن تنظم كل جوانب الحياة في سبيل هذا الصراع الذي لا يتوقف. وهم لا يهتمون برفع مستويات المعيشة إلا حتى تلك النقطة التي تجعل الشعب يستمر في الحياة دون سخط كبير. فهناك نجد أساسا مجتمع قتال أو حرب، وهو منظم كى ينتج قوة عسكرية، وقوة شاملة، وقوة سائدة. أما التنظيم خارج الوطن والكتلة السوفيتية، فيستخدم بعض الشيوعيين بشكل سافر لتدعيم أهداف الدولة الشيوعية، وبخاصة في إضعاف قوة الدولة المعادية(★).

وليس هناك تقسيم عرقي بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية في الاتحاد السوفيتي. ذلك أن جميع الأسلحة السياسية والعسكرية للدولة السوفيتية تصب في نقط القيادة المكتملة لها في الكرملين.

فالكرملين وحده هو الذي يقرر كل ما يتعلق بتركيب القوات المسلحة السوفيتية، ونسبة توزيع الأسلحة بها وكميتها، واستراتيجيتها، وتمويلها، وتنظيمها، وتعليمها. أما توقيت العمليات العسكرية السوفيتية وتوجيهها، وحالة استعدادها، فتقرر بواسطة افراد قلة يقفون عند رأس اوليجاركية الكرملين، حيث لا تسيطر عليهم او تعرقلهم أى هيئات مستقلة.

وفي تنفيذ عملية ربط الحرب الثورية مع القوات المسلحة، فإن طيف الاسلحة والأساليب الشيوعية شامل للغاية. ذلك انه يتدرج من العمل السياسى خلال الصواريخ النووية والقاذفات إلى قتال الغابات، وإلى أعمال الإرهاب والمتسللين، وأخيرا إلى مجموعة من المتخصصين المهرة في علم المعاني. وبايجاز، فإن الشيوعيين لم يقبلوا قط وجهة النظر التي تقول أن نتاج الحرب يمكن تقريره بواسطة سلاح منفرد. ومع ذلك فإن ظهور الأسلحة النووية والصواريخ قد اضاف الى هذا التصور ما يلي:

«لأول مرة في تاريخ الحركة الشيوعية، برزت إمكانية إشراك طرق

* From a Speech «the challenge of Communist strategy, Gwen. by Stefen T. Possony in Attlanta, Georgia, on Narchio, 1961

النزاع غير العسكى على المستوى العالمى ، مع اسلحة عسكرية ذات مدى كونى . وفى المحتوى الماركسى ، فإن هذا يتضمن « قفزة كيفية » ذات أهمية جوهرية يمكن توقعها لتصبح مألوفة فى حقبة جديدة من التاريخ « (★) .

« وتطلب عقيدة الصراع الشيوعى استخدام الشيوعيين وسيلة أو كل وسائل الصراع ، بكميات أكبر مما فى حوزتهم ووفقا للملاءمة هذه الوسائل وصلاحيتها فى وقت معين وفى زمن معين ، بل فى أى وقت يبرر المخاطرة باستخدامها » (★★)

وبهذا النظام الشامل ليس هناك أسلحة سيدة أو اساليب سائدة . ذلك أن التصور الاستراتيجى السوفييتى والعقيدة العسكرية السوفييتية جامعان شاملان ، وقد صمما على أساس أن يواجها احتياجات جميع أنواع الحروب الممكنة . على أن إحدى الحقائق البارزة فى تاريخ العسكرية السوفييتية كعامل سياسى ، هى اتفاق الفكر الاستراتيجى العسكى وبخاصة إزاء القوى المرنة التى تتطلبها استراتيجية سياسية انتهازية .

وحدثا ، تغير السلوك إزاء استخدام العنف والقوة فى الزحف الشيوعى تغيرا طفيفا . لقد اقتنعت العقيدة الشيوعية يوما ما بوضوح ، بأن استيلاء الشيوعيين على السلطة يكون ضعيفا فقط إذا ما طبق العنف والقوة . وفى مؤتمر الحزب العشرين صدق على اقتراح ينص على أنه من الممكن أن يتم التحول إلى الاشتراكية عن طريق السبل السلمية . ولا يعنى هذا أن فرص السلام قد تحسنت ، ولكن بالأحرى ، أن امكانية التحول السلمى « إلى الاشتراكية - وهو اصطلاح بيانى لسلطة الثورة - قد تحسن » .

ولقد أدخلت الأسلحة النووية سلسلة من الابتكارات فى الاستراتيجية السياسية . ذلك أن الفرص السانحة أمام صانعي السياسة السوفييت سوف تصبح عديدة ، كلما قام الاتحاد السوفييتى بإنتاج أسلحة نووية أكثر ، وكلما قام

* Colonel Thomas. Wolfe, lecture at defence stratgy seminary..

** Stefen T. Possany, Lectures at Defence Strategy Seminary, july, 1960.

بإنشاء أنظمة توزيع مخادعة.

وقد تهيء الأسلحة النووية فرصة احتمال قيام الاتحاد السوفيتي بسحق الولايات المتحدة، العائق الرئيس الوحيد أمام طريق هدفه الذي جهر به وهو الثورة العالمية. وقد يتوق الكرملين إلى تدبير الأموال اللازمة لتمويل الاستعداد لعملية هجوم نووي مفاجيء. ولكن لما كان الاتحاد السوفيتي مركزا صلبا للعقيدة الشيوعية العملية التي تعد الاتحاد السوفيتي قاعدة للثورة العالمية، فقد اصبح بالضرورة الا يغامر الكرملين عن طيش في متابعة هدف ما، بل قد يكون راغبا - شأنه في ذلك شأن واشنطن - في منع زيادة المخزونات من الأسلحة النووية.

وحتى إذا كان هذا هو الحال، فهل يمكن أن نتصور أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة يستطيعان أن يساهما في عقد مصالحة نووية حقيقية التي قد تعنى الشيء ذاته للثنتين؟

وفي أى وقت خلال الحقتين الأخيرتين - حينما كان السوفيت ينمون من قدرتهم النووية الخاصة - كان من الشطط أن تحاول موسكو إثارة حرب كبيرة. ومما لا شك فيه أن كل جانب كان يحاول أن يبقى على الوضع الراهن محاولا تجنب الدخول في حرب نووية شاملة. ولكن المشكلة للاستراتيجيين السوفيت كانت وستظل كالأتي: كيف يمكن المحافظة على أكبر قدر من حرية المناورات المحدودة، كي تحشد موسكو الطاقة تدريجيا دون المغامرة في مواجهة الرد النووي عليها غير المتوقع من جانب الولايات المتحدة؟ يظن السوفيت أنهم وجدوا الإجابة على ذلك في إشراك التهديد بالحرب النووية مع استراتيجية التفقيت المنسقة.

وتنبثق خطة الكرملين في التوسع من حقيقة أن الشيوعية لن تتطور تلقائيا. ولهذا، وكما أقر لينين: فإن الانتصار على البورجوازية غير ممكن دون حرب طويلة عنيدة مستقتلة للحياة أو الموت - حرب تتطلب الحزم والطاعة والثبات ووحدة الإرادة. وفي ضوء هذه التعاليم، فإن الأمل بأن الاتحاد السوفيتي لن يستخدم قط استراتيجية عدوانية ضد الدول الأخرى هي مجرد

تفكير مرغوب - حتى في العصر النووي. وليست دعاية السلم اليوم اكثر فطنة عما استخدمت من قبل، بالرغم من أن تكتيك السلام قد يخدم الاتحاد السوفييتي أكثر من استخدام الصراع المسلح.

ويرغب السوفييت في أن يجعلوا الأمريكيين يظنون أن الكرملين قد غير من سلوكه الأساس إزاء الغزو العالمي نتيجة الأسلحة النووية. ومع ذلك، فقد ازداد العدوان السوفييتي كلما نمت قوته النووية.

ولقد كانت تكتيكات الدعاية السوفيتية إزاء القنبلة الذرية مختلفة اختلافا كبيرا عن الآن، وذلك حينما كانت الولايات المتحدة تتمتع باحتكار ذري في خلال الستينات. وكان على حملة السوفييت المبدئية أن تقوم بمنع الولايات المتحدة من استغلال احتكارها الذري في الفترة التي كان يطور فيها الاتحاد السوفييتي من قدرته النووية. وحينما تأكدت المعلومات التي حصلت عليها أجهزة جاسوسية ستالين عن الأسرار الذرية للولايات المتحدة في مؤتمر بوتسدام عام ١٩٤٥، كان على ستالين أن يواجه اختيارا ما: لقد كان في امكانه أن ينهي كل الأعمال العدوانية نحو حلفاء الحرب واكتساب الوقت اللازم ليصبح قوة ذرية، ولكنه سوف يفقد الفرص التي هيأتها اضطرابات نظم دول العالم غير الشيوعي، وابعاء الحرب التي اجهدتها. ومن ناحية اخرى، كان في إمكانه الاستمرار في عدوانه مجذر، على أن يكون مستعدا للانسحاب إذا تطلبت الضرورة ذلك. وسوف يتوقف مدى اتساع عدوانه بدرجة كبيرة على رغبة امريكا في القتال واستخدام سيادتها الذرية.

وكانت أولى المشاكل التي واجهت السوفييت محاولاتهم منع الولايات المتحدة من استخدام القنبلة الذرية. فمنذ قبل منتصف الخمسينات كان لدى السوفييت وحدهم أسلحة سياسية. ولقد اختار الكرملين الاستمرار على وضعه - وضع عدوان الحرب العالمية الثانية - معتمدا في ذلك على عدم رغبة الولايات المتحدة في القتال.

ولما كانت الشكوك تراود الكرملين دائما في احتمال أن ينتبه الأمريكيون لخطئه، فقد أوقف اعتماده كلية على السلبية والانتهازية، ولكنه استمر في

المعمل السياسي كي يحافظ على غفوة الولايات المتحدة. وقام بتدلية السلم أمام الأمريكيين، ثم حاولت آلة الدعاية السوفيتية أن تروغ واشنطن بالقنبلة التي في حوزتها. فباسم الانسانية ينبغي تحريم استخدامها. وبشر مثل هذه الافكار بين علماء الولايات المتحدة، حاولت موسكو أن تمنع تطور القنبلة الهيدروجينية الأعظم قوة او تعرقله، ونتائج ذلك مسجلة في جلسات اوبنهيما.

ومن العسير بل قد يكون من المتعذر تلخيص البيان الكامل الذي ذكره «روبرت اوبنهيما» أمام مجلس أمن الافراد التابع للجنة الطاقة الذرية الأمريكية، والذي يتضمن دوره في تطوير القنبلة الهيدروجينية. ولقد اتهم هو وبعض زملائه بأنه أخر انتاج القنبلة الهيدروجينية لأسباب فنية وأخلاقية. إن العبارات التالية المقتبسة من بيانه لها علاقة كبرى بهذا الموضوع:

«بالنسبة الى القنبلة الأرقى، أبدت اللجنة الاستشارية العامة معارضتها الإجماعية على أن تبدأ الولايات المتحدة برنامج تدمير من النوع الذي طلب منا ان نعطي المشورة عنه. ويعكس تقرير هذا الاجتماع، وملاحظات السكرتارية، أسباب اتجاهنا الى هذه النتيجة. ووضحت الملاحق وبخاصة تلك التي تعالج بدرجة أكبر السياسة، والاعتبارات السياسية - مع ان التقرير في حد ذاته كان ذا طابع فني - اختلافات في وجهات نظر أعضاء اللجنة. وكان هناك ملحقان، أحدهما موقع عليه «من رابي وفيمي» والآخر موقع عليه من «كونانت»، «دوبريدج»، «سميث»، «رودي»، «بوكلي»، وشخصي، وكان تاسع اعضاء اللجنة «سيبورج» خارج البلاد في ذلك الوقت. لقد كانت مفاجأة أن يقوم ثمانية رجال وهم يبحثون مشكلة صعبة للغاية بإعطاء نفس الأسباب بدقة للنتيجة التي وصلنا اليها. ولكنني أظن أنني في جانب الصواب حينما أؤكد أن المعارضة الاجماعية التي عبرنا عنها إزاء برنامج التدمير، كانت مبنية على الاقتناع بأنه نتيجة موقفنا الشامل في ذلك الوقت، أصبح مثل هذا البرنامج عامل ضعف

للولايات المتحدة أكثر من أن يكون عامل دعم» (★)

معاني التعايش السلمى .

منذ الآن فصاعدا من المحتمل أن تتعاقب في تكرار مطرد تهديدات الحروب المتبوعة بابتهالات السلام المشروطة من الشيوعيين . وسوف يكون هدف دورات السلام او التعايش هو العمل على خلق حالة من الفكر فى الغرب ، تتمشى مع دفاع الشيوعيين عن مصالحهم الحيوية .

إن التهديدات بالحرب سوف تدعم هذا الهدف . ويصبح الهدف الشامل لهذه الاستراتيجية هو الإعداد لذروة المعركة الفاصلة ، أو جعل هذه المعركة نافلة لا لزوم لها . ولقد قدم عصر الذرة كثيرا من الالتباسات الكبرى ، ذلك أنه ما لم يستخدم الأمريكيون اعظم اسلحتهم قوة ، وما لم يفتت الشيوعيون هذه القوة ، فإن النصر الشيوعى يمكن تدميره فى أى مرحلة من مراحل اللعبة . لقد كان خروشوف يدرك ذلك جيدا . وإذا ما تمنع المرء فى آراء خروشوف المتعلقة بهذه المسألة الحيوية ، فقد يجد من بينها شيئا مثل ما يلى :

« إن سياسة التعايش تضمن طريق النصر للشيوعية ولا يمكن توقف النصر اذا ما تطورت الأمور سلبيا . إن التعجيل العنيف باستخدام أعمال ثورية عالمية ضخمة يعد مخاطرة طالما كان هناك خطر هجوم مضاد مسلح من جانب الغرب ، الذى يستطيع - وفقا لتوازن القوى الحالى وتطور الأسلحة الحديثة - أن يحرم الاتحاد السوفييتى الظافر من ثمار انتصاراته .

ومن الأفضل أن تحرم البلاد الرأسمالية من مصادر الدول النامية بواسطة وسائل سياسية واقتصادية . وينبغي على الدول الشيوعية ألا تنكمش فى استيراد السلع الغربية عن طريق تبادل التجارة العالمية

* Cited in, In the Matter of j. Robert Oppenheimer, Transcript of Hearing before Personnel Security Board, Washington D.C. April 12, 1954, through May 6, 1954, Atomic Energy Commission, Washington, D.C. U.S. Government Printing Office, 1954 P. 19.

واستخدامها لتنميتها الخاصة. وبعد أن يحقق المعسكر الاشتراكي
السيادة على الغرب يوما ما - وهي غاية أمام عينيه - فإن الغرب
قد يجبر على الاستسلام، دون أن يكون قادرا على استخدام فكرة
تأخير هذه التنمية الثورية أو قلبها عن طريق استخدام الأسلحة.
وهناك اتفاق كامل مع الصين على هذا الهدف النهائي، عدا أنهم ظنوا
لزمين طويل أن الهدف النهائي سوف يتحقق بصورة أسرع عن طريق
الهجمات الثورية العالمية. ومع ذلك، فإن تكتيك «خطوة كبيرة للأمام»
تعد مخاطرة على المجال الدولي، طالما كان تجار حروب معينين من
الغرب ليسوا مقتنعين مائة في المائة بأن اللجوء إلى الأسلحة سوف
يعنى تدميرهم الشامل.»

وعلى عكس «النظريات التحريفية التي دحضتها وهاجمتها كل من موسكو
وبكين، فإن توقف الأعمال العدوانية بين الشيوعية والرأسمالية - التي يطلق
عليها لينين التعايش التنافسي - ينبغي ان تكون مجرد استثناء. وهكذا فإن
التعايش ليس إلا مجرد وسيط تكتيكي لإضعاف إرادة الغرب وقوته. ويهيء
ذلك أيضا الوقت للشيوعيين لتحسين وضعهم العسكري، وبذلك يقللون من
فرص مخاطر الهجوم المضاد من الغرب.

بيان عن طابع التعايش

وبالطبع فإن أحدث بيانات المذهب الشيوعي وأكثرها جزما، هو البرنامج
الحديث للحزب الشيوعي السوفييتي الذي وافق عليه بالاجماع مؤتمر الحزب
الثاني والعشرين في ٣١ من اكتوبر عام ١٩٦١. وبالرغم من تكراره المطول،
وتناقضاته الداخلية الكثيرة، فإنه خطط بعناية ليخدم كدليل رئيسي للفكر
السوفييتي وللسياسة والعمل خلال الحقبة التاريخية التالية. وفي الاسابيع
العشرين التي تلت نشر مسودة البرنامج وانعقاد المؤتمر، تم مناقشته في اجتماعات
كثيرة ووزع البرنامج في ملايين من النسخ، كما تم طبعه بلغات متعددة. ومن ثم
فإن البيانات التي نشرت عن طابع التعايش وغرضه يجب دراستها دراسة
جادة، وفيما يلي النقاط الرئيسية للبرنامج:

أولاً: « إن التعايش السلمي للدول الاشتراكية والرأسمالية ضرورة موضوعية لتطوير المجتمع الإنساني، فالحرب لا تستطيع أولاً ينبغي أن تخدم كوسيلة لتسوية النزاعات الدولية ».

وبالطبع فإن كل الشعوب العاقلة سوف ترحب بهذا الوضع كأساس لمناقشة بناءة للأخذ والعطاء عن أفضل الوسائل لحماية البشرية من حرب رهيبة جديدة، وذلك عن طريق حصر بعض النزاعات أو القضاء عليها، تلك النزاعات التي قد تهدد بانفجار حرب مدمرة على سطح الكرة الأرضية.

ثانياً؛ « إن الامبريالية هي المصدر الوحيد لخطر الحرب. ذلك أن المعسكر الامبريالي يجرى استعداداته لارتكاب ابشع الجرائم ضد الجنس البشري - حرب نووية تؤدي إلى دمار لا مثيل له لجميع البلاد وتكتسح الشعوب كافة ».

وهنا نجد أن المذهب يجذب - كما يحدث غالباً - عامل الأفضلية عن الواقع. وبالإضافة الى ذلك فإن الاتحاد السوفييتي كان يعمل جادا في إنشاء أنظمة تسليح هائلة والواقع أن الزعماء السوفييت استخدموا التهديد بالتدمير النووي لما يربى على ثلاثين حكومة، وذلك اذا لم تتخل عن سياسات معينة واوضاع سياسية لا توافق عليها موسكو. ويناقد الزعماء الشيوعيون المشكلة مثل خصومهم، فيقولون أنهم لا يعدون لشن العدوان، ولكن لردع أي عدوان. ومن ثم فإن الفاصل المميز يرتكز على مدى صدق الحكومة التي تقوم بالتهديد.

جانب واحد للتفسير الشيوعي

إن الطابع أو الجانب الواحد للتفسير الشيوعي للسياسات الدولية يظهر في تعديل صغير أدخل على النسخة النهائية لبرنامج الحزب. ذلك أن مسودة ١٥ من أغسطس أشارت إلى.... « مع مصادقة مجموعة متزايدة من البلاد التي تتبع سياسة الحياد، والتي تستجيب لتأمين ذاتها ضد المخاطر بالمشاركة في الكتل العسكرية ».

ومن الواضح أن هذه العبارات تمتدح بقوة دول عدم الانحياز. ففي القاعدة يلتزم الشيوعيون بالمذهب كي يجذبوا الدول غير المنحازة إلى جانبهم على

مراحل وفقا للأوضاع القائمة في كل دولة. كما أنّ العبارات التي جاءت بالمسودة ربما تضمنت الموافقة على وضع تيتو الذي يتهمه الشيوعيون بالهرطقة لادعائه بأنه شيوعي وغير منحاز في الوقت ذاته. وربما تعجب بعض الشيوعيين حينما استخدم خروشوف دباباته ومدفعيته في أكتوبر عام ١٩٥٦ للقضاء على محاولة حكومة إمري ناجي عند إعلانها حياد المجر، كذا حينما استخدمت قوات حلف وارسو للقضاء على الثورة في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨.

ولقد لاحظ واضعو المسودة النهائية هذا الغموض الأيديولوجي الشاذ ومن ثم، غيروا عبارة « المشاركة في الكتل العسكرية » بعبارة « المشاركة في الكتل العسكرية العدوانية ». ولما كانت كلمة « عدواني » نعت يطبق فقط على « الامبرياليين » ولا يطبق قط على البلاد الاشتراكية، فإن تعديل الكرملين الذي يمتدح الدول غير المنحازة يترك الباب مفتوحا للدول غير المنحازة لترتبط فيما بعد « بالكتلة العسكرية الصالحة في العالم الاشتراكي ».

التعايش السلمي قاعدة للتنافس

إن مثابرة موسكو على الحث على « التعايش السلمي » ينبغي ألا يؤدي إلى إضعاف الجهود في إعادة تشكيل باقي العالم وفقا للنموذج الشيوعي، لكن على العكس فإن الصراع في سبيل انتصار الشيوعية ينبغي أن يدفع بعنف وباستخدام ترسانة من الأدوات المتعددة الميسورة، ومن ثم نجد المبدأ التالي وهو:

ثالثاً: « إن التعايش السلمي يخدم كقاعدة للتنافس السلمي بين الاشتراكية والرأسمالية على مستوى دولي، ويتكون من شكل مميز لصراع الطبقة بينها. ولما كانت البلاد الاشتراكية تسعى بعزيمة لدفع سياسة التعايش السلمي، فإنها تدعم بثبات أوضاع نظام العالم الاشتراكي في تنافسه مع الرأسمالية فالتعايش السلمي يهيء أفضل الفرص لصراع الطبقة العاملة في البلاد الرأسمالية ويمنح تسهيلات لصراع الشعوب في البلاد المستعمرة وغير المستقلة، للحصول على تحريرها واستقلالها. »

التحذير من التورط في حرب عالمية

ويحذر البرنامج الشيوعيين بخاصة في كل مكان من ربط آمالهم ازاء انتصارهم العالمى بالتورط في حرب عالمية جديدة. وحقيقة، فإن توقع انتصارهم خلال طوفان ما، قد يؤدي بهم إلى استرخاء لجهودهم. ومع ذلك فوفقا للتقليد اللينيني فإن الزعامة السوفييتية ليست ضد كل أنواع الحروب، والمبدأ التالى يوضح ذلك وهو:

رابعاً: «إن الحزب الشيوعي السوفييتي، والشعب السوفييتي ككل سوف يستمر في معارضة كل حروب الغزو بما في ذلك الحروب بين البلاد الرأسمالية والحروب المحلية التي توجه لسحق حركات تحرر الشعوب، وهم يرون أن من واجبه مساعدة الصراع المقدس للشعوب المضطهدة، وحروب التحرير العادلة المضادة للامبريالية».

وهذه التحفظات تسمح بمدى واسع النطاق للأسلحة السوفييتية كي تشارك في العمل العسكرى، ذلك أن الكرملين قد احتفظ لنفسه بحق تقرير من هي الشعوب المضطهدة؟ وما هي الحروب التي يطلق عليها «حروب التحرير»؟ وبالرغم من المخاطر العظيمة التي قد تصاحب مشاركة السوفييت في هذه الحروب، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، فإن البرنامج يؤكد ايمان القادة السوفييت وثقتهم الذاتية بأنهم سوف يحققون النصر الكامل دون التورط في حروب نووية. ويفسر المبدأ التالى هذا الرأى وهو:

خامساً: «إن التفوق المضطرد للقوى الاشتراكية على القوى الامبريالية... أى تفوق قوى السلام على قوى الحرب، سوف يمكن من طرد شبح الحرب العالمية من حياة المجتمع حتى قبل النصر الكامل للاشتراكية على الأرض، وذلك بحصر الرأسمالية في جزء من الأرض. إن انتصار الشيوعية في انحاء العالم سوف ينسخ تماما الأسباب القومية والاجتماعية لجميع الحروب. ومن ثم فإن سياسة نبذ الحرب وإقامة سلام دائم هي الرسالة التاريخية للشيوعية».

إجبار الرأسمالية على التقهقر

إن التعايش السلمى من وجهة نظر السوفييت هو السياسة السليمة في عصر - طال أم قصر - سوف يجبر الرأسمالية فيه على التقهقر من وضع الى آخر حتى تخضع في النهاية إلى الشيطان. إن الوسائل التي تستخدم لإجبارها على مثل هذا التقهقر تختلف وفقا لميزان القوى الدولي والمحلي.

وقد يتم التحول إلى الاشتراكية في بعض البلاد بواسطة وسائل سلمية، وفي أخرى بطرق غير سلمية. وبالطبع فإنه حتى لو نجحت الطبقة العاملة - وهي تلك الطبقة المفروض ان تطيع الحزب الشيوعي وتعاونه - في اكتساب أغلبية صلبة في البرلمان، فإن عليها أن تدبر خارجه صراعا جماهيريا عريضا، كذا تدمر مقاومة القوى الرجعية وتهدىء الظروف الضرورية لثورة اشتراكية سلمية. وما دام الشيوعيون يقومون باحتكار السلطة، فإن في استطاعتهم حينئذ تحديد القوى الرجعية لتوائم مصالحهم. وعلى أية حال فلن يكون لديهم اهتمام آخر في تهيئة ظروف التعايش السلمى مع أى مجموعات أو أفراد يعدونها معادية أو معارضة لاحتكارهم السلطة.

شن الصراع بالعنف.

ويؤكد البرنامج على أن الصراع ينبغي أن يشن بعنف وبلا هوادة مستخدما تكتيكات متتابعة سريعة، كي تجعل القوى المعارضة مفككة غير متوازنة. وأمامنا أن نقرأ:

سادساً: « إن نجاح الصراع الذى تشنه الطبقة العاملة لنصرة الثورة، سوف يعتمد على مدى قيام الطبقة العاملة وحزبها باستخدام كل أشكال الصراع بمهارة - سلمى أو غير سلمى، برلماني أو خارج البرلمان كذا على مدى قدرتهم في إعداد أنفسهم لاستبدال شكل ما من الصراع محل آخر بأسرع وقت ممكن وبصورة غير متوقعة ».

وفي النهاية، فإن جميع الطرق - بالفعل تؤدى إلى روما.. إلى دكتاتورية البروليتاريا أى دكتاتورية الحزب الشيوعي:

سابعاً: « ... ومهما كانت نتيجة شكل التحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية، فإن هذا التحول يمكن أن يتم فقط من خلال الثورة. وبالرغم من الأشكال المختلفة لسلطة الدولة الشعبية الجديدة في فترة البناء الاشتراكي فإن جوهر هذه الأشكال هو نفس الشيء دكتاتورية البروليتاريا، التي تمثل الديموقراطية الأصلية، ديموقراطية الطبقة العاملة. »

الشيوعية والتحريرية

وبالطبع، فمن الضروري للمركز الرئيسي للحركة الشيوعية أن يؤكد على وحدة الطبقة العاملة تأكيداً لا ينازع كي تؤدي إلى انشاء جوقه هجومية ماهرة ضد الرأسمالية. وفي السنوات الحديثة، لم يثبت أن هذا شيء بسيط أو سهل داخل البلاد والاحزاب التي تقر بزعامة موسكو.

ثامناً: التحريفية، والانتهازية اليمينية، التي هي انعكاس للنفوذ البورجوازي، إنما هي الخطر الرئيس داخل الحركة الشيوعية اليوم. ذلك أن التحريفين يغلفون رفضهم للماركسية، بالحديث حول ضرورة أن يدخل في الحساب آخر التطورات في المجتمع وفي صراع الطبقة، وهم بذلك يلعبون دور البائع المتجول للأيديولوجية البورجوازية داخل الحركة الشيوعية. »

إذن من الذي يحدد التحريفية؟ ومن الذي يحدد المذهبية؟ من الواضح أن خروشوف كان مصراً على الاحتفاظ بهذا المستوى من السلطة في قبضة يده. ولقد بين ذلك بوضوح في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب، حيث شن هجومه الشهير على زعماء الحزب الألماني لأنهم انحازوا إلى شواين لاى، الذي عارض كشف الصراع المرير داخل الحزب، ثم غادر المؤتمر إلى بكين، ولقد اقتبس الزعماء الصينيون الكلمات ذاتها من برنامج الحزب الشيوعي حول هذه النقطة المتشعبة، وهي ترد في:

تاسعاً: « إن الاحزاب الشيوعية مستقلة وهي تشكل سياساتها وفقاً للظروف الخاصة السائدة في بلادها الخاصة... إن الحزب الشيوعي

السوفييتي... يرى أن مهمته الدولية هي أن يلتزم بالنتائج والمكاسب التي وصلت إليها الأحزاب الاخوية مشتركة، والمتعلقة بواجبها المشترك في الصراع ضد الامبريالية، في سبيل السلام والديمقراطية والاشتراكية.»

تعديلات في مسودة البرنامج:

ومن الواضح أن الزعامة السوفييتية كانت حساسة دائما ازاء الاتهامات الموجهة اليها بأنها تملئ سياستها منفردة على الأحزاب الأخرى، ذلك أنها أضافت إضافة مميزة في النسخة الأخيرة من مسودة البرنامج. ولقد جاء في مسودة الخامس من أغسطس ما يلي:

«إن الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي سوف يستمر في تدعيم الوحدة والتماسك بين صفوف الجيش العظيم للشيوعيين في جميع البلاد.»

وهذا قد يعني أن الحزب الشيوعي السوفييتي سوف يقوم عن طريق العمل المباشر داخل هذه الاحزاب بتدعيم الوحدة والتماسك ويضمن ولاءها لموسكو. وفي المسودة النهائية عدلت العبارة السابقة كما يلي:

«إن الحزب الشيوعي سوف يستمر في توجيه جهوده إزاء وحدة صفوف جيش الشيوعيين العظيم وتماسكها في جميع البلاد»

والواقع ان قوى التفكك والانقسام تبدو أنها تعمل داخل المعسكر الاشتراكي، كما تعمل خارج حدوده. إن تأثير هذه الاتجاهات الانقسامية قد تكون أشدّ خطرا على سياسة السوفييت لأنها تسير مباشرة مضادة للمذهب الشيوعي كذا ضد الأطاح السوفييتية.

النظرية والتجربة

من الأهمية بمكان أن نعرف أن برنامج الحزب الشيوعي الجديد، ليس مجرد تأكيد بياني لآمال ومطامح. إن لينين وحلفاءه قد زهوا بوحدة النظرية والتجربة.» على أن البرنامج الجديد - بالرغم من انتقاد بكين له - يُعدّ

برنامجا لينينيا أصيلا، إذ أنه لا يضع نظرية، ولكنه يحدد مجموعة إرشادات عمل متأسكة شاملة.

إن التجربة العصرية للتحليل العلمى تؤكد أيضا وحدة النظرية والتجربة، ولكن هذا يعنى شيئا مختلفا تماما بالنسبة للغرب. وفي ظل ظروف البحث الحر فإنها تعنى أن النظريات تشكل على أساس حقائق تم بحثها بعناية بغرض تنظيم مواد من الحقائق أكثر تعقدا. ومن ثم فإن الحقائق الجديدة أو السابقة التى يتم فحصها - إذا لم يعد من الممكن تفسيرها أو الاحتفاظ بها مع النظريات القائمة - ينبغى مراجعتها. وفي بعض الأحيان يتم ذلك بشكل جذرى. وهكذا، فإن الدور المعمم للنظرية فى نظام البحث الحر يعنى أن كل النظريات لها قيمة منفعية أكبر من قيمتها المعنوية، مما جعل أكثر النظريات تتنافس للبرهنة على سلامتها كأدوات علمية، وعلى أنها مجربة أساسا أكثر من كونها مطلقة الطابع.

وبالرغم من التوسع الحديث والمعتدل فى مجال البحث فى الفكر العلمى السوفييتى، فإن الواجب الأساسى للزعامة السياسية فى تحديد حدود البحث، وفى ذكر النتائج مقدما، قد تأكدت بشكل قوى فى برنامج عام ١٩٦١ حيث جاء به:

«إن فحص مشاكل تاريخ العالم وتطور العالم المعاصر، ينبغى أن يكشف عملية تقدم البشرية نحو الشيوعية والتغير فى ميزان القوى لصالح الاشتراكية، كذا تضخم الأزمة العامة للرأسمالية وتصدع نظام الاستعمار والإمبريالية وعواقبها، وبعث حركات التحرر الوطنى للشعوب».

على أنه فى النظرية والتطبيق السوفييتى يذكر كل شىء مرغوب على أنه ثابت علميا. إن الغرض الوحيد للبحث هو إعادة البرهنة لما تأكدت صحته فعلا بواسطة السلطة السياسية. إن إصرار السوفييت على كل معلومات جديدة، أو حقائق لا يمكن أن تتواءم مع النظرية الوحيدة السليمة على أنها ليست حقائق، إنما هو عائق لأى حرية أصيلة. كذلك فإن عادة إثارة أى خلاف كى

يصبح نزاعا بين « الخطيئة » والفضيلة ما زالت قوية وهذا يعنى أن فحص الحقائق الجديدة أو غير المرغوبة لا ينظر إليه على أنه ممارسة للمهارة العلمية، بل على أنه شكل آخر للقتال السياسى .

على أن جمود الفكر الشيوعى يجعل من العسير على من يشكلون السياسة أن يحصلوا على تسهيلات البحث الموضوعى . وبالرغم من ذلك فإن مدى البحث المفيد فى السياسة المحلية أوسع نطاقا اليوم عن تلك الموجودة فى تحليل المسائل الدولية . ولقد قام الزعماء السوفييت بعمل مواءمات عديدة فى سياستهم الاقتصادية المحلية مثل: توقف محطات الجرارات الآلية، تخفيض الاستثمار الطويل المدى فى معدات القوى الهيدروليكية لصالح زيادة معدات توليد الكهرباء الأخرى الأقل تكلفة، وهكذا دواليك .

ولقد تحسنت سمة البحث المنطقى جوهريا فى تلك الميادين التى تكون صحتها وسلامتها ذات نفع لواضعي السياسة . ولسوء الطالع ، فإنه حتى فى قطاع السياسة يبدو أن كثيرا من القرارات الكبيرة تقوم أساسا على تحيز عميق الجذور . فمثلا ماذا سيفعل الشعب السوفييتى بالصلب الذى وعد الحكام بانتاجه عام ١٩٨٠؟ وماذا سيفعل هذا الشعب بالفيض الكبير من البترول إذا كان انتاج سيارات الركوب سيظل على المستوى المنخفض القائم؟ وهل يمكن للزراعة أن تقابل النمو المضطرد لاحتياجات الشعب السوفييتى المختلفة دون استثمار اكبر للمصادر؟

ومن جانب آخر ، فإن الشيوعيين فى دراستهم للبلاد الأجنبية والسياسات العالمية ، لا يسمحون بأى تراخ للجمود السياسى . إن كل شىء يحدد أبيض أم أسود ففى جانب هناك الملائكة وفى الجانب الآخر الشياطين . فإذا استطاعت المادية الجدلية أن تهىء أساسا علميا للتحليل فإنها تستطيع أن تمكن الخبراء السوفييت من فحص أسباب نمو المعدل العالى فى اقتصاديات دول عدة خارج الستار الحديدى ، بصورة أكثر موضوعية مما يفعلونه الآن . إن ذلك سوف يشجعهم حقيقة على أن يذكروا فى هدوء دون سخط أسباب اختلاف الأنظمة الأخرى فى عملها عما يجري فى الاتحاد السوفييتى . إن دولة قوية راسخة ، تحتاج

دائماً إلى معلومات موضوعية وإلى تحليلات واعية، وينبغي على حكامها الا
يخشوا من الاستخدام الكامل للبحث الأكاديمي لو أرادوا أن تقوم جميع الوسائل
بخدمتهم.

ونتيجة لأن « العلم » كان قد أصبح كلمة ساحرة في أيام كارل ماركس،
فقد غلف نظريته الخاصة بالتاريخ الاقتصادي باسم « الاشتراكية العلمية »
واتخذ لينين وستالين والزعماء الذين جاءوا بعدها نفس الادعاء حينما وضعوا
برامجهم السياسية، ومع ذلك ففي التطبيق عكست احكام كثيرة للزعماء
السوفييت تحيزات رئيسة ملفتة، وأطاحاً سياسية قوية.

ففي اواخر العشرينات كان الشيوعيون ومعهم بعض الاقتصاديين
البورجوازيين يتنبأون بظهور أزمة اقتصادية في أوروبا الغربية وأمريكا
الشمالية. ومن ناحية أخرى، دفعت الخطة الخمسية الأولى السوفييتية على
أساس افتراض أن أسعار مواد الطعام العالمية والمواد الخام سوف تظل ثابتة -
وأصرت تكهنات موسكو - أمام الحقائق الواضحة - على أن الكساد الذي
حدث عام ١٩٢٩، كان يجر الولايات المتحدة نحو طريق الفاشية. ففي عام
١٩٤١، افترض ستالين أنه لو قام هتلر بمهاجمة الاتحاد السوفييتي فإن بريطانيا
قد تدخل مع هتلر في وفاق سلمى نتيجة « مصالح الطبقة » المشتركة. ولكن من
حسن طالع الاتحاد السوفييتي أن روزفلت وتشرشل اتخذوا سياسة التحالف مع
الاتحاد السوفييتي أمام العدو المشترك.

وفي عام ١٩٤٨ ظن ستالين أنه يستطيع أن يستولى على برلين الغربية
بواسطة عمل حصار عنيف حولها، كما أن خروشوف وضع أحكاماً خاطئة
كثيرة منذ عام ١٩٥٨ إزاء مسألة برلين وينظر السوفييت بعين القلق إزاء
الخطوات السريعة التي تتبعها أوروبا الغربية لتحقيق الوحدة السياسية بعد قيام
الوحدة الاقتصادية، وهم يرون أن ذلك شيء غريب لأنه لا يقوم أساساً على
نظرية الاشتراكية العلمية.

نحو سبل أفضل

ومنذ عام ١٩٥٣ تغيرت أشياء كثيرة نحو سبل أفضل في الحياة السوفييتية.

لقد تحسن موقف الطعام والإسكان والملابس ووسائل الإعاشة المنزلية. ولقد حاول الحزب والصحافة السوفييتية - عن أى وقت آخر منذ أوائل الثلاثينات - معالجة بعض المظاهر القاسية للإدارة السوفييتية وتحسين اجراءات العدالة فى الاتحاد السوفييتى.

وقابل الشعب كل هذا بالترحاب. ذلك أن الشعب السوفييتى بعد مرور ما يزيد على نصف قرن من الزمان على قيام ثورة أكتوبر، حصل على بعض المكاسب بعد صبره وتضحياته الضخمة. وفى خلال عملهم الطويل الشاق احتفظ الناس بصفات دقيقة من الصداقة والضيافة والوطنية. إن وسائل الراحة المتواضعة التى حصل عليها الكثير منهم، والزهو بالإنجازات العلمية والمادية التى تحققت فى بلادهم، وزوال ذكرى الحرب العالمية الثانية.... كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى جعلهم تواقين نحو السلام والتعايش. لقد اصبح الشعب الآن واثقا فى حسن نوايا حكامه الجدد نحوه، ومن ثم كان لديه الاستعداد لتقبل ادعاء الكرملين بأن سياسة السوفييت الوحيدة هى سياسة «حب السلام» وأن المخاطر الوحيدة لا تنشأ الآن إلا من جانب الإمبرياليين ومؤامراتهم.

ولقد وقع تأثير عقد معاهدة سلام مع ألمانيا الشرقية ووضع حد لنهاية الاحتلال العسكري لبرلين الغربية، موقعا طيبا فى آذان الشعب السوفييتى. فهم لا يعلمون أن الشعب فى ألمانيا الغربية كان ينظر إلى الحامية العسكرية الغربية على أنها بمثابة دفاع له، كما كان المواطنون الألمان ساخطين بشدة على إصرار اولبرخت على اغتصاب رفاهيتهم وحريرتهم. وحتى إذا عرف الشعب السوفييتى ذلك، فمع من يستطيع المواطنون مناقشة هذا الامر؟ إن كل ما كانوا يأملونه هو أن خروشوف الذى كان بالنسبة لهم يبدو رجل الانسانية سوف يحافظ على وعوده إزاء السلام.

على أن المحاولة القديمة التى كانت تهدف إلى تخفيف الضغط على الشعب فى الداخل وإثارة درجة معينة من التوتر فى الخارج، أصبحت فى الحقتين الاخيرتين معدل التكتيكات السوفييتية. فمثلا سمع الزعماء السوفييت عام

١٩٦٠ كل شئ عن وصول اربعائة خبير عسكري أمريكي الى لاوس، كذا مساعدات عسكرية مادية واقتصادية، ومرت شهور طويلة قبل أن تحاول أى صحيفة سوفيتية نشر لمحة واحدة عن الإمدادات السوفيتية والطائرات التي ارسلت هناك للجانب الشيوعى. وبالمثل، بعد أن اعلنت الحكومة السوفيتية في ٣١ من اغسطس عام ١٩٦١. إعادة تجارها الهيدروجينية، لم تنشر أى معلومات أخرى للقراء السوفيت إلا بعد مضي ما يقرب من ستة أسابيع. ومع ذلك، فقد انتشرت الأنباء على نطاق واسع وبخاصة فى المدن الكبرى، وهيات فرصة طيبة لإثارة قدر كبير من القلق النفسى بين الناس.

السلام - الشعار العالمي

هيا ظهور الأسلحة النووية على حافة مسرح الحرب فرصة جعل السلام المطلب الوحيد الأكثر أهمية فى الحرب الثورية الشيوعية. إن الخيط الرفيع الذى يربط الصواريخ النووية معا، هو الذى جعل خروشوف يقترح خطط نزع السلاح بعامة، وهو الذى جعل الشيوعيين يدعمون حروب التحرير الوطنى بغرض تحرير الشعوب من الامبريالية.

كان شعار موسكو العالمى الرئيس حتى الحرب العالمية الثانية وما بعدها بقليل هو: «العداء للإمبريالية والسلام». وكان الهدف من «العداء للإمبريالية» هو تصفية الامبراطوريات البريطانىة والفرنسية والهولندية واليابانية، كى تستميل شعوب المستعمرات، وفى الوقت ذاته تقوض معنويات الاستعماريين. ويفسر الشيوعيون الامبريالية، بأنها أى نفوذ - عسكري ام اقتصادي أم ثقافي - تمارسه الشعوب المتقدمة صناعيا على الشعوب المستعمرة. ومع ذلك، فهناك نفوذ مشابه منبثق من الكرملين يطلقون عليه: «التحرر». ولقد انتهت الحرب العالمية الثانية بتفكك الإمبراطورية اليابانية ومعظم الامبراطوريات الاوروبية. ومن ثم فقد شعار «العداء الامبريالية» كثيرا من قوته، وفى الواقع فإن الكرملين سار باضطراد كقوة امبريالية ضخمة وضارية ونتيجة لذلك أصبح محتما على موسكو أن تنقل شعار الامبريالية إلى شعار «السلام» ليكون شعارها العالمى المدعم.

ومنذ مولد الاتحاد السوفييتي عمل على تنمية اسطورة التطويق العدائي، «ففيما عدا فترات نادرة من ذوبان الجليد، فإن من أمضى أشهراً قليلة داخل الامبراطورية السوفييتية، لا بد أن شعر بالانطباع بأنه عاش بين شعب محاط بعسكريين متطرفين. ولقد تكاثفت الصحافة السوفييتية، والسينما والإذاعة والاجراءات الحكومية، وكل فنون الدعاية لخلق هذه الصدمة في عقل الانسان. كانت الحرب التي يثيرها الامبرياليون تصورها الدعاية السوفييتية على أنها موجودة دائماً في الاق.

ولكي يبرر السوفييت سياسة «المدافع وتقصى الزبد» التي كانت تقود خطة السنوات الخمس الاولى، ولكي يغرسوا في عقول الناس وهم خطر الحرب المحقق بهم، قامت الحكومة السوفييتية بين حين وآخر بفرض اقتراحات سلام دعائية على العالم الخارجي، ثم ينشرون بعد ذلك رفضهم المزعوم.

وليس مجدد في التاريخ أن تقوم الحكومات العدوانية بإخفاء نواياها الحقيقية بالتظاهر بأنها محبة للسلام. إنما الجديد في ذلك هو أن تشغل حكومة معينة نفسها بالحث على سلام دائم. إن الانكباب على مثل هذا السلام الدائم قد يكون له مغزى واحد، هو أن الحكومة تعد نفسها أنها في حالة حرب دائمة - سافرة ام سرية - مع العالم المحيط بها. وهي تستخدم هذا الحث على السلام كوسيلة لحرب سرية لتقويض العدو، وتبرير تعبئتها العسكرية في أرض الوطن. ولا يتعارض مع الجدلية الشيوعية أن تتظاهر الدولة من جانب بأنها تنشر السلام، وتعد للحرب من جانب آخر او حتى تشن حرباً بإسم السلام.

إن الكرملين مدين للحرب بديون ضخمة. لقد ولد الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الأولى، وفي الحرب العالمية الثانية امتدت سلطة الشيوعيين في عدد من دول اوربا الشرقية والجنوبية الشرقية، ثم توج الزحف بالنصر العظيم في الصين الشعبية. ويؤكد المتحدثون الرسميون للكرملين بأنه لو قام الامبرياليون بإشعال حرب عالمية ثالثة فإن ذلك لا يعنى فقط فناء الدول الرأسمالية الفردية ولكن ذلك يعنى فناء العالم الرأسمالي بأكمله.

وفي عام ١٩٣٥، تساءل «بوتيمكين» السفير السوفييتي في فرنسا «لماذا

ترعبنا الحرب؟ لقد انبثقت روسيا السوفييتية من الحرب الأخيرة، «ولسوف تنبثق أوروبا السوفييتية من الحرب القادمة». لقد أدّى تظاهر ستالين بحب السلام إلى تشجيع هتلر على غزو بولندا أكثر من عمله على كبح جماحه، إذ ظن أنه سيلتقط قطع العالم المفتته نتيجة حرب كبرى.

ومع ذلك يستغل الشيوعيون الدعاية ويحاولون خلق انطباع بأن أى عمل عدوانى يقترفه السوفييت إنما يتخذ كمسألة للدفاع عن الذات. إن الدفاع عن السلام الذى يصاحبه هجمات شرسة على نوايا الضحايا المحتملين هو مثال نموذجي للتجربة السوفييتية. وكان أحد أسباب النجاح الشيوعي يرجع إلى إخفاق كثير من الرجال العسكريين فى إدراك نموذج الحزب الشيوعي فى الغزو غير التقليدى. كذلك كان هناك إخفاق معادل بين القادة المدنيين الديمقراطيين فى فهم تهديد الشيوعية العسكرية. لقد قامت الشيوعية بتصفية كثير من الأفكار المضادة بواسطة استخدام القوة، ووفقا لتاريخ الحزب الشيوعي السوفييتى فلا يمكن قهر العدو دون معرفة كيفية الهجوم عليه بطريقة سليمة.

لقد بز الشيوعيون غيرهم فى ميدان استخدام الأساليب الدعائية، للتأثير على الشعوب بأنهم ينشرون السلام بينما يحاول الامبرياليون شن الحروب المدمرة. ومن ثم أصبح بالضرورة أن ننتقى أسلوبا أو أكثر من هذه الأساليب، ونحاول أن نسبر أغوارها لنتبين إلى أى مدى نجحت هذه الاساليب فى غرس فكرة السلام.

مؤتمر المثقفين العالمى

لقد أدت وجهة نظر زدانوف عن دور الشيوعية الدولية فى عالم مضطرب، إلى سلسلة من ردود الفعل فى مؤتمرات السلام. إذ أطلق على أول اجتماع دولى من هذا الطابع اسم «مؤتمر المثقفين العالمى» الذى عقد فى «برسلاو» من أعمال بولندا فى شهر اغسطس من عام ١٩٤٨. وكان الهدف الأساس للمؤتمر معاداة كل ما هو أمريكى.

واختتم المؤتمر أعماله بإصدار قرار بأن الاتحاد السوفييتى وحده هو الذى

يستطيع أن يحفظ السلام في وجه الأنشطة العدوانية التي تقوم بها الولايات المتحدة وحلفاؤها. ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ أن الوفد الأمريكي الكبير الذي حضر الاجتماع كان يضم عددا من الأشخاص، كان لهم بعد ذلك نشاط في جماعة المجاهدين الأمريكيين وغيرها من جماعات الجبهة الشيوعية في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقام مؤتمر المثقفين العالمي بانتخاب لجنة للدفاع عن السلام، كما تبنى برنامجا يعمل على إنشاء عدة فروع قومية، وتنظيم سلسلة من اجتماعات قومية للسلام. وكان من أولى ثمار هذا البرنامج، المؤتمر العالمي الثقافي، الذي عقد في فندق « والدورف استوريا » بنيويورك في شهر مارس من عام ١٩٤٩. وكان المؤتمر العلمي الثقافي « محجا » أصيلا لمؤيدي الحزب الشيوعي القدامى. كما كان الهدف الواضح للمؤتمر هو تشجيع السلام، وذلك عن طريق التنديد بالسياسة الخارجية الأمريكية، بمقارنتها بالسياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي. إن النظرية التي تتعلق بذلك نظرية قديمة من نظريات الإنجيل الشيوعي التي تقول بأن المثقفين هم أصلح الناس لجعل الجماهير تتحرك في الاتجاه الصحيح.

مؤتمر السلام العالمي

والواقع أن حملة الشيوعية الدولية للسلام حققت غرضها بعقد المؤتمر العالمي للمناضلين في سبيل السلام، والذي عرف باسم مؤتمر السلام العالمي. وقد عقد هذا المؤتمر في باريس وبراج على التوالي في شهر إبريل من عام ١٩٤٩. وقام المؤتمر الذي كان يتحدث باسم أكثر من ثلث الجنس البشري، بدق الطبول لاتجاه موسكو نحو السلام، كما أظهر تحديه لواشنطن. ومرة أخرى ضم الوفد الأمريكي وجوها كانت مألوفة منذ أمد بعيد في الاجتماعات التي كانت تعقد في الولايات المتحدة باسم السلام.

وأوحى مؤتمر السلام العالمي إلى الأحزاب والجبهات الشيوعية بجهود جديدة، إذ شهدت الشهور التالية أسلوب « مؤتمر السلام » في قذف كرات الثلج المشحونة بالاتهامات. ولقد عمل الشيوعيون والمتعاطفون في البلاد كلها لإلهاب الشعور الشعبي ضد الديمقراطيات، وذلك بالزهو بأن الاتحاد السوفيتي وحده

هو منقذ السلام والبشرية .

ومع ذلك ، فإن مؤتمر السلام العالمي لم يقف عند مجرد الحث على هذه المشاعر ، إذ قام بتشكيل لجنة دائمة أضافت عاملاً جديداً إلى جهوده بغرض تقويض معنويات العالم الحر . وقررت اللجنة أن ترسل وفداً للسلام الى برلمانات الدول الرئيسة غير الشيوعية ، كذا إلى الإتحاد السوفييتي .

كان المنطق وراء هذا يدل على المهارة والبساطة . ذلك أن الديموقراطيات لو أبت الترحيب بوفد حملة السلام ، فإن الإتحاد السوفييتي سيكون آخر دولة يزورها الوفد ، وسينهي الوفد جولته في موسكو باستقبال يليق بالملك . وآمل الشيوعيون أن يبدو الإتحاد السوفييتي حينئذ كالدولة الوحيدة التي تهتم بالسلام .

مؤتمر ستكهولم

وكانت المناورة التالية للجنة هي عقد ما أطلق عليه « مؤتمر ستكهولم » الذي عقد في شهر مارس من عام ١٩٥٠ . وكان أهم ما ساهم به هذا المؤتمر الدعوة إلى حملة جيدة التخطيط لجمع توقيعات « لنداء سلام عالمي » . ولم يذكر النداء رفض الإتحاد السوفييتي للتعاون في إقامة تنظيم فعال للرقابة على النظام الذري بل دعا مباشرة إلى اعتبار القنبلة الذرية عملاً غير قانوني ، وحث على دفع أول حكومة تستخدم أسلحة نووية بوصمة « مجرمة حرب » .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن النداء ألصق وصمة « مجرمة حرب » بالدولة التي تستخدم الأسلحة النووية . ومن الواضح أن أولئك الذي يقفون وراء نداء السلام يعرفون تماماً أن عالماً حراً غير معبأ القوى ، لا بد وأن يعتمد بدرجة قصوى على القنابل الذرية لردع العدوان السوفييتي .

ويمكن تقويم عدم إخلاص حملة مؤتمر ستكهولم لجمع التوقيعات من الملاحظتين التاليتين :

١ - نشر النداء على نطاق واسع في كوريا الشماليه قبل الهجوم على جمهورية كوريا الجنوبية .

٢ - كانت الحملة تتابع سيرها في كل مكان من العالم ، حتى بعد بداية الهجوم

على كوريا الجنوبية .

وكان من المقرر أن ينعقد مؤتمر عالمي للسلام في بريطانيا في شهر نوفمبر من عام ١٩٥٠ ، ولكنه حول الى وارسو بعد عقد اجتماع تذكاري ، وذلك حينما رفضت الحكومة البريطانية السماح لبعض المندوبين الشيوعيين المعروفين ، بالدخول إلى الجزر البريطانية . وكما كان متوقعا دمغت الولايات المتحدة بوصمة « المعتدية » في كوريا .

تكتيكات حملة السلام

كان من بين الانجازات الرئيسة التي أسهم بها لينين في الماركسية كما رأينا من قبل ، قيامه بتطوير الأساليب الفنية التي يمكن عن طريقها التسرب إلى مراكز السلطة ، والسيطرة على الدول التي يتم الاستيلاء عليها . ولقد لقن لينين تلاميذه كى يكونوا مرنين خلال حملتهم لغزو العالم من أجل الشيوعية ، وحث على الاستخدام الواسع النطاق لاتحادات العمال وجماعات الشباب كجبهات أمامية للحزب الشيوعي ، بل أنه دعا حتى للتعاون مع البرلمانات الديمقراطية إذا ما أمكن استخدام مثل هذه التكتيكات ، لتعمية الخصوم الذين لا ينتابهم الشك .

ولقد خرجت الستالينية عن تعاليم لينين من عدة نواح . ولكن الشيوعية الدولية مع هذا بقيت تتبع الكثير من نظريات لينين التنظيمية والدعائية . وكان اسلوب الشيوعيين في كل مكان الأسلوب القائم على الخديعة والغش . إن ما تطلق عليها الجبهة الشيوعية ، ليست إلا حصيلة فلسفة تقوم على الخداع والزيف .

وتعد المنظمة الأمريكية للمجاهدين من أجل السلام جبهة مثالية للشيوعية المحلية ، وهي تخفي اغراضها الحقيقية وراء المطالب التي يحق لكل فرد أن يطالب بها ، أعني السلام . ولكنها تخفي وراء النداء الذي يبدو ان الباعث له ناحية انسانية موضوع سيادة الشيوعية على العالم . إن عملية الحجيج التي سبق الإشارة إليها نموذج كامل للابتكارات المستخدمة لتعبئة آراء الجماهير . كما أن الاستفتاء الخاص بالسلام وسيلة لتقدير ما إذا كان الشعب الأمريكي يقف وراء

العمل الدفاعى الذى تقوم به الأمم المتحدة فى كوريا . إن هذا بدوره يعد أداة أخرى من أدوات الشيوعية تستخدم لوضع غشاوة على العقل العام للمجتمع الأمريكى ، عن طريق تبسيط الموضوعات المتصلة بالمشكلة الرئيسة .

وتقوم جماعة المجاهدين من أجل السلام بتنظيم لجان للسلام فى كل المدن الأمريكية الكبيرة . ولقد تباغت صحيفة « الديلى ووركر » التى تفسح أعمدتها لهذه المنظمة بأن الأمريكين يتدفقون أفواجاً للانضمام إلى هذه اللجان بالآلاف .

ولا تزال حملة السلام الزائفة تسير قدما على مستوى عالمى . وقد أوضح ستالين بنفسه أنه لن يحدث أى تلكؤ فى القيام بمجهود كامل لدفع الناس فى العالم الحر ومنعهم من الهجوم ، وجعلهم مطمئنين باحساس كاذب من الأمن . ففى مقابلة له مع رئيس تحرير « البرافدا » الناطقة بلسان الحزب الشيوعى قال ستالين :

« من الممكن المحافظة على السلام وتدعيمه ، لو أن الشعوب تولت قضية السلام بنفسها ... وهذا هو السبب فى أن الحملة الواسعة لصيانة السلام كوسيلة للكشف عن التدابير الإجرامية لتجار الحروب ، لها أهميتها القصوى » .

إن الشيوعيين واتباعهم يأخذون قول ستالين هذا مأخذ الجد . ومن الأمثلة الأخرى على ذلك ، قيام الاتحاد العالمى للشباب الديموقراطى - الذى يسيطر عليه الشيوعيون - بالاحتفال بالعيد الثالث للشباب العالمى فى برلين فى الفترة من ٥ إلى ١٩ من اغسطس عام ١٩٥١ ، كما أن الشيوعيين يضعون الخطط لعقد مؤتمرات السلام فى اليابان والدول الإسكندنافية وفرنسا والشرق الأوسط وفى بعض المناطق الأخرى ، بتوجيه من الشيوعيين . ويهدف كل ذلك إلى خداع جماهير الشعوب الحرة وتضليلها ، كى تعتقد أن الهدف الوحيد للاتحاد السوفييتى ، هو الوصول إلى سلام حقيقى أصيل .

حملة السلام لتحرير الأسلحة النووية

ولم تكن حملة السلام السوفييتية التى خططت لتحريم القنبلة الذرية ، والقنبلة الهيدروجينية ، ومناشدة ذلك باسم الانسانية ، إلا دعاية ضخمة

وجهدا كبيرا من أنشطة الإثارة. وكانت تقود هذه الحملة الهيئة الدبلوماسية السوفييتية التي استخدمت رجال دعايتها في كل المستويات بما في ذلك الأمم المتحدة، وحشدت جهودها للتنديد باستخدام القنابل الذرية والهيدروجينية لأغراض عسكرية. وكان خلف الحملة الجهاز السوفييتي بأكمله، جميع الأحزاب الشيوعية وجبهاتها، وملايين من الأحرار الأبرياء الذين انضموا إلى المسيرة. وساعدت الحملة على استخدام القنابل الذرية والنووية على منع الأمريكيين من استخدام القنبلة الذرية في كوريا حتى بعد دخول الصين الشعبية الحرب. ذلك أنه لو كانت اسقطت بعض القنابل الذرية على كتل المتطوعين الصينيين لتغير الموقف المعقد في الحرب الكورية. وبالطبع فإن الولايات المتحدة تحفظت في استخدام القنبلة الذرية لاحتمال تدخل السوفييت. هذا بالإضافة إلى أن حلفاء أمريكا في أوروبا نتيجة الدعاية في أوروبا، انضموا إلى خط الحملة السوفييتية.

وفي منتصف الخمسينات، دارت واشنطن حول فكرة تحريم الأسلحة النووية إذا ما أمكن قيام تفتيش مضمون تماما، كذا تخفيض للأسلحة التقليدية مبنى على أساس المساواة في القوة العسكرية بين كتلي السوفييت والغرب. ولكن السوفييت لم يوافقوا على ذلك، لأنهم أرادوا نزع سلاح الغرب باسم السلام دون أن ينزعوا هم سلاحهم.

وكان الاقتراح الخاص بالموافقة على تحريم الأسلحة النووية تحت الضمانات المذكورة عاليه يمثل عرض وفاق غربي. لقد وصل العرض إلى الاعتراف بجميع الغزوات السوفييتية هنا وهناك، أي تحقيق سلم قائم على الوضع الراهن، أساسه التعايش.

وكان في إمكان السوفييت أن يوافقوا على العرض الغربي، وأن يقوموا ببناء إمبراطوريتهم الجديدة بمعونة الغرب، تاركين تصفية العالم الرأسمالي لجيل مقبل من الشيوعيين. ولكن هذا كان سيقيد الجيل الحالي في الإشراف على الحرب الثورية التي تنفذها الأحزاب الشيوعية بدرجة اقل بالطبع مما هي عليه الآن. ولفترة قصيرة بعد وفاة ستالين (١٩٣٥ - ١٩٣٦) بدا مالتيكوف وكأنه

يميل إلى تجربة «التعايش الشيوعي»، ولكن صعود خروشوف حدد علامة الرفض ولا يزال الكرملين يتحدث عن التعايش وعن نزع السلاح الكامل في العالم، ولكن مجرد خداع الغرب.

وفي الحرب الثورية التي يحث عليها الإتحاد السوفيتي، فإن قيمة الرعب كقوة ضاربة نووية عظمى يمكن زيادته عن طريق ابتهالات ماهرة للسلام ونزع السلاح. وفي الدعاية نجد نوعين أساسيين من الابتهالات: الأولى تحرك الأفكار وتدفعها، والثانية تشلها وتفككها. إن تحريك عواطف الشعوب إيجابيا واجب ليس بالهين، ولكن من السهل نشر الأفكار التي تقوض وتحرب.

إن دعاية السلم أيضا تهدف إلى التأثير على عملية صنع القرارات، ليس بالضرورة بمعارضة القرارات التي تمت بصورة مباشرة، ولكن بالتأثير في القرارات التي ستصنع كى تأتي متأخرة، وكى لا يكون لها تأثير كبير، مثل قرارات مسألة الاختبارات النووية. والغرض منها تحييد استخدام الأسلحة بواسطة قوى قوية معادية للشيوعية، وتخلق صراع بين الدول غير الشيوعية. ولقد غرست الدعاية الشيوعية الوهم الذي ساد الغرب بأن الشيوعية لم تعد بعد دولة عدوانية حيث تنشأ سلاما حقيقياً، وأن التعايش السلمى يمكن أن يقوم على أساس دائم، وأن الحرب ينبغي تجنبها عن طريق التسويات ونزع الأسلحة النووية، وأنه إذا نشبت الحرب فإن العالم غير الشيوعي هو الذى سوف يدمر.

إن دعاية نزع السلاح ليست مجرد ابتكار للمحافظة على السلم والوضع الراهن، أى المحافظة على السلام، وفي الوقت ذاته تحصر السوفييت خلف ستارهم الحديدي، والأمريكيين والغرب على هذا الجانب من الستار الحديدي. لقد خيم الظلام على فكرة نزع السلاح كما قال «برتراند رواسل»، إذ ذكر أن الغرب ينبغي أن يستسلم كى ينقذ الجنس البشرى. ومع ذلك فليس هناك أية دلالة على أن استسلام الغرب سوف يضمن سلاما دائماً. ذلك أن الشيوعيين مشاغبون، والقتال هو مشغوليتهم الرئيسة في الحياة. فإذا ما استسلم الغرب فلا مفر من قيام ثورات واضطرابات أخرى في الفردوس الشيوعي ذاته. وفي النهاية سوف تحمل مثل هذه الحروب بين أعطافها كل المرارة القاسية

للصراعات التي نشبت في الماضي بين الإنسان وأخيه الإنسان. ولذا فمن الوهم أن يظن المرء أن استسلام الغرب سيبشر بأمل انهاء الحرب الذرية.

وبالرغم من الرعب الذي تضيفه الحرب النووية على العالم، فإن السوفييت مقتنعون بأن الحملة النووية قد تعنى نصرا مطلقا لهم. إن عقيدتهم الرسمية في الحرب النووية وضعت تأكيدا لا نظير له على أهمية الضربة الأولى المفاجئة. ومنذ أن حذرت « فترات التوتر » الغرب، كان يكمن في جوف « حملة السلام » الجو المناسب لهجوم مفاجيء. ونتيجة لذلك فإن تبنى خروشوف الدعوة « للتعايش السلمي » ونزع السلاح ربما كان بمثابة تكتيك خداعي شيوعي كما كان بمثابة عناصر لحملة نفسية هدفها إضعاف ارادة الغرب.

تفكير الغرب

على أنه لو كانت الحكومة السوفيتية تعنى حقيقة رغبتها في التعايش السلمي لاعترفت بالصليب الأحمر، ولسمحت لوكالات الأمم المتحدة بالعمل في أراضيها، ولانضمت إلى المعاهدات الأخرى التي تنظم العلاقات الدولية العادية، ولوافقت على الرقابة على التسلح والسماح بالتفتيش الفعال. كذلك كان في إمكانها - بل ينبغي عليها - ان تعطل شبكة تنظيها التخريرية، وتسلك سلوك حكومة عادية. وينبغي عليها أن تمارس تجربة السلم الحقيقي، لا مجرد الزهو بالحديث عنه بما يلائم أغراضها وإذا ما استمرت الحكومة السوفيتية في استخدام السلام كسلاح للدعاية، فإن العقل ينبغي أن يبحث ليس في النوايا السلمية المزعومة ولكن في الطابع العدائي للحكومة السوفيتية. هذا بلا جدال هو ما يدور في عقول الأمريكيين والغرب خلال مناقشاتهم مشكلة السلام والتعايش السلمي مع الشيوعيين.

ومن ناحية أخرى يرى الغرب ان الحزب الشيوعي سواء كان في الحكم أم خارجه هو أساسا حزب حرب. ففي العشرينات بشر الحزب الشيوعي بأهدافه الحزبية - طبقة ضد طبقة - بشكل سافر. ولم يناشد السلام إلا حينما اخفقت الثورة في اوروبا بعد الحرب العالمية الأولى، وكان عليها أن تنسحب استعدادا لزعحف جديد.

وفي الوقت ذاته، كانت الأحزاب الشيوعية غير الروسية ضعيفة التنظيم قليلة الخبرة. وكان الأمر يتطلب أيضا وقتا لبناء الحزب الشيوعي السوفييتي كحزب دولي للتخريب ونتيجة لذلك، فإن الاتحاد السوفييتي - من حيث هو دولة - توقف عن تبني الحرب، وحول العداء إلى ميدان الحرب الثورية التي شنتها الأحزاب الشيوعية. ولقد أدى تعقد هذه العوامل إلى الحث على بدء دفع السلام بواسطة زعماء الكرملين.

وبالرغم من دفعات السلام، وبالرغم من الفقر المدمّع الذي كان يعاني منه الشعب الروسي، فإن الاتحاد السوفييتي ركز على الصناعات الثقيلة والمعدات الحربية. ولقد اتبع السوفييت هذا السبيل حتى خلال الفترة التي كانت فيها ألمانيا قبل هتلر تمتلك نواة لجيش، وحينما كانت باقي دول العالم الرأسمالي باستثناء اليابان تتجاهل انشاءاتها العسكرية. لقد أصبحت روسيا السوفييتية وستظل بين العالم أكثر الدول رغبة في التسلح، بل إن هذا الميل فاق هتلر في السنوات التي تلت فوزه عام ١٩٣٣.

الخلاصة

يهدف الكرملين من دفع السلام الدائم إلى تدمير إرادة الغرب في العودة للقتال. وكان لينين وتروتسكي وستالين وكل الزعماء البلاشفة قراء مثابرين للأدب العسكري. ولقد تأثروا بخاصة بأفكار كارل فون كلو زوفيتش، ضابط الأركان البروسي الذي عاش في القرن التاسع عشر، والذي كانت كتاباته تقتضي اطلاعات في كليات أركان الحرب العسكرية الشيوعية. لقد اعدّوا أنفسهم جنرالات سياسيين.

وفي الغرب كان هناك رجل عسكري من بين الأوائل الذين رأوا أهمية الحرب الثورية في حروب الغزو القائمة اليوم. ففي عام ١٩٢٠، كتب الجنرال فولر خبير الدبابات البريطاني في كتاب له تحت عنوان «الدبابات والحرب العظمى» قائلا:

«قد تحتفى الأسلحة الميكانيكية والكيميائية، وقد يحل مكانها أسلحة أخرى أشد فتكا. إن هذه الطريقة التي تفرض إرادة إنسان على

إنسان آخر، قد يستبدل بها حرب نفسية خالصة لا تستخدم فيها الأسلحة».

لقد نظر الجنرال إلى أبعد من وقتنا هذا. واليوم بينما يستخدم الكرملين السلاح الايديولوجي كاملا، فإنه على استعداد لأن يستخدم الأسلحة العسكرية أيضا. ومن ناحية أخرى أخفق الجنرال في رؤية أن هذا النوع الشيوعي من الحرب الثورية أدَّى إلى فقد أكبر قدر من الأرواح - بمقارنته بما يتوقع أن يحدث في حرب ذرية عصرية - وذلك في حركات التصفية التي جرت بعد الاستيلاء على السلطة.

على أن الاختلاف بين دفعات السلام الحالية والسابقة، يكمن في أن الأولى لم تعد بعد ذات طابع دفاعي، وانما هي تصمم كي تكتسب وقتا لهضم دول اوروبا الشرقية التابعة، ولإزعاج الغرب من خلال الحرب الثورية العدوانية لجعله يفقد توازنه، وللسمح للصين الشعبية بأن ترتقى كقوة صناعية عسكرية كبرى، وأخيرا لاكتساب سيادة تكنولوجية عسكرية للسوفييت على الولايات المتحدة.

إن موسكو تنظر إلى الفترة الحالية من التعايش السلمي كنزاع مطول ينبغي عليها أن تمارس فيه كل قوتها، لكي تحقق مكاسبا حاسمة بكل الوسائل عدا الحرب النووية. وهي تأمل نتيجة محاولة دفع قوتها الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية أن تحدث في سنوات قليلة نقلة كبرى في القوة السياسية لصالحها. وعلى عهد خروشوف وإلى الوقت الحاضر، قد امتد إلى جميع القارات - عدا استراليا مؤقتا. وحتى إذا نمت قوة السوفييت العسكرية والاقتصادية في السنوات القادمة، فإنها لن تكفي الدول التي تسعى نحو الحرية. ولذا ينبغي على السوفييت أن يبحثوا عن سبل جديدة لاستخدام مواردهم الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية العظمى في ميزان القوى، وذلك إذا أرادوا أن يستمروا في التحدي الذي فرضه خروشوف في برنامجه «التعايش السلمي».

الباب الثالث

الثقف و التلقين

عالمی تعلیم

تعلیم و تربیت

من المؤكد أن الدعاية الضخمة هي أحد العناصر الرئيسية في ترسانة الحرب الثورية السوفييتية.. جهاز مارديستخدام مئات الآلاف من أصحاب الاجور أو العملاء المتطوعين، ويتكلف هذا الجهاز أكثر من بليون دولار سنويا. ويدين السوفييت له بالكثير الكثير!.

وليست الدعاية السوفييتية مجرد عملية خارجية، بل يوجه جزء كبير منها الى الداخل.. إلى المستمعين الشيوعيين، حيث تقوم باتهام الغرب بأنه يعد لتطويق الاتحاد السوفييتي، أو تصور الولايات المتحدة بأنها قوة امبريالية، تعتمد على قوتها السياسية والاقتصادية في السيطرة على حلفائها.

والحق أن الدعاية أو الاثارة سمة خاصة للنظام الشيوعي، ومن ثم انشئت ادارة خاصة اطلق عليها «إدارة الدعاية والاثارة»، وهي جزء من جهاز الحزب الشيوعي يقع تحت الإشراف المباشر للجنة المركزية للحزب. كما أن الدعاية والاثارة ترتبطان ارتباطا وثيقا بتدريب المستويات المختلفة من الأفراد وتوعيتها، ووظيفة أعضاء الحزب من العمال ضم الكوادر أو الرجال الرسميين في الحزب وفي الحكومة.

على أن الدعاية الشيوعية التي توجه إلى شعب مقهور يقع تحت وطأة الشيوعية، تتسم بطواع معينة، وتشمل موضوعات منها برامج

« الرفاهية الاجتماعية »، وبرامج تحرير المرأة، والعمال، هذا بالإضافة إلى الوعود التي تبذل إلى صغار السن ولآبائهم حول زيادة فرص التعليم للأبناء، وحول التقدم الاجتماعي للجميع. كذلك استخدم برنامج توزيع الأراضي الزراعية، والأيدولوجية الشيوعية، والقومية؛ في الدعاية الشيوعية لجذب أكبر عدد من الأفراد نحو القضية الشيوعية.

ومن ناحية أخرى، استخدم الجواسيس والشرطة السياسية للسيطرة على أفراد الشعب الذي تعرض للغزو الشيوعي، وصاحب ذلك احتكار وسائل الاتصال الجماهيري، واستخدام الضغوط السافرة للسيطرة على السكان.

وينبغي ألا نغفل أبعاد الدعاية الشيوعية في زمن الحرب ضد الدول المعادية لها، فقد ثبت أن للشيوعيين تجربة متقنة في هذا المجال. كما أن احتكارهم لهذه الدعاية يشكل صورة خاصة لحرهم الثورية.

على أن هناك موضوعا حيويا، لا يمكن لصورة الحرب الثورية الشيوعية أن تكتمل دون أن نسر أغواره، ذلك هو دور الحزب الشيوعي وتنظيماته في الجبهة العسكرية سواء من ناحية تثقيف القوات المسلحة الشيوعية في تلك الجبهة، أو من ناحية مدى العلاقة بين رجال الحزب والمقاتلين، وهو شيء ينفرد به النظام الشيوعي.

ومن ثم يثير هذا الباب أربعة موضوعات هامة، وقد عقد الفصل الأول منه كي يشرح الدعاية والاثارة في الحرب الثورية ويتحدث عن وظائف الدعاية، وعن مستويات التدريب المرتبطة بها. أما الفصل الثاني فيوضح الطوابع الشيوعية للدعاية والسيطرة، وقد اخترنا للدراسة. نموذجا هو الحرب الكورية عام ١٩٥٠، حيث بينا سبل الدعاية الشيوعية والسيطرة كذا وسائل التثقيف بالعقيدة الماركسية. التي اتبعتها الشيوعيون هناك.

وفي الفصل الثالث انتقينا منظمة «اللجنة الوطنية للألمان الاحرار» لتكون نموذجا لدراسة الدعاية السوفيتية في الحرب الثورية.

وختمنا هذا الباب بالفصل الرابع منه حيث تحدثنا عن دور الحزب الشيوعي في الجبهة العسكرية.

الفصل الأول

الدعاية والإثارة في الحرب الثورية

يبدل البلاشفة مجهودا كبيرا - نظريا وعمليا - للتمييز الدقيق بين الدعاية والإثارة. وعلى الرغم من أن المعاجم تميز بين الدعاية والإثارة إذ تقول: «إن الدعاية هي نشر المبادئ والأفكار، أما الإثارة فهي تحريض الناس على عمل تلقائي»، فإن هناك مناقشات كثيرة تضمها المطبوعات الشيوعية التي كتبت في هذا الموضوع. ويشتق البلاشفة الفرق بين الدعاية والإثارة من التعريف الذي أطلقه «بليكانوف» إذ يقول: «إن القائم بالدعاية يقوم بتقديم أفكار كثيرة لواحد أو لعدد قليل من الناس، بينما القائم بالإثارة يقوم بتقديم فكرة واحدة أو أفكار قليلة لعدد كبير من الناس».

ضرورة التمييز بين الدعاية والإثارة:

وقد تقبل لينين هذه التفرقة بين التعبيرين واعتبرها جوهرية. ولتوضيح الفرق بين دوريهما أخذ مشكلة البطالة مثلا فقال: «إن رجل الدعاية يعالج الموضوع عن طريق تقديم عدة أفكار مركبة، وسوف تكون الأفكار كثيرة بحيث لا يفهمها إلا عدد قليل من الناس. أما الشخص الذي يعمل في ميدان الإثارة فهو يختار - كنقطة للبداية - حقيقة تكون معروفة للغاية، مثل موت أسرة عامل من الجوع، أو ازدياد نسبة الفقر بين العمال. وهو يستغل هذا المثل البسيط ليؤثر على مستمعيه للإيمان بفكرة واحدة، مثل فكرة التناقض الذي لا مبرر له بين ازدياد الثروة وازدياد الفقر، هذه الفكرة الواحدة يتخذها الشخص أساسا لمحاولة لإثارة السخط في نفوس الجماهير».

ويرى لينين في مجال استكمال هذا التفسير أن الذي يقوم به هو الشخص الذي يعمل في مجال الدعاية .

ووفقا لآراء لينين، قد تبدو مرفوضة تلك الفكرة التي تقول إن الدعاية هي أساسا شرح مشكلة من المشاكل، وإن الإثارة هي الدعوة إلى العمل . يقول « إن الكاتب النظري الذي يكتب بحثا عن سياسة التعريف أو الأسعار، يدعو إلى التجارة الحرة بحماس لا يقل عن حماس العامل في ميدان الدعاية، فيكتب في الصحافة، أو عن حماس العامل في ميدان الإثارة فيقوم بالقاء الخطب . أما آخر مرحلة في العملية، فهي تحرير ملتمسات يوقع عليها عدد كبير من الناس . ويستطرد لينين قائلاً: « إن الدعوة إلى العمل تأتي من الكاتب النظري مثلما تأتي من القائم بالدعاية، ومثلما تأتي من القائم بالإثارة عن طريق الملتمسات .»

واستندت المناقشات السوفييتية التي تمت بعد ذلك الى تحليل لبليكانوف ولينين، اذ وجها النقد إلى القول بأن فرض الإثارة هو التحريض . كذلك لم يتقبلا الفكرة التي تقول إن الفرق بينها هو في الوسيلة المتبعة . ويقول لينين أيضا: « إن الكلمة المكتوبة هي الأداة الأساسية للدعاية، بينما الكلمة الشفوية هي الأداة الرئيسية للإثارة .» ولكن هذا لا ينطبق على جميع الحالات، فقد تكون الدعاية أو الإثارة مكتوبة أو شفوية . فإذا أقيمت محاضرة مثلا عن سياسة لينين فهي بالنسبة للدولة لا تقل قيمة كعمل دعائي عن مقال مكتوب في صحيفة عن نفس الموضوع . كما أن مقالا صحفيا يدعو إلى زيادة إنتاج العامل، لا تكون إثارته أقل من نداء شخص يوجهه مثير حزبي في مصنع .»

وبغض النظر عن التفرقة السابقة، فإن السوفييت يفرقون بين المعنيين، فيأخذون كلمة دعاية من التعبير الذي كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تستخدمه، فتعرفها الكتب السوفييتية على أنها تلقين فكرة أو مبدأ، مع محاولة كسب المؤيدين لهذه الفكرة أو هذا المبدأ .

أما الإثارة فهي أداة في النضال السياسي بين الأحزاب وبين الطبقات، وقد يستخدمها أي حزب سياسي لتنظيم قوى هذه الطبقة، ولجذب حلفاء من الطبقات الأخرى لتأييد الحزب أو الطبقة الأولى، وهذه الفكرة مأخوذة

مباشرة من المفهوم الماركسي الجوهري للبناء الاجتماعى الأيديولوجى فوق العادى، الذى يقام على اساس نظام اقتصادى معين أو طريقة انتاج معينة. ولما كان فى الامكان استخدام كلمتى «دعاية» و «إثارة» فى هذا المعنى العام، كان من الضرورى التفرقة بين أنمطة الدعاية والإثارة طبقا للطبقة او الجماعة الاجتماعية التى تستخدمها.

ويميل الكتاب السوفييت إلى استخدام هاتين الكلمتين بطريقة محددة جدا. فهم يتحدثون عن الدعاية البورجوازية والإثارة البورجوازية، والدعاية الشيوعية والإثارة الشيوعية. فمثلا تعرف الدعاية الدينية بأنها «كمظهر من المظاهر الهامة للنشاط السياسى للطبقة الحاكمة، يمارس بواسطة الكنائس والجمعيات التبشيرية والمدارس كوسيلة لإخضاع الجماهير روحيا». وبالمثل تُعرف الإثارة البورجوازية: «كنوع من الخداع السياسى للجماهير، وطريقة لذر الرماد فى عيونهم، حتى يعميهم ذلك عن رؤية ما هم فيه من استبداد واستغلال».

والمفروض أن الدعاية والإثارة قد تحولتا الى شىء آخر مختلف على يد البلاشفة. فتعرّف الدعاية الشيوعية بأنها: «الشرح الوافى لتعاليم ماركس وانجلز ولينين وستالين وتاريخ الحزب البلشفى وأعماله». وهى على هذا الاساس، ينظر إليها على أنها أهم نشاط يقوم به الحزب. إن الدعاية الماركسية اللينينية هى التى تسلح بالنظرية اللازمة، وبمعرفة القوانين الماركسية التى تحكم تطور المجتمع وتطور النضال السياسى. إذن، توجه الدعاية الشيوعية أولا نحو الطبقات المتقدمة فى المجتمع، ونحو أعضاء الحزب، ونحو المتعلمين من غير أعضاء الحزب، ونحو القادة والمديرين والمسؤولين فى كل مجالات الحياة الوطنية.

أما الإثارة الشيوعية فتعرف بأنها: الوسيلة الرئيسة لتلقين جماهير الطبقة العاملة تلقينا سياسيا عن روح الشيوعية». ولذلك فهى توجه أول ما توجه نحو الجماهير، وتعمل على تعريفهم بشعارات الحزب وقراراته، وهى تشرح سياسة الحزب وسياسة الحكومة، وتعبئ كل العمال للمساهمة بشكل ايجابى واع فى بناء النظام الاجتماعى الجديد.

ويعرف التفكير البلشفي الماركسية اللينينية بأنها: « نظام فلسفي ومجموعة من المبادئ العلمية، تتولى شرح تطور النظم الاجتماعية، وتتولى توجيه لتحقيق العمل الثورى وبناء المجتمع الشيوعى». ولتحقيق هذه الثورة ولبناء المجتمع الجديد، ينتظر من جماعة صغيرة من الرجال التقدميين ذوى الوعي الطبقي العالى، والذين تضمهم هيئة على درجة كبيرة من التنظيم، أن يتولوا القيادة. ويحكم أعمال هؤلاء القادة مجموعة من المبادئ هى الماركسية، التى ينبغى أن يقوموا بدراستها وفهمها واستيعابها. وتمثل عملية التعليم عبارة « دعاية الماركسية اللينينية »، ويطلق على الرجال الذين يقومون بعملية التعليم « الدعاة ».

ومن الواضح أن جماهير الشعب لا ينتظر أن يلما إماماً تاماً بمبادئ الماركسية، وقد سبق أن أعلن ستالين أن بعض أعضاء الحزب قد لا يتقنون فهم برنامج الحزب. وتطالب النظرية البلشفية أن تتشرب جماهير الشعب روح المبدأ الماركسي، كما يسمح بذلك مستواهم. كذلك يتطلب مفهوم القيادة أن تعرف الجماهير بأعمال القادة وأن تشرح لهم. إن عملية التعليم والشرح يتولاها القائم بعمل الاثارة. غير أنه كى يستطيع أن يعلم الجماهير، ويشرح لهم أعمال الحزب، ينبغى أن يكون هو نفسه متفهما لهذه المشاكل، ملما بالمبادئ الأساسية للماركسية. ان المثير - فى الوقت نفسه الذى يلعب فيه دور المعلم للجماهير - هو ذاته دارس يعمل تحت توجيه القائم بأعمال الدعاية. وهكذا تقفل الدائرة، فالدعاية تقوم بتخريج الأعضاء التقدميين وقادة الجماهير والمثيرين والمنظمين، الذين يقومون بدورهم بتوصيل رسالة الحزب للشعب عن طريق الإثارة.

وظائف الدعاية

إن أبسط وأوضح وظيفة للدعاية هى تهيئة الجو للإثارة الناجحة، ونتيجة لذلك تعاون الحزب فى قيادته العامة للجماهير. وليست الإثارة فى الاتحاد السوفييتى بالعملية المؤقتة التى تتم فى أوقات متفرقة، ولكنها عملية مستمرة ونشاط منظم تنظيماً دقيقاً، يقوم بها رجال متخصصون مدربون عليها تدريباً كاملاً. وليست عملية الإثارة قاصرة على المثير البلشفي العادى، ولكنها عمل

يضطلع به محررو الصحف والكتاب ومذيعو الراديو وصانعو الأفلام والفنانون وغيرهم. ولما كان هؤلاء جميعا مكلفين بمسئولية تثقيف الشعب سياسيا، وشرح سياسة الحزب للجماهير، فيجب والحالة هذه أن يكونوا هم أنفسهم مثقفين سياسيا تثقيفا عاليا. وينبغي أن يكونوا متفهمين تماما لسياسة الحزب والحكومة، وللأسباب التي تدعو إلى اتخاذ مثل هذه السياسة، ولهذا كان جهاز الدعاية في الحزب موجها إلى حد كبير نحو تزويد هذه الجماعات بالتربية الماركسية، واحاطتهم علما بكل التطورات الجارية، فنجد الصحفيين مثلا يلتحقون بالمدارس نفسها التي يحضرها الذين يعدون انفسهم للعمل في ميدان لدعاية.

مستويات الدعاية اللينينية الماركسية

وفي الوقت الحاضر، يقوم الحزب الشيوعي بأعمال الدعاية على ثلاثة مستويات مختلفة، ولكل مستوى اهداف مميزة وطرق خاصة للتوعية. هذه المستويات المعنية هي: الطبقة المثقفة، وأعضاء الحزب من العمال، ثم الكوادر أو الرجال الرسميين في الحزب وفي الحكومة، الذين يعملون في مجالات الحياة القومية العليا.

الطبقة المثقفة

ويشكل الطبقة المثقفة المحامون والأطباء والمهندسون والاقتصاديون والمدرسون... الخ، ويميزون بحصتهم من التعليم المتقدم. ولذلك يحاول الحزب أن يحدد اهدافا ويطبق وسائل معينة في المدارس العليا التي يلحقون بها للتدريب على الماركسية. لقد صرح ستالين بأن هناك فرعا واحدا من العلوم يجب أن يلم به كل البلاشفة، هو الماركسية اللينينية. ويسرى هذا على الأطباء المتخصصين وعلماء الطبيعة، كما يسرى على رجال الاقتصاد والسياسة، سواء منهم أعضاء الحزب أو غير أعضاء الحزب. لذلك كان على كل مركز دراسي في الاتحاد السوفيتي أن يوفر - كحد أدنى - دراسة مبنية على كتاب «مجمّل تاريخ الحزب». وعلى نحو ما يُعدّ الطلاب في الكليات المختلفة، ينبغي عليهم أن يدرسوا منهاجا عاما عن «أسس الماركسية اللينينية». وفي الجامعات والمعاهد

التي بها كليات للتاريخ أو الفلسفة أو الأدب، يجب على الطلاب أن يدرسوا مناهج في المادية التاريخية. أما من يظلمون بتدريس هذه المناهج، فيختارون على أساس المشاور بين إدارة الدعاية والإثارة وبين المسؤولين الحكوميين عن التعليم العالي، بعد ان يتلقوا تدريباً في المدرسة الماركسية اللينينية العليا، التي تشرف عليها اللجنة المركزية للحزب.

وبالرغم من أن التوعية الماركسية تمثل أقصى مجهود يبذله الحزب، فهي بالنسبة للطبقة المثقفة لا تقف عند منهج أو منهجين على مستوى المدرسة العليا. فمن أن لآخر عندما يقوم الحزب بإحدى حملاته الخاصة بالدعاية الأيديولوجية تلتحق أعداد كبيرة من رجال الطبقة المثقفة بالمدارس الخاصة مثل المعاهد الماركسية اللينينية المسائية التي انتشرت بسرعة منذ نهاية الحرب الأخيرة في المدن الكبرى مثل موسكو وكييف، حيث يتركز معظم الطبقة المثقفة. وتدرس هذه الجامعات اللينينية القائمة في المدن الكبرى، منهجا دراسيا يستغرق عامين وتمنح شهادة في آخرها.

إن برنامج الدراسة بها واحد من ثلاثة: التاريخ أو الفلسفة أو الاقتصاد، كما أن معظم الدارسين من الطبقة المثقفة.

وتركز نوعية الخريجين من الطبقة المثقفة على نظام المحاضرات العامة، التي تستهدف إحاطة هذه الجماعة بتفكير الحزب الجاري في المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويتبع الحزب مكاتب خاصة للمحاضرات تضم مع الهيئات الحكومية الماثلة أساتذة جامعيين وأقطاب الحزب لإلقاء هذه المحاضرات. كما أن الصحافة السوفيتية اليومية تخصص عناية كبرى للحاجات الأيديولوجية لقراءها من أبناء الطبقة المثقفة، وتشترك المجلات الفنية في هذا الميدان.

إن هدف هذه التوعية هو الحيلولة دون نشأة أيديولوجية مستقلة خطيرة بين المتعلمين وبغض النظر عن التصريحات الجوفاء فإنه لا يمكن أن يصبح عالم الطبيعة أو عالم النبات أكثر كفاية نتيجة لتوعيته الماركسية. إن تأثير هذه التوعية على العلم غير محدود، أما تأثيرها على الفن فغير مشكوك فيه.

ومن الصعب أن نقرر مدى عمق تغلغل الروح الماركسية في نفوس أغلبية طبقة المثقفين. وواضح أن كل أخصائي يجب أن يلم بما يكفي لتجنب الوقوع في خبيثة الانحراف. فالعالم الاجتماعي - كالاقتصادي أو المؤرخ - يحتاج إلى معرفة أكثر وحذر أكبر مما يحتاجه العالم البيولوجي أو النباتي - ولو أن الأخير يمكن أن تكون لديه المناعة ضد ذلك.

فالأخصائي الفنى المتوسط يواجه المشكلة ولكن بصورة نادرة، فطالما كان مواليا للماركسية فلهذه الحرية في أن يتمتع بمزايا الوضع الاجتماعي والاقتصادي المرتفع. فلا يطالب بأن يتحمس في إيمانه بالمبدأ، وإنما يكفي فقط أن يبتعد عن الاتحاد بالمذهب.

أعضاء الحزب من العمال

أما المستوى الثانى الذى يوجه الحزب نحوه مجهوداته فى ميدان الدعاية فهو أعضاء الحزب من العمال. وتعلن قواعد الحزب أن الواجب الاول لكل عضو هو أن يحاول اتقان مبادئ الماركسية اللينينية. ولقد ازداد موضوع التوعية تعقداً، نتيجة الزيادة الضخمة فى عضوية الحزب من العمال الذين كانوا قد تلقوا توعية سطحية بعد انضمامهم أثناء الحرب العالمية الثانية. ولجابهة هذا الوضع، قام الحزب باتخاذ الاجراءات الخاصة الكفيلة بإعادة تنظيم نظام التعليم والتدريب لأعضاء الحزب الجدد.

أما الأعضاء الذين كان حظهم من التعليم العام محدوداً، فكان عليهم أن يحضروا دراسات عامة فى مدارس ليلية تديرها هيئات الحزب، حيث يدرسون قواعد الحزب ودستور الاتحاد السوفييتي، وحيث يحسنون مستواهم التعليمي العام. وتحدد هيئات الحزب فوق ذلك ثلاثة مستويات لتدريب أعضاء الحزب من طبقة العمال، فيتعلمون التربية الشيوعية فى المدرسة السياسية، ويستمر منهج الدراسة مدة تسعة شهور، ويتطلب من الدارس ساعة ونصفاً كل اسبوع. ويقسم المنهج إلى موضوعات أساسية: البناء الاجتماعي للاتحاد السوفييتي - ويدخل فى ذلك الدستور - مشاكل الخطة الخمسية بعد الحرب، قواعد الحزب. ويقوم بالتدريس القائمون بأعمال الدعاية، من هيئات المدينة وهيئات الحي، ومن

الزعماء ومن أعضاء طبقة المثقفين.

ويلتحق المتخرجون من هذه المدارس السياسية بحلقات الدراسة، حيث يدرسون « تاريخ الحزب وفقا للخطة التي وضعتها اللجنة المركزية في وقت نشر الكتاب عام ١٩٣٨. ويقوم بالتدريس في هذه الحلقات الدراسية العاملون في حقل الدعاية. وعلى الرغم من الجهود الذي يبذله الحزب في هذه المدارس والحلقات الدراسية، فإن الحزب يردد دائما قراره في نوفمبر عام ١٩٣٨ القائل: بأن الدراسة الذاتية أو الدراسة الفردية هي أفضل وأهم شكل للتوعية السياسية. ومن ثم يقوم الحزب بطبع كميات ضخمة من مؤلفات ماركس وانجلز ولينين وستالين مع تعليقات وتفسيرات المعلقين والمفسرين، وتباع بأسعار زهيدة^(١).

وفضلا عن ذلك تخصص الصحف المركزية والصحف المحلية، كادرات خاصة او اعمدة خاصة لمناقشة المادة المعدة، لمعاونة اولئك المشتغلين بالدراسة الخاصة أو الذاتية للماركسية. وتساهم في هذه الناحية أيضا صحف الحزب المنتظمة. وأخيرا هناك « مكاتب الحزب أو غرف الاستشارة » التي تحتوى على مكتبات للأعضاء، وبها عدد كبير من رجال الدعاية، والذين يقومون بتقديم العون والنصيحة للطلاب.

إن الأهداف الحالية لدعاية الحزب أكثر تحديدا من الأهداف التي كان الحزب يحددها في أول مراحل تكوينه. فلم تعد عضوية الحزب تتطلب بالضرورة أن يتقن المرشح فهم برنامج الحزب. وقد أعلن ستالين عام ١٩٣٧ « أن الشخص الذي تفهم برنامج الحزب، يمكن ان يوصف بأنه ماركسي » وأضاف قوله: إن عدد الذين ينطبق عليهم هذا الوصف في الحزب قليل. واذا اتبعت هذه المبادئ بدقة لأصبح كل أعضاء الحزب من المفكرين والعلماء. « أما زدانوف

(١) في مدى عام واحد من طبع كتاب « تاريخ الحزب » بيع منه ١٢،٠٠٠،٠٠٠ باللغة الروسية و ٤،٠٠٠،٠٠٠ باللغات الأخرى. ويبلغ عدد الكتب التي تعالج موضوع الماركسية اللينينية في المدة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٧ حوالي ٧٣٧،٠٠٠،٠٠٠ نسخة.

فيوضح ذلك عام ١٩٣٩ بقوله: « إن قبول برنامج الحرب وقواعده، ودفع اشتراكات العضوية والعمل داخل نطاق إحدى هيئات الحزب - هي الشروط اللازم توافرها لعضوية الحزب. أما إتقان الماركسية، فهو وإن كان لازماً للعضو إلا أنه ليس شرطاً للعضوية ».

وتشير الناحيتان النظرية والعملية للحزب، إلى أن العمل الأساسي لعضو الحزب العادي هو المعاونة في تنفيذ السياسة التي أقرها القادة، وأن يكون مثلاً يحتذى لبقية الشعب. وتُعرّف مدرسة الحزب التي تعد العضو، بأنها مدرسة لتدريبه على الولاء للحزب، والخضوع للنظام البلشفي، ومهمتها الأساسية تشكيل وجهة نظر العضو الشيوعية، بمعنى أنها تزوده: « بمعرفة قوانين التطور الاجتماعي والنضال السياسي، وتعاونه أن يشق طريقه في الحياة، وتساعد على أن يلعب دوره كقائد ومنظم للجماهير ».

على أن من بين أهم أوجه نشاط أعضاء الحزب، العمل في ميدان الاثارة بين الجماهير، بغرض نقل وشرح قرارات الحزب للشعب، وتعبئته لتنفيذ هذه القرارات.

إن أهم ما يحتاج إليه العضو «المثير» بالإضافة إلى فهمه النظرية الماركسية، هو معرفة قرارات الحزب والأهداف التي يركز عليها الحزب سياسته، ومعرفة كيفية معالجة الحزب لهذه المسائل.

كوادر الحزب

أما المستوى الثالث في نشاط دعاية الحزب - والذي أصبح في السنوات الأخيرة أهم المستويات - فهو التدريب الايديولوجي لكوادر الحزب، أي لموظفي الحزب في الهرم الوظيفي ولأولئك الذين يمثلون الحزب في الحكومة وفي الصناعة وفي التجارة وفي نقابات العمل وفي التعاونيات وفي الجيش وغيرها من الهيئات. ومن المسلم به في الاتحاد السوفييتي أن فن البلشفية يقتضي المعرفة النظرية: معرفة قوانين التطور والتنمية... والثورة البروليتارية.. كما يتطلب القدرة على استغلال هذه القوانين في عملية توجيه البناء الاشتراكي.

مراحل التدريب

وكانت أول مرحلة من مراحل نظام الحزب المعدّ لتدريب أعضائه، هي مدارس الحزب في الأحياء التي يبلغ عددها الآلاف، ويصل عدد الدارسين فيها الى مئات من الأفراد، وتعمل هذه المدارس تحت إشراف منظمات الحزب في الحى والمدينة، لتدريب من يعملون في المستويات الدنيا. ويتكون الدارسون من سكرتيري الحزب الأول، وهيئات الكومسومول، كما أن هذه المدارس تضم العمال في جهاز الحكومة المحلي. وتعدّد الدراسات في المساء مرة أو مرتين في الأسبوع ولدة ثمانية شهور. ويشمل البرنامج دراسة مدة ١٦٠ ساعة داخل حجرات الدراسة وخارجها، وهذه الساعات موزعة بين دراسة تاريخ الحزب (٨٠ ساعة) وجغرافية الاتحاد السوفييتي وبقية العالم (٤٢ ساعة) والخطة الخمسية (١٤ ساعة) وتشكيل الحزب والدولة السوفييتيه (٢٤ ساعة).

أما رجال هيئات الحى وهيئات المدينة، فيتلقون تدريبهم في مدارس تتولى إدارتها الوحدات الاقليمية والجمهورية، ومدة الدراسة في هذه المدارس سنتان، وذلك لتدريب سكرتيري الحزب وسكرتيري الكومسومول، والمشتغلين بالدعاية، ومحرري الصحف، وموظفي الحكومة على مستوى الحى أو المدينة، ويتضمن منهج الدراسة تاريخ الحزب، وتاريخ الاتحاد السوفييتي، والتاريخ العام، والاقتصاد السياسي، والمادية التاريخية، والسياسة السوفييتيه الخارجية، والعلاقات الدولية، وجغرافية الاتحاد السوفييتي الاقتصادية والسياسية، والأساس الذي يرتكز عليه الاقتصاد السوفييتي، وتشكيل الحزب. وإلى جانب الناحية النظرية، فهناك الناحية العملية المتصلة بالمشروعات الاقتصادية. وهناك كليتان: واحدة لكبار الموظفين السوفييت، والأخرى لموظفي الحزب. وإلى جانب الدراسة التي تستغرق سنتين، ثمة دراسة تنشيطية يشترك فيها الدارسون الذى يشغلون فعلا وظائف ادارية في منظمات المدينة أو الحى، وتوجد المدارس في المدن الكبرى حيث يتوافر الأساتذة وكبار المحررين وغيرهم.

ولاستكمال عملية هذا النظام التعليمي، تعقد ندوات لمدة عشرة أيام

لإحاطة الأعضاء بتطورات السياسة السوفييتية في الداخل وفي الخارج، وتطور الخطة الخمسية، والمشكلات الأيدولوجية والثقافية، ولتشجيع عملية تبادل الخبرات في أعمال الحزب على مستوى الحزب والمدينة.

وهناك مدرسة عليا تابعة للحزب وتشرف عليها اللجنة المركزية لتدريب كبار رجال الحزب والحكومة، والمشتغلين بالدعاية، والصحفيين الذين سوف يعملون على المستوى الجمهوري والإقليمي. وتعد في هذه المدرسة دراسة تستغرق ثلاث سنوات في كل من كليتيها الحزبية والسوفييتية، كما تعقد دراسة تنشيطية مدتها تسعة شهور، وينتظم فيها الأشخاص الذين يتولون مناصب ذات مسؤولية، والمنهج الذي يدرس بها مشابه للمنهج الذي يدرس في المدارس ذات المستوى الإقليمي، مع إضافة بعض المواد مثل المنطق والقانون. ويرشح للالتحاق بهذه المدرسة من أكملوا على الأقل الدراسة بالمرحلة الثانوية، أو من يجتازون امتحانا يعادل مستوى امتحان المرحلة الثانوية، كما ينبغي أن تكون لديهم خبرة إدارية عملية مع الحزب أو الحكومة. وعند الانتهاء من الدراسة يعقد لهم اختبار عام ويحصلون باجتيازه على دبلوم يعادل الشهادة التي تعطى من معهد نظامي عال.

وبجانب مدرسة الحزب العليا تدير اللجنة المركزية للحزب أكاديمية للعلوم السياسية بدأت عملها في نوفمبر عام ١٩٤٦. وعلى عكس المدرسة العليا، تدرب هذه الأكاديمية العمال تدريبا نظريا، وتعدهم للهيئات المركزية والجمهورية والإقليمية التابعة للحزب. وتستمر الدراسة المنتظمة مدة ثلاث سنوات، وتخصص السنة الأخيرة لإعداد رسالة. كما أن هناك دراسة تنشيطية مدتها تسعة شهور، ويجب على طلاب الأكاديمية أن يتمتعوا بتعليم مساو للتعليم العالي. ويبلغ عدد الدارسين للحصول على درجة عالية حوالي مائة، بينما يبلغ عدد الملتحقين بالدراسات التنشيطية بضع مئات وتكون هيئة التدريس في الأكاديمية وفي مدرسة الحزب العليا، من كبار رجال الحزب، ومن الأساتذة البارزين، ومن العلماء النظريين، ومن كبار محرري الصحف في الاتحاد السوفييتي وواضح ان هذه المدارس لا يقتصر عملها على دراسة الكتابات الماركسية

اللينينية. وهي ليست عبارة عن مدارس للتوعية الماركسية، ولكن الغرض هو إعداد كوادر الحزب والحكومة. ولهذا السبب نجد أن مناهج الدراسة بها لا تتضمن دراسات عن الماركسية اللينينية فحسب، ولكنها كذلك تتضمن دراسات عملية للإدارة والمحاسبة، كما تتضمن دراسة تاريخ الحزب، وتطور السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي. وهكذا يسعى الحزب عن طريق تدريب كوادره تدريباً ايدولوجياً أن يجعل منهم ماركسيين من الطراز الاول، فضلاً عن أنه يخلق منهم موظفين أكفاء عن طريق توعيتهم الماركسية.

الخلاصة

يقود الحزب الاتحاد السوفييتي ويوجهه خلال جهاز ضخم واسع، يتكون من هيئات عامة وهيئات حكومية يشرف أعضاء الحزب عليها. وهناك ما يوصل بين مركز التخطيط ومركز إصدار القرارات في موسكو، وبين مندوبي الحزب في جميع أنحاء البلاد وفي جميع فروع الحياة المختلفة. ولما كان أى جهاز مهما يكن حجمه يتعرض إلى الخطأ والارتباك وأحياناً الى الإنهيار، فضلاً عن أنه قد لا يستطيع أن يفي في كل موقف عارض، كان لزاماً على أولئك الذين يعملون قرب السطح أن يتفهموا جيداً الأهداف العامة، وطرق التفكير التي يعمل بها أولئك الذين يعملون في المركز، كما يتطلب الأمر معرفتهم بالسياسات الخاصة والقرارات. وينبغي أن تكون لديهم القدرة على أن يكتفوا أنفسهم حسب المواقف التي تعرض، وأن يتصدروا القرارات دون حاجة لأن يتلقوا بشأنها تعليقات في كل حالة

هذا وحده هو الذي يعيننا على فهم معنى ملاحظات ستالين التي ابداهها للمؤتمر الثامن عشر للحزب بشأن موضوع دعاية الحزب، إذ يقول: «لا يكفي تنظيم تكوين الحزب، ولا تدعيم الصلة بين الوحدات العليا والوحدات الدنيا فيه، كذلك لا يكفي اختيار الموظفين بدقة وتعيينهم. لأنه إذا كان هناك نقص في تدريب الكوادر تدريباً ماركسياً لينينياً، وإذا عجز هؤلاء عن فهم حقيقة قضيتنا، وتحولوا الى مجرد منقذين لا رأى لهم، فما لا شك فيه أن النتيجة تكون اخفاق عمل الحزب وعمل الدولة جميعاً».

ويستطرد ستالين قائلاً: «ويمكننا ان نقول بكل ثقة، إنه إذا نجحت دعاية

الحزب في النهوض بكوادره حتى يصبحوا ماركسيين لينينيين ناضجين ، قادرين على حل المشاكل التي تجابههم دون الوقوع في خطأ جسم ، يمكننا أن نقول أننا نستطيع ان نعتبر ان تسعة اعشار مشاكلنا قد حلت .»

ومن بين العوامل الأساسية التي كانت وراء ندائه بشأن تقوية عملية الشيوعية الأيديولوجية لكوادر العمال هو عمليات الإحلال التي أجريت عقب حركات التطهير التي تمت في منتصف الثلاثينات . وكان من نتيجة الانتخابات العامة في عام ١٩٣٨ ، أن نسبة الموظفين الذين تسلموا مناصبهم لأول مرة كانت تتراوح بين ٣٥٪ في اللجان التنفيذية لهيئات الحزب الاولية وبين ٦٠٪ في حالة اللجان الجمهورية والإقليمية . كذلك نشأت حالة مشابهة نتيجة للتغيرات التي طرأت على عضوية الحزب خلال سنوات الحرب . وقد أعيد تنظيم هذا النظام وتوسع فيه عام ١٩٣٨ ، وأعيدت العملية في السنوات التي اعقبت الحرب الاخيرة .

كان المجهود الذي بذل في العشرينات يهدف إلى توعية أكبر عدد ممكن من ابناء الشعب ، ولكن في أوائل الثلاثينات تركزت السلطة داخل الحزب في يد ستالين وجماعته المحددة العدد . وفي نفس الوقت كان من نتيجة الخطة الخمسية أن ظهرت الحاجة إلى التخصص ، الشيء الذي زاد من تعقيد أعباء الإدارة . وكان ظهور الرجل المثقف والفني المتخصص إحدى نتائجها أيضا . ومع حدوث هذه التغيرات في المجتمع السوفييتي وقعت تغييرات مقابلة في أنماط دعاية الحزب . وأصبح ينظر إلى التوعية الايديولوجية على انها وسيلة إلى غاية . واصبحت الغاية هي سيطرة الحزب سيطرة فعالة على الحياة الوطنية . وأصبح التدريب الماركسي محمدا في مجاله ، فلم يعد عضو الحزب العادي مطالبا بالتفقه في الماركسية . كان يكفي أن يفهم برنامج الحزب وسياسته وأن يعمل لتحقيقها . وحلت الطبقة المثقفة التي كانت قد ظهرت كقوة خارج نطاق الحزب ، محل العامل العادي ، فأصبحت هي محط مجهودات الدعاية السوفييتية .

وهكذا يمكننا ان نقول ان تنظيم جهاز دعاية الحزب في الوقت الحاضر يساير مسaire حرفية التفسير اللينيني الأصلي للإثارة بان هدفها الجماهير ، وان هدف الدعاية هو القلة او النخبة الممتازة ..

الدعاية السوفيتية في الحرب كسلاح في الحرب الثورية

لا شك أن أبعاد الدعاية السوفيتية لن تكتمل دون أن نلم بالمجهود الدعائي لشيوعي في زمن الحرب ضد دولة أو مجموعة من الدول المعادية. ولقد رأيت أن أفضل وسيلة لدراسة هذه المسألة، هو أن نتبع نمطا من أنمطة الدعاية استخدمه سوفيت في الحرب العالمية الثانية ضد المانيا. وفي الواقع فإن اللجنة الوطنية للألمان الاحرار، التي شكلها الروس خلال الحرب، تعد نموذجا طيبا لهذه الدراسة.

كانت الدعاية السوفيتية إزاء المانيا، مثل السياسة السوفيتية. تماما إزاء مسائل كثيرة، تحمل دلالة على مرونة صانعي السياسة السوفيتية، وهي مرونة يجدها كل من الشيوعي القح والمراقب الأجنبي مربكة إلى حد كبير. وقصة «الألمان الاحرار» في الحرب العالمية الثانية، تعطي بعض الإشارات عن أساليب الروس في الحرب الثورية.

إن استخدام موسكو للجنة الوطنية «للألمان الاحرار»، وعصبة الضباط الألمان في زمن الحرب، له أهمية خاصة لسببين: أولاً، لأن هذين التنظيمين خدما كمركبات تملك عنان مشاعر الألمان الوطنية لجانب السياسة الروسية. وثانياً، أن هذه القصة تعطي مثالا آخر لقيام صانعي السياسة السوفيت باختيار طريق التخلي عن العقيدة الماركسية اللينينية اذا ما ناسب ذلك احتياجاتهم.

ولم تكن مناشدات السوفييت للألمان الوطنيين شيئاً جديداً، وهي تذكرنا بخطاب «رادك» الشهير لمعاونة المجموعات الوطنية والعسكرية والرجعية، وقد جعل «ليوسكلاجيتر» شهيداً، بعد أن أعدم بواسطة قوات الاحتلال الفرنسية في الروهر بتهمة قيامه بأعمال التخريب. ومع ذلك فإن «سكلاجيتر» حارب ضد الشيوعيين في «فيلق متطوعي البلطيق».

ولنبدأ بأن نعرض في إيجاز النقط الرئيسية في تاريخ إنشاء اللجنة الوطنية للألمان الأحرار National komitee freies deutschland. لقد أنشئ هذا التنظيم في شهر يوليو من عام ١٩٤٣ بين أسرى الحرب الألمان في روسيا وحتى هذا الوقت، لم تلق محاولات المهاجرين الألمان الشيوعيين في روسيا - لتثقيف الأسرى الألمان بالماركسية، وتعريفهم بأفضال النظام السوفييتي - إلا استجابات إيجابية قليلة بين الأسرى. وكان إنشاء لجنة الألمان الحرة، بمثابة تحول شامل عن السياسة السابقة.

النداءات الوطنية تحل محل النداءات الشيوعية

اسقطت السياسة الجديدة الشيوعية كلية، وتبنت بدلا منها الوطنية الألمانية، مركزة على القيم التي زعم أنها المانية خالصة، والتي تعارض قيم هتلر الفاسدة التي أدت إلى تدمير المانيا. ولقد وجد الخط الجديد للدعاية آذانا صاغية بين الجنود والضباط على حد سواء، نتيجة أنها أعدت بمهارة، ونتيجة تقويض المعنويات الناتجة من الهزائم المذهلة عند ستالينجراد، التي جعلت أسرى الحرب الألمان أكثر استعداد للاستماع. وبينما انتهى اجتماع لأسرى الحرب الألمان عام ١٩٤١ بالهتاف بحياة ستالين، فإن المنظمين عام ١٩٤٣ تجنبوا بذلك الإشارة إلى أي شيء يمكن أن يستدل منه أن التنظيم ليس المانيا خالصا.

وفي الاجتماع الابتدائي للجنة الألمان الحرة في ١٢ من يوليو عام ١٩٤٣، قام المناضلون الشيوعيون من المهاجرين الألمان، مثل ولهم بييك، والتر أولبرخت، والشاعر اريك فينرت بمشاركة منصة الخطابة مع الكونت هنريك فون اينسيدل - وهو طيار حفيد بسمارك - والميجور متنز ضابط مهندس في الجيش الألماني. وشمل المتحدثون مدرسا بالمدارس العليا، واقتصاديا، وعامل بناء، ومفتش

بريد ، وطالب لاهوت ، وراعي كنيسة ، وعامل آلات ، ومؤلفا ، وقليلًا من الجنود المحترفين .

وقد وصف أحدهم وهو اللفتنانت « كارسيوس » ، أن تحوله عن قوات العاصفة جاء نتيجة رؤيته خيانة هتلر للقضية النازية ، لصالح رجال الصناعة وشركات الاحتكار . وكانت كلمته أقرب إلى العقيدة الاقتصادية الشيوعية من كلمة القائد الشيوعي « بيبك » أو كلمة الشاعر « بريديل » . وبدا الخط الجديد واضحا نتيجة اختيار خطباء غير شيوعيين ، ونتيجة التأكيد بأن اللجنة ليست شيوعية ، وفقا لما جاء بكلمات الشيوعيين القلائل الذين اشتركوا في القاء الكلمات . لقد اصبح الخط الدعائي هو « وطنية عام ١٨١٢ » . إن شبح الجنرال « يورك » ، و حرب التحرير عام ١٨١٢ ، استعيدا في البيان المثير الذي وجه إلى الشعب الألماني من اللجنة :

« إن تاريخنا يعطي لنا مثلا عظيما . فمنذ مائة وثلاثين عام ، حينما كانت القوات الألمانية لاتزال تقف على الأرض الروسية كأعداء لنا ، قام أفضل أبناء المانيا - فون ستين ، ارندت ، كلازوفيتز ، يورك ، آخرون بمناشدة وجدان الشعب الألماني ضد الحكام الألمان الخونة ، وناشدوا الشعب الألماني شن « حرب تحرير » .

وكان العلم المرفوع في هذا الاجتماع هو علم الامبراطوريات ذو الالوان الثلاثة الأسود - الأبيض - الأحمر ، تلك الألوان الخاصة بمجماعات اليمينيين في جمهورية ويمار . على أن جمهورية ويمار لم تتداول في الكلمات الافتتاحية ، ولا في دعاية لجنة المانيا الحرة .

وكان التركيز على الوطنية وبعض القيم الأخرى قد وجد قبولا واسعا بين الألمان الذين عاشوا ثماني سنوات في ظل التعليم النازي . وكان ذلك سببا أيضا في اختيار الجنرال فون سييدلتز سليل فردريك الأكبر ، و جنرال الفرسان المرموق ، رئيسا لعصبة الضباط الألمان . ولقد نظمت العصبة في سبتمبر من عام ١٩٤٣ وتكاملت فورا مع لجنة الألمان الأحرار . ولم يتبع الفيلد مارشال « باولوس »

اللجنة حتى انقلاب ٢٠ يوليو من عام ١٩٤٤ الفاشل، وما نتج عنه من معاملة وحشية لزملائه في هيئة الأركان العامة. وكانت رسالته التي نشرت في البرافدا في ١٤ من اغسطس عام ١٩٤٤، احدى العلامات الكبرى في دعاية العصبة. ولقد أدى إنشاء لجنة الألمان الأحرار إلى تشكيل مجموعات صغيرة سرية للألمان الأحرار في الرايخ. ووجدت أصدقاء واسعة بين اللاجئين الألمان في كل أنحاء العالم. وأخذت معظم المجموعات طابع الجبهة الشعبية، بكل منها نواة صلبة من الشيوعيين، ولكن فعاليتها كانت محدودة، نتيجة الحقيقة بأنها لم تكن على اتصال بالألمان الذين كان في امكانهم تغيير مجرى الحرب.

دعاية لجنة المانيا الحرة

كانت الحرب الثورية التي قامت بإدارتها لجنة موسكو شاملة بارعة وجيدة التخطيط^(١). ولقد أديرت بواسطة الكلمة المنطوقة والنشرات والصحف والإذاعة.

وكان الخطباء يرسلون إلى المعسكرات المختلفة في روسيا، ليتحدثوا مع اسرى الحرب. ويبدو أن نجاحهم كان وثيق الارتباط بحالة تعيين الجنود من الطعام، فإذا كان التعيين الذي يقدم للأسرى جيدا كافيا، بدت حالة الأسرى طيبة ومستعدة للاستماع. ولقد قرر أحد أعضاء عصبة الضباط الألمان أن عدد أعضاء لجنة المانيا الحرة قد بلغ في صيف عام ١٩٤٤ ما يقرب من ٧٥٪ من المجندين، ٤٥٪ من الضباط الذين اعتقلوا بواسطة الجيش السوفيتي.

وقامت اللجان المعتمدة في الجبهة Fronrtbevoll maechitgte بتنفيذ أكثر الأعمال أهمية في العمليات النفسية. كانت هذه اللجان بمثابة مجموعات صغيرة تتكون من فرق تضم كل منها فردين، ومجهزة بمكبرات صوت. وكانت هذه الفرق تذهب إلى خطوط الجبهة لتتحدث إلى الجنود الألمان عبر الأرض الحرام.

(١) معظم المادة المقتبسة في هذا الجزء عن الحرب الثورية للجنة ألمانيا الحرة، مستقاة من تقارير عن الحرب لإدارة مخابرات الإذاعة الأجنبية، FBIS التابعة للجنة الاتصالات الفيدرالية الأمريكية.

وكانت نداءاتهم عادة توجه إلى الهدف التكتيكي المباشر ، وهو إغراء الجنود الألمان على الاستسلام . وأخذت بعض الجهود في بعض الأوقات طابع الحملة . فعلى سبيل المثال ، حينما كانت عشر فرق المانية محاصرة عند « كورسون » ، قام عدد كبير من حاملي مكبرات الصوت برئاسة الجنرال فون سييدلتز ، و نفذوا ما أطلق عليه « الهجوم السياسي » ، محاولين الحث على الاستسلام الجماعي . وهكذا ادّعوا بأنهم انقذوا حياة ٢٠,٠٠٠ رجل ، كما تم هجوم مماثل عند « جيب شيركاسي » بتوجيه من الجنرال فون سييدلتز ، الذي بدوره كان يوجه من الكولونيل جنرال « شكيرباكوف » ، نائب القومسيير السابق للدفاع الوطني . لقد أرسل فون سييدلتز رسائل عبر خطوط الجبهة للجنرالين ليب Lieb ، ستيمر مان ، حاثا اياهما على الاستسلام ، ولكن لم تؤد هذه الجهود إلى أي نجاح .

وأسقطت ملايين من المنشورات على خطوط الألمان . ولقد رسم في إحداها صورة امرأة المانية كسرت قيودها ، لتطعن بسيف ضخم عنكبوتا يشبه هتلر ، وكان عنوان المنشور شعار « المانيا تستيقظ » Deutschland Eruvache كما أظهر منشورا آخر الكونت « اينسييدل » في زي الطيران الألماني Luftwaffe ، وقد أمسك بمنشور عليه صورة بسمارك التي كانت تعبر عن هيبته وأمله ، ومشيرا إلى هتلر المجنون قائلا : « هذا الرجل يقود ألمانيا نحو كارثة » . ويقول اينسييدل في المنشور « إن شن حرب على روسيا مجرد غباء ، ولا يهيء أي فرصة للنجاح إن هذا جدي العظيم « اوتوفون بسمارك » ، قال ذلك مرارا وتكرارا ، وينبغي على كل جندي ان يصبح كل يوم مقتنعا بصدق قوله » .

وأنشأت لجنة موسكو صحيفتها الاسبوعية « ألمانيا الحرة » Freies Deutschland التي بدأت تطبع في موسكو في ١٩ يوليو من عام ١٩٤٣ ، وكانت الصحيفة الوحيدة التي تظهر في معسكرات أسرى الحرب . وبعد بدء اللجنة عملها بقليل ، إدعت اذاعتها أنه تم اسقاط ٣,٢٥٠,٠٠٠ منشور ، وعدد مماثل من نسخ صحيفة ألمانيا الحرة فوق الجبهة وفي المانيا .^(١)

ووجهت الإذاعة من موسكو من محطة المانيا الحرة إلى المانيا أربع مرات يوميا، وفي بعض الأحيان ست مرات. وكانت إشارة افتتاح المحطة تبدأ بالنشيد الوطني « ديرجوت، ديرايسن واشسن لייس »

وتعني: « إله الكون يغسل الذنوب » Der Gott, Der Eisen Wachsen
ليس.تحقق.

وكانت جميع الإذاعات تغلق بشعار: « يجب أن تعيش ألمانيا، ولذا ينبغي أن يسقط هتلر، قاتلوا معنا في سبيل المانيا الحرة. »

ولاحظ وزير الدعاية الألماني جوزيف جوبلز هذه الدعاية، وأيقن أن النداءات ضد هتلر، لن تحقق في التأثير على الرأي العام. وكانت ملاحظات جوبلز الأخرى، ومظاهر غضبه من سييدلتز تشير إلى أن « ألمانيا الحرة » كانت تصيب أهدافها.

وعلى الرغم من أن جوبلز رحب بكثير من أعمال الحلفاء وبياناتهم كسبيل لتسهيل أعمال دعايته الخاصة، فإنه مدح أيضا إذاعات « جنود كالية » الخاصة بالحلفاء، التي كان مألها أن تصبح محطة المانيا.

وكان يبدو أن هيئة إذاعة محطة ألمانيا الحرة كبيرة الحجم. وكانت الإذاعات تسجل عادة على عربات استماع تتحرك إلى معسكرات أسرى الحرب بالقرب من موسكو. وقد قام الميجور « هتز » والميجور « هومان »، كذا كثير من الجنرالات فيما بعد بقيادة فون سييدلتز، بالتعليق على الموقف العسكري.

وكان الكابتن فليشر يعالج المسائل الاقتصادية، والكابتن « هاديرمان » يشرح الموقف السياسي والمسائل الثقافية والتعليمية. هذا غير آخرين مثل الليفتنانت كارسيوس، ضابط قوات « العاصفة السابق »، الذي تحدث في الإذاعة عن تحوله عن النازية، كذا قسيسين بروتستانت هما « ماتايوس كلين »، و« جوهانس سكرويدر »، وقسيس كاثوليكي، هذا بالإضافة الى ليفتنانت « كيوجلجن » رئيس تحرير من برلين، والبروفسير « ريوكر » أستاذ القانون المدني، كيسلر عامل من شميترز، الذي كان يخاطب غالبا الشباب الألماني.

وخلال هجوم الجيش الأحمر في صيف عام ١٩٤٤، أصبح عدد الجنرالات

الألمان الذي استسلموا كـبيراً، ومعادلاً لاستسلام جماعى. فقد أسر اثنان وعشرون جنرالاً فى فترة خمسة أسابيع. وفى ١٧ من يوليو عام ١٩٤٤، سار عشرون منهم فى موسكو على رأس قوات ضخمة من الأسرى. وانضم ثلاثون من مجموع السبعين الذين تم اعتقالهم إلى عصابة الضباط الألمان. وقام احدهم وهو، الليفتنانت جنرال « هوفميستر » قائد الفيلق المدرع الواحد والاربعين، بكتابة إتهام مؤذ ضد هتلر اذيع فى ١٩ يوليو من عام ١٩٤٤.

كان لهذا الحديث الذي اذاعه الجنرال « هوفميستر » أول ثلاث اذاعات شهيرة لجنرالات منحوا الفرصة للتعبير عن معارضتهم لهتلر.

واذيع بيان مشترك آخر فى ٢٩ يوليو من عام ١٩٤٤، بواسطة سبعة عشر جنرال الماني، من محنكى الحرب العالمية الثانية.

وفى ٦ من أغسطس استجاب الجنرالان « ليندمان »، و « فون كوروفسكى » للنداء الذى جاء به:

« إن جميع الجنرالات والضباط الذين يعون مسؤولياتهم يواحبون أحد بديلين: إما أن ينتظروا حتى تضحي هتلر بكل شىء، وإما أن يقاوموا الآن، ويضعوا حدا لنظامه، كى يهدوا لإنهاء الحرب ... إن ادولف هتلر وأتباعه يريدون استمرار الحرب فى ظل شعار « النصر أو الهلاك »... قاوموا هتلر! ارفضوا طاعة قيادته! إن الحرب ضد هتلر تعنى القتال فى سبيل المانيا! »

وفى ٢٨ من اكتوبر عام ١٩٤٤، أذاع الفيلد مارشال باولوس نداء ثالثا بنفس الاتجاه. فقام بمهاجمة هتلر وهملر على إستقراطيتها واكاذيبها وعلى قيادتها الشعب الألماني نحو الخراب.

نداءات رائدة للجنة المانيا الحرة

كانت محطة ألمانيا الحرة فى موسكو من بين محطات الإذاعة التى كانت خدمة مخابرات الاذاعة الاجنبية FBIS تستمع إليها. وكانت تقاريرات « الفبيس » اليومية تعد مادة يمكن منها استنباط منهج الدعاية السوفيتية. ويمكن استخلاص ست مباحث أساسية من هذه التقارير، تعد الأربعة الأولى منها أكثر

ثقلا، ويمكن ان نضعها تحت العناوين التالية: (١) الانهزامية، بالتأكيد على أن القضية النازية إجرامية خاسرة.

(٢) أن الألمان الأحرار تنظيم ألماني أصيل محترم، ولسوف ننجح لأن قضيتنا على حق.

(٣) الهجمات على هتلر. اطيحوا به. نداءات للألمان للثورة.

(٤) للقوات المقاتلة.... الاستسلام.

(٥) نشر الفظائع والجرائم والتحذير منها.

(٦) إعادة تأكيد مستقبل ألمانيا بعد الحرب.

الانهزامية

اتخذت الدعاية الإنهزامية أشكالا عدة. ففي إحدى الاذاعات وصفت الهزيمة عند « خاركوف » بأنها نتيجة لاختلال النظام النازي. كذلك اذيعت مقالة كتبها الجنرال لاتمان، أشارت إلى الدمار الحتمي للقوات المسلحة الألمانية، وضرورة عقد هدنة مبكرة. وفسر النقص في المعادن بأنه خراب جهد النازي، إذ كانت المانيا تستورد جميع احتياطاتها من النيكل، وكانت تعاني من نقص في التنجستين، والكروم.

ومن ثم كانت أسلحتها أقل جودة، مما كان له تأثير على سير مجرى الحرب. و صار التأكيد على فكرة أن الحرب كانت خاسرة، وأن استمرارها ضرب من اليأس. كذلك وصف موقف الطعام الشنيع كوسيلة لتقويض المعنويات. كما قامت إذاعات أخرى بتصوير الموقف اليأس، والكارثة المحققة، التي أعادت ذكرى صورة نابليون.

وقد ازداد عدد الأسرى ليصبح ١٠،٢٣٠،٠٠٠ في ١٥ مايو من عام ١٩٤٤.

وبعد بدء الغزو الأمريكي - الإنكليزي، أصبح هذا الموضوع هو النشاط الرئيس لمحطة إذاعة ألمانيا الحرة، وجاء يوم ٦ يونيو ليكون فاتحة المرحلة النهائية من الحرب. ولقد اذاع ايريك وينرت في ١٥ مايو من عام ١٩٤٤ أن الهزيمة الفاشية كانت أمل المانيا.

نحن الألمان الأحرار تنظيم ألماني أصيل محترم .

كانت لجنة الألمان الأحرار لكونها تعلم أن معظم الألمان يرتابون فيها على أساس أنها تنظيم شيوعي يستخدم كأداة للسوفييت - تواقفة للتغلب على وجهات النظر هذه. ولذا ركزت منذ البداية على الوطنية، وعلى تحقيق ذاتية كل طبقات الشعب الألماني في سبيل القضية المشتركة ضد هتلر، وذلك بالتجنب البارع للعقيدة الشيوعية، وبإضفاء أسماء محترمة كرؤساء للجنة مثل: فون سييدلتز، فون اينسييدل .

ولقد ذكرت محطة المانيا الحرة أنها تمثل حركة ألمانية بأهداف المانية، وذلك في ٢٩ من مارس عام ١٩٤٤ . ولقد تحدث من المحطة أعضاء من جميع مجالات الحياة ومن أصحاب الآراء المتباينة، وأعدت اذاعات مختلفة لتوجه مجموعات متباينة من السكان. فقام عضو قديم من الحزب الديموقراطي الاشتراكي بتوجيه الحديث إلى الديمقراطيين الاشتراكيين في المانيا. كما وجهت دعاية مناسبة إلى مجموعات دينية. وفي حديث بين الشيوعي « والتر اولبريخت »، والأسقف الدكتور « جوزيف كايسر »، أشار أولبريخت إلى الصراع البطولي للكنيسة ضد المانيا النازية. وفي ٥ من يوليو عام ١٩٤٤، أكد الميجور « مانستين » حفيد الكونت « فون جالين » أسقف « ميونستر »، أن الكنيسة ينبغي أن تساعد الحركة الشعبية للإحاطة بهتلر .

الهجمات على هتلر... اطيحوا به! نداءات للألمان للثورة

كانت معظم الأحاديث والمقالات التي تتضمن هجوما على هتلر، تحاول الحط من شأنه في أعين الشعب الألماني، وتبذل الجهد كي تظهره وحده أو هو مع زمرة صغيرة حوله، كمسؤولين عن الكوارث العسكرية. وكانت تصاحب هذه الإذاعات نداءات للاطاحة به. ولقد قيل إن هتلر قد يستخدم الغازات السامة، ولن يهيمه إذا ما فني الشعب الألماني. لقد خان هتلر الضباط وليس العكس صحيحا، ذلك أن الضباط كانت لديهم الحرية لمقاتلته. وقال جنرال الطيران « ليوتزمان » إن هتلر قد نقض كل وعوده. وقال الجنرال « هوفميستر » إن هتلر يتمتع بأي مقدرة استراتيجية .

وبعد يوم من غزو نورماندى، طلب من الشعب الألماني الإطاحة بهتلر. وأذيعت رسائل مستمرة ونداءات للألمان كي يثور الشعب. وفي ٨ من سبتمبر عام ١٩٤٤، ناشد الاتحاد السوفييتي الشعب الألماني كي يتحول عن هتلر. وفي مرة أخرى، طلب من الموظفين المدنيين أن يثوروا، كما تم تحذير الشعب الألماني من أن مؤتمر طهران كان يمثل آخر فرصة لهم لإنقاذ الرايخ، والانضمام إلى الشعوب الديمقراطية.

وكان نداء الخمسين جنرال في ديسمبر عام ١٩٤٤ بمثابة علامة تكثيف للدعاية. كما وجهت إذاعة إلى سكان بروسيا الشرقية كي ينقلبوا على النازي، وذكر لهم أن الجيش الأحمر لن يثار للجرائم التي اقترفت في روسيا.

للقوات..... الاستسلام!

كان موضوع الاستسلام يمثل الجانب التكتيكي الأكبر من حملة الدعاية، إذ قام الجنرال «فون سييدلتز» في كتاب مفتوح ينصح الجنرال «مودل» بالاستسلام، كما نصح الفيلد مارشال «فون مانستين» بواسطة الجنرال «فون دانييل» كي يتبع الاتجاه ذاته.

وفي إذاعات أخرى، كان الجنرالات المحاصرون يتهمون بأنهم استسلموا باختيارهم المحض، كما أعلن عن استسلام كثير من النازي عند «كيركاس» وفي وقت متأخر من الحرب، حينما كانت بعض وحدات «الوهرماخت» ما زالت تقاتل الروس في ٨ من مايو عام ١٩٤٥، حذرت هذه الوحدات من أن قتلها ضرب من العبث.

الفضائح والجرائم والتحذير منها

لم يركز على هذا الموضوع بثقل كبير، ولكن محطة المانيا الحرة أذاعت قدرا مناسباً من المعلومات الخاصة بالجرائم، وحاولت استخدام الإذاعات كتأثير رادع. فعلى سبيل المثال، قام الميجور هتز النائب الأول لرئيس لجنة المانيا الحرة بإعطاء وصف تفصيلي لعربة إعدام استخدمها النازي، وطالب من الألمان الانتقام من فضائح النازي.

وحذر « كلين » الضابط في القضاء العسكري بتوقيع العقاب على مجرمي الحرب، وأعلن عن محاكمة لمجرمي الحرب في خاركوف، استغلت في الدعاية على نطاق واسع.

وفضلا عن هتلر، ذكرت أسماء سبعة من قادة النازيين بخاصة على أنهم مجرمو حرب: « جوليبتر » على أعمال النهب في أوروبا الشرقية، جنرال « ديتار »، الذي وصف على أنه أخطر نوع من مجرمي الحرب لأنه حث الجنود على الصمود، « فونك » وزير الرايخ على أعمال النهب، جنرال « سكويرنر » الذي سمى بالسفاح ومجرم حرب لأنه عمل على استمرار الحرب.

إعادة تأكيد مستقبل ألمانيا بعد الحرب

في إحدى الإذاعات المبكرة عن مستقبل ألمانيا بعد الحرب، أكد البروفسور « اوتوسبنس » أن العمال ينبغي عليهم أن يقوموا ببناء مستقبل الرايخ، ويجب أن يكون لهم الحق في العمل، كما ينبغي أن يكون الصالح العام هو الاعتبار الأول.

وينبغي أن تتوفر حرية الكلمة والصحافة، ولا يجري أي اتصال مع الفاشيين، كما يجب أن تزول الاحتكارات. وصدرت تأكيدات للامان بأن الرايخ لن ييلشف، بل ستقوم ديموقراطية قوية، تحكم بواسطة الشعب، كما ينبغي أن تعود ألمانيا إلى مجتمع الدول. وبالطبع، لم يذكر شيء عن نوايا السوفييت الحقيقية ولا عن التعويضات، وفقا لما ناقشه الروس في الصحافة الروسية للاستهلاك المحلي.

ردود فعل تشكيل اللجنة

فوجيء الحلفاء تماما حينما أعلن تشكيل لجنة ألمانيا الحرة. فالسفير الأميركي « ستاندلي » لم يبلغ أو يؤخذ رأيه. ولم يعلق الرئيس الأمريكي ولا وزير خارجيته « هل » على الموضوع، أما إيدن وزير الخارجية البريطاني فقد أعلن في مجلس العموم في ٢٨ يوليو أنه لم يبلغ عن ذلك، وأنه لا ينوي الاعتراف بأي لجان مشابهة في بريطانيا. وقد نشأ رد فعل حرج، إذ ساد رأى بأن هذه اللجنة

كانت بمثابة تحرك نحو عقد صلح منفرد، وأن ذلك ضد مطلب الحلفاء الخاص بالاستسلام بلا قيد ولا شرط .

وفسر المراقبون الاميركيون هذه الخطوة المستقلة من موسكو على أنها انذار لبريطانيا والولايات المتحدة بأن الاتحاد السوفيتي سوف يشق طريقا مستقلا في اوروبا بعد الحرب .

أما من ناحية المحور، فقد قامت دوله فورا باستغلال هذا المظهر الجانبي من لجنة المانيا الحرة، اذ قامت إذاعة روما بالحديث عن « الدول المفككة » في ٢٦ من يوليو عام ١٩٤٣ . وفي طوكيو قامت وكالة أنباء « دومي » بتوجيه إذاعة باللغة الانجليزية في ٢٣ من يوليو إلى دول شرق آسيا قائلة إن تقرير البرافدا عن اللجنة انفجر كقنبلة بين الدوائر السياسية الاميركية، وبأن الرسميين أظهروا تحذيرا خفيا إزاء هذه الخطوة السوفيتية الاخيرة، التي كانت تدل على اطراح السوفيت في أوروبا . ولقد أوضح جوبلز ذلك في مذكراته بقوله: « إن برلين نظرت إليها ... كإحدى نوايا السوفيت لاكتساب موضع هام لسيادتها على أوروبا، عن طريق انشاء حكومة سوفييتية في المانيا، تمهيدا لخلق تبرير لحرب دفاعية اوروبية في ظل القيادة الالمانية .

اللجنة كوسيلة مؤقتة

ولكن بالرغم من أن السوفيت كانوا تواقين لجعل الحلفاء يتحدثون، فإن إذاعة خاصة وجهت إلى الألمان بعد بدء اللجنة بفترة قصيرة، حذرت النازي من أى أمل لعقد مفاوضات سلام منفردة بين السوفيت والالمان . وبعد انعقاد مؤتمر موسكو وطهران، عدلت دعاية اللجنة وفقا للقرارات التي اتخذت في هذين المؤتمرين .

ومع ذلك، فإن السوفيت بعد مؤتمر يالتا بدأوا يتجاهلون دور لجنة المانيا الحرة . ففي ١٥ من فبراير عام ١٩٤٥، ورد تقرير من موسكو يقول: إن اللجنة كانت تتحرك على الأراضي الروسية كبعثة عسكرية، ولكن قيمتها إزاء جهود الحرب كان مشكوكا فيها، وأنه لم يعط لها أى تنازلات .

وخلال أيام قليلة لاحقة بدت روسيا غاضبة من عصابة الضباط الالمان -

وبخاصة الجنرالات - الذين اقترحوا تشكيل حكومة للرايخ . ووضحت موسكو أن المارشال باولوس ليس شخصية سياسية، وقامت الصحافة وأدوات النشر بالقول بأن مثل هذه الشائعات أكاذيب مسمومة .

لقد كانت أهداف اللجنة السياسية لما بعد الحرب ثانوية ومطابقة لهدفها العسكري الأولي في ميدان الحرب الثورية . على أن إنشاء نواة سياسية مستقبلية لألمانيا ، أو مجموعة تميل للسوفييت من الجنرالات في حالة قيام حكومة عسكرية عن طريق الانقلاب العسكري ، ربما كانت من الأساليب الإضافية لإنشاء اللجنة ، لكنها لم تكن أسبابا رئيسية . ولقد بذلت جهود كثيرة لتتبع الاتصال المباشر بين لجنة ألمانيا الحرة والحكومة التي قامت في المنطقة الشرقية من ألمانيا .

كان كثير من الألمان الأحرار السابقين يحتلون مراكز قيادية في حكومة ألمانيا الشرقية . ومع أن هذا كان حقيقة ، فما يلاحظ أنهم كانوا شيوعيين قدامى من الذين تدربوا في مدارس « التحول المذهبي » ، أو من الذين نظر اليهم الروس على أنهم أكفاء كرجال عسكريين ، أو في أساليب عمل الشرطة .

إن الحقيقة الدامغة هي أن قادة القمة في ألمانيا الشرقية شيوعيون محنكون مثل اولبرخت وبييك ، بينما اختفى كل من سييدلتز ، باولوس من المسرح السياسي . لقد انتهت مهمة سييدلتز بعد حل اللجنة بعد الحرب ، واختفى باولوس وراء الشمس حينما منح فيلا بالغرب من موسكو ، وكان يظهر أحيانا في نورمبرج كشاهد أمام المحكمة العسكرية الدولية . أما كونت فون اينسييدل فسمح له أن يعيش في المنطقة الألمانية التي كانت محتلة من الفرنسيين .

الخلاصة

من العسير أن نقيّم ، تأثير جهود الدعاية التي قامت بها لجنة ألمانيا الحرة . إذ يبدو أنها في أفضل حالاتها كانت تهدف إلى دفع الشعب الألماني للثورة على هتلر ، ووضع حد للحرب . ولم يكن الروس فاقد البصيرة ازاء نفسية الألمان ، ومن ثم اتجهوا إلى تنمية المعارضة ضد هتلر وليس عرقلتها . ومع ذلك ، وكما أظهرت الأحداث ، لم تقم ثورة جماهيرية ضد حكم النازي .

وهذا يبرز مثلا آخر على أن توقعات الشيوعيين كانت تجنح نحو ما يرغبونه اكثر من اتجاهها نحو الواقع.

وقد يعزى إهيار المانيا في الشرق - لو نظرنا للمسألة بمقياس محدود - إلى هذه اللجنة. ذلك أن استخدام مكبرات الصوت في الجبهة، وأحاديث الإذاعات والمنشورات والنداءات الاخرى للاستسلام، أدت إلى ضم كثير من الألمان الذين يجاربون بعزيمة إلى جانب السوفييت. ولكن الدعاية كانت أكثر فعالية وتدميرا فقط حينما كانت تطبق في المواقف العسكرية اليائسة. ولقد ساعدت اللجنة أيضا على بلورة العداء للنازية في المانيا، وساهمت بقدر مناسب في تقويض المعنويات بها. ولكن كمنظرة شاملة، فإن دعاية اللجنة كانت ذات كفاءة محدودة.

الطوابع الشيوعية للدعاية والسيطرة في كوريا الجنوبية عام ١٩٥٠

عرضنا في فصل سابق لأسلوب التثقيف والتلقين لكوادر الحزب الشيوعي على جميع المستويات، كذا الدور الذي لعبته الدعاية والإثارة في هذا المجال، ومراحل التدريب التي يمر بها الشيوعيون كي يرتقوا السلم الشيوعي.

وفي هذا الفصل سنحاول أن نلم بسبل الدعاية الشيوعية في مجال السيطرة على شعب مقهور، ووسائل تثقيفه بالعقيدة الماركسية اللينينية. ولما كانت كوريا الجنوبية من أبرز النماذج للشعوب المقهورة التي صوبت إليها حرايب الماركسية اللينينية، فإنها تصلح في هذا المجال نموذجا لدراستنا.

ولقد ظلت كوريا الجنوبية تحت سيادة السوفييت لمدة خمس سنوات، قبل محاولة قيام الشيوعيين بغزوها في صيف عام ١٩٥٠. ولقد قام الشيوعيون بالسيطرة على جزء كبير من كوريا الجنوبية بما في ذلك العاصمة سيول، وذلك لفترة ثلاثة أشهر، وفي سبيل تفهم الأساليب التي استخدمت للسيطرة على شعب مقهور، أجريت دراسات ميدانية في كوريا خلال الجزء الأخير من عام ١٩٥٠، والجزء الأول من عام ١٩٥١، إذ قامت مجموعة صغيرة من علماء الاجتماع الأمريكيين بدراسة عمل الحزب الشيوعي في سيول، وفي قريتين تم اختيارهما. وتمكن الأمريكيون من مقابلة عدد ضخم من الكوريين الجنوبيين، الذين أمضوا ثلاثة شهور في ظل السيطرة الشيوعية، كذا مقابلة عدد ضخم مماثل من اللاجئين القادمين من كوريا الشمالية.

ومن هذه الدراسة استنبط كثير من مظاهر الأساليب الدعائية السوفيتية،
ووسائل السيطرة التي استخدمها الشيوعيون في مجال الحرب الثورية.

استراتيجية الاحتلال الشيوعي في كوريا الجنوبية

وضعت خطة الغزو الشيوعي لكوريا الجنوبية منذ عدة شهور سابقة للغزو،
وحيثما زحفت جيوش كوريا الشمالية نحو سيول عاصمة كوريا الجنوبية، كانت
هناك ترتيبات مخططة بعناية أعدت لهذا الاحتلال. وكان تنظيم حزب الشعب
الشيوعي وأنشطته، كذا وزارة الداخلية - التي تضمنت هيئات الشرطة
المحلية ومنظمة الدعاية الداخلية - أهم ما عنى به في نظام السيطرة.

وصلت هيئة وزارة الداخلية التي فرضت على كوريا الجنوبية، بكبار
موظفيها المختارين في عربات نقل مليئة بمواد الدعاية. وكان الزعماء الذين تم
اختيارهم يحملون معهم أيضا قوائم كاملة تحتوي على أسماء المواطنين الذين عرف
عنهم ميلهم إلى الشيوعية، كي يمكن استخدامهم فيما اطلق عليها اسم «اللجان
الشعبية». وكان على هذه اللجان أن تقوم بنشر الشيوعية في كل المنظمات
الصناعية والمهنية ومنظمات المتطوعين في الخدمات القومية. وكان بعض سكان
سيول الذين اختارهم الشيوعيون لمعاونة اغراضهم وخدمتها، ممن عرف عنهم
قَبْلُ أنهم يساريو الاتجاه، ولكن كثيرا منهم كانوا قد اظهروا عطفهم على
الشيوعية.

وكان الزعماء الشيوعيون مسلحين ليس فقط بالقوائم التي تضم أسماء من
يتعاطفون علانية او خفية مع الشيوعية، بل تسلحوا أيضا بقوائم سوداء تحوى
أسماء أغلب كبار الضباط في حكومة جمهورية كوريا الجنوبية، وأسماء المثقفين
المعروف عنهم بمعاداتهم للشيوعية، أو الموالين لحكومة الرئيس سيجهان رى. ولقد
تم بسرعة اعتقال غالبية من وردت أسماؤهم في القوائم السوداء، وتم التخلص
منهم فوراً.

وفي الوقت الذي كانت تتم فيه هذه الاجراءات، استولى الشيوعيون على
محطة الاذاعة، وأذاعوا عفوا شاملا عن جميع الموظفين السابقين في حكومة
جمهورية كوريا، وعن الأفراد من رجال الصناعة والفنيين والمهنيين، واعطيت

الوعد بفتح باب الانضمام إلى حظيرة الشيوعية لكل فرد عدا «الرجعيين» الذين لا يمكن تقويمهم أو إصلاحهم.

وكان تحقيق هذه الوعد في الواقع يتوقف على مدى منفعة الموظف أو الصانع للنظام الجديد، أو على مدى خضوعه للشيوعيين. وكانت الوعد بالعفو العام في القرى أكثر تعميماً، كما كانت حركات التطهير بها أقل عنفاً عما كانت عليه في سيول، ذلك لأن النشاط السياسي في المناطق الريفية بكوريا الجنوبية، كان أقل فعالية مما كانت عليه الحال في العاصمة.

وبدأ الضباط الثقافيون من الحزب ومن وزارة الداخلية، الذين عينوا للعمل في المصانع والمستشفيات والمدارس، العمل فوراً لتنظيم هذه اللجان الشعبية، ولعقد الاجتماعات، بقصد توزيع الدعاية الشيوعية ونشرها.

وحلت لجان الشعب في القرى مكان الموظفين الإداريين، الذين كانوا يعملون تحت إمرة حكومة الجمهورية. وكانت منظمات الاتحاد النسائي والشباب - وهي منظمات رئيسة هامة ملحقه بالحزب للإشراف والسيطرة - تعمل في المدينة والقرية. ومع أن بعض هذه المنظمات ضمت أشخاصاً غير شيوعيين، بغرض إخفاء الطبيعة الشيوعية الخالصة لهذه المنظمات، فإن هؤلاء كانوا تحت رقابة دائمة بواسطة رجال الشرطة وأعضاء الحزب. وفي الغالب كان مثل هؤلاء الأفراد غير الحزبيين هم الذين يمثلون السلطة الفعالة.

كان زعماء هذه المنظمة الذين كانوا حقيقة أشبه بالدمى الصماء في مسرح العرائس، يختارون غالباً من بين المواطنين الساخطين على نظام الحكم في جمهورية كوريا الجنوبية.

وفي المدينة، كان يفضل العمال على قدامى الموظفين. كما دفع إلى الصفوف الأولى كل الذين كانوا يشعرون بمرارة ضد رجال الشرطة، وقد جرى بأغلبهم من كوريا الجنوبية. وكانت حكومة الاحتلال تشك بخاصة في المهنيين المحترفين والمثقفين الذين وضعوا تحت رقابة مشددة. كما قام الشيوعيون ببذل جهد خاص لحرمان هؤلاء الأفراد من أوقات فراغهم، وذلك بدفعهم لحضور اجتماعات خاصة بالثقيف، تحت إشراف الضباط الثقافيون من الحزب.

أما في المناطق الريفية، فكانوا يفضلون استخدام العمال الزراعيين في اللجان الشعبية عن استخدام ملاك الأرض. وفي إحدى القرى الصغيرة، قلب الشيوعيون الأوضاع التي استمرت لأربعائة سنة، وذلك حينما قاموا بإسناد السيادة في فرع سام من الأسرة القديمة إلى فرد من فرع ادنى. ثم بدأ الشيوعيون في البحث عن مجندين للحزب من بين أعضاء اللجان الشعبية.

بمثل هذه الوسائل جاهد الشيوعيون لإقامة مصلحة مشتركة لهذه الجماعات الجديدة، كي يقوموا بمساندة السيطرة الشيوعية. لقد أمل الشيوعيون أنهم لو منحوا الزعماء الجدد وظائف ومكانة لم تتوافر لهم في حكم جمهورية كوريا الجنوبية، فإنهم سوف يقومون بتعصيد الشيوعية. هذا فضلا عن أن الشيوعيين استغلوا جميع أسباب السخط القائمة ضد النظام القديم، كما أعلنت حقوق المرأة وعينت بعض النساء في لجان الشعب، وأغرى الشباب والشابات على التنكر للنظام الأسرى القديم بأمل التحرر من سيطرة كبار السن في أسرهم. ويعد هذا في الواقع، بمثابة انتقال راديكالي هام، في مجتمع تسوده السيطرة الأبوية في الأسرة.

الموضوعات الرئيسية للدعاية

لا شك أن برنامج «الرفاهية الاجتماعية» الذي نشره الشيوعيون في كوريا الجنوبية، حظى بقبول واسع النطاق من جانب السكان. وقد أشار اللاجئون من كوريا الشمالية، بأنه كلما طال أمد سيطرة الشيوعيين، كلما ازداد زوال الوهم والأمل الكاذب، وكلما ازداد اشمئزاز الناس من السياسة الشيوعية. ومن ناحية أخرى، فإن السيطرة الشيوعية في كوريا الجنوبية لم تستمر بالقدر الذي يمكن من توضيح الفرق بين «الوعود» والواقع. ومن ثم فإن رد الفعل المضاد للحكم الشيوعي لم ينتشر على نطاق واسع، ولا بفعالية كما حدث في كوريا الشمالية ونذكر فيما يلي بيان الدعامات الرئيسية في برنامج «الاصلاح الاجتماعي» الذي اعلنه الشيوعيون.

تحرير المرأة

اذيع البرنامج الشيوعي لتحرير المرأة على نطاق واسع، ومنحت المرأة

مراكز سياسية ونقابية، كما أعلنت مجموعة جديدة من القوانين، تستهدف حماية المرأة. وكان من بين حقوق المرأة الجديدة، إعادة تعديل قوانين الطلاق، بغرض الحد من سلطة الزوج على زوجته. وكانت هذه القوانين الجديدة تنص على أنه لو طلبت الزوجة الطلاق من زوجها، فإن الزوج يفقد نصف ثروته تعطى للزوجة مع الطلاق، أما إذا طلب الزوج الطلاق من زوجته، فإن ثروته كلها تتوّل إلى الزوجة المطلقة.

وألغى القانون نظام اتخاذ الزوج عشيقة له، كما ألغيت الدعارة المرخصة. وكان من أثر هذه القوانين مع ما صاحبها من إعلان حق المرأة بالعمل في أي ميدان، أن ازدادت امكانيات الأيدي العاملة في المدن. وحينما بدأ الشيوعيون في إخلاء سيول في شهر سبتمبر من عام ١٩٥٠، لم يكن بالقوات المقاتلة نساء من كوريا الجنوبية، على الرغم من أن النساء كن يعملن في الوحدات المقاتلة لكوريا الشمالية.

لقد كان من الواضح لكثير من الكوريين الجنوبيين أن الشيوعيين يعملون بنظام السيطرة هذا، بغرض إضعاف مكانة الأسرة ونفوذها، وذلك عن طريق بث بذور الشك داخل الأسر، وحث الأفراد على التمرد على بعضهم البعض، وبخاضة ضد طبقة كبار السن.

تحرير العمال من الاستغلال الرأسمالي.

أذيعت هذه السياسة في المدن الرئيسية فقط. ومع ذلك، فإن تأميم جميع الصناعات لم يعلن كغرض مباشر للسياسة الشيوعية. ولقد قام الشيوعيون بتشجيع الأعمال الصغيرة في كل بياناتهم، ولكنها عصرت في الواقع نتيجة فرض ضرائب فادحة، ونتيجة بعض اجراءات الرسميين، مثل وضع قيود على الإمدادات.

وبذلت الوعود للعمال في سيول بتخفيض ساعات العمل، وبمنحهم تعيينا إضافيا من ارز الحكومة. ولكن الذي حدث حقيقة غير ذلك، إذ أدخل نظام العمل بالحصص، ومعنى ذلك أن يستمر العمال في العمل لأي وقت إضافي، إذا لم تكف ساعات العمل الثمانية لاتمام الحصة اليومية المحددة لهم. هذا فضلا عن

إدخال نظام العمل التطوعي - أي العمل بدون أجر لمناسبات خاصة. وفوق ذلك كله، فإن اجتماعات التثقيف السياسي، أدت إلى مد الوقت الذي كان يقضيه العمال في المصانع.

ولقد نوه بعض العمال بأن كمية الأرز الإضافية التي وعدوا بها لم تسلم فعلا إلا للعمال من أعضاء الحزب. وبالطبع لم ينفذ ما وعد به العمال من منحهم عطلات بأجر يقضونها في المصايف، بل كان من العسير على العمال أن يحصلوا على اجازات مرضية بأجر. ومع هذا كله، فإن الثلاثة شهور التي سيطر فيها الشيوعيون على كوريا الجنوبية لم تكن كافية للكشف عن صور الظلم والضميم التي صحبت التوجيه الشيوعي. وكان من الممكن أن يتحدث الفارون من كوريا الشمالية، وذوو الدخول الصغيرة عن الكثير من وسائل السيطرة، وعن العمل الجبري، وأن يبينوا أن هذا كان السبب الرئيس لتركهم البلاد.

الفرص السائحة لصغار السن

وكانت الوعود التي أعطيت لصغار السن المتعاونين ولآبائهم، تدور كلها أساسا حول زيادة فرص التعليم لهم، وحول تقدمهم الاجتماعي. وكان من المفروض تيسير التعليم لكل فرد، ومن ثم يمكن العمل على نحو الامية. ووضعت أسبقية لتعليم أبناء العمال، ومكافأة الطلبة الذين يبرزون تفوقا في مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي، وذلك بمنحهم فرصة التعليم الجامعي بالمجان كمنح دراسية، حتى لو تطلب الامر إرسالهم للاستزادة من التعليم في كوريا الشمالية أو الصين أو موسكو. وبالإضافة إلى هذه الوعود الخاصة بالتعليم، بذلت جهود أخرى لضمان تعاون الشباب في المدينة والقرية، إذ أعلن أن عضوية «اتحاد الشباب الديمقراطي»، هي الخطوة الأولى للتقدم في المكانة والسلطة داخل الحزب.

وفي السنوات الخمس ما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٠، ارتفع عدد الطلاب في كوريا الشمالية بشكل كبير، كما بذلت جهود واسعة لمحو الامية. ولكن سحب هذا جزئيا تخفيض ملحوظ في خاصيات هيئة التعليم، التي أدت بدورها إلى انخفاض في مستويات التعليم، ونتيجة لاتباع الأسلوب الياباني، وبدلا من

استخدام حروف الكتابة الصينية التي كانت تستخدم في كوريا كلها، استخدمت الأحرف الصوتية الكورية. وقد استغل الشيوعيون هذا الانتشار الشعبي للأحرف الصوتية، فقصروا كل دعاياتهم على ما يمكن انتاجه بواسطة هذه الأحرف الصوتية، وذلك لمعاونة الأهداف السوفيتية.

وتميزت الأشهر الثلاثة التي استمر طواها الاحتلال الشيوعي لكوريا الجنوبية بالفوضى في نظام التعليم في المدارس.

كان عدد المدرسين قليلا جدا، نتيجة فرار عدد كبير منهم من وجه الشيوعيين، كما شمل التطهير البعض الآخر. وحل مكان هؤلاء طلبة، كانوا قد تخرجوا توا من المدارس الابتدائية.

وحاول الآباء من جانبهم استبقاء أبنائهم في بيوتهم، على أساس أن المدارس كانت بمثابة الأماكن التي يلتقط منها الجيش ما كان يحتاج إليه من الأفراد للقيام بأعماله الضخمة. هذا بالإضافة إلى اعتقاد الآباء بأن ابناءهم لا يعملون شيئا سوى القاء الاناشيد الشيوعية. لقد كان تعليم الشيوعيين هو الجانب الرئيس من برنامج التعليم، كما أن اللغة الروسية حلت مكان اللغة الانجليزية في برنامج التعليم كلغة اجنبية ثانية.

إعادة توزيع الأراضي الزراعية

وفي الشهور الثلاثة التي استمر طواها الاحتلال الشيوعي لمنطقة سيول، أخذ الشيوعيون في إعادة توزيع الأراضي الزراعية في كوريا الجنوبية. وكان ما تم في كوريا الشمالية، قد كشف عن الفاصل الكبير بين ما يبذل من وعود، وبين ما يحدث فعلا. لقد وعد الشيوعيون الفلاحين بتوزيع متساو للأرض، وكان هذا يتعارض مع خطة «التوزيع غير العادل»، التي كانت حكومة جمهورية كوريا الجنوبية قد أعلنتها، والتي كانت قد بدأت فعلا في تنفيذها حينما بدأ الغزو.

كانت الفكرة في التخطيط الشيوعي أن توزع الأرض على أساس عدد الأفراد في الأسرة، وكان هذا المشروع أكثر شعبية بالنسبة للفلاحين المعدمين، عن مشروع حكومة «سيجهان ري».

وكان الشيوعيون قد أصدروا قرارا بالاستيلاء على الأرض من أصحابها

دون أى تعويض، فى الوقت الذى كانت فيه حكومة الرئيس « رى » قد أعلنت عن تعويض مناسب لأصحاب الأراضى المستولى عليها، على أن يقوم كل مستلم للأراضى بدفع أثمانها على أقساط معتدلة.

وكان المشروع الشيوعى يطالب بضرية للدولة قدرها ٢٥٪ من قيمة المحصول السنوى، ولم يكن هذا غريباً على الفلاحين الذين اعتادوا أن يشاركهم أصحاب الأرض فى الغلات التى يحصلون عليها بمجهودهم. ولكن سرعان ما تبينوا من الممارسة العملية أن هذه الضريبة سوف تصل إلى ٧٠٪ من المحصول، بعد إضافة ما يؤخذ منهم من الأرز لأغراض خاصة، كذا ما يستقطع للعمال والجنود الذين يعسكرون على مقربة من قراهم، أو فى القرى ذاتها حيث ينزلون ضيوفاً على القرويين. وكان هذا ملموساً بخاصة فى المناطق التى لا تحتوى على ملكيات كبيرة. وهكذا سرعان ما فقد المشروع الشيوعى مظهره الطيب نتيجة إعادة توزيع الأراضى. والواقع أنه لا يمكن الوصول إلى تقديرات نهائية تدل على مدى السخط الذى ساد بين الفلاحين فى كوريا الجنوبية فى الوقت الذى حدث فيه الانسحاب، ولكنه يشبه على الأقل ما كان يحس به السكان فى المناطق الحضرية.

الأيدولوجية والقومية

الواقع أن الفوائد المادية التى عرضتها الدعاية الشيوعية، كانت أهم ما علق بأذهان اللاجئين من كوريا الشمالية. ومع ذلك فإن « الخط الأيدولوجى » كان يتكرر المرة تلو الأخرى، وكان يرن فى آذان الكوريين الشماليين والجنوبيين على حد سواء. وهناك أدلة تشير إلى أن الشيوعيين تعرفوا على الكثير من النقاط المعرضة، كما تبينوا الكثير من المثالب والمطاعن التى يمكن توجيهها إلى حكومة كوريا الجنوبية. ومن ثم قاموا بتركيز جهودهم على هذه النقاط.

والواقع أن مشاعر السخط ضد « سيجمان رى » كانت تتطور بدرجة كبيرة فى المدن والقرى وفى كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية على حد سواء، بل إنها كانت أعنف وأعمى من الشعور المضاد للولايات المتحدة. وبالطبع كان يشار إلى الولايات المتحدة على أنها « امبريالية » وعلى أنها المسئولة عن هذا « المسخ رى ».

ولكن مع ذلك بدا أن التركيز وجه إلى مفاسد حكومة كوريا الجنوبية بأكثر مما وجه ضد حكومة الولايات المتحدة التي كانت حينئذ بعيدة عن الصورة نسبيا .
ولقد حظى اتهام السوفييت لحكومة « سيجان ري » بأنها فاسدة مستغلة ، بعطف وتقدير من جانب بعض الكوريين ، على حد ما جاء في اقوال أحد اللاجئين من كوريا الشمالية على سبيل المثال ، إذ قال :

« لقد سمعت في الراديو أن بعض كبار موظفي حكومة جمهورية كوريا الجنوبية قد حصلوا على قدر كبير من الكسب نتيجة لاستثمار الأموال العامة ، كما سمعت بأن الكثير من المعدات التي جاءت ضمن برنامج المعونة الاقتصادية ذهبت إلى أعمال خاصة لهؤلاء الموظفين ، واعتقد أن في هذا الجانب الأخير الكثير من الحقيقة »

الأسلوب الشيوعي للسيطرة نظام الشرطة

كانت الشرطة عنيفة لا ترحم في تطبيق العقوبات . وكانت العقوبات تطبق علانية أحيانا ، وخفية أحيانا أخرى ، وكان يصاحب ذلك عمل دعائي بعد توقيع العقاب . واختفت العقوبات التي كانت تستهدف تصفية بعض الأفراد والتخلص منهم ليلا . كما أن أعمال العنف العلني كانت نادرة ، اللهم إلا في الفترة التي سبقت انسحاب الكوريين الشماليين من سيول في شهر سبتمبر . ولم تخدم هذه التكتيكات فقط في زيادة خوف الناس من الشرطة فحسب ، بل أنها أيضا حالت دون ابراز مظاهر الكراهية التي انبثقت من علانية العنف والأعمال الوحشية .

وغالبا ما كان يصف الكوريون الشماليون والجنوبيون الشرطة العسكرية لقوات الاحتلال ، بأنها « مجاملة » وأكد البعض أن سلوك رجال الشرطة كان يخالف سلوك الشرطة اليابانية ، وسلوك شرطة جمهورية كوريا الجنوبية أيضا . على أن هذا الإعجاب بالسلوك الطيب من جانب رجال الشرطة ، لم يكن يتناقض مع مشاعر الكبت والخوف ، ذلك أن الجزاء الذي كانت توقعه الشرطة ، كان يجيء عاجلا دون أي إنذار ، بالإضافة إلى كونه نهائيا لا يقبل النقض ولا

التخفيف . ففي إحدى قرى كوريا الجنوبية التي تم دراسة الأحوال فيها دراسة شاملة على سبيل المثال ، لم يرتكب الشيوعيون المحتلون غير جريمة قتل واحدة ضد فرد من الأهالي ، كان يعد أحد كبار مؤيدي حكومة كوريا الجنوبية . ومن ناحية أخرى ، فإن الشيوعيين حينما وجدوا جنديا امريكيا مختفيا في منزل أحد الفلاحين ، لم يطلقوا على الفلاح النار إلا حينما حاول الهرب .

واستخدمت سلطات الشرطة شبكة واسعة من الجواسيس ، وكان المعروف بعامة في كل مدن كوريا الشماليه والجنوبية ، أنه من الممكن أن تجد جواسيس الحزب والشرطة السرية في كل منعطف . ومع ذلك ، فإن المجتمع في هذه القرية الصغيرة التي أشير إليها قبل سطور ، بدأ متماسكا صلبا . واستطاع الناس أن يكتسبوا ثقة بعضهم البعض ، وان يتضامنوا بدرجة أنهم تمكنوا من زرع جاسوس لهم في اللجنة الشعبية التي كونها الشيوعيون في القرية . أما في سيول حيث لا تصل العلاقات الشخصية بين الناس إلى درجة مطلقة من الإخاء والولاء ، كان الأصدقاء يخشون بعضهم البعض ، فكان الآباء يرهبون ابناءهم والعمال يرتابون في زملائهم .

ولما كانت الشرطة تشجع الناس على تقديم الشكاوى ضد ذوي الآراء الرجعية ، فإن الناس خشوا أن يشهر بهم جيرانهم أو أصدقاؤهم ، أو أن يتعرضوا لشكايتهم إلى الشرطة لأسباب شخصية .

لقد روى الكثيرون أقاصيص عن أبناء بلغوا الشرطة عن آبائهم ، وعن أصدقاء وأقارب خانوا رباط الصداقة والدم ، ومن ثم أصبح المجتمع معرضا لتفكك يهدد مقاومة الشعب للسيطرة الطغوانية المفروضة عليه .

ومع ذلك ، فإن العداء للنظام الشيوعي وجد تعبيرا بين الأفراد الذين يثقون ببعضهم البعض . وكان الأصدقاء وأفراد الأسر الذين يثقون ببعضهم البعض ، ينصتون إلى إذاعات الأمم المتحدة بواسطة أجهزة راديو مخفية وموهة ، كما وجد بعض الناس الذين تطاردهم الشرطة مأوى لهم في بيوت اصدقائهم واقاربهم الذين كانوا يثقون فيهم .

احتكار وسائل الاتصال

الوسائل الجماهيرية

كان أول عمل سجلته قوات الاحتلال الشيوعي بالنسبة لنظام الاتصال ، هو الاستيلاء على إذاعة سيول. وبدأ الشيوعيون فوراً في إذاعة رسائل للشعب : « لقد فرت حكومتكم .. إن الجمهورية الشعبية أصبحت الآن مسيطراً عليها تماما ... عودوا إلى أعمالكم ... سوف نعفو عن كل فرد يعود إلى عمله » .

كانت محطة إذاعة سيول من المحطات القوية ، قوتها ٣٥ كيلو وات ، وكانت تستطيع تغطية كوريا - كلها على أن تفسر عدم تدميرها بواسطة حكومة رى يرجع إلى أنه خلال مرحلة القتال كانت حكومة رى مستمرة في إذاعة بياناتها حتى اللحظة الأخيرة ، لتغطية انسحاب الحكومة من سيول .

وقام الشيوعيون بإحضار أفراد من المراكز العليا في إذاعة كوريا الشمالية لإدارة محطة سيول . وكان كبير المهندسين قد تلقى تدريبه في موسكو . ومع ذلك بذلت جهود ضخمة لاستخدام أفراد من الصفوف الدنيا ، وبخاصة الفنيين الذين خدموا من قبل قضية حكومة « رى » . كما منح الأمان للمهندسين والكتاب والمذيعين الذي خدموا حكومة « رى » ، بشرط أن يتعاونوا مع النظام الجديد . وهكذا كانت نصوص كل الإذاعات يقررها ممثلون شيوعيون موثوق بهم ، أما إذاعة المواد على الهواء ، فقد قام بها أفراد عملوا من قبل لمدة طويلة في إذاعة سيول .

وصادرت سلطات الاحتلال الصحف السبع التي كانت تصدر في سيول ، وعادت للظهور بدلها صحيفتان كانت حكومة « رى » قد صادرتها من قبل لاتجاهاتها الشيوعية ، وهما : بيبولز ديلي نيوز ، « لىبراشن ديلي نيوز » . ويبدو أن رئيسي تحريرها كانا من شيوعي كوريا الجنوبية . وقد قاما برئاسة تحرير الصحيفتين في بداية ظهورهما في سيول . وقد تم تأميم الصحيفتين وكانت تطبعان في مطابع أكبر الصحف في سيول ، التي تم مصادرتها لهذا الغرض . وقد منعت كل وكالات الأنباء من العمل عدا وكالة تاس . وبالإضافة إلى ذلك كانت ترسل إلى مكاتب الصحيفة مقالات ونشرات من مكتب المعلومات الخاص بالحكومة

الشيوعية. وهكذا أعيد العمل بالناذج المألوفة، حيث يقوم بالأعمال الفنية الأفراد المستمرون في العمل من النظام القديم، بينما كان يسيطر الحزب على خط سياسة الصحف.

وقام المكتب الثقافي لوزارة الداخلية بالرقابة على عروض الأفلام المتحركة في دور السينما. وتم إقصاء الأفلام الأمريكية والانجليزية. وكانت تعرض ثلاثة أفلام روسية على الأقل من بين كل خمسة أفلام. وكانت الأفلام الأخرى مصنوعة في كوريا الشمالية أو الصين أو في دول غير رأسمالية. وقد تم اختيار هذه الافلام وفقا لمحتواها الدعائي الأيديولوجي.

وقامت سلطات الاحتلال بعملية مخادعة، إذ فتحت مسارحها مجانا لعدة أسابيع، وفي ليلة ما أغلقت ابواب المسارح، وتم اعتقال كل الشباب اللائقين بدنياً في سن التجنيد، وأرسلوا للتجنيد في الجيش.

لقد اعتمد الشيوعيون بالطبع على الاحتكار، حتى يزيلوا حاجتهم للتنافس على جذب المستمع والمشاهد. لقد تصوروا الصحيفة والراديو - وبخاصة الأولى - على أنها نوع من كتب المراجع، إذ كانت تقرأ الصحف أثناء ساعات التثقيف كما يقرأ كتاب تعليمي.

كما اتخذت الخطوات لإنشاء نظام مكبرات اصوات الخط في سيول. وكان احتكار هذه الوسائل وتكرارها له اثره في ضمان وصول الخط الدعائي الشيوعي إلى السكان. وقد استخدمت ايضا الملصقات، والكتب الهزلية، والصحف، والاذاعة، لتكرار هذه الموضوعات الكبرى.

وأبدت سلطات الاحتلال الشيوعي تكريماً للموسيقين والكتاب الذين كانوا دائماً يحتلفون مع حكومة «رى». ففي خلال السنوات من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٠، قامت حكومة كوريا الشمالية بدعوة كثير من الموسيقين والكتاب في كوريا الجنوبية لزيارة كوريا الشمالية. ولقد عرضوا عليهم أن يوفدوا بعضهم إلى موسكو للحصول على تدريب أكبر. وبعد الغزو، اتخذ الشيوعيون خطوات أخرى لتوثيق الصداقات بين هذه المجموعات. وبدا أنهم على استعداد للصفح عن تعاون الفنانين القديم مع حكومة «رى». بل إن الشيوعيين ذهبوا إلى أبعد من ذلك بعرضهم العفو عن الموسيقين والفنانين الذين عارضوا الشيوعيين في

الماضي، على أساس انهم فعلوا ذلك ضد رغبتهم. وفي مجال البحث عن وسائل الاتصالات وابتكاراتها، انتفع القادة الشيوعيون من استخدام الأغاني الأيدولوجية في اجتماعاتهم، وفي المدارس، وعلى قارعة الطريق. كما استخدموا التمثيليات القصيرة التي تصور بعض النقاط في خطهم الدعائي. وكانت هذه الروايات يقوم بتمثيلها زائرون من كوريا الشمالية، أو مجموعات تجند من الحزب الشيوعي المحلي، أو من المدارس. كما نظموا الاستعراضات كلما أمكن، حيث اشترك فيها أعضاء من الجمعيات المختلفة ومن القوات المسلحة لكوريا الشمالية.

وحينا أجبر الشيوعيون على ترك سيول، صحبوا معهم كل الكتاب والموسيقيين البارزين الذين وقعوا في ايديهم، بالإضافة إلى محتويات المتاحف المتعددة، والكتب من كثير من مكتبات سيول. الضغوط وجها لوجه، الفرد والجماعة.

في جميع البلاد الشيوعية - وبغض النظر عن مدى درجة الأمية وعن المرحلة التطورية للوسائل الجماهيرية - قام الشيوعيون بزيادة تأثيرات دعاياتهم بدرجة كبيرة عن طريق الاستخدام المنسق للدعاية الشفوية والفردية. ولقد كانت هذه هي الحال في كوريا، وبخاصة نتيجة انخفاض مستوى تسهيلات محو الأمية، والقيود المفروضة على الإذاعة. ومن ثم استخدموا الاجتماعات على نطاق واسع، ذلك أن الدعاية التي تحقق في الوصول إلى الفرد عن طريق الوسائل الجماهيرية، نادرا ما تحقق في الوصول إلى الفرد أو الجماعة من خلال العملاء الشيوعيين، سواء في المقابلات أو في شكل محاضرات شيوعية أو قرارات أو جلسات نقد ذاتي تعقد في محل العمل، في المزارع والمصانع على حد سواء.

ولقد استخدم الشيوعيون في سيول عملاء الحزب والتنظيمات المتفرعة منه، لإدارة التوجيه في المنازل، حيث قاموا ببحث الآباء على إرشال أبنائهم إلى المدارس، وإغراء ربوات البيوت على حضور اجتماعات التحالف النسائي والإصرار على ضرورة انضمام الأطفال إلى أنشطة الشباب الديموقراطي. وكان الموضوع الدائم في المناقشات هو ضرورة مساواة المرأة بالرجل - وكانت حكومة رى قد عارضت ذلك، وكبحت جماح المرأة، ومن ثم كان أمام المرأة

الكورية فرصة ذهبية كي تحطم النماذج التقليدية لسيادة الزجل .

وجاءت رئيسات هذه التنظيمات من كوريا الشمالية، كما تم تعيين قائدات أصغر لكل قرية ولكل قسم صغير من سيول . وكانت كل منها مسئولة عن كل بيت في حينها . وكان من ضمن واجباتها توزيع الكتيبات والقاء الخطب والانتقال من بيت الى بيت كي تشرح للناس البرنامج .

وأخذ التنظيم يتدرج في البناء ببطء ، على أنه حينما تقرر عقد الاجتماعات ، ظهر أن نسبة الحضور كانت منخفضة ، مما أوحى لسلطات الاحتلال بأن السكان يعارضون هذا الاتجاه .

ونظمت جمعية الشباب الديمقراطي بنفس الطريقة ولكن من خلال المدارس . وتميز التنظيم بالسرية واستخدام الرموز وكلمات السر . وتشكلت مجموعة سرية صغيرة لتكون بمثابة حرس لسياسة الجمعية ، كما كانت الأوامر تصدر يوميا إلى أعضاء الجمعية ، حيث تخصص لهم واجبات معينة مثل كتابة الرموز ، أو زيارة منازل معينة لأغراض دعائية .

وكان المصدر الأعلى للأوامر غير معروف ، كذا عملية نقل الأوامر ، لأن الأعضاء لم يكونوا يعرفون سوى الأفراد الذين يتسلمون منهم الأوامر ، وأولئك الذين يسلمونهم بدورهم الأوامر التي تسلموها . وكان هذا هو التنظيم الذي كلف بالمرور على المنازل وحث الآباء على إرسال ابنائهم إلى المدارس ، وذلك بعد أن اتجه الآباء إلى إبقاء ابنائهم في البيوت .

على أن الاجتماعات المستمرة سادت كل أسباب الحياة في كوريا الجنوبية في ظل الاحتلال الشيوعي . ولم يعف أي موظف أو مجموعة من الصناع أو العائلات أو الزراع من المطالب القاسية للقوات المسلحة إزاء استخدام أوقات فراغهم . وبالإضافة إلى ذلك اسندت أعمال اضافية بواسطة سلطات الاحتلال الى الأطباء والزراع والمعلمين والعمال ورجال الأعمال ، وكان على هؤلاء جميعا أن يحضروا اجتماعات التثقيف .

وكان الابتكار الشيوعي «النقد الذاتي» ، أو بمعنى آخر الاعتراف بالأخطاء السياسية وسط مجموعة من الناس ، أساس كثير من الاجتماعات . ولقد خدم «النقد الذاتي» كغرض متعدد الأوجه ، فهو من ناحية كان يمد الشرطة

بالمعلومات ، إذ كان يطلب من المواطنين الادلاء بكل تاريخهم السياسى . والحق أن النقد الذاتى كان ابتكاراً لإجبار السكان على تعلم الخط الشيوعى - ذلك أنه اذا قام فرد ما بنقد ذاته طواعية ، فإنه ينبغى عليه أن يتعلم ما سيعترف به وما سيقدمه من وعود كى لا يخطىء فى المستقبل . كذلك كان « النقد الذاتى » ابتكار لمنح المكافآت ، التى كانت تمنح وفقاً لولاء الشخص وخضوعه للانضباط الشيوعى . إن الاعتراف العام لا يدعم فقط الإجراءات التعليمية بين أولئك الذين قاموا بالاعتراف ، ولكنه فى نفس الوقت يعلم المستمعين تقبل أشكال السلوك المطلوبة .

وكان كل فرد يشجع على مراقبة جاره والحكم عليه ، بينما يكون هو فى حد ذاته مراقباً من جاره ، وعرضة للحكم عليه منه . وأخيراً كان النقد الذاتى وسيلة عقاب - ذلك أنه كان يتضمن مخاطر تعرض الشخص للمراقبة والشرور ، فاذا لم يصحح المعترف أخطاءه فى المستقبل ، فإنه قد يصبح معرضاً لإجراءات قاسية .

ولقد عقدت الاجتماعات لمناقشة المقالات التى كانت تظهر فى الصحف اليومية ، أو التى كانت تذاع فى الراديو . كذلك كانت المحاضرات إحدى الوسائل التى استخدمت فى اجتماعات الإثارة ، حيث كانت تدرس موضوعات بسيطة سهلة وجها لوجه .

النماذج الدعائية للاحتلال الكورى

بعد هذا العرض السريع ، قد يعنّ لنا بعض التساؤلات : ما الاستنباطات التى يمكن ان نستقيها من استراتيجية الشيوعيين وتكتيكاتهم فى الحرب الثورية بالنسبة للمسألة الكورية؟ وما الملاحظات التى يمكن أن نبرزها من محاولة « سفينة » بلد مثل كوريا الجنوبية ، التى تعد حالتها ماثلة لعملية من عمليات الحرب الثورية؟ إن النتائج التالية قد تشفى غلة المتسائل ، وتعطى إجابة مناسبة :

أولاً : كل مرحلة من مراحل التنظيم الشيوعى وسياسته يجب ان يصاحبها عون مدبر من الحرب الثورية . لقد كانت هناك مظاهر كثيرة لنظام السيطرة الذى انشئ فى كوريا الجنوبية ، دللت على الأهمية القصوى التى يوليها الشيوعيون للدعاية . والواقع ان الأنشطة التى قام بها

شيوعيو كوريا الشمالية كشفت عن اهتمامهم العظيم بالدعاية فاق اهتمامات النازي. ويمكن أن نتبين ذلك من الملاحظات التالية:

(١) أولى شيوعيو كوريا الشمالية اهتماما بالغا بالانشطة الدعائية والتدريب الدعائي على كل مستويات السلم الشيوعي العسكري والمدني. وكانت وزارة الداخلية التي سيطرت على ترويج دعاية الخط الشيوعي في كوريا الجنوبية، من ادق الفروع المنظمة كفاءة في نظام السيطرة الشيوعي. ولقد بذلت جهود جبارة في المراحل الدعائية الأولى، كي تحقق الدعاية تأثيرا فعالا على السكان المحليين.

كما أن الانضباط الذي مارسه الشيوعيون على الرسميين في جميع المستويات، كان من الواضح أنه لعب دورا فعالا في إعطاء الدعاية تأثيرا قويا.

كذلك كان التدريب الذي أُعدَّ لرجال الدعاية يدعم الشمول الذي أنجز به الشيوعيون سياستهم إزاء أهمية تنظيمات الدعاية وأنشطتها. لقد ظهرت وحدات الدعاية في جيش كوريا الشمالية حتى مستوى السرايا.

وتعرض المجددون في الجيش وأسرى الحرب إلى قدر كبير من الدعاية، لا يقل عن قدر التعليم والتثقيف الذي فرض عليهم. لقد أديرت الدعاية في كل الجبهات الرسمية، وبالإضافة إلى الفروع الثقافية في وزارتي الداخلية والثقافة، لم يتحرك أي خط وظيفي في الحكومة، دون أن تصاحبه أنشطة ثقافية.

(٢) إن قطاعا كبيرا من الأفراد أُعدَّ كهدف دعائي. لقد أشارت كل الدلائل في كل من كوريا الشمالية والجنوبية الى حقيقة، هي أن الفرد إذا لم يكن معاديا بالدرجة التي تستحق الإعدام، ينبغي أن يمر بمرحلة مركزة من التثقيف. وينطبق هذا على جميع المواطنين في كوريا الجنوبية كما ينطبق على أسرى الحرب. وكان من المحتمل أن يذهب الجندي إلى المعركة دون تدريب عسكري، ولكن ليس بدون

تدريب ايدولوجى . كما أن ربات البيوت لم يفلتن من نظام التشيف الجديد . وبالرغم من أن الشيوعيين لديهم نظريات مؤكدة تنص على أن بعض الأفراد أكثر من غيرهم تقبلا للتشيف ، إلا أنهم عادة يكررون عملية التشيف بلا هوادة حتى مع الحالات التي لا تبشر بأمل كبير .

واستخدم أسلوب النقد الذاتى إلى النقطة الحرجة التي كانت تحس فيها السلطات أنها نجحت او أخفقت . ومن ثم كان عليها في الحالة الاخيرة أن تتخلص من الفرد بأى شكل كان . وكانت سياسة الإصرار على ضرورة « التشيف » واجتذاب العناصر المعادية ، من الوسائل التي خدمت الغاية بالاحتفاظ بالحاس الثورى داخل المجتمع .

(٣) يبدو أن الأنشطة الدعائية اتسع نطاقها في كل مجال من مجالات الحياة . ولم يكتف باستخدام كل موظف رسمى أو شبه رسمى للاتصال بالمواطنين وترويج الدعاية بينهم ، بل أن نشاط الحزب قد امتد إلى حياة الأسرة الى الحد الذي ألغى الحياة الخاصة . ولقد بذلت الجهود كي يصبح خط الحزب يتدفق إلى الأهداف تلقائيا ، حيث تصبح استجابة الناس له تلقائية .

ثانيا : إن أساليب الدعاية ينبغي أن تربط بأهداف بعيدة المدى في كل الأوقات ، ولا ينبغي ضبطها قط بأهداف قصيرة جارية ، إذا كانت تنحرف عن الأهداف البعيدة المدى . فبالرغم من تأكيد الشيوعيين على الأهداف الدعائية ، فإنه قد يكون من الخطأ أن نستنتج أن شعبية القضية الشيوعية كانت هدفا أوليا أكد عليه الغزاة الشيوعيون في كوريا . ذلك أن الشيوعيين لم يقصدوا اتباع هدف « بيع الانتاج الايدولوجى » ، باستخدام أسلوب الاعلانات في السوق الحرة .

الخلاصة

يمكننا بعامة أن نفسر أساس ما اتبعه النظام الشيوعى في فترة احتلال

كوريا الجنوبية من اجراءات، في ضوء ضرورة الواقع. ذلك أن نظام السيطرة الذي اتبع كان فعالا ولم يكن له بديل. لقد اجتذب الشيوعيون أعداداً ضخمة من المواطنين في المراحل الأولى وذلك في الفترة التي بذلوا فيها الوعود بتوزيع متساو للسلع الاجتماعية.. الأرض، الأجور، وغيرها - وحينما كانت هذه الوعود راسخة في عقول المواطنين، الذين لم يتبينوا بعد مدى قدرة الشيوعيين على تحقيق وعودهم. وفي الوقت ذاته، كانت هذه الفترة تتسم بضعف نظام السيطرة الشيوعي، ولذا هرب كثير من المواطنين وانحرف عدد كبير غيرهم عن الخط. وساعد على ذلك قرب قوات الحلفاء منهم، بالإضافة إلى أن الشرطة الشيوعية لم تكن قد ألغت بعد المناطق، وحينما تعرفت عليها فيما بعد، احكمت قبضتها وسيطرت سيطرة كاملة.

ومن التجربة الكورية يبدو أن الوعود الأولية التي أعلنها الشيوعيون كانت تجذب فقط المجموعات ذات الدخل المنخفض، والمجموعات ذات المراكز الصغيرة. أما المجموعات ذات الدخل العالي، فكانت تخشى الإجراءات التي سوف تتخذ ضدهم من سلطات الاحتلال.

على أنه كلما تطول مدة الاحتلال الشيوعي، كلما تميل الاختلافات الطبقيّة إلى الاختفاء. ومن ثم حاول الشيوعيون تدريجياً تخفيف حدة السيطرة، وبدأوا في تجنيد صفوة جديدة، ترتبط ارتباطاً تاماً مع النظام الجديد.

وفسر تصور «الحرية» بأنه هروب من القيود القاسية التي فرضها النظام القديم، ولكن ليس في ضوء منافع مادية إيجابية. وهكذا كان كثير من الكوريين الشماليين والجنوبيين يظنون أن حكومة «رى» هي الحصان الخاسر، ولذا لم يفكروا في الحصول على أي منفعة نتيجة قتالهم في جانب الأمم المتحدة.

وأخيراً ينبغي أن نتذكر أنه في خلال ثلاثة أشهر فقط، استطاع الكوريون الشيوعيون أن ينشئوا نظام سيطرة فعالاً في كوريا الجنوبية. وفي ضوء هذه الظروف، كان من المحال تقريباً أن يقوم المواطنون بأي أعمال عدوانية سافرة. وفيما عدا المناطق الريفية القاصية، كان العداء السري الفعال، وحتى المقاومة الفكرية السرية، تشكلان تهديداً عاماً، اقلق سلطات الاحتلال إلى حد كبير.

دور الحزب في الجبهة العسكرية

هذا الفصل له أهمية خاصة، لأنه يوضح لنا في يسر دور الحزب أو التنظيمات السياسية في تثقيف القوات المسلحة الشيوعية في الجبهة العسكرية، كما يوضح مدى العلاقة بين رجال الحزب والمقاتلين في المعركة، وهو شيء ينفرد به النظام الشيوعي.

على أنه كي تكتمل الصورة، رأينا اختيار نموذج للدراسة، مقتبس من تجربة عملية الهجوم السوفييتي في بولندا المعروفة باسم عملية وارسو - لودز - بوزنان.

التثقيف السوفييتي لقوات الجيش الأحمر.

في خلال الحرب العالمية الثانية، وفي بداية عملية « وارسو - لودز - بوزنان » هيأت الظروف في الجبهة موقفا مناسباً كي يقوم القادة والهيئات السياسية بإعداد قواتهم للهجوم المرتقب. وكانت القوات السوفيتية تواقّة إلى تدمير الوحش النازي في عرينه بأسرع وقت ممكن، وإلى رفع لواء النصر فوق برلين.

وفي ضوء هذا التصميم، أعد تثقيف سياسي خاص للقوات المسلحة السوفيتية. ومن ثم يجدر بنا أن نلم بالأشكال المختلفة التي شملها هذا البرنامج.

تخصيص افراد الحزب وتدعيم منظماته ومنظمات الكومسومول.

إن أكثر المظاهر أهمية للعمل الذي قامت به الهيئات السياسية في الفترة

التي كان يقوم فيها الجيش بالإعداد للهجوم، هو تخصيص كوادر الحزب ومنظمات الشباب «الكومسومول» حتى المستويات الدنيا، كذا تدعيم التنظيمات القائمة، وإنشاء منظمات جديدة للحزب والكومسومول في مستوى السرية المشاة وبطارية المدفعية. وأولت الهيئات السياسية اهتمامها الأولى إلى السرايا المشاة في خطوط الجبهة، حيث أوفد إليها شيوعيون من أماكن أخرى. وهكذا حينما بدأ القتال، كان قد تم إنشاء منظمات أصيلة للحزب والكومسومول.

لذلك أوفد شباب شيوعي من منظمي الحزب للمعاونة في إعداد تنظيمات السرايا المقاتلة. ولكي يعد المنظمون للقيام بمهامهم، عقدت إدارات الجماعات السياسية دراسات بالمجموعات، حيث تم فيها مناقشة عملية لمسائل عدة مثل: «العمل الذي يقدمه تنظيم الحزب بالسرية إلى القائد، وتكوين تنظيم الحزب في الجيش، والمهام التي تخصص للشيوعيين خلال المعركة، وكيف تعد الوثائق عن الذين يلتحقون بالحزب، ووسائل الاعتماد على الشيوعيين خلال المعركة.. الخ».

وفي سبيل إنشاء احتياطي من منظمي الحزب داخل الآليات لاستخدامهم على مستوى السرايا، قامت الإدارة السياسية التي كانت مسؤولة عن العملية بأكملها، بعقد مؤتمرات دراسية حضرها أعضاء الحزب الشيوعي من ضباط الصف والجنود. وكان ينتخب من بينهم أكثر الناس تعليماً ودراية وولاء للحزب. وبالإضافة إلى الدراسة حول وظائف الحزب في القولات الأدنى، كان يجري تدريب عسكري خاص للمشاركين في مؤتمرات الدراسة السياسية.

وبتدعيم تنظيمات الحزب والكومسومول داخل سرايا خطوط الجبهة، أصبح من الممكن تخصيص القوات المسورة، لتكون معدة لتأدية واجباتها في أول هجوم للقوات المسلحة.

العمل مع الإمدادات الجديدة

وفدت إمدادات جديدة إلى الوحدات المقاتلة، استدعيت في بادئ الأمر من مناطق روسيا البيضاء وأوكرانيا، والمناطق التي حررت من الاحتلال الألماني؛ وكان هؤلاء الرجال قد عزلوا عن وطنهم السوفييتي، ولم تكن لهم دراية

كافية بمجرد سير الحرب الحقيقي، وامكانيات الجيش الأحمر. وبالطبع كان هؤلاء الجنود القادمون من هذه المناطق يحتاجون إلى اهتمام أكبر من العمال السياسيين. وكان ذلك من واجب التنظيم السياسي، ولا سيما الدعاة والمثيرون، الذين سوف يقومون بمهارة بشرح أهداف الحرب الوطنية العظمى وطابعها إلى هؤلاء الجنود، كما سيذكرون لهم قوة الاتحاد السوفييتي والجيش الأحمر وامكانياتها، بالإضافة إلى ذكر المواد الحربية التي يمتلكها السوفييت، وبيان أنها تفوق ما لدى الألمان.

واستخدم الجنود ذوو الخبرة ومحنكو الحزب في مهمة التدريب العسكري للإمدادات الجديدة. وقام هؤلاء الرجال بشرح دور الجنود الأصغر في المعارك - قبيل ستالينجراد - على الدنيبر وفي روسيا البيضاء. وقد أتت التجربة بثراها، حيث منح كثير من رجال الإمدادات الحديثة أنواطاً وأوسمة سوفييتية لشجاعتهم في المعركة.

إنعاش حب الوطن وكرهية العدو.

انتعشت الروح المعنوية العالية بين المقاتلين نتيجة بث حب الوطن بينهم، وإثارة روح الكراهية ضد المعتدين الألمان الغاشمين.

وفي سبيل خلق روح الكراهية للألمان، كانت الإدارات السياسية ومنظمات الحزب تتبع توجيهات الرفيق ستالين التي تنص على: «لن تستطيع أن تقهر العدو لو لم تتعلم كيف تكن له الكراهية بكل قوى روحك!» وكان كتاب الرفيق ستالين المعنون بإسم «عن الحرب الوطنية العظمى للاتحاد السوفييتي»، هو الأساس الذي اعتمد عليه في بث الكراهية ضد الألمان. ولقد بين الكتاب بوضوح قاطع، الوجه الضاري للفاشية وشرورها، كذا المخاطر التي جلبتها الفاشية إلى الوطن السوفييتي، وإلى جميع الأجناس البشرية المحبة للحرية.

ولكي تثار في نفوس المقاتلين روح الكراهية للألمان، وضع العمال السياسيون في اعتبارهم المصالح الاجتماعية والشخصية للجنود السوفييت وقد أدى ذلك إلى جعل أعمال الإثارة أشد حدة وأكثر فعالية.

وعلى سبيل المثال، صدر منشور خاص وزع على الجنود بواسطة القسم

السياسي لفرقتهم جاء به: «لقد قتل الألمان والد «شبانوف» جندي الجيش الأحمر ووالدته، أما شقيقته فأرسلت إلى معسكرات الرق في ألمانيا... كما أن الفاشيين أطلقوا النار على أم «ديمشوك» وعلى أربعة أطفال له. وقرأ آلاف من الجنود السوفييت مأساة «شبانوف»، «ديمشوك» وأقسموا بأن يثأروا بلا رحمة بقتل الألمان.

وقام القسم السياسي لإحدى الفرق باستجواب سبعة آلاف مقاتل، وخرج بحقيقة من هذه الاستجوابات هي: أن المهتلرين قتلوا الأقارب المقربين والآباء والأمهات والزوجات والأطفال لستمائة وثمانية وستين جندي سوفييتي، كما قام الفاشيون بإحراق منازل لمائة وثلاث من المحاربين، كما استولوا على قطعانهم من الماشية.

وأصدر القسم السياسي منشورا، طلب من المقاتلين أن يتذكروا هذه الأرقام كي يثأروا من الفاشيين الشريرين. ونظمت الرحلات لعدة وحدات كي تزور «مايدانك» وترى آثار معسكرات الموت الفاشية.

وقامت الإدارة السياسية التي كانت تعمل في الجبهة، بإصدار صحف باللغات الاوزبكستانية، الكازاخنية، والتترية، والمولدافية. وكانت النداءات الموجهة كلها للجنود والتي ترسل بواسطة المنشورات والكتيبات، تترجم إلى هذه اللغات. وفي عشية الهجوم، نظمت اجتماعات واسعة بين الجنود من غير الجنسية الروسية، وبين زملائهم من الأرياف الذين كانوا أبطال الاتحاد السوفييتي. وفي هذه الاجتماعات قام هؤلاء الأبطال بشرح خبراتهم للجنود، ولقنوهم فن غزو العدو.

العون السياسي للعمل السياسي في المعركة

كان أكثر الأشكال نجاحا في عمليات التثقيف، تلك الاجتماعات التي نظمت بين المشاة وبين رجال المدفعية والدبابات والطيارين. إذ القيت كلمات من قادة ذوي خبرة إلى الجنود حول أهمية الانسجام والصدقة العسكرية بين الوحدات المختلفة.

وفي الثاني عشر من يناير، أو قبل يومين من المعركة، ذهب منظمو الحزب

والكومسومول في بعض البطاريات ، كذا عدة ضباط من الآي مدفعية الهاون إلى خنادق جنود المشاة وشاركوهم بجهرتهم في العمل المشترك ، الذي هيء لعمل اختراق خلال دفاعات العدو . وفي اليوم التالي ، توجه جنود من عدة سرايا مشاة إلى مواقع اطلاق وحدات مدفعية الهاون . وقام جنود الهاون بإطلاق مدافعهم ، وأظهروا مدى دقة تصويبهم . وفي حديث ودي تحدث رجال المشاة عن بعض أساليبهم في العمل المشترك . كذلك أرسلت وحدات المدفعية أفضل رجالها من الضباط وضباط الصف والجنود إلى سرايا البنادق ، حيث بيّنوا لهم مدى قوة نيرانهم ، واشتركوا مع المشاة في تبادل الخبرات حول العمليات المشتركة . وخلال هذه المناقشة قدمت اقتراحات عن طريقة استفادة رجال المدفعية من تقارير المراقبة ، ومواقع تصحيح النيران .

وكان اجتماع بعض الطيارين مع رجال الفرسان التابعين للفتنانت جنرال « خروزوف » له اهميته . فقد عرض على رجال الفرسان معدات الطائرة وتركيبها الآلي .

وقام اللفتنانت كولونل « بانينيلوف » بطل الإتحاد السوفييتي بعرض في الجو بطائرتة واطلق عدة اسلحة من طائرتة .

وفي طلعتة الثانية ، أظهر كيف يمكن للطيار أن ينتفع من الصواريخ التي تطلقها الوحدات الأرضية كوسيلة من وسائل الاتصال . وقام رجال الفرسان بعد ذلك بعقد اجتماع حضره الطيارون ، حيث تمت مناقشة أخطاء عدة ، مثل القصور في توقيت الاتصال بين الأرض والجو ، وإخفاق الوحدات الجوية في التعرف على قواتها الأرضية . وقد أدّت كل هذه الاجراءات إلى تجنب كثير من الأخطاء بعد اختراق قوات العدو ، وخلال عملية المطاردة التي تلت ذلك .

المحافظة على انضباط التمويه بين الجنود في مرحلتهم لحشد للهجوم .
تطلب موقف إخفاء تحركات القولات السوفييتيه عن عيون الألمان ، تنظيما على مستوى عال ، وانضباطا شديدا ، وذلك بينا كانت الكميات الهائلة من القوات والمعدات تتجمع تمهيدا لعملية الإختراق . ومن ثم كانت الأسبقية الأولى لمهمة الأقسام السياسية وتنظيمات الحزب ، هي تدعيم الانضباط العسكري

والنظام بين القوات خلال تحركها، والتشديد على المحافظة على الأمن العسكري خلال الفترة كلها. وقبل الزحف عقدت اجتماعات لرجال الحزب والكومسومول. وقام قادة الكتائب والفرق بتوضيح واجبات أعضاء الكومسومول والحزب في اثناء الزحف. وتلى ذلك عقد اجتماعات مشابهة لضباط الصف والجنود، حيث قام قادة الوحدات بمناقشات الواجبات للعمليات المقبلة.

ولقد كشف التفتيش على القوات عن أن إحدى الآيات المشاة في منطقة الحشد انتهكت قواعد «الإخفاء والتمويه»، ذلك أن النيران أشعلت وقت الراحة كما شرد كثير من الجنود، الخ... وفي نهاية اليوم الاول، قام أعضاء الحزب والكومسومول بمناقشة الأخطاء التي اكتشفت في هذا اليوم، واتخذت الاجراءات التي تقضي على هذا القصور. ثم أدار الشيوعيون نقاشا ذكروا فيه الجنود بمسئولية كل فرد عن إخفاء وحدته اثناء تحركها.

وكانت أغلب الوحدات السوفييتية محتشدة ليس بعيدا عن العدو، ومتخذة مواقع دفاعية. ومن ثم اتخذت الإجراءات لإنشاء مواقع جديدة للاختفاء والتمويه، متضمنا ذلك الحفر والخنادق. وكان من الضروري إخفاء عملية الإنشاء هذه عن أعين الألمان.

ولذا أصدر القادة أوامره بضرورة العمل بهدوء وبصورة مستورة وأشرف رجال الحزب والكومسومول على تنفيذ أوامر القادة.

العمل السياسي غداة الهجوم

وفي مساء ١٣ من يناير، أصبح واضحا أن القوات على جانبي القوات السوفييتية اتخذت جانب الهجوم، وكانت تزحف بنجاح. وسرعان ما قام القادة والعمال السياسيون السوفييت بنقل هذه الأنباء إلى جميع الأفراد. وتحقق النجاح نتيجة أن القوات السوفييتية المجاورة لقوات الهجوم ظلت محتشدة، حتى تولدت الثقة لدى القوات المهاجمة، بأن دفاعات الألمان الأمامية يمكن تدميرها بسهولة تامة.

وفي المساء، تسلمت الوحدات الأوامر بالهجوم. وفي هذا الوقت وزع كل جهاز الحزب السياسي على القيادات العسكرية المختلفة والقوات الأدنى. وكلما

سمح الموقف بعقد أي اجتماع، عقد قبل بدء المعركة بثلاث أو خمس ساعات. وكان كل عضو في الحزب أو الكومسومول يذكر بأن إدارته سوف تكون لها تأثير شخصي على المعركة. وكان يخصص بعض الضباط السياسيين للحديث في فصيلته، وكان الآخرون يكلفون بتوزيع منشورات حربية تشرح بعض الأعمال البطولية، أما المجموعة الثالثة فكانت ترسل للمؤخرة، وتبلغ الجنود عن أعمال البطولات التي أباها الجنود المقاتلون، كما تقوم بتحليل مختصر للبيانات التي يصدرها مكتب المعلومات السوفييتي.

وكانت هناك مجموعة رابعة تخصصت لرفع أعلام حمراء على الأهداف العسكرية المعادية، التي دمرت وتم الاستيلاء عليها.

وخلال فترة تتراوح بين ساعتين وثلاث ساعات - قبل بدء الهجوم - عقدت اجتماعات داخل السرايا، وحينما كانت الظروف لا تسمح بتجميع السرايا، كانت تدار الأحاديث على مستوى الفصيلة أو التروب.

كانت مهمة العمل السياسي خلال الهجوم، تنمية الحماس المتزايد للقتال بين القوات خلال المعركة. وهذا كان يتطلب أشكالاً خاصة من عمل الإثارة، تتسم بالمرونة والمبادأة.

وخلال سير المعركة تمت أنشطة العمليات الآتية بنجاح: النداء بشعارات معينة، وإدارة عرض لإطلاق نيران منظم، وإرسال تقارير إلى القيادات العليا عن المقاتلين الذين أظهروا بسالة في القتال، وإصدار منشورات عسكرية تصف بطولات الجنود، وتفسير تقارير مكتب المعلومات وأوامر الرفيق ستالين، وتبادل رسائل وملاحظات تحيي قادة الوحدات والسرايا على النجاح الذي قاموا بتحقيقه. وخلال الهجوم ذاته كان العمال السياسيون يرسلون خطابات إلى أقارب الأبطال، يذكرون لهم فيها بطولتهم ابنائهم.

وكانت المنشورات القصيرة مألوفة لدى الجنود، وان كانت محتوياتها متبانية. وفيما يلي نمط من منشور موجه إلى آلاي «الحرس»:

«إن رجال «الحرس» الجرحى لا يتركون ميدان المعركة.
«لقد جرح الرفيقتي «تارشبينين»، أحد جنود الحرس في الجيش

الأحمر في يده، ولكنه لم يترك ميدان المعركة، بل إنه بدلا من ذلك تسلم قيادة فصيلته واستمر في القتال. كما أن «بانورين» الذي يعمل على مدفع ما كينة أصيب ساقه، وظل في المعركة حتى أتمت وحدته واجبها.

النصر للشجعان».

وكانت النشرات عن نجاح الوحدات المجاورة تشرح للجنود: وعلى سبيل المثال، كانت إحدى وحدات البنادق المشتبكة في قتال مع العدو تحتاج إلى نقطة يحتلها العدو، ولم تتمكن من تحقيق ذلك ومن ثم، قام الآلى بعمل حركة التفاف واسعة وضرب الألمان في المؤخرة بصورة مفاجئة، وقام باحتلال النقطة التي كانت تقوم بالهجوم، ومن ثم قطع خط الرجعة على الألمان. وقام قائد الفرقة في نشرة خاصة، بتوجيه شكره إلى رجال الآلى، على بسالتهم وروحهم المعنوية العالية.

وكان شكر الرفيق ستالين يعد مكافأة عظيمة جداً للجنود في المعركة. وقد صاح أحد الجنود في حماس واضح حينما ظفر بهذا الشكر قائلا: «ان هذا لشرف عظيم! وكان العمال السياسيون يقومون بإعلان أسماء الجنود الذين نالوا هذا الشرف.

نو تنظيمات الحزب.

تدعمت تنظيمات الحزب على مستوى السرية بدرجة كبيرة، وذلك بضم أعضاء حزبيين جدد تم اختيارهم من بين المقاتلين الذين برزوا في المعركة. وكان سلوك التضحية بالذات الذي أبداه الشيوعيون خلال المعركة قد رفع من هيبة الحزب في أعين الرجال غير الحزبيين. وهكذا أعرب آلاف من الجنود على رغبتهم في الانضمام إلى صفوف البلاشفة. وخلال مرحلة التلاحم، قبلت تنظيمات الحزب في جبهة روسيا البيضاء ما يزيد عن ٢٠,٠٠٠ جندي كأعضاء مرشحين.

على أنه من ناحية أخرى، لم يستطع كثير من الإدارات السياسية وبخاصة بعض لجان الحزب في الفرق في الأسبوع الأول من الهجوم، التكيف بالظروف التي تطلبت الغيار السريع للقوات المقاتلة. ولقد تم القضاء على هذا القصور فيما

بعد بواسطة لجان الحزب، وبمعاونة عمال من أقسام الجيش السياسية، وإدارة الجبهة السياسية.

بعض مظاهر العمل السياسي للحزب

ويحسن بنا أن نتحدث بإسهاب عن بعض مظاهر العمل السياسي للحزب في المعارك التي خاضها الجيش الأحمر في مدينة «بوزنان». لقد استمرت هذه المعارك لمدة شهر، وانتهت بتدمير المجموعات الألمانية المحاصرة. وتطلب موقف المعارك في بوزنان بإنشاء وحدات هجوم خاصة تعادل قوة كتيبة بنادق. وبموجب هذا الأمر، تحول المكتب التنظيمي للحزب في الكتيبة إلى «مكتب تنظيمي» للوحدات الهجومية، الذي أصبح يمارس نفوذه من خلال تنظيمات الحزب والشيوعيين، ليس على السرايا البنادق فحسب، ولكن أيضا على القوات الإضافية للوحدات الإضافية من مدفعية ودبابات وغير ذلك.

وفي كل مساء حينما كان يهدأ القتال، كان مقرر الحزب يجمع أعضاء المكتب مع مقرري الحزب في السرايا والوحدات المعادية الجديدة، ويقوم بالنقاش معهم عن نتائج المعركة الحديثة، ثم يعرض القصور في عمل الحزب، ويجدد واجبات تنفذ في اليوم التالي. وخلال هذه المؤتمرات القصيرة، يقوم مقررو الحزب للسرايا بمناقشة خبرتهم العملية عن قتال الشوارع.

وكانت الوحدات الهجومية تقسم إلى مجموعات هجومية، وهذه المجموعات بدورها تقسم إلى مجموعات فرعية. وكانت تنظيمات الحزب تتأكد من ضم المجموعات الفرعية لعناصر شيوعية، وكانت بدورها تقوم بمهمة الحث على رفع روح القتال بين الأفراد الآخرين. وعلى سبيل المثال، كلفت مجموعة فرعية تحت قيادة الرقيب كيريشيك من رجال الحرس الأحمر الشيوعي، باحتلال مبنى محصن تحصينا منيعا. وبالإضافة إلى الرفيق «كيريشيك» ضمت هذه المجموعة الفرعية الشيوعيين شيلوف، زوكوف. وتمت المهمة العسكرية بنجاح. وفي المساء كتب على جدار المنزل المحتل العبارة الآتية: «كان الشيوعيون شيلوف، كيريشيك وزوكوف، أول من اقتحموا هذا المبنى».

وخلال قتال الشوارع في بوزنان، كانت الظاهرة الواضحة هي رفع الأعلام الحمراء على الأهداف الحيوية بعد الاستيلاء عليها بواسطة مجموعات الاقتحام.

وأثبتت هذه العملية فعاليتها ازاء معنويات الجنود في المعركة . وكقاعدة عامة ، كان ظهور علم احمر على هدف مستولى عليه يزيد من الروح العسكرية بين القوات الهجومية .

كذلك قامت الإدارة السياسية بتوزيع مجموعات من دليل المدينة « على هيئة الأركان للوحدات المختلفة ولأطقم المدفعية . وقد لعب هذا العمل دوراً هاماً في معارك مدينة بوزنان .

وفي مجال عمل الإثارة ، ثبتت مكبرات صوت في كل فرقة . وقد استخدمت هذه المكبرات لنقل أوامر ستالين القائد الأعلى للقوات المسلحة ، كذا ملخصات مكتب المعلومات السوفييتي ، ونداءات المجالس الحربية للجبهة والجيش .

وقبيل الهجوم على قلعة « بوزنان » ، وقف كولونل جنرال تشيكوف بطل الاتحاد السوفييتي مرتين أمام ميكروفون مكبر لمحطة إذاعة ، وناشد أبطال ستالينجراد أن يشنوا هجوماً بعزيمة على قلعة بوزنان . وسمع كل المقاتلين المحتشدين للهجوم نداء القائد ، وإنه لشيء يستحق الإعجاب أن نعرف ما فعله الجنود مع العدو في القلعة . لقد قاموا بواجبهم كاملاً وبشجاعة لا يشوبها غبار ، ومن ثم نجح تنظيم الحزب في تحقيق نصر ساحق على العدو في عملية بشاقة من عمليات الحرب .

الخلاصة:

قد يكون لهذا الفصل أهمية خاصة ، لأنه مستقى من خبرات رجل كان يعد واحداً من أكبر ثلاثة أنيطت بهم مسؤولية الدعاية وأنشطة الحزب في القوات المسلحة السوفييتية . ففي مقال كتبه اللفتنانت جنرال « م برونين » بعنوان العمل السياسي في الهجوم « عن تجربة عملية وارسو - لودز - بوزنان ، وضع برونين إرشادات قيمة كي يستخدمها العمال السياسيون داخل القوات المسلحة السوفييتية في المستقبل .

الباب الرابع

الأسلحة والوسائل

Handwritten text, possibly a name or title, appearing in the middle of the page.

Handwritten text, possibly a name or title, appearing below the first line.

إذا كان للحروب أسلحة معينة تقاتل بها جيوشها، فإن للحرب الثورية أيضا ترسانة من الأسلحة الخاصة بها تستخدم لتحقيق أهدافها.

فضلا عن «الدعاية والإثارة» اللتين عرضنا لهما بالتفصيل في الباب الثالث، هناك أسلحة كثيرة أخرى، مثل التجارة، والجاسوسية الصناعية، والهجوم الاقتصادي، والمظاهرات، والاضرابات، والمناورات في الأمم المتحدة، هذا بجانب سلاح هام يسمح للشيوعيين بالمرونة والتوغل داخل معسكر العدو، أعني استخدام الوطنية كما استخدم حسان طروادة.

ولما كان تمزيق مجتمع الخصم من أولى أهداف الحرب الثورية، فلا بد من استخدام عدة وسائل خاصة، كالهجوم على الأخلاق، وغزو المعنويات، وتقويض دعائم الدين، وتمزيق الديمقراطية.

كما اكتشف الشيوعيون أن الثقافة سلاح فعال في حربهم الثورية، فهي تعمل على التأثير على عقول الناس، وتحركهم في الاتجاه المطلوب، الشيء الذي يدعم مركز الطبقة الحاكمة نتيجة احتكارها للثقافة والفكر، وفرض آرائها الزائفة بما يتلائم مع اغراضها.

على أن الشيوعيين وهم لا يدعون أي فرصة دون استغلالها، استخدموا الزيارات التي تقصد روسيا كسلاح هام في حربهم الثورية، لنشر دعايتهم التي تتمشى مع أهدافهم الاستراتيجية والتكتيكية.

وهذا الباب يقف عند هذه الموضوعات، وإن كانت ثمة أسلحة أخرى تحدثنا عنها في الفصول السابقة ومنها العمل السري، والجاسوسية السوفيتية، وأعمال التزييف والتطهير، الخ...

الفصل الأول

وسائل رئيسة خارج الستار

ما دمنا تأكدنا من نمو الدولة السوفيتية في عمليات الحرب الثورية، يصبح لزاما علينا أن نناقش بعض الوسائل المميزة التي يستخدمها الشيوعيون خارج الستار الحديدي، لتحقيق غزوهم الشامل، وفرض سيادتهم. ولقد تحدثنا في الفصل السادس من الباب الأول عن الإعداد للغزو الشيوعي للعالم غير الشيوعي. وفي هذا الفصل سنحاول بحث بعض الأساليب التي تعد سمة مشتركة للعمليات السياسية الشيوعية في العالم غير الشيوعي.

استخدام الوطنية كحصان طروادة:

يهدف التصور السوفيتي للوطنية كما طور للتصدير، إلى تمزيق العالم الرأسمالي تحت شعار: «دع كل شعب يقف وحيدا للتعامل معه»، أو اقطفه منفردا. فالسوفييت يندون أقصى درجة من الوحدة لجانبهم، وأقصى درجات التمزق لجانب أعدائهم، وهم لا يكلون عن إثارة طموح الوطنيين والتشكيك في خصومهم إلى أقصى درجة ممكنة، فمثلا إذا انضمت دولة ما إلى أي حلف مع الولايات المتحدة من خلال حلف شمال الأطلسي أو حلف جنوب شرق آسيا مثلا، أو أبرم اتفاق اقتصادي وجبت معارضته ووصمه بأنه «صنيعة» الإمبريالية الأمريكية. أما حلف وارسو أو أي اتفاقات داخل الفلك السوفيتي. فهو تضامن للحفاظ على الفردوس الشيوعي! ومن ناحية أخرى، فإن المجموعة التي يطلق عليها «اصطلاح»، «دول عدم الانحياز» وتعارض

الولايات المتحدة، ينبغي أن تشجع في المرحلة الأولى لاجتذابها إلى فلك استراتيجية الصراع السوفييتي.

ولكن ما هي متضمنات السياسة الشيوعية تجاه الوطنية؟ إن سلطة دولة السوفييت أو الشيوعية مبنية على تصور اجتماعي، أي حكم مفترض لطبقة معينة من المجتمع، وتصفية الطبقات الأخرى. ومن ناحية أخرى، فالوطنية كما نعرف تصور سياسي موحد قائم على أساس التاريخ، واللغة، والأرض ومميزات مشتركة أخرى تجمع بين كل الناس الذين يقطنون منطقة معينة. وبالطبع فإن هذين التصورين للتنظيم السياسي معاد كل منهما للآخر.

إن التناقض في هذه الحالة لا يمكن التوفيق بين قطبيه. ولكي تستغل الدولة السوفييتية عامل الوطنية، تتعامل مع الدول على علاقتها، سواء أكانت اقطاعية أم شبه اقطاعية أم بوجوازية، ويتسلل الشيوعيون داخل الدول الأخرى ويتعاملون مع كل العناصر القائمة بها بغض النظر عن الاعتبارات الاجتماعية. ويررر السوفييت هذا على أساس أن الجزء الاشتراكي من برنامجهم سوف ينفذ بعد اضطلاعهم بالمسؤولية، وبعد تصفية الطبقات المالكة والعناصر المعادية الأخرى. وفي ضوء هذه التوليفة، يعد الدور التوسعي للسوفييت شكلاً سامياً من صراع الطبقة، حيث تستخدم فيه كل الوسائل والطرق التي تخدم القضية.

والجدير ألا يغيب عن بالنا أن أهداف الدولة السوفييتية الأصلية كانت كالاتي:

(١) رفع الطبقات العاملة إلى وضع سام في المجتمع، وهو وضع وعدت به الطبقة العاملة تاريخياً.

(٢) تحرير المزارعين من عبوديتهم ومن حاجتهم إلى ملاك الضياع.

(٣) رفع المستوى الثقافي والمادي للجماهير بصفة عامة.

(٤) تطهير المجتمع من كل الطبقات والمؤسسات التي قد تعرقل تحقيق هذه الأهداف. ولكن النظام في الاتحاد السوفييتي ابتعد من الناحية العملية عن

المبادئ التي نادى بها عند مولده، وكرس كل طاقاته لا لتحسين ظروف كتلة الجماهير، ولكن لبناء سلطة الدولة السوفيتية.

ونجد جذور تحول الدولة السوفيتية عن سياسات الطبقة الصارمة إلى استغلال الوطنية، في بعض نظريات لينين الاستراتيجية. ولكن قبل الحرب العالمية الثانية، كانت مطامح الوطنيين وآمالهم مرتبطة بسياسات الطبقة، كما كانت الحال عليه خلال فترة الجبهة الشعبية في منتصف الثلاثينات،. وخلال الحرب العالمية الثانية، تعامل ستالين مع الشعوب كأعداء حرب أو كحلفاء، وأوقف صراع الطبقة.

والوطنية وفقا لآراء ماركس ولينين فلسفة بورجوازية للدولة والمجتمع، فإذا ما سمح للشيوعيين بالمشاركة مع الوطنية البورجوازية حينما تكون في موقف المعارضة للحكومات السائدة الكبرى في العالم الرأسمالي فإن الانقسامات في هذا العالم يمكن استخدامها بغض النظر عن الطبقة أو الأيديولوجية، طالما كانت خلافاتها تناسب الأغراض السوفيتية.

تلك بايجاز هي الدبلوماسية العملية للسوفييت وجهازها السري في السنوات الأخيرة، وبخاصة في الدول التي تكون الأحزاب الشيوعية بها ضعيفة. ومن ثم لا يكمن مركز العمل التأمري في هذه الدول في رئاسات الأحزاب الشيوعية الوطنية، ولكن في السفارات السوفيتية. وتعمل السفارات من خلال تنظيمات العمل السري السوفيتية، أو التنظيمات المتفرعة مثل البعثات التجارية والوفود الثقافية الرسمية، وخدمات الأنباء مثل وكالة «تاس للأنباء» الخ... وفي كثير من هذه الدول تصبح الأحزاب الشيوعية الوطنية قوة ثانوية في التركيب الشامل للحرب الثورية السوفيتية.

على أن الأسلوب الذي ناور به الشيوعيون في الشرق الأوسط، يعد صورة واضحة لاستخدامهم الوطنية كوسيلة لاخترق أسوار منطقة كانت منذ ربع قرن أو أكثر قليلا حصن الغرب الذي لايجترق، كما أن تعاون الاتحاد السوفيتي مع بريطانيا والولايات المتحدة في إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٧، مهد الطريق لها لجولات في الشرق الأوسط. وكان وصول الأسلحة السوفيتية إلى مصر بعد

انتهاء مؤتمر جنيف لعام ١٩٥٥ بقليل ، علامة لوصول الاتحاد السوفيتي كقوة معترف بها في الشرق الأوسط . ولم يكن تدعيم القومية العربية في حد ذاته كافيا ، ذلك أن الأحزاب الشيوعية العربية لم تكن قوية بدرجة كافية ، ومن ثم استخدمت موسكو الأسلحة ، والعون الدبلوماسي والمساعدات الفنية ، والقروض لخلق الوجود السوفيتي سياسيا في الشرق الأوسط ، ثم في النهاية تدعيم الأحزاب الشيوعية العربية .

كان الدافع الأول لتحالف الكرملين مع القومية العربية هو على ما قال خروشوف : « طرد الغرب من المنطقة » وقد سارت هذه السياسة الى حد ما ، ولكنها لم تصل إلى النتيجة المرغوبة .

ولنأخذ مثلا ما حدث في عهد خروشوف ، فبينما كان متحالفا مع الرئيس عبد الناصر ، كان يبني سلطة في العراق ، وحينما هاجم عبد الناصر الشيوعيين فضل خروشوف أسلوب الوفاق .. ومن ناحية أخرى أكد خروشوف للعرب أن ما حدث في العراق أيام عبد الكريم قاسم لا علاقة له بالاشتراكية ، وأن السياسة السوفييتية إزاء الدول العربية لم تقم كلية على أساس هذا المبدأ . ولكن إذا ما حاول زعيم وطني في المنطقة ألا يتعاون ، فإن الكرملين سرعان ما يلجأ إلى استخدام قفزات التهديد ، وذلك بإثارة المطالب الديموقراطية للشعب ، أو بممارسة الضغوط المختلفة في الأزمات التي تنشأ .

إن الورقة الراجحة التي تحتفظ بها موسكو ، وتلعب بها في أوقات معينة في الشرق الأوسط - هي ورقة الدفاع عن الجماهير ، وليس هذا مجرد دفاع نفسي عن الوطنية ، التي تكون حينئذ قد نحل وبرها ، ولكنه بمثابة دفاع شيوعي لتفتيت الثروة . لقد عانت جماهير شعوب الشرق الأوسط من الجوع لقرون عدة ، ولذا فإن الكراهيات المتراكمة في نفوسهم يمكن أن تثار وتنظم بواسطة « جنى » شيوعي ، ذلك أن الكراهية لا تعرف المنطق ، وهي تنفجر إذا ما سنحت لها الفرصة ، وإذا ما أحسن توجيهها فإنها قد تصبح قوة فعالة ... إن هذه القوة قد تطمس أقوى الزعماء العرب ، وقد تجلس على العرش عربيا « ماركسيا » ، على أن حقيقة تحول مثل هذه الثورة الى دولة قد تظل خافية عن الجماهير ، الذين كما قال لينين « لا يملكون في وقت لاحق قدرة تبصر كافية » .

على أن لعبة الشيوعيين جرت في الشرق الأوسط - شأنها في ذلك شأن لعبتها في أي مكان - على مراحل. وتعد المرحلة الحالية في الدول المتخلفة مرحلة الوطنية، وليست مرحلة الاشتراكية، ولكن النتيجة النهائية التي ينشدها الشيوعيون هي الاشتراكية ثم الشيوعية.. وبالطبع فإن الشيوعيين سوف ينمون مطالب الاشتراكية العربية وذلك حينما يعجز الزعماء العرب خلال المرحلة الوطنية من الثورة، عن تحقيق وعودهم للجماهير.

مسألة الشيوعية الوطنية:

لا تتسامح موسكو مع أي انشقاق منظم داخل الحزب الشيوعي السوفييتي، أو داخل أي أحزاب تبناها موسكو في الخارج، فإذا ما حدث مثل هذا الانشقاق فلا بد من تصفيته. وإذا كان المنشقون يملكون الأغلبية في أي جزء من أجزاء الحركة الشيوعية، فإنهم ينفون ويعاد تنظيم الحزب، أما إذا كان الحزب في موقع السلطة في دولة ما، فإن المنشقين قد يعتقلون أيضا، وكانوا في الماضي إما أن ينقلوا إلى معسكرات عمال الرق، وإما أن يعدموا في حركات التطهير.

إن عملية التطهير للشيوعيين المنشقين تجربة عميقة الجذور. لقد كان طرد تيتو عام ١٩٤٨ من الشيوعية الدولية بمثابة أول حالة لزيم حزب شيوعي في السلطة، استطاع دون مساعدة خارجية أن يجتاز هذه العملية. ولقد أدى عجز ستالين عن تصفية تيتو إلى جذب انتباه العالم الخارجي.

وكان التطهير كما طوره ستالين مفتاح التطور النهائي للدولة البوليسية. ذلك أن ستالين لم ينتظر حتى تنمو المعارضة، بل سبق واستفزاها. لقد ابتكر التطهير الوقائي واستنفدت هذه الطرق أربع عشرة سنة (١٩٢٤ - ١٩٣٨) كي تحول الحزب الشيوعي الروسي في الواقع إلى حزب اشتراكي وطني أو فاشي. وحينما وصلت أعمال التطهير إلى الدول التابعة للفلك الشيوعي. أراد ستالين أن يفرض فوراً تصوره الفاشي عن البلشفية.

كانت الأحزاب الشيوعية غير الروسية قد تعودت على النظر إلى أن الحزب الشيوعي الروسي هو الحزب الأول، ولكنه الأول بين الأنداد، وكان هذا

التصور قويا بخاصة بين الأحزاب التي وصلت إلى سلطنة الدولة في أوروبا الشرقية من خلال العون السوفييتي. ولم تكن هذه الأحزاب على استعداد كي تصبح أدوات مباشرة لموسكو، وما إن شعر ستالين بهذا الموقف حتى بدأ يطبق ابتكاره «التطهير الوقائي».. وبدأت الرؤوس تهوى، واستثير تيتو في المعارضة وطرده. وبعد تحدي تيتو لموسكو أصبحت الشيوعية الوطنية مارقة. ومن ثم شق التطهير طريقه إلى الدول التابعة.

كان لينين يرى كثورى عملي، أنه من المسموح استخدام الوطنية كحليف لأغراضه.. لقد كان راغبا في العمل معها كي يقتلها. ولكن تصور تيتو اختلف قليلا، ذلك أنه وقد أسند ظهره للحائط، أخذ يجادع الوطنية. وما إن مات ستالين، حتى عاد تيتو إلى الحظيرة الشيوعية.

ولم يكن أمامه أي اختيار، ذلك أن تيتو من حيث هو شيوعي كان يدرك أنه لو تهشمت الامبراطورية السوفييتية، فإن تعايشه الذاتي بجانبها سوف يصل إلى النهاية، ومن ثم كان أشبه بجسيم يجتذبه مغناطيس.

وهيأت قطيعة ستالين لتيتو فرصة للمتعاطفين كي يتحولوا، ذلك أنه أصبح في استطاعتهم التسلق على عربة الفريق المعادي لستالين، دون أن ينبذوا تعاطفهم الأيديولوجي، وذلك عن طريق اتباعهم خط «الشيوعية الوطنية التيتوى»، الذي قد يصلح الشيوعية الدولية.. ولقد ادعى بعض الذين أغرتهم الشيوعية في الثلاثينات، بأن الانشقاق الذي حدث في الجبهة الشيوعية الراسخة، إنما يرجع إلى مهارتهم وسياساتهم الإيجابية إزاءها.

وهكذا كان في استطاعتهم تحويل اخفاقهم في اقرار الطابع الطغوائى للشيوعيين، إلى صورة من صور النجاح. وفي الوقت ذاته، داوم بعض الشيوعيين على اتخاذ سياسة موالية لماو في الصين، محاولين خلق خلافات بين ماو وستالين.. ولما اخفقت سياسة التحول نحو الصين «كمهرب» يوتوبى، قدم تيتو نظاما بديلا للشيوعية المعتدلة.

ولقد حاول تيتو الاحتفاظ بصورة هادئة للشيوعية الوطنية المعتدلة، بالحث على سياسات داخلية معينة، مختلفة عن تلك الطبقة في الاتحاد

السوفييتي . ومن ثم ابتكرت الشيوعية الوطنية التي لم تكن أكثر اختلافا عن الشيوعية « الماوية » لتغطية الاخفاقات الماضية . ولا يعنى هذا أن الوطنية التي هي في هذه الحالة مرادفة للحنين إلى الحرية ، لا توجد في يوغوسلافيا أو خلف الستار الحديدي . بل على العكس نجدنا قائمة .. ولكن لا يمكن لأي حزب شيوعي أو للمتعاطفين أن يصبحوا من أنصارها . وإذا تطلب الأمر للتدليل على أن الشيوعية والوطنية تصوران متناقضان ، فإن التمردات التي قامت خلف الستار الحديدي وبخاصة ثورة المجر عام ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ تعد براهين قوية .

التجارة السوفييتية في الحرب الثورية:

إن التبرير الأساسي لإنشاء سفارات سوفييتية ضخمة في كثير من بلاد العالم غير الشيوعي ، هو الادعاء بفتح فرص للتجارة السوفييتية . وتصبح هذه الفرص أكثر احتمالا لو أن التجارة مع السوفييت تقرر على أساس اعتبارات سياسية وليس على أساس احتكار الحكومة ، فموسكو لا تباع ما تحتاج إليه الشعوب أو تريده ، بل بالأحرى ما هو ضروري من وجهة نظر بناء آلة السلطة ، وهي تقريبا سلع رأسمالية صناعية ومواد أولية ضرورية . وهكذا كلما نمت الامبراطورية السوفييتية أصبحت المساحة التي تحت ادارتها تسحب باطراد خارج تجارة العالم الخارجية .

على أن هذا لا يمنع آلة دعاية موسكو من التعلق باحتال الحصول على ارباح ضخمة من التجارة السوفييتية برغم أنف البورجوازية .

على أنه بالنسبة للبلاد الصغيرة المعرضة للهجوم ، فمن العسير أن تكون التجارة عملية مربحة للسوفييت ، ويكون الغرض حينئذ إرسال خبراء سوفييت في أعمال التخريب .. وهكذا فإن « خصان طروادة » المخطط بشرائط ، يقوم بالاضطلاع باتجاه الحزب الشيوعي المحلي ويدعّمه . وبدون تناسب توزع هيئات دبلوماسية ضخمة في الدول الصغيرة ، ويشير هذا إلى أن موسكو تعد هذه الدول من الدول المعرضة سياسيا للهجوم . ومقابل فئات التجارة التي تلقيها موسكو ، تقوم الدولة الصغيرة بإرسال رجال صحافتها وأفراد الإتصالات الأخرى بها إلى

موسكو، حيث يستخدمهم الكرملين في إذاعة دعايات للدولة الصغيرة، وحتى إذا كانت التجارة غير ضرورية للأغراض السوفييتية فإنها تستخدم لتمويل أعمال التخريب.

ووفقا لدائرة المعارف السوفييتية الكبرى، فإن سياسة التجارة الخارجية للاتحاد السوفييتي جزء من سياسة الاتحاد السوفييتي الخارجية الشاملة، ذلك أن تجارة السوفييت الخارجية تدار ليس لغرض التجارة كما يحدث في الغرب وقت السلم، ولكنها تدار كوسيلة لتحقيق أهداف سياسية. ويمكن أن نقرب من إدراك طابع هذه التجارة، لو قمنا بمقارنتها بطرق تجارة الغرب ووسائله في زمن الحرب.

وعلى غرار كل الأنشطة خارج الستار الحديدي، تعتمد التجارة الخارجية السوفييتية على أسلوب احتكار الدولة، فهي تقوم بجميع أعمال البيع والشراء، ولا تتقرر سياستها وفقا لاحتياجات الشعب، ولكن وفقا لاحتياجات الدولة، كما يراها أولئك الذين يتولون قيادة الحزب الشيوعي بها. ان احتياجات التجارة الشاملة للدولة تتطلب امتلاك السلع الرأسمالية - الآلات والادوات والمفاعلات اللازمة لبناء الصناعات الضرورية لإنشاء قوة عسكرية.. كما أن الشيوعيين يستخدمون التجارة للتغلغل في العالم غير الشيوعي، وهم يستوردون معدات مثل مصانع النسيج تمكنهم من انتاج سلع استهلاكية ضرورية، دون استنزاف المصادر الخاصة بالانتاج الحربي.

والشيوعيون بعامة ليسوا تجارا.. إنهم ثوريون، والتجارة بالنسبة لهم وسيلة من وسائل الغزو. وحينما دعت الضرورة إلى تبادل التجارة مع العالم الرأسمالي - وذلك عندما كانوا يعدون غارة ثورية في الغرب - واجهتهم مشكلة كيفية استغلال التجارة إلى أقصى درجات الفعالية. لقد كانت التجارة سلاحا جديدا للبلاشفة في الحرب الثورية. ولما لم يكن لديهم سوابق في استخدام التجارة، فقد كان عليهم أن يقبلوا مبدئيا قواعد البورجوازية في هذه اللعبة. وفي البداية، كانت وكالات التجارة مكدسة بتجار من عهد القيصرية، نجوا من الثورة. وكان يرأس الوكالات اعضاء من الحزب، لا يتمتعون إلا بخبرة طفيفة في هذا المجال.

ولقد بدأت التجارة السوفييتية بإنشاء إدارة احتكار التجارة الخارجية. وأعقب ذلك ظهور وكالات التجارة الخارجية الحكومية، التي يديرها السوفييت في البلاد الرأسمالية الكبيرة. وكان هذا هو الجهاز الرئيسي الذي انتشر في النهاية في كل البلاد التي كانت تربطها علاقات مع الاتحاد السوفييتي. وفي خلال العشرينات والثلاثينات بذلت جهود كبيرة بواسطة وكالات التجارة الخارجية والأحزاب الشيوعية في البلاد الأجنبية، وذلك لتجنيد فنيين ومهندسين أجانب كي يعاونوا في تطور الصناعة السوفييتية، ولقد تضمن التجنيد أيضا العمال المهرة الذين تم معاملتهم في الأجور والوظيفة كمساعدي مهندسين. كما أشرفت وكالات التجارة السوفييتية على عملية التجنيد الواسعة من خلال جمعيات المعونة الفنية لروسيا السوفييتية، التي قامت في البلاد المتقدمة، صناعيا. وهكذا تم تجنيد آلاف من الفنيين من أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وكان هذا أول جهد ناجح قام به البلاشفة في مجال الحصول على المعرفة الغربية. وأصبح الفنيون الأجانب وجواسيس الصناعة، بمثابة عقول تمتص المعرفة والكفاءة الصناعية الغربية.

وجاءت الحرب العالمية الثانية، وحصلت روسيا السوفييتية على معونات صناعية ضخمة نتيجة دخولها هذه الحرب، فكانت حجر الزاوية في تطور الصناعة بالاتحاد السوفييتي. ولكن الفيض الكبير جاء بعد الحرب باسم «تعويضات الحرب» إذ استولى السوفييت على غنائم ضخمة من القارة الأوروبية، وبخاصة من تلك المناطق التي كانت واقعة في قبضتها. ولم تتضمن مكاسبها المخازن الضخمة للمعدات الصناعية فحسب، بل استولت أيضا على الفنيين الذين كانوا إما يستأجرون وإما ينقلون عنوة.

ولقد لعبت الجاسوسية الصناعية دائما دورا فعالا في حصول السوفييت على المعرفة الصناعية، ووجد الكرملين الغرب هدفا سهلا، لا نتيجة تشوقه للتجارة، ولكن نتيجة عاداته الحرة البسيطة. ففي معظم البلاد الغربية، ليست هناك قوانين واحتياطات ضد الجاسوسية الصناعية، وحتى إذا كان هناك أي شيء من ذلك فإنه يمكن للتنظيمات الشيوعية أن تتجاوزها بسهولة

مناسبة. وطالما رأى الشيوعي أن من الخلق القويم استخدام أي حيلة في خداع الرأسمالي أو سرقة، فإن الحكومة السوفيتية ترى أنه من الأعمال المشروعة أن تتجاهل «حقوق الاختراع»، وأن تقلد الأدوات والآلات التي تقوم بشرائها كعينات، ثم تعيد إنتاجها.

ومن خلال نظام جاسوسيتها الصناعية تنشد الشيوعية الحصول على معلومات متقدمة عن الاختراعات وعمليات التصنيع، وبخاصة تلك التي لها قيمة عسكرية، حتى ولو كانت في مرحلة التصنيع. كما نجد أن وكالاتها الخاصة بالتجارة والمبادلة مقعمة بخبراء في الجاسوسية الصناعية، وهم يتجولون في جميع التسهيلات الصناعية الغربية، ويتعلمون أكثر مما يبتاعون. كما أن وفود السوفييت الثقافية ووفود الزيارات تكون مكدسة بافراد مدربين على التقاط كل شيء يتعلق بالصناعة. ويرى الغرب أن هذا هو مفتاح الأهداف المحركة للتبادل الواسع النسبي في العلماء والفنيين بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية.

دفع قائمة الحساب:

إن مصروفات الحرب الثورية السوفيتية باهظة التكاليف، وطالما رفض النقد السوفيتي في الاسواق الدولية، فلا مفر من أن تدفع السوفييت بصادرات حقيقية أو بالذهب. كذلك فإن نفقات الحرب الثورية خارج الستار الحديدي ينبغي أن تدفع في النهاية بالنقد الأجنبي، التي تحصل عليه من خلال التجارة. وتدفع الاكتتابات الضخمة للأحزاب الشيوعية من أرباح التجارة الخارجية، كذلك نفقات الهيئات الكبيرة للسفارات والقنصليات السوفيتية، ووكالات التجارة وخدمات الأنباء.

وهناك وسيلة سوفيتية أخرى، وهي غير معروفة على نطاق واسع، لأنها في نطاق السرية المطلقة أعني استخدام طرف ثالث لعمليات التصدير والاستيراد كي تتفادى الإجراءات الجمركية. وتوكل هذه المهام إلى رجال أعمال من الأعضاء السريين في الحزب، أو قد يكونوا من المتعاطفين مع الشيوعيين. وتستطيع الشركات السرية أن تعمل بجرية أكبر في عالم ادارة الأعمال، إذ

تستطيع أن تبتاع سلعا للتصدير على أن الشركات التي آلت ملكيتها للشيوعيين، لعبت دورا كبيرا في التغلغل المبكر في الصين الوطنية في اواخر العشرينات، وانتشرت التجربة منذ ذلك الوقت في أنحاء البلاد الأخرى. كان الدافع وراء هذا الابتكار دافعا سياسيا. لقد استخدمت هذه الشركات لأغراض تجسسية كي تنقل الأموال لعمليات الشيوعيين، ولكي تمد العملاء الشيوعيين بأوراق الاعتماد التي تمكنهم من السفر بحرية داخل الصين الوطنية وخارجها، بالإضافة إلى المشاركة في أعمال تهريب السلاح. ولقد امتد نطاق مثل هذا النشاط منذ الحرب العالمية الثانية، في كل من جانبيه السياسى والتجاري. ويمكن استخدام السيطرة على الشركات المحتمل أن تكون غير شيوعية، من الناحية السياسية، ولأغراض السوق السوداء. وحتى إذا استخدمت كمجرد اداة تكميلية للتجارة السوفيتية فإن أرباحها يمكن استخدامها في تدعيم الحركة الشيوعية وتمويلها، كما كان الحال في ايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية.

الهجوم الاقتصادي السوفيتي:

قد يكون شيئا غير عادي أن تقوم دولة تعاني من قصور جاد في السلع الاستهلاكية، بالهجوم الاقتصادي على دولة رأسمالية أسمى منها اقتصاديا.. وينبغي أن ينظر إلى الهجوم الاقتصادي السوفيتي على أنه يتضمن غرضين: أولا كجهد لتدعيم هجوم الاتحاد السوفيتي السياسي الذي بدأ خلال الخمسينات ضد العالم الرأسمالي، وثانيا كاستجابة لاتساع نطاق برنامج المعونة الخارجية الأمريكية.. إن السوفيت يخشون أن تظل المستعمرات السابقة والدول المتخلفة مرتبطة مع الغرب، ومن ثم تضرب كل آمالهم إزاء أي توسع آخر، فالهجوم الاقتصادي لم يكن نتاجا طبيعيا لنمو السوفيت الاقتصادي، ولكنه كان حصادا ثانويا لسياستهم الخارجية العدوانية.

وتتجه وسائل الحرب الاقتصادية اتجاهات ثلاثة رئيسة:

(١) إغراق السلع بأسعار منخفضة.

(٢) منع التجارة كنوع من الثأر، أو حينما يكون الحرمان وسيلة لمعاونة

الأحزاب الشيوعية المحلية.

(٣) القروض، والتجارة، والمعونة الفنية، والتسليح، للدول التي تنتهج سياسة موالية للأهداف الشيوعية، والتي قد ترمي في النهاية في أحضان الفلك السوفييتي.

ولنحاول أن نفحص قليلا من أمثلة هذه الاستراتيجية. إن سياسة إغراق السوفييت لتجارة القصدير عام ١٩٥٩، أدت الى تخفيض السعر في السوق الدولي الى ٢٠٠ دولار للطن. ولقد أدى ذلك بدوره الى أزمة اقتصادية كبرى في الدول التي تنتج القصدير مثل الملايو وبوليفيا. وكانت لسياسة الإغراق في هذه الحالة دوافع اقتصادية بحتة، هي الحصول على النقد الأجنبي الذي لم يكن له أهمية حينئذ لتدعيم القضية الشيوعية في هذه البلاد.. وبالطبع فإن الشيوعيين في الملايو وبوليفيا القوا لوم الأزمة على الامبريالية الأمريكية.

وهذه الاستراتيجية للأسف قد جربت معنا، ففي النصف الثاني من الخمسينات، حينما قام السوفييت بتزويدنا بالأسلحة والطائرات، ابتاعوا مقابل ذلك قطننا طويل التيلة لسنوات عدة قادمة.. ولقد اكتشفنا أن الكرملين لم يكن يستخدم هذا القطن لتصنيعه في الإتحاد السوفييتي، بل قام الكرملين بإعادة تصدير القطن للحصول على نقد أجنبي، وبذلك أضر بأسواق قطننا العادي ومن المعروف أننا نعتمد اعتمادا كبيرا على محصول القطن، ومن ثم أصابتنا موسكو بضرر اقتصادي، واصبحنا لفترة طويلة نعتمد عليها اقتصاديا.

وتعد الدول ذات الزراعة الواحدة الرئيسة من الدول المعرضة بخاصة لهذا النوع من الضغوط. فمثلا عرض السوفييت على البرازيل اتفاقا بتبادل تجاري، يقدم فيه السوفييت ٢٠٠,٠٠٠ طن من الزيت الخام مقابل محصول البرازيل من البن، الذي وجد طريقه إلى السوق العالمية - فالروس يشربون الشاي ولا يستعملون القهوة. وهم بتبادلهم منتجاتهم التي تمتاز بأجور العمل الرخيصة بمنتجات هذه الدول، ثم القيام ببيعها في الأسواق العالمية، إنما يضغطون على السوق العالمية، ويحصلون في الوقت ذاته على النقد الأجنبي اللازم لعمليات حربهم الثورية ولقد اعتاد خروشوف على إعادة بيع المطاط من اندونيسيا وسيلان، والأرز من بورما، والصوف من اورجواي، والقطن من مصر، وكل هذا كان يحصل عليه عن طريق التبادل التجاري. وكانت الصين الشعبية تنفذ

سياسة الإغراق بتخفيض أسعار البيع في الدول الأخرى، ويتضمن ذلك الهند بمنتجاتها من الشاي والفحم والنسيج والجوت، ولقد ازدادت صادرات الصين إلى هونج كونج، وسنغافورة، والملايو، وتايلاند، وبورما باطراد منذ عام ١٩٥٨. وبالرغم من أن حجم التجارة الشيوعية والسوق العالمية لا يزيد على ١٠٪ من حجم تجارة العالم، فهي تعد بداية طيبة، وهي لكونها تعمل من مركزين، فإن وقعها يزيد عن حجمها الذي تتضمنه.

وهناك طريقة أخرى من المحتمل أن تجرب بصورة أوسع، وبخاصة مع الشعوب الصغيرة أو الضعيفة، تلك الطريقة هي استخدام التجارة السوفييتية كمنتدى سياسي. لقد كان على فنلندا أن تدفع للسوفييت تعويضات حرب ضخمة، ومن ثم نخرت اقتصادها في سبيل هذا الغرض. وحينما انتهت التعويضات، اجريت محادثات لعقد اتفاق تجارة جدي.. وكانت هذه هي اللحظة التي اوقف عليها خروشوف كل التجارة التي كانت أساسا كمنتدى سياسي، وازاح الحكومة المحافظة لصالح حكومة صديقة للسوفييت. واستغل الحزب الشيوعي الفنلندي الأزمة، واستطاع أن يتغلغل على مستوى واسع، وان يطالب بالتمثيل في الحكومة.

وحينما منحت استراليا حق اللجوء إلى لاجيء سوفييتي من السفارة السوفييتية يدعى «بترف»، قام هيكويان رئيس موسكو، بوقف شراء القمح الاسترالي كعقاب لهذه الحكومة التي منحت حق اللجوء السياسي. وبلا جدال فقد ساند موسكو الحزب الشيوعي الاسترالي. وهكذا نرى أن التجارة لها ارتباط بالعمل السياسي السوفييتي.

المعونات الفنية السوفييتية:

تبدو المعونات الفنية للمراقب الخارجي أقل العمليات السياسية بين جميع العمليات الأخرى، ولكنها لا تبدو كذلك في أعين زعماء الكرمين. ذلك أنه لا يمكن لإنسان أن يترك الاتحاد السوفييتي، دون أن يلحق كل ما يتعلق بدوره ويشاهده، ودون أن يدرك كيف يمكنه أن يخدم الغرض الذي أرسل هو أو هي من أجله للخارج.

فالمعونة الفنية جزء من جهد التغلغل في البلاد المتخلفة، إن تصدير الفنيين شيء جديد على دولة مثل الاتحاد السوفييتي، ذلك أن السوفييت ما زالوا مبتدئين في هذا المجال، وهم لا يورطون أنفسهم فيه إلا لأسباب سياسية. ومن ثم فإن المعونات الفنية السوفييتية ترسل إلى البلاد التي تركز عليها موسكو لأسباب استراتيجية، وهي تستخدم لبناء النفوذ السوفييتي هناك، فالنفوذ السوفييتي والتغلغل الشيوعي مترادفان وفي بعض الحالات، ولتكن مصر مثلا، فإن المعونة الفنية كانت بمثابة مساعدات عسكرية وصناعية، ولكن كان غرضها الرئيس هو التسرب والتغلغل داخل كيان الدولة.

ويتحدث الفنيون السوفييت لغة البلاد التي يوفدون إليها، لا لأنهم تعلموا هذه اللغات توقعا للذهاب الى هذه البلاد، ولكن لأنهم يسحبون من « مستودع » أفراد تعلموا الحديث بلغة الدولة المستهدفة. ذلك أن الكرملين، وهو يتخذ خط أطاح غزو العالم، قد نمي بدرجة كبيرة تعليم اللغات الأجنبية. فمئذ أوائل الثلاثينات كان على كل شيوعي سوفييتي بلغ مرحلة متقدمة من التعليم أن يدرس على الأقل لغة أجنبية واحدة، بالإضافة إلى لغته الأصلية، وكانت النتيجة أن اصبح الاتحاد السوفييتي يمتلك « مخزنا من اللغويين يسحب منه الافراد اللازمين للعمليات الخارجية. وبصفة عامة، فإن الحاجز اللغوي بين الفنيين السوفييت والمواطنين في البلد الذي يوفدون اليه، أقل من الحاجز المشابه بين الفنيين الامريكيين ومواطني البلد المستهدف.

وإذا ما وضعنا في أذهاننا أن المساعدات الفنية تفترض تعزيز علاقات الصداقة بين الدولة التي تتسلمها وبين الاتحاد السوفييتي - ذلك أن الفنيين يحضرون وكانهم حاملو الهدايا فإننا نستطيع أن نعيش في الجو الذي تحدث فيه هذه العمليات. ولا يوفد الفنيون كلية كشيوعيين مثيرين، إنما يحضرون كرسلمة محبة، ويعملون على الحفاظ على هذا الوضع. إن مجرد وجودهم يعلن عن بلدهم، وهم يعرفون أن ممثلي الشرطة السرية مندسون وسطهم، وأنه حينما يعودون للوطن، سوف يكون سلوكهم السياسي الذي قاموا به محل بحث وتساؤل.

فإذا ما تذكرنا هذه الاعتبارات، يجدر بنا أن نرى كيف تعمل المعونة

الفنية السوفييتية من الزاوية العملية. إن الصحافة اليسارية والمالية للسوفييت في الدول المضيفة، سوف تغتم فرصة وجود الفنيين السوفييت، فتقوم بدعوتهم إلى التجمعات الاجتماعية، وإلى المقابلات باسم الصداقة. وهذا هو الجانب العام أو المحترم من دورهم. ومن المعروف أن جانبا من المعونة الفنية يتضمن تدريب الأفراد المواطنين الذين سيعملون على المعدات الفنية والمنشآت التي ستتسلمها الدولة. ومن ثم فإن الاتصال الشخصي بين المواطنين والفنيين عامل آخر ينبغي استغلاله. فإذا كان هناك حزب شيوعي له وزن في الدولة، فإن أعضاء الحزب والمتعاطفين سوف يكونون ضمن المجندين للحصول على تدريب إضافي. وبعد أن يتم مشروع المعونة، يصبح الحزب الشيوعي ممتلكا لنواة شيوعية ذات حجم مناسب بين العمال والأفراد الذين يعملون على المعدات الحديثة.

وهناك جانب آخر من المعونة الفنية، وهو تدريب الفنيين الوطنيين الذين سيعملون ليس فقط على معدات المعونة، بل أيضا الفنيين الآخرين الذين ينبغي إعدادهم للمستقبل ويتضمن هذا أفراد الإشراف على المعونة من مهندسين واداريين أو حتى ضباط القوات المسلحة الذين سيستخدمون المعدات السوفييتية الجديدة. ويفضل الكرملين إعداد هذا التدريب خلف الستار الحديدي في كليات وأماكن مختلفة معدة لهذا الغرض. وما إن يتم تثقيف المدربين سياسيا، حتى يصبح كثير منهم من المتعاطفين، إن لم يصبح بعضهم أعضاء في الحزب، وذلك قبل رجوعهم لوطنهم.

وهكذا نجد أن المعونة الفنية السوفييتية مجدولة بمهارة في الخطة السياسية للغزو. إن تعليم المواطنين المحليين العمل على المعدات السوفييتية وعلى تركيب الأجهزة الفنية، وبصفة عامة الارتكان على السوفييت في هذه الميادين، يضمن كل هذا استمرار جهد طويل المدى. ويعد هذا أحد الاهداف ذات الاسبقية للمعونة الفنية السوفييتية والحرب الثورية.

المظاهرات الجماهيرية والشباب:

الحق أن المظاهرات الجماهيرية أسلوب راسخ من أساليب الماركسية. لقد استخدم الاشتراكيون مظاهرات الشوارع، ولجأ النقابيون إليها في شكل

اضرابات عامة قصيرة. أما الشيوعيون فقد أشركوا الاثنتين مستخدمين إياها إما معا، وإما منفردتين. ولقد استخدمت المظاهرات الجماهيرية وهي أكمل أشكال الحرب النفسية السياسية إعدادا، بواسطة الاشتراكيين كوسيلة خارج البرلمان، لإجبار الحكومة على إجراء إصلاح جذري وقام الشيوعيون بادماج هذه الأنواع في طريقتهم الشاملة للصراع.

ولقد تصور لينين المظاهرات الجماهيرية على أنها عملية تجريبية تختبر استجابات الجماهير وسلطة الحكومة القائمة، فإذا ما ثبت ضعف الحكومة، فإن عنصرا ثالثا قد يستخدم، اعنى الفرق الثورية، أو الوحدات الثورية. وبينما تكون الحكومة مشغولة بالمظاهرات، فإن هذه المجموعات تحاول الاستيلاء على الأماكن الاستراتيجية المخطط لها مثل: مراكز المواصلات ومكاتب الحكومة، ومراكز الشرطة.. وإذا ما كانت الحكومة ضعيفة المعنويات أو تم التسلل إليها، فإن الثورة سوف تستمر. وفي هذه الحالة، تقوم العناصر المحورية بتكوين الفرق الثورية، ويصبح المتظاهرون مجرد مساعدين يعملون كقوة ساترة. وإذا ما قامت مظاهرة جماهيرية تقودها الشيوعية دون مشاركة «الفرق» فإن الموقف يعد كأنه لم ينضج بعد للاستيلاء على السلطة. ومع ذلك فقد كانت هناك عدة أمثلة في اوائل العشرينات في المانيا وفي دول البلطيق وفي الصين، وذلك حينما حاولت الفرق معتمدة على عنصر المفاجأة، الاستيلاء على السلطة دون تعبئة الجماهير في المظاهرات. ولقد أخفقت هذه التحركات ونفذت في وقت لاحق على أنها انشقاق تظاهري.

وفي السنوات التالية ابتكرت مهام جديدة للفرق، ذلك أنها تشاجرت مع قوى منظمة مضادة للشيوعية، وأغارت على رئاسات التنظيمات غير الشيوعية، كما انضمت إلى المظاهرات التي يقودها الشيوعيون، وراقبت الطريق مستترة بمسوح الحماة. وفي السنوات الحديثة، استخدمت هذه الفرق كعنصر رئيسي في المظاهرات الجماهيرية، مثل المظاهرات العنيفة التي قامت ضد الرئيس نيكسون - نائب رئيس في ذاك الوقت - في امريكا اللاتينية.

ولقد أهملت مظاهرات الجماهير كأداة للسياسة الخارجية السوفييتية خلال

فترة « الجبهة الشعبية » ١٩٣٥ - ١٩٣٩ ، وخلال فترة تحالف الحزب التي تلت هذه الفترة . ولكنها انتعشت كجزء من الحرب الباردة في عهد ستالين ، مع أنها لم تستخدم بالدرجة التي استخدمت فيها في عهد خروشوف . إنها جزء من الأعمال العدوانية الجديدة للدولة السوفيتية . لقد صاحبت مظاهرات موالية للسوفييت زيارات خروشوف الرسمية للدول الأجنبية ، وعلى العكس صاحبت مظاهرات معادية لأمريكا زيارات الرؤساء الأمريكيين الرسمية . ومن ثم فإن هذه المظاهرات تعكس تركيز محور موسكو - بكين على الحرب الثورية ، وبخاصة ضد الولايات المتحدة . وفي كلمات أخرى فإن خروشوف كرئيس دولة ، لم يشغل نفسه « بالدبلوماسية الشخصية » ، ولكنه شغل بتعبئة جيوش حربه الثورية وتدعيمها ، بالمشاركة مع الدبلوماسية كساتر لحربه الثورية .

ولقد اتخذت المظاهرات الشيوعية الضخمة في العشرينات والثلاثينات عادة شكل الاستعراضات . وكان الشيوعيون يزحفون وهم يحملون شعارات المطرقة والسندان . وبمرور الزمن تعلموا الاختفاء تحت ساتر الجبهات والتنظيمات التابعة .

وقد حدث تطور آخر من هذا الضرب في عهد خروشوف ، وذلك بالتأكيد على المطالب الوطنية التي تخدم أهداف السياسة الخارجية السوفيتية . وهكذا اتسعت قاعدة النداءات إلى الطلبة والعناصر الوطنية الأخرى .

كما أن الأساليب التي استخدمت في مظاهرات الطلبة في كل من كوريا وتركيا وبخاصة الأولى ، قد بينت طرق الشيوعيين في هذا المجال . وبصفة عامة فإن الطلبة حينما تتحول إلى حشود كبيرة يمثل هذه التلقائية ، فإنها تشير إلى قدر من القلق بين الطبقات المتوسطة . وفي مثل هذا الموقف ، فإن الحزب حتى لو كان صغيرا وسريا يستطيع أن يلعب دورا مناسباً ، إذا تمكن من عمل الاتصالات الضرورية . . كما أن العناصر المنشقة تستطيع على كل حال أن تستخدم الأسلوب الشيوعي سواء بوجود الشيوعيين أو بدونهم . على أن الحقيقة بأن مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٠ في كوريا وتركيا لم تنقلب ضد الولايات المتحدة ، ترجع إلى أن النفوذ الشيوعي كان إما ضعيفا وإما غير موجود . ومن

ناحية اخرى كان النشاط الشيوعي واضحا في اعمال الشعب التي قام بها الطلبة ضد الرئيس نيكسون - نائب رئيس حينئذ - في امريكا اللاتينية مثلما حدث للرئيس ايزنهاور في اليابان.

وفي حالة غياب التلقائية، فإن المظاهرات الضخمة تتطلب قيام تنظيمات ذات حجم مناسب، في ظل السيطرة الشيوعية ونفوذها. كما أن هذه المظاهرات باهظة التكاليف، وتحتاج إلى قدر كبير من الإعداد. ومن ناحية أخرى أمكن لحزب صغير بواسطة التلقائية أن يعد مظاهرات ضخمة كوجه للكساد الأمريكي الذي ساد امريكا من عام ١٩٢٩ - ١٩٣٥. ففي السادس من مارس عام ١٩٣٠ دعا الحزب الشيوعي الأمريكي لمظاهرة وطنية تحت رعاية المجالس المتعطلة، وكان لدى الحزب ما يقرب من ١٥,٠٠٠ عضو. وأدرك أن في إمكانه السيطرة على ٣٠٠,٠٠٠ مواطن في المظاهرة، كما توقع أن يخرج في مدينة نيويورك حوالي ٥٠,٠٠٠ متظاهر، ولكن حينما جاء زحف يوم ٦ مارس، كان ناتج الحشد قد تجاوز مليونين بما في ذلك ٣٠٠,٠٠٠ مواطن في مدينة نيويورك وحدها. وخلال الخمس عشرة سنة التالية، نما الحزب أكثر من ستة اضعافه في الحجم والنفوذ، ولكنه لم يعد قادراً مرة أخرى أن يعتلى مظاهرة كبيرة الحجم. لقد ولت الظروف التي حثت على المشاركة التلقائية.

وليس كل الشيوعيين الذين يقودون المظاهرات يميلون إلى العنف، بل على العكس نجد أن العنف البدني قد لا يكون له مكان، ويكبح جماحه إلى ادنى الحدود. فالشيوعي العادي أو المتعاطف يرى أن مشاركته في مثل هذه المظاهرات كافية كمغامرة، دون أن يتحدى قوة الشرطة المسلحة والمدربة ضد أعمال الشعب.. إن «الفرق الثورية» هي التي تمهّد افراد اعمال العنف، وهي تقوم بذلك فقط وفقا للتعليمات. على أن الشرطة التي تعشق الضغط على الزناد، قد تسبب أيضا أعمال العنف، ولكن مهما يكن المسؤول عن الإثارة، فإن الشيوعيين يلقون اللوم دائما على الشرطة.

وسواء استخدم العنف أو لم يستخدم، فإنه يخطط على اعلى المستويات. فاذا كانت الدولة السوفييتية تقود مرحلة عدوانية من مراحل الحرب الباردة، فقد

يتوقع جميع أنواع العنف داخل المظاهرات الجماهيرية أو خارجها، سواء كانت صغيرة أم كبيرة، وفي هذه الحالة. يكون العنف مجرد عملية جس، فإذا ما نجح فإن شدته تزداد. ويعد مثل هذا العنف بمثابة شكل من أعمال حرب العصابات، تكيف وفقا للبيئة الحضرية.. واذا ما نجحت مظاهرات الجماهير المصحوبة بالعنف، كتلك التي عملت على منع الرئيس ايزنهاور من القيام بزيارة مخططة لليابان، فإن الصدمة النفسية تصبح أكثر ثقلا من مجرد العرض السلمي.

استخدام الأمم المتحدة:

لا شك أن حث السوفييت على سياسة تهدف إلى غزو العالم، تتناقض مع الأغراض الرئيسة التي بينها ميثاق الأمم المتحدة. ويشارك الاتحاد السوفييتي في بناء هذا الجهاز على أساس أن الأمم المتحدة وسيط لا يباري لعمليات السوفييت المفتتة وسط الدول الحرة. كذلك فإن الأمم المتحدة تعد ساحة ذات أبعاد عالمية، لنشر الدعاية السوفييتية.

ولا يسمح الكرملين للأمم المتحدة أو لأي مؤسسة تابعة لها متخصصة مثل «اليونسكو» كي تعمل خلف الستار الحديدي، بالرغم من أنها تؤثر على قرارات هذا الجهاز. كما أن موسكو لا تسمح للأمم المتحدة بالتدخل في أي نزاع خلف الستار الحديدي، مثل ما حدث في المجر، ولكنها تتدخل من خلال الأمم المتحدة في جميع النزاعات القائمة في البلاد الحرة: حرب السويس وكوريا، الشرق الأوسط، تايوان، الكونغو، لاوس، وفيتنام. وتذهب موسكو إلى الحرب بالتفويض غير عابئ بقرار الأمم المتحدة كما فعلت في كوريا، ومع ذلك تجلس في الأمم المتحدة متمتعة بجميع حقوق العضوية الكامل، وبإيجاز فإن موسكو تصر على ضرورة التزام الغرب بالمعاهدات واللوائح المتبادلة التي أنشأت الأمم المتحدة، ولكنها لا تفعل هذا إلا إذا كان ذلك مناسبا لها.

إن تكتيكات السوفييت في استخدام الأمم المتحدة، له نفس المدى والمرونة اللذان يصاحبان تصور «الجبهة» الشيوعية. ويظن الكرملين دائما أن أفضل سبل الأمن له، إما أن تأتي من إقامة سيطرة على الدول المتاخمة لحدودها عن طريق حكومات شيوعية تقوم بها، وإما من التأثير عليها من خلال النشاط

السياسي للأحزاب الشيوعية. وحينما يخفق الكرملين في تحويل الأمم المتحدة إلى أداة تعاون على التخريب الشيوعي للحكومات الحرة، فإنه ينشده على الأقل منع الأمم المتحدة من عرقلة مشروعاته.. ومن ثم، فإن الهدف السوفييتي الأساسي. في الأمم المتحدة، كان تخفيض تعبئة الشعور المعادي للسوفييت داخله.

ولقد كيفت أهداف السوفييت الدبلوماسية الاساسية سلوك موسكو إزاء الأمم المتحدة. ومع أن موسكو اشتركت في ميثاق الأمم المتحدة، وأنها تخضع لها ولبادئها ولو شكليا، فإن الاتحاد السوفييتي اتبع سياسة خارجية عدوانية لا يكبح جماحها إلا تقديره مدى التهور في وقت معين. وبينما قام الكرملين بخلق مناطق سيطرة ونفوذ له، وعمل على توسيع نطاقه فانه نشد تقييد التزاماته الدبلوماسية في الأمم المتحدة وفي كل مكان آخر، لإضفاء الغموض على العموميات، وبذلك تسنح الفرصة له بالمراوغة.

وإذا ما حاول المرء فحص الأعمال والتصريحات السوفييتية في الأمم المتحدة، تكشف بوضوح المبدأ الموجه لسلوك السوفييت هناك، ألا وهو: «أن يجعل مشاركة السوفييت في الأمم المتحدة تساهم في مصلحة الشيوعية الدولية». وإذا ما تبادر الشك إلى ذهن أي انسان فيما يتعلق بالطابع الحقيقي للدبلوماسية السوفييتية، فما عليه إلا أن يقرأ خطب ممثلي الاتحاد السوفييتي أمام الأمم المتحدة، وهي خطب إذا ما القيت في موسكو لن تسترعي إلا أقل انتباه، ولكنها إذا القيت أمام الأمم المتحدة في نيويورك، فإنها تصل أبعد بكثير من قيود آلة الدعاية الشيوعية. هذه الخطب مليئة بشعارات الدعاية الشيوعية وحافلة بالتلفيق، والتحريف. والواقع أن السوفييت ينشدون خلق الانشقاق وتعميقه في العالم غير الشيوعي، ويتمشى هذا الاجراء مع الطريقة اللينينية في استخدام البرلمان البورجوازي كمجلس رنان للنشاط الشيوعي ودعايته، وليس كوسيلة لحل المشاكل، وهكذا فإن أدوات الديمقراطية تستخدم لاحباط الديمقراطية.

والآن لم تعد الدول الغربية بحاجة سهلة المنال لخطابة السوفييت في الأمم المتحدة، ولكن الأعضاء الجدد من آسيا وأفريقيا يعدون مستمعين يرجى منهم

أمل اكبر، إذ يمكن الوصول اليهم من خلال التنظيم العالمي.

إن ممثلي السوفييت في هيئات الأمم المتحدة المختلفة أفراد ذوو كفاءة، ومتخصصون في أنشطة الأمم المتحدة في العالم الحر.. ويعمل هؤلاء الرجال بلا كلل، لاقناع الدبلوماسيين الجدد، بأن المعسكر الاشتراكي لا يريد غير تصفية حدة التوترات، بإنهاء الاستعمار وتسابق التسلح، اللذين يمنعان التنمية السريعة لبلادهم». ولذلك فهم يحاولون استغلال آمال دول العالم غير المحظوظة واطماحتها نحو المساواة والهيبة السياسية، وبدرجة أهم نحو التقدم الاقتصادي والثقافي.

ويتمسك السوفييت بالموضوعات التي تعنى الشعوب الحديثة، وبخاصة تلك الدول التي تميل نحو الحياد.. إن كل كلمة سوفييتية تُصمَّم كي تظهر أن «المعسكر الاشتراكي» هو افضل صديق، والنموذج المضيء الوحيد أمام الشعوب المتخلفة. فإذا ما نجحت الكتلة الشيوعية وحلفاؤها من خلال مثل هذه التكتيكات في اكتساب اغلبيه مدعمة في الأمم المتحدة، فإن الشيوعية حينئذ سوف تتحرك لتدعيم التنظيم العالمي، وتحويله ضد أمريكا وحلفائها الباقين.

الخلاصة:

لا يعدم الشيوعيون أن يجدوا الكثير من السبل والأسلحة التي تمكنهم من غزو العالم غير الشيوعي، وفرض سيطرتهم عليه.. وهم في سبيل ذلك يتبعون قاعدة: الغاية تبرر الوسيلة.

وتعد الوطنية إحدى السبل التي يستخدمها الشيوعيون لتمزيق العالم غير الشيوعي، فهم يتصورون أن أي تحالف غير شيوعي يعد مروقا وخيانة وعمالة. إن الوطنية وفقا لماركس ولينين فلسفة بوجوازية للدولة والمجتمع، فإذا ما اجبرتهم الظروف للتعاون مع الوطنية البوجوازية في دولة ما، فإن الشيوعيين لا يتوانون عن إثارة الخلافات وسط الوطنية البوجوازية، ثم يقومون باستغلال الانقسامات التي تنتج من هذه الخلافات. كما أن تحالف الشيوعية مع الوطنية تحالف مؤقت، وسرعان ما يلجأ الكرملين إلى استخدام قفازات التهديد ضد الوطنية، لو حاول زعيم وطني أن يخرج عن الخط الذي ترسمه موسكو. كذلك تنظر الشيوعية إلى المرحلة الحالية في الدول المتخلفة على أنها مرحلة الوطنية،

وليست مرحلة الاشتراكية.

ولا تتسامح موسكو مع أي انشقاق داخل الحركة الشيوعية الدولية، وتعمل على تصفيته فوراً عن طريق التطهير. وكان لينين يسمح باستخدام الوطنية كحليف مؤقت ليقتلها، ولكن ستالين طور التطهير ليجعل منه مفتاح التطور النهائي للدولة البوليسية. ولقد اعطى انشقاق تيتو عن موسكو، فرصة للأحزاب الشيوعية الأخرى كي تفكر في اتباع خط تيتو، كما حاولت بعض الأحزاب الأخرى اتباع الخط «الماوي» وأدّت سياسة تيتو إلى ابتكار ما يسمى بالشيوعية الوطنية التي لا تختلف كثيراً عن الشيوعية الماوية، وذلك لتغطية الإخفاقات الماضية في الشيوعية.

ويستخدم الشيوعيون التجارة في الحرب الثورية لتحقيق غرضين: أولهما الربح، وثانيهما استخدامها كسائر الحبراء التخريب، وأعمال الدعاية. وفي الواقع فإن التجارة السوفييتية تدار لتحقيق أهداف سياسية، ويساعدها على ذلك أن الدولة تحتكر التجارة الخارجية، مما يهيئ الظروف المناسبة لاستخدامها كوسيلة من وسائل الغزو الشيوعي، كما أن الحاسوبية الصناعية تلعب دوراً فعالاً في حصول السوفييت على المعرفة الصناعية، بالإضافة إلى وفود السوفييت الثقافية، ووفود الزيارات التي تزود بافراد مدربين على التقاط كل شيء يتعلق بالصناعة.

ومن أرباح التجارة الخارجية تدفع الاكتتابات الضخمة للأحزاب الشيوعية، كما تسد نفقات الهيئات الكبيرة للسفارات والقنصليات السوفييتية، ووكالات التجارة، وخدمات الأنباء.

ويخدم الهجوم الاقتصادي السوفييتي غرضين: أولهما كجهد لتدعيم هجوم الاتحاد السوفييتي السياسي على العالم الرأسمالي، وثانيها كاستجابة لاتساع نطاق برنامج المعونة الخارجية الأمريكية. ومن أمثلة هذه الاستراتيجية سياسة الاغراق، وسياسة تبادل منتجاتهم الرخيصة بمنتجات دول أخرى. ثم إعادة بيعها في الأسواق العالمية، واستخدام التجارة السوفييتية كمنتدى سياسي للتغلغل.

على أن المعونة السوفييتية الفنية تعد بمثابة جزء من جهد للتغلغل في البلاد النامية والمتخلفة، ولبناء النفوذ السياسي بها. وبلا جدال فإن المعونة الفنية السوفييتية مجدولة بمهارة في الخطة السياسية للغزو الشيوعي. ذلك أن وجود الفنيين في البلاد المستهدف سوف يضمن استمرار جهد طويل المدى.

ويستخدم الشيوعيون الشباب وأعمال الشغب والعنف في حربهم الثورية. ولا شك فإن المظاهرات الجماهيرية أسلوب راسخ من أساليب الماركسية. ولقد تصور لينين المظاهرات الجماهيرية أنها عملية تجريبية، تختبر استجابات الجماهير، وسلطة الحكومة القائمة.

وينظر السوفييت إلى الأمم المتحدة كوسيط لا يبارى لعمليات السوفييت المفتتة وسط الدول الحرة، كذلك فإن الأمم المتحدة تعد بمثابة ساحة ذات ابعاد عالمية لنشر الدعاية السوفييتية.

ولا يسمح الكرملين للأمم المتحدة أو لأي مؤسسة متخصصة تابعة لها مثل «اليونسكو» بأن تعمل خلف الستار الحديدي، بالرغم من أنها تؤثر على قرارات هذا الجهاز.. كما أن تكتيكات السوفييت في استخدام الأمم المتحدة، له نفس المدى والمرونة اللذان يصاحبان تصور «الجبهة الشيوعية».

الفصل الثاني

الغزو الاجتماعي الشيوعي

تقوم جميع الحركات الاجتماعية العظيمة التي ظهرت خلال التاريخ، على نماذج فكر ديناميكية، وأخرى سياسية، وذلك عن طريق إثارة روح الانسان وافتتانه، بحيث يقدر على تدمير المجتمعات القديمة، وخلق مجتمعات جديدة. لقد شهد القرن العشرين حركات اجتماعية، ولكنها كانت قصيرة الأجل، لأنها بنيت على نظريات زائفة - اطلق عليها «نظريات الدجل». ومن أهم هذه النظريات تصور النازي لتفوق الجنس الآري عن باقي أجناس العالم، ونظرية موسوليني الفاشية التي جمعت بين سيادة القومية الرومانية والاشتراكية الوطنية. إن كل نظرية منها كانت بمثابة سائر جذاب لتوسع عدواني.

وعلى نحو ما رأينا قبل، فإن الشيوعية تحط من قدر جميع النظريات الأخرى، وتدمر كل الطبقات السابقة لها، أو تقوم بتصفيتها، بينما تصعد الى القمة ارستوقراطية سياسية جديدة، تعمل على خلق طبقة بيروقراطية سياسية في حزب طغوائى واحد، يسيطر سيطرة شاملة على الدولة.

ومن ثم كان على الحرب الثورية التي يشنها الشيوعي، أن تقوم بتمزيق المجتمع الديموقراطي القائم، وتنمية السلطة الطغوائية وتعزيزها. ويهدف نشاط الحرب الثورية إلى اختراق قطاعات المجتمع، ولكن استراتيجية الشيوعية تركز مبدئياً على أكثر قطاعات المجتمع تعرضاً، وأشدّها سخطاً. ولا يكون نظام التركيز الاستراتيجي ثابتاً دائماً، ففي الدول المتخلفة يتم التركيز مبدئياً على

المزارعين والمثقفين - يتضمن ذلك الطلبة - بينما تكون البروليتاريا في دول اخرى مثل فرنسا وايطاليا هي الأداة المختارة. أما في المناطق التي تسنح فيها فرص التسلل الخفي، أو حيث يكون فيها هذا العمل مناسباً، فإن التركيز الاستراتيجي قد يوجه إلى الطبقة المثقفة. لقد كان هذا هو دائماً الحال في الدول المتخلفة تكنولوجياً، أما في الدول الصناعية، فإن الاستراتيجية تقوم بعامة على العمال، لأن المصنع «وفقاً للنين» هو مفتاح العقد للرأسمالية.

وهناك هدف ثانوي للحرب الثورية الشيوعية، هو تجنيد قطاعات من المجتمع يشعر الشيوعيون انها ليست من السهل اجتذابها لقضيتهم، ومن بين هذه القطاعات يمكن أن نحدد الآتي:

- (١) جماهير الفلاحين من الطبقة الوسطى في الدول المتقدمة تكنولوجياً، أو الطبقات العليا من المزارعين في الدول المتخلفة.
- (٢) البورجوازية الصغيرة في المدن (أصحاب المحلات).
- (٣) قطاعات الطبقة العليا من المثقفين.
- (٤) الموظفين أو العمال ذوي الياقات البيضاء.

عناصر الغزو:

إن كيان أي مجتمع متحضر يعتمد أساساً على عدة عناصر جوهرية، لو تعرضت للهجوم أو التمزق، لأدت إلى مجتمع مهلهل، يعيش فيه الفرد كآلة، يحركها سادة الحكم، بل إن هذه العناصر لو غابت عن هذا المجتمع، لأصبح الناس يعيشون حياة أقرب إلى حياة الغاب.

هذه العناصر هي الدين، والمعايير الأخلاقية والمعنوية، والتقاليد والحرية. إن الحرب الثورية تشن هجومها بغرض تدمير معنويات خصومها، وتقويض قيمهم، وهدم دينهم، وسلب حريتهم، في الوقت الذي تدعم فيه معنويات القوة القتالية الخاصة بالشيوعية.

ولكي نستطيع أن نتفهم الإطار الذي تعمل فيه الحرب الثورية، نجد أنه لا مفر من دراسة عدة عوامل نستطيع أن نضعها تحت البنود الآتية:

- (١) المعايير الأخلاقية في المجتمع الشيوعي.

(٢) غزو المعنويات .

(٣) الهجوم على الدين .

(٤) تمزيق الديمقراطية .

المعايير الأخلاقية:

يتهم خصوم الشيوعية الشيوعيين بأنهم جماعة لا تلتزم بالمبادئ الاخلاقية ، وأنهم يفتقرون إلى المعايير الاخلاقية والأدبية ، على أساس أنهم يعملون بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، وعلى أساس استخدامهم العنف والأعمال الوحشية في تحقيق أهدافهم .

حقيقة إن الوحشية أو القسوة هي أكثر الجوانب 'ظهورا في الشيوعية ، ولكنها ليست أكثر هذه الجوانب تأصلا . ذلك أن أى حركة تهدف الى تغيير المجتمع باستخدام وسائل القهر ، يتحتم عليها أن تلجأ إلى وسائل بربرية . على أن هذا القول من وجهة نظر محايدة ليس صحيحاً تماماً ؛ لأننا اذا إستثنينا حقيقة كونهم شيوعيين ، فإنهم رجال ونساء مثل أى رجال ونساء آخرين ، يلتزمون في علاقاتهم ببعضهم البعض بالمبادئ الأخلاقية المعتادة في المجتمعات الانسانية . بيد أن افتقارهم إلى المعايير الاخلاقية ليس نتيجة لجوئهم إلى وسائلهم الوحشية ، ولكن هذه المعايير جاءت نتيجة لهذه الوسائل . فالشيوعيون من ناحية المبدأ والنظرية ، يقبلون القواعد الاخلاقية والوسائل الانسانية ، ولكنهم يعتقدون أنهم مجبرون مؤقتا للجوء الى شيء يتنافى مع آرائهم الأخلاقية .

ففي أى مكان تبدأ الشيوعية أملا يصبو الى تحقيق مجتمع مثالي جميل . وهكذا ، تجتذب اليها رجالا ذوي مستويات أخلاقية سامية ، وذوي مراتب رفيعة ، وتلهمهم بروح البعث . ولكن طالما كانت الشيوعية حركة عالمية ايضا ، فإنها تتحول مثل زهرة عباد الشمس نحو الشمس ، أى نحو الحركة التي تعد أقوى الحركات حتى الآن ، والقائمة الآن اساسا في الاتحاد السوفييتي .

ونتيجة لذلك ، فإن الشيوعيين حتى في الدول الأخرى التي لم يتسلموا فيها

زمام الحكم، سرعان ما يفقدون ملاحظتهم التي اكتسبوها في البداية، ويستسلمون لقسمات أصحاب السلطة من الشيوعيين.

ومن ثم ، فإن الزعماء الشيوعيين في العالم غير الشيوعي ، عودوا أنفسهم على التلاعب بالحقيقة والقواعد الأخلاقية، مثلما يفعل الشيوعيون في الاتحاد السوفييتي، إن كل حركة شيوعية تبدو في بادئ الأمر كأنها الأمل المرتقب الذي يتدثر بالأخلاق السامية، ولكن ما إن تتعرض إحدى دعاياتهم للخطر، حتى ينفضوا أيديهم من المعايير الأخلاقية، ويستخدمون وسائل غير مثالية.

إن هذا لا يختلف كثيرا عما كانت تقوم به الكنيسة في العصور الوسطى، حينما كان يتعرض كيان الكنيسة للخطر. ولقد قال « ديتريش فون فيهم » أسقف فردان الإسمي في ذلك عام ١٩٤١ ما يلي:

« حيثما يتعرض كيان الكنيسة لأي خطر، فإنها تتحرر من الالتزامات الأخلاقية، فالوحدة كفاية تشارك جميع الوسائل مثل: الغدر والخيانة والطفغان والاتجار بالدين والسجن والموت. »

« ذلك ان كل نظام مقدس إنما وجد لتحقيق غايات المجتمع، وينبغي التضحية بالفرد في سبيل الخير العام. »

هذه الكلمات تسبر الأغوار، وكأنها صادرة أيضا عن بعض الشيوعيين المعاصرين.

ونرى اصرار الشيوعية على الاحتكار الأيديولوجي وغيره من الاحتكارات، يجعل الشيوعية المعاصرة تبدو وكأنها شبيهة بكنيسة العصور الوسطى.. أما جوهر كل منها فمختلف عن الآخر، فالكنيسة كانت فيما يتعلق بالملكية والحكم تشكل مجرد جزء منها. وفي أقصى الحالات تطرفا، كانت تطمح الى المحافظة على نظام اجتماعي معين، من خلال السيطرة المطلقة على العقل.

كانت الكنيسة تضطهد الهراطقة حتى لأسباب عقائدية لم تكن تدعو اليها الاحتياجات العملية المباشرة. وبما أن الكنيسة كانت تمثل العقيدة، فإنها بررت عملها بأنها محاولة لانقاذ أرواح الهراطقة الآثمة، عن طريق تحطيم أجسادهم،

وكانت كل الوسائل الأرضية تعد مباحة بغرض بلوغ مملكة السماء .

أما الشيوعيون فإنهم يرغبون قبل أي شيء في الحصول على السلطة المادية أو سلطة الدولة، ولذا فإن السيطرة الفكرية والاضطهاد اللذين يمارسان لأسباب مذهبية، ليسا سوى عاملين مساعدين لتدعيم سلطة الدولة. ومن ثم فإن الشيوعية - على عكس الكنيسة - ليست ركيزة للنظام، ولكنها تجسيد للنظام ذاته.

ولسوف تبقى وسائل الشيوعيين في جوهرها وسائل لا أخلاقية وغير مثالية، وبخاصة حينما ترتدي رداء القسوة. وبما أن الشيوعية نظام طغوائي، فإن الحكم الشيوعي لا يستطيع أن يسمح بقدر كبير في اختيار الوسائل. كما أن الشيوعيين لا يستطيعون نبذ أمر حيوي - أي الافتقار الى اختيار الوسيلة - ذلك لأنهم يريدون الحفاظ على سلطة مطلقة، وعلى مصالحهم الأنانية الخاصة.

إن الوحشية المطلقة، واستخدام العنف، أمران يتفقان وأهداف الشيوعية، وما تكتنفها من أوهام وتصورات غير واقعية. لقد نجحت الاستبدادية الشيوعية في تدمير شكل اجتماعي معين، وأقامت غيره بوسائل طغوائية، فإذا كانت الشيوعية في بادئ الأمر قد قامت على مبادئ مثالية، فإنها تطورت في التطبيق إلى أساليب لا إنسانية.

وأمامنا ما كتبه دوستويفسكي على لسان « شيجالييف » بطل قصته « الأبله » وقد عرض له أحد الكتاب فقال:

« ... لقد قام بعمل جيد في كتابه » ويستطرد فرخوفنسكي - وهو اسم الكاتب - قائلاً:

« ... إن كل عضو من أعضاء المجتمع يتجسس على الآخرين، ومن واجبه أن يبلغ عنهم.

ذلك أن كل شخص ملك للجميع، والجميع ملك لشخص... الكل أرقاء، ومتساوون في هذا الرق. وفي الحالات المتطرفة، يجذ المرء الإقتراء والقتل، ولكن يجب أن تتم المساواة في هذه الاعمال. إن الأرقاء ملزمين بان يكونوا متساوين، فما قامت حرية أو مساواة قط بغير استبداد! ».

ويزهو الشيوعيون باستخدام أسماء ومصطلحات مثل «الخلق الشيوعي» و«الرجل الاشتراكي الجديد» و«النقاوة الثورية» و«القيم الانسانية»، كما لو كانوا يتحدثون عن بعض المراتب الأخلاقية السامية. بيد أن هذه التصورات والتسميات لا تعني غير شيء واحد، هو تدعيم صفوف القمة الحاكمة، ومعارضة نفوذ الخصوم. أما من زاوية المراتب الأخلاقية الفعلية، فإن كل هذه الأشياء لا مكان لها بينهم.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه المبادئ ليست مطلقة، ولكنها مستويات أخلاقية متغيرة، طمرت في النظام الشيوعي الكهنوتي، حيث يستباح كل شيء في القمة - الدوائر العليا - بينما يدان الشيء ذاته إذا ما قامت بممارسته الصفوف الأدنى - أي الدوائر السفلى.

ولقد ادت هذه الروح المتغيرة إلى خلق مجموعات خاصة من المستويات الأخلاقية تصلح لطوائف عديدة، ولكنها تخضع دائماً للاحتياجات العملية للطبقة «الاوليجاركية». على أن تشكيل هذه الأخلاق النوعية تتلاءم مع نمو الطبقة الجديدة، كما يتطابق مع نبذها للمستويات الانسانية والأخلاقية الأصيلة وحتى أكثر الناس معارضة لستالين مثل تروتسكي، نراهم يقومون بتبرير استخدام وسائل لأخلاقية.. ففي إحدى لحظات نقد الذات صاح تروتسكي قائلاً:

«إن الحزب منزه عن الخطأ، لأنه تجسيد للضرورة التاريخية، وللمجتمع اللاتبقي». وحينما حاول وهو في منغاه أن يفسر الضراوة الرهيبة لمحاكمات موسكو الشهيرة، ارتكن إلى مماثلة تاريخية وقال: «لقد ظهرت في روما قبل الغزو المسيحي، وفي عصر النهضة الذي شهد بداية الرأسمالية، ظواهر محتومة شبيهة، تمثلت في جرائم الاغتيالات والوشايات والأكاذيب، والجرائم الجماهيرية الرهيبة».

وأنتهى تروتسكي حديثه بقوله:

«ولذلك ينبغي أن يحدث مثل ذلك خلال فترة التحول إلى الإشتراكية، لأن هذه الظواهر هي رواسب المجتمع الطبقي القديم، التي لاتزال ظاهرة في

المجتمع الجديد .»

ومع ذلك فإن تروتسكي لم ينجح في تفسير أى شيء بقوله هذا، انما نجح فقط في ارضاء ضميره من ناحية أنه لم يخن دكتاتورية البروليتاريا، باعتبارها الشكل الوحيد للانتقال الى المجتمع اللاتبقي الجديد.

إن الأزمات الأخلاقية سواء كانت كبيرة أم صغيرة، أمر لا مفر منه في كل أنواع الدكتاتوريات، إذ أن اتباعها بحكم اعتيادهم على التفكير بأن «تجانس الفكر السياسي»، هو أعظم فضيلة وطنية وأسمى التزام مقدس، لا بد أن تزعجهم اية انتكاسات أو تغييرات .»

على أن الأمر الأدهى والأمر، يجيء حينما تتحول الدكتاتورية إلى دكتاتورية فردية مطلقة كما حدث في عهد ستالين. وفي هذه الحالة يصبح الدكتاتور شبه إله منزه عن الخطأ، يتصرف دون أي مراعاة لأية معايير أخلاقية، بل قد يتدخل بنفسه في توجيه الوسائل البربرية، التي يتحمل مسئوليتها أناس بعيدون كل البعد عن مسرح الجريمة.

إن الرسالة التالية التي كتبها الرفيق كيدروف الشيوعي القديم إلى اللجنة المركزية من خلال الرفيق أندرييف تشير إلى اتهام الأبرياء. لقد حكمت المحكمة العسكرية ببراءة كيدروف، ولكنه أعدم رميا بالرصاص بأوامر من برييا، والرسالة مفعمة بمشاعر إنسان عجوز في آخر أيامه، يحس بوطأة الظلم الصارخ الذي نهش روحه، وهدد كيانه. يقول كيدروف.

« انني ألجأ اليك من زنزانة كئيبة في سجن « ليفرورتوسكي » لتعاونني. دع صرخات فزعي تصل إلى اذنيك، ولا تظل أصما. أرجوك أن تضعني في حمايتك، وأزل عني كابوس الاستجواب، واثبت أن كل هذا كان من سبيل الخطأ. انني اعاني لبراءتي، وارجوك ان تصدقني.. ان الزمن سوف يظهر الصدق. انني لست عميلا، ولست عضوا في تنظيم معاد للسوفييت، الذي اتهمت به على سبيل التشهير. انني كذلك لست مذنبا في أي جرائم أخرى ضد الحزب والحكومة. انني شيوعي قديم، لا تشوبني شائبة. ولقد ناضلت بأمانة مدى أربعين سنة في صفوف الحزب، في سبيل صالح الشعب ورفاهيته... انني اليوم رجل

عجوز أبلغ من العمر اثنين وستين عاما، يهددني قضاة التحقيق بأقسى وسائل الضغط البدني وأبشعه بل وأحطه. ولم يعد المحققون قادرين بعد على الاقتناع بخطئهم والإعتراف بأن ممارستهم لقضيتي أمر غير قانوني وغير مسموح به. إنهم يحاولون تبرير أعمالهم بتصويري كعدو هارف صلب، ويطلبون زيادة أعمال العنف معي. لكن دع الحزب يعرف أنني بريء، وأنه ليس ثمة شيء يمكنه أن يحول إبننا بارا بحزبه إلى عدو حتى آخر زفرة في حياته.. إن كل شيء له حدود. لقد وصل تعذيبي إلى الذروة. وانهارت صحتي، ووهنت قوتي وطاقتي، وتقترب النهاية وشيكا. إن الموت في سجن سوفييتي يصنف على أنني خائن شرير للوطن، وهذا شيء رهيب لرجل أمين. إن أبشع ما في الأمر هو أن المراقبة والآلام التي لا يعلوها شيء تعصر قلبي... لا... لا... إن هذا لن يحدث.. إن هذا لا يمكن ان يحدث.. انني أصرخ..

إنني على يقين بأن اجراء فحص موضوعي هادىء بعيدا عن أي لغو دنس، ودون غضب، ودون أعمال تعذيب رهيبه، سوف يسر إثبات بطلان أي اساس لهذه التهم. إنني أومن بعمق أن الصدق والعدل سوف ينتصران.. إنني أومن...»⁽¹⁾

فإذا انتقلنا الى كيف يتدخل الدكتاتور في تليفيق التهم للمواطنين وتوجيهها، نجد مثلا بارزا في مسألة ما أطلق عليها في عهد ستالين «مؤامرة الاطباء» وفي الواقع لم تكن هناك مسألة أو قضية بخلاف إقرار من طبيبة تدعى «تيا شوك» أرسلته لستالين، حيث قررت فيه أن الأطباء كانوا يطبقون وسائل غير سليمة في العلاج الطبي.

وكان مثل هذا الخطاب كافيا لستالين كي يصل به إلى نتيجة مباشرة، هي أن هناك أطباء متآمرين في الاتحاد السوفييتي، فأصدر أوامر اعتقال لمجموعة بارزة من الأطباء الاخصائيين السوفييت.

كما أصدر أوامر شخصية بأسلوب سير اجراءات الاستجواب، وطريقة

* Khrushchev Remember Andre Deutsheh Ltd, 105 Great Rassel Street, London W.C, 1971, PP. 603 - 04.

توجيه الأسئلة إلى الأفراد المعتقلين. فمثلا قال إن الأكاديمي فينو جرادوف ينبغي أن يقيد في السلاسل، وأن آخر ينبغي أن يضرب. بل وصل به الأمر أن هدد وزير أمن الدولة حينئذ بقوله له: «إذا لم نحصل على الاعترافات من الأطباء.. فإننا سوف نقصّر طولك بقطع رأسك!».

واستدعى ستالين بنفسه قاضي التحقيق، وأعطاه تعليمات خاصة، وأشار عليه بطرق الاستجواب التي تستخدم، وكانت هذه الطرق بسيطة: ضرب وضرب ثم ضرب مرة أخرى.

وبعد أعمال التعذيب، وقع الأطباء بالطبع على الاعترافات المزيفة، وأرسلت إلى ستالين الذي وزعها على أعضاء المكتب السياسي وقال لهم: «انكم عمي مثل القطيقات الصغيرة، ماذا كان يحدث بدوني؟ إن البلاد سوف تفنى لأنكم لا تعرفون كيف تميزون الأعداء.»

وليس ستالين وحده فريدا في هذا الاسلوب، فما من دكتاتورية قامت سواء كانت فاشية أو شيوعية إلا واستخدم فيها الدكتاتور هذه الوسائل اللااخلاقية والبربرية. وهو حين يستخدمها، يكون معدا للاستهلاك المحلي أمام شعبه، ضحايا وكباش فداء يدفعون الثمن من حياتهم أو حرياتهم، وغالبا ما يكون معظمهم أبرياء.

تدمير المعنويات هو الغزو:

تنشد الحرب الثورية الشيوعية خلال دفعها استراتيجيتها، رفع معنويات القوة القتالية الخاصة بها، وتقويض قوة العدو القتالية. وهذا أيضا هو الهدف العام للحرب النفسية في الغرب في زمن الحرب. ومع ذلك فإن الشيوعيين يستخدمون باستمرار الحرب الثورية وقت السلم، كما يستخدمون أيضا الاسلحة السياسية والعسكرية في زمن الحرب.

ويعتقد واضعو الخطط الرئيسيون في موسكو، أن أنسب وقت لتقويض معنويات شعب بورجوازي هو وقت السلم، ذلك أنه خلال فترات الاعمال العدائية تكون الديمقراطيات متيقظة للتهديدات التي يتعرض لها أمنها القومي. ويكون العمل على تقويض معنويات العدو مؤثرا وقت الحرب فقط بدرجة عالية، فإذا

ما سنحت الظروف بانهيار شعب معاد نتيجة الضربة الأولى، أو أن الظروف كانت مواتية لقيام أزمة داخلية عنيفة، فإن عملية التسلل الشيوعي تجد الفرصة المواتية للعمل المؤثر.

إن الروح المعنوية لقوة مقاتلة تتطلب أن يعرف رجالها الدافع الذي يقاتلون من أجله، وينبغي أن يشعروا بأن الأهداف السامية تبرر المخاطرة بحياتهم. والأهم من ذلك، ينبغي أن يؤمنوا بصدقهم، وأن يكونوا الولاء لهم. إن جوهر الحرب النفسية هو بناء جانب ما، وتدمير الجانب الآخر.

على أن الهدف الشيوعي كما تنادى به كل الأحزاب الشيوعية، هو قيام أخوة عالمية تطيح بالطبقات الغنية، وتصادر أملاكها وتصفيتها. وبادعائهم أن حزبهم هو حزب الكادحين، فإن الشيوعيين يزعمون أن هدفهم هو إلغاء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

وهناك ثلاثة أنواع للدعاية الشيوعية:

- (١) دعاية لبناء معنويات الحزب، وقاتل المنحرفين عن خط موسكو.
- (٢) دعاية وإثارة موهمة بطريقة فائقة كُنقد للديمقراطية وكمطالب «للديموقراطية»، كي تضعف معنويات الدول غير الشيوعية.
- (٣) أعمال إثارة وتهيج لخفض المعنويات كلها أمكن.

وكما رأينا من قبل، فإن النوع الأول أبرز هذه الأنواع ظهوراً، والنوع الثاني الذي يظهر غالباً تحت علامات تقدمية أو بورجوازية تحررية، أكثر صعوبة في تحديده، أما النوع الثالث فهو أشد الأنواع خداعاً.

على أن من أهداف دعاية تقويض المعنويات وأعمال الإثارة، القيام بالتنديد بالنظام الاجتماعي ومؤسساته، وتلطيخ سمعة زعمائه، وتلوين التنظيمات والأفراد الذين يقاتلون الشيوعية عن وعي ونشاط. إن الغرض الشامل هو إضعاف إرادة الخصم على القتال.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن الديمقراطية الرأسمالية مذهب الكثرة بطبيعته. ذلك أن نزاعات كبيرة وصغيرة حول المصالح والأراء تقوم سافرة في كل الأوقات. وعلى غرار أي أنظمة اجتماعية أخرى، فإن الرأسمالية لها جوانبها غير

السارة. ومن ثم فإن الحرب الثورية الشيوعية تركز على هذه التناقضات، وهي لا تقوم بعلاج الأخطاء، ولكنها تستفيد منها لصالحها.

وإذا ما حاول المرء أن يفحص الدعاية الشيوعية، وأعمال الإثارة التي تقوم في أي فترة زمنية، وإذا ما وصل الأمر به أن يصدقها، فإن النتيجة الحتمية التي سوف يصل إليها، هي أن كل شيء خارج المملكة الشيوعية عفن وفساد وباطل، وأن الكمال يسود خلف الستار الحديدي في سلام وهدوء. ويجد الشيوعي نفسه أنه لا يستطيع سيكولوجيا أن يقيد نفسه بالصدق. إن الصدق بالنسبة له لا يحتاج إلى تبرير، طالما أنه يؤمن بأن ما يسمعه يعمل على تقدم قضيته.

وينشد الشيوعيون من خلال دعاية تقويض المعنويات وأعمال الإثارة، إضعاف جذور معتقدات الدول الرأسمالية أو الدول غير الشيوعية. كذا التشكيك في أصالة مؤسساتها الاجتماعية، وفي صحة نماذج أفكارها الأساسية. ومن ثم فإنهم يعملون على تزييف نماذج هذه الأفكار، عن طريق إعادة تفسيرها بما يناسب الشيوعيين. كما ينشد الشيوعيون إضعاف إرادة هذه الشعوب، وتوجيه سياستها لتتلاءم مع السياسة الشيوعية، أو تجعلها على الأقل معاونة لأغراض السياسة السوفييتية.

وليس ضروريا أن تتجه أعمال التقويض المعنوي إلى المطالب البعيدة المدى أو العاجلة، بل أنها بالأحرى تتعلق بنماذج أفكار الخصم. إنها تبحث عن عملية اختراق هذه الأفكار والتأثير عليها من الداخل، أي تنفيذ عن طريق الدعاية ما لا تستطيع أن تقوم به القوة. فإذا ما استطاع الشيوعيون أن يغسلوا من عقول شعوب خصومهم نماذج تفكيرهم، التي تحدد قيم حرية الفرد والديموقراطية وحق الملكية، فإن التصورات البديلة - أي ملكية الدولة وسيادتها واحتكار الحزب الواحد، وتجنيد الأفراد له - يمكن أن تحل مكانها بسهولة.

فإذا ما وضعنا هذا في تقديرنا، فإن الشيوعيين يحاولون إعادة كتابة التاريخ. ووفقا لما يذهبون إليه، فإن حرب الاستقلال الأميركية نشبت كي

تقرر من ينبغي ان يقوم باستغلال هذه الارض ، وكيف يمكن استغلالها؟ ووفقا لوجهة نظرهم ، فإن جورج واشنطن كان مالكا للعبيد ، وجون ادمز ليس إلا تاجرا من القراصنة ، وتوماس جيفرسون من الغوغاء حاول أن يجتذب الجماهير بغوغائيته ، أما «توماس بن» ، فكان الوطني الوحيد بلا جدال . وكان ابراهام لنكولن وفقا للتفسير الشيوعي للحرب الأهلية ، مجرد انتهازي أعلن نداءه ضد الرق فقط حينما كان على وشك أن يخسر الحرب . ويطلق الشيوعيون على مثل هذا الأدب «التفسير الطبقي» للتاريخ ، حيث يكون التاريخ وفقا لذلك «تاريخ صراعات الطبقة ، أو تاريخ الذين استغلوا ضد المستغلين . ومن ثم ، فإن الحرب الأهلية الأمريكية كانت صراعا ليقرر أي نوع من الاستغلال يمكن أن يسود الولايات المتحدة في الشمال أو الجنوب .

ووفقا لآراء الشيوعيين ، فإن أمريكا الغربية قد نمت بواسطة الاستعماريين ، الذين وجدوا الاستغلال في دول الشرق قد أصبح عسيرا ، فخاطروا الى المجهول ، ولقد قاموا بإرسال النفايات وما تلفظه أمواج الحرب من لصوص وقراصنة ومحتملين ومزيفين من كل نوع . لقد أصبح هؤلاء قادة الغرب . وبإيجاز ، فإن الشيوعيين صوروا مرحلة النمو الصناعي سواء في الشرق أو في الغرب ، بأقلم صورة ، بينما أظهروا روسيا السوفيتية على أنها فردوس اجتماعي .

وخلال الفترة التي أطلق عليها « الحقة الشيوعية » في هولود من عام ١٩٤٧ الى ١٩٤٨ ، وجدت هذه التفسيرات للتاريخ طريقها في الصور المتحركة ، ومن ثم انتقلت إلى عقول الشباب الأمريكي . لقد صور الماضي الأمريكي على أنه تركيبة من الفساد السياسي وانعدام الاخلاق ، والاستغلال الدنيء والظلم الطبقي والدجل الكهنوتي .

ويظهر كثير من نتاج الاديب الشيوعي تحت عناوين تقديمية . وغالبا ما ينشر بواسطة أفراد غير شيوعيين ، بل بواسطة دور نشر تسلل إليها الشيوعيون . والواقع أن الدعاية الخاصة بتقويض المعنويات وأعمال الإثارة والتهيج تظهر دائما تحت أنماط غير شيوعية . فإذا ما ظهرت بخلاف ذلك ، لا تكون لهذه الانشطة فعالية قصوى . فلو ان أحدا ما تناول كتابا وبخاصة إذا ما

بدا له كأنه رواية تاريخية موضوعية، فإنه بلا شك سوف يستوعب المعلومات المشوهة التي جاءت به .

على أن تلك الصورة التي يهدف الشيوعيون إليها لتقويض المعنويات لا تنطبق فقط على الولايات المتحدة، بل تنطبق أيضا على كل الدول الرأسمالية، أو الدول غير الشيوعية. ووفقا لما يراه بوخارين: «فإن تلطيح التاريخ البورجوازي، يعد مرحلة هامة للنشاط الشيوعي .». ولقد نفذ الجزء الأكبر من هذا الخط في كل من فرنسا وإيطاليا. ولكن هذه العملية نشأت بواسطة الاشتراكيين والنقابات الفوضوية في هذه الدول، وقام الشيوعيون بالحث على هذا الجهد كجزء مخطط في استراتيجية حربهم الثورية.

إن التلطيح الشيوعي لتاريخ البوجوازية وتقاليدها يوجه إلى هذا الجزء من عقل الإنسان، الذي يدعو إلى الشك والرغبة في الاستماع ورؤية الشر، وبخاصة فيما يتعلق بالآخرين أو بالماضي. كما أن الأكاذيب الكبيرة التي يصعب التحقق منها فعالة للغاية، ذلك أنه يمكن تذكرها بلا وعي بعد انكارها بمدى طويل. وعلى المستوى السياسي، فإن تلويث الماضي التاريخي يلعب الدور ذاته، وذلك حينما يصف آباء إنسان وأجداده الكبار كأوغاد وسفلة لا أخلاق لهم.. إنه ينخر أساس التقاليد والايان في المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان.

هل الشيوعية دين أو مذهب؟

قبل أن نتحدث عن هجوم الشيوعيين على الدين، يجدر بنا أن نتساءل: هل الشيوعية كما يزعم البعض دين؟ وهل تتوافر فيها العناصر التي تكون الأديان التي عرفها الانسان على الأرض عبر التاريخ.

من المسلم به أن كلمة دين تتضمن الاعتقاد في إله واحد أو مجموعة من الآلهة، كذا الإيمان بحياة أخرى بعد المات. ولكن مريدي الشيوعية ينكرون الألوهية والخلود. وبالرغم من ذلك، فإن أتباع الشيوعية يتخذونها بمثابة الدين. ولا يغرب عن بالنا الطواير الطويلة اليومية من الناس الذين يقومون بزيارة مزار لينين في الميدان الاحمر. إن الشيوعية في هذا المظهر يعدها البعض نوعا من الدين، أو على الأقل مذهبا مقدسا، حيث يقوم مريدوه بشرح معتقداته

وقيمه ، وفقا لتصوراتهم التي يحرفونها وفقا لرغباتهم ، وهم يعدون تعاليم المذهب بأنها مفتاح اسرار الكون ، والعالم والانسان . وربما كان هذا هو السبب الذي دعا برتراند راسل كي يطلق على الشيوعية عبارة: «الدين اليهودي الرابع الأسمى» . كما أنه السبب الذي جعل ارنولد توينبي يسمي الشيوعية: الهرطقة اليهودية - المسيحية الكبرى لعصرنا .

ويرى بعض الكتاب أن تشابه الشيوعية كعقيدة مع المذاهب الكبرى الأخرى التي واجهها الانسان في تجربته على الأرض تبدو أكثر جاذبية مما تظهر عليه . ذلك أن جميع الأديان السامية التي عرفها الإنسان ، وكثيرا من العبادات الكبرى التي اتبعها ، تهيء لمريديها مجموعة مقنعة من الرموز والشعائر التي تدعم الايمان ، وتحرك السلوك وتنمي سلامة العقل والروح . ويرى هؤلاء أن هذه الرموز أو الاشكال تتضمن عادة شخصية نبي ملتحم ، ومجموعة من الأنصار والقديسين والشهداء ، وكتابا مقدسا قيا به غموض يحتاج إلى تفسير ، يقرأه قلة ، ويفهمه قلة أقل ، ولكن يقده الجميع كمصدر الوحي والاهام . وتحتوي الرموز على عقيدة تشرح أصل الاشياء ، ومعاني الاشياء ونهاية الاشياء ، كما تتضمن رؤيا أبدية عن الخطيئة ، والتوبة ويوم الحساب ، والخلاص .

ويقارن الكثير هذه العناصر بما يقابلها في الشيوعية ، فيقولون إن الأيديولوجية الماركسية تتضمن كل هذه الاشكال بوفرة . فني الشيوعية الملتحي هو كارل ماركس ، وابنه الموهوب عقائديا هو لينين ، والأنصار والقديسون والشهداء ، هم اولئك الذين قاتلوا وماتوا في سبيل تحرير طبقة البروليتاريا من الرأسمالية ، أما الكتاب المقدس فهو « رأس المال » الذي تفسره كتابات أخرى .

على أننا نلاحظ أن هذه العقيدة ، ليست كباقي الأديان الأخرى من زاوية خلاص الفرد في حياة أخرى بعد تركه الأرض ، ولكنها عقيدة خلاص الانسان في حياته على الأرض ، فالفرد الشيوعي - ذكرا او انثى - سوف لا ينتظر ثواب الآخرة في الجنة او النار ، ولكنه سيقنع بتحقيق احتياجاته على الأرض قبل المات .

والشيعوية تدعي أنها تهدف إلى تحقيق مجتمع المساواة والأخوة في العالم، شأنها في ذلك شأن باقي الأديان. ولكن الشيعوية في قيمها الأخرى ومثالياتها وتطبيقاتها، تتناقض كلية مع الأديان، فهي تنادي بدكتاتورية سياسية لطبقة معينة، وهي لا تتسامح مع أعدائها، وتسلب الإنسان حريته وكرامته، وتبرر في سلوكها كل الوسائل اللاإنسانية التي تستخدمها، على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة.

على أن الشيعوية المعاصرة من نواح عدة تعيد للذكرى قصور الطوائف الدينية التي قامت في العصور الوسطى. وفي كتاب «الاشجان والسكينة» للشاعر الصربي «جوفان دوتشيتش» يجد المرء فيما كتبه عن مذهب «كلفينوس»، أن ثمة صلة قريبة بين مذهب كلفينوس والمناخ الفكري في دولة شيوعية إذ يقول:

«إن كلفينوس هذا الفقيه وصاحب المذهب، لم يحرق فقط ما قام به على كومة حريق الجنائز، بل ثبت مذهبه في روح شعب جنيف. لقد فند المحن الدينية، والتنازل عن الورع في تلك المناطق، التي ما تزال حتى اليوم يغشاها جحيم الظلام وبلادة عدم الاكتراث. وغرس في الناس الكراهية لكل ضروب المرح والنشوة، كما حرّم الشعر والموسيقى بموجب قانون. وبجزم كونه سياسيا وطاغية متربعا على رأس الجمهورية، فقد كبّل الحياة في الدولة بموجب قوانينه التي كانت بمثابة أصفاد، بل أنه قام بتنظيم العواطف العائلية.. على أنه من بين جميع الشخصيات التي ترعرعت في أحضان مذهب الإصلاح الديني، نجد أن كلفينوس يبدو كأنه أشد الشخصيات الثورية ضراوة، كما أن «إنجيله» أي تعاليمه تعد أكثر الكتب كآبة بالنسبة للحياة... ولم يكن كلفينوس حواريا مسيحيا جديدا، يرغب في إعادة الإيمان إلى نقائه الأصلي، أي البساطة والعدوبة التي انبثقت من الناصرة. وهو - كأري متكشف - قسا على نفسه في علاقاته مع النظام، مثلما كان صارما مع نفسه بالنسبة للحب، وهذا يعد المبدأ الأساسي لمذهبه. لقد خلق شعبا جادا متفعلا بالفضيلة، ولكنه أيضا مشبع بكراهية الحياة، وغارق في عدم إيمانه بالسعادة، ولم يكن هناك دين صارم، أو نبي مرهوب الجانب، ولكن كلفينوس جعل من شعب جنيف أناسا مفلوجين إلى الأبد، غير قادرين على الإحساس بأي مرح، بل أنه ليس هناك أي شعب في

العالم غشاه الدين يمثل تلك الخطوب والكآبة .

لقد كان كلفينوس كاتباً دينياً بارزاً ، لا يمكن إغفال أهميته في تنقية اللغة الفرنسية ، مثلما كانت أهمية لوثر في تنقية اللغة الألمانية ، وترجمة الإنجيل ، ولكنه كان أيضاً منشئاً حكومة كهنوتية لا تقل شها عن دكتاتورية المملكة البابوية . وبينما كان يعلن أنه يحرر الروح الذاتية للإنسان ، هبط بشخصية الإنسان المدنية إلى أحط صور العبودية . لقد بلبل نفوس الشعب ، وفشل في صبغ الحياة بصورة مشرقة بأي وسيلة .

« ولقد لاحظ « ستندهاال » بعد مرور ما يقرب من ثلاثمائة عام بعد كلفينوس ، كيف أن الشباب والشابات في جنيف يداومون المناقشة فقط حول « الراعي » وحول آخر موعظة له ، كما لاحظ كيف يحفظ هؤلاء الشبان والشابات مواعظه عن ظهر قلب . »

كذلك تحتوي الشيوعية المعاصرة على بعض عناصر « التفرد المذهبي » ، الذي اتسم به المطهرون « البيوريتان » في ظل كرومويل ، ولكن هناك اختلافات جوهرية ، فالمطهرون كانوا يؤمنون بالإنجيل بصورة جامدة ، بينما يؤمن الشيوعيون بالعلم .. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن أوجه الاختلافات تنبثق من القدرات ، إذ ليس هناك دين أو دكتاتورية استطاعت أن تأمل في الطموح نحو مثل تلك السلطة الشاملة الفريدة ، كما حدث في النظم الشيوعية

محاورة الدين :

إن عمليات الشيوعيين في ميدان الدين يمدنا بصورة كلاسيكية لتحطيم الروح المعنوية وحيث أن الشيوعيين ملحدون ، فإن الدين لعنة بالنسبة لهم . لقد كانت إحدى خطواتهم الأولى بعد استيلائهم على السلطة عام ١٩١٧ ، أن قاموا بشن هجمة مباشرة على الأفكار والتنظيمات الدينية . إذ تم تأميم كل ممتلكات الكنيسة ، كما اغتيل آلاف من القسس والعلمانيين ، وتم اعدامهم - وأنشئ تنظيم خاص اطلق عليه « المجتمع المضاد للرب Anti - God Society لتنفيذ الاتجاه الالحادى . وازدادت حملة التلويث التي وجهت ضد الكنيسة

الارثوذكسية الروسية، حتى عن تلك التي وجهت ضد الرأسمالية وسادة الأرض.

لقد وضعت الكنيسة بحيث صارت أشبه برجل قيد قدميه ويديه، ثم سب، وبصق عليه، وأسىء معاملته، وأخيراً أعدم بالقتل البطيء الذي يبدأ بوجهه. فإذا ما قام قسيس صغير أو رفيع الدرجة بمحاولة الرد على أعمال التلطيخ هذه، فكان يعتقل، وتوجه إليه تهمة الدعاية المضادة للثورة، ثم يعدم أو يرسل إلى إحدى المعسكرات المجهولة التابعة للشرطة السرية.

ولقد أثبتت محاربة الكنيسة أنها كانت مشكلة أعظم مما توقعه الشيوعيون. لقد نجحت الهجمات المباشرة جيداً في المدن، حيث قامت قوة الحزب المنظمة بالبرهنة على كفايتها للقيام بهذه المهمة. ولكن المزارعين - بالرغم من ذلك - لم يكن في استطاعتهم أن يفكروا أو يعيشوا بلا دين. ولم يكن من الممكن أن تتم تصفية الدين في القرى دون تصفية المزارعين ذاتهم، وهذا أمر ما كان يمكن تحقيقه، ومن ثم، فإن ضراوة الهجوم المباشر الذي لا يقاوم، كانت تواجهه معارضة لا تتزعزع.

ولقد أنتج الصراع تناقضاً كبيراً داخل النظام السوفييتي. وحينما بلغت الحرب على الدين ذروتها، لم يسيطر الشيوعيون حقيقة إلا على المدن الكبيرة، وعلى رقع من الأرض تمتد على جانبي السكة الحديدية لمدى ثلاثين ميلاً فقط. أما بعد هذا المدى، فكان من المخاطرة أن يجازف أى شيوعي - وبخاصة بعد غروب الشمس بالتوغل إلى الأبعد. ولذلك قام الشيوعيون بالاعتماد على الجبهة الأيديولوجية، بعد اقلعهم عن الهجوم على الدين. وكان بالضرورة أن يفعلوا ذلك، وإلا فإن نظامهم كان عرضة للانهار، نتيجة الافتقار إلى مواد الطعام في المدن.

ومع ذلك، فإن الشيوعيين ما كان بإمكانهم أن يتخلوا حقيقة عن هجومهم على الدين، كي يظلوا شيوعيين. وما فعلوه أنهم أرخوا من الهجوم المباشر، لصالح هجوم آخر غير مباشر، فقاموا بتدمير الكنيسة الارثوذكسية الروسية من الداخل ولوثوها!

واليوم، لم يعد الشيوعيون إلى هجماتهم المباشرة على الدين، ذلك أنه خلال الحرب العالمية الثانية، استخدم الكرملين سياسة التهدئة مع الكنيسة، ووضعها تحت لجنة رقابة من الدولة، كانت بمثابة جهاز شرطة سياسية. وبالرغم من ذلك، فإن الاعتراف بالكنيسة لم يصل إلى الدرجة التي تتمتع بها في دول الغرب وكل ما حدث هو أن عملية اقتناص الرجال قد توقفت، ولكن أملاك الكنيسة ظلت مؤمنة، وظل تدريب الدين للشباب، واشتراك الكنيسة في أي أنشطة اجتماعية خارج خدمات الكنيسة الرسمية، من المسائل المحرمة. وحتى في ظل هذه القيود، لم يكن للكنيسة استقلال ذاتي، وظلت مسائلها الداخلية تحت سيطرة لجنة رقابة الدولة المشكلة من الشيوعيين. وقد تم الغاء «مجتمع المضاد للرب»، ولكن الدعاية الاتحادية كانت حرة وسائدة. وبإيجاز، فإن الكنيسة لا تزال معرضة للهجوم، ولا تستطيع الرد إلا في همس.

إن مصير الدين في روسيا السوفيتية مهم لدرجة كبيرة، إذ أن صراعات المذاهب الدينية نشأت أصلا في روسيا. ولقد انسحب الشيوعيون في هذا المجال خطوة للخلف على حد قول لينين كي يستعدوا لتقدم افضل.

وهناك عامل آخر منع الشيوعيين من العودة إلى الهجوم المباشر على الدين، هو نفوذه في المستعمرات وشبه المستعمرات في آسيا وبخاصة في الهند، وفي الشرق الأوسط. ذلك أن هجوما مباشرا للشيوعيين على الدين في هذه الدول، يلغى عمليا العملية الشيوعية ولا يكون الهجوم إلا مجرد انتحار سياسي. ولكن هذه الدول هي التي أصبحت هدفا خاصا للكرملين، بعد أن تخلى ستالين عن التوجيه الماركسي للبروليتاريا. ومهما يكن الأمر، فلم يكن أمام الشيوعيين إلا أن يقتربوا من الدين أو يتغلغلوا فيه. وقد اتبع الشيوعيون أسلوب التسلل في كل فرصة ممكنة إلى الدين. واصبح ذلك هو الشكل الجديد لهجومهم، وتمت التجربة الأولى لهذا الاسلوب في روسيا ذاتها.

ولقد تحيل ستالين الذي أمضى في شبابه سنوات عدة في مدرسة لاهوتية في تفليس يدرس الكهانة - أن الهجوم المباشر على الدين يمكن أن يحدث تحت ستار الإصلاح الديني. ومن ثم أدخلت الاصلاحات في الكنيسة الارثوذكسية

الروسية بواسطة الشرطة. ولقد خير سدنة الكنيسة القائمين عليها في المدن بين الانضمام إلى حركة الاصلاح، وبين لا شيء آخر. وهكذا فإن البطيريركية التي أنشئت حديثا وجهت نحو رجال الكنيسة في القرى، للتأثير عليهم لصالح الاغراض السوفييتية. وأعيد تفسير الدين والانجيل ليخدم هذه الاغراض. ولكن الاصلاح تعطل لفترة ما بين عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣٥ نتيجة نشوب الحرب ضد الفلاحين، التي وضعت رجال الكنيسة الذين ساروا في ركب «الإصلاح» في اختيار صعب.. ذلك أن كل من أبدى مقاومة منهم كان إما أن تجري تصفيته، وإما أن يترك في معسكرات عمل الرق حتى يفنى. أما الذين نجوا، فقد أصبحوا يكونون الكنيسة السوفييتية الجديدة التي أدخل عليها «الاصلاح». وأنتهى الأمر بإنشاء دولة ملحدة.

إن الدين بالنسبة لأي شيوعي فلسفة بورجوازية لها ارتباطات وخلفية اقطاعية، أو فلسفة بورجوازية تعتمد على الاعتقاد بوحدة الآله. ووفقا لماركس: « فإن الدين أفيون الشعوب، كما أضاف قائلاً: إن الدين يحشو عقول الرجال بالخرافات والخزعبلات». على ان الشيوعيين ليسوا مجرد ملحدين فقط، ولكنهم يخططون لغزو عقول الرجال، ومن ثم ينبغي عليهم ان يتعاملوا مع الواقع. والواقع وفقا لهم هو أن هناك الملايين لا يزالون غارقين في غياهب الدين. ونتيجة لذلك فإن معقل الدين ينبغي ان يقترب منه أو يحترق، وفقا لنصيحة لينين، التي تنص على أنه ينبغي على الشيوعيين أن يكونوا في الأماكن التي توجد فيها الجماهير. وهكذا فإنه وفقا لتجربتهم الروسية، ووفقا لقواعد برنامجهم لغزو العالم، فانهم أدركوا أنه ينبغي عليهم أن يحاولوا اختراق هذا الحصن العقائدي، فإذا لم يتمكنوا من غزوه فليس أقل من تحييده.

إن التسلسل إلى الأصول الدينية والتنظيمات الدينية تتطلب صلابة أيديولوجية غريبة بالنسبة للبلاشفة. لقد كانت عملية دخولهم إلى داخل تنظيمات الدين والتأثير عليها، مشكلة بالنسبة لهم. ذلك أن الهوة بين البلشفية والدين، تكمن في أن كثيرا من الشيوعيين الذين كانوا كاستراتيجيين سياسيين - قد تعودوا على الدفاع عن اشياء لا يؤمنون بها، ومن ثم احسوا بقلق من هذا الوضع الجديد. والواقع بأن هذه العملية الخاصة نفذت في بادئ

الأمر بواسطة «البوليتبيرو» الذي لم يكن معروفا للجماهير من أعضاء الحزب. وحتى في روسيا حيث كان للشيوعيين السيطرة الشاملة على الدولة، فإن المخاطرة الجديدة نفذت في بادئ الأمر بتردد وبصورة تجريبية. وبقدر النجاح الذي حققته هذه المخاطرة، تم تنفيذ عمليات مشابهة خارج الاتحاد السوفيتي.

وقمت أول تجربة لهذا النموذج الجديد خارج روسيا في الولايات المتحدة. لقد تعاطف كثير من الوزراء البروتستانت مع ثورة روسيا المعادية للقيصرية، كما أن بعضهم نقل تعبيرات عن تعاطفه مع النظام الجديد. وكانت المجموعة الرئيسية التي وهبت نفسها للغرض الشيوعي هي: اتحاد المذهب النظامي للخدمة الاجتماعية.

ولقد نجح الشيوعيون في اختراق هذه المجموعة من خلال شخصية هاري ف. وارد، الكاتب المرموق، الذي أصبح سكرتيرها حينئذ.

وعلى أواخر الثلاثينات واولائل الاربعينات كان المنظر العام للولايات المتحدة قد رضع بعدد من «الجبهات الشيوعية»، التي حفرت مخابئها في هيئات المجتمع الأمريكي. كما رصعت ترويسات خطابات هذه الجبهات باسماء مئات من رجال الكنيسة، الذين كان معظمهم يؤيدون الأهداف الشيوعية، دون وعي أو تيقظ. ولقد أجرى التخطيط كي تعمل جبهات كثيرة، كأدوات لدفع السياسة السوفيتية الخارجية وسط المجتمع الأمريكي.

وايضا يحفر الشيوعيون مخابئهم وسط تنظيم ضخم، يصبح هدفهم الأولي «وسائل» تشكيل الرأي العام. وفي هذه الحالة الخاصة تتكون الوسائل من مطبوعات الكنيسة والصحف والكتب والكتيبات والكراسات الرسمية وغير الرسمية. وفي اوائل الاربعينات، كان الشيوعيون قد ضموا اليهم طوائف قليلة عن طريق تسرب مطبوعاتهم. على انه بالنسبة عن معظم رجال الكنيسة، وعن قلة من المثاليين الذين ضلوا عن غير وعي، ينبغي أن نقول أن العملية الشيوعية ضد الدين، كانت اكثر العمليات خداعا وخبثا.

ولم تهدف العملية الدينية الشيوعية إلى تحويل المؤمنين عن طريق الله فحسب، بل كانت كذلك تهدف أساسا إلى تحويلهم عن النظام الرأسمالي. فإذا ما

حدث بوضوح حدود « العملية الدينية »، فإن النموذج التكتيكي للتسلل يبرز، وتدفع الرأسمالية بالوضمة باسم الله ولقد فسرت تعاليم المسيح لتخدم أغراضهم، وعلى سبيل المثال فإن المسيح وفقا لتفسيرهم - كان معاديا للرأسمالية، لأنه « طرد الصيارفة من المعبد ». كما أن المسيحيين الأوائل عاشوا في « كوميونات »، ومن ثم فإن النموذج الاجتماعي الشيوعي هو النظام الأمثل. لقد آمن المسيح بأخوة الإنسان وقيمة الفرد امام الله، ومن ثم، فإنه عارض نظام الرق الروماني، ولو كان حيا اليوم، لعارض أجور العبودية الرأسمالية، لقد كتب « ريفرند كلود وليامز » الذي كان يرأس جبهة دينية عرفت باسم « المعهد الشعبي للدين التطبيقي »، عدة كتبيات جاء فيها على سبيل المثال: لماذا نخط من الدين باسم ماركس، بينما يمكن تفسير الدين لتدعيم ماركس؟.

وكان لنجاح هذه المناورة نتائج هامة. وقبل ذلك، قام الشيوعيون بالتركيز بنوع خاص على اختراق الحركة العمالية. إن اختراق حصن بورجوازي مثل الدين فتح آفاقا جديدة، اذ كشف عن احتمال اختراق مجالات أخرى للفكر البورجوازي، واحتمال احتواء الأيديولوجية البورجوازية لصالح الغرض الشيوعي.

الشيوعية والإسلام:

وإذا كانت الشيوعية قد صبرت على المسيحية في ظروف معينة فإنها لا تصبر على الاسلام، الا ريثما تترصده، لتتربص بأتباعه الدوائر. ذلك ان المسيحية لا تتدخل في شئون الدولة، ولا تتعرض للنظم الاجتماعية. وبعيدا عن سلطة الكنيسة في الشئون الدنيوية في العصور الوسطى، فمن المعروف ان المسيحية نشأت في بلاد كانت السلطة الدنيوية بها في يد الحكام الرومان، وكانت السلطة الدنيوية بها تتبع الهكيل الاسرائيلي. ولم تحاول المسيحية ان تتدخل في الأمور الدنيوية، فأوصت بإعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

أما الإسلام فهو نظام اجتماعي شامل، يعمل على اقامة مجتمع على أساس جديد، ويعالج المسائل التي تتصدى لها الشيوعية، اجتماعية واقتصادية ودينية. ومن ثم كان الإسلام يمثل خطورة شديدة على الأيديولوجية الشيوعية، ولذا

لم يتوان الشيوعيون عن محاربتة بلا هوادة .

إن كارثة القرم الإسلامية درس بالغ الخطورة ، ينبغي على كل مسلم ان يعيه دائما . لقد استباح الشيوعيون المساجد ، فحولوها إلى اصطبلات للخيل او حظائر للأغنام ، واقاموا في بعضها مسارح للهو ، وجمعوا نسخ القرآن والاحاديث النبوية ، واشعلوا فيها النار . وبطشوا بالرجال ، ونكلوا بالشبان الذين توقعوا منهم المقاومة ، ونشروا الرعب والخوف في أنحاء البلاد . فاقفرت الديار ، وأهملت المزارع ، وعمت المجاعة في كل ركن من الاركان حتى أكلت الناس ابناءهم وهم ينتحبون .

التفسير الشيوعي للديموقراطية

من ابرز أعمال الزيف البياني التي تمت ، والتي ما زالت قائمة حتى اليوم ، قيام الشيوعيين بإعادة تفسير كلمة « ديموقراطية » . فحتى الثلاثينات كانت الكلمة التي تستخدم لوصف أهدافهم الاجتماعية هي « الاشتراكية » أو الشيوعية . وفي حياتهم السياسية الداخلية ، ما زال الشيوعيون يستخدمون هاتين الكلمتين ، أما في النشاط العام ، فإنهم يتظاهرون بأنهم « ديموقراطيون » أو « تقدميون » .

وفي ضوء تفسير الغرب للديموقراطية ، فإن السمة الرئيسة هي المشاركة المتزايدة لجمهير الشعب في الحكم الذاتي ، وتكون سلطات الدولة مقيدة . ذلك أن للأفراد حقوقا أساسية معينة مقيدة ، وهذه الحقوق أساس النظام . وتضان عن طريق إجراءات معينة كتقسيم السلطات إلى سلطة تنفيذية وسلطة تشريعية وسلطة قضائية . كما أن هذه الحقوق بما فيها حقوق الملكية الفردية ، لا يمكن أن تخضع لتصويت رأى الاغلبية ، ولكنها حق للفرد في حد ذاته . إن استقرار النظام إقتصاديا وسياسيا مبني على أساس أفكار الحقوق الفردية ، وقداسة العلاقات التعاقدية بين الرجال ، فاذا ما نسخت هذه الافكار ، فإن النسيج السياسي والاجتماعي سوف يتمزق .

وفيما يراه الشيوعيون ازاء تظاهرهم « التقدمي » الجديد ، فإن الديموقراطية لديهم هي حكم الأغلبية على اساس أن الاقلية المعينة ذاتيا في الحزب ، من

المفترض أن تعمل في سبيل المصالح الحقيقية للجماهير. ويزعمون أن ديموقراطيتهم أسمى، إذ لا تعرقلها علاقات الملكية الخاصة الأنانية وغير المسؤولة. ولقد أعيد صقل الاسطورة الاشتراكية القديمة التي تنص على أن ما تملكه الحكومة يملكه الشعب بعبارات ديموقراطية تقدمية. لقد الغيت بحصافة تلك الفكرة التي تقول أنه في ظل الشيوعية السوفيتية، يملك الحزب الحكومة في حد ذاتها، ولا يملك الشعب أى صوت بها.

ويؤكد الشيوعيون أن حكم الأغلبية قد بذر في نظامهم، فالحزب الشيوعي في روسيا لم يحصل ابدا على الأغلبية العددية، ولكنه دائما يمثل الاغلبية للطبقة الحاكمة. وفي إيجاز، فإن التعريف السوفييتي هو أن الزمرة الحاكمة هي «الأغلبية»، بغض النظر عن قوتها العددية، ومن ثم فإن الأغلبية تحكم. وفي خداع المنطق الشيوعي الغريب، فإن الأقلية ليس لها أى حقوق، مهما كان الأمر. وهذا يوضح كثيرا من تشعبات العمل السوفييتي، وهي ايضا غير مفهومة في العقلية الغربية. إن هذا يفسر السبب في عدم قيام أحزاب معارضة في الاتحاد السوفييتي، كما يوضح سبب نفى كل من يعارض في سبيل الصالح العام إلى سيبيريا، أو لماذا كان على كل فرد يختلف مع ستالين أن يكفر عن جرمه علانية ثم يختفي. لقد كان ستالين في الاتحاد السوفييتي هو الأغلبية، كذلك كان خروشوف، على انه حتى داخل «البريزديم» يمكن ان تصبح اغلبية عددية كباش فداء لأقلية، مع ضياع كل حقوقها.

وبعلم حسابي غريب يساندهم، فإن الشيوعيين يستهوون أى مطالب مباشرة تؤدي إلى اتجاه الديموقراطية الجديدة المقترحة، وتعاون على اقتلاع العلاقات السياسية والاقتصادية للديموقراطية البورجوازية، كما ان كثيرا من المطالب التي وضعناها اخترعت في مصنعهم الخاص بالحرب الثورية.

ولقد ولى الوقت الذي استخدمت فيه الحرب الثورية الشيوعية شعار «طبقة ضد طبقة»، وبالطبع ما زال الشيوعيون يقتبسون من الصراع الطبقي، ولكن خلف درع التقدمية، بهدف الوصول إلى غرض واحد. فإذا لاحظنا الاستقطاب الأولى للمجتمع إلى تقدميين ومحافظين، نجد أنهم يريدون أشياء

أكثر من مجرد ملجأ في المعسكر التقدمي. إنهم يريدون أكثر من استغلال التقدميين أيديولوجيا في سبيل أغراضهم. ذلك أنهم في النهاية يرغبون في الحصول على السيادة على الحركة التقدمية بأي حيلة ممكنة.

وقام ستالين بتوسيع تصورات لينين عن الثورة البورجوازية الديمقراطية، كي تحتوي القوى الساخطة حتى في الدول الديمقراطية البورجوازية، بينما دفع الشيوعيون لتمهيد طريق كانوا قد أدانوه من قبل كانتهازية فجعة. وكان أول ثمار لهذه الاستراتيجية، هو التحالف المفيد لستالين مع الديمقراطيات، ثم تلا ذلك في وقت لاحق نجاح مع اتحاد «الديموقراطية الشعبية» داخل المجال الصيني السوفييتي. وحتى في عهد التحول الديمقراطي الستاليني، كانت الديمقراطية مجرد رمز للنظام الاجتماعي في الغرب. وكان أى شيء آخر إما اشتراكيا وإما شيوعيا وإما فاشيا. وبعد الهجوم الكبير الشيوعي على الديمقراطية، ساد الاضطراب في كثير من العقول، وفي كثير من الدول، كما لا يزال هذا الاضطراب سائدا حتى الآن.

على أن الهزيمة المبدئية للتحرك الشيوعي للاستيلاء على مفتاح الفكر في العالم الغربي، لم تجيء نتيجة تحرك مضاد واع بواسطة الديمقراطيات الغربية، ولكنها جاءت نتيجة التاريخ في حد ذاته. لقد جاءت في أعطاف كشف ما كان يجري في معسكرات عمل الرق داخل روسيا، وما حدث في عمليات التطهير الدموية الشاسعة، وما كشفته الأيام من أعمال التعذيب والقتل السياسي السري التي قام بها ستالين، وأخيرا وليس آخرا سحق الثورتين المجرية والتشيكوسلوفاكية. وفي ايجاز، فإن «الحيوان» الشيوعي كان يتصرف مضادا لمواعظه الزائفة. ولقد استغرق وقت طويل كي تغوص هذه الحقائق في العقلية الغربية، التي خدرت لسنوات بواسطة الدعاية المخادعة الموالية للشيوعية. ولكن الحقائق محرمة للعواطف، ومن ثم فإن الأحرار الواعين، يجدون من العسير أن يصدقوا ان هناك أى ديموقراطية في ظل الشيوعية، ولا حتى الديمقراطية السامية التي يتشددون بها.

تمزيق الديمقراطية:

لقد استخدم الشيوعيون أساليب مفتتة اضافية من الدعاية الشيوعية وأعمال الإثارة والتهيج في القوات المسلحة لشعوب العالم غير الشيوعي. ولقد تم صياغة النشاط الشيوعي المضاد للعسكرية على نط، الطرق التي استخدمت في تفتيت الجيوش القيصرية في الحرب العالمية الاولى، وتلك التي استخدمت ضد جيوش الصينيين في الحرب الأهلية الصينية.

إن العداء للعسكرية له أيضا أهداف بعيدة المدى، كما أن له اهدافا مباشرة. أما هدفه بعيد المدى فهو ديمقراطية القوات المسلحة الرأسمالية. ويتضمن هدفه المباشر مطالب عاجلة، قد تكون تحسين الطعام، وزيادة الأجور، وانتخاب لجان الميسات بواسطة الجنود وتحسين نظام القضاء العسكري. وقد تتضمن الديمقراطية العسكرية، انتخاب الضباط والجنود، أو تخفيض امتيازات الضباط.

وبلا جدال، فإن ديمقراطية الجيش لن تكون أفضل بكثير من جيش من الغوغاء، فإذا ما نجح الحزب الشيوعي من خلال خلاياه السرية داخل الجيش في تفجير سلطة القيادة، فإن خلايا الحزب سوف تكون القوات المنظمة الوحيدة داخله، وسوف تستطيع استخدام الغوغاء المسلحة المتخلفة عن هذا النظام لأغراضها الخاصة. إن هذا بالطبع هو الهدف الخفي.

ووفقا للجدلية الشيوعية، فهناك إجراءات معاصران في وقت واحد يعملان في المجتمعات العصرية. أول هذين الإجراءات يتجه نحو التركيز أى «الاحتكار»، وثانيها مقاومة الجماهير للحشد.

ولكي يعمل الشيوعيون بفعالية في دولة غير شيوعية، فإن المزيد من الحرية الديمقراطية هو المطلب المفضل لديهم فقط، ولكن بالنسبة لأولئك الساخطين الذين يمكن حثهم واستخدامهم. ذلك أنه لكي تدفع الجماهير ضد أسس المجتمع القائمة، يتطلب الأمر أقصى درجة من الحرية الشاملة الممكنة، ولكي ينساب الطوفان دون حواجز، ينبغي على المرء أن يدمر الحواجز الصخرية ويزيحها.

ومن ثم، فإن تدمير الحواجز هي شاغل من شواغل الحزب الشيوعي.

فالحزب يعمل بدأب نحو إعادة تفسير الحقوق المدنية، كي يسمح لها أن تعمل بحرية. وباسم حقوق التنظيم والتجمع، يسعى الحزب إلى حق في الإطاحة بالحكومة، وإلى حق لا قيد عليه في استخدام المظاهرات ومراقبة الشوارع، وإلى حق مطلق لاتحاداته في الإضراب في أى وقت وفي أى مكان، بغض النظر عن أى تعاقدات. ويفسر حق الاضراب، بأنه حق الاعتصام داخل المصنع، او استخدام القوة لإبقاء جميع الافراد خارج المصنع. ويفسر الحزب حق المراقبة كشيء يتضمن مراقبة الجماهير في أى وقت وفي أى مكان، ومراقبة أعمال الشغب عند بوابات المصانع، ومراقبة قاعات المحاكم وبيوت القضاء والمشرعين، ورجال السلطة التنفيذية.

وباسم حق حرية الكلمة، فإن الحزب الشيوعي وجبهاته وتنظيماته التابعة لا تريد حقا غير منفذ للدفاع عن برنامج الحزب في أعمال الشغب المدنية فحسب، بل تنشد أيضا حق الكذب والمروق عن الحق، والافتراء والتلفيق لخصومهم، وتلطيخ سمعتهم. وفي الوقت ذاته، وباسم حرية الكلمة، يطلب الحزب من اتحادات الحزب التي سيطر عليها، أن يكون لديها الحرية القصوى للافتراء والتحريف، بينما يتهم الرأسمالين «والرجعيين» الآخرين بأنهم يتدخلون في حق حرية الكلمة والتنظيم.

وبإيجاز، فإن الشيوعيين يطلبون لأنفسهم الحرية بغض النظر عما يقومون به، بينما يكتبون خصومهم الذين يوصمون بالرجعية والفاشية. ويحدث كل هذا باسم الحرية التقدمية والديموقراطية. والهدف الاستراتيجي من ذلك هو تقويض نظام العمل داخل المجتمع البورجوازي الديموقراطى، بينما يقوم الشيوعيون بتوسيع حرية عملهم في التخريب.

ويجدر بالقارىء ألا يفترض أن القيادة الشيوعية تؤمن حقيقة بأى نوع من الحريات، فحينما يكون الحزب في موقف معارضة المجتمع البورجوازي، متبنيا الدفاع عن جميع أنواع الحريات لتدمير هذا المجتمع، يتبع الحزب ذاته النظام والطاعة بصورة جامدة، فبدون هذا النظام لا يمكن للحزب أن يناور ولم يؤخذ أقل القليل من دعوات برنامج «الديمقراطية الموسعة» أو

الانتهازية الثورية، من المصلحين كما يدعي لينين. ان الهدف هو دائماً بتر نفوذ المصلحين واستخدامه للأغراض الشيوعية.

الخلاصة:

تشن الحرب الثورية لتمزيق المجتمع غير الشيوعي، ومن أجل تنمية السلطة الطغوانية وتعزيزها. ويهدف نشاط الحرب الثورية إلى اختراق قطاعات المجتمع، والهجوم على المعنويات المكونة لكيان المجتمع، مثل الأخلاق والدين والحرية والعدل.

وكل حركة شيوعية تبدو في بادئ الأمر كأنها الأمل المرتقب الذي يتدثر بالأخلاق السامية ولكن ما أن تتعرض إحدى غاياتهم للخطر، حتى ينفضون أيديهم من المعايير الأخلاقية، ويستخدمون وسائل غير مثالية، متحررين من الالتزامات الأخلاقية، وتبدو الوحشية هنا ووسيلة العنف، أمرين يتفان وأهداف الشيوعية، وما تكتنفها من أوهام وتصورات غير واقعية. لقد نجحت الاستبدادية الشيوعية في تدمير شكل اجتماعي معين وأقامت بوسائل طغوانية لا أخلاقية. ولا تعني تصورات الشيوعيين الأخلاقية وتسمياتهم للمعايير غير شيء واحد هو تدعيم صفوف القمة الحاكمة، أما من زاوية المراتب الأخلاقية الفعلية، فهذه ونحوها لا مكان لها بينهم، كما أن الازمات الأخلاقية سواء أكانت كبيرة أم صغيرة أمر لا مفر منه في كل أنواع الدكتاتوريات، إذ أن أتباعها بحكم اعتيادهم على الالتزام وتجانس الفكر السياسي، لا بد أن تزعجهم أية انتكاسات أو تغييرات.

وتنشد الحرب الثورية الشيوعية خلال دفعها استراتيجيتها، رفع معنويات القوة القتالية الخاصة بها وتقويض قوة العدو القتالية، ويجد التسلل الشيوعي الفرصة مواتية إذا ما تعرضت الدولة المستهدفة لانهايار نتيجة الضربة الأولى من عدو، أو نتيجة لقيام أزمة داخلية عنيفة.

وتهدف دعاية الشيوعيين إلى تقويض معنويات الخصم، والقيام بأعمال الإثارة، والتنديد بالنظام الاجتماعي ومؤسساته، وتلطيخ سمعة زعمائه، وتلوين التنظيمات والأفراد الذين يقاتلون الشيوعية عن وعي.

وينشد الشيوعيون من خلال دعاية تقويض المعنويات وأعمال الإثارة إضعاف جذور معتقدات الدولة غير الشيوعية، كذا التشكيك في أصالة مؤسساتها الاجتماعية، وفي صحة انماط أفكارها الأساسية.

وتزعم الشيوعية أنها تهدف إلى تحقيق مجتمع المساواة الانسانية والاخوة في العالم، شأنها في ذلك شأن باقي الأديان. ولكن الشيوعية في قيمها الأخرى ومثالياتها وفي تطبيقاتها، تتناقض كلية مع الأديان، فهي تنادي بدكتاتورية سياسة لطبقة معينة، وهي لا تتسامح مع أعدائها وتسلب الانسان حريته وكرامته، وتبرر في سلوكها كل الوسائل اللانسانية التي تستخدمها على أساس ان الغاية تبرر الوسيلة. كما ان الشيوعية المعاصرة - من نواح عدة تعيد للذكرى قصور الطوائف الدينية التي قامت في العصور الوسطى. كذلك تحتوي على بعض عناصر التفرد المذهبي الذي اتسم به المتطهرون في ظل كرومويل، ولكن هناك اختلافات جوهرية، فالتطهرون كانوا يؤمنون بالإنجيل بصورة جامدة، بينما يؤمن الشيوعيون بالعلم.

ولما كان الشيوعيون ملحدين، فقد قاموا بعد استيلائهم على السلطة في موسكو عام ١٩١٧ بشن هجمة مباشرة على الأفكار والتنظيمات الدينية، كما قاموا بتأميم ممتلكات الكنيسة، واعتقلوا رجال الدين وأعدم الآلاف منهم. واعتمد الشيوعيون على «الجبهة الايديولوجية» بعد إقلاعهم عن الهجوم على الدين. واليوم يحاول الشيوعيون الاقلاع عن مهاجمة الدين نتيجة نفوذه في المستعمرات والدول المستقلة حديثا، ذلك أن هجوما مباشرا للشيوعيين على الدين في دول آسيا والشرق الأوسط وافريقيا سوف يلغى عمليا العملية الشيوعية. ولقد تصور ستالين أن الهجوم المباشر على الدين يمكن أن يحدث تحت ستار الإصلاح الديني، وقد أدت هذه السياسة الى إنشاء دولة ملحدة.

ويعد الدين في نظر الشيوعى فلسفة بورجوازية لها ارتباطات وخلفية اقطاعية. ووفقا لما يراه ماركس فإن الدين أفيون الشعوب. او هو كما يقول لينين «يحشو عقول الرجال بالخرافات والخرعبلات». ووفقا للتجربة الروسية أدرك الشيوعيون أنه ينبغي عليهم اختراق هذا الحصن العقائدى، فإذا لم

يتمكنوا من غزوه فليس أقل من تحييده. ويحاول الشيوعيون دمج الراسمالية بوصفات باسم الله، كما فسرت تعاليم المسيح لتخدم اغراضهم.

وفي ضوء ما قرره الشيوعيون تبدو لديهم حكم الاغلبية على أساس أن الأقلية المعينة ذاتيا في الحزب من المفترض أن تعمل في سبيل المصالح الحقيقية للجماهير. وهم يزعمون أن ديموقراطيتهم أسمى، اذ لا تعرقلها علاقات الملكية الخاصة الانانية وغير المسؤولة. إن التعريف السوفييتي للديموقراطية، هو أن الزمرة الحاكمة هي الأغلبية بغض النظر عن قوتها العددية، ومن ثم فإن الأغلبية تحكم.

والشيوعيون لا يتوانون عن تمزيق الديموقراطية في العالم غير الشيوعي. وباسم حق حرية الكلمة، ينشد الحزب الشيوعي وتنظيماته حق الكذب والمروق عن الحق والافتراء والتلفيق لخصومهم وتلطيح سمعتهم.

ويأجواز، فإن الشيوعيين يطلبون لأنفسهم الحرية بغض النظر عما يقومون به، بينما يكتبون خصومهم الذين يوصمون بالرجعية والفاشية. ويحدث هذا كله باسم الحرية التقدمية والديموقراطية. إن الهدف الاستراتيجي من ذلك هو تقويض نظام العمل داخل المجتمع البورجوازي الديموقراطي، بينما يقوم الشيوعيون بتوسيع حرية أعمالهم في التخريب. وهم بتدميرهم هيبة القيادة السياسية وكرامتها أو حتى شلها، إنما يخربون المجتمع غير الشيوعي. ويشلون دفاعاته ومرونته الاجتماعية، بل قد يدمرون كيان نظامه.

سلاح الثقافة في الحرب الثورية

عناصر النشاط الثقافي:

تعد الحرب الثورية من الناحية النفسية حربا شاملة، لأنها تهدف إلى تقييد الضمائر، والتأثير في وعي الجماهير. ومن البديهي أن الثقافة هي السلاح الرئيسي في هذا النوع من العمل، ذلك أنها تعمل على التأثير في عقول الناس، وتبث فيهم الآراء والأفكار النافعة لمن يعرف كيف يمك في يده بخيوط اللعبة بمهارة. وتأتي الثقافة أيضا قبل السياسة البسيطة الممثلة في الاجتماعات وفي قاعات البرلمانات. كما أن الدعاية هي وسيلة الاستطلاع أمام السياسة. وتشير الدلائل إلى أن الدعاية تأخذ أبعادا ثقافية لا حدود لها، كي تصبح أكثر فعالية، وأقل تعرضا للنقض، وذات قدرة أكبر على التغلغل.

وكما هو الحال في الحرب الساخنة التي يدور فيها القتال الحقيقي، فإن العمل في الميدان الثقافي يصبح واسع النطاق ومقسما إلى أقسام كثيرة، ويمكن التعرف على عناصره على النحو التالي:

أ - القيام بتوزيع نشرات تضم خططا استراتيجية.

ب - إثارة الارهاب النفسي.

ج - الظهور بمظهر عدم التحيز المذهبي.

توزيع نشرات تضم خططا استراتيجية:

تستغل فرص عدم الاهتمام لدى الآخرين، فتتنظم عملية غزو عقلي بطريقة

شبه سرية، سواء في مراكز الجامعات، أم في مجلات النشر، أم في الصحافة، أم في التلفزيون، أم في السينما أو المسرح.. الخ
ومن مزايا الشيوعيين أنهم أدركوا أن المعارك تخاض وتكسب بعقول الناس ونفوسهم.

اثارة الارهاب النفسي:

والإرهاب ليس ما يمارس عن طريق محاولات الاغتيال أو القاء القنابل فحسب، إنما هناك أيضا ارهاب آخر مماثل له قوانينه ومبادئه، وهو لا يوجه إلى الأبدان بل إلى الضمائر. إن هذا الإرهاب النفسي يعتمد على ثلاثة أسس رئيسية:

أ - الاعتقاد بأن الثقافة اليسارية هي أقوى الثقافات وأكثرها تقدما، نظرا لأن لديها جانب المستقبل والشعور بالتاريخ. ولا يبدو هذا الاعتقاد في صورة عقيدة، إنما توطد أركانه عن طريق التكرار.

ب - التهديد بعزلة ثقافية كاملة، أشبه بالموت المدني في المجال الثقافي.

ج - الابتزازات المادية عن طريق مراكز السلطة.

الواقعية الاشتراكية:

لا يعمد الشيوعيون إلى التصلب في النظريات الثقافية، إنما هم على العكس يعمدون إلى المرونة، حتى لا ينكشون، وحتى لا يظلمون في الصفوف الخلفية.. ومن ثم يمكنهم فرض وصاية سياسية على جميع أنواع وسائل التعبير.

وإلى وقت قصير مضى، كانت نظرية «الواقعية الاشتراكية»، أو بمعنى آخر الواقعية، تمثل منهج الماركسية في بعض دول أوروبا الغربية، غير أنهم تخلوا عنها نهائيا، نتيجة ظهور بعض المطالب الطليعية. وبعد أن وضع المثقفون الشيوعيون أنظارهم على الحركة الجديدة عملوا بها، بالرغم من أنها لا تتفق مع وسائلهم التقليدية.

وكان جوركي أول من استخدم هذا الاصطلاح، ربما بوحى من منهجه الواقعي، إذ تصور أنه في ظل ظروف الاشتراكية الفجة، ينبغي على الفن أن

يستوحي أفكارا جديدة أو اشتراكية، كما ينبغي عليه أن يصور الواقع بأكبر قسط ممكن من الأمانة. ومن ثم فإن كل ما تدعو إليه هذه النظرية من التماثل وتأكيد الايديولوجية وصلابة الحزب.. الخ، إما مقتبسه من نظريات أخرى، وإما دخلت عنوة بسبب احتياجات النظام السياسية.

وما لم تتبلور الواقعية الاشتراكية «لتصبح نظرية كاملة، فإنها تعني في الواقع احتكارا أيديولوجيا للفنون بواسطة الشيوعيين. وتدعو هذه النظرية إلى بذل شتى الجهود، كي تندثر آراء الزعماء ضيقة الأفق والمتخلفة بكساء من الأشكال الفنية، وكي تصور أعمالهم بأسلوب تقريظي رومانتيكي. وقد أدى ذلك إلى قيام تبرير مخادع لسيطرة النظام على الأفكار، وللرقابة البيروقراطية على احتياجات الفرد ذاته.

غير أن أشكال هذه السيطرة تتباين في الدول الشيوعية المختلفة وتتراوح من رقابة بيروقراطية الحزب إلى سطوة ايديولوجية. على أن قيام الرقابة سواء في الإتحاد السوفييتي أو في الدول الشيوعية الأخرى، لم يحل مسألة خلق فنانيين نتيجة الرقابة الذاتية. فالمفكرون يتحتم عليهم أن يفرضوا الرقابة الذاتية على أنفسهم بحكم أوضاعهم وواقع علاقاتهم الاجتماعية. فالرقابة الذاتية هي في الواقع الشكل الأساس لسيطرة الحزب الايديولوجية داخل النظام الشيوعي.

وهكذا تؤدي هذه النظرية إلى ظهور تعبيرات غامضة مثل أعداء الشعب، والشعب العامل، كما تؤدي إلى قيام الاضطهاد والتحقير والإهانات، وإلى فرض البيروقراطيين أنصاف المتعلمين السلطة المذهبية على النابغين.

يحدث هذا كله باسم الشعب ومن أجل الشعب. ومن ثم، فإن نظرية الواقعية الاشتراكية الشيوعية، لا تختلف حتى في المدلول اللفظي عن الاشتراكية الوطنية الهتلرية. ولقد قام «ارفن سينكو» الكاتب اليوغوسلافي بعمل مقارنة طريفة بين النظريتين في مجال الفن، جاء فيها ما يلي:

« كتب تيموفيف أحد النظريين السوفييت في مؤلفه «نظرية في الأدب» يقول: إن الأدب نوع من الأيديولوجيات التي تساعد الانسان على الامام بالحياة، والتحقق من أنه يشارك فيها» « وتنص الأسس الجوهرية السياسية الثقافية في

الاشتراكية الوطنية على ما يلي: لا يمكن أن يكون الفنان فناً فحسب، بل ينبغي أن يكون أيضاً معلماً».

«وقال «بالدرفون شيراخ» قائد الشباب الهتلري، أن أي عمل فني أصيل هو الذي يعبر عن الشعب بأجمعه.. كذلك قال زادانوف عضو المكتب السياسي للجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفييتي: إن كل شيء خلاق يصل إلى أغوار النفس».. وقال «وولف جانج شولز» في كتاب «الأصول»: إن سياسة الاشتراكية الوطنية بما فيها ذلك الجزء الذي يطلق عليه «السياسة الثقافية»، يقرها الفوهرر وأولئك الذين فوضتهم السلطة».

«وإذا ما أردنا أن نعرف ما هي سياسة الثقافة في الاشتراكية الوطنية ينبغي علينا أن نتأمل هؤلاء الرجال، وأن نبحث ما كانوا يفعلونه، وما التوجيهات التي قاموا بإصدارها، كي يقوموا بتعليم جماعات مسؤولة أمامهم في المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي السوفييتي».

«وقال - ياروسلفسكي» إن الرفيق ستالين هو ملهم الفنانين، فهو يقدم لهم الأفكار الموجهة... كما أن قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي وتقرير أ. أ. زادانوف يقدم للكتاب السوفييت برنامج عمل معداً وكاملاً».

وكقاعدة عامة فإن النظام الشيوعي يخنق أي نشاط فكري لا يوافق عليه ويكبته، أي كل شيء يتمتع بالإصالة والعمق. على أنه من ناحية أخرى يكافئ كل عمل يعتقد أنه ذو جدوى للاشتراكية ويشجعه، أي للنظام ذاته، وإن كان في الواقع يعمل على إفساده.

وتخلق هذه الروح بيروقراطية الحزب المحتكرة للعقل والفكر. ولهذا لم يجد الإنسان المثقف أمامه سوى أن يلجأ إلى هذه السلطة، سواء للتزود بالأفكار، أو للحصول على النفع الذاتي.

كذلك يقوم النظام الشيوعي باضطهاد أفراده الخلاقين الأصلاء، ويشك فيهم ويدفعهم إلى النقد الذاتي، بينما يهيم في الوقت ذاته للملتزمين ظروف العمل الجذابة المتسمة بالتزلف، كذا الاكراميات السخية والمكافآت، والفيلات، ومراكز تمضية العطلات، وتخفيض الأسعار، والسيارات، ومناصب

السفراء ، بالإضافة إلى الحماية من قسم الإثارة والتهيج .. وهكذا يضيء النظام الشيوعي كقاعدة عامة رعايته على الامعات غير الموهوبين ، الذين لا يتمتعون بملكة الابتكار ، وهذا يفسر لنا كيف فقدت العقول العظيمة اتجاهاتها وإيمانها وقوتها .

وإلى جانب ذلك ، فإن الثقافة الماركسية عملت دائما على التمشي مع الاحلاف التي يمثلها دعاة الهزيمة البورجوازية ، ومع الفوضويين والثوار ، الذين لا يسمح بنشر انتاجهم الفني في كل من الاتحاد السوفييتي والصين ، بينما يسمح بنشر هذا الانتاج في الغرب ، لأنه يخدم الاستراتيجية الثورية .

هذه القدرة الكبيرة على التشكل ، هي أساس الوسائل التي تستخدم لإنكار الثقافة الحقيقية . كما أن هذا العمل شديد الخطورة ، لأن الشيوعيين الذين لا يعبأون كثيرا بالحقيقة أو بالجمال ، لا يعنيه من الثقافة إلا أن يجعلوا منها أداة للسيطرة النفسية .

ومن المؤكد أن استخدام الثقافة على هذا السبيل ، يكشفه كل من يتمتع بإحساس مرهف ، ويشعر إزاءه بشيء من الاشمئزاز . ولكن من ناحية أخرى قد يصبح هذا الاشمئزاز ميزة في ايدي الشيوعيين .

الطغيان على النشاط الفكري:

إن الافتراض الذي ينص على أن الماركسية منهج عالمي ، لا مناص من أن يؤدي عند التطبيق إلى الطغيان في جميع مجالات النشاط الفكري .

فإذا استطيع أن يفعله عالم من علماء الطبيعة سيء الطالع إذا لم تسلك الذرات وفقاً للنظرية الهيجلية - الماركسية عن الصراع ، أو وفقاً لمبدأ توافق الاضداد وتطورها إلى أشكال أعلى مرتبة؟ وماذا عن علماء الفلك ، إذا لم يتصرف الكون وفقاً للجذلية الشيوعية؟ وما عساه يحدث لعلماء علم الحياة ، إذا لم يسلك النبات وفقاً لنظرية ليسنكو الستالينية التي تفترض توافق الطبقات وتعاونها في المجتمع الاشتراكي؟ .

ولما كان هؤلاء العلماء التعساء لا يستطيعون بطبيعة الحال أن يكذبوا ، فقد أصبح لا مفر من أن يقاسوا نتيجة صدقهم الذي يعد بمثابة هرطقة منهم . ولكي

تصبح اكتشافاتهم معقولة، يتعين عليهم أن يجعلوا هذه الاكتشافات مطابقة للتوليفات الماركسية - اللينينية. إن العلماء غائصون في ورطة دائمة، تكمن في عما إذا كانت أفكارهم واكتشافاتهم ستسيء إلى المذهب الرسمي، ومن ثم فهم مجبرون على أن يسلكوا سبيل الانتهازية والتوفيق بين العلم والمذهب.

معارضة الفكر:

وتعارض النظم الشيوعية كلية أي تقدم أو أي اكتشاف فكري، ذلك أنه بقيام النظام الشيوعي على أساس فلسفة واحدة فريدة، تعارض هذه الفلسفة أي فكريا آخر، وبخاصة الفكر الاجتماعي، فالمرء لا يضع في حسابه إلا القابضين على زمام الحكم، الذين يعدون انفسهم الفلاسفة والمعلمين القادرين على السمو بالوعي الإنساني.

وفي مجال شتى أنواع العلوم والفكر، فإن العلوم الاجتماعية وتأملات المشاكل الاجتماعية تصبح أتعس العلوم، فهي نادرا ما تستطيع أن تعيش. ذلك أنه حينما يصبح الأمر متعلقا بالمجتمع أو بمشكلة اجتماعية، فإن كل شيء ينبغي أن يفسر وفقا لتعاليم ماركس و لينين، أو يقوم الزعماء باحتكار كل شيء.

أما في مجال التاريخ، وبخاصة تاريخ الفترة الشيوعية، فإن الانسانية تطعن في صميمها، ذلك أنه ليس هناك شيء اسوأ من أن يتعرض ضمير الانسانية لتزييف حقائق التاريخ، أو الصمت عن توضيح هذه الحقائق.

وعلى سبيل المثال فإن التراث الفكري الانساني، يصادر، ويعمل المحتكرون كما لو كانت أحداث التاريخ قد جرت لمجرد أن تسمح لظهورهم على المسرح الدولي. وهم يقيسون الماضي وكل شيء حدث فيه وفقا لنموذجهم وطابعهم إنهم في هذا السبيل يطبقون قياسا واحدا، هو تقسيم كل الرجال والطواهر الى تقسيمات تقدمية وأخرى «رجعية».

وهذا الاسلوب يشيدون أصناما، ويرفعون الأقرام، ويحطمون العمالقة، وبخاصة عمالقة زمانهم.

الفنون:

فإذا انتقلنا إلى مجال الفنون، فما لا شك فيه أن يد الرعاية الشيوعية امتدت إليه. وهذا أمر لا يحتاج لأي تبرير، فما من فن يقوم بغير أفكار، وبغير تأثير ما على إدراك الفنان. ولكن من ناحية أخرى، فإن احتكار الافكار وتكوين الوعي من اللوازم الضرورية للحكام الشيوعيين. كذلك فإن الشيوعيين تقليديون في الفن، ولا يرجع ذلك إلى حاجتهم للاحتفاظ باحتكارهم لعقول الفنانين فحسب، بل يرجع أيضا لجهلهم وضيق افقهم.

ويقول جيلاس النظري اليوغوسلافي:

«... وإن كان بعضهم يتسامح بقيام نوع من الحرية الديمقراطية في مجال الفن العصري، فإن ذلك ليس سوى اعتراف بأنهم لا يفهمون الفن العصري. ومن ثم، يظنون أنه ينبغي أن يسمحوا به.»

ويستطرد في وصف الحال بالشعوب المتخلفة بقوله:

«وبالرغم من ذلك، فإن الشعوب المتخلفة في النظم الشيوعية. ذاقت نوعا من التطور الثقافي بجانب التطور الفني. ذلك أن الثقافة سهل الوصول إليها على الرغم من أن معظمها يصل في شكل من أشكال الدعاية، كذلك فإن الطبقة الجديدة يهملها أن تنتشر الثقافة، إذ ان التصنيع يتطلب درجة أعلى في نوعية العمل، ويحتاج إلى توسيع قاعدة الفرص الثقافية. ولذلك انتشرت شبكة كبيرة من المدارس والمراكز المهنية بدرجة سريعة، تجاوزت أحيانا الاحتياجات الفعلية والامكانيات، ولذا لا يمكن إنكار التقدم في مجال الفنون.⁽¹⁾ وهناك وسيلتان لخنق الفنون هما: معارضة الجوانب الفكرية المثالية، ومعارضة الابتكار في الشكل.

لقد وصل الأمر في عهد ستالين إلى حد حرمت فيه جميع أنواع أشكال التعبير الفني التي لم يمل إليها ستالين. وبالطبع لم يكن ستالين يهتم بخاصة بدوق رفيع، فقد كان ضعيف السمع لا يملك ملكة تذوق الفنون. ومع ذلك، فقد

(1) Milovan Djilas, *The New class*, Frederick A. Praeger Publisher, New York, 1957, P. B. 7

اصبح أسلوب ستالين الفني هو الأسلوب القومي . كما أصبح تبني الآراء الرسمية في أشكال الفنون أمرا اجباريا مثل تبني الأفكار الرسمية .

على أن الامر لم يكن كذلك دائما في النظم الشيوعية ، كذلك لم يكن من المحتم أن يصبح كذلك . ففي عام ١٩٢٥ ، اتخذ قرار في الاتحاد السوفيتي جاء فيه :

« إن الحزب ككل لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يربط بين الولاء والدافع في الحقل الأدبي » . وبذلك لم يتخل الحزب عما كان يطلق عليها « المساعدة الايديولوجية » ، أي السيطرة الايديولوجية والسياسية على الفنانين . وكان هذا هو أقصى ما حققه الشيوعيون من ديموقراطية في حقل الفنون .

ومن ناحية اخرى فإن الشعوب العديدة للاتحاد السوفيتي من المزارعين أو الذين من أصل ريفي ، شعوب فكرية ، وتعمل مجد . فهم يعرفون كيف يسترخون مع الموسيقى والاغنية والرقص . اما الأوبرا الروسية الكلاسيكية والباليه فقد استعيرا من الخارج ثم أتقنا في الداخل . وخلال قيام الثورة والحرب الأهلية التي تبعتها ، قام البلاشفة بتطهير كثير من هذه الثقافة العميقة الجذور أو تدميرها .

وبعد الحرب الأهلية ، حينما بدأت الظروف السياسية والاقتصادية في الاستقرار ، غشيت الفنون السحابة ذاتها ، مثلما غشى كل شيء موروث من عهد القيصرية ، وسرعان ما استبدلت بهذه الفنون فنون البروليتاريا ، ولم يستطع أي إنسان أن يدرك على وجه الدقة ما ينبغي أن يحتويه الفن البروليتاري ، عدا شيء واحد ، هو أنه ينبغي معارضة الأذواق البورجوازية . وكانت النتيجة أن الفن البروليتاري أصبح في بساطة تعبيرا مسرحيا عن العدا للقيصرية ، وللدعاية الرأسمالية في الحرب الأهلية ، مع تمجيد النظام السوفيتي الجديد . إن الفن الأصيل هو دائما نتاج جزء من السكان ذوي الثقافة الرفيعة ، وينبغي ألا تقيدهم الدوافع السياسية ، ولكن الفن البروليتاري جاء بعكس ذلك تماما .

ولم تستنفذ الطبقة الحاكمة السوفيتية الجديدة كثيرا من الوقت كي تحول الفن البروليتاري إلى « فن شعبي » ، الذي كان يعني استخدام الفن الأصيل

لأغراض جديدة. فأعيدت كتابة الأوبرات القديمة وانتجت، وعاد الباليه إلى أصله مرة أخرى. أما الرسم والنحت فقد استخدموا لتمجيد المجتمع الجديد وقادته. ووضع الفنانون المهرة ضمن الطبقة العليا للمجتمع السوفييتي. وبمرور الزمن أضيفت انتاجات جديدة للفن القديم، واستخدم جزء من الفن الرأسمالي لخدمة أغراض سوفييتية. وباختصار، فإن الطبقات العليا الجديدة، كانت تهوى الترفيه، وكان ستالين راغبا تماما في إمدادهم بوسائل الترفيه.

الكينو:

وكان تطور «الكينو» Kino أو السينما السوفييتية إنجازاً جديداً للثقافة الجماهيرية. لقد مزجت الأفلام السوفييتية وبخاصة في العشرينات، بين الدعاية السياسية وسبل التسلية، كذلك أصبح الترفيه الجماهيري والاسترخاء النفسي ميسورا في «حدائق الثقافة» التي زودت بفرق الموسيقى والألعاب الرياضية، وألعاب السيرك.

وفي ظل الشيوعية لا يكون هناك شيء في الفن من أجل الفن ذاته. ويستخدم الفن الشيوعي لتنسيق الدعاية والإثارة، أو للاقتراء على الخصوم، أو للهجوم على افكارهم، أو لتمجيد الانجازات الشيوعية وإيقاد الشيوعيين. وقد يتطلب الأمر في الإتحاد السوفييتي، استخدام سلطة الشرطة لاجبار الفنانين على التكيف مع التحولات المتعددة لخط الحزب. وليس ثمة بشر يطارد أكثر من أولئك الذين يطلق عليهم «عمال الجبهة الثقافية» لكي ينتجوا الفن في ظل السوفييتيات التي تعد اداة الايديولوجية الشيوعية. إن مدير المصنع أو المهندس قد يعمل وقد يستطيع ان يخفي أفكاره، ولكن «عامل الثقافة» أو «فنان الشعب»، ينبغي أن يكون سافرا في افكاره حينما يعمل.

وغالبا ما تحتفي الأفكار الأصيلة وراء المداهنة المبالغ فيها للزعماء السوفييت وصنائعهم. وكان ستالين بوجه خاص يوصف بأنه الملهم، وسيد النظريات، والحكيم، والعبقرية «العسكرية العظمى». ولقد شيد له تمثال شبه «آله» ينبت الزرع ويشرق الشمس. وكانت البلاد مرصعة بتماثيل لستالين في أثناء حياته. ومن الطريف أنه لم يوجه تأنيب لأي فنان أو كاتب مطلقا نتيجة

نفاقه الزائد، ولكن أي فنان أو كاتب لم يستشهد لستالين على أنه مصدر السلطة- على الأقل مرة واحدة في نتاجه- كان عرضة للاشتباه فيه.

الحرية النسبية للشكل:

لقد علق الشيوعيون السيف فوق رأس الثقافة السوفييتية، ولكن السيف رد إلى قلب الثقافة ذاته. على أن الحرية النسبية للشكل، وهي الحرية الوحيدة التي يستطيع الشيوعيون كبتها دوريا، لا تستطيع أن تحرر تماما الفنان الخلاق. ذلك أن الفن ينبغي أن يعبر أيضا ولو بأسلوب غير مباشر عن أفكار جديدة عن طريق الشكل ذاته. وحتى في النظم الشيوعية التي تسمح للفن بقسط أكبر من الحرية، يظل التناقض بلا حل بين الشكل الحر الموعود به، وبين السيطرة الجبرية على الأفكار.

ويظهر هذا التناقض بين حين وآخر، ففي بعض الأحيان يبرز في أعمال الفنانين نتيجة أنهم يجبرون على استخدام أشكال معينة. على أن هذا التناقض يظهر بالضرورة نتيجة النزاع بين أطباع النظام الاحتكارية الجامحة من جانب، وبين أطباع الفنانين الخلاقة التي لا تقاوم من جانب آخر. والواقع أن هذا النزاع هو النزاع نفسه الذي يقوم بين الابداع في العلم، وبين الجمود المذهبي الشيوعي، مع فارق - هو أن النزاع انتقل إلى ميدان الفنون.

إن أي عمل فني بحكم طبيعته الذاتية، هو دائما نقد لموقف معين، وتكوين لعلاقات معينة، ولك فإن الخلق الفني الذي يقوم على أساس موضوعات أصيلة غير ميسور في النظم الشيوعية، كما لا يسمح إلا بامتداح موقف معين، أو نقد خصوم النظام. وفي ظل هذه الشروط يصبح الفن لا قيمة له مهما كانت الظروف.

ومن ثم أصبح تملق الزعماء شرطا لازما للترقي بين الصفوف، ولتأكيد استمرار حياة الإنسان. لقد عاش قلة من الناس دون أن ينغمسوا في هذا العهد، ولكن التطهير كان ضاريا مع أولئك الذين رفضوا الانصياع، كما ألقى بالكثير من الفنانين في معسكرات عمل الرق.

اجراءات وقائية:

ولكن ما هي الاجراءات التي ينبغي اتخاذها؟
يتعين في المرحلة الدفاعية المباشرة أن تستغل الدول غير الشيوعية الادراك العام، وأن تتعمق فيه، وتدرس الطابع العدواني للسياسة الثقافية التي يطبقها الشيوعيون في الدول النامية.

ويتعين عليها فوراً أن تحدد أنها إزاء تحول على جانب كبير من الأهمية. وإذا أرادت أن تقوم بثورة مضادة في الميدان الثقافي، تعين عليها أن تغوص في دعاية الشيوعيين إلى الأعماق، إلى أن تصل إلى حلول مجدية.

إن المطلوب هو جعل الرأي العام، أو على الأقل أهم الاجزاء فيه، تتعرف على الفور وبطريقة تلقائية على الغش السياسي، حينما يتخذ أي وضع ثقافي بتأثير من الشيوعيين سواء من بعيد أو قريب، وبذلك يزول أثر العملية التي يقومون بها.

وينبغي عليها كذلك أن تكون أكثر قدرة على كشف النقاب عن كل الألاعيب، وأن تفضح التناقضات، كما حدث في حالة الكاتب اليوغوسلافي الذي كان قد وقع في « جريمة ذاكرة »، حينما أعاد إلى الذاكرة ما كان يحدث في معسكرات الإعدام التي اخترعها ستالين قبل هتلر، فصدر عليه حكم لم تقره أي جهة ثقافية يسارية.

ويجب أن تثار حملة منطقية هدفها القضاء على مراكز القوى التي تساعد في هذا العمل.

ولكن هذا ينقلنا إلى هذا التساؤل:

« هل نكون بذلك ضد الحرية الثقافية ؟ »

إن القضية تكمن في أنه باسم هذه الحرية، ارتكبت أعمال غش كثيرة. إن قصة ما حدث للكاتب الروماني « فينتيلا هوريا » الذي لجأ إلى فرنسا عام ١٩٦٠ توضح ذلك. ذلك أنه حينما فاز بجائزة مسابقة القصة بقصته الشهيرة « الله قد ولد في المنفى »، والتي يحتج فيها على جميع الدكتاتوريات وأعمال القمع، قرر الشيوعيون سحب الجائزة منه، بالإضافة إلى كشفهم عن المقالات التي كتبها وهو

في العشرين من عمره، والتي كانت تؤيد الألمان خلال الحرب التي كانت تخوضها بلاده إلى جانب قوات المحور ضد روسيا.

غير أن هناك جانبا من القصة لا يزال غير معروف على نطاق واسع. ذلك أن السفارة الرومانية الشيوعية قبل أن تتوصل إلى ما سمته بالاكشافات، أبلغت «هوريا» أنه لن يثار موضوع الجائزة التي حصل عليها ولا ماضيه، لو أعلن استعداده لإبداء الولاء نحو نظام الحكم الجديد في رومانيا، وبالتالي يعود إلى الوطن.

ومعنى ذلك أن كاتبا شهيرا قد يصبح أثيرا لدى الشيوعيين، بالرغم من أنه خدم من قبل طرفا معاديا، طالما أعلن استعداده كي يصبح أداة سياسية للشيوعية.

ولكن «هوريا» رفض هذا الابتزاز، وتحول إلى الفاشية. الأمر الأكثر خطورة يبدو في تعمد الشيوعيين نحو اسم هذا الكاتب حتى من إحدى المجلات الأدبية الإيطالية التي كان يكتب فيها، مع أن هذه المجلة ليست شيوعية ولا ماركسية.

ولا نستطيع أن نخفي أن الطريق الذي يتعين علينا السير فيه بالغ الصعوبة، لأننا سوف نبدأ متأخرين عدة اعوام، في حين أن ماتسمى بالثقافة الماركسية قد ضمت لنفسها قواعد كثيرة، وعرفت كيف تنتفع بها. غير أنه لا يمكن الاستمرار في الصمت ونحن نشاهد الكثير من هذه القواعد ومن مراكز القوى تزدهر بتأييد من الدولة - ويكفي هنا أن نشير إلى أن عددا كبيرا من الشيوعيين المصريين كانوا يتربعون يوما ما على مراكز الاعلام العليا في الصحافة والتلفزيون والمجال الثقافي.

والواقع أنه ليس من حق أحد أن يكلف بالدفاع عن الدولة المعتدية، اذا كانت هذه الدولة لديها مصادر إمداد داخل الدولة الأخرى.

الخلاصة:

ما يميز النظرية الماركسية جمود الايديولوجية، واتسامها بالتفرد، ويبدو أن

المادية الشيوعية هي أكثر الآراء تفردا عن أي رأي آخر معاصر . ذلك أنها تجعل أتباعها لا يسلمون بأي وجهة نظر أخرى تخالف آراءهم . بل إنهم يقومون بتدمير أي شكل يخالف أشكالهم ، ويخيمون على عقول الناس قسرا ، كبتا يؤدي إلى تحطيم نفوسهم وأرواحهم .

على أنه من ناحية أخرى ، ليس ثمة ايديولوجية أو مذهب لا يحاول أن يعرض نفسه على أنه الرأي الوحيد الصحيح الكامل ، وهذا أمر طبيعي في فكر الإنسان . ولكن قصور الماركسية يكمن أحد أسبابه الرئيسية في تلك الفكرة التي لا تفصل الآراء السياسي لعالم أو أديب أو فنان أو مفكر ، عن قيمته العلمية أو الأدبية أو الفنية أو الفكرية .

لقد تولد قصور ماركس وانجلز من نتيجة وصلا إليها هي : أنها سبرا أغوار كل فلسفة ، ومن ثم فمن المحال على أي شخص آخر أن يبلغ شيئا له قيمته ما لم يتخذ من فكرتها عن العالم أساسا لآرائه . هذا بالإضافة إلى نظرتها إلى كل شيء لا يهتمان به ، أو لا يهم الحركة الاشتراكية ، على أنه عديم الجدوى حتى لو كان هادفا .

ومن ثم تغاضيا بل أهمل كل شيء عن الكتاب والفنانين المشهورين في عصرهما ، بل إنها لم يشيرا إلى أولئك الذين جرفتهم نفس التيارات الفكرية والاجتماعية التي كان ينتمي إليها ماركس وانجلز . لقد قاما بتصفية حساباتها مع معارضيتها داخل الحركة الاشتراكية ، بأسلوب وحشي لا تسامح فيه .

وارتكز لينين على نظرية ماركس ، ونشر تعاليمه بأن المادية - كقاعدة عامة خلال التاريخ - فكرة تقدمية ، وبأن المثالية رجعية . ولم يكن هذا الرأي فقط خطأ أو من جانب واحد ، بل زاد أيضا من درجة قصور الماركسية . لقد كان ينظر إلى أي شيء لا يتفق مع الماركسية الاصيلية ، على أنه خاطيء لا قيمة له . ولذا ينبغي أن نسلم بأنه في هذا المجال ، كانت أعماله أمثلة بارزة للجمود المذهبي القائم على المنطق والاقناع .

ولقد ذكر برتراند راسل الفيلسوف الانجليزي الذي رحب بثورة اكتوبر جوهر الجمود الفكري الشيوعي بدقة بقوله :

«...إلا انه مع ذلك هناك جانب اخر للبلشفية أختلف معه اختلافا جوهريا . فالبلشفية ليست مجرد مذهب سياسي ، وإنما هي دين أيضا له مذاهب متقنة وأسفار موحاة ، . . . فحينما كان يريد لينين أن يبرهن على افتراض ما ، فإنه كان يقوم بذلك ما وسعه عن طريق اقتباس فقرات من تعاليم ماركس وانجلز . وليس الشيوعي القح مجرد رجل يعتقد بأن الأرض ورأس المال يجب أن يكونا في حيازة المجموع ، وأن يوزع إنتاجها بالتساوي على قدر الامكان ، وإنما هو رجل يسلم بعدد من المعتقدات المذهبية المادية الفلسفية ، التي قد تكون صحيحة ، ولكنها من زاوية العلم غير قادرة على ان تبدو حقائق ثابتة . إن هذا التأكيد القاطع لمسائل مشكوك فيها ، هو عادة من العادات التي بدأ العالم منذ عصر النهضة ، يتجه بها تدريجيا نحو الشك الانساني الاستدلالي المشر ، والذي قامت على أساسه النظرية العلمية . وإنني أعتقد أن النظرة العلمية ذات أهمية لا حد لها بالنسبة للجنس البشري . بيد انني أرى انه لثمن باهظ ، إذا لم يعد هناك غير سبيل واحد لإقامة اقتصاد اكثر إنصافا ، وذلك باغلاق عقول الرجال في وجه البحث الحر ، أو بدفعهم إلى الوراء ، وإلى سجن العقل الذي كان سائدا في العصور الوسطى . غير أنه ليس هناك من يستطيع أن ينكر أن الجمود العقائدي يكون لفترة قصيرة عاملا مساعدا في القتال .»

وجاء ستالين وسار إلى أبعد من ذلك ، فقد طور من نظريات لينين ، وإن اقتقر الى لينين وعمقه . ولكنه اعتمد على روحه العملية وتعصبه المذهبي الجامد ، لتعويض افتقاره إلى دراسات ماركس الاقتصادية .

والواقع أن ستالين لم يكن بحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك ليلعب دوره ، ولذلك اعتاد أن يعلن ببساطة أن أي شيء لا يتفق مع احتياجاته وآرائه يعد معاديا ، ويقوم بتحريمه .

ولقد أدّى جمود الأيديولوجية الشيوعية إلى تدعيم الطبقة الجديدة ، وإلى سيادة ليس فقط ايديولوجيه واحدة ، بل إلى سيادة فكر رجل واحد ، أو جماعة من الاوليغاركية . وينتج عن ذلك تدهور فكري ونضوب في الايديولوجية ذاتها . واقترن بذلك ازدياد التعصب ضد الأفكار الأخرى ، بل

حتى ضد أي فكر إنساني. ومن ثم تدهور التقدم الأيديولوجي، كما تدهورت مقوماتها الصحيحة، بنسبة مطردة مع زيادة القوى المادية لاتباع هذه الأيديولوجية.

لا جرم أن العقل البشري المكبوت قد يجبر على الاستسلام للفساد. وإذا ما قام المرء بالبحث لمعرفة أسباب ندرة الأعمال العظيمة في الاتحاد السوفييتي وبخاصة في ميدان الأدب منذ أربعين عاما - وجد أن الفساد قد لعب دورا أكبر من الدور الذي لعبه الكبت في إحداث هذه الندرة.

of the
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

الزيارات والحرب الثورية

فنون رعاية الزوار:

يعبر الاتحاد السوفييتي أهمية كبرى للزيارات المنظمة للوفود الزائرة من الدول التابعة للسوفييت أو من باقي انحاء العالم. وهذه الوفود القادمة من الإتحاد السوفييتي وإليه تلعب دورا هاما في حملات الحرب الثورية الشيوعية، وهو دور يعود إلى الوراء - إلى عهد ستالين الذي كان يركز عليه منذ عام ١٩٢٥.

وعند عرض التقرير السياسي لمؤتمر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في ١٨ من ديسمبر عام ١٩٢٥، أشار ستالين إلى قيمة مجموعات الزيارات هذه بقوله:

«إننا لا نحتاج لأي دعاية خاصة سواء في الغرب أو الشرق، ذلك لأن وفود العمال تزور الآن بلدنا، وترى بأنفسها نظام الأشياء هنا، ثم تحمل معها المعلومات عن نظام الأشياء هنا إلى جميع الدول الغربية. إننا لسنا في حاجة إلى أية دعاية أخرى. وهذا أفضل السبل، وأكثر أنواع الدعاية فعالية وقدرة للنظام السوفييتي ضد النظام الرأسمالي».

وبالرغم من أن هناك بعض الدلائل الحديثة على أن الاشراف على الزيارات في موسكو لم يعد تماما مثل ما كان عليه الحال من قبل، فإن السلطات السوفييتية قد طورت من أسلوب الزيارات، وفرضت عليه أقصى الدرجات

الممكنة من المراقبة. ويكون برنامج الزوار مزدحما، وطبيعي أن الوفود تجبر على الانصياع لمضيفهم ليسيروا وفقا للبرنامج المخطط من قبل. ويمنع حرية تحرك الزوار جهلهم باللغة والمكان. ولما كانت كل النفقات تدفع بواسطة الروس، فإن السواح لا يكون لديهم نقد سوفيتي، وإن كان معظم الوفود لهم على ما يقدمونه في الإذاعة، وهذا ييسر لهم شراء بعض الهدايا. ولكنهم إذا ما احتاجوا لأموال إضافية لأغراض أخرى، يسمح لهم بتغيير نقدهم الخاص بحساب السعر الرسمي. ولا يكون هذا في صالح الزوار قط. ومن ثم قليل منهم من يلجأ لذلك فضلا عن هذا، تطورت بعض الأساليب الأخرى، التي تضع الزوار آليا في وضع السيطرة عليهم.

الاختيار الأصلي:

تمت الزيارات كلها تقريبا بطريق الدعوة، ولذلك تصبح الوفود أكثر مصادر المعلومات عن الاتحاد السوفيتي لباقي العالم، ومن ثم فإن انطباعاتهم عن المعلومات التي يحصلون عليها يعول عليها.

أما فيما يتعلق باختيار الوفود، فيبدو أنه في عدد كبير من الحالات يكون أعضاء الوفود غير شيوعيين ولا من المتعاطفين مع الشيوعية ولكن لاستعراض ذلك، فإن كل وفد يضم كقاعدة عامة شيوعيا واحدا على الأقل أو متعاطفا واحدا، أو أحد اصحاب المصلحة الذين يمكن الاعتماد عليهم في قيادة الآخرين نحو الاتجاه المطلوب، أو يستطيع أن يتحدث باسم الآخرين.

ومن التقارير التي تنشرها الوفود بعد عودتها من الاتحاد السوفيتي، يظهر ان هذه الوفود غالبا ما يصحبها فرد أو أكثر من الرسميين، سواء كان من المترجمين، أو من الأدلة أو من المراقبين، فيلحق على الوفد عدد منهم طوال مدة زيارتهم للاتحاد السوفيتي.. وتعالج المسائل التي يثيرها الزوار على أعلى مستوى، وعادة يتم ذلك بواسطة رؤساء الاجهزة التي تعادل الوكالة الأجنبية المقابلة لها.

وخلال زيارة المشروعات والمؤسسات، يستقبل الوفود رئيس المشروع أو المؤسسة الذي يقوم بعملية العرض. وفي الواقع يعامل الزوار كضيوف شرف

مرموقين . ومهما يكن مركز أعضاء الوفود ، فإن السوفييت يولونهم اهتماما كبيرا ، على أساس انهم يلعبون دور « سفراء السلام » ، أو دور « حجاج » ينقلون خبرتهم للآخرين ، ويمكن نقل هذه الأفكار بواسطة العمال مثل : « ما الذي ستفعله في سبيل السلام ؟ أو تأخذ شكل ابتهالات للزوار كي يقولوا الصدق عن الاتحاد السوفييتي حينما يعودون لوطنهم .

الاستقبال والإقامة :

عند وصول الوفود وعادة ما يكون في مطار « فنوكوفو » بموسكو تستقبلها لجنة من الرسميين السوفييت ذوي المكانة الرفيعة . ويرحب عادة بوفود الدول التابعة ، ويودعون بواسطة ممثلين من سفاراتهم ، اما وفود الدول غير التابعة فيعاملون معاملة اخرى ، فعلى سبيل المثال ، يستقبل وفود اتحاد العمال البريطاني رسميون من المجلس المركزي لاتحاد العمال ، ويتضمن ذلك واحدا أو اكثر من رؤساء إدارات المجلس ، كما تستقبل الوفود الأخرى لجان لائقة بحيث يكون في استقبال أعضاء اتحاد الكتاب السوفييت - مثلا - وفدا من المؤلفين الزوار ، ويستقبل أعضاء من لجنة السلام السوفييتي وفود الاسلام ، ويستقبل أعضاء اللجنة النسائية السوفييتية المعادية للفاشية ، الوفود النسائية .

وتقيم الوفود مع قليل من الاستثناءات في فنادق موسكو الفاخرة طوال مدة إقامتهم في العاصمة . وهناك ستة فنادق رئيسة في موسكو ، جراند موسكفا ، ناشيونال ، متروبول ، سافوي سبوفيسكايا ، وتحجز الإقامة في هذه الفنادق عادة للرسميين السوفييت ذوي المناصب الرفيعة ، أو لأعضاء الحزب وللأجانب ، ويفوق مستوى الخدمة بها والطعام ، ووسائل الراحة ، أي فنادق أخرى في الاتحاد السوفييتي ، وينطبق هذا أيضا على فندق أستوريا في ليننجراد ، حيث تقيم به الوفود التي تصل إلى ليننجراد . ومن المحتمل أن تكون هذه الفنادق فاخرة بالنسبة للزائر العادي للاتحاد السوفييتي ، الذي لم يتعود ان يقيم في فنادق فخمة بوطنه ، أما الفنادق في المدن الكبيرة بالاتحاد السوفييتي ، فتخصص أساسا للرسميين وللمستخدمين الصناعيين الذين يكونون في مهمة عمل . ولا يمكن لأي فرد خاص أن يقيم فيها ما لم يكن لديه الوثائق المطلوبة . ويقيم العمال

الزراعيون الذين يزورون المدن إما مع الأقارب، وإما في « كوخوزنى دوم » أي فندق المزرعة الجماعية.

الضيافة

الواقع أن ضيافة الوفود سخية للغاية، إذ تقام حفلات الاستقبال والولائم تكريماً لهم، وتخصص لهم أفضل المقاعد في عروض الباليه والمسرح والأوبرا، ويتنقلون بالطائرة أو القطار أو السيارة في راحة تامة، وحينما يزورون المزارع الجماعية يتناولون وجبات بكميات وفيرة.

الجولات المقودة:

هناك حقيقة واضحة تعاون المنظم السوفييتي للزيارات هي طول مدة الزيارة. ذلك أن المرء يقطع مسافات طويلة، ويزور عدة مدن، ويحقق برنامج سياحة مفصل خلال فترة تتفاوت من عشرة أيام إلى ثلاثة أسابيع. يعني هذا أن الوفود حتى لو كانت تعرف معالم روسيا - وقليل منهم هو الذي يعرف ذلك - أو كان لا يزعجها نقص النقد، فإنه لن يكون لديها أدنى وقت كي تطوف وحدها داخل المدن والقرى. وبالرغم من أن عدداً من الوفود قد ذكروا أنهم تلقوا الدعوة تلقائياً من مواطنين روس لتناول الغداء، فإن أي إنسان ملم بالظروف السائدة في الاتحاد السوفييتي، ويعرف القوانين الجامدة التي تمنع المواطنين السوفييت من الاتصال بالاجانب، يدرك صعوبة التصديق بأن هذه الدعوات تمت تلقائياً. وبالرغم من ذلك، فإنه لا يمكن الحكم على ظروف المعيشة لشعب يقرب تعدادده إلى ٢٥٠ مليون نسمة في زيارة واحدة. ولقد أشارت بعض الوفود إلى العوائق التي وضعت أمامهم لمنعهم من رؤية أشياء أرادوا مشاهدتها.

ويمكن خداع الوفود الزائرة، بجعلها تعتقد بأن المظهر الخارجي صادق. ولقد قام وفد نسائي كان قد زار ستالينجراد بعقد اجتماع حماسي بعد عودتهن إلى موسكو، حيث ذكرن أنهن لم يجدن أي « عمال سخرة » في إعادة تعمير ستالينجراد، ولهذا ليس هناك عمال سخرة في الاتحاد السوفييتي!

السياحة:

لا يمكن التأكيد على أن قدر الهندام الذي يراعى أمام الوفود الزائرة هو

أحد المعالم التي تظهر في سياحتهم . وليس هناك عملية ترفيه كاملة للأشياء التي سيرها الزوار ، ولكنها تكون مبتورة أو مشوهة . ويرجع ذلك الى :

(١) نوع المدن التي تزورها الوفود .

(٢) قصور الرسميين

(٣) الاختيار الفطن لنماذج من المدن والمؤسسات ومن ثم لا تكون ممثلة

للمواقع

ان هذا الاختيار الفطن هو أحد المعالم الرئيسية في زيارة الوفود للاتحاد السوفياتي ، وفيما يلي أهم المعالم التي تزورها الوفود :

موسكو : مترو موسكو ، مكتبة لينين ، مسرح البولشوى ، ومزار لينين في الميدان الأحمر .

ليننجراد : قصر الرواد .

ستالينجراد : مصنع الجراتات ، قناة الفولجا - الدون .

تفلس : قصر الرواد .

سنفرد لوفسك : صناعات الأورال .

إن هذه الأشياء من افضل الأشياء في الاتحاد السوفياتي وتجري مقارنة بينها وبين مثيلاتها في الغرب . كما تزور الوفود مصانع بارزة معينة ، ومدارس ودور حضانة نموذجية

كذلك يسمح للوفود بزيارة السجون ليغرسوا فيهم الانطباع بحب الانسانية ومعرفة التقدم الذي دخل على الاجراءات العقابية في الاتحاد السوفياتي . ويعد سجن « بولشيفو » سجنا نموذجيا يقيم فيه صغار المجرمين ، ويختلف كلية عن باقي المعسكرات والسجون المنتشرة في أنحاء الاتحاد السوفياتي .

المعلومات :

يأتي معظم المعلومات الحقيقية التي يحصل عليها أعضاء الوفود من المنظمين الرسميين والمضيفين . ويؤكد ذلك ما يقوم به اتحاد العمال السوفياتي من توزيع الكتيبات والبيانات التي تعود بها الوفود إلى وطنهم .

على أنه يصعب الحصول على المعلومات الإحصائية عن المؤسسات والمصانع، ولذا فإن المعلومات التي تعطى للزوار تكون غير حقيقية، وبخاصة بالنسبة للأجور، وظروف العمل، وإحصائيات الانتاج وغيرها، ولا يستطيع الزوار لدرايتهم القليلة بالاتحاد السوفييتي إكتشاف هذه الأمور، أو حتى التحقق من كل المعلومات التي يحصلون عليها.. ويمكن أن يقال أن المعلومات التي تعطى للزوار محرفة أكثر من كونها معدة كي تبدو غير حقيقية.

الوقت الحر

إن الوقت الحر الذي يترك للزوار لتمضيته وفقا لرغباتهم قصير للغاية. وعادة ما يصحبهم فيه مترجم أو دليل نتيجة جهلهم باللغة.

وغالبا ما يركز الزوار على الجوانب الممتازة في موسكو، لدرجة أن يظن ان هذه الأشياء فقط هي التي شاهدها الزائر مثل: الشوارع العريضة وسط المدينة، شارع جوركي، الباليه، صالات العرض... الخ.

موضوعات الدعاية في الجولات السياحية:

بينما تعطى تقارير الوفود الزائرة وتعليقاتهم تشابهات أخاذة، فإن السلطات السوفييتية تريد عادة أن تؤكدوا في دعائيتها للعالم الخارجي، وإن كان هذا يكشف مناطق أهداف معرضة في الحرب الثورية.

السلام والتعايش السلمي:

يحتل هذا الموضوع حيزا كبيرا في دعاية السوفييت، ويجري عليه اختبارات بين حين وآخر، ويناقش مع الزوار في الظروف الآتية:

(١) حينما يتحدث الزوار مع العمال أو عابري السبيل، أو عند زيارة العمال بمنزلهم

(٢) عند الاتصال بالمختصين الحكوميين المسؤولين عن رفاهية العمال.

(٣) في الاتصالات التي تتم في استعراضات يوم مايو.

ويركز برنامج التعمير على هذا الموضوع، وذلك بأخذ الزوار لمشاهدة العمارات

الحديثة، ومباني جامعة موسكو، ومواقع إعادة التعمير في ستالينجراد أو ليننجراد.

مشروعات الدولة:

إن زيارة قناة الفولجا - الدون تستخدم دائماً كإشارة إلى نوايا السوفييت نحو السلام.

رفاهية العمال:

لهذا الموضوع أهمية قصوى، لاقتناع الزوار بأن روسيا دولة اشتراكية، ومن ثم تبذل عناية كبيرة عند قيام الوفود بزيارة نظام الصحة العامة، والمصحات، وإجراءات الأمن بالمصانع، والظروف السائدة في المناجم، وإعاشة العمال، والتأمين الاجتماعي لهم. ويخصص وقت كبير في الزيارة لعقد المؤتمرات وشرح هذه الأمور، بغرض إظهار العامل على أنه ليس فقط شخص عادي، ولكنه شخصية لها قيمتها.

حرية الدين.

وهذا الموضوع يعار أهمية كبرى، لأن الحكومة السوفيتية تقدر قيمته بالنسبة للزوار، ويوفد الزوار إلى الكنائس والجوامع المزدحمة كبرهان على حرية الدين واستمراره.

ولا يلاحظ المعجبون بالاتحاد السوفيتي سلسلة المحاضرات المعادية للدين التي تلتقى تحت رعاية المجتمع السوفيتي لنشر المعرفة العلمية والسياسية، كما لا يحسون بالقانون الذي ينص على أن تعليم الدين للصغار في المدارس جريمة هجومية، ولا بالمقالات المعادية للدين في الصحافة السوفيتية.

والواقع أن وفداً زار الاتحاد السوفيتي حديثاً ذكر أنه ليس هناك اليوم أدلة على قيام دعاية معادية للدين، كما أن شعار «الدين أفيون الشعوب» قد أزيل من واجهة «المتحف التاريخي في الميدان الأحمر». ومن المؤكد أن هذا الشعار كان موجوداً على واجهة متحف لينين عام ١٩٥٣. فإذا كان قد أزيل حقاً، فإن هذا الاجراء لا يعدو أن يكون مجرد محاولة، لاقتناع الوفود أن الدعاية المعادية للدين قد الغيت.

الحديثة، ومباني جامعة موسكو، ومواقع إعادة التعمير في ستالينجراد أو ليننجراد.

مشروعات الدولة:

إن زيارة قناة الفولجا - الدون تستخدم دائماً كإشارة إلى نوايا السوفييت نحو السلام.

رفاهية العمال:

لهذا الموضوع أهمية قصوى، لاقتناع الزوار بأن روسيا دولة اشتراكية، ومن ثم تبذل عناية كبيرة عند قيام الوفود بزيارة نظام الصحة العامة، والمصحات، وإجراءات الأمن بالمصانع، والظروف السائدة في المناجم، وإعاشة العمال، والتأمين الاجتماعي لهم. ويخصص وقت كبير في الزيارة لعقد المؤتمرات وشرح هذه الأمور، بغرض إظهار العامل على أنه ليس فقط شخص عادي، ولكنه شخصية لها قيمتها.

حرية الدين.

وهذا الموضوع يعار أهمية كبرى، لأن الحكومة السوفيتية تقدر قيمته بالنسبة للزوار، ويوفد الزوار إلى الكنائس والجوامع المزدهمة كبرهان على حرية الدين واستمراره.

ولا يلاحظ المعجبون بالاتحاد السوفيتي سلسلة المحاضرات المعادية للدين التي تلقى تحت رعاية المجتمع السوفيتي لنشر المعرفة العلمية والسياسية، كما لا يحسون بالقانون الذي ينص على أن تعليم الدين للصغار في المدارس جريمة هجومية، ولا بالمقالات المعادية للدين في الصحافة السوفيتية.

والواقع أن وفداً زار الاتحاد السوفيتي حديثاً ذكر أنه ليس هناك اليوم أدلة على قيام دعاية معادية للدين، كما أن شعار «الدين أفيون الشعوب» قد أزيل من واجهة «المتحف التاريخي في الميدان الأحمر». ومن المؤكد أن هذا الشعار كان موجوداً على واجهة متحف لينين عام ١٩٥٣. فإذا كان قد أزيل حقاً، فإن هذا الاجراء لا يعدو أن يكون مجرد محاولة، لاقتناع الوفود أن الدعاية المعادية للدين قد الغيت.

التعليم والثقافة

وتتحقق دعايتها عن طريق زيارة المدارس والجامعات ومشاهدة المسرح والباليه، ومراكز الثقافة وغير ذلك من وسائل الثقافة والتعليم، للتدليل على المستوى التعليمي والثقافي المرتفع الذي وصل اليه الاتحاد السوفييتي.

مواضيع مختلفة:

ومن المسائل الهامة التي تتضمن برنامج زيارة الوفود، تأكيد مساواة الجنسين، والعناية الفائقة التي تولى للأطفال، ويهتم السوفييت بدعوة الوفود لزيارة دور الحضانة.

تكتيكات مميزة:

ان إحدى المعالم الملفتة ما يقوم به السوفييت من عدم اعارة التركيب السياسي للاتحاد السوفييتي أهمية كبيرة في دعايتهم، فهم يركزون أساسا على محاولة إثبات تضامن الشعب كوحدة جامعة. وتستخدم استعراضات أول مايو و٧ نوفمبر لغرس الانطباع في نفوس الزوار، بأن الحشود الضخمة في مثل هذه المناسبات تطوعية وليست اجبارية.

يتضمن مضمون الدعاية العام للوفود الزائرة ما يلي:

(١) أن هناك الكثير يمكن للغرب والدول غير الشيوعية أن يتعلمه من الاتحاد السوفييتي.

(٢) أن المعلومات المتيسرة عن الاتحاد السوفييتي للغرب زائفة وينبغي أن تعرض لصالح السلام العالمي، وفي جو من التفاهم المتبادل.

(٣) أن الاستخدام الأساس للوفود من وجهة نظر السوفييت هو أن يكون كوسيلة لتدعيم المشاعر الموالية للسوفييت في العالم الخارجي.

التعليق التلقائي لرجل الشارع:

أصبح واضحا أن الحكومة السوفييتية تواقفة لطرد فكرة أن الوفود الزائرة للاتحاد السوفييتي تقاد في تجولها، ولا يسمح لها بالحديث مع رجل الشارع. ولقد ذكرت وفود زارت الإتحاد السوفييتي حديثا أنها وجهت إليها دعوة خاصة لتلقائية من عامل لزيارة شقته، أو أنها أوقفت من بعض العابرين للاستماع إلى

بعض الاسئلة. وفي أغلب الحالات هناك مترجم ومعنى ذلك انه كان ثمة فرد على الأقل من الرسميين.

وحتى لو أن الصحافة السوفييتية وكل وسائل الدعاية لم تنغمس من وقت لآخر في «مسائل الأمن»، فإن ذكريات محاكمات التطهير، وتأكيدها المبالغ فيه على «الجواسيس الأجانب»، بالإضافة إلى أن معرفتهم بما حدث لإخوانهم من المواطنين الذين اتصلوا بالأجانب، أو كانوا مجرد أصدقاء لبعض الأجانب في الخارج.. كل هذا يجعل فم المواطن السوفييتي مغلقا حينما يتعرض لحديث عن الموضوعات المنوعة.

ومن الوسائل الثمينة للدعاية السوفييتية تلك الزيارات التي تنظم للوفود والشخصيات الأجنبية التي ترسل إلى الاتحاد السوفييتي أو إلى دول المعسكر الشرقي.

فهنا أيضا، وتحت ستار مظاهر كرم السياحة الاستطلاعية ورحلات الصداقة، تقع تلك الوفود وتلك الشخصيات ضحايا لجهاز جهنمي شرير، نظم منذ زمن بعيد باستعانة عشرات الألوف من العملاء، الذين يعملون وفقا لأوامر صارمة تلقوها في مدارس خاصة للتراجمة والمرافقين واغلب هؤلاء من الفتيات الجميلات اللاتي يعملن في خدمة الشرطة السرية.

والزيارة التي يقوم بها السائح في روسيا لإحدى الفتيات، ومقابلاته الشخصية، والاجابة التي يردون بها على أي سؤال منه، واللهجة التي يستخدمها معه من يرحب به، كل ذلك مقدر مقدما ومعدّد وفقا لمتطلبات الموقف.

أما بالنسبة للنفقات فإن حكومتي موسكو وبكين تتحملانها من أجل هذا الغرض وحده، دون أي اعتبار لساعات العمل الكثيرة المهذرة، والتي يضيعها موظفو المؤسسات التي تتم زيارتها، وهي الساعات التي يبلغ تقييمها أكثر من ستين مليوناً من الدولارات في العام الواحد.

ولكن الشيوعيين يستفيدون مقابل هذه المبالغ الضخمة التي تنفق، من التقارير الطيبة التي يكتبها الزوار عن الشيوعية ونظامها، والكتب التي يضعونها عن معاملاتهم. ذلك أن هذه الكتابات تشكل شهادة ممتازة للنظام

السائد في الاتحاد السوفييتي وفعاليتها في تنفيذ الاصلاح، مما يكون لها أثرها على الجماهير القارئة في سائر دول العالم.

ومن هذا النمط من الشهادات المزيفة ما كتبه «ادوارد هيريو»، الذي صور الشعب في مدينة «كييف» على أنه يعيش في رخاء وازدهار، بينما كان يعيش حقيقة في جحيم المزارع الجماعية الستالينية، مات منه ومن جمهورية اوكرانيا ما يزيد على ستة ملايين نسمة، نشيجة القحط والجفاف الذي نرلا به في عام من الأعوام.

غير أنه بعيدا عن هؤلاء الدعاة المتطوعين الذين يعملون لصالح الدعاية السوفييتية، والذين هم على استعداد للتعاون في عملية «غسيل المخ». هناك أيضا بعض الأشخاص الذين لا يسمحون لأنفسهم ببيع ضمائرهم، وهم لا يترددون في الجهر بأرائهم الحرة.

غير أنهم حينما يتقدمون بتقريراتهم يتعرضون لمتاعب جمة من جانب أدوات الجهاز الجهنمي الذي أنشأه السوفييت في كل دولة من دول الغرب، وعند ذلك يدخل في اللعبة القطاع الآخر من قطاعات الدعاية، هذا الذي يختص بالحط من شأن كل ما يقوله المعارضون، بل تشن عليهم حملة من العنف والتجريح، كي تجعلهم يعيشون في فراغ لا يمكن لأحد اختراقه.

وهناك حالات كثيرة لاتهامات وجهت إلى أناس أشراف، لا لشيء إلا لتذكيرهم بأنهم مهددون دائما لو أقدموا على المساس بكل ما هو شيوعي.

الخلاصة:

تعد الزيارات المنظمة التي تعدها موسكو للوفود المختلفة القادمة من الدول خارج الستار الحديدي، أحد الاسلحة الفعالة في الحرب الثورية الشيوعية. وبالرغم مما يكتنف هذه العملية من قصور وأخطاء، وبالرغم من الأموال الطائلة التي تنفقها موسكو على هذا النشاط، فإن الفوائد التي تعود على الشيوعيين في مجال الحرب الثورية لا يمكن تجاهلها. وستزداد قيمة هذه الفوائد لو طورت موسكو من أسلوب الزيارة، بحيث تبدو طبيعية دون كلفة او زيف. إن الصدق في عرض الأشياء ولو بكشف العيوب، أكثر قيمة ورسوخا لدى الزائر، من عرض أشياء زائفة، أو إخفاء حقائق واقعية.

الباب الخامس

أرض المعركة

ليس من السهل القاء نظرة على الظروف والأحداث الطارئة. ولعل أصعب العوامل التي تحدد نجاحها هو الوقت السليم لبدء الهجوم. وما إن تسجح الثورة، سواء تعهدت من اعتراف الثورة أو نتيجة سقوط السلطة القائمة - حتى تبدأ في الدخول في مرحلة أكثر خطورة من مرحلة الإعداد. ذلك أنها وقد خرجت على السطح تصبح معركة هجوم تيارات عددا، وهذا لا يتوانى الشيوعيون في التحرك بسرعة محاولين التمكن من الثورة أو السيطرة عليها. وغالبا ما يتصلون الاستيلاء على الثورة أعداءهم. فبحرهم لهذا أفضل من أن يقومواهم بإعدادها لأن الأولى أسرع وأسهل وأقل تكلفة بالنسبة لهم.

وهناك عدة طرق يستطيع بها الشيوعيون أن يحاولوا أي ثورة حيث يصبح لهم ومن هذه الطرق:

قائمة بالبيانات التي يجب توفرها لتلك الثورة، فغدا الثورة في سوريا
فيما في سوريا في سنة تلك الثورة. لهذا يمكنه من تحديد
ذلك ربما في سنة ١٩٦١. وقد قبلنا هذا القول في سنة ١٩٦١
١٩٦١ - ١٩٦١.

لا بد من تحديد هذا التاريخ في سنة ١٩٦١. كما في سنة ١٩٦١ - ١٩٦١
في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.
في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.
في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.

أولى الخطوات هي في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.
في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.
في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.
في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.

التي تجعل البحث والتمسك للعوامل المتعلقة به تستمر لسنوات كثيرة قادمة.
في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.
في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.
في سنة ١٩٦١. فغدا الثورة في سوريا في سنة ١٩٦١.

ليس من السهل القيام بثورة، إذ من العسير أن يتوقع المرء
الظروف والأحداث الطارئة. ولعل أصعب العوامل التي
تحدد نجاحها هو التوقيت السليم لبدء الهجوم. وما إن تنجح
الثورة سواء بتعزيد من اعتراف الدول، أو نتيجة سقوط
السلطة القائمة - حتى تبدأ في الدخول في مرحلة أشد
خطورة من مرحلة الإعداد. ذلك أنها وقد خرجت على
السطح تصبح معرضة لهجوم تيارات عدة، وهنا لا يتوانى

الشيوعيون في التحرك بسرعة محاولين التمكن من الثورة أو
السيطرة عليها. وغالبا ما يفضلون الاستيلاء على ثورة أعضائها
غيرهم فهذا أفضل من أن يقومواهم بإعدادها، لأن الأولى
أسرع وأبسط وأقل تكلفة بالنسبة لهم.

وهناك عدة طرق يستطيع بها الشيوعيون أن يحولوا أي ثورة
بحيث تصبح لهم، ومن هذه:

- (١) تخريب أى ثورة كاملة وذلك بإزاحتها وقت نشوبها، واستبدال ثورة استبدادية من صنعهم الخاص بها، ومثل ذلك حدث في روسيا في الفترة التي تلت الثورة الديمقراطية عام ١٩١٧، كما حدث في الصين عام ١٩٤٧ - ١٩٤٨.
- (٢) الاستيلاء على ثورة لا تزال ناشئة مثل حالة الثورة الكوبية، وكما حدث في الحرب الأهلية الإسبانية.
- (٣) بدء ثورة تحت لواء مجموعة أخرى لها قضية ثورية يمكن تنفيذها، واقرب مثل ذلك انشطتهم في قضية فلسطين.
- (٤) وأخيراً وليس آخراً لتغلغل في ثورة لا تزال في دور التخطيط، ولم تكن قد قامت بعد، كما في حالة «جامعة الشعوب الحرة المضادة للفاشية» في بورما.

إن هذا الباب سوف يعالج الأنشطة التوسعية للشيوعية الدولية. وبطبيعة الحال لن تستطيع الفصول القادمة أن تفي بالقصة بأكملها، لأن ذلك يحتاج وحده لمؤلف. ولذا فقد اخترنا ثلاثة نماذج في قارات ثلاث: الأول نموذج الثورة الصينية، والثاني التجربة الكوبية ودول أمريكا اللاتينية، والثالث يوضح الأنشطة الشيوعية في القارة الأفريقية. وهذه النماذج الثلاثة تعطينا صورة كاملة للأساليب والاستراتيجيات التي يستخدمها الشيوعيون في مناطق مختلفة، تقطنها شعوب متباينة في الجنس والتراث واللون والحضارة. ويمكن على أية حال تطبيق هذه الأساليب على دول كثيرة

الفصل الأول

الصين الشعبية كقاعدة للحرب الثورية

التطورات السياسية في الصين حتى تولى الشيوعيين الحكم: للعملية التي استولى بها الشيوعيون على الصين تشعبات كثيرة، إلى الحد الذي يجعل البحث والنقاش للعوامل المتعلقة بها تستمر لسنوات كثيرة قادمة، لكن غرضنا هنا بحث جوانب معينة من الحرب الثورية التي استخدمت في هذا المجال، والتركيز بخاصة على المعونة التي قدمها الكرملين للشيوعيين الصينيين، وعلى الجهود التي بذلت للتأثير على السياسة الأمريكية إزاء الصين بما يتلاءم ومصالح الشيوعية. ومن ثم أصبح بالضرورة أن نلم نبذة عن التطورات السياسية التي سبقت قيام الصين الشيوعية.

لقد سادت الصين في اواخر القرن التاسع عشر، حالة من الفوضى والفساد والتدهور السياسي والاقتصادي، نتيجة النظام الاقطاعي، والرشوة المتفشية والاحتكارات والامتيازات الأجنبية، مما أدى الى تنافس الدولة الأجنبية عليها، وإلى تسابق أمراء الاقطاع داخل الصين في السعي لتوسيع رقعتهم كل على حساب الآخر، ولو باستخدام القوة المسلحة.

ولقد أدت هذه الظروف إلى زعزعة كيان الصين الدولي، وانعكس هذا بدوره على الأحوال الداخلية للبلاد، فتفتتت وحدتها، وتدهورت أحوالها السياسية والاقتصادية. ونتيجة لهذه العوامل، حمل صن يات - سن لواء الدعوة للقضاء على حكم المانشو الفاسد، ونادى بإزالة الفوارق الطبقية وبالقضاء على الاقطاع.

وفي عام ١٨٩٤ انشأ صن يات - سن منظمة اطلق عليها «هنج شونج هيو»، حاولت القيام بثورة في كاتتون عام ١٨٩٥، إلا أنها اخفقت، وفرّ صن يات - سن إلى اليابان، واستطاع تجميع الطلبة الصينيين في الخارج حول فكرته، كذا تنظيم حركته من جديد التي اطلق عليها اسم «تونج منج هيو».

وعقدت تلك المنظمة أول اجتماع لها في طوكيو عام ١٩١٥، حيث أعلنت أهدافها التي كانت تتلخص في القومية، الديمقراطية، الاشتراكية- وكان مفهوم الاشتراكية حينئذ ينصب على إعادة توزيع الأراضي. وأعلن صن يات- سن، أنه لا سبيل لتحقيق هذه الأهداف، دون الاطاحة بحكم المانشو، وإقامة حكم جمهوري، ينمي السلام العالمي، ويدعم الصداقة بين الصين واليابان. وانضم شيانج كاي شيك أحد قواد الجيش - إلى المنظمة، وهذه استطاعت بعدئذ القيام بثورة شاملة، استولت على زمام السلطة في البلاد في ١٠ من اكتوبر عام ١٩١١، واطاحت بحكم المانشو، وانتخب صن يات سن أول رئيس لأول جمهورية صينية في ديسمبر من عام ١٩١١.

الكومينتانج:

وبالقضاء على الحكم الامبراطوري، وتولى صن يات سن الحكم، تطورت منظمة تونج منج هيو وأصبحت حزبا سياسيا اطلق عليه «الكومنتانج» أي حزب الشعب الوطني. ولكن صن يات سن أجبر على الاستقالة عام ١٩١٢، نتيجة الخلافات الداخلية، ولكي يتفرغ لإعادة تنظيم الحزب من جديد.

وتعرض الحزب لمصاعب جمة وبخاصة في عهد «يوان» خليفة صن يات- سن، الذي نظر الى الكومينتانج كحزب غير شرعي، وقد أجبر «يوان» على الاستقالة أمام معارضة قوية قادها صن يات سن. وبانتهاء حكم «يوان»، بدأ التنافس بين قادة الجيش وأعضاء البرلمان على تولي السلطة. ولكن أحد قادة الجيش ويدعى الجنرال «تشانج هوس» قاد انقلابا عسكريا عام ١٩١٧، تمكن بعده من جمع السلطة في يده، وحل البرلمان، وأعاد حكم المانشو، مما أدّى إلى نشوب حرب أهلية.

وخلال هذه الاحداث قام صن يات سن، بإعادة تنظيم الحزب من جديد

على أساس التنظيمات السرية، وعلى أساس ولاء أعضاء هذه التنظيمات لصن
يات سن، حتى تمكن عام ١٩٢٠ من السيطرة مرة أخرى على الحكم.

الكومينتانج والاتحاد السوفييتي:

بعد بعث الكومينتانج من جديد، بادر السوفييت بالتقارب منه، فقامت
علاقات ودية بينها، وأعلنت موسكو استعدادها لتقديم المعونات والخبرات إلى
جمهورية الصين عامة، ولحزب الكومينتانج خاصة. وأوفدت موسكو خبراءها في
التنظيم ليعاونوا في إعادة تنظيم الكومينتانج على نمط الحزب الشيوعي
السوفييتي، كما تردد على بكين أعضاء الكومنترن، ودعوا في جامعتها إلى
«السياسة السوفييتية الجديدة». وفي الوقت ذاته أنشئ الحزب الشيوعي
الصيني، ولكن الاتحاد السوفييتي رأى في ذلك الوقت، الإبقاء على علاقاته
بالكومينتانج، الذي عقد معه اتفاقا للتعاون، على أساس أنه الحزب الأقوى
والأفضل تنظيما، كي يقوم بالصراع ضد السيطرة الأجنبية. وأعلن الكرملين
حينئذ أنه يمكن للشيوعيين الصينيين الدخول في الكومينتانج، وتأييد سياسته،
مع بقاء الحزب الشيوعي حزبا مستقلا. وظلت العلاقات بين موسكو
والكومينتانج على ما يرام حتى وفاة صن ايات سن، وتولى شيانج كاي شيك
الحكم من بعده، فتسلم الكومينتانج كحزب منظم في استطاعته قيادة الحركة
الجهادية.

تولى شيانج كاي - شيك السلطة:

بعد تولى شيانج كاي - شيك السلطة عام ١٩٢٧، قام بمعارضة النشاط
اليساري في الحزب، فألقى القبض على المستشارين السوفييت، وتم للعناصر
اليمنية السيطرة على الكومينتانج، وأعاد كاي - شيك تنظيم الكومينتانج بما
يكفل له السيطرة على مقاليد الأمور. واستمر كاي - شيك الحاكم المطلق
للصين حتى عام ١٩٣١.

وأدى هجوم اليابان على منشوريا عام ١٩٣١ إلى وقف المعركة الداخلية
بين الكومينتانج والشيوعيين، مما أدى إلى استقالة شيانج كاي - شيك، وتولى
السلطة فريق من الضباط الذين يدينون له بالولاء.

وتوغلت اليابان في الأراضي الصينية، مما أدى الى نشوب الحرب اليابانية الصينية عام ١٩٣٧، التي استمرت حتى الحرب العالمية الثانية، وتعاون الوطنيون والشيوعيون في محاربة اليابان العدو المشترك، فقام الوطنيون - بمساعدة الولايات المتحدة - بمقاومة اليابانيين في الجزء الجنوبي الغربي، بينما تولى الشيوعيون - بمعاونة السوفييت - عملية المقاومة في الشمال الغربي، وأجبرت اليابان على الجلاء عام ١٩٤٥ عن الصين، الأمر الذي ترتب عليه تسابق كل من الوطنيين والشيوعيين للسيطرة على الأراضي التي تم تحريرها. وقد أدى الى قيام حرب أهلية من جديد، كان من نتائجها فقدان الوطنيين لمواقعهم والتجأهم الى تايوان، حيث أقاموا دولتهم برئاسة شيانج كاي- شيك، الذي ساندته الولايات المتحدة الأمريكية والغرب منذ توليه السلطة عام ١٩٢٧.

تطور الحزب الشيوعي الصيني:

منذ نشأة الحزب الشيوعي عام ١٩٢١، وقيامه بإعادة تنظيم صفوفه عام ١٩٢٧، والصلة بينه وبين موسكو وطيدة ثابتة، فقد كان لينين يرى أنه بالرغم من اعتماد اقتصاديات الصين على الزراعة فمن الممكن أن يساهم الحزب الشيوعي الصيني في النضال العالمي بين الاشتراكية والرأسمالية. ولقد عقد الحزب الشيوعي الصيني أول مؤتمره له في أول يوليو من عام ١٩٢١، وأسس نفسه رسمياً، وانتخب تشن- تو- هيو سكرتيراً عاماً للحزب. وفي المؤتمر الثاني الذي عُقد عام ١٩٢٢، اتخذ الحزب خطوة رسمية بانتسابه إلى الكومنترن.

وانعقد المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الصيني في موسكو في شهر يوليو من عام ١٩٢٨، وأكد على تنظيمات المزارعين وحرب العصابات، ولكنه أصر أيضاً على أن الواجب الرئيس للحزب الشيوعي الصيني، كان إعادة الاستيلاء على حركة العمال الحضرية. وقد صدق المؤتمر أيضاً على سقوط « شو شيوباى » الذي كان قد خلف « تشى تو- هيو » كسكرتير عام الحزب، ولكن الأخير ظهر بعد إخفاق قيام الثورة عام ١٩٢٧. وحتى صعود ماوتسى تونج إلى مركز السلطة

عام ١٩٣٥ ، ساد صراع على السلطة داخل الحزب الشيوعي بين ماوتسي تونج وبين الطلبة العائدين من الاتحاد السوفيتي . وكان من بين « زمرة الطلبة » العائدين « كل من لي لي - يسان سكرتير عام الحزب من ١٩٢٨ - ١٩٣٠ » ، وانج منج (تشن شاو - يو) سكرتير عام من ١٩٣١ - ١٩٣٢ ، با - كو (تشن بانج - هسين) سكرتير عام من ١٩٣٢ - ١٩٣٤ ، والممثل الرئيس للحزب الشيوعي في الكومنترن من عام ١٩٣٢ - ١٩٣٧ . ولقد استولى ماوتسي تونج على السلطة بسيطرته على اللجنة المركزية ، وعلى جهاز الحزب العسكري في مؤتمر هام عقد في الفترة من ديسمبر عام ١٩٣٤ إلى يناير عام ١٩٣٥ في « تسونى » ، وذلك حينما كان ما يطلق عليه « الزحف الطويل » يشق طريقه . وكان صعود ماوتسي تونج إلى مركز الزعامة الحقيقي للحزب الشيوعي الصيني أمرا واقعا ، وافق عليه كل من موسكو والكومنترن في وقت لاحق عام ١٩٣٥ .

وعلى الرغم من النزاع الداخلي على القيادة ، فإن موسكو في خلال فترة « التزاوج » قدمت العون والتوجيه والتدريب لحلفائها الشيوعيين في الصين . وفي دراسة كتبها تشن يو - تا نائب رئيس اكااديمية سينكا بعنوان « ستالين والثورة الصينية » ، والتي طبعت في بكين عام ١٩٣٥ جاء بها .

« إن حزبنا في ظل قيادة الرفيق ماوتسي تونج ، وبزحفه على طريق من الأشواك ، تغلب في النهاية على كل المصاعب الموضوعية ، وعلى كل الأخطاء الداخلية ، وحمل الثورة إلى النصر . ويرجع ذلك الى أن آراء الرفيق ماوتسي تونج حول طبيعة الثورة الصينية وتكتيكاتها بنيت على تعاليم ستالين ، لأنها كانت مطابقة لآراء الرفيق ستالين . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد غرس في التجربة الراسخة للثورة الصينية ، تعاليم ستالين المتعلقة بالثورة الصينية .

« إن كل فرد يعلم أن الرفيق ماوتسي تونج في مؤلفه « ديمقراطية جديدة » ، أوضح أهمية أعمال ستالين إزاء تثقيفه ولقد ذكر ماو أن الاطروحة الصحيحة التي تقول أن الثورة الصينية جزء من الثورة الاشتراكية العالمية - كما أقرها الشيوعيون الصينيون - بنيت على أساس النظرية الستالينية . وعلى أساس هذه النظرية الستالينية ،

استخدم ماوتسي تونج باتقان فكرة قيادة البروليتاريا .
« إن الرفيق ماو مرید لستالین ورفیق سلاح إنه مرید ستالین البارز،
وقد استطاع أن يقود الثورة الصينية إلى النصر، لأن طرق عمله
وسبل منطقته هي تلك الخاصة بـستالین. إنه يستخدم طرق ستالین
ليتعلم منه، وهذه هي طرق الماركسيين الخلاقين التي أشار إليها ستالین
في مقالته الشهيرة التي كتبها لإحياء ذكرى ميلاد لينين الخمسين»^(١).

وبالطبع، فإن الشيوعيين لديهم ولع إعادة كتابة التاريخ بعد وقوع الأمر.
ومن المعروف بعامة أن سياسة موسكو إزاء الصين خلال الفترة من عام ١٩٢١
إلى عام ١٩٢٧ اتسمت بالإخفاق، فقد خدع شيانج كاي - شيك موسكو في
عام ١٩٢٧، بتدميره الشيوعيين الصينيين داخل الكومينتانج وخارجه.
وكانت توجيهات موسكو إلى الحزب الشيوعي الصيني من خلال الكومنترن
أثناء تلك الفترة، هو تقديم العون للكومينتانج في ثورته الوطنية من خلال
المراوغة.

ستالین وماو:

ولكن هل حقيقة أن «ماو» مرید لستالین، مؤمن بتعاليمه، منتهج
لأساليبه؟ الواقع أنه ينبغي أن نفحص العلاقات التي كانت تربط ستالین بماو،
وبخاصة أن كثيرا من المؤلفات التي سجلت استيلاء الشيوعيين على الصين
تضمنت وجهات نظر مخالفة، فهي تقول إن ماوتسي تونج قد سار وحده مستقلا،
بل إنه كان في كثير من الحالات معاديا لسياسة ستالین العلنية إزاء حياده نحو
ما كان يجري في الصين. ولقد اتخذ ستالین هذا السبيل، ليقنع العالم بأن الاتحاد
السوفييتي ليس له ارتباط بالشيوعيين الصينيين. وأكد مرارا لـ شيانج كاي -
شيك، أن معونة الاتحاد السوفييتي المقدمة إلى الصين تقتصر على الحكومة
الصينية، ولا تشمل الشيوعيين الصينيين، وأعرب عن أمله مع ذلك في أن
الحكومة الصينية سوف تعطي تنازلات أكبر تقابل مطالب الشيوعيين.

ولكن هذا الاستقلال المزعوم تنفيه عدة دلائل منها:

*CHEN PO - TA: Stalin And the Chinese Revolution

(١) كان الحزب الشيوعي الصيني فرعاً من الكومنترن حتى تم حل الأخير شكلياً بواسطة ستالين في عام ١٩٤٣ ، وكانت كل الأحزاب المتفرعة تتبع خط الكومنترن .

(٢) تم إنشاء جامعة صن يات - سن في موسكو عام ١٩٢٥ . وقامت هذه الجامعة مع كليات تدريب صينية شيوعية بتخريج ألف خريج سنوياً على الأقل . وفي عام ١٩٤١ كان يدرب ما لا يقل عن ستة عشر ألفاً شيوعياً ، كانوا يكونون الجزء الحاسم من كوادر الحزب الشيوعي السوفييتي .

(٣) بالرغم من أن المعونة العسكرية الروسية للشيوعيين الصينيين كانت ضئيلة في فترة « ينان » فإن حرب عصابات ماوتسي تونج ، وقوات القتال الأخرى أصبحت تعتمد بشكل أكبر على الإمدادات التي كانت ترسلها السلطات العسكرية السوفييتية في منشوريا بعد عام ١٩٤٥ . وكانت هذه المعونة تقدر بما يزيد على أربعة آلاف دولار أمريكي ، وكان اعتماد ماوتسي تونج الأيديولوجي والمادي على ستالين لا يحتاج إلى تدليل .

وكان الشيوعيون الصينيون بعد انتصارهم على شيانج ، تواقين دائماً للاعتراف بمساهمة ستالين والاتحاد السوفييتي في الإنجازات التي قاموا بتحقيقها . ووفقاً لما قاله تشن - يو - تا عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني : « فإن شعب الصين العظيم ، تحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني ، وقائده العبقري الرفيق « ماوتسي تونج » ، وبمساعدة المعسكر القوي للاشتراكية والديموقراطية ، قام في النهاية بالقضاء على قطاع الطرق التابعين لشيانج كاي - شيك ، وتدمير خطة الولايات المتحدة الامبريالية الخيالية ، لاستعمار الصين وتأسيس جمهورية الصين الشعبية بقيادة الطبقة العاملة . أعني أن ذلك كان الطريق الثاني ، الذي أشار إليه الرفيق ستالين في مؤلفه المتألق « مشاكل الثورة الصينية » الذي طبع عام ١٩٢٧ ، والذي اتبعته الثورة الصينية . » .

وما يدعم وجهة النظر المتعلقة بارتباط « ماو » بستالين حتى بعد موته ، ما قام من نزاع عنيف بين موسكو وبكين ، حينما قام خروشوف بإدانة الستالينية في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي العشرين ، لقد عارض الشيوعيون الصينيون

هذا الخط بشدة وصلابة، وحاولوا إعلانا منذ عام ١٩٥٦ إبعاد انتباه شعب الصين عن دعاية إدانة ستالين.

ومما لاشك فيه أن معارضة بكين لسياسة موسكو حول ستالين، تعبر عن وجهة نظر السياسة الصينية التي تفسرها الأسباب الآتية:

(١) تؤكد بكين أن مثل هذه المسألة الهامة، والتي تحط من شأن أسطورة ستالين هي من اختصاص الحركة الشيوعية الدولية كلها، وليست مقتصرة على الحزب الشيوعي السوفييتي وحده، أي أن بكين تظن أنها مفوضة بصوت أكبر في الحركة الشيوعية الدولية وسياستها.

(٢) ان بكين لا تزال في حاجة إلى سياسة ستالينية وتوترات خارجية لغرض تبرير التضحيات المطلوبة من الشعب الصيني.

(٣) إن الصين الشعبية تمر في مرحلة أكثر صعوبة في تطوير الشيوعية، عن الاتحاد السوفييتي الأكثر تقدما منها في مجال الصناعة.

وبالرغم من ذلك، فقد كان من المتوقع تكتيكيًا لسنوات عدة قيام استقلال بين «ماو» وستالين وتدعيم هذا الاتجاه، وتطلب هذا الأمر عملية خداع ماهرة، وبخاصة خداع حكومة الولايات المتحدة. ولقد أنيط الواجب الرئيس لخداع الحكومة الأمريكية بمجموعة من الخبراء الصينيين كانوا يعملون في معهد العلاقات السلمى. وكان هذا في بادئ الأمر تنظيمًا شيوعيًا ولكن الأمريكيين تحركوا داخله بالتسلل، فحولوه تدريجيًا ليخدم غاياتهم الخاصة، وأصبح الخبراء في المسألة الصينية، مستشارين ذوي نفوذ في الحكومة الأمريكية، أما تفاصيل كيفية قيام المعهد بالمعاونة في تشكيل سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأقصى، فقد تكشف عام ١٩٥٢ في عملية استقصاء كاملة لأنشطة قامت بها اللجنة

* كان المعهد في الأربعينات بعامة أداة للدعاية الشيوعية. ونشر المعلومات الزائفة والحصول على المعلومات للمخابرات السوفييتية. ولقد استخدم الشيوعيون المعهد للتأثير على الرأي العام في الولايات المتحدة. ولتوجيه السياسات الأمريكية إزاء الشرق الأوسط نحو الأهداف الشيوعية. وترتبط تنظيماً كثيرة بهذا المعهد، مثل جمعية الصداقة الأمريكية للشعوب الصينية، والصين اليوم. والمعهد الروسي الأمريكي. ومجلس العون الصيني.

الفرعية للأمن الداخلي المنبثقة من الكونغرس الأمريكي .

ولم تقم مجموعة معهد العلاقات السلمي بتقديم العون الفعال إلى الشيوعيين الصينيين ضد حكومة دستورية شرعية . ذلك ، أن مثل هذا الأمر في أعين الشعب الأمريكي ، ربما أدى إلى إلغاء نفوذ المعهد لدى الرسميين الامريكيين . ولهذا ابتكرت اسطورة أن الشيوعيين الصينيين لم يكونوا حقيقة شيوعيين ، ولكنهم كانوا مجرد « مصلحين زراعيين » . وقد قيل إنهم مثاليون عكفوا على تنفيذ الثورة الديموقراطية البورجوازية ، وهم أناس يستحقون العون والتعاطف . ومن جانب آخر ، وصم شيانج كاي - شيك وحزبه ، بأنهم جماعة شرهة ، تقاوم التقدم ، وانها جماعة أكثر رجعية ، لا هم لها سوى النهب والسرقة .

ولقد وصلت المعلومات الخاطئة المخططة التي غذيت بها جميع سبل الرأي العام الأمريكي ذروتها بعد عام ١٩٤٧ ، ذلك أن شيانج كان بموجب هذه المعلومات شريرا فظيعا ، وشخصية حقيرة ، لا يمثل سوى مقعد الرئاسة الذي يستغل نجاح الحرب في الشرق .

ولقد أنعش الشيوعيون الدعاية ضد شيانج وضد الكومينتانج الأمر الذي جعل سياسة الولايات المتحدة إزاء الصين تقع تحت وطأة هذه الدعاية . وفي عام ١٩٤٥ ، كان هناك من يدافع عن فكرة ضرورة قيام الولايات المتحدة بالضغط على شيانج ، كي يضم الشيوعيين إلى حكومته بشروط مناسبة للشيوعيين ، أو الاعتراف بقيام حكومة « ينان » الشيوعية ، وتقديم الأسلحة والعون لقواتها كل هذا في سبيل الوحدة وسير الحرب بنجاح .

وكانت واشنطن تتأرجح ، فبالرغم من أنها كانت تعترف رسميا حتى دخول الصين الأمم المتحدة بحكومة شيانج على أنها الحكومة الشرعية الوحيدة . إلا أن الموقف أصبح اليوم مختلفا كلية بعد انضمام الصين الشعبية إلى الأمم المتحدة .

وكان شيانج قد أبدى استياءه عام ١٩٤٤ بقوله : إن ضغطا متزايدا تمارسه الولايات المتحدة ضده ، كي تصل حكومة الصين إلى تسوية مع الشيوعيين ، في

الوقت الذي لم تمارس فيه حكومة الولايات المتحدة أي ضغط على الشيوعيين الصينيين^{١١}

الغزو الشيوعي للصين الوطنية:

تمت استعدادات الهجوم الشيوعي لغزو الصين الوطنية خلال الحرب العالمية الثانية، بينما كان السوفييت يتصنعون التحالف مع الغرب. وكان ستالين بمثابة استراتيجي العملية. بينما كانت قيادة ماوتسي تونج تمثل دور القيادة المحلية القديرة للصين الحمراء.

وفي ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة مشغولة في حربها مع اليابان، فلجأ ستالين إلى اتباع سياسة عدم الاعتداء مع هذه الدولة. وحتى الأيام العشرة الأخيرة من الحرب، كان ستالين يجارب في هذا الجزء الأوروبي المكون للمحور فقط، وكانت اليابان مكتوفة الأيدي نتيجة حربها مع الولايات المتحدة، فلم تقم بالهجوم على امبراطورية ستالين في شرق آسيا.

لقد أراد ستالين الهزيمة لليابان، إذ إنه بدون تدمير هذه القوة المعادية، لن يتحقق هدفه الرئيسي في آسيا وهو ابتلاع الصين. ومع ذلك كان عليه أن يلعب لعبة مزدوجة، كي يتابع هدفه الأكبر، ملاطفة الولايات المتحدة من جانب، والتظاهر بصداقة محايدة إزاء اليابان من جانب آخر. لقد كانت المشكلة تكمن في هذه السياسة. فكيف يمكن للمرء أن يكون صديقا لطرفين متخاصمين، وأن يجادع كل منهما، ثم يختار الوقت المناسب لطعنهما في الخلف ويخرج من المعركة بضمن كبير هو «الصين»؟

لقد كان ستالين خبيرا في التعامل مع هذا النوع من المسائل. حقا لقد كان سيد الخاتلة والخداع - سياسة فرق تسد - في تفتيت معارضيه، واستفزازهم للدخول في أعمال عدائية ضد بعضهم البعض، ويجعلهم يبددون قوتهم بهذه الطريقة، بينما يحتفظ هو بقوته.

ولكي نفهم كل ما حدث في الصين، ينبغي على المرء أن يتذكر أنه كان يمكن

*U. S. Relations With China, With Special Reference to the Period 1944 - 1949, Department of State Publication 3573 , P.P. 552 - 55.

في عقل ستالين وعقل الشيوعيين، أن كل المناضلين غير الشيوعيين في الحرب العالمية الثانية، يدخلون في قائمة الأعداء. فإذا أخذنا ماو على سبيل المثال، فإنه تمسك مخلصاً بموقف السوفييت بعد توقيع الحلف السوفييتي النازي، إذ أعلن أن ديموقراطيات غربية معينة كانت أسوأ من ألمانيا النازية. ولقد كتب شواين لاي وزير الخارجية الأسبق ورئيس حكومة الصين الشيوعية فيما بعد، مقاله في «الدولية الشيوعية» في ابريل عام ١٩٤٠ هاجم فيها إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، كتجار حروب ومثيري الحرب العالمية الجديدة.

التسلل خلال التحالف:

لقد بدأت المنافسة الفعالة على الصين فعلا قبل الحرب العالمية الثانية بزمن طويل. وكان المتنافسان الرئيسان هما اليابان والاتحاد السوفييتي، فاستخدمت اليابان الطرق التقليدية من تغلغل اقتصادي، وغزو عسكري، ومكائد سياسية، بينما ساند السوفييت خط التخريب الداخلي وحرب العصابات. وكان للولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا - بدرجة أقل - اهتمامات بالصين ولكنها لم تكن شريكة في الصراع.

وخلال الثلاثينات، كانت الصين الوطنية بقيادة شيانج كاي - شيك تواجه جبهتين في الوقت ذاته. إحداها موجهة من طوكيو، والأخرى موجهة من موسكو. وقام الحزب الشيوعي الصيني مدعماً بموسكو، بإجراء «الزحف الطويل» كحزب مسلح يسيطر على ثمانية عشر «هسيين» HSIEN - «أي ولايات في شمال غرب الصين». وكانت «ينان» بمثابة مركز عمليات الحزب، كما تفرعت منها وحدات عصابات، وخلايا حزب سرية، وجبهات داخل الصين الوطنية، والأراضي التي تسيطر عليها اليابان. وقام اليابانيون بعد هجومهم في عام ١٩١٢، باحتلال منشوريا شمال شرق الصين والموانئ والمدن في الشرق، فأجبرت شيانج كاي - شيك على تحريك عاصمته الى «شونج كنج».

على أن ظهور النزاع الصيني - الياباني واجه ستالين بمعضلة تتعلق بالصراع في سبيل الصين. وكان على الصينيين الشيوعيين إذا أرادوا الاستمرار في حرب فعالة ضد شيانج كاي - شيك أن يعاونوا الغزو الياباني. وكان هذا

بالطبع اتجاهها غير عادي، إذ قد يدمغ الشيوعيين بالخيانة، وقد يعادي حلفاء ستالين الغربيين. فبالرغم من معاهدة الحياد بينه وبين اليابان، فقد كان في استطاعة ستالين أن يعكس خط الحزب تجاه الصين وآسيا، ويساعد شيانج كاي - شيك ضد اليابان من خلال موكله الشيوعيين. ولما كانت طوكيو تعد مركز التهديد الأكبر لخطط ستالين في آسيا، فقد قرر أن يتخذ السبيل الأخير. وهكذا ظهر التحالف بين شيانج كاي - شيك والشيوعيين الصينيين ضد اليابان. ومع ذلك فلم يكن تحالفا حقيقيا، كما ادعت بعض العناصر المعينة في الغرب، ولكنه كان بمثابة زواج مؤقت.

وكان من الممكن أن يكتمل التحالف، ولكن العوامل الطائشة كانت تمثل رواية فاجعة من أعلى المستويات. إذ توجه شيانج كاي - شيك الى مدينة «سيان» قبل عيد ميلاد المسيح لعام ١٩٣٦ مباشرة، ليكتشف السبب في أن قوات المارشال «شانج - هيوليانج» لم تكن تقاتل الشيوعيين باخلاص أو ربما كانت القوات الصينية - المنشورية، وتحت قيادة الجنرال تشانج معرضة لدعاية الشيوعيين، فضلا عن أنهم - وهذا مهم - لم يجندوا فكرة القتال في «شنسي» الشمالية ضد صينيين آخرين - بينما كانت بلادهم محتلة بغزاة أجنب - اليابانيين.

اختطاف شيانج كاي - شيك:

وبينما كان شيانج كاي - شيك في «سيان» اختطفه المارشال شانج وقواته. واتخذ الشيوعيون الصينيون قرارا عاجلا. لقد كان أمامهم فرصة الحث على إعدام شيانج فورا رميا بالرصاص، لأنهم كانوا يظنون أنه قرر تجنب الحرب مع اليابان، على الأقل قبل أن ينتهي من تصفية الشيوعيين الصينيين. ولكن الشيوعيين - وبخاصة شواين لاي - بدلا من ذلك توسلوا للمحافظة على حياته، ذاكرين أنه لم يوافق إلا على عقد هدنة داخلية، وعلى تشكيل جبهة مشتركة تواجه اليابان. ووافق شيانج كاي - شيك على التخلي عن خطته الخاصة «بمهمة الإبادة» للشيوعيين، ومحاربة اليابان في ظل مشروع الجبهة المتحدة التي يساعدها الشيوعيون، بالرغم من أن بعض أتباعه كانوا يريدون

المخاطرة بحياتهم لمقاومة عملية الخطف ، ومؤامرة التشهير .

والأكثر احتمالاً أن قرار الشيوعيين الصينيين خوض الحرب مع شيانج كاي - شيك - ضد اليابان بعد إنقاذ حياته - قد وصل إليه الشيوعيون من خلال مشاوراتهم مع موسكو ، ذلك أن الحرب بين الصين واليابان خدمت مصالح الاتحاد السوفيتي في الشرق الأقصى .

وقد أدت حادثة «سيان» إلى الحرب بين الصين واليابان . على أن استراتيجية الشيوعيين الصينيين بإنشاء جبهة مشتركة مع شيانج كاي شيك ضد اليابان لم تعمم كلها لتحرير الصين من العدوان الياباني . وأمل الشيوعيون أيضا ان يستخدموا اليابانيين الغزاة ، كسيف لثورة تضرب جيوش الوطنيين .

وخلال الفترة الاولى من الغزو الياباني للصين الوطنية ، حصر الشيوعيون أنفسهم في أعمال التسلل المكشوف والسرى داخل المناطق الوطنية ، وصدوا أنفسهم من استخدام قواتهم المسلحة لمهاجمة قوات شيانج . وعموما ، فقد احتفظوا بقوتهم وأخذوا في بنائها استعدادا لليوم الذي ستجيء فيه الحرب الداخلية ضد حكومة شيانج . وفي إيجاز ، فإن الشيوعيين تركوا أعداءهم يدمرون بعضهم البعض ، ولم يعطوا سوى أقل القليل من المساعدة إلى الحكومة الوطنية ، بينما طالبوا بالكثير ثمنا لذلك .

وبينا تشدد الشيوعيون بصلابة مع شيانج ، نافقوه كقائد عام للجيش ، وكأبرز رجل سياسي في آسيا - فهو على حد قولهم - بمثابة جورج واشنطن الصين ، ورجل المبادئ الحديدي ، والرجل الوحيد الذي يستطيع توحيد الصين . لقد ظل ماوتسي تونج في الخلفية ، وكان النقد الشيوعي محصورا في القادة الاصاغر ، وضد الأخطاء البسيطة ، وكانت اقتراحاتهم إزاء الاصلاح تقدم دائما بإسم رفع المعنويات ، وخلق وحدة اكمل ضد العدو المشترك . وفي عام ١٩٤٣ ، بعد معركة ستالينجراد ، أصبحت الحاجة إلى تعاون

* For details of the Sian Eposide, see john Gunther, inside Asn . 1942 Was.edition P.P. 245 - 55

** Quatid From Stephen t.Possony, A century of conflict, P. 302.

ظاهري بين الشيوعيين والصينيين وبين الكومينتانج لا أهمية لها. ذلك أنه لم يصبح الاتحاد السوفييتي وحده آمناً، ولكن بدا في الأفق انتصار الولايات المتحدة على اليابان. كما أن عقد معاهدات متعادلة بين أمريكا والصين وبين بريطانيا والصين في يناير عام ١٩٤٣، دعم بدرجة كبيرة من موقف شيانج كاي - شيك الداخلي. ولقد دمغت الشيوعية الدولية هذا التحرك بالنفاق، لاتباعه سياسة ملاطفة الطبقة الحاكمة الصينية. وفي الوقت ذاته، كان ماوتسي تونج يستعد وسط حركة تقويم في «ينان»، صممت لتطهير اتباعه، سواء الاحرار أم ذوي الاتجاهات الوطنية، لتمهيد الطريق لعصر «الماوية»، أي الفكرة الوطنية المقابلة للستالينية.

توسيع شقة الخلاف:

عندما أصبح واضحاً أن اليابان على وشك أن تفقد الحرب، تغير خط الحزب الشيوعي الصيني. ولم يكن هذا التغيير مفاجئاً، ولكنه كان انسحاباً تدريجياً، يتمشى مع طبيعة حزب سياسي ملتزم، مثل الحزب الشيوعي الصيني. إن التغيير المفاجيء ما كان يغير الكومينتانج فحسب، بل كان أيضاً يغير حلفاء ستالين الغربيين وبخاصة الولايات المتحدة. وكان السبب الرئيسي لعدم ملاحظة العنف في الخط الشيوعي، هو حل الكومنترن في مايو عام ١٩٤٣. ولقد اعترف شيانج كاي - شيك بأنه أخطأ في تقدير، أن ذلك كان تعبيراً لرغبة الروس المخلصة في التعاون مع الولايات المتحدة.

لقد كان تغير خط الحزب يعني أن الاسبقيات التكتيكية قد تغيرت. وأصبح شيانج وحزبه «الكومينتانج» مرة أخرى العدو الحقيقي للشيوعيين، بل أصبح شيانج نفسه هدفاً لنقد متصاعد نتيجة الطابع غير الديمقراطي للكومينتانج، وهو نظام حزب واحد يتكون من عناصر مختلفة. وساعد الشيوعيون الأمريكيين على ترويج أقوال معينة في الولايات المتحدة، جاء بها أن الكومينتانج فاسد وقاصر ورجعي. وبالرغم من ذلك فإن الشيوعيين الصينيين لم ينسحبوا رسمياً من الجبهة المتحدة، ولكنهم تظاهروا بأنهم يجاهدون في سبيل تدعيم أنفسهم من خلال إصلاحات معينة ذات طابع سياسي واجتماعي،

متضمنًا ذلك مشاركتهم في حكومة شيانج. لقد أرادوا الاحتفاظ بما حصلوا عليه وتوسيع نطاقه، ثم التحرك في جهاز العدو وحكومته .
وهناك من يزعم أن استيلاء الشيوعيين الصينيين على السلطة، كان امرا لا يمكن تجنبه نتيجة الفساد الواسع الانتشار الذي دمج «الكومينتانج» خلال السنوات الاخيرة من حكمه. وبينما ينبغي أن نضع في أذهاننا أن شيانج كاي - شيك لم تمنح له الفرصة قط كي ينفذ برنامجا ايجابيا في فترات الاضطراب الداخلي النسبي، فإن سلوك المنفعة الذاتية لبعض الرسميين الوطنيين ذوي المكانة الرفيعة، ساعد على تقويض معنويات الكيان الحكومي والعسكري الصيني .

وأينما كانت حكومة شيانج تستسلم لمطالب الشيوعيين، كان الشيوعيون يسترسلون في زيادة مطالبهم. وكانت واشنطن قد ضغطت على شيانج كي يحتفظ بسياسة الجبهة المتحدة، التي تأثرت بدورها إلى حد كبير، بمجموعات مثل معهد العلاقات السلمية. ومع ذلك، فإن شيانج رفض أن يستسلم، لأي مطالب قد تسهل عملية استيلاء الشيوعيين على السلطة. واستمر الشيوعيون يتظاهرون بأنهم يجذبون فكرة الجبهة المتحدة، بينما خاضوا حربهم الثورية، وخطوا بحرب عصابتهم خطوات مناسبة .

وهكذا حولوا جزءا مناسبا من قوى الحكومة الوطنية عن قتال اليابان. ولم يعد شيانج كاي - شيك بمثابة « جورج واشنطن الصين »، ولكنه وصف بأنه دكتاتور اقطاعي مستهتر، يرأس أفسد نظام قائم على سطح الأرض. وأصبح الكومينتانج حينئذ حزب ملاك الأرض الاقطاعيين، والمرابين، واللصوص، والمجرمين. وعلى النقيض، صور الشيوعيون على أنهم مناضلو الفلاحين، ومجررو المضطهدين، والموحدون الحقيقيون للصين. واستؤنفت الحرب الأهلية، ولكن في سبيل الانتفاع بالمفكرين الأمريكيين الراغبين في الوحدة الصينية، تظاهرت موسكو بالاعتراف بحكومة الصين فقط وتقديم العون لها. مخفية أغراضها الحقيقية بالخط من شأن الصينيين الحمر بين حين وآخر، بواسطة بيانات وتصريحات عامة .

ولقد تعاون ماوتسي تونج في هذا الخداع باصطناعه التمسك بالجبهة المتحدة مع شيانج وأعدت تصريحات وبيانات مماثلة بواسطة قادة الاتحاد السوفييتي لتضليل الولايات المتحدة. وقبل أن تتضح تأكيدات النصر للحلفاء في الحرب العالمية الثانية، عكس الحلفاء قدرا معينا من افتقار ثقة قادة الكرملين في قدرة الشيوعيين الصينيين على ان يلعبوا دورا حاسما في الحرب ضد اليابان كما عكسوا الشعور بان مصالح الشيوعيين الصينيين لا بد أن تخضع لسياسة السوفييت إزاء جهود الحرب الموحدة ضد اليابانيين في الصين، وذلك في ظل شيانج كاي - شيك والكومينتانج.

وحينا قرر ستالين أن الوقت أصبح ملائما عام ١٩٤٤، لإستئناف الشيوعيين الاضطلاع بالصين، أصبحت المشكلة هي كيف يمكن تنفيذ ذلك دون تنبيه واشنطن؟ كان ينبغي أن يكون انفصال الشيوعيين عن شيانج حذرا وتدرجيا، وبذلك يتركون ثغرة للتقهقر إذا ما أفاقت واشنطن على الحقيقة الواقعة. ولقد ظلت علاقات واشنطن الدبلوماسية مع حكومة شيانج الوطنية - كجزء من تحالف الحرب - سليمة تقريبا حتى يوم انتصار الشيوعيين، وتعاونت الصحافة السوفيتية في عملية الخداع.

ومن الواضح نتيجة الحقائق المسجلة، أن الاتحاد السوفييتي حاول في شهري سبتمبر واکتوبر عام ١٩٤٥ ان يستغل احتلاله لمنشوريا، لتثبيت سلطة الشيوعيين هناك، كما استغل الاحتلال العسكري للغرض ذاته في دول شرق اوروبا. ومن ناحية اخرى، لم يقدم للشيوعيين الصينيين سوى مساعدات أخرى قليلة بعد نهاية نوفمبر. والواقع أنه لم يقدم حقيقة شيئا ما بعد انسحاب القوات السوفيتية من منشوريا في ربيع عام ١٩٤٦. وينبغي أن يفسر هذا السلوك في ضوء الملاحظات التي نسبها إلى ستالين مترجم سيريوغسلافي^(١) ووفقا لهذا البيان فإن ستالين قال لكارديلي في اجتماع عقد في موسكو عام ١٩٤٨ ما يلي:

« بعد نهاية الحرب قمنا بدعوة الرفاق الصينيين للحضور إلى موسكو،

* Vladimir Dedijer, Tito Speaks, Weiden Fold and Nicolson, London, 1953, PP. 331.

وناقشنا الموقف في الصين ، وذكرنا لهم بصراحة اننا نرى تطور الثورة في الصين لا أمل فيه ، وأنه ينبغي على الرفاق الصينيين أن ينضموا إلى حكومة شيانج كاي - شيك ، ويقوموا بحل جيشهم .. ولقد وافق الرفاق الصينيون هنا على وجهات النظر. هذه مع الرفاق السوفييت ، ولكنهم عادوا إلى الصين وتصرفوا بخلاف ذلك. فقد حشدوا قواتهم ، وهم الآن (١٩٤٨) كما نرى ، يوجهون ضرباتهم إلى جيش شيانج كاي - شيك ..

على أن هذه العبارة المقتبسة لا تحدد تاريخ المشاورة التي عبر عنها ببساطة بعبارة « بعد الحرب » .

وبالنسبة إلى الأعمال التي قام بها السوفييت في منشوريا خلال الثلاثة شهور التي تلت استسلام اليابان ، كان من الصعب على ستالين أن يقتنع بأن ثورة الشيوعيين ، سوف تحقق أي أمل بأي صورة إلى أبعد ما يختص بمنشوريا . وسلمت « هولوتاو » ، « ينج كاو » ، « شان هايكوان » إلى قوات الشيوعيين الصينيين ، بأمل أن امتلاكهم لهذه الأماكن يمكنهم من الاحتفاظ بجيش الكومينتانج خارج منشوريا ، دون تدخل عسكري مباشر من الروس ضد حكومة الصين المعترف بها دوليا . ولكن هزيمة الشيوعيين عند « شان هايكوان » ، كانت بمثابة دليل لستالين على أن الرفاق الصينيين لم يكن لديهم القوة التي تعادل المهمة الملقاة على عاتقهم . لم يكن ستالين متعاطفا فقط مع الشيوعيين الاجانب فحسب بل كان يحكم عليهم أيضا على أساس إنجازاتهم الحقيقية ، فطالما عجز الشيوعيون الصينيون عن الاحتفاظ بموقع منيع سلمه لهم الروس ، فأنهم يصبحون فيما يرى ستالين غير جديرين بالمعونة التي تقدم اليهم . وطالما كان ستالين غير راغب في الدخول في مغامرة كنزاع كبير مع أمريكا ، نتيجة استخدام القوات الروسية في معارضة شيانج ، فمن المنطق إذن أن يقدم النصيحة إلى الرفاق الصينيين كي يقبلوا الهزيمة ، ويبرموا أفضل الشروط الممكنة مع حكومة الصين الوطنية .

وقد يكون هناك قدر صغير من الشك في احتمال قيام ستالين بتقديم مثل هذه المشورة ، ولكن ليس بعد كارثة « شان هايكوان » . ولم يصطدم الشيوعيون

الصينيون بالخيبة والاحقاق في خريف عام ١٩٤٥ فحسب، بل أنهم دفعوا في شمال الصين إلى ما بعد السكك الحديدية، التي كانت تمكنهم من سد جميع المواصلات الأرضية بين وادي يانج تسي، ومنطقة بكين - تينتسين.

لقد كان حيويًا بالنسبة لرجال الحكومة الوطنية أن يطهروا الخطوط الرئيسية من الشمال إلى الجنوب، لو أرادوا المحافظة على بقاء المدن - التي استولوا عليها من اليابان في شمال الصين - غير معزولة عن قلب الأراضي التي يحكمها الكومينتانج في وسط وجنوب الصين. وبحلول شهر ديسمبر، كانت قوات الكومينتانج قد طهرت سكة حديد «لنغهاي» الممتدة من الشرق إلى الغرب، وكانت القوات تتقدم على خطوط بكين - هانكاو، تينسين - بوكاو. ولم يكن لدى الشيوعيين الوقت الكافي لتعزيز مكاسبهم الأرضية الجديدة وأصبحوا معرضين لخطر دفعهم للخلف إلى المنطقة القاصية التي مكنتهم الغزو الياباني من الظهور منها. ووصلت اليهم المعونة بالرغم من ذلك من ناحية غير متوقعة، ذلك أن الحكومة الأمريكية كانت قد قررت ضرورة وقف الحرب الأهلية في الصين ففي بداية شهر ديسمبر، أعلن الرئيس ترومان أنه سيرسل الجنرال مارشال إلى الصين كممثل شخصي له بمهمة التوسط. وكان قد تقرر فعلاً توقف المعونة المرسله إلى الصين، طالما كانت توجه لاستخدامها في حرب الأخ لأخيه. وأبلغ ترومان مارشال بصورة علنية، أن مهمته هي أن يقوم أولاً بالإعداد لوقف الأعمال العدائية بين حكومة الصين والجيش الشيوعي، ثم يدعو إلى مؤتمر من العناصر السياسية الكبرى... كي يحاول أن يجد حلاً للنزاع الداخلي القائم. وبصفة شخصية أصدر الرئيس ترومان التعليقات الآتية إلى مبعوثه:

«إنك مفوض خلال حديثك مع شيانج كاي - شيك والقادة الصينيين الآخرين، بالتحدث بطلاق الصراحة - ويمكنك بخاصة أن تقول... إن الصين الممزقة وغير الموحدة نتيجة نزاع أهلي، سوف لا تعد في الواقع المكان المناسب لمعونة أمريكية على امتداد الخطوط المتعددة.»

على أن شيانج كاي - شيك لم يطلب توسط الأمريكيين، ولا كانت لديه

الرغبة في إقامة هدنة غير مشروطة في حرب أهلية، كان حينئذ منتصرا فيها، ولكن لم يكن في استطاعته أن يتجاهل مشورة واشنطن، خوفا من التهديد بقطع كل المعونات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية، إذا لم يكف عن الاستمرار في الحرب الأهلية. وكان عليه أن يوافق على عقد هدنة يشرف عليها ضباط امريكيون. وقام مارشال بمعاملة حكومة الصين المعترف بها دوليا بذات المعاملة التي عامل بها الثوار الشيوعيين، لقد انجنى اللوراء في محاولاته لإظهار عدم التحيز الكامل إزاءها. ولكن مع ذلك، أفلت مارشال من ملاحظة ترومان، وقام مارشال من خلال محاولاته لتوحيد الصين دون حرب أهلية، بجعل أمريكا لا تجد أمامها وسيلة ضغط تمكنها من الضغط على الشيوعيين، مثل الوسيلة التي تستخدمها للضغط على الحكومة الصينية الوطنية. لقد كانت الحكومة الصينية تعتمد على المعونة الأمريكية، وبخاصة بعد استرداد المدن من الاحتلال الياباني. وكان الشيوعيون بالرغم من تشتتهم واكتفائهم الاقتصادي الذاتي لا يحصلون على شيء. ولهذا كان في استطاعة الأمريكيين أن يوقفوا الحرب الأهلية حينما كان الكومينتانج ظافرا. وفيما بعد حينما حاز الشيوعيون على النصر، لم يكن أمامهم أي سبيل لوقف الحرب الأهلية.

ووصل مارشال إلى الصين في ٢٠ من شهر ديسمبر عام ١٩٤٥، وغادرها في شهر يناير من عام ١٩٤٧ بعد أن أصبح وزيرا للخارجية، وقد أخفق كلية في الوصول إلى أي اتفاق بين الحكومة الوطنية والشيوعيين. واستدعى فيما بعد لتقديم تقرير حول الصين فقال: «لقد رفضت يدي من مشكلة تجاوزت أبعد من إدراكي وسلطتي في إبداء آرائي». وقام الشيوعيون الصينيون باستغلال عام الوساطة الغير مثمر في أفضل صورة، وذلك بقيامهم بتعزيز مركزهم في شمال الصين. وحينما تجددت الحرب الأهلية في بداية عام ١٩٤٧، كان واضحا أن الزمن قد تحول إلى جانبهم. وغداة استسلام اليابان، كان شيانج كاي - شيك يتمتع بهيبة عظيمة كقائد الصين الوطني الذي قاد الحرب ضد الغازي الأجنبي لدى ثماني سنوات، انتهت بتحقيق النصر. ولكن هذا كان بمثابة أصول مستهلكة، فما إن حل عام ١٩٤٧، حتى أصبحت هذه الأشياء لا يعتد بها كثيرا. إذ قام جيش الكومينتانج في خريف عام ١٩٤٥ باظهار قدر مناسب من

روح القتال، وقد أثرت هذه الروح نتيجة استسلام مليون جندي ياباني لهم، ولكن مرت سنة دون أي نشاط، مما أدى إلى انخفاض هذه الروح. كما أن العيوب الإدارية لنظام حكومة الكومينتانج أصبحت واضحة للغاية في مدى عام ونصف، أثناء محاولة الحكومة تحميل الاقتصاد القومي الصيني بميزانية عسكرية باهظة، كما أن وسائل المواصلات الضرورية تعطلت نتيجة أعمال القوات المتمردة. وأدى التضخم النقدي المطلق إلى فساد المشروعات الانتاجية، كما هيأت ظروفا للمضاربات التجارية التي زادت من الفساد الرسمي. كما أن خيبة الأمل التي جاءت في أعطاف النصر على اليابان، دمرت شعبية النظام بين الطبقات الوسطى، التي كانت تمد الحكومة بالعون السياسي الرئيسي. وأخيراً وليس آخراً، فإن الكومينتانج - كعامل من عوامل سقوط النظام - أحبطت آماله في إعادة توحيد الصين في السياسات الصينية. لقد أصبح الكومينتانج، بمقارنته بتاسك تنظيم الحزب الشيوعي، وسير النظام به، فريسة للخلافات الحزبية.

وخلال النصف الأول من عام ١٩٤٧، كان الكومينتانج لا يزال منتصراً في الحرب الأهلية، ولكن قوة عام ١٩٤٥ الدافعة كانت قد ولت. ففي النصف الثاني من هذا العام تحول المد بوضوح لمصلحة الشيوعيين. وجاء عام ١٩٤٨ يحمل معه إحدى المآسي، التي انتهت بضياع منشوريا وكل شمال الصين تقريباً، واستيلاء الشيوعيين على هذه الرقعة. وكان جنوب الصين ما زال في يدي الحكومة إلى حين، ولكنه سقط للشيوعيين خلال عام ١٩٤٩، عدا جزيرة فرموزا، حيث أخلى إليها شيانج كاي - شيك وقد عزل عن الأرض الرئيسية بجوالي ١٠٠ ميل من البحر، في مأمن إلى حين من زحف الشيوعيين، الذين اجتاحوا باقي الصين. ولكن بدا أن المسألة لم تتعد مسألة وقفة، كي يقوم الشيوعيون بتنظيم قوة عسكرية وبحرية كافية، لمطاردة الحزب المقهور في آخر معقل له.

نحو نفوذ واسع:

ونجح الشيوعيون الصينيون إلى حد كبير في الإستيلاء على السلطة في

الصين تحت قيادة ماوتسي تونج ، وذلك نتيجة مهارة الاتحاد السوفياتي في إدارة الحرب الثورية التي فتت إرادة الغرب ، وبخاصة الولايات المتحدة ، خلال معاونة حليفها الصين الوطنية ، ونتيجة للفرص التي سحت له بانهياف قوة اليابان في آسيا .

ومن الطريف أن نذكر أن الرئيس الراحل كنيدي قال في مؤتمره الصحفي بتاريخ ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٦١ ، والذي نشر في النيويورك تايمز بعدها الصادر في ٢ من نوفمبر عام ١٩٦١ : « إنني ما زلت أظن كما ظننت من قبل عام ١٩٤٩ ، أن الولايات المتحدة كان ينبغي أن تفعل للصين أكثر من ذلك ، كي لا تسقط في السيطرة الحمراء » .

ومن ناحية أخرى ، فإنه وفقا لما قاله ماوتسي تونج ، فإن العوامل الخارجية التالية كانت ذات مغزى ، وهي : « قوة الاتحاد السوفياتي ، وهزيمة المانيا واليابان ، سفينة أوروبا الشرقية ، والصراع الوطني للشعوب الآسيوية ، والصراع داخل الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وإيطاليا واليابان وباقي البلاد الرأسمالية ، والصراع بين جماهير الشعب والرجعية التي تقودها » .

ويضيف ماو مؤكدا : « إنه بدون مثل هذه المساعدات الخارجية ما استطاع الشيوعيون الصينيون تحقيق الانتصار » .

كان الاهتمام الرئيس للشيوعيين الصينيين بعد عام ١٩٤٩ هو حماية قاعدة وطنهم ، والتوسع التلقائي ، فيما اطلق عليه ماوتسي تونج « الصراع الممتد » ضد العالم غير الشيوعي . ولقد تحولت الصين في مجرى العملية هذه إلى قوة آسيوية كبرى ، بجهود جبارة ، كي تسرع في تنميتها السياسية والاقتصادية والعسكرية والصناعية .

وفي الصين اليوم ، يشكل الحزب الشيوعي الصيني - وليست الحكومة السياسات الوطنية والثورية . ففي ظل حزب نظام واحد مشابه للسوفييت ، يكون دور الحكومة الصينية هو إعداد الخطط الوطنية التفصيلية وتنفيذها بما يتلاءم مع سياسة الخطوط العريضة التي يضعها الحزب والمقوة الشاملة .

وبينا ربط ماوتسي تونج نظامه برسوخ مع الإتحاد السوفياتي ، فإنه أبعد

السيطرة السوفيتية عن الأدوات الضرورية للسلطة الصينية الشيوعية، كما قام بتطوير سياسة خارجية عنيفة تربط العناصر الإمبريالية الصينية التقليدية تاريخياً، مع العناصر الجذرية العدوانية الجديدة، التي كانت تسود الشيوعية في الأصل

على أن سياسة الصين الشيوعية الخارجية لها دافعان رئيسان: أولهما الشيوعية المطلقة للعالم بالتعاون مع الكرملين، وثانيها المصالح الوطنية المباشرة للصين الشيوعية، سواء كدولة، أو كقوة سياسية كبيرة في آسيا.

أما الأهداف الوطنية المباشرة فكانت بخاصة: أولاً، جعل العلاقات مع باقي شعوب آسيا علاقات صداقة طبيعية، وبخاصة اليابان. وثانياً، إضعاف النفوذ الأمريكي والغربي في آسيا، ثالثاً، إضعاف النظام الصيني المنافس في تاوان تمهيداً للقضاء عليه، ورابعاً، قبولها دولياً كقوة كبرى، وأخيراً الاحتفاظ «بمناطق فاصلة»، وتشكيل قوى وأنظمة سياسية مضيضة للنفوذ الشيوعي الصيني في الأقاليم الآسيوية المجاورة.

وبالرغم من ذلك ومن تحقق بعض هذه الأهداف، إلا أن مصالح الصين الشيوعية قد امتدت إلى ما بعد آسيا. لقد تحرك محور التوسع حديثاً إلى أفريقيا وأمريكا اللاتينية، كما سيتضح في الفصلين القادمين من هذا الباب.

ذلك أن القادة الشيوعيين الصينيين وقد شجعهم انتصارهم في أرض الوطن، زعموا أن الصين الشيوعية فريدة في صلاحيتها لقيادة البلاد المتخلفة في آسيا، وأنه يمكنها التوسع عن طريق اتباع كل دول العالم المتخلفة نموذج البناء الاشتراكي.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن احتكاكاً صينياً سوفيتياً نشب حول المناطق المتخلفة في الستينات، ولا يزال قائماً لم يجل حتى اليوم ولقد ظهر هذا الاحتكاك في ثلاثة أشكال:

- (١) نزاع حول الاستراتيجية والتكتيك بالنسبة لما يطلق عليها «حركات التحرر الوطني» في المستعمرات ومناطق شبه المستعمرات.
- (٢) منافسة عنيفة في سبيل المصالح والنفوذ بين الشعوب المستقلة والتي

انبثقت حديثا في كل من آسيا وافريقيا والشرق الأوسط ، كذا شعوب أمريكا اللاتينية .

(٣) منافسة للسيطرة على الأحزاب الشيوعية المحلية في جميع المناطق المذكورة.عاليه .

على أن هذا الزعم الضخم صاحبه تأكيد صلب وخبيث ، يدعى أن ماوتسى تونج يعد أعظم النظريين الماركسيين - اللينينيين الأحياء ، وهو الفريد الذي يصلح لإمداد الحركة الشيوعية في جميع انحاء العالم المتخلف ، بالأيديولوجية وسياسة القيادة .

وللتدليل على ذلك ، نقتبس مما ذكره ليو شاونشى في اغسطس من عام ١٩٤٦ إلى مراسل أمريكي قائلا : « إن ماوتسى تونج قد أنشأ شكلا صينيا أو آسيويا من الماركسية . وكانت أكبر انجازاته قد غيرت الماركسية من شكلها الاوروبي إلى شكلها الآسيوي . إنه أول من نجح في عمل ذلك »^(١)

وفي مؤلف ماو « نحو ديموقراطية جديدة » ، اعدَّ « ماو » توليفة لصراع ثوري لفترة انتقالية قبل « البناء الاشتراكي » ، زاعما أنها تصلح لكل البلاد المتخلفة في العالم . لقد تصورت توليفة « ماو » صراعا ثوريا جديدا ، يضم كل الطبقات الراغبة في المشاركة للعمل ضد الامبريالية والاقطاع ، متضمنا ذلك جزءا من الطبقة الرأسمالية - أعني البورجوازية الوطنية . وكانت هذه التوليفة الجديدة ، الأصل النظري لاستراتيجية « الطبقات الأربع » ، التي طبقتها الشيوعيون في صراعهم للسلطة في الصين في فترة ما بعد الحرب ، ولقد هجعت هذه الاستراتيجية منذ عام ١٩٤٩ ، حتى عادت الدعوة « لماو » بالصدارة الأيديولوجية ، تظهر مرة أخرى في صحيفة « جين - مين - جيه - باو » . أو صحيفة « الشعب اليومية » الصادرة في ٣ من سبتمبر عام ١٩٥٨ . ومع ذلك ، فإن الاتحاد السوفيتي كان مترددا في تعليق توليفة ماو كنموذج للبلاد المتخلفة . ففي وقت مبكر من عام ١٩٥٢ ، قال زوكوف أحد

* Anna Louise Strong, Dawn out of China, New York, 1948, P. 29.

المعلقين البارزين في الاتحاد السوفييتي حول الحركة الشيوعية في المناطق المتخلفة
ما يلي:

« قد يكون من المخاطرة أن ننظر إلى الثورة الصينية على أنها نوع مطابق للثورة الديمقراطية الشعبية التي قامت في بلاد أخرى من آسيا. ومن العسير بخاصة أن نفترض أن دول الشرق الأخرى التي تسير على طريق الديمقراطية الشعبية، يمكنها بالضرورة أن تعتمد على أنها تمتلك كل المزايا الهامة الحيوية التي تمتلكها الثورة الصينية »^(١).

وبينا تتكون السياسة الخارجية للصين الشيوعية من عناصر كثيرة ممتزجة، مثل التقاليد الامبريالية الصينية، والقومية الصينية الجديدة، والشيوعية الصينية المعاصرة، فهي في جميع الأغراض أو النوايا دبلوماسية حرب باردة، تتطور إلى طراز ذي شعبتين هما: السياسات الرسمية (التقليدية)، والسياسات غير الرسمية (غير التقليدية).

وتهدف الاداة التقليدية للدبلوماسية - علاقات حكومة بحكومة - إلى اكتساب حلفاء، أو على الاقل تخطب ود الشعوب « غير المنحازة » أو تحيدها ضد الانحياز إلى جانب العدو (أساسا الولايات المتحدة). ولكن نظام ماو السياسي يدير علاقاته الخارجية بوسائل خاصة كثيرة، سياسات غير تقليدية يطلق عليها الشيوعيون الصينيون بتعبير ملطف اسم «دبلوماسية الشعب». وفي الجوهر تحتوي دبلوماسية الشعب للصين الشيوعية على مزيج من الحروب السياسية والاقتصادية والثقافية والنفسية. وغالبا ما تتجاهل «دبلوماسية الشعب» الطرق الحكومية، فتوجه لتنمية العلاقات والاتصالات المباشرة بين الوكالات الرسمية ووكالات الدولة التي تسيطر عليها في أرض الوطن، وبين المجموعات والتنظيمات غير الرسمية في الخارج. ومن خلال هذه الاتصالات والعلاقات غير التقليدية، تستطيع بكين أن تحصل على منافع سياسية، لن

** The Current Digest of The Soviet Press, Published By The joint committee on Slavic Studies New York, June 28, 1952, P. 3.

تستطيع الحصول عليها عن طريق العلاقات الدبلوماسية التقليدية . ولهذا ، فإن التبادل الدبلوماسي الرسمي على مستوى الحكومة ، غالبا ما يكون أقل الجوانب أهمية في العلاقات الخارجية للصين الشيوعية داخل إطار دبلوماسية الشعب . ومن ثم فإن الطاقات المختلفة بدورها في علاقاتها الخارجية ، ليست منعزلة كل منها عن الأخرى ، بل بالأحرى متشابكة ، متفاعلة ، ومكملة كل منها للأخرى . ولقد ظهر تصور جديد في الاستراتيجية السوفيتية الصينية لدور البلاد غير المنحازة أو « غير المرتبطة » ، التي تقف بين الكتلتين المتعاديتين . وبهذا التصور الجديد أصبح العالم المعاصر مقسم إلى ثلاث مجموعات - اثنتان منها هما الفلك السوفيتي - الصيني ومعها الكتلة المستقلة حديثا غير المنحازة ، أما الكتلة الثالثة فتضم العالم الحر بقيادة الولايات المتحدة .

ولقد وصل كل من الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية ، إلى أنه ينبغي الاعتراف بأن كل البلاد خارج الكتلة الصينية - السوفيتية ، وبخاصة تلك الدول التي يطلق عليها البلاد المتخلفة « غير المنحازة » ، ليست بالضرورة دولا معادية . وتعد الهند مثلا لذلك . لقد لاحظت الصين الشيوعية خلال الحرب الكورية أن الدول المحايدة أو « غير المرتبطة » يمكن استخدامها تكتيكيا لصالحها السياسي .

ان الهند منذ أن حصلت على استقلالها عام ١٩٤٧ ، مالت نحو الصين الشيوعية . والواقع إن الهند كانت الدولة الثانية في العالم غير الشيوعي التي اعترفت دبلوماسيا بالصين . وفي خلال الحرب الكورية ، عارض بشدة الزعماء الهنود وبخاصة نهرو السياسات الغربية إزاء الصين ، وبدلوا كل جهد للتوسط بين الصين الشيوعية وقوى الغرب . وبالرغم من أن الهند صادقت على العمل البوليسي الأصلي للأمم المتحدة في كوريا في يونيو عام ١٩٥٠ ، إلا أنها حذرت قوى الغرب وبخاصة الولايات المتحدة ، من أن أى تقدم بعد خط العرض ٣٨ سوف يقود الصين الشيوعية إلى الحرب . وحينما تدخلت الصين في النهاية ، عارض الهنود الوحدة كإقرار للسلام ، كذلك عارضت جهود الأمم المتحدة في دمج الصين الشيوعية بوصمة الدولة المعتدية . كما أن الهند عارضت « تجييد » الولايات المتحدة لتايوان عام ١٩٥٠ ، وأقرت دعوى بكين للجزيرة . وقد

نقدت الهند بعنف معاهدة السلام مع اليابان التي تكلفت بها الولايات المتحدة، لسبب جزئي، هو أنها تمت دون مشاركة الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي. وفي عام ١٩٥٢ لعبت الهند دور الوسيط في الجهود المعقدة، لإنهاء الحرب الكورية من خلال الهدنة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن السياسة الثورية العدوانية للكتلة الشيوعية ازاء الدول غير الشيوعية، التي تبناها اجتمع الكومنترن عام ١٩٤٧ في ظل توجيه ستالين، دفع قوى الغرب إلى إنشاء سلسلة دفاعاتهم في كل من اوروبا وآسيا - الناتو، السيتو - كما دعمت تصميم الغرب على مقاومة العدوان الشيوعي... كذلك عادت تلك السياسة كثيرا من البلاد المتخلفة «غير المرتبطة» في آسيا، التي كانت خلافا لذلك ذات علاقات طيبة مع الصين الشيوعية. لقد كانت الحرب الكورية باهظة التكاليف، كما حملت الاقتصاد الصيني عبئا كبيرا. *

وفي الوقت ذاته، كانت الصين الشيوعية تستعد لبدء مشروع سنواتها الخمس الطموح في بداية عام ١٩٥٣. وفي هذا الصراع الغنيد الأليم بين الالتزامات المحلية والالتزامات الخارجية الباهظة التكاليف، اتخذ قرار بدفع اهداف اقتصادية طموحة للأمام، اجبرت نظام بكين على أن يتخذ سياسة خارجية أكثر حذرا وهدوءاً.

المزايدة على الدول غير المنحازة:

ان تكتيك «الجبهة المتحدة» الذي لعب دورا هاما في استيلاء الشيوعيين على الصين، استخدم غالبا بواسطة الصين الشيوعية إزاء سياستها الخارجية، سواء في العلاقات الرسمية مع الحكومات الاخرى، أو في العلاقات الثورية مع شعوب العالم غير الشيوعي، في سبيل تعبئة الاتباع الحاليين أو المحتملين تحت علم الشيوعية. إن هدف هذا التكتيك هو تحقيق أوسع انحياز ممكن لكل القوى الوطنية وقوى «الطبقة»، كي تجعلها دائما في ظل النفوذ والإرشاد الشيوعي،

* A. Doak Barnett, Communist Economy Strategy: the Rise of Mainland China
Washington, Nation Planning Association, 1959, PP. 5 - 6

وكي تدعمها في صراع الهدف المشترك - وهو القضاء على نفوذ الغرب وسلطته .

ولقد اختلف تشكيل «الجبهة المتحدة» ، وتوقف ذلك على مدى تمثّل الشيوعيين الصينيين للاحتياجات والفرص السياسية الجارية ، كذلك على تغيير الظروف السياسية في العالم . وما زال القادة الشيوعيون - الصينيون حائرين من قصور الإجابات الشافية للأسئلة الهامة مثل : متى وكيف وعمّا اذا كان من الممكن أو من المرغوب فيه تعاون الشيوعيين مع « حركات بورجوازية وطنية » معينة في البلاد المتخلفة ؟ .

وإذا ما اقتفينا أثر أزمة بولندا والمجر عام ١٩٥٦ ، نجد أن السياسة الخارجية للصين الشيوعية أظهرت اتجاهات أكثر صلابة وعداء عما قبل . وبعد عام ١٩٥٧ عاد الشيوعيون الصينيون الى الضغط العسكري ليس ضد الولايات المتحدة فحسب كما هو الحال في أزمة جزر كيموى - ماتسو في اواخر عام ١٩٥٨ ، بل ايضا ضد عدة دول اسيوية ، كما في حالة الاخضاع الوحشي لثورة التبت عام ١٩٥٩ ، وجملة خلافات الحدود الصينية الهندية عام ١٩٥٩ ، وأزمة لاوس الحديثة . وتشرك الصين الشيوعية تكتيكات عنيفة مع تكتيكات هادئة في الوقت ذاته ، وذلك في تقاربها الحديث نحو العالم غير الشيوعي . وبحلول عام ١٩٦٢ ، كان هناك دليل ضعيف على أن الشيوعيين الصينيين قد قرروا العودة إلى سياسة عامة لعدوان عسكري طويل المدى . ولقد انحصر الضغط العسكري الذي مارسته الصين الشيوعية على جيرانها الأسيويين ، ولم يمارس إلا لأغراض سياسية محدودة .

وتلجأ الصين الشيوعية إلى جميع الوسائل في سياستها الخارجية : الضغط ، والتهديد العسكري ، والحرب السياسية ، والدبلوماسية التقليدية ، والحرب النفسية ، والهجوم الاقتصادي ، والتبادل الثقافي والتخريب الثوري ، لتدعيم أهدافها السياسية بعيدة المدى . وبالرغم من أن الشيوعيين الصينيين استخدموا الضغط والتهديد العسكري ضد التبت والهند ، كذلك في فيتنام الجنوبية فلا تزال الصين الشيوعية تؤكد على استخدام الدبلوماسية التقليدية ، والحرب النفسية ، والهجوم الاقتصادي والدبلوماسية الثقافية ، داخل إطار

أوسع من الحرب الثورية. لقد أظهرت اهتماما أكبر في تنمية علاقات الصداقة مع البلاد المحايدة غير المرتبطة في العالم المتخلف، وبدرجة أقل مع الدول المتقدمة في الغرب.

وفي مجال الدبلوماسية التقليدية، فإن الصين الشيوعية قبل قبولها في هيئة الأمم المتحدة كانت قد حصلت على « اعتراف شرعي » de jure من ٣٩ دولة في العالم، ويتضمن هذا جميع دول الكتلة الشيوعية، وعشرون دولة غير شيوعية في آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط، وسبعة دول من غرب أوروبا. وبينما بذلت الصين فيما مضى مجهودات راسخة للمشاركة في المؤتمرات الدولية، ولاكتساب عضوية في المنظمات الدولية، وبخاصة الأمم المتحدة، فإن سياستها في رفض المشاركة في أي مؤتمرات دولية أو منظمات تضم ممثلين من الصين الوطنية « تاويان »، قد أبعدتها عن المنظمات الدولية غير الشيوعية. ولكن الموقف تغير كثيرا بعد قبولها في هيئة الأمم المتحدة، وبعد سياسة الوفاق مع الولايات المتحدة التي تمت في عهد الرئيس نيكسون، مما سبهيء لها فرصا أكثر لاستخدام ادوات حربها الثورية بحرية وكفاءة عما قبل.

كذلك استخدمت الصين الشيوعية اسلحة اقتصادية في إنجاز دبلوماسية الشعب، كما أن هجومها الاقتصادي منذ عام ١٩٥٣ دعم في حالات كثيرة النفوذ الصيني الشيوعي، حينما كان وضعها السياسي أو الدبلوماسي ضعيفا. واستخدمت بكين كذلك المعونة الاقتصادية الأجنبية والتجارة كأداتين منافستين للغرب يعاونان تكتيكها « دبلوماسية الشعب ». ومنذ عام ١٩٥٣ دخل الشيوعيون الصينيون في ميدان المعونة الاقتصادية الأجنبية لدول الكتلة الشيوعية، كذلك للدول النامية غير المنحازة في العالم، بالرغم من المطالب الملحة الضخمة اللازمة لدفع التصنيع المحلي في الصين. إن القروض والمنح التي قدمتها الصين الشيوعية الى بلاد العالم المتخلفة وغير المنحازة منذ عام ١٩٥٦، تمثل عنصرا هاما مضطردا في سياساتها إزاء المعونة الاقتصادية والأجنبية. وفي عام ١٩٦١، كانت المعونة التي تقدمها الصين ليست كبيرة بمقارنتها بمعونات السوفييت والولايات المتحدة، ولكنها ذهبت كلها الى دول صغيرة محايدة في

آسيا وافريقيا والشرق الأوسط . ولقد نجحت في تدعيم النفوذ الصيني الشيوعي في هذه المناطق .

ذلك أنه بينما كانت الدول المتخلفة تبذل جهودا جبارة للتخلص من العلاقات الاقتصادية الشاملة مع قوى الغرب بأى ثمن ، كان على هذه الدول أن تبحث عن المعونة من مصادر متيسرة ، وهذا الموقف يجعلها من الناحية النفسية معرضة للدعاية الصينية الشيوعية التي تبشر باسم شعارات العداء للامبريالية ، والعداء للاستعمار ، ومساندة حركات الاستقلال الديموقراطية الوطنية ، والمعونة للتنمية . ونتيجة لذلك ، كان لدى هذه الدول ميل للسقوط دون وعي في الافخاخ التي نصبت لها .

على أن البرنامج العريض للتوسع التجاري يعد عنصرا هاما في برنامج الاقتصاد الخارجي للصين الشيوعية . وكان الحجم الكلي لتجارة الصين الشيوعية مع العالم غير الشيوعي - مع حذف الولايات المتحدة على النحو التالي :

العام	القيمة
١٩٥٠	٩٨٧ مليون دولار
١٩٥٢	٦٣٨ مليون دولار
١٩٥٦	١,٠٥ بليون دولار
١٩٥٨	١,٤٧ بليون دولار

ولقد زعمت الصين الشعبية في عام ١٩٥٨ أنها أنشأت علاقات تجارية مع أكثر من ٩٠ دولة ، كما عقدت مع أكثر من نصف هذه الدول معاهدات تجارية رسمية ، أو عقود مع منظمات تجارية غير رسمية . وتشارك الصين الشيوعية اليوم بانتظام في المسائل الدولية في كل من آسيا واوروبا ، وترسل ممثليها التجاريين والوفود إلى الخارج . وفي الوقت ذاته ، أقامت معارضا لسلع التصدير ، وهي تدعو الصناعيين ورجال الاعمال ورجال المصارف الاجانب لزيارة الصين الشيوعية .

ومن خلال هذه الوسائل ، تحاول الصين أن تتغلب على عوائق عزلتها الدبلوماسية الجزئية ، وان تزيد ايضا من هيبتها ونفوذها ، بشق الطريق

لعلاقات سياسية او ثق. (١)

كذلك أضاف برنامج الدبلوماسية الثقافية « او التبادل الثقافي » بعدا هاما
«لدبلوماسية الشعب» الشيوعية الصينية. ولا يدار هذا البرنامج بواسطة
وكالات حكومية محددة فقط ولكن يعمل فيه ايضا ما يقرب من عشرين
«تنظيم شعبي» في الصين الشيوعية مثل «الجمعية الثقافية» لما وراء البحار،
ولجنة الاتصال الثقافي لما وراء البحار. ومن خلال هذا البرنامج النشط
«للدبلوماسية الثقافية» يتدفق من وإلى بكين، سيل ثابت من الأفراد ووفود
الزوار، الذي يتكون من قادة سياسيين، واعضاء برلمانيين، وأعضاء حزبيين،
وأفراد عاديين، وهيئات عمالية وثقافية وأدبية ودينية ومنظمات شباب.

ان الأهداف الرئيسية «للدبلوماسية الثقافية» إزاء الدول غير الشيوعية،
هي تكثيف الدعاية المضادة للغرب - وبخاصة ضد الولايات المتحدة - تحت
شعارات «العداء للامبريالية»، و «العداء للاستعمار»، كذا تدعيم الفيض
الثقافي بين الصين الشيوعية والبلاد غير الشيوعية. ومن خلال هذا البرنامج
النشط «للدبلوماسية الثقافية»، ينفذ الشيوعيون الصينيون أنشطتهم المدمرة،
للتسلل السياسي والأيدولوجي والاقتصادي في اجزاء مختلفة من العالم،
وبخاصة في الاقاليم المتخلفة غير المنحازة. وهنا أيضا تدفع الصين للأمم
تكتيكات «جبهتها المتحدة»، مرتبطة مع الحركات المعادية للاستعمار
والامبريالية، وتحاول تصدير «التجربة التقدمية» للصين الشيوعية. لقد كشفت
الصين حديثا اهتماما كبيرا «بالدبلوماسية الثقافية» في افريقيا وأمريكا
اللاتينية، تساندها معونة اقتصادية، كاقترام سياسي نهائي للهدف.

ومنذ عام ١٩٥٥ إلى نوفمبر ١٩٦٠، أرسل الشيوعيون الصينيون إلى
الدول الافريقية أكثر من ٥٠ وفد زائر ضم أكثر من اربعمائة عضو يمثلون
الحكومة والدوائر المدنية - ثقافة - علوم - تعليم - فنون - شباب -
طلبة - اقتصاد - تجارة - جمعيات صداقة - زراعة - عسكرية. وفي
الوقت ذاته، وجهت الدعوة الى ما يقرب من مائة وخمسين وفد بلغ مجموع

* Harold S. Quigley , «THE Chinese Japanese Courtship, Current History, Vol.
33 No. 196, December 1957, PP. 353 - 57.

اعضاءها ٧٠٠ فرد من المجالات ذاتها لزيارة الصين .
وفي هذه الفترة أيضا تم تبادل مجموعات زيارة بين الصين الشيوعية ودول
امريكا اللاتينية . لقد ضاعفت بكين البعثات من وإلى امريكا اللاتينية ، ومن
عملية مسح ، اتضح أنه في الفترة من يناير عام ١٩٥٦ الى نهاية عام ١٩٦٠ ،
ارسلت الصين ١٤ صحفيا ، ومجموعات ثقافية وفنون وتعليم ، بلغ مجموع
أفرادها ٣٠٠ شخص ، كذلك أرسلت بعثة للصحة العامة والطب ، ومجموعات
شباب وطلبة ، كذا وفد للحزب الشيوعي بلغ مجموع افراده حوالي ٤٠٠ عضو .
أما الذين تمت دعوتهم لزيارة الصين فكانوا ٩٦ مجموعة حكومية وبرلمانية
وحزبية ، هذا بالاضافة إلى زيارات أخرى قام بها افراد في جميع المجالات
المذكورة سلفا ، بلغ مجموع افرادها ٢٤٨ عضواً .

وبجانب هذا الهجوم الثقافي الصيني الشيوعي ، كان ثمة برنامج واسع للدعاية
الصينية صمم على أساس تصوير الصين في أبهى صورها . فالشيوعيون الصينيون
يستغلون كل وسائل الاتصال المتيسرة . وتقوم اذاعة بكين اليوم بتوجيه اذاعة
يومية باللغة المندرينية Mandrin ، كذلك هناك اذاعات تجري بعدة لهجات
صينية ، هذا بالاضافة إلى ما يزيد على اثني عشرة - لغة اجنبية بجانب
الانجليزية ، وتشمل هذه اللغات العربية ، البورمية ، الكمبودية ، الفرنسية ،
الاندونيسية ، اليابانية ، الكورية ، الفارسية ، البرتغالية ، الاسبانية ، التركية ،
الفيتنامية ، وغيرها . ووفقا لتقرير غربي هناك ما يشير إلى أن الصين الشيوعية
كانت تذيع للخارج ٦٨٠ ساعة اسبوعية في شهر يونيو من عام ١٩٦١ ،
كذلك فإن برامج اذاعية معينة توجه إلى المناطق المتشابكة الحساسة من العالم
وفقا لما تتطلبه الأحداث التي تجري في العالم . وعلى سبيل المثال ، وجهت هذه
الاذاعة إلى امريكا اللاتينية في الوقت الذي بلغت الأزمة الكوبية
الامريكية ذروتها ، - كما وجهت إلى افريقيا انتظارا لمؤتمر التضامن الذي عقد في
كوناكري عام ١٩٦٠ . إن وكالة الانباء الصينية الرسمية الحديثة « هسين هوا »
تمتلك واحدا وعشرين مكتبا في الخارج ، كذا ثلاثين مكتبا في أرض الصين .
كذلك يهتم برنامج الدعاية الشيوعي الصيني بالنشر ، فهو ينتج مادة دعاية
جماهيرية باللغة الصينية لتصف تقدم البناء الاشتراكي في الصين الشعبية

للصينيين الموجودين فيما وراء البحار. كما أن الصحافة الصادرة باللغات الأجنبية في الصين، تطبع وتنشر كتباً ودوريات للتوزيع في الخارج باللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والإسبانية واليابانية والاندونيسية، والفيتنامية والبورمية، وبعض لغات أخرى. هذا وتنشر عدة صحف هامة للعالم الغربي مثل: «شعب الصين»، «الصين المصورة»، «أدب الصين»، «بكين ريفيو». كذلك يستغل الشيوعيون الصينيون الاستخدام الكبير للأفلام في الخارج، لانتاج دعاية فعالة لبلادهم في أنحاء كثيرة من العالم.

الخلاصة:

من خلال هذا البرنامج الشامل «للدبلوماسية الشعبية» أنشأ الشيوعيون الصينيون آلة مؤثرة للحرب الثورية، تهدف إلى استثمار التوتر المحلي وزيادته في العالم غير الشيوعي، كذا بذر الشك بين الغرب وآسيا وإفريقيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية. كما تستغل الفنون والمعارض العملية وفرق الرياضة، والأفلام، والتهديدات العسكرية، والتغلغل التكنولوجي والاقتصادي، للدعاية للاسطورة الماركسية - اللينينية - الماوية.

إن الأمل الذي يواجه البشرية بعيداً عن نشوب حرب عالمية ثالثة هو استمرار الحرب الباردة وزيادة كثافتها. ففي المستقبل القريب، سوف يستمر الشيوعيون الصينيون في أثناء بنائهم السريع لقدراتهم الصناعية والعسكرية، في الاعتماد أساساً على استخدام الحرب الثورية أكثر من استخدامهم الوسائل العسكرية، لمد نفوذهم السياسي في الخارج. ومن المحتمل أن يستمروا في استخدام تكتيكات «ملطفة» إزاء الدول غير المنحازة، بينما تقف مستعدة لاستغلال التغييرات الثورية في أي من هذه البلاد، في الوقت والمكان المناسبين. وفي الوقت ذاته، سوف يطبق الشيوعيون الصينيون ضغطهم العسكري، كما حدث في الهند ولاوس، وجنوب فيتنام، كي يحققوا أهدافهم. ويأمل الشيوعيون الصينيون أنه في المدى الطويل سوف يستطيعون دفع ثورات داخلية في الدول غير الشيوعية، وبخاصة في الأقاليم المتخلفة غير المنحازة، التي ستساعد على وصول الانظمة الشيوعية إلى السلطة في هذه البلاد كما يأملون الاستمرار بإصرار إزاء هذا الغرض.

كوبا وتجربة أمريكا اللاتينية

التاريخ شيء واحد: هو تحليل الأحداث واستخلاص الدروس التي تستمد منها عبر الزمن!. ففي كوبا حصلت موسكو - بمعاونة خاطئة من واشنطن على قاعدة ضخمة للعمليات في الأمريكتين. وتشير الدلائل إلى أن السوفييت يعمدون إلى استخدامها إلى أقصى حد. لقد تحولت كوبا إلى القاعدة الأولى لعمليات الحرب الثورية في أمريكا اللاتينية. فهي من الزاوية الاستراتيجية تقع في قلب أرض الخصم، ومن ثم يمكن استخدامها لنشر الشيوعية في المناطق المحيطة بها، في الوقت الذي تركز فيه بخاصة على الولايات المتحدة. وتعد كوبا فريدة في نوعها، فهي أول دولة تابعة للفلك السوفييتي لا تقع على حدود الكتلة الصينية - السوفييتية، ومن ثم، فإن أداة الحرب الثورية السوفييتية لو استطاعت إقامة توابع لها على بعد آلاف الأميال منها وحافظت عليها، فانها بذلك تصبح قادرة على إجراء أمور أبعد مما يتوقع منها. وهكذا، لا نخطئ إذا قلنا أن رأس الشاطئ الذي أقيم في كوبا ليس نهاية، ولكنه بداية لعمليات شيوعية أخرى في الأمريكتين.

ولقد دأبت القيادة العليا في موسكو، كذا اخصائيوها في حرب العصابات، على دراسة العمل الكوبي بعناية كبيرة، من زاوية إمكان استخدامه وتطبيقه في بلاد أخرى، وبخاصة في أمريكا اللاتينية. ومن الجدير بالذكر، أن ميكويان والوفد المرافق له قاموا في أثناء زيارتهم لكوبا عام ١٩٥٩ بالتفتيش على مركز رئاسة حرب العصابات الكوبية في «سييرا». وفي يناير عام ١٩٥٩، أرسل

الحزب الشيوعي الكوبي عميلا يدعى « سيفيروا جوير » إلى موسكو ليلقى بيانا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي . ولقد القى بيانا ذا مغزى معين جاء به :

« ما الذي أظهرته أحداث كوبا؟ لقد أدحضت الأحداث في كوبا مزاعم أولئك الذين يحاولون أن يثبتوا أنه نظرا لقرب الولايات المتحدة، يصبح من المحال إجراء معركة ناجحة في دول أمريكا اللاتينية . فحينما يهب أفراد الشعب بأكمله في صراع مسلح ، ويتحملون مصير الدولة على كاهلهم ، فإن النصر يصبح مضمونا . »

ووصل شى جيفارا إلى الاستنتاج ذاته ففي كتابه حرب العصابات ذكر أن الدروس الجوهرية للثورة الكوبية هي :

- (١) إن القوى الشعبية يمكنها الفوز على جيش منظم .
 - (٢) ان البعث في حد ذاته يمكنه أن يخلق الظروف الثورية .
 - (٣) إن الريف هو الأرض الأساسية التي يمكن استخدامها في البلاد الأقل تقدما في نصف الكرة الغربي .
- على ان هناك شيئا يستحق الذكر والملاحظة ، هو محاولة خروشوف التهديد لحماية تابع جديد وقلب أمريكا باستخدام القوة النووية . وفي ذلك الوقت ، كانت هذه العملية مجرد محاولة « بلف وخداع » . وكانت المشكلة تكمن في إدماج السلطة الايديولوجية بالسلطة المادية . وفي عهد لينين وستالين كان من الصعب تنفيذ ذلك ، كما أن هذه المسألة كانت تناقش في مدرسة لينين .
- وفي بادئ الأمر ، كان من الضروري استخدام الرشوة والتهريب والإغارات على مستودعات أسلحة ، والمخازن ، والخزائن ، وما شابه ذلك ، وكان هذا العمل يتم بدرجة محدودة . أما اليوم فيستخدم هذا على مستوى الدول وعلى نطاق أوسع ، إما بتسليح الحكومات على ما حدث في كوبا ، وإما بتسليح الدول المحايدة على جانبي موسكو ، واستخدامها كقواعد مرور للأسلحة والخبراء إلى الحركات الشيوعية السرية المختلفة . ويمكن استخدام الطيران للغرض ذاته ، كما حدث في لاوس . كذلك يمكن استخدام أسطول الغواصات السوفييتي . وتم هذه

العمليات بمنتهى السرية، ولا يظهر منها على السطح إلا أقل القليل. فاذا ما فقد الغرب إرادة القوة، فإن الكرملين سوف يزداد تصلبا ازاء تدعيم أسلحة جيوشه الايديولوجية. وفي النهاية سوف يؤدي الامتزاج البارع بين العسكرية والأيديولوجية إلى قلب ميزان القوى لصالح السوفييت.

ومنذ الإخفاق الكبير « في عملية خليج الخنازير »، نمت الفكرة بين الدوائر الأمريكية ذات النفوذ، بأنه لا يمكن عمل شيء حينئذ في كوبا وربما كان أبرع المتحدثين عن هذا الموضوع هو السفير « أدلاي ستيفنسون » الذي ناشد حكومة الولايات المتحدة في صحيفة النيويورك تايمز بعددها الصادر في ٢٦ من يونيو عام ١٩٦١، أن تتخلى عن معارضتها لنظام كاسترو حتى يحين اليوم السعيد الذي يستطيع فيه الشعب الكوبي أن يستعيد حرته بنفسه، هذا في الوقت الذي وقفت فيه حكومة كنيدي موقفاً صلباً إزاء كاسترو.

ولكن الولايات المتحدة كانت تنظر إلى كاسترو على أنه عامل مخرب، وشخصية هزلية لا يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل حتى لو تجاهلته. وكان لهذا المسلك مخاطر مستمرة: فكاسترو يتحدث بلا حدود، ويطن حديثه في آذان الأمريكيين بصورة مسخ، مع أنه يؤثر بمهارة على العناصر غير المتعلمة والساخطة في كوبا وأمريكا اللاتينية، وأصبح معروفا لدى كل مواطن في أمريكا اللاتينية. على أنه من ناحية أخرى، ليس من المنطق الحط من شأن كاسترو، فستالين من زاوية الطب النفسي لم يكن رجلا عاديا، إذ كانت لديه عقدة نفسية إزاء قصر قامته، ولكنه مع ذلك دفع بالشيوعية إلى أبعد مما توقعه أعداؤه.

ومن ثم، فإن نظام كاسترو إذا كان قدر له الاستمرار، ولم يطح به في مدى قريب، سوف يتمكن من تصفية كل الطبقات المتوسطة وشلها، كذا كل العناصر المثقفة غير الشيوعية، وكل العناصر التي لا يعتمد عليها سياسيا. وسوف يؤدي هذا بالطبع إلى إقامة جهاز أمن ارهابي تحت سيطرة الحزب الشيوعي. وإذا ما نجح كاسترو وحلفاؤه الشيوعيون، في تدمير كل المصادر المحتملة المعارضة للثورة، فإنهم قد يستطيعون صياغة الكوبيين في قالب الذي صاغ فيه لينين وستالين الشعب الروسي.

العمليات بمنتهى السرية ، ولا يظهر منها على السطح إلا أقل القليل . فاذا ما فقد الغرب إرادة القوة ، فإن الكرملين سوف يزداد تصلبا ازاء تدعيم أسلحة جيوشه الايديولوجية . وفي النهاية سوف يؤدي الامتزاج البارع بين العسكرية والأيديولوجية إلى قلب ميزان القوى لصالح السوفييت .

ومنذ الإخفاق الكبير « في عملية خليج الخنازير » ، نمت الفكرة بين الدوائر الأمريكية ذات النفوذ ، بأنه لا يمكن عمل شيء حينئذ في كوبا وربما كان أبرع المتحدثين عن هذا الموضوع هو السفير « أدلاي ستيفنسون » الذي ناشد حكومة الولايات المتحدة في صحيفة النيويورك تايمز بعددها الصادر في ٢٦ من يونيو عام ١٩٦١ ، أن تتخلى عن معارضتها لنظام كاسترو حتى يحين اليوم السعيد الذي يستطيع فيه الشعب الكوبي أن يستعيد حرته بنفسه ، هذا في الوقت الذي وقفت فيه حكومة كنيدي موقفاً صلباً إزاء كاسترو .

ولكن الولايات المتحدة كانت تنظر إلى كاسترو على أنه عامل مخرب ، وشخصية هزلية لا يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل حتى لو تجاهلته . وكان لهذا المسلك مخاطر مستمرة : فكاسترو يتحدث بلا حدود ، ويطن حديثه في آذان الأمريكيين بصورة مسخ ، مع أنه يؤثر بمهارة على العناصر غير المتعلمة والساخطة في كوبا وأمريكا اللاتينية ، وأصبح معروفا لدى كل مواطن في أمريكا اللاتينية . على أنه من ناحية أخرى ، ليس من المنطق الخط من شأن كاسترو ، فستالين من زاوية الطب النفسي لم يكن رجلا عاديا ، إذ كانت لديه عقدة نفسية إزاء قصر قامته ، ولكنه مع ذلك دفع بالشيوعية إلى أبعد مما توقعه أعداؤه .

ومن ثم ، فإن نظام كاسترو إذا كان قدر له الاستمرار ، ولم يطح به في مدى قريب ، سوف يتمكن من تصفية كل الطبقات المتوسطة وشلها ، كذا كل العناصر المثقفة غير الشيوعية ، وكل العناصر التي لا يعتمد عليها سياسيا . وسوف يؤدي هذا بالطبع إلى إقامة جهاز أمن ارهابي تحت سيطرة الحزب الشيوعي . وإذا ما نجح كاسترو وحلفاؤه الشيوعيون ، في تدمير كل المصادر المحتملة المعارضة للثورة ، فإنهم قد يستطيعون صياغة الكوبيين في قالب الذي صاغ فيه لينين وستالين الشعب الروسي .

تسلل الكومنترن:

علي أننا قبل أن نتحدث عن الثورة الكوبية، نقدم دراسة موجزة للأسلوب الذي استخدمه الشيوعيون للتغلغل في دول أمريكا اللاتينية، كذا التصورات التي كانت تدور في عقول الكرملين منذ قيام الثورة.

لقد بدأ الجهد الأول لتسلل الكومنترن إلى أمريكا اللاتينية في أوائل العشرينات من هذا القرن، بإنشاء الحزب الشيوعي الأرجنتيني في يناير من عام ١٩١٨، وحزبي شيلي واوراجواي بعد ٣ سنوات لاحقة. كما تم إنشاء سكرتارية لأمريكا اللاتينية في رئاسة الكومنترن بموسكو رأسها « بالميرو تولياني »، سكرتير الحزب الشيوعي الايطالي عام ١٩٦١. ومنذ العشرينات، بدأ يتدفق داخل أمريكا اللاتينية أفراد مدربون من الأحزاب الشيوعية الأمريكية والروسية والأحزاب الشيوعية الأخرى. كذلك انهالت على الأحزاب الشيوعية إعانات مالية من موسكو.

ولقد ازداد زحف الشيوعيين في أمريكا اللاتينية خلال الخمسينات، وانتهى بصعودهم المظفر إلى مركز السلطة في كوبا. فإذا ما استمر زحفهم بنفس القوة التي حدثت في كوبا، فإن أمريكا اللاتينية قد تصبح مركزا خطيرا تديره موسكو ضد الولايات المتحدة.

استراتيجية البلاشفة إزاء أمريكا اللاتينية:

في الواقع لم يكن لدى البلاشفة عند قيام الثورة تصوُّر واضح محدّد للعمل به في أمريكا اللاتينية، بل لم تكن هناك استراتيجية واحدة محددة لغزو أمريكا اللاتينية. لقد وضعت عدة استراتيجيات، استخدمتها موسكو في أزمنة مختلفة. فمنذ عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٢٣، أحس لينين أن أوروبا على وشك البلشفة في موجة من الثورات والحروب الأهلية، وظن أنه لن يمر وقت طويل حتى تهب البروليتاريا في الولايات المتحدة أيضا. وبينما لم تظهر أية دلالة على أن لينين ظن أن الولايات المتحدة يمكن تحويلها إلى دولة شيوعية عن طريق أمريكا

* Lenin, Collected Works, A Letters to the American Workers, Vol. xx 111, PP. 192 - 204.

اللاتينية ، فإنه يقينا نظر إلى امريكا اللاتينية كقاعدة حيوية مطلقة للعمليات المستقبلية .

واستطاعت نظرية لينين الشاملة ووسائله ، أن تجتذب على الأقل جزءا من العناصر الماركسية والراديكالية ، التي كانت قائمة فعلا في أمريكا اللاتينية . ولم تكن هذه المهمة صعبة إلى حد كبير ، إذ أن الاختلاف بين لينين وماركس في النظرية لم يكن بينا . ولقد دعمت سلطة لينين العقائدية - التي كانت تساندها نجاحاته في الاستيلاء على السلطة في روسيا - ابتهالات الشيوعيين للراديكاليين في نصف الكرة الغربي .

أما في امريكا اللاتينية ، حيث كانت الديمقراطية البرلمانية - باستثناءات قليلة - ضعيفة والدكتاتوريات شائعة ، فقد جاء الشيوعيون وهم يحملون وعودا بالخلاص . وكان كثير من الراديكاليين في امريكا اللاتينية وقد ارتطموا بالوحل خلال تقليدهم للطرق الأوروبية على استعداد لمحاولة شيء جديد . وكان هذا الشيء الجديد قد صاحب الخطط المألوفة لطرق جديدة من التآمر والتغلغل والإثارة الجماعية واستخدام القوة .

وهكذا ابتدأ الشيوعيون في أمريكا اللاتينية بطرح الحركات الراديكالية القديمة ، مثلما حطموا الحزب الاشتراكي القديم في الولايات المتحدة . واستنفذ الكومنترن العشر سنوات الأولى في امريكا الجنوبية ، في تشكيل الطليعة للأحزاب الشيوعية الوطنية المحلية ، وفي تشكيل مجموعات التسلل . ولم تختلف كثيرا تكتيكات التسلل إلى الطبقات الاجتماعية المختلفة ، ولكن لم يتم إعداد استراتيجية خاصة ونموذج تكتيكي في امريكا اللاتينية حتى اوائل عام ١٩٤٠ . وحتى عام ١٩٤٢ ، لم يكن هناك شيء مؤكد لاستراتيجية شاملة تطبق في أمريكا اللاتينية . ذلك أن ستالين كان مشغولا عن دراسة امريكا اللاتينية بخاصة ، نتيجة مشكلة الداخلية في الاتحاد السوفييتي . وكما ذكرنا من قبل كان تصور لينين عن الحرب الثورية يتضمن شيئين مختلفين رئيسيين :

(١) تصور « الثورة الاشتراكية » التي تطبق على الدول المتقدمة .

(٢) تصور « الثورة الديمقراطية البورجوازية » التي تطبق على الدول

المتخلفة مثل دول آسيا وأفريقيا متضمنا ذلك الصين .

وترددت القيادة العليا السياسية في موسكو، في تقرير أي استراتيجية يمكن تطبيقها في أمريكا الجنوبية. ولم يكن من السهل اتخاذ قرار بمعاملة أمريكا اللاتينية جهارا على أنها أرفع من الصين في تطورها الاقتصادي والاجتماعي، مع أنها كانت تسير في ركاب دول أوروبا المتقدمة وأمريكا الشمالية. ونشأت المشكلة نتيجة قرب الولايات المتحدة، لها. كانت الولايات المتحدة عاملا جوهريا في تجارة أمريكا اللاتينية وصناعاتها.

وبينا قام لينين بمثل هذه المشكلة بسرعة وكفاءة، استنفذ ستالين ما يقرب من حقتين من الزمان بعد بدء العمليات، كي يقرر نهائيا تطبيق استراتيجية الدول المتخلفة على أمريكا اللاتينية. وتقدمت عمليات الشيوعيين في أمريكا اللاتينية على أساس استراتيجية ماثلة للنموذج الأوروبي، وبذلك ضاعت فرص تكتيكية كثيرة.

فلسفة ينان

على أننا قبل أن نتحدث عن تصور الثورة الديمقراطية كما طبقت في أمريكا اللاتينية، ينبغي أن نشير إلى ما أطلق الشيوعيون عليه فلسفة ينان. ففي كتاب «أسلوب ينان» الذي قام بتأليفه «ايدوكيورافين» - وهو زعيم شيوعي سابق من بيرو، انقلب على الشيوعية - قام المؤلف بذكر النصائح التي أعطاها له «ماو» عام ١٩٤٣ الخاصة بفلسفة ينان... قال ماو له: (١)

«إن النبوغ الأعظم لهذا العمل يكمن في تجنب الارتباط كلية مع الإخفاق..... لا تحاول قط الدفاع عن الضعيف حتى لو كان على حق، ولا تهاجم ناهب الخزانة اذا كان يملك حصنا منيعا، فهو قد يسحقك، وليس هناك فائدة من أن تصبح شهيدا.

«إن تجربتنا - تجربة أسلوب ينان - تؤكد أن الرجال مثل الأطباء، وجنرالات الجيش وأطباء الأسنان ومحافظي المدن والمحامين الذين لا يترفون في

* Eudocio Ravines, The Yenan Way, PP. 148 - 59

الغنى ، لا يعشقون السلطة لذاتها ، ولكن للخير الذي يعود منها ... إنهم يريدونها للثروة التي تأتي بها . فإذا ما حصلوا على السلطة ، فإنهم يبدأون مثل نابليون في البحث عن المال ثم المال ثم المال ... ضع هذا في ذهنك أيها الرفيق . فإذا ما قدمنا المعونة لهؤلاء الناس ، وإذا ما أصبحنا سلما لهم ، وهذا يناسبنا تماما ، فإنه يصبح من العبث أن نحجز أيديهم ، أو نرتق جيوبهم ، أو نوقف جشعهم ، لقد حدث هذا مع شيانج عام ١٩٢٧ . لقد حاولنا أن نلعب دور الأخلاقيين ، ولكنه استطاع أن يقذف كل سلطته ضدنا .

« دعهم يصبحوا أغنياء اليوم ، ولكننا نستطيع أن نصادر كل شيء قريبا جدا وبقدر ما نمد لهم يد المعونة في أعمال سلبهم ، بقدر ما يسلمون لنا من مواقفهم واحتلالنا لها . انهم سوف يعاونوننا على الاستيلاء عليهم ، واحتوائهم .

« وبالطبع هناك شيان حيويان ينبغي ألا نغفلهما : أولا ، لا تشارك قط في أي عملية تواطؤ أو سلب قد تكون أكثر صعوبة مما تتصور ، وثانيا ، نفذ تعاونك دون أن يعرف الناس ، ودون أن تترك أي دليل قد يحصل عليه أعداؤك . ومن الطبيعي أن هذا يسعد اصدقاءك اللصوص ... ذلك لأن هيبتك سوف تترك الكثير ، لتحدث انقساما بين عدد كبير من أتباع الاحتيال .

« وهنا يكمن شيان : أولا ، أن هذا الرجل الهزيل غير الشيوعي ، الذي ينتخب بفضلنا في النخبة الممتازة أو يصبح عضوا في المجلس البلدي ، سوف يجد الطريق أكثر سهولة حينما يريد الحزب انتخاب نائب أو محافظ لمدينة . ذلك أن الشعب لن ينتخب أي فرد راديكالي ، بل سينتخب الشيوعي . وسوف تبقى الغاية ثابتة ، ولكن الوسيلة تتغير وفقا لقوتنا . إن هذه الطريقة تبدو أبطأ من غيرها ، ولكنها في الحقيقة تعد أسرع الطرق وأضمنها . أما الشيء الثاني ، فهو أن أي شخص يقبل معونتنا ولا يقوم بتنفيذ دوره في الصفقة ، يصبح هدفا لهجوم بالمواجهة بشراسة لا ترحم . ويكفى أن نضرب مثلا واحدا ، فإنهم بمجرد أن يروا أن في استطاعتنا أن نسد الطريق أمام شخص ما ، وأننا نملك القوة لتدميره كلية ، فإن الباقي سيخشى أن نلعب معهم اللعبة ذاتها .

« إن البورجوازي الصغير الطموح وقد شعر بحمى الجشع يشعر بكره

حقيقي حينما نضربه بعنف. إن من الواجب أن ندمره بحق، بواسطة كل سلاح في أيدينا، ونتركه في النهاية خرقة ممزقة».

وحينما اتفق الشيوعيون في أمريكا اللاتينية على ضرورة قيام الحزب باكتساب أصدقاء ومتعاطفين وخدم... بأي ثمن كان، أوضح «ماو» هذه النقطة بقوله: «إن هؤلاء بخاصة هم الخدم... أولئك الذين يخدموننا من خلال الجشع والخوف ومركب النقص والأخذ بالثأر... إخدم الحزب.... إخدم خطط الكومنترن... إخدم قضية الثورة. وهكذا تمسك بالجوهر المؤكد لأسلوب ينان».

ولقد أمسك أيضا الزعماء الشيوعيون الآخرون بجوهر أسلوب ينان. ففيتنام الشمالية والصين وصل الزعماء الشيوعيون فيها إلى مراكزهم السياسية خلال أسلوب ينان.

ففي فيتنام الشمالية قام هوشي منه بجمع شعث غالبية الفلاحين حوله باستخدامه شعارات تندد بالمستعمر الفرنسي، ونادرا ما كان يذكر الماركسية، وذلك بالطبع حتى تكسر الحزام البوصى. وفي كوبا كان فيدل كاسترو في أثناء قيادته لثورته ضد نظام باتستا ينظر إليه حتى من الجناح اليميني في الصحافة الأمريكية على أنه وطني حقيقي، وديموقراطي أصيل.

ولكن كلا من كاسترو وهوشي منه اتبع خطوات ماو، وحقق الهدف ذاته كما استخدمت تكتيكات متشابهة بواسطة الاحزاب الشيوعية في العالم المتخلف، وقد حققت نجاحات مختلفة الدرجات في كل حالة.

على أن اتباع روسيا لبعض مبادئ «اسلوب ينان»، الذي عارضه ستالين يوما ما، قد أشير إليه رسميا في مسودة برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي الذي عرض في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب في أكتوبر عام ١٩٦١.

تقول المسودة: «إن الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي يرى أن التحالف الأخوي مع الشعوب التي أطاحت بالطغيان الاستعماري أو شبه الاستعماري هو حجر الزاوية لسياسته الدولية. إن هذا التحالف يقوم على أساس المصالح الحيوية المشتركة للعالم الاشتراكي، ولحركة التحرر الوطني في العالم. ويرى

الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي أن مهمته الدولية هي معاونة الشعوب التي هبت لاكتساب استقلالها الوطني وتدعيمه... كل الشعوب التي تقاتل في سبيل القضاء التام على النظام الاستعماري».

ولكن البرنامج يبين بوضوح أن الاتحاد السوفييتي ليس لديه النية في الاحتفاظ «بالتحالف الأخوي الشيوعي» مع القوى الوطنية غير الشيوعية أو البورجوازية الوطنية لوقت أطول مما يجب. اذ تقول المسودة:

«إن البورجوازية الوطنية ثنائية الطابع، ففي الظروف الحديثة نجد أن البورجوازية الوطنية في الدول التي استعمرت - سواء كانت يوما ما مستعمرات أو دولا تابعة - حينما تكون غير مرتبطة بالدوائر الامبريالية، يصبح هدفها الأساسي انجاز المهام الأساسية للثورة على الامبريالية وعلى الاقطاع. ومن ثم فإن دورها التقدمي، وقدرتها على المشاكسة في حل المشاكل الوطنية أيضا عظتان ينبغي ألا يغفلا. ولكن التناقضات بين الطبقة العاملة، والطبقات المالكة سرعان ما تنمو، ويزداد صراع الطبقة داخل الدولة، وهكذا تبدي البورجوازية الوطنية ميلا للمواءمة بين الامبريالية والتفاعلات المحلية».

ومن ثم فإن الوثيقة تلخص في النهاية بقولها:

«إن تطور البلاد التي حصلت على حريتها قد تكون عملية معقدة ذات مراحل متعددة» وفي كلمات أخرى، فإن على الشيوعيين في اللحظة المواتية أن يطعنوا حلفاءهم غير الشيوعيين في الظهر كما فعل ماو، وهوشي منه، وفيدل كاسترو.

هذا بايجاز هو اسلوب ينان.

تصور الثورة الديمقراطية كما طبقت في امريكا اللاتينية:

لا يهدف الشيوعيون في ظل استراتيجيتهم «الثورة الديمقراطية البورجوازية» إلى إدخال تحسينات على الديمقراطية. بل على العكس يبدو هدفهم بعيد المدى وهو طرد الديمقراطية، بالرغم من أن هناك الكثير من الشيوعيين السذج خارج «قلب الحزب» الصلب يؤمنون بزخارف الحركة

المثالية. كانت الثورة الديمقراطية البورجوازية ناجحة بدرجة أنها احتاجت لوقت وجهد لفهمها.

وفي هذا المقام أشار جون فوستر دالاس عام ١٩٥٣ إلى ذلك بقوله:

«إنني اشعر أن الظروف السائدة في أمريكا اللاتينية يمكن مقارنتها تقريبا بالظروف التي كانت سائدة في الصين في منتصف الثلاثينات، حينما كانت الحركة الشيوعية في بداية نشاطها. لقد كان الحمر قد بدأوا ينمون بدور كراهية للأمريكيين والبريطانيين، ولكننا لم نفعل أي شيء كاف ازاء ذلك. ولقد سارت في طريقها، ووصلت إلى ذروتها عام ١٩٤٩. حسنا... فإذا لم ننتبه، فقد نستيقظ صباح يوم ما، لنقرأ في الصحف أنه حدث في أمريكا الجنوبية الشيء ذاته الذي حدث في الصين عام ١٩٤٩.»^(١)

مصادر التجنيد:

ويجند الشيوعيون قاداتهم في أنحاء العالم من الأعضاء الذين يبحثون عن السلطة من الطبقة المتوسطة ومن المثقفين. كما أن مجنيد أفراد «قوات التصادم» الذين ينفذون برنامج هذه «الصفوة» يختلف من بلد عن الآخر. فالجرب الثورية في الدول المتقدمة صناعيا تختار العمال الصناعيين، وفي أمريكا اللاتينية، يبحث الشيوعيون عن العون بين المزارعين، كذا بين عمال الصناعة. ولكن ليس هناك غنى عن استخدام استراتيجية مختلفة لكل منها في الثورة الديمقراطية البورجوازية.

وفي بعض دول أمريكا اللاتينية القليلة حيث عدد ضخم من السكان الهنود، يملك الفلاحون الأرض، وفقا للنماذج القبلية الجماعية التقليدية. وفي مثل هذا الموقف، يواجه الاقتراب الجماعي الشيوعي حاجزا ينبغي القفز من فوقه، إذ أن عقلية الملكية بين هذه المجموعات لا مكان لها. ولقد قامت حكومتي

* مقتبسة من جلسات لجنة الأمن الداخلي لمجلس الشيوخ الأمريكي في ١٣ من أغسطس عام ١٩٥٩، ونشرت في الجزء الثاني من سلسلة التهديد الشيوعي للولايات المتحدة من خلال الكاريبي.

المكسيك وبوليفيا على سبيل المثال بتوزيع الأرض، ولكن ليس على الافراد من الفلاحين، إنما وزعت في كوميونات. وفي هذه الدول وجدت ابتهالات الشيوعيين للجماعية الزراعية آذانا صاغية. إن الشيء ذاته ينطبق على أغلب عمال الصناعة، الذين لا يملكون أي ملكية إنتاجية..

تكتيكات لاجتذاب العناصر الاجتماعية:

ويبتكر الشيوعيون تكتيكات لاجتذاب كل العناصر الاجتماعية، عدا ملاك الاراضي الكبار، وكبار البورجوازيين. ففي أمريكا اللاتينية - حيث يتركز جهد الشيوعيين الآن في مواجهة الولايات المتحدة - يتظاهر الشيوعيون أنهم رواد الجماهير، ولكنهم يعدون بمكافأة كل الآخرين الذين يسرون في ركبهم. عدا ملاك ما يطلق عليها «المشروعات الامبريالية»، ومعاونيهم الوطنيين. وهؤلاء تصادر املاكهم، ويتم تصفيتهم كطبقة تمسك بالسلطة، ولكن ليس بالضرورة ان يقتلوا كأفراد.

وتسمح هذه التوليفة للشيوعيين بالعمل لا كشيوعيين فقط، بل أيضا كيعاقبة الثورية الفرنسية عام ١٧٩٢. وفي ظل هذه الخطة، فإن الافراد غير المعروفين علانية يتظاهرون بأنهم «محررون» أو «ديمقراطيون يساريون»، كما حدث في كوبا وفي جواتيمالا قبل ذلك. وهذه التكتيكات، يستطيع الشيوعيون في المراحل المبديئة أن يتحدوا مع نوعيات واسعة من عناصر اخرى، كما يسهل عليهم تحييدهم. ولا يحتاجون حينئذ أن يمسكوا بزمام الحكم كحزب علني، بل يكتفى مبدئيا بابعادهم عن الحكم والقيام بسحقهم، ثم يكتسبون السلطة عن طريق الفرص التي تسنح لهم من التعامل مع حكومة صديقة، أما العناصر غير الشيوعية التي انضمت إلى الائتلاف، فيمكن تصفيتهم فرادى فيما بعد. إن استراتيجية الثورة البورجوازية الديموقراطية، التي تمكن الشيوعيين من التظاهر كوطنيين ومعادين للامبريالية، ومحررين ثوريين أو مصلحين، هي مفتاح تفهم العمليات الشيوعية في أمريكا اللاتينية.

تطوير العقيدة ١٩٠٥

ولقد طور لينين العقيدة في «تكتيكة» لعام ١٩٠٥، حيث أشار إلى أن

الثورة البورجوازية ينبغي أن تسبق الثورة الاشتراكية في الدول المتخلفة. ولقد غيرَ لينين من فكره فيما بعد ليس حول طبيعة هذه الثورة البورجوازية الديمقراطية، ولكن حول استعداد روسيا لثورة اشتراكية. ومع ذلك، فقد بقي التصور، إذ كتب ستالين عن ثورة بورجوازية ديموقراطية في ظل ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين، بينما تظل الرأسمالية أساسا تشارك البورجوازية الديمقراطية السلطة مع الجماهير.

تصور عام ١٩٢٨ .

إن التحليل الخاص بأمريكا اللاتينية الذي تضمنه «برنامج الشيوعية الدولية» والذي تبناه مؤتمر الكومنترن العالمي السادس عام ١٩٢٨، ذكر هذا التصور بوضوح، حيث قسم العالم الرأسمالي الى:

- (١) دول متقدمة مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة.
- (٢) دول متوسطة التقدم مثل البرتغال والمجر.
- (٣) المستعمرات وشبه المستعمرات مثل الصين والهند والدول التابعة كالارجنتين والبرازيل.
- (٤) البلاد التي ما زالت أكثر تخلفا كإفريقيا البدائية.

على أنه بالنسبة إلى المستعمرات وشبه المستعمرات، فإن البرنامج وضح أن الصناعة بها عادة ما تكون متخلفة لتهيأة ثورة اشتراكية، ذلك لأن العلاقات القائمة بها هي علاقات إقطاع وعلاقات عهد العصور الوسطى، كما أن الواجب الرئيس للشيوعيين هو القتال ضد الامبريالية والمثابرة على مناقشة تطور «ثورة الفلاحين»، والقتال ضد الامبريالية وملاك الضياع للحصول على الاستقلال القومي. كذلك وضح البرنامج بعامة، أن سلسلة من مراحل الإعداد، يجب أن تمضي قبل إمكان ازاحة مهمة الثورة البورجوازية الديمقراطية بواسطة الثورة الاشتراكية.

*Lenin, Vla. Two tactics of Social Democracy in the Democratic Revolution, PP -

وبالضرورة، فإن الثورة البورجوازية الديمقراطية شكل من أشكال الخداع، صممت لإغراء الفلاحين والطبقة المتوسطة على الإنضمام إلى الشيوعية. وينبغي أن نلاحظ - مع ذلك - أن تصور الثورة البورجوازية الديمقراطية قد عبر عنها الشيوعيون بشكل مطول وبصراحة قاطعة على أنها مرحلة انتقالية نحو دكتاتورية البروليتاريا، بعد تصفية الطبقة المتوسطة. وبعيدا عن محاولة الاحتفاظ بهذه الكتابات سرىا، تقوم الأحزاب الشيوعية بتوزيع ملايين النسخ من هذا البرنامج في تلك الدول، التي من المحتمل أن تقوم فيها الثورة البورجوازية الوطنية. ومن ثم، فإن افراد الطبقة المتوسطة الذين يعاونون مثل هذه الثورة، يمكنهم أن ينقدوا ممتلكاتهم وحرياتهم وحياتهم، لو قرأوا المطبوعات الشيوعية عن وعي وإدراك.

برنامج الحزب الشيوعي البرازيلي:

وفيما يلي اقتباس من برنامج الحزب الشيوعي البرازيلي عام ١٩٥٤ - وهو حزب رائد أحمر في أمريكا اللاتينية - كمثال لذلك:

«فقر الشعب في بلد غنى مثل بلدنا هو نتيجة سياسة النهب للاحتكارات الأمريكية.. نتيجة حكم ملاك الضياع والرأسماليين البرازيليين الكبار... وهكذا، فالاقتصاد القومي الكامل للبرازيل، يتحول إلى مجرد ذيل للحرب الاقتصادية للولايات المتحدة. إن الامبرياليين الأمريكيين يتدخلون مباشرة في حياة الدولة الادارية كلها، ولقد سيطروا على جهاز الدولة في البرازيل كي يستغلوا بشراسة شعبنا ويخضعونه، ولكي يسلبوا المصادر الطبيعية في البلاد، ويستنزفون أقصى نفع لهم.

«ويقتنع الحزب الشيوعي البرازيلي بأن التحول الديمقراطي الذي يحتاجه شعبنا، يمكن تحقيقه فقط عن طريق حكومة «تحرر وطني»، بواسطة حكومة يشارك فيها - مجوار الطبقة العاملة - الفلاحون والمثقفون، والبورجوازية الصغيرة، والبورجوازية الوطنية.

«إن الحزب الشيوعي يقاتل في سبيل الاشتراكية، ولكنه على اقتناع كامل بأنه في ظل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة الآن في البرازيل،

لا يمكن انجاز التحولات الاشتراكية. ولكن من المستطاع تماما تحقيق واجب القيام بتغيير الحكومة الحالية غير الوطنية المضادة للشعب، بحكومة شعبية سوف تحرر البرازيل من تسلط الامبرياليين الأمريكيين وذيولهم - ملاك الضياع وكبار الرأسماليين. وسوف لا تصادر الحكومة الديمقراطية للتحرر الوطني المشروعات ورأس مال البورجوازية الوطنية. ومع ذلك، فإنها سوف تصادر رأس المال والمشروعات التابعة لكبار الرأسماليين وتؤمّمها. لقد خان هؤلاء الرأسماليون الشعب، وارتموا بأنفسهم في أحضان الإمبرياليين الاميركيين.

«ولسوف يستخدم المشروعات ورأس المال الذي تم مصادرتة من الإمبرياليين الأمريكيين، في التنمية المستقلة للاقتصاد القومي، ولتھیأة الظروف لصناعات مكثفة للدولة. ولهذا السبب، يصبح من الضروري دعوة رأس المال الخاص - الذي يجب ضمان أرباحه وحمايته - للمشاركة في التنمية وفقا لقانون خاص. «ومصادرة جميع الاراضي التي يملكها سادة الارض الكبار، وتوزيعها - مجانا - للمزارعين الذين لا يملكون ارضا، أو الفقراء، أو لكل من يعتني بها. ولسوف ينظم توزيع الاراضي بموجب قانون وتسلم عقود التمليك لكل فلاح. كما أن امتلاك الأراضي والاستيلاء عليها سواء كانت تابعة لكبار الملاك ام للدولة أو الاراضي التي وزعت على المزارعين سوف ينظمها القانون.»

«واتبعت برامج الأحزاب الشيوعية الأخرى في امريكا اللاتينية - بعامّة - الخط ذاته.

توليفة الثورة البورجوازية الديمقراطية نموذج للانتهازية الثورية:

إن استخدام الشيوعيين لاستراتيجية الثورة البورجوازية الديمقراطية لا ينبغي أن يؤدي الى الوهم بأنهم - حتى من أجل الضرورة - يهدفون إلى ديموقراطية حقيقية. ذلك أنه حينما يتحدثون عن الديمقراطية، يعنون دكتاتورية تزعم أنها تعمل لصالح الأغلبية، وهم يستطيعون أن يتمشوا مع الدكتاتوريين لو كان هذا يخدم أغراضهم، كما يمكنهم أن ينقلبوا عليه إذا

* All excerpts from Draft programme of Communist party of Brazil, published in «For a lasting peace, for a peoples , Democracy pp 3 - 4.

تناقض ذلك مع مصالحهم. لقد مارسوا اللعبة الانتهازية مع جوان بيرون في الأرجنتين وفولجنسيو باتستا في كوبا، وهتلر خلال التحالف النازي - السوفييتي.

إن توليفة الثورة البورجوازية الديموقراطية، نموذج للانتهازية الثورية الشيوعية. ذلك أنه يمكنهم التعاون مع دكتاتور طموح ويبيعونه كثيرا من تكتيكاتهم «كسبيل لاستمرار في الحكم»، ولكي يصبح معبود الجماهير. فإذا ما قبل عرضهم، فإنهم يستطيعون تدعيم حركته في ظل سلطته، جاعلين إياه معتمدا على مهارتهم الفائقة في التنظيم. وإذا ما ادرك الدكتاتور ما يجري في بلادهم وعارضهم، أو إذا كان على وشك الإطاحة به، فإنهم ينقلبون ضده، متظاهرين بأنهم أكثر منه ديموقراطية، وذلك كما حدث مع باتستا في كوبا.

الانجاز التنظيمي.

يتحقق الانجاز التنظيمي لاستراتيجية «الثورة البورجوازية الديموقراطية» عن طريق مجموعة وسائل شيوعية ذكرت في الفصول السابقة مثل: تشكيل جهات شبه وطنية، عمل المنظمات الأسيرة مثل اتحادات الطلبة ونقابات الفلاحين واتحادات العمال، كذا تشكيل خلايا حزبية سرية مرتبطة ببعضها البعض كما تتضمن الشبكة السرية داخل الحكومة، الجيش والشرطة، وجهاز الخدمة المدنية، وقد يربط الأخير مع المجموعات الشيوعية داخل الاحزاب السياسية المعترفة بها. وتربط الشبكات الثلاثة هذه عند القمة فقط، سواء من خلال قيادة الحزب العليا، أو من خلال العمل السري السوفييتي الذي يعمل من داخل السفارة، أو من خلال الاثنين معا. ونادرا ما يعرف اعضاء الحزب في الجيش والشرطة بعضهم البعض، وينطبق هذا أيضا على الميدان المدني السري، فقد يشارك عدد مناسب من التنظيم المدني في النشاطات الموالية للشيوعيين، سواء في الجبهات المخادعة أو الأسيرة. وهكذا نجد في حالة أمريكا اللاتينية أن ما يظهر على السطح يعد قليل الأهمية نسبيا عما يدور في الخفاء.

إن الهدف الشيوعي هو تنمية مخادعة لفكرة أن نظام الملكية الخاصة والحكومة الديموقراطية نظام قديم عفا عليه الزمن، ويعرقل التنمية السريعة

للبلاد. ويهدف التغلغل المتتابع الذي يمارسه الشيوعيون ضد حلفائهم إلى انتهاز الفرصة المناسبة، التي يسقط فيها البناء الاجتماعي سواء عن طريق حرب العصابات، أم عن طريق ضغط خارجي، وفي بعض الحالات دون أي جهود إضافية خاصة. وفي خلال تلك المرحلة، يقوم الشيوعيون بحملة ضخمة لجعل الناس تؤمن بأن كل من يتحدث ضد الشيوعية، وبخاصة أولئك الذين يتمتعون بالحصافة والفعالية، إنما هم من أقصى الجناح الرجعي اليميني، وأسوأ الناس على الإطلاق.

التغلغل إلى السلطة:

ولقد تخصص الشيوعيون في عملية الاستيلاء على السلطة في البلاد المتخلفة أو النامية، وأظهروا في أجزاء من العالم غير أمريكا اللاتينية، أنه من الممكن في المناطق المتخلفة اقتصاديا أن يتم الاستيلاء على السلطة أولا، ثم تستخدم القوة لفرض نموذجهم من الاشتراكية المستبدة. ولقد أظهرت دفعاتهم في القرن العشرين، أن صدارة السلطة السياسة على الحتمية الاقتصادية بمثابة انكار جوهرى للماركسية، وليس لدفع السلطة الشيوعية.

ومنذ خمسة وثلاثين سنة، حينما بدأ الشيوعيون عملياتهم في أمريكا اللاتينية، انشغلوا في التغلغل داخل الراديكاليين والعمال والفلاحين. ولم يكتروا بفكرة تجنيد شيوعيين يخدمون في الحكومة، للتغلغل داخل أجهزتها. واستنفذت أعوام قبل أن تصبح تكتيكاتهم انتهازية، وكانت جهودهم للوصول إلى جهاز الحكومة تقوم أساسا على سياسة الأحزاب حتى الليبرالية أو غير المحافظة، أو على سياسة التآلف معا، حينما كانت تصل هذه الأحزاب إلى السلطة.

وكانت الأنظمة السياسية في أمريكا اللاتينية مصدر ضعف كبير. ويبدو أن هذه البلاد لم تستقر قط بين الدكتاتورية والديموقراطية بل تذبذبت بين الاثنتين. لقد ورثت الاتجاه نحو الطرق المطلقة من سيادة الحكم الإسباني لمدى ثلاثة قرون. كما أن الاتجاه نحو الديموقراطية الحقبة يبدو أنه ما زال يكتسب أرضا، ولكنه لم يثبت بعد. ولقد بدت القوى مرات كثيرة في تاريخ أمريكا

اللاتينية تعمل نحو الديمقراطية، كي تقع فقط في فخ الدكتاتورية. إن نمو ثورة الطبقة المتوسطة في أمريكا اللاتينية، يعد القوة الرئيسة التي يعتمد عليها التيار الديمقراطي. ولقد تمخضت هذه القوى عن ظهور مجموعة من الأنظمة الدكتاتورية، وسوف تهيء لقيام عوائق مؤقتة هنا وهناك، وهذه قد تؤدي في النهاية إلى المطالبة باستقرار سياسي لسياسات أمريكا اللاتينية المضطربة. ويستغل الشيوعيون الذين تركزوا لنوع جديد من الدكتاتورية، هذا الصراع بين الديمقراطية والأشكال القديمة للدكتاتورية، محاولين إقامة شكل حكمهم المستبد، ويسمح تعقد الموقف السياسي المضطرب للشيوعيين بمداواة الرجال بدوائهم المزيف، الذي يدعون أنه يشفى كل داء، كما يسمح لهم بالعمل بحرية، طالما أنهم يقفون أولا مع مجموعة، ثم ينتقلون منها إلى مجموعة أخرى.

إن التغلغل الشيوعي داخل الجهاز الحكومي في معظم بلاد أمريكا اللاتينية عملية شاقة طويلة. وطالما أن تناسق الأحداث والظروف مثل التي قامت في كوبا، نادرا ما تحدث. فإن التغلغل في جهاز الحكومة إلى درجة التشبع يصبح الاستراتيجية الوحيدة التي يعتمد عليها. والواقع، اثبتت التجربة ان الشيوعيين لديهم الفرصة في عمل ذلك فقوتهم تكمن في تجانسهم السياسي الكبير، وفي مزورتهم الفائقة. وهذان العاملان يجعلانهم غالبا هدفا صعبا للعمليات المضادة.

الجهاز العسكري:

ويعد الجهاز العسكري في كثير من بلاد أمريكا اللاتينية - شأنه في ذلك شأن الدول المتخلفة - القلب الصلب للحكومة، الذي لا يزال يلعب دورا كبيرا في السياسات. فكلما كانت الحكومة غير مستقرة، ازداد دور الجيش في العمل السياسي. لقد قامت الجيوش المختلفة في أمريكا اللاتينية لسنوات عدة بتنصيب رؤساء جمهوريات، والإطاحة بآخرين. وقبل الاستيلاء على السلطة يواجه الشيوعيون هذا القلب الصلب من تشكيل العدو. ولزمن طويل، اتبع الشيوعيون فكرة تجنيد عناصر مدنية كبيرة في البلاد لقلب الحكومة، ولكن تجربة كولومبيا، أشارت إلى الحاجة لاقترب من نوع جديد. وفي جواتيمالا أيضا، حصل الشيوعيون على النصر الأولى في الحكومة ورئاسة الجمهورية، ولكنهم لم

يستطيعوا الاحتفاظ بالسلطة. لقد كان تنظيمهم في جواتيمالا ضعيفا، ويفتقر الى العمق، ولم يكن لديهم الوقت الكافي للتغلغل في الجهاز السياسي القديم وفي الجيش، كما أنهم لم يحصلوا على الأسلحة الضرورية من الخارج، لخلق قوة ردع خاصة بهم يعتمد عليها.^(١)

وحتى إذا كان لديهم الوقت الكافي، فإن التغلغل في صفوف الجنود عملية لا تحل المشكلة. ذلك أن التجنيد في الجيش غالبا ما يكون من الفلاحين، كما أن عمليات النقل في الرتب الصغيرة تحدث كل سنوات قليلة. ومن ثم فإن تغييراً شاملاً للضباط الأصغر قد يحدث في مدى حقبة من الزمان. وهكذا فإن ما يعتمد عليه اليوم قد لا يصلح في المستقبل. وفي بعض بلاد امريكا اللاتينية، يجند الضباط غالبا من الشبان خريجي الكليات، والجامعات، وهؤلاء يعدون اهدافا صالحة للتغلغل. ولقد أدت عملية التثقيف الشيوعية إلى زيادة عدد الضباط الشيوعيين المجندين، سواء في الجيش أو الشرطة. وفي بلاد أخرى مثل البرازيل والأرجنتين بخاصة، كانت عملية تثقيف الضباط بعامة، تعد ذات فعالية في تحصينهم من الشيوعية.

وبالطبع فإن المساعدين الشيوعيين داخل الجيش يعملون في سرية مطلقة. وتكون خلايا الضباط منفصلة وسرية للغاية، ويظل تنظيم الضباط «هاجعا» إلى يوم القرار الحاسم. وهكذا فإن الضباط المنظمين فرديا أو جماعات، لا يفترض فيهم المشاركة في أي نشاط سافر موال للشيوعية إلى أن تصلهم التعليمات بذلك. ويكون واجبهم الرئيسي في فترة «الهجوم» ازاء الحزب، هو إمدادهم بمعلومات المخابرات عن الموقف داخل الحكومة.

الطلبة والمتعلمون:

تتغير هيئة الطلبة باستمرار في امريكا اللاتينية، شأنها في ذلك شأن الطلبة في كل مكان، وذلك بالرغم من أن الحزب الشيوعي يحتفظ بالسيطرة على جمعيات الطلبة من خلال رسميين ليسوا حقيقة طلبة، لكنهم رجال يبلغون من

* Ronald M. Schreider, Communism in Guatemala, 1944 - 54, New York, praeger 1959, pp 301 - 22.

العمر ٣٠ الى ٤٠ عام، وهؤلاء يدرّبون على الشيوعية لسنوات كثيرة. ونتيجة لعدم النضوج الاقتصادي في معظم دول أمريكا اللاتينية، فإن الأعمال الحرة لا تجتذب الأفراد والمتعلمين كما هي الحال في الولايات المتحدة، ومعظم دول أوروبا الغربية. ولهذا تسحب الحكومات عادة نسبة كبيرة من الأفراد ذوي المواهب، ويبدأ كثير منهم حياتهم السياسية في سن مبكرة، وهم لا يزالون طلبة في الكليات. وبالإضافة إلى ذلك، أصبح تقليدا في أمريكا اللاتينية أن يعمل الطلبة كقادة للحركات الإصلاحية الاجتماعية. فبينما يقوم الطلبة الأوروبيون بعمل رحلات على الأقدام، وممارسة لعبة السيف، وبينما يقوم زملاؤهم الأمريكيون بتكوين ثروات أو القيام بإغارات نهب أو التشويش على أكشاك التليفونات، فإن الطلبة في أمريكا اللاتينية يخرجون للشوارع ويسيرون المتاريس كشكل من أشكال المعارضة السياسية.

تنظيم العمال:

لقد بدأ الشيوعيون في أمريكا اللاتينية - كما يفعلون في أي مكان آخر بإنشاء الحزب والتغلغل في اتحادات العمال القائمة، وتنظيم اتحادات جديدة. ذلك أنهم في معظم المناطق خارج الستار الحديدي، يجدون الحزب الشيوعي واتحادات العمال التي يسيطرون عليها بمثابة الأدوات الرئيسة للغزو الداخلي. ولقد قامت بعض الانتخابات القوية في اتحادات العمال، حدثت من عدد الشيوعيين بها. ومع ذلك، فإن الاستيلاء القهري الشيوعي على اتحاد العمال الكوبي، قد يؤدي إلى ظهور جهود جديدة في هذا الميدان تحت رعاية الكوبيين الشيوعيين.

حرب العصابات:

وكانت حرب العصابات تقوم عادة في أمريكا اللاتينية لتحقيق أغراض سياسية، وذلك قبل أن يضع الشيوعيون أرجلهم بها لزمنا طويل. كانت حرب العصابات بها دائما بمثابة دليل لثورة. ففي أوائل العشرينات قام «اميليانو زاباتا» - ولم يكن شيوعيا قط - بقيادة ثورة الفلاحين في المكسيك تحت لواء «الإصلاح الزراعي». وفي فنزويلا قام «جوان فيسنت جوميز» بقيادة

الفلاحين، وزحف باسم الديمقراطية مكونا دكتاتورية استمرت ثلاثين عاماً حتى موته عام ١٩٣٥. وقام «لويز كارلوس بردليستس» - وهو كولونيل حينئذ في الجيش البرازيلي - بقيادة عمليات حرب عصابات من عام ١٩٢٤ - ١٩٢٧. وفي عام ١٩٦١ أصبح «كارلوس بدرستس» رئيساً للحزب الشيوعي البرازيلي. وكانت هناك محاولات جريئة من حرب العصابات في المراحل الأولى للتغلغل الشيوعي في أمريكا الجنوبية، وكانت إحدى هذه المحاولات انزال قوة حرب عصابات على نط «فيدل كاسترو» في فنزويلا عام ١٩٢٩ بقيادة «جوستافو ماشادو» الذي أصبح فيما بعد رئيساً للحزب الشيوعي الفنزويلي.

واستخدمت حرب العصابات بصورة أكثر جدية وأوسع نطاقاً، بعد مقتل «جورج ايلسير جايتان» عام ١٩٤٨، قائد جناح في الحزب الليبرالي الكولومبي. ولم يعرف من الذي دبر القتل، ذلك أن القتلة تم قتلهم فوراً. وفي وقت ما، كانت الحرب الثورية القاسية بين الليبراليين وبين المحافظين الذين كانوا يديرون الحكومة في ظل الرئيس «اوسبينا بيريز»، قد وصلت نقطة الغليان. كانت عملية الاغتيال هي الشرارة التي أشعلت الموقف المفعم ببارود سياسي، إذ كان كل طرف يرى احتمالات نشوب حرب أهلية.

وقام الشيوعيون، بحزب يتكون من عشرة آلاف عضو في شعب تعدادة حوالي أحد عشر مليون نسمة بالسيطرة على اتحاد الطلبة واتحاد العمال. وقبل مصرع جايتان مباشرة، كان الشيوعيون يستعدون لوضع قصة عدائهم لمؤتمر دول أمريكا، الذي كان سيعقد في بوجوتا. وثم اختيار وسيلة التظاهر ضد الولايات المتحدة، أما من الناحية الأيديولوجية والتنظيمية، فكان الشيوعيون الكولمبيون يستعدون لمظاهرة احتجاج كبرى، ولكنهم لم يكونوا على استعداد بعد لشن حرب أهلية.

وكان جايتان - الذي ساندته قوة صغيرة من الجناح الأيسر في حزب التحرر الكولومبي - متعاوناً مع الشيوعيين منذ أوائل الثلاثينات. وقد القي لوم مصرعه على المحافظين. وفي مدى عدة ساعات، انفجر نزاع عنيف بين

الأحرار والمحافظين، وساد سخط واسع في أنحاء كولومبيا، ولكن الشيوعيين حركوا فرقهم، وقاموا بمساعدة الأحرار اليساريين وعملوا على تحريضهم على الثورة. لقد قاموا بالاستيلاء على نقط استراتيجية هامة في المدينة، متضمنا ذلك رئاسات تنظيمات معادية. ثم بدأوا المناداة بثورة في الإذاعة.

ولكن الشيوعيين ارتكبوا خطأ واحدا كبيرا، ذلك أنهم اخفقوا في الاستيلاء على قصر رئاسة الجمهورية، حيث واجهوا منه مقاومة شديدة. ولم يتمكن الشيوعيون من التسلل بكفاية داخل الجيش، الذي استجاب إلى نداء الحكومة لانقاذ الموقف، ومن ثم استطاع الجيش سحق التمرد في عدة أيام. وخلال ذلك هرع الشيوعيون للانتفاع بمسألة مصرع جايتان... لقد اغفلوا درسا تعلموه في مدرسة لينين، أعني أن مجموعات حرب العصابات لا تستطيع وحدها أن تقهر جيشا يكن الولاء للحكومة. كما أن الشيوعيين لم يكونوا منظمين بدرجة كافية للسيطرة على العامة الذين فك عقلمهم نتيجة التمرد. والواقع أنهم شجعوا الغوغاء للعمل كمساعدين إضافيين دون أن يحدد لهم العمل. وكانت النتيجة أن كل لص وكل وغد، عاون نفسه في عمليات سلب المدينة وتخريبها. وبالرغم من أن احداث « بوجوتا » لم تتقدم وفقا لتعاليم الشيوعية، إلا أنه كان لها تأثير معاكس لمؤتمر دول امريكا.

ولم يمه سحق الثورة في بوجوتا الحرب الاهلية التي أشعلها مصرع جايتان، إذ فر كثير من المتمردين داخل الأراضي الكولومبية واعادوا تنظيم أنفسهم. وبدأت حملة دعاية لبث الكراهية، وقام الشيوعيون باعادة إذاعتها على الشعب، ثم عدلت الحملة فقامت مجموعة جايتان لمدى سنوات بالعمل على إعداد الجماهير للقيام بعمل ما. لقد كان جايتان ذاته استادا في عمليات الإثارة، وكان معبودا للجماهير، فساهم مصرعه في خلق عنصر انفعالي للانفجار. وهكذا، فإن الثورة بالرغم من سحقها في العاصمة، انتقلت إلى الريف. واستمرت الحكومة مسيطرة على المدن الكبرى، ولكن حرب العصابات انتشرت في المناطق الريفية لمدى عشر سنوات تقريبا. ووفقا لتقديرات الحكومة الكولومبية، فإن الحرب الأهلية كبدت الدولة خسائر في الأرواح قدرت بمئة الف. وبعد دكتاتورية « روجاس بينيلا » الشرسة، سويت الأمور بعقد وفاق بين العناصر الرئيسية في

الدولة عام ١٩٥٨. ومع ذلك فإن الفرق المتمردة التي يعتقد أن أغلبها كان يسيطر عليها الشيوعيون. انهمكت في أعمال السلب والنهب والقتل.

إن موقفاً مشابهاً للموقف الذي ساد في كولومبيا بعد ابريل عام ١٩٤٨، يعد مفيداً للشيوعيين، حتى لو كانوا أقلية في المجموعة الثورية الشاملة بالدولة. ذلك أنهم لم يبرزوا في تنظيم الأساليب فحسب، بل في حرب العصابات أيضاً. لقد رأى الشيوعيون أنه من الممكن عملياً تطبيق نموذج «ماوتسي تونج» الصيني في تنظيم قوة حرب العصابات من بين الفلاحين، للاستيلاء في النهاية على المدن الكبرى. وبعد حادث بوجوتا، لم يكن أمامهم بديل آخر. ذلك أنهم بكونهم حلفاء لجناح الأحرار اليساري، كان عليهم إما الاستسلام للمحافظين وإما الاستمرار في القتال بجانب الأحرار. وبالنسبة للقوة التي ظهرت في ائتلاف الصراع الطويل الذي نشب، ينبغي أن نقر بأن المقامرة كانت مغرية، إذ أنه لو تيسرت لهم المعونة مثل التي حصل عليها «ماوتسي تونج» من جارتها روسيا، لكانت فرصتهم للفوز كبيرة. وعلى أية حال فقد استمر الموقف في كولومبيا مضطرباً ومعرضاً للتغلغل الشيوعي.

الثورة الكوبية:

بالرغم من النجاح الجزئي الذي تحقق في كولومبيا، فإن مغامرات موسكو إزاء حرب العصابات في أمريكا اللاتينية لم تتوقف. فبينما كان القتال دائراً في كولومبيا، كانت موسكو تساعد في إعداد حرب عصابات أخرى موجهة إلى كوبا. كانت هذه المغامرة عبارة عن عملية غزو منظمة خارج البلاد بقيادة فيدل كاسترو، وهو كوبي مثقف، ذو مهارة سياسية غير عادية. ولقد بدأت العملية في المكسيك، حيث أقيم معسكر تدريب لإعداد قوة كاسترو الأولى تحت إشراف وقيادة «الفريد باتو»، عقل كاسترو والكولونل السابق في الجيش الإسباني، والخبير في حرب العصابات. ولا يعرف عدد الشيوعيين الذين كانوا يحملون بطاقة العضوية وتدريبوا في هذا المعسكر، ولكن المعروف أن عدداً منهم بما في ذلك أفراد القيادة الرئيسة، كانوا شيوعيين عقائديين. إن شي جيفارا، راول كاسترو، ارماندو هارت، كانوا وما زالوا شيوعيين. وينطبق الشيء ذاته

على « سليا سانشر »، « فيلما اسبين »، كان كل هؤلاء جزءا من القوة التي قامت بالزحف من المكسيك.

ولقد انصهرت فرقة كاسترو المكونة من الشيوعيين الراديكاليين، والاشتراكيين والمثاليين معا في بوتقة كراهية باتستا والولايات المتحدة. وما إن تم تدريب المجموعة حتى بدأ الغزو، ونجحت عملية النزول بالرغم من حدوث خسائر فيها؛ واستطاعت قوة حرب عصابات صغيرة أن تقيم في « سيرا مايسترا » وهي منطقة جبلية في شرق كوبا، بعيدة عن مراكز سلطة الحكومة في هافانا. ومن الواضح أن حكومة باتستا قللت من شأن هذه العملية، ولم تبذل جهدا جادا لتصفية كاسترو إلا في وقت متأخر.

أما في واشنطن، فإن الرسميين نظرا لعدم حساسيتهم بأساليب الحرب الثورية في أمريكا اللاتينية، ونظرا للمشاعر المضادة تجاه باتستا، فقد قبلوا زعم كاسترو بأنه غير شيوعي، ولم ينجحوا في تقدير مدى مساندة موسكو لهذه العملية. ولذلك استقبلت الصحافة الأمريكية المتمردين استقبالا طيبا، كذا مجلات أمريكا اللاتينية الربع سنوية التي تظهر في كل من نيويورك وميامي. وفي الوقت الذي كان يقترب فيه كاسترو من السلطة في يناير عام ١٩٥٩، كان ينظر إليه على أنه محرر الشعب. ولكن بعد مرور وقت كبير، تغيرت نظرة خصومه إليه، وبدا لهم أنه ماكر مخادع.

كانت وجهة النظر الرسمية لحكومة الولايات المتحدة في ابريل عام ١٩٦١ حول استيلاء الحمر على كوبا هي أن كاسترو لم يكن شيوعيا أو عميلا سوفيتيا قبل استيلائه على السلطة، بالرغم من أنه كان معروفا أن معاونيه الرئيسيين كانوا ايدولوجيا - ماركسين لينينيين. ولقد ناقشت النشرة البيضاء التي صدرت عن وزارة الخارجية الأمريكية حول كوبا هذا الأمر إذ جاء بها:

« ليس من الواضح عما إذا كان الدكتور كاسترو قد عمد منذ البداية إلى خيانة تعهداته إزاء كوبا الديمقراطية الحرة، حتى يلقي ببلده في أحضان الكتلة السوفيتية الصينية، وحتى يقوم بهجوم على النظام الأمريكي الداخلي، كما أنه ليس واضحا عما إذا كانت تعهداته الأصلية مخلصا، ولكن حينما تحمل

مسؤوليته الجديدة، وجد نفسه معتمدا في اضطراد على رجال حوله قساة القلوب مفعمين بأفكار واضحة ومنظمين في تنظيم جيد. إن المهم ليس الدافع، ولكن النتيجة هي الأهم ..

وبالرغم من أن كاسترو كان يزهو في ديسمبر من العام ذاته بأنه كان شيوعيا منذ عام ١٩٥٣ وأنه سيظل كذلك حتى يوم وفاته، إلا أن هذه المسألة تظل هامة، طالما أن نجاح الشيوعيين في كوبا وفي أماكن أخرى كان نتيجة جزئية لإخفاق الولايات المتحدة في إدراك من كانت تساندهم روسيا؟ وأي أنواع من الناس كان رجال كاسترو أو معاونيه؟

وهناك دليل معقول على أن كاسترو كان على اتصال وثيق بالنشاط الشيوعي على الأقل لمدى اثني عشر عاما قبل استيلائه على السلطة في كوبا. ذلك أن دوره كعميل سوفيتي في «بوجوتاز» عام ١٩٤٨ فضحه في ذاك الوقت «اوسبينا بيريز» الذي أصبح فيما بعد رئيسا لكولومبيا، كما ذكره أيضا «البرتو نينو» رئيس الأمن في كولومبيا وذلك في كتاب قيم له. كما ظهر كاسترو مرة أخرى في كتاب آخر عن «اعمال الشعب في بوجوتا» الذي ظهر عام ١٩٤٩، وذلك في صورة تقارير عن مراقبة كاسترو في بوجوتا عام ١٩٤٨، والتي قيل انها وزعت على الوفد الامريكى في ذاك الوقت في مؤتمر بوجوتا.

إن الأنشطة الشيوعية وانتساب فيدل كاسترو إليها في الاربعينات، قد شرحت بالتفصيل بواسطة سلفادور دياز - فيرسون، الذي كان رئيسا للمخابرات المضادة للرئيس «بريو» والذي أرسل للمنفى حينما استولى باتستا على السلطة، ولكن هذه المعلومات كانت قد طبعت بالاسبانية، ومن الواضح أن الخبراء الأمريكيين في شؤون أمريكا اللاتينية تجاهلوا. ولقد نشرت صور فيدل كاسترو في صحافة حكومة كوبا بالمنفى وهو يشارك تجمعات الشيوعيين في ذلك الوقت. وحينما اغارت الشرطة المكسيكية على معسكر تدريب كاسترو الثوري ورئاسته عام ١٩٥٦ ذكرت في تقريرها أن الحركة كانت تضم شيوعيين معروفين، وأن المعسكر قد تسلل اليه شيوعيون بدرجة كبيرة. ولقد حذر

* Testimony of Salvador Diaz - Version ibid, part, pp. 426 - 31.

السفراء الامريكويون وليم بولي، ارثر جاردنر، ايرل سميث، روبرت هيل
وزارة الخارجية الامريكية، من أن حركة كاسترو تسللت اليها قوى سوفيتية
بدرجة خطيرة، ولكن هذه التحذيرات نحت جانبا بواسطة الرسميين من
الصفوف الوسطى في واشنطن.

وبالإضافة إلى تسلل القادة المدربين إلى المتمردين، فإن موسكو أرسلت
الإمداد والأسلحة اليهم بما في ذلك جزء تم تهريبه داخل كوبا بواسطة الغواصات.
ولكي لا ينبه الولايات المتحدة بنشاطه، وخشية من إخفاق الحركة، ظل الاتحاد
السوفيتي في الخلف، ولم يبد أية دلائل على أنه يعاون كاسترو حتى أصبح
نجاحه واضحا.

إن الحقيقة بأن الحزب الشيوعي الكوبي لم يعاون كاسترو في بادئ الأمر،
عدّ دليلا على أن كاسترو لم يكن شيوعيا في الحقيقة، وأن حركته كانت
بالضرورة ضد الشيوعية حتى تم زحفه إلى موقع السلطة. وحينئذ استغل الحمر
الفرصة وانقضوا على السلطة. إن التحليل للصورة الكاملة يقودنا إلى خلاصات
مختلفة. كان الحزب الاشتراكي الشعبي - الحزب الشيوعي الكوبي قد أصبحت
معنوياته في انخفاض مضطرب نتيجة الانقسامات بداخله، ونتيجة تعذيب الشرطة
لقادته، وخضوعه الكامل لموسكو، وتحالفه مع باتستا لسنوات عدة. ولهذه
الاسباب اعتمدت حركة كاسترو على الجهاز السري السوفيتي، وعلى أولئك
الشيوعيين المثقفين من الشباب الذين لم يكتشفوا ويصبحوا عديمي النفع نتيجة
نشاطهم السافر في الحزب، كذا على القادة البارزين من الحزب الشيوعي مثل
«كارلوس رافيل رودريجويز»، الذي كان ثوريا واقعيا قادرا على تنفيذ
استراتيجية جديدة ومتابعها^(١) وبالإضافة إلى ذلك، فإن كوبا ليست المثل
الوحيد الذي تركت فيه قيادة الحزب الشيوعي المحلية الرسمية، دون أن تبلغ
بما يتعلق باستراتيجية السوفييت العريضة ازاء دولته وعلى سبيل المثال، فإن
الحزب الشيوعي السري قد ضحى به في المانيا في عامي ١٩٣٩ - ١٩٤١،
لصالح الجستابو في وقت كان ستالين يحاول باستماتة الاحتفاظ بتحالفه مع الرايخ
الثالث.

وأدت أعمال القمع التي قام بها باتستا خلال فترة التمرد إلى جعل كاسترو في

سييرا مايسرتا كالمغناطيس الذي جذب المعارضة المضادة لباتستا. وقد عجلت الأعمال الوحشية التي قام بها باتستا بسقوطه، وحولت التيار الشعبي إلى جانب المتمردين★

وقام كاسترو بدوره بتشجيع المعارضة المضادة لباتستا كي تنضم لجانبه وذلك بأدعائه بعدم انتائه أو ارتباطه بالشيوعيين. ومع ذلك فإن الجهاز بأكمله أعلن بصخب بعد هجوم كاسترو، أن ثورة كاسترو هي ثورته تقريبا.

وهكذا لعبت قوة صغيرة من حرب العصابات موالية للشيوعيين دور الوسيط للإستيلاء على دولة غير شيوعية تضم ما يقرب من ثمانية مليون من السكان، وتقع بجوار شواطئ الولايات المتحدة. لقد بدأت الثورة الكوبية المضادة لباتستا مثل أي ثورة قامت في أمريكا اللاتينية ولكنها تحولت إلى الشيوعية.

الخلاصة:

إن النجاحات التي حققها الشيوعيون عبر السنوات عديدة ولكن إخفاقاتهم أيضا كثيرة. كما أن قوة الشيوعيين التي نبتت غالبا من نشاط حقبات من الزمان تعد قوة مؤثرة، ولكن مع ذلك، فإن ضعف الشيوعيين أمر حقيقي وجوهري. وقصارى القول فإن أمريكا اللاتينية ما زالت أرض معركة للحرب الثورية الشيوعية. وحتى في كوبا، حيث حقق الشيوعيون تقدما كبيرا، لا تزال هناك وسائل كثيرة تستخدم في هذه المعركة. إن عمل حرب عصابات ناجح، يصاحبه خطاب شعبي مثير قد يكونان بديلين لفن الحكم. كما أن أزمة اقتصادية او سياسية قد تؤدي إلى غليان الموقف، وأن الثورة المرتجلة قد تبدو جذابة من خلال الدعاية.

إن أخطاء كاسترو تعكس خطأ شيوعيا جوهريا، هو البحث عن حل اجتماعي من خلال استخدام العنف. لقد أعاد كاسترو في كوبا كل العوائق التي واجهت البلاشفة في أيامهم الأولى، بل أنه ضاعف هذه العوائق في بعض

* Theodore Draper Castro's Cuba: A Revolution. Betrayed? the New Leader, March 27, 1961, p. 8.

الأوقات . فوفقا لتقارير معتمد عليها ، فإن مستوى المعيشة في كوبا كان في عام ١٩٦١ نصف ما كانت عليه كوبا قبل مجيء كاسترو* ويرجع تأزم الموقف الاقتصادي إلى اضطراب الشيوعيين الجبري إلى انفاق مبالغ ضخمة لبناء جيش ضخم وأداة شرطة ضخمة ، سواء لتوسعهم في المستقبل ، أم لتأمين أنفسهم داخليا . كما أنهم يبنون جهاز دعاية قوى ، ولكن في النهاية تستنفذ القوات المسلحة الجزء الأكبر من ميزانيتهم .

ومن بين المائتي ألف لاجيء كوبي الذين تركوا كوبا في عهد كاسترو ، كانت الأغلبية تمثل الطبقة المتوسطة ، وكانت إما متعاونة معه وإما متعاطفة . وكانت هذه الطبقة تضم زراعيين ذوي خبرة ، ومهندسين ، وفنيين ، ومديري أعمال ، واساتذة ، ومدرسين ، وأصحاب محلات وآخرين . وكان من بين المهاجرين أيضا مجموعة من العمال المهرة ، كما أن تقارير عام ١٩٦١ تشير إلى أن أعداد الذين وصلوا الى المنفى كانت تزداد باضطراب .

وبعداء كاسترو للطبقة المتوسطة التي كانت تضم عناصر الطبقة الجديدة «المجتمع الصناعي الحديث» ، أعني الطبقة المثقفة من الفنيين والمديرين - وهي أهم طبقة ضرورية لتنمية أي دولة- خسر المهارات اللازمة للانعاش الاقتصادي وتقدمه لسنوات كثيرة قادمة . على أن رحيل العدد الضخم من هذه العناصر الماهرة من كوبا ، هو في حد ذاته نكبة للاقتصاد الكوبي ، إن لم نذكر الخسارة في رجال صناعة السكر الامريكيين ، وفي الفنيين الذين كانوا يعملون في ميدان السياحة .

على أن نقط الضعف الأخرى في نظام كاسترو تضمنت اخطاؤه في وعوده بتوزيع الأراضي المزروعة على الفلاحين ، واخفاقه في المحافظة على وعوده إزاء اجراء انتخابات ديموقراطية . على أن من أسوأ نقط الضعف ، التي تقلق كاسترو ، هي قربه من الولايات المتحدة التي تمارس ضغوطا شديدة على النظام العسكري الكوبي . فإذا ما تحولت الولايات المتحدة إلى الحرب الثورية المضادة ، فإنها سوف تبذل أقصى طاقتها لتصفية كاسترو ، وتقويض النظرية الكاستروية ، والحط من

* Inter American Labour Bulletin.... April 1961, p 1

شأنها في أعين دول أمريكا اللاتينية .
على أنه من ناحية أخرى لا تتوانى موسكو في مد كاسترو بمساعدات اقتصادية ونشاط ومعونات من جميع الأنواع . ومعنى ذلك أن عليها أن تفعل ذلك من مسافة آلاف من الأميال ، ومن ثم تصبح عملية كوبا باهظة التكاليف لموسكو .

ولم يعرف بعدُ دور جهاز ماوتسي تونج في عمليات أمريكا اللاتينية الشيوعية . إن التدخل الصيني في المنطقة له تاريخ طويل . أن « ايدوكيو رافين » يعطي لنا بيانا كاشفا عن اجتماعاته بالشيوعيين الصينيين في موسكو عام ١٩٣٥ . حيث أصدروا اليه التعليمات بتطبيق الاستراتيجية الصينية وتكتيكاتها في أمريكا اللاتينية . وقد استطاع المتحدثون في الصين ان يتخذوا موقف المبادأة ، لأن ستالين كان قد قرر قبل ذلك بأيام قليلة - وفقا للكاتب الشيوعي الفرنسي « بيوس » - أن طريق النجاح في أمريكا اللاتينية كان طريق « بينان » الذي سبق شرحه . لقد هيأت الأحداث في كوبا دافعا كبيرا لمستقبل تطبيق هذه النظرية .

ولقد احتفظ الشيوعيون الصينيون ببعثة أساسية في كوبا ، وسرعان ما وسعوا تجارتهم وأنشطتهم الثقافية والدعائية والتخريب في كل أنحاء أمريكا اللاتينية . وتشير إذاعاتهم ذات الموجة القصيرة في جدلية غامضة ، إلى القادة المجدد داخل قارة أمريكا الجنوبية ، والى تخطيطهم الدقيق ، وأطاحهم بعيدة المدى .

الفصل الثالث

افريقيا أمل الحرب الثورية

تغلغل مبكر

قد يكون مخادعا ومضللا بل غير دقيق، أن نفكر في روابط السوفييت بالمسائل الأفريقية كظاهرة كاملة لعام ١٩٤٩. ذلك أن اتصالات بعض البلاشفة بدول المغرب العربي تعود مبكرا إلى منتصف العشرينات من هذا القرن، كما أن حزبا شيوعيا شرعيا قام في جنوب افريقيا في الفترة من عام ١٩٢١ الى عام ١٩٥٠، وقام الكومنترن - بعد الاتصال بهذا الحزب - باجتذاب ولاء بعض العناصر الوطنية. كذلك قام ثلاثة من الزعماء البارزين في جنوب افريقيا وغربها بزيارة الاتحاد السوفييتي في الفترة من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٣٠، وهم « جوميد، لاجوما، بادمور »، بل أن بادمور عمل بالاتحاد السوفييتي لفترة ما، ولكن الثلاثة زعماء اداروا ظهورهم بعد ذلك للاتحاد السوفييتي.

وعلى ما رأينا قبل فان للثورة في آسيا الأسيوية في باكورة أيام الكومنترن، فقد عمل عدد من الشيوعيين الأسيويين البارزين في الكومنترن، وهذا ما لم يفعله أحد من الافريقيين. هذا بالاضافة إلى تأسيس أحزاب شيوعية أسيوسنة، اصبحت أجزاء عضوية من الحياة السياسية لهذه الدول. وفي الثلاثينات، وفي سنوات ما بعد الحرب مباشرة، أصبحت الاحزاب الشيوعية في افريقيا المستعمرة، من مسؤولية الحزب الشيوعي السوفييتي.

وهكذا فإن تغلغل الشيوعية الدولية في افريقيا، كان يعد في ذلك الوقت

تغلغلا عابرا. ولكن الموقف تغير بعد الحرب العالمية الثانية، إذ ولدت دول جديدة، وحصلت معظم دول أفريقيا على استقلالها بسرعة فاقت تصور المراقبين السياسيين. ومع قيام الحرب الباردة بين قطبي المعسكرين، أدخلت موسكو دول أفريقيا في حلبة هذا الصراع، وإن لم تكن اعتبارات الحرب الباردة هي التي شدت السوفييت نحو قارة المفاجآت.

ولم يعزل زعماء أفريقيا عن نظريات الشيوعية وتجاربها، فمعظم هؤلاء الزعماء كان اهتمامهم كبيراً بالأفكار. وفي الوقت ذاته، أصبح التباين في المجالات العقائدية بين الصين والسوفييت إزاء الدول النامية أمراً واضحاً للعيان. وفي الواقع ليس هناك وفرة من المواد يمكن الاعتماد عليها لدراسة المنافسة بين السوفييت والصين إزاء تطبيقهم السياسات في أفريقيا. ولكن من ناحية أخرى لا يمكننا أن نغفل تلك الصدمات العقائدية، التي تكشف في المؤتمرات الآسيوية الأفريقية على مر الأيام.

تسهيلات البحوث

والحق ان التوسع السوفييتي في تسهيلات البحوث للمشاكل الأفريقية، كذا في ميدان النشر، قد بدأ فعلاً قبل موت ستالين مباشرة، ولكنه اكتسب قوة حقيقية منذ عام ١٩٥٥. ولقد بدأت هذه الدراسات في جامعتي موسكو وليننجراد، كذا في الأكاديميات العلمية في هاتين المدينتين. ولقد نبئت هذه الدراسات من الدراسات اللغوية والثقافية التي كانت قائمة في المدارس القديمة، والتي كانت مختصة بالدراسات العربية والآسيوية.

وكانت موسكو تركز على دراسة التاريخ والجغرافيا والدراسات الاجتماعية في أكاديمية العلوم، وكان ذلك يعني أن «الدراسات الحديثة» عن أفريقيا - سواء في علم الاجناس البشرية أم الخاصة بالدراسات السياسية أو الاقتصادية - يمكن تنميتها بسهولة ويسر. وتم إنشاء المعهد الأفريقي لأكاديمية العلوم في موسكو عام ١٩٥٩، وهو يشكل الآن مركزاً لأساتذة الجامعات، وللأبحاث الأكاديمية للعامل، الذين يولون اهتماماً ضخماً بالقارة الأفريقية.

وبدأت الصحيفة العلمية التي اطلق عليها «مشاكل الدراسات الشرقية»

Problemy Vestokovedeniya في نشر مقالات مضطردة حول افريقيا ، وقد اعيد تسميتها عام ١٩٦١ باسم « شعوب آسيا وأفريقيا Narady Azii I Afriki وكانت صحيفة «الشرق المعاصر» Sovrememy Vostok تغطي مسائل افريقيا ، وقد اعيد ايضا تسميتها عام ١٩٦٢ باسم « افريقيا وآسيا اليوم » Azia I Afrika Segadnya اما صحيفتي البرافدا والازفستيا ، فقد قامتا بتعيين مراسلين افريقيين لهما .

والواقع ان مضمون الدراسات الحديثة في افريقيا ومحتواها ، يعد من المسائل الهامة في الحرب الثورية الشيوعية . فالسوفييت المتخصصون في المسائل الافريقية . يرون أن مهمتهم هي تحليل الشروط الماركسية - اللينينية للعمليات المتشابكتين : بناء الأمة ، وتقويض الإمبريالية . وهم في سبيل تحقيق غايتهم يستخدمون الجدلية الماركسية ، والمادية التاريخية الماركسية ، ومذهب لينين في الثورة الايجابية ، وعمل ستالين في إصراره على تجانس الطبقة العاملة ، وتصور لينين للامبريالية .

ولقد اصبحت وجهات نظر السوفييت حول بناء الأمة في السنوات الأخيرة أقل تماسكا ، وسمحت بقيام إمكانيات الحوار المحدود . وكانت التعليقات الأولى عن المواقف الأفريقية التي ظهرت في صحيفة « شعوب افريقيا » Narady Afriki والتي تعد أول الأعمال السوفييتية الكبرى عن أفريقيا - قد تمسكت بتحليلات لينين للعناصر المكونة للأمة . كما كانت تحمل في أعطافها عداء ستالين المستحکم للبورجوازية الوطنية او لأى انحراف أو هرطقة من أى نوع . وهكذا ، ففي عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ ، قام الدكتور « بوتخين » مدير المعهد الأفريقي وزملاؤه - خلال مناقشتهم لمشاكل ساحل الذهب والسودان وأفريقيا الفرنسية - بإنكار مساهمة الزعماء الارستقراطيين التقليديين في الحركات الوطنية الأفريقية ، ونبذوا شكوكهم جانبا إزاء امكانية الاعتقاد على البورجوازية الوطنية أو المثقفين الوطنيين ، كمحررين نهائين لبلادهم من الاستعمار . ولقد أشاروا - مقتبسين من لينين - الى انه لا يمكن وضع الثقة في هاتين المجموعتين ، ذلك أنها في سبيل مصالحها الطبقية على استعداد ان يبيعا مصالح الوطن للامبريالية .

وقام الدكتور «بوتبخين» بخاصة، بالتركيز في كتاباته على حاجة أفريقيا - شأنها في ذلك شأن أى بلاد أخرى - لثورة الطبقة. وقد أولى اهتماما كبيرا بخلق «جنين مستتر» من البروليتاريا ليس فحسب داخل الحزام النحاسي والكونغو، وداخل صناعات الذهب والماس في جنوب أفريقيا، ومناجم نيجريا، بل أيضا داخل جماعات العمال الأفريقية التي هاجرت إلى جنوب أفريقيا وشرقها وغربها.

ولقد استمدت هذه الأفكار الجامدة، من التصورات الكلاسيكية لكل من لينين وستالين لمسألة الاستعمار الوطني. وقد تبع هذه التصورات، النظريون السوفييت، وزعماء الحزب والصحفيون خلال مواجعتهم للدول الأفريقية التي ظهرت، وفي مواجعتهم للزعماء الوطنيين. وحينما كانت موسكو تواجه واقعا للمسألة الأفريقية يختلف عن تصورها، كانت هذه الأفكار تتعرض لتعديلات ما هنا وهناك.

لينين والإمبريالية:

على أن لينين كان يرى أهمية قصوى في إيقاظ كثير من المناطق المستعمرة، ونجد في بعض أعماله بوجه خاص انها تشير الى ان ذلك يعني بداية عصر جديد في تاريخ العالم. ولقد قام لينين بصياغة شكل السياسة الشيوعية المستقبلية إزاء المستعمرات وشبه المستعمرات في الدولية الشيوعية الثانية (مؤتمر الكومنترن) الذي عقد في بتروجراد «ليننجراد» وموسكو عام ١٩٢٠، وقد حضر هذا المؤتمر ممثلون عن كثير من الدول المستعمرة.

وقال لينين في المؤتمر: «إن ميزان القوى في العالم قد انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التي أصبحت في درجة من الغنى تمكنها من شراء أى شيء، ولكن لم يعد هناك شيء لتبتاعه. لقد حان الوقت كي تقوم ثورة عالمية. ومن الممكن تنفيذ ذلك بكفاءة كبرى من خلال الاتحاد الثوري للدول التقدمية مع.... الجماهير الثورية المضطهدة في جميع المستعمرات وجميع دول الشرق ويعتمد ذلك علينا حتى نرى أن هذا الاتحاد مدعما.

قيام لينين بوضع خطة الحزب

ومن الواضح أن لينين وهو يعدل العقيدة الماركسية، أوحى بأنه من الممكن لبلد ما أن يمر مباشرة من مرحلة الاقطاع أو شبه الاقطاع الى مرحلة الشيوعية، دون المرور خلال مرحلة الرأسمالية، وذلك إذا قامت البروليتاريا في الشعوب الرأسمالية الأكثر تقدما بمد المعونة له بعد حصوله على السلطة. ونتيجة الافتقار للبروليتاريا في المناطق المستعمرة، فإن صراع العمال الزراعيين ضد استغلال ملاك الأرض هو الأساس الذي يمكن ان ينشأ عليه تنظيم من الكادحين، حتى في البلاد المتخلفة». وأضاف لينين مؤكدا: «في مثل هذه البلاد من الممكن إنشاء سلطة سوفييتية. وفي قوله هذا إشارة لبداية حملة من الإخضاع تهدد دول العالم النامي.

وبقيام لينين بوضع خط الحزب، قرر مؤتمر الكومنترن الثاني أن تقوم جميع الأحزاب الشيوعية بمعاونة حركات التحرر الثورية في البلاد المضطهدة، حتى لو كانت تحت قيادة عناصر بوجوازية - ديموقراطية.

ولقد لخصت صحيفة ازفستيا بتهليل كبير نتائج مؤتمر الكومنترن الثاني، إذ جاء بها: إن عالما جديدا يستيقظ ويصارع للحياة - عالم القوميات المضطهدة - التي كانت تدخل في ادراكنا تحت أسم الشرق. وهنا لا نجد شعوب آسيا فحسب، بل نجد أيضا شعوب أفريقيا وامريكا... وحينما تصل أنباء قرارات مؤتمر الكومنترن الثاني إلى مئات الملايين من الهنود، والصينيين، والزنج، وأهل الملايو، وباقي الشعوب المضطهدة الأخرى فإنها ستكون بمثابة بشائر سعيدة لهم. وأيضا كنداء لصراع جديد أكبر من رأس المال الذي يستغلهم... الحقيقة بأن الدولية الشيوعية كانت أول من حمل علانية لواء الصراع، ونادى تحت هذا اللواء جميع الشعوب المضطهدة، والبروليتاريا المنظمة».

ومن المؤكد أن قرارات المؤتمر عجلت بدرجة كبيرة من الاتجاه الوطني بين الشعوب المستعمرة، الذي أصبح واضحا في الحقبة الأولى من هذا القرن. وكما قالت صحيفة ازفستيا: «فإن هذا يعد أول مرة يرفع فيها لواء الصراع» للتحرر الوطني خارج المناطق المستعمرة.

القوة الدافعة للسياسة والدعاية الشيوعية

على أن معاونة الحركات التحررية حتى لو كانت تحت قيادة عناصر بورجوازية وطنية، ينبغي أن تضرب مع «أسلوب ينان» الذي سلف الإشارة إليه وقد قام لينين بمعاونة بعض الزعماء الحمر بتوضيح أن الشيوعيين - بعيدا عن التنكر بلباس الوطنيين البسطاء - كان عليهم أن يرهنوا بأنفسهم أنهم «شيوعيون أصلاء»، بأمل تجميع العناصر المختلفة للأحزاب البروليتارية المستقبلية، وتعليمهم قتال الاتجاهات البورجوازية - الديموقراطية في أوطانهم الخاصة. وينبغي على الدولية الشيوعية أن تكون مستعدة لإنشاء علاقات مؤقتة، وحتى تحالفات مع البورجوازية الديموقراطية للمستعمرات وللدول المتخلفة. ولا ينبغي بأية حال الاندماج معها، بل ينبغي أن تحتفظ بالطابع المستقل للحركة البروليتارية.

بداية نشاط الشيوعيين الأيديولوجي في افريقيا

منذ عقدين من الزمان أو أكثر بقليل، بدأ الشيوعيون نشاطهم الايديولوجي في افريقيا من الصفر. وبحلول عام ١٩٦١، كانت الكتلة الشيوعية قد عينت ما يزيد عن خمسين منصب دبلوماسي في افريقيا. وكانت روسيا قد أقامت علاقات دبلوماسية مع ثلاث عشرة دولة أفريقية، كما أقامت الصين علاقات دبلوماسية مع ست دول. وصاحب ذلك نشاط إذاعي شيوعي وجه إلى افريقيا، وبلغ عدد ساعات إرساله ٣٨٠ ساعة أسبوعيا، باللغات الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية والسواحلية والعربية والأمهرية. وكانت الصحف الأفريقية تنشر دعاية الشيوعيين التي يوزعونها. وكان هناك ما يقرب من عشرين مراسل شيوعي يقيمون في ثمان دول أفريقية، كما كان هناك ما يزيد عن ١٢٠٠ طالب أفريقي يدرسون في جامعات الكتلة الشيوعية، كان من بينهم عدد كبير يدرس بمنح دراسية هياها لهم الاتحاد العالمي للشباب الديموقراطي، وله خمسون فرع أفريقي تقريبا. وكان الشيوعيون المتعاطفون يتغلغلون في إتحادات التجارة الأفريقية، كما اقيمت احتفالات الفيلم الشيوعي في عدة دول أفريقية، وعجت القارة الأفريقية بمجموعات الألعاب الرياضية والثقافية. ففي عام ١٩٦٠، كان هناك

ما لا يقل عن خمسمائة من الوفود الدبلوماسية والاقتصادية والعمالية والثقافية تتجول ما بين القارة والعالم الشيوعي .

وفي عام ١٩٦١ وصلت قيمة القروض والمساعدات الشيوعية - فيما عدا مصر - ما يقرب من ٣٠٠ مليون دولار، بينما بلغ عدد الفنيين المصاحبين للمعونة حوالي ألف فرد . ولم تكن هذه المساعدات أقل بكثير من تلك التي كان يمنحها الغرب لدول أفريقيا خلال ارتباطه الطويل بدول القارة . وفي الواقع ، كانت معظم هذه المساعدات مجرد منح على الورق، وكان على الدولة المستدينة تسديدها ، ولكن مساعدات الغرب كانت اعتمادات حقيقية وكان معظمها لا يسدد . وبالرغم من ذلك فقد نجح الشيوعيون عن طريق الدعاية في التدليل على كرمهم إزاء هذه الشعوب .

ولقد قامت الدول الشيوعية وعلى الأقل الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له ، بالارتباط ببعض العلاقات الوثيقة مع بعض الدكتاتوريين العسكريين ، والملكيات التقليدية ورؤساء القبائل المتخلفة ، الذين يتوقع منهم أن يسمحوا بانتشار الشيوعية في بلادهم .

وقام الشيوعيون بالتركيز الى درجة كبيرة على استغلال مرارة أفريقيا المضادة للاستعمار ، كذا التمييز العنصري وبخاصة في الولايات المتحدة . وحاولت الشيوعية أن تظهر أن مصالح الشيوعيين والأفريقيين متشابهة . لقد شعر الشيوعيون أنه بتنكر أفريقيا للغرب ، سوف تخلق فراغا اقتصاديا وسياسيا في القارة الأفريقية ، يمكنهم من شن هجوم أيديولوجي في الخارج على مستوى كبير . إن هدفهم هو ملء الفراغ ، وتطويع عقول الملايين من الأفريقيين غير الناضجين سياسيا ، الذين عانوا من الاستعمار لآلاف السنين ، لإرادتهم . وبينما تجذب ديناميكية الصناعة الشيوعية الزعماء الأفريقيين ، فإن أعمال الشغب المضادة للاستعمار ، والمذابح بين القبائل ، والفوضى الاقتصادية منحت الحمر فرصة واسعة للتغلغل .

وبخلاف الاستغلال الاستعماري ، فإن العنصر الأساسي في التفجير الوطني الذي يعاون الشيوعية ، كان يكمن في السخط العميق للمجموعات الصغيرة

النامية من المتعلمين وأنصاف المتعلمين، الذين وجدوا أنفسهم مشدودين بين عالمين غير متساويين.

عوامل التنافس بين موسكو وبكين:

وفي تحركها نحو النفوذ، فإن موسكو وبكين لا تتنافسان مع الغرب فحسب بل يتنافسان أيضا فيما بينها. ويرى كثير من المراقبين أن الصين قد تكون متمتعة بشعبية بين شعوب أفريقيا أكبر مما يتمتع به الاتحاد السوفيتي، ذلك لأنها من ناحية، لا تنتمي إلى الجنس الأبيض المرتبط بمرارة الاستعمار الأوروبي لشعوب هذه الدول، ومن ناحية أخرى هناك دوافع نفسية، ذلك أن حوالي ٢٠٪ من سكان أفريقيا يعتنقون الدين المسيحي، الذي يرى الأفريقيون أنه دين الاستعمار، بينما يعتنق أكثر من ٤٠٪ الدين الإسلامي. أما الباقي فما زالوا وثنيين. ومن ثم نجد أن الأفريقيين من الناحية النفسية يشعرون بتعاطف أكبر نحو قوة أسيوية كبرى مثل الصين الشيوعية.

هذا بالإضافة إلى أن الصين الشيوعية أظهرت اهتمامها النشط بعد وصولها للسلطة بسنوات قليلة، بينما تأخرت موسكو حوالي ٤٠ سنة. ففي عام ١٩٦٠، أنشأت بكين جمعية صداقة صينية - أفريقية، وبدأت في الإعداد لإنشاء معهد للشئون الأفريقية.

على أن تفوق جهود الصين في أفريقيا يمكن أن يلاحظ من خطواتها النشطة في استخدام دعاية الإذاعة. ففي عام ١٩٦١ كانت الصين تذيع إلى القارة الأفريقية بالإنجليزية أكثر مما قامت به موسكو، بالرغم من أن الأخيرة كانت تفوقها في مجموع الإذاعات.

ومن ناحية أخرى لا تستطيع الصين بطبيعة الحال أن تنافس روسيا الأكثر غنى، ولكن المساعدات التي تقدمها يخطط لها كي تنتج أفضل النتائج الدعائية العملية. وتعتقد الصين الشيوعية أن سياسيات المعونة السوفيتية، لا تساعد على خدمة الغايات الشيوعية، فموسكو تمنح المعونات على صدى واسع تقريبا إلى كل حكومة أفريقية تقبلها، على أساس النظرية التي ترى أن الدولة المستلمة للمعونة سوف تجبر على التمسك بالبقاء محايدة، إن لم تتخذ موقفا مضادا من

الغرب. ومن ناحية أخرى لم يمنح الروس سوى معونات محدودة للمجموعات المعارضة في أعمال التمرد ضد الحكومات القائمة، حتى لو كانت هذه المجموعات يسارية الطابع، إذ كانت تفضل أن تمد نفوذها بصورة غير مباشرة من خلال السياسيين الموجودين في السلطة، بغض النظر عن وجهات نظرهم الأيديولوجية. وما لم تكن معارضة الثوار تتمتع بمساندة شعبية واسعة، وما لم تكن موجهة من الشيوعية - وهو أمر لا تسمح به الظروف السائدة في إفريقيا البدائية - فإن السوفييت يرون أن منح المعونات الضخمة لهذه المجموعات الثائرة يعد بمثابة تبديد لميزانيتها

وعلى العكس، ترى الصين الشيوعية أن المعونة التي تمنح للحكومات المضادة للشيوعية تذهب هباءً لأن المستلمين لن يخدموا القضية الشيوعية مهما حصلوا على أي قدر من المعونات. ولكن المعونة التي تذهب إلى الشيوعيين المنشقين، أو المجموعات التي تتسامح مع الشيوعية، فمن المعتقد أنها تخدم كغرض مفيد، على الأقل تحافظ على استمرار الحروب المحلية، وإثارة الكراهية السياسية، وخلق جو من الفوضى، وهي ظروف كلها ضرورية لتثبيت دعائم الشيوعية.

ومع ذلك فقد واجهت بكين إحدى الصعوبات نتيجة قيام الصين الوطنية بوضع أقدامها في أفريقيا، ذلك أنها كانت تحتفظ بسفارات في ست عشرة دولة أفريقية، أساساً في المستعمرات الفرنسية السابقة، كما قامت بإرسال بعثتين زراعتين إلى الكنجو وجابون، وتشاد، وداهومي.

وفي محاولة الكتلة الشيوعية التسلل في السنوات الأخيرة إلى القارة، وجد الشيوعيون أن استراتيجيتهم تواجه عراقيل لها مظاهر أخرى، ذلك أن نعمة الدعاية «ضد الامبريالية»، كانت تبدو متطرفة في أعين الدول الأفريقية التي تحررت، وكان معظم هذه الدول يرغب في الاحتفاظ بروابط اقتصادية وثقافية مع المستعمرين السابقين، بالرغم من الذكريات الأليمة لحكمهم السابق. كما أن رغبة معظم الأفريقيين في اتخاذ موقف الحياد في الحرب الباردة - على الأقل ظاهرياً - أدّى إلى الإضرار بصالح الغرب والشرق على حد سواء. فموسكو على سبيل المثال، لم تجد سوى قلة من المؤيدين الأفريقيين حينما بدأ امداداتها

وفنيوها يتدفقون في الكونغو تحت حكم باتريس لومومبا، ولم يجد لومومبا إلا أقل عدد من الأفريقيين المؤيدين، حينما طالب بانسحاب قوات الأمم المتحدة من الكونغو، واستقالة همرشولد سكرتير عام الأمم المتحدة الراحل، وتوزيع سلطة الأمم المتحدة، وهي اجراءات صممت على أساس تمهيد الطريق للتسلل الشيوعي في أفريقيا ومناطق أخرى.

الدول الأفريقية والشيوعية:

وبعد أن حصلت دول أفريقيا على حريتها من إحدى صور الاستعمار، كانت الدول المنبثقة حديثا حذرة في علاقاتها مع كل القوى الكبرى، وكانت على استعداد أن تستعير من الشرق الشيوعي بقدر ما تستعيره من الغرب الرأسمالي، مع ميلها الأكبر في الاتجاه نحو الاشتراكية ونحو مذهب السلطة. ولكنها لم تكن مستعدة كي تخضع بصورة مطلقة لأي فلسفة غربية، وبخاصة تلك التي تتطلب الإدانة بالطاعة إلى قوة أجنبية. ومن الواضح أن الشيوعية تخضع لمثل هذه الفلسفة.

ويدرك الشيوعيون أنفسهم هذا العائق، إذ جاء في «الشيوعي الأفريقي» - وهي دورية ينشرها شيوعيو جنوب أفريقيا في لندن حديثا عن الزعماء الأفريقيين، نقتبس منه ما يلي:

«إن ما يوجه قيادتهم يرتبط بمصالح طبقة الأقلية الخاصة، وليس بمصالح الجماهير. وغالبا فإنهم ضيقو الأفق، تغلب عليهم النعرة القومية والقبلية، ويفتقرون إلى الرؤية البعيدة. وهم عادة انتهازيون ويميلون للموامة مع الاستعماريين، للحصول على مكاسب قليلة على حساب التضحية بالمبادئ، لأنهم يخشون الأنشطة الثورية لجماهير العمال وسكان الريف».

على أن هناك صعوبة نسبية تواجه الشيوعيين، نتيجة افتقار أفريقيا إلى صفوة شيوعية مدربة تدريباً جيداً، كي تقوم بتنظيم السياسة والدعاية الشيوعية وتوجيهها، وهو موقف نتج إلى حد كبير من قلة اهتمام روسيا بأفريقيا حتى زمن حديث. كانت موسكو تركز معظم جهودها إلى إخضاع أوروبا وآسيا، معتبرة أفريقيا أنها بعيدة إلى حد ما عن المراكز العصبية الشيوعية، وقريبة نسبياً إلى

سيطرة القوى الاستعمارية، مما يتطلب جهداً باهظاً كي تتسلل موسكو إلى أفريقيا. وفضلاً عن ذلك، لم يكن هناك سوى عدد قليل من الأفريقيين الذين حصلوا على تعليم كافٍ قبل الحرب، يمكنهم من الإمساك بتعقدات الفلسفة الماركسية، كما أن المثقفين الذين برزوا ينتمون إلى فئة المواطنين الذين لم يقبلوا أن يلعبوا دور «الدمية» للاتحاد السوفييتي.... كذلك لم يكن ستالين مستعداً للتعاون مع البورجوازية الوطنية.

وفي الوقت ذاته، كان الاتحاد السوفييتي ينظر إلى أفريقيا على أنها كيان جغرافي وليس جزءاً من مشكلة سلالية كبرى. لقد أساء الروس تقدير النفسية الأفريقية، وظنوا أن الأفريقيين كانوا يدركون أنهم فقط مجرد أعضاء في الجنس الزنجي، وليسوا أعضاء في مجموعة وطنية خاصة. وفي سبيل معاونة فكرة «الحركة الزنجية العالمية»، قام الكومنترن بتأسيس عدة لجان زنجية في العشرينات والثلاثينات، ولكنها لم تضم أي أفريقيين سود. ولقد ضمت إحدى اللجان التي انشئت عام ١٩٢٨ اثنين وثلاثين عضواً من الزنوج، منهم خمسة من الولايات المتحدة، ولكن الممثل الأفريقي الوحيد كان من بيض أفريقيا الجنوبية، وقد طرد من الحزب لتعصبه للبيض.

كذلك ضمت اتحادات العمال الدولية الشيوعية «البروفينترن» لجنة زنجية خاصة، ولكنها أخفقت في غزو أفريقيا، حينما اصطدمت خطتها الخاصة بإرسال شيوعيين من أمريكا وجنوب أفريقيا إلى أفريقيا الاستوائية بالقوى الاستعمارية. وفي عام ١٩٣٠ حضر عدد من الممثلين عن المستعمرات البريطانية - ساحل العاج، جامبيا، سيراليون - مؤتمراً للعمال الزنوج في هامبورج تكفل به البروفينترن. وقام الشيوعيون الألمان والفرنسيون بتنظيم عصبة زنجية في الموانئ الكبرى لفرنسا. ولكن النفوذ الشيوعي بصفة عامة في أفريقيا، وبخاصة في جنوب الصحارى كان ذات أهمية قليلة.

وحتى بعد الحرب العالمية الثانية، قال اندرية زادنوف أحد اقرباء الزعماء السوفييت في عام ١٩٤٧ أمام جلسة افتتاحية للكومينيفورم: إن أفريقيا كانت جزءاً من «مؤخرة النظام الرأسمالي». وبمعنى آخر، فإن موسكو لم يكن لديها أية نية لمعاونة الزعماء الوطنيين من الطبقة الوسطى، الذين أرادوا مجرد إنشاء

دول رأسمالية لحسابهم الخاص. ولما لم يكن هناك أحزاب شيوعية في أفريقيا
السوداء كي تقود الثورات المضادة للاستعمار، فإن الكرملين لم يبذل جهداً
لإثارة ثورات بعد الحرب، كما حدث في آسيا حيث توافرت هناك أحزاب
منضبطة.

ولكن بعد موت ستالين، سرعان ما شعرت أفريقيا بتأثير «الاستراتيجية
اليمنية» التي وضعها خلفاؤه، بينما تحولت البورجوازية الوطنية الرجعية
السابقة فجأة الى «التقدمية». وفي عام ١٩٥٥ قبل البروفسور «بوتخين» -
على عكس العقيدة الشيوعية - فكرة احتمال حصول أفريقيا على استقلالها
بوسائل غير ثورية. وعلى ما قال بوتخين فإن مشاركة الأفريقيين في حكومات
ساحل العاج ونيجريا والسودان تمثل تنازلات هامة من جانب الاستعماريين.
وأضاف قائلاً: «إن القوى الاستعمارية آملت أن تستخدم الطبقة المتوسطة
الأفريقية كعنصر استقرار، ولكنها أخفقت لأن البورجوازية الوطنية كانت
عنيفة في معارضتها للامبريالية... إن موسكو ينبغي أن تستغل شعور العداء
المشترك للشيوعيين والوطنيين ضد الطبقة الحاكمة الغربية».

وقد ظهر بوضوح اهتمام روسيا الجديد بأفريقيا في برنامج تدريب عدد
متزايد من الخبراء الأفريقيين. وقبل هذا الوقت، لم يكن هناك سوى تجمعين
صغيرين للأفريقيين في الاتحاد السوفييتي، أحدهما أفتتح عام ١٩٤٥ تحت اسم
إدارة الدراسات الأفريقية تحت إشراف معهد الأجناس البشرية في ليننجراد،
والثاني انشئ عام ١٩٥٠ كإدارة مشابهة تحت إشراف معهد العلوم الشرقية. ومع
ذلك فقد تم عام ١٩٥٨ تأسيس مركز علمي في العلاقات الدولية والاقتصاديات
العالمية بموسكو، وفي عام ١٩٦٠ تم تشكيل معهد أفريقيا تحت إشراف البروفسور
بوتخين، ضم خمسين خبيراً روسياً في شؤون أفريقيا. وكانت مهمة المعهد أن
يعد مجموعة من الأخصائيين ذوي مستوى عال من المعرفة في الشؤون الأفريقية.
ويقوم المعهد بشكل محوم بدراسة الاحتمالات الثورية في أفريقيا، كما يقوم
بتدريب كوادر صغيرة على «استراتيجية اليمين» وفقاً لتطبيقاتها في أفريقيا،
وذلك عن طريق فروع الأربعة: تاريخ أفريقيا، اللغات الأفريقية، الفن
الأفريقي، وأخيراً الأدب والثقافة والأحداث الخارجية. وتم إعداد الطلبة

المتازين للقيام بمهمة التدريس لخبراء المستقبل. كما أنشئت في موسكو عام ١٩٥٩ جمعية صداقة سوفيتية مع الشعوب الأفريقية، وكانت تنمي علاقاتها مع مجموعات أفريقية مختلفة، أساسا في المجالات العلمية والثقافية والأدبية والفنية تحت قيادة البروفسور بوتخين.

وبالرغم من أن «استراتيجية اليمين» فتحت الباب إلى نفوذ الكتلة الشيوعية، فإن الشيوعيين واجهوا صعابا عدة في أفريقيا: وكانت هذه الصعاب تكمن في جهودهم الجبارة لإنشاء نوع من أحزاب الصفوة، تمكنهم من السيطرة على أفريقيا بواسطة الكوادر التي ينشئونها.

ويعتمد الشيوعيون في ذلك على بعض الطلبة الذين يدرسون في بعض الدول الشيوعية كي يصبحوا عملاءهم الموثوق بهم. ولم تنشأ المشكلات التي واجهت الشيوعيين من مدى تقبل الطلبة لقبول المنح الدراسية، بل على العكس كان عدد الطلبة المتقدمين يفوق عدد الأماكن المتاحة لهم، كما أن كثيرا منهم كان يفضل الدراسة في المعسكر الشيوعي عن الدراسة في الولايات المتحدة.

ويرجع هذا إلى ميولهم اليسارية أكثر من ردها إلى سياسة الكتلة الشيوعية إزاء نفقات الإقامة وتكاليف الدراسة. ففي الولايات المتحدة، كان كثير من الطلبة الأفريقيين حتى الحاصلين على منح دراسية لا يجدون من الأموال ما يكفيهم حتى لتناول طعام مناسب. ووفقا لتقرير من وزارة الخارجية الأمريكية أعد للرئيس كينيدي في أكتوبر من عام ١٩٦١، فإن عددا من الطلبة الأفريقيين الذين كانوا يدرسون في الكليات الأمريكية، أصبحوا في حاجة ماسة إلى ما لا يقل عن ٥٠٠,٠٠٠ دولار كمعونة عاجلة. ولم يكن لدى وزارة الخارجية المال، فطلبت تدبير هذا المبلغ بواسطة مؤسسات خاصة. وأصبح موقف الطلبة عسيرا، إذ ضاعت طلباتهم ما بين الحكومة والمؤسسات الخاصة، الأمر الذي أدى إلى انتحار بعض الطلبة الذين فضلوا الموت عن العودة إلى بلادهم دون الحصول على المؤهل المناسب. وهكذا كان الطلبة يتساءلون عن قيمة الحرية الفردية في أمريكا التي تؤدي إلى حد الجوع!

وعلى عكس ذلك قارن الطلبة بين هذا الموقف، وبين النظام المنظم في

التعامل مع الطلبة الأجانب في الكتلة الشيوعية. لقد سرهم بخاصة إنشاء جامعة الصداقة في موسكو، والتي اعيد تسميتها «جامعة باتريس لومومبا» بعد مصرعه، والتي خصصت كلها للطلبة الوافدين من الدول النامية.

وفي افتتاح الجامعة في اكتوبر عام ١٩٦٠، شدَّ خروشوف مشاعر الطلبة في حفل ترحيب بقوله: «ليس لدى الاتحاد السوفيتي سوى هدف واحد، هو مساعدة البلاد الأخرى بتدريب رجال ذوي مؤهلات عالية. إننا لن نفرض آراءنا على أي طالب. إذا أردتم أن تعرفوا وجهات نظري، فإنني شيوعي، وأظن أن الماركسية اللينينية هي أكثر الأيديولوجيات تقدما. فإذا قرر بعض منكم أنها تناسبكم ايضا، فإن ذلك يسعدنا، ولكن لن يصيبنا الاكتئاب إذا لم تفعلوا ذلك.»

ولكن سرعان ما تحقق الطلبة من الغرض الحقيقي للجامعة، وذلك حينما أعد لهم السوفييت ترتيبات الإعاشة، اذ أقام كل ثلاثة طلاب في غرفة واحدة، متضمنا ذلك طالبا روسيا في كل مجموعة. وكان من المفروض أن يقوم الطلبة الروس بمساعدة الطلبة الأجانب في تعلم اللغة الروسية، ولكنه اتضح للطلبة في وقت قصير أن مهمة الطلبة الروس الأساسية كانت تثقيفهم أيديولوجيا.

وحينا اشتكى طالب طب أفريقي بأنه لم يحضر إلى موسكو لهذا الغرض أجاب المدرس: «إنني أعرف ذلك، ولكن ليس لدي الاختيار، إذ ليس أمامي إلا أن أودي عملي وفقا للأوامر التي تلقيتها.»

ولقد وقع طالب نيجيري يدعى «انتوني أوكوتشا» فريسة لطرق التثقيف الشيوعي. وقد شرح هذا الطالب لصحيفة الصنداى تلجراف ما قام به أحد المدرسين الروس، نفتبس منه ما يلي:

«لقد دأب على تفسير الفلسفة اللينينية الماركسية، وعلى شن هجوم بلا هوادة على المسيحية. لقد أعلن أن مهمتنا في أفريقيا هي أن نتعلم كيف ننظم جبهة شعبية ونلقي بالامبرياليين النهائيين في المحيط.» واستمر المدرس في طريقته لمدة ثلاث ساعات. وبالرغم من ضعف لغته الانجليزية، وبالرغم من حركاته الكوميديّة، فإنه نجح في التأثير على كثير من الطلبة، الذين قالوا لي فيما

بعد أنهم شعروا بالعار من خلفيتهم الديمقراطية الغربية. وشعرت بالغم، وبخاصة لهجومه على المسيحية... ولكن المدرسين سرعان ما ينجحون في تحويل إنسان منطقي إلى العقيدة الشيوعية!

وبصراحة، فإنني وزوجتي في مدى ثمانية أسابيع من وصولنا إلى موسكو، كنا على استعداد كي نعلن حرباً شاملة على الديمقراطية الغربية. لقد استوعبنا أساسيات الماركسية - اللينينية من أعماقنا. كما تعلمنا أن نكره ما يكرهه الروس، وأن نحب ما يحبونه... لقد شاهدت مائتي طالب يعرضون كيف ينسفون جسراً وقطار سكة حديد، ومنزلاً، وأهدافاً أخرى كثيرة.

وعرض على فصول الطلبة كيف تلقى قبلة يدوية وسط الزحام، وكيف يقتل رجل في لحظة بصر بمنجرجر، وكيف يمكن شن هجمات مفاجئة أثناء الليل!

«... وبمساعدة الاتحاد السوفييتي لم يعد الأمر أكثر من مسألة وقت قبل أن تصبح نيجريا دولة شيوعية. لقد توقعوا الكثير من زوجتي ومني. ذلك ان زوجتي وهي شقيقة الحاكم العام، يصبح في مقدورها أن تتسلل في الدوائر الحكومية، وتعرف بعض أسرارها. وفي الوقت ذاته، يصبح من واجبي أن أدرب أعضاء مختارين للحركة القومية في أساليب طب العرافة. ولقد ذهلت حينما وجدت أن خططهم تضمنت أعمال الاغتيال والإرهاب والإحراق المدمر، والعنف، وكل أعمال الشعب التي يمكن تصورها.»

ولقد أصيب هذا الطالب وغيره بحيبة أمل، وانحرفوا عن الحركة الشيوعية، وعملوا على مقاومتها فيما بعد!

مواءمات مذهبية

على أنه في الفترة ما بين نهاية عام ١٩٥٤ وانعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي العشرين في يناير - فبراير عام ١٩٥٦، اهتزت التصورات الجامدة. ونتيجة التغير في الخط داخل الاتحاد السوفييتي ذاته، أصبحت الكتابات السوفييتية عن الدول الأفريقية المنبثقة، أكثر مواءمة مع العالم الجديد الذي تتعامل موسكو معه. ذلك أن مؤتمر باندونج الذي ضم الدول الأفريقية الآسيوية المستقلة عقد في أبريل عام ١٩٥٥، وكان «لروح باندونج»، والمبادئ الخمسة للتعايش التي

تمخضت عنه، أثر في خط موسكو السياسي، وقامت الصحافة السوفيتية بالتركيز في جميع مقالاتها تقريبا على الدول الجديدة التي انبثقت في آسيا وأفريقيا.

وأجريت ثلاثة تعديلات مذهبية بواسطة النظريين السوفيت وبعض الصحفيين، تصرفت على أساسها القيادة السوفيتية في حالات معينة. أولى هذه المواءمات كان الاعتراف بسلامة الثورة الوطنية، أعني الثورة التي تقوم بها البورجوازية الوطنية المتعلمة. وأما الثانية، فهو الإقرار بعامة أن انجاز الاستقلال السياسي كان في حد ذاته علامة هامة لتقدم الدولة على طريق الثورة الاشتراكية، واقترح أن تمر فترة هدوء طويلة قبل الانتقال إلى الخطوة التالية. وتجيء المواءمة الثالثة لتقرر أن النزاع المسلح قد لا يكون ضرورة لأي حركة تحرر وطني.

وفي برنامج الحزب الشيوعي لعام ١٩٦١، أضيف اصطلاح جديد، أعني «الديموقراطية الوطنية». وقد صمم بخاصة ليقابل احتياجات الدول الجديدة، التي كانت قد اختارت خطأ غير رأسمالي إزاء التنمية. ولقد أعطى هذا التصور صدارة مناسبة في الصحف السوفيتية، وفي كل المناقشات المتعلقة بأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وقامت «البرافدا» بوصف هذا المفهوم في مقال صدر في يونيو عام ١٩٦١، تحت عنوان «أيدولوجية الاستعمار الجديد» نقتبس منه ما يلي:

«إن الأحزاب اللينينية - الماركسية، في الدول الصغيرة بآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، تنشئ خلق ديموقراطيات وطنية. كما أن الأساس السياسي لمثل هذه الدول هو كتلة تضم جميع القوى الوطنية التقدمية التي تصارع في سبيل ضمان الاستقلال الوطني، وتوسيع قاعدة الديموقراطية، واستكمال الثورة الديموقراطية ضد الامبريالية والاقطاع.»

على أنه في سياق محاربة الإمبريالية لم يتحول الكتاب السوفيت أو زعماء الحزب إلا قليلا عن أفكار لينين. فاليوم لا يجذب الكتاب السوفيت أو المتحدثون باسم الحزب الشيوعي السوفيتي، أي احتمال لنقل السلطة عن طريق

التفاوض، وهم يتمسكون بأن الامبريالية سوف تأفل بموت الرأسمالية، التي يجعل بموتها تنافس القوى الاستعمارية، الذي ظهر بعد الحرب العالمية الاولى. وهم يصرون على أن ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ هي التي تمثل نقطة التحول الحاسمة لأفريقيا وليس على سبيل المثال ميثاق كندا عام ١٨٦٧، أو دستور استقلال الهند عام ١٩٤٦، أو مؤتمر برازيل لعام ١٩٤٦ الخاص بالأراضي الأفريقية الفرنسية، فهذه لا يمكن أن تكون غير نقط تحول في تغيرات أخرى. وفي الكتابات السوفييتية عن أفريقيا، يعد نمو قوى دول حلف وارسو بمثابة ضمان للدول الحرة المنبثقة من ظل الاستغلال الإمبريالي القائم اليوم، وليس على سبيل المثال قيام الأمم المتحدة. وفي التغيرات الواضحة في خريطة العالم التي جرت في الفترة ما بين عام ١٩١٥ وعام ١٩٦٣، اتخذ الدور الذي لعبه حزب لينين إزاء تطور الامبراطورية البريطانية إلى دول الكومنولث، أو إزاء تطور أفريقيا الغربية الفرنسية وأفريقيا الاستوائية الفرنسية الى سلسلة من الدول الافريقية المستقلة الناطقة بالتعبير الفرنسي، صدارة اولى.

مواءمة للموقف المعاصر

وفي سياق المواءمة للموقف المعاصر، أو بمعنى آخر وفقا للاستقلال السياسي والوضع الدولي للبلاد التي استعمرت من قبل، فإن النظرين السوفييت وسعوا أفكار لينين لتصبح مذهب «استعمار اقتصادي» أو «استعمار جديد»، ينص على أن الاستقلال السياسي بدون الاستقلال الاقتصادي ليس إلا مجرد وهم. وهم يصرون على أن الاستقلال الاقتصادي في المستعمرات السابقة والبلاد النامية الضعيفة، لا يمكن أن يتم إلا من خلال قطاع قوى للاقتصاد والأمن، عن طريق التصفية السريعة أو التدريجية للشركات الأجنبية، والمصالح المالية الأجنبية. ومع أن هناك بعض الاقتصاديين السوفييت الشباب الذين يتعاملون مع الدول الأفريقية المنبثقة - على استعداد لمناقشة مزايا الاقتصاديات المختلفة وعيوبها، فإن النصيحة السوفييتية الدائمة للدول الحديثة حول السياسات الاقتصادية، تكمن في قطع العلاقات المالية مع البلاد العالمية القديمة، لوقف نشاطها التجاري، ومحاولة البدء في استخدام نماذج جديدة للتجارة. وعلى

سبيل المثال، وجه السوفييت نقدا لاذعا شديدا إلى السوق الأوروبية المشتركة، كما أن الصحافة السوفييتية ملأت أعمدها بمثل هذه المناقشات والتعليقات حول أفريقيا. هذا بالإضافة إلى أن الإذاعة السوفييتية الموجهة إلى الدول الأفريقية مفعمة بهذه المواد. لقد بدأت هذه الإذاعات بصورة هادئة عام ١٩٥٨، وكان مخصصا لها خمس عشرة دقيقة إذاعة يوميا باللغة الانجليزية والفرنسية. ولكن بحلول عام ١٩٦٣، وصل مجموع الساعات التي تذاع في الاسبوع إلى ١١٥ ساعة، وقد تضمنت بعد ذلك استخدام اللغات السواحلية والصومالية والهوسا، والعربية والاطالية. وربما كان الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥١ أسرع من الأحداث في تفهمه: إن العشرين سنة التالية سوف تكون حاسمة في أفريقيا. وقد شك الكرملين في احتمال إزعاج الوضع المكتسب لقوى الغرب، بواسطة استخدام مثيرات أيديولوجية. ومن ثم سعت موسكو في البحث عن فرص للعمل الاقتصادي والسياسي المباشر، وأسرعت في تنفيذه وفقا للظروف المتطورة في أفريقيا.

وكانت هذه الأنشطة عرضية، غير متواصلة في ظروف أخرى، ولكنها أصبحت بالتدرج جهدا ثابتا يجذب إليها الطبقة التي كانت في دور التكوين.

أفريقيا وسياسة الاحتواء:

ولنتساءل: هل يبدو ممكنا أن تفلت أفريقيا من سياسة الاحتواء الخاصة بالأحلاف مثل حلف بغداد أو حلف جنوب شرق آسيا؟ من الطبيعي لا يمكن الاجابة عن هذا التساؤل في كلمات ولو كثيرة، ولكن يمكن أن نقول إن الكتابات السياسية الاقتصادية السوفييتية عن أفريقيا، تطرقت إلى موضوعات يمكن ان نضعها تحت عنوان «تحالفات القوى الامبريالية». إن هذه التطورات تعد تقريبا عائقا لأي تحليل منطقي لاحتياجات أفريقيا وأسبقياتها.

الحبشة

ولكن إلى أي مدى نجح الاتحاد السوفييتي في محاولاته لجذب البلاد الأفريقية إلى وضع منحاز؟ أعتقد أننا يمكن أن نبدأ بالحبشة كدولة تمتعت في التاريخ بأطول مدة من الاستقلال، وكبلد كان يرتبط بالسوفييت بروابط

رسمية بعيدة. ذلك أن الاتحاد السوفييتي أعطى للحبشة معونات معنوية وصحفية، حينما قام الايطاليون بغزو الحبشة عام ١٩٣٥. وفي عام ١٩٤٣ قامت علاقات دبلوماسية رسمية بين البلدين، وظلت قائمة حتى اليوم دون أن تصادفها عمليات مدّ أو جزر. وفي عام ١٩٥٦، رفع التمثيل بينها إلى درجة سفارة، كما وقعت اتفاقيات تجارة ومعونة.

ولقد هياً الوجود السوفييتي في أديس أبابا طوال هذه المدة الطويلة قاعدة لنشر الأدب الروسي، كما سمح بفرصة التجنيد للطلبة الأثيوبيين لحضور دراسات في موسكو. ولكن يبدو أيضا، أن هذا الوجود هياً أرض تدريب لسلوك الزعماء السوفييت ورجال الحكومة السوفييتية، ذلك أن الحبشة كانت قد تم اختيارها كنموذج للتعايش مع الدول التي تختلف أنظمتها الاجتماعية والسياسية، وكأمل للنفوذ الشيوعي في المستقبل، وقد تم ذلك.

علاقة غانا مع موسكو

وكانت علاقة موسكو مع غانا، تشكل نموذجا تكرر مع اختلافات معينة في عدد من الدول الأفريقية التي استقلت حديثا لقد أصبح ساحل الذهب دولة غانا المستقلة في مارس ١٩٥٧، وقامت أول حكومة لها برئاسة كوامي نيكروما. ولقد وصف الدكتور بوتخين عام ١٩٥٥ حزب نيكروما - حزب المؤتمر الشعبي - بأنه ستار للامبريالية البريطانية، وكان هذا قبل قيام موسكو مباشرة بتغيير اتجاهها إزاء الزعماء الوطنيين.

ذلك أن موسكو اعترفت بالدولة الجديدة اعترافا دبلوماسيا، وعقدت معها اتفاقية اقتصادية عام ١٩٥٨، كما منحتها تسهيلات فنية وثقافية في فترات متتالية. وافتتح السوفييت عام ١٩٥٩ مفاوضات سوفييتية في أكرا تضم خمسة وسبعين فرداً، كما أنشأت مركزا ثقافيا بعد سنتين لاحقتين. وقام الرئيس نيكروما بزيارة الاتحاد السوفييتي في صيف عام ١٩٦١، حيث استقبل بحفاوة كبيرة. ولقد قضى هناك وقتا مناسباً، حيث قام بدراسة التطور الاقتصادي والاجتماعي. وأصبحت غانا محطة للأسطول التجاري السوفييتي، كما افتتح خط الطيران بين موسكو وأكرا عن طريق الرباط وكوناكري في سبتمبر عام ١٩٦٢.

ولو اقتفيننا. أثر العلاقات الغانية - السوفييتية الاقتصادية في الفترة من عام ١٩٦٠ - ١٩٦٥، لاستطعنا أن نرسم ميزانا مؤقتا . كانت تجارة غانا مع الاتحاد السوفييتي - التي كانت تعتمد أساسا على تصدير الكاكاو - تشكل ٤٪ من حجم تجارتها الخارجية. ولقد تسلمت غانا قروضا وصلت إلى ما قيمته أربعين مليوناً من الدولارات، كما قامت غانا بشراء ثماني طائرات اليوشن لقواتها الجوية وأسطولها الجوي التجاري. ولكن المعاملات المالية لم تكن في الواقع مرضية، فمثلا بعد مشاورات طويلة ومناورات، أعادت غانا أربع طائرات اليوشن إلى مورديها على أساس عدم الحاجة إليها، واتجهت إلى بريطانيا لتسلم منها طائرات بريطانية. وقام السوفييت بإنشاء مزرعتين من مزارع الدولة، وعهد إلى إسرائيل بإنشاء مزرعة ثالثة.

ولكن غانا سارت في اتجاه الاقتصاد المخطط، واعتمدت في برامج تدريبها على التجارة والمعونة الفنية من كل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة وبعض البلاد الأخرى غير الشيوعية، وبخاصة ألمانيا الغربية واسرائيل. واستمرت غانا في إيفاد مجموعات مناسبة من الشباب إلى الاتحاد السوفييتي، ليحضروا دورات تعليمية وتدريبية في جميع المجالات، وتضمنت هذه البعثات ضباطا أصاغز من الجيش.

ولكن في ديسمبر عام ١٩٦٣، أدى موت طالب طب غاني كان يدرس في كالينين، إلى إثارة احتجاج جماعي بواسطة الطلبة الغانيين الذي كانوا يدرسون في موسكو، بالرغم من أن الحكومة الغانية حاولت أن تهدئ من الموقف. ومع انه كان لغانا مجموعات من المدرسين والفنيين السوفييت الذين عملوا بها بعقود قصيرة، فقد قبلت في الوقت ذاته أفرادا من فيلق السلام الأمريكي، وطالبت بالمزيد في عام ١٩٦٣. وفي هذا العام أغلق مركز الثقافة السوفييتي في أكرا. على أنه مها كانت علاقات نيكروما بخروشوف، سواء كانت عميقة دائمة أم انتهازية عرضية، فإن نفوذ خروشوف على نكروما ظل باقيا حتى النهاية. وفي زيارات نيكروما للاتحاد السوفييتي كان بيندي إعجابه بالحزب الشيوعي السوفييتي، على أنه أفضل الأشكال التي يمكن أن تحكم دولة متعددة الأجناس

والقوميات، كما أبدى إعجابه بالخطة الاقتصادية الواحدة الشاملة. ولقد تبع نيكروما كثيرا من مظاهر النظام الجماعي كما رآها في الاتحاد السوفييتي، وبخاصة تنظيم الشباب ومدى نشاطه في تحقيق أغراض الدولة، ولكنه مع ذلك لم يدخل في صراع الحرب الباردة، بالانحياز إلى أي جانب من المعسكرين، كما أنه لم يدخل الديموقراطية الوطنية في حكم بلاده.

القضية السوفييتية الغينية:

أما القضية السوفييتية الغينية، فانها تصور بعض المميزات الخاصة للعلاقات السوفييتية - الغينية. ذلك أن موسكو اعتنت بغينيا وقدمت لها قروضا فور إعلان نتائج الاستفتاء الشعبي لعام ١٩٥٨. كذلك قامت موسكو باستيراد كل محصول غينيا من الموز، حينما قطعت فرنسا علاقتها التجارية مع غينيا في الشهور الاولى من انفصالها، كما تم توقيع اتفاقية اقتصادية ثنائية جديدة. واتفاقية قروض في اغسطس من عام ١٩٥٩. وقدم السوفييت تسهيلات تعليم عال في موسكو للغينيين، وذلك قبل إنشاء جامعة الصداقة في غينيا. وقام الرئيس سيكوتوري بزيارة موسكو وليننجراد في ديسمبر عام ١٩٥٩ وسبتمبر عام ١٩٦٠، واستقبل بحفاوة بالغة. وحصلت غينيا على عدد كبير من الفنيين وخبراء النقد من الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية. ووصلت تجارة غينيا مع الاتحاد السوفييتي عام ١٩٦٠ حوالى سبعة في المائة من حجم تجارتها الخارجية، وتعد هذه أعلى نسبة تجارية ظهرت في دول أفريقيا مع السوفييت عدا مصر.

لكن العلاقات بين البلدين شابهتا التعثر والاضطراب، ذلك أن غينيا طلبت من السفير السوفييتي أن يغادر البلاد على أساس أن السفارة السوفييتية استخدمت في عمليات تدخل داخلي. كما أن غينيا قامت بسحب مجموعة من الطلبة الغينيين في موسكو، وجرت مناقشة كبرى حول زيارة ميكويان لغينيا، قبل أن يعاد تجديد اتفاقية التجارة.

على أنه من الصعب أن نجزم بما إذا كان الرئيس أحمد سيكوتوري قد تبني الأيدولوجية اللينينية - الماركسية. لقد أعلن بإصرار أنه ينظر إلى الدين

على أنه مصدر الحياة، وأن النظرية تقوم بخدمة المواطنين وليس أي اتجاه آخر . كذلك كرر مرارا أن غينيا ينبغي أن تضع سياستها الزراعية على أساس نظام ملكية الفلاح للأرض، ووفقا للتقاليد النابعة من التربة الغينية. لقد أبدى سيكوتوري اتجاهه قبل أن يصبح رئيسا للدولة، وذلك في مؤتمر « كوتونو » الخاص باتحاد عمال أفريقيا الغربية، الذي عقد في يناير عام ١٩٥٧ بقوله «إننا يجب أن نضع على أعيننا نظارتنا الخاصة» .

إن تجارة الموز والكاكاو تعد مظهرا نموذجيا لتجارة معظم الدول الأفريقية، أعني أنها تعتمد على تصدير إنتاجها الزراعي ذي المحصول الواحد. ولقد قام السوفييت بعرض الشراء لكل المحصول، الأمر الذي أغرى الدول اقتصاديا، وبخاصة تلك التي تعتمد على محصول زراعي واحد أو محصولين. وأخيرا، فإن الاتحاد السوفييتي، ما لم يحسن أسلوب الدفع، وما لم يعرض سلعا جيدة للتبادل، فإن هذا الأسلوب من التجارة سوف يسبب اخفاقا للدولة البائعة مثلما حدث لبعض دول آسيا من قبل. ولكنه كان في بادئ الأمر إجراء مغريا، خدم هذه البلاد في بداية حصولها على استقلالها.

على أن خطط تثبيت الأسعار العالمية للمنتجات الأولية لها الأسبقية الأولى في اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة الخاصة بأفريقيا، بل كانت من أهم المشكلات العملية العاجلة أمام المؤتمرات التي عقدتها الدول الأفريقية. وكانت هذه الاحتياجات تغلف أساسا في تجارة الكاكاو، فقامت موسكو بشراء الكاكاو من غينيا، وازدادت عمليات الشراء تدريجيا سنة بعد أخرى، ولكنها وصلت في النهاية الى طريق مسدود.

التجارة مع الحبشة والسودان:

وتضمنت تجارة السوفييت مع الحبشة والسودان شراء الجلود، كما حصلت على البن من تنزانيا. وفي الواقع كانت عمليات الشراء هذه مفيدة للدول المصدرة وبخاصة في الأيام المبكرة، إلى أن قام في هذه البلاد اقتصاد مرن متنوع، وفي الوقت ذاته عقدت موسكو اتفاقيات ثنائية مع الدول المنفردة.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن السبيل الوحيد لتدعيم فرص الاختيار

الاقتصادي وتقليل ظروف الانحياز السياسي. هو حل المشاكل الأولية للدول المنتجة. ذلك أن هذه المشكلات سوف تجبر هذه الدول على الارتقاء في احضان الدول الكبرى التي تحصل على إنتاجها من المحصولات.

وفي الوقت ذاته، لا نستطيع من خلال بحثنا للتجارة الشاملة للسوفييت في أفريقيا، أن نجزم بأنها أفضل من تجارة الدول العالمية القديمة مع الدول الصغيرة المنبثقة حديثا.

نفوذ موسكو في المناطق غير المستقرة

ولننتقل إلى مكان آخر وتساءل: وماذا عن العلاقات السوفيتية ونفوذ موسكو في المناطق التي كانت تنتابها نزاعات بناء الدولة مثل أفريقيا الشرقية البريطانية وأفريقيا الوسطى، والكونغو، وأنجولا، وموزمبيق، وغينيا البرتغالية، وأخيرا اتحاد جنوب أفريقيا؟

أظن أن التقييم العملي يعد أفضل السبل لتلخيص ظروف منطقة بعد أخرى، وبخاصة كمجموعات أفريقية، وكإجراء للاتفاق على السياسات الأفريقية الداخلية التي تربط هذه الدول. كذلك فإن هذا الاقتراب العملي من المسألة، قد يلقي الضوء على النقاط الهامة المتعلقة بمجموعات الوحدة الأفريقية. ولكن مثل هذه الدراسة يتطلب أولا تقريراً عن تأثيرات الدعاية والأنشطة التي قامت بها منظمات الجبهة الشيوعية، سواء في أفريقيا، أو كبؤرة تجمع لمؤتمرات دولية تجذب المشتركين من دول أفريقيا، كما تتطلب المساندة الفعالة من البلاد الشيوعية للنزاع المسلح.

إن المصاعب الكبرى أو التشوش الذي اكتنف إزاحة القوى الامبريالية في المجتمعات المتعددة الأجناس لا تحتاج إلى تفسير، بل لا يمكن أن ننكر أن وجهات نظر الكتاب السوفييت حول تصفية الامبريالية - التي لا تدخل فيها امبريالياتهم بالطبع - تكمن في نشر أيديولوجيتهم وتقويض الثقة في الدول العالمية القديمة. وفي الواقع كان لهذه السياسة أثر كبير في تمزيق العلاقات بين الدول الأفريقية والدول الغربية الكبرى.

كانت المواقف الأفريقية في حد ذاتها غير متوازنة، كما أن أوضاع المفاوضين

المعتدلين لم تكن مضمونة. لقد اتضح أن مجموعة تتبنى مذهبا معيناً أو تحمل شعارات ما، وتتمتع بهيبة عالمية يدعمها مؤلفات رخيصة والمال، تستطيع أن تعجل في خلق أزمات في جميع أنحاء المعمورة، وبخاصة في البلاد التي لم تنضج سياسيا بعد. ولكن مثل هذه النكبات لم تحدث في شرق أفريقيا فيما عدا مأساة الماوماو التي لا تدخل في هذا النوع من العمليات - نتيجة ذلك، ولكنها حدثت نتيجة المكانة الشخصية الكبيرة للزعماء إزاء حركات الاستقلال، ونتيجة تحفظ المملكة المتحدة التي ادعت أنها تبحث عن حل ما.

وجاءت صحافة السوفييت وإذاعاتهم الموجهة لأفريقيا حول موضوعات أفريقيا الوسطى وشرق أفريقيا ضيقة غير مدروسة، ولا سيما خلال المؤتمرات الدستورية الحقيقية حول شرق أفريقيا، أو خلال فترة لجان تقصى الحقائق حول أفريقيا الوسطى. وأدخل النزاع على الشريط الساحلي لكينيا وعلى الحدود الصومالية، كذا النزاع الدستوري بين حزب الاتحاد الأفريقي الوطني «الكانو» وحزب الاتحاد الديمقراطي الأفريقي «الكادو» في طاحونة الدعاية السوفييتية. كذلك قدمت موسكو الاعتمادات المالية وتسهيلات أخرى لتكون تحت تصرف السياسيين.

وبدأت القلاقل مبكرة عام ١٩٦٤ في الدول الأربع الأفريقية المشكلة لشرق أفريقيا، وذلك بنشوب ثورة في زنبار، أظهرت علامات عدم الاستقرار والقدرات الممزقة للدعاية غير الماهرة. ففي الحادي عشر من يناير عام ١٩٦٤ أطاحت قوة عسكرية بحكومة سلطان زنبار، واستولت على السلطة جماعة تتكون من عبيد كرومي زعيم حزب الافروشيرازي، عبد الرحمن بابو من حزب الأمة وهو حزب ماركسي صغير - والمارشال «اوكيللو» وهو مواطن أوغندي تدرب في مدرسة حرب العصابات في هافانا، وخدم كمراسل صحفي لوكالة أنباء الصين الجديدة. وكان تحت قيادة «اوكيللو» سبعائة مقاتل مسلح قيل إنه قام بتدريبهم في كينيا. وكان عبد الله جانجا نائب كرومي له اتصالات مع موسكو، كما أن زوجته وهي أمريكية زنجية، كانت تعمل تحت رئاسة بروفيسور بوتخين في المعهد الأفريقي بموسكو.

وأعلنت الحكومة الجديدة قيام « جمهورية زنبار الشعبية » التي اعترفت بها فوراً كل من الصين وكوبا والاتحاد السوفياتي. كما ان بريطانيا وألمانيا الغربية ودول غربية أخرى اعترفت بالدولة الجديدة بعد ابداء تردد قصير.

وفي العشرين من يناير، تمردت كتيبتان بنادق من جيش تنجانيقا، وطردت الضباط وضباط الصف البريطانيين، ونشبت أعمال الشغب في دار السلام. وبعد مرور يومين سادها الهدوء، طلب الرئيس نيريري من حكومة بريطانيا معونة عسكرية، كي يعيد النظام والقانون في البلاد. وقام نيريري بتسريح جيش تنجانيقا، ثم قال في مؤتمر صحفي عقده في اليوم التالي، أن فترة الطوارئ قد انتهت. ولكن أعمال الشغب نشبت يوم ٢٣ من يناير بين وحدات البنادق الأوغندية، فقامت القوات البريطانية ببناء على طلب « اوبوتي » رئيس الحكومة بفض أعمال الشغب، وتسريح المشاغبين. وفرض رئيس الحكومة رقابة على الصحف، ولكن السخط انتشر الى القوات الافريقية في كينيا يوم ٢٤ يناير، وهنا قامت أيضاً القوات البريطانية ببناء على طلب من كينيا بفض أعمال الشغب، وتأجلت زيارة شواين لاي المقترحة لتنجانيقا. وطالب الرئيس نيريري أن تتم مناقشة الموقف في شرق أفريقيا بصورة عاجلة في منظمة الوحدة الافريقية. وصدر قرار يؤيد إجراء الحكومات المختصة في طلب المعونة البريطانية.

اتحادات العمال ومنظمة الصحفيين الدولية

وكانت منظمة الجبهة الشيوعية التي تعد أنشطتها الخطر المحتمل الأكبر في معظم الدول الأفريقية الحديثة، تتدثر برداء الاتحاد العالمي لنقابات العمال الأحرار WFTU الذي قام بإثارة الاستياء في مؤتمرات تنظيماً العمال، ودافع عن وجهة نظر استخدام المنازعات العمالية كسلاح سياسي. ولقد اختلفت قوته ومهامه الظاهرية في شرق أفريقيا عن غيرها. ففي الأولى، حاول الاتحاد فصل الاتحاد عما كان يطلق عليه خبير سوفييتي عبارة « تقاليد الاصلاح الاجتماعية لوحدة العمال البريطانيين ». وكان اتحاد العمال الكيني قوة قوية تساند « مبويا » زعيم الكانو، في صراعه للحصول على الاستقلال. أما في السودان فقد

تطورت اتحادات العمال في ظل الحكم المشترك، وكانت تكوّن جزءاً كبيراً في حركة الاستقلال، وقد تم توحيدها في «الجهة المعادية للامبريالية». وبعد تشكيل الحكومة العسكرية عام ١٩٥٨، استمرت الاتحادات كإحدى مراكز المعارضة الرئيسية. وفي عام ١٩٦١، قام اللواء عبود والمجلس الأعلى بجل اتحاد عمال السكك الحديدية، مما أدى إلى قيام حركة إضرابات واسعة.

وفي غرب أفريقيا كان الصراع الكبير في سبيل حصول الشيوعيين على ولاء «الاتحاد العام لاتحاد أفريقيا السود» «UGTAN» من أهداف الاتحاد العالمي لنقابات العمال الأحرار. وكانت الاتحادات المجاهدة القوية في أراضي أفريقيا الغربية الفرنسية قد استعادت مراكزها السياسية، وأصبحت بمثابة الاتحادات المعترف بها في البلاد. وفي مؤتمر «كوتونو» الذي عقد عام ١٩٥٧، كذا في سلسلة الاجتماعات المتتالية، حيث تم تأسيس الاتحاد العام لعمال أفريقيا السود، انقسمت الآراء بين الأعضاء المشتركين حول الانسحاب من فروع اتحادات العمال خارج أفريقيا، متضمناً ذلك الاتحاد العام لنقابات العمال الأحرار.

ولم تسو هذه الخلافات، واستمر نفوذ الاتحاد العالمي يهيء نشاطاً لا بأس به للشيوعيين، بين الاتحادات المختلفة القائمة في دول أفريقيا.

وللشيوعيين تنظيم جبهة آخر هو «منظمة الصحفيين الدولية»، التي استجمعت قواها في أنشطتها في أفريقيا في عام ١٩٦٣، ١٩٦٤. ومع ذلك فقد واجهت في عام ١٩٦٣ نكستين على الأراضي الأفريقية في كل من كوناكري، وداكار. وكان تشكيل «اتحاد الصحفيين الدولي» في هذا العام بواسطة أولئك الذين لم يقبلوا أخلاقيات منظمة الصحفيين الدولي، قد هيأ احتمالات تبادلية لعقد اتفاقات ومؤتمرات للصحفيين الذين يخدمون الصحف الأفريقية.

ولما كانت أفريقيا منذ أوائل الخمسينات مركزاً للأنباء الساخنة - ومن المحتمل أن تظل كذلك لسنوات عدة - فإن الاتصالات مع الصحفيين من جميع أنحاء العالم سوف تؤثر على اتحاد الصحفيين الدولي، سواء كان هذا التنظيم يعمل حقيقة من الأراضي الأفريقية، أو من مكان آخر.

موقف السوفييت من النزاع المسلح

وفي مواقف النزاع المسلح ، فإن مساندة الدول الشيوعية الفعالة تعطي صورة عامة غير مقنعة ذلك أن الاتحاد السوفييتي فيما عدا عملية الكونغو العقيمة ، كان مترددا في التوسط بشكل سافر في الحرب الفعلية في ثلاث مناطق رئيسة ، كانت تدور عليها رحي حرب داخلية منذ منتصف الخمسينات .

ففي الكاميرون قام الاتحاد السوفييتي بمعاونة « اتحاد الكاميرون الشعبي » ، ولكنه لم يشترك في حرب العصابات الممتدة ، كما أنه اعترف رسميا بالرئيس « اهدوجو » كرئيس للدولة ، وذلك قبل أن يتحد مع الكاميرون البريطاني عام ١٩٦٢ . وفي الجزائر قدمت موسكو معونة صحفية للثورة الجزائرية وبعض إمدادات طبية وترفيهية ، ولكنها لم تمدها بأي سلاح أو رجال مدربين . ولقد عجل خروشوف بالاعتراف بعباس فرحات في صباح توقيع اتفاقية « افيان » .

على أن البرافدا السوفييتية قامت فيما بعد ونشرت أن موسكو أمدت الثورة الجزائرية بالأسلحة السوفييتية . ففي مقال نشر في الثامن عشر من مايو عام ١٩٦٣ ، بمناسبة افتتاح مؤتمر القمة الأفريقي في أديس اباب ، لخصت البرافدا العمل الذي قام به السوفييت في اللحظات الهامة لحركات التحرر الأفريقي ، مقتبسة شكر الزعماء ، وفيما يلي نص من هذا المقال :

« إن الحيرة إزاء سلوك الجزائر المستقلة بمثابة مسألة تقليدية للعلاقات التي تحدث مع كل حكومة وطنية ثورية فهي تقوم بمجرد أن تمسك بزمام السلطة ، بإخضاع الحزب الشيوعي الرسمي ، وتقييد نشاطه داخل حدودها . »

وكان نشاط السوفييت في الكونغو يمثل نوعا سافرا من أشكال الحرب الباردة . ذلك أن قيامهم بإرسال العربات والطائرات وطائرات النقل والمعدات العسكرية في صيف عام ١٩٥٢ ، كان عملا أعاد ذكرى تدخل الجيش الأحمر في البلاد المجاورة للاتحاد السوفييتي ، بزعم تقديم المعونة لها بناء على طلبها .

إن البرقية التي أرسلها الرئيس خروشوف إلى كل من « كازافوبو » و « لوموبا » في ١٧ يوليو من عام ١٩٦٠ تفسر ذلك إذ جاء بها ما يلي :

« ليس من العسير أن نرى أولئك الذين تعهدوا بالتدخل العسكري في الكونغو، كذا أولئك الذين دفعوا بالبلجيكيين إلى داخله، يريدون أن يوجهوا ضربة إلى جميع شعوب أفريقيا، وأن يحافظوا على نظام العصور الوسطى في جزء كبير من القارة الأفريقية. إن يد المعتدي التي رفعت ضد استقلال الكونغو إنما هي موجهة تلقائياً ضد نيجريا ومدغشقر ومالي وتوجو وباقي الدول الأفريقية التي حصلت على استقلالها توا، أو التي يجب أن تحصل عليه في القريب العاجل... فإذا ما رفعت يد المعتدي ضد الكونغو، فإن الحكومة السوفيتية تعلن أن الضرورة تتطلب اتخاذ اجراءات أكثر فعالية ».

على أن الإتحاد السوفيتي استمر بزهو باعجابه بمؤتمر باندونج، وصحب ذلك لمحة تكريم لشعوب أفريقيا، إذ قامت موسكو بتغيير اسم جامعة الصداقة في موسكو إلى جامعة «لومومبا» وذلك بعد مصرع لومومبا في فبراير عام ١٩٦١. وكان لهذا الاجراء أثر بالغ في نفوس الوطنيين الشبان والراديكاليين في كثير من أنحاء افريقيا المستقلة. وبجانب هذا الاجراء قامت الصحافة السوفيتية بالمدائمة على الاحتفاظ بصورة « جيزنجا » الذي اعتقل في فبراير عام ١٩٦٢، كالحلف الروحي للومومبا والزعيم الذي ينبغي أن يحتل مكان « أدولا ».

معارضة عمل الأمم المتحدة في الكونغو

إن حدة معارضة الاتحاد السوفيتي لعمل الأمم المتحدة في الكونغو على مدى ثلاث سنوات في أوائل الستينات، ورفضها المستمر الاشتراك في عملياتها لا يتفق مع غالبية آراء الأفريقيين حول الأمم المتحدة بعامة، ولا مع الرغبة التي عبرت عنها معظم الدول الأفريقية المستقلة التي قررت أن إيجاد حلّ ثابت للكونغو مسئولية أفريقية محضة. ولكن السوفيت بربطهم مساعدة الأمم المتحدة لـ « أدولا » مع الامبرياليين - بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال - واستخدام جيزنجا كزعيم قوي أو شهيد، يعد أسلوباً فعالاً في إثارة الموقف واشعاله.

وفي مقال صدر بصحيفة البرافدا في ٢٩ من يونيو عام ١٩٦٢ تحت عنوان « دروس من الكونغو »، قال ف. مايفسكي أخصائي الشؤون الأفريقية في

البرافدا: « إن تدخل بلجيكا عام ١٩٦٠ خطط له من قبل ، وأن الأمم المتحدة في عهد همرشولد كانت ذبلا للامبرياليين ، كما أن عمل الأمم المتحدة كان بمثابة عدوان من « الناتو » ضد الكونغو لمصلحة احتكارات الولايات المتحدة الأمريكية ». وأضاف قائلاً: « إن الخطط التجزئية القائمة لانعاش الاقتصاد الكونغولي غير عادلة وتقيده بارتباطات اقتصادية ، وأن اقتراحات إعادة تنظيم القوات المسلحة الكونغولية ليس الا مجرد محاولة لإلقاء هذه القوة ذاتها في أحضان الناتو » .

الأراضي البرتغالية

وقد يكون من العسير أن نرسم خطا محمدا للسوفييت إزاء النزاع القائم في الأراضي البرتغالية الثلاث. ذلك أن مؤتمر داكار لوزراء الخارجية الذي عقد في أغسطس عام ١٩٦٣ ، أوصى بمد المعونة إلى حزب « روبرتو هولدن » « الانجولي » ، ولقد جاء ذلك لصالح حزب الحرية في موزمبيق برئاسة « موندلان » . ولقد بدا أن المعونة السوفييتية إلى المقاتلين الانجوليين الأحرار ، كانت موجهة بعامة الى ماريو واندراد » .

وتكونت في النصف الثاني من الستينات مجموعتان منشقتان من موزمبيق ، إحداهما في أوغندا والأخرى في القاهرة. وأصبح تدريب حرب العصابات واستخدام رجالها من أهم العوامل في الحرب الثورية وذلك من ناحيتين: أولا ، لأنه حدث في النصف الأول من الستينات تغير بطيء لوجهات نظر عدد كبير من المسؤولين الأفريقيين إزاء النظر إلى أن النزاع المسلح المحدود عملية شرعية ، تسرع في تحقيق الاستقلال الوطني في أجزاء أفريقيا ، التي ما زالت في ظل الحكم الامبريالي أو حكم البيض. وثانياً ، أيد ذلك ما أعلن في المؤتمرات الدولية الأفريقية التي عقدت في هذا الوقت ، أن القتال عمل شرعي ووسيلة سليمة لتحقيق هدف الاستقلال. وهكذا أصبح للدول التي حصلت على استقلالها

* في ٢٨ من نوفمبر عام ١٩٦٣ أعلن أن التسعين عضوا الذين كانوا يكونون هيئة السفارة السوفييتية في ليبولفيل. أشخاص غير مرغوب فيهم ، كما وجهت إلى اثنين منهم تهمة بنشاط تخريبي من برازافيل.

فعلا ، حق في تهيئة التسهيلات والقواعد للمقاتلين الأحرار .
وفي الواقع كان هذا شيئا جديدا ، إذ أن الاتجاه تبناه بعض الزعماء الذين
صعدوا إلى زمام السلطة على رأس حركات وطنية لم تستخدم العنف .
وانتهز السوفييت وباقي الكتلة الشيوعية هذه الفرصة ، مستغلين سمعتهم
بأنهم كانوا مراكز تدريب لحروب المناضلين ، وأصبحت حرب العصابات مظهراً
من مظاهر الحياة العسكرية ، وقام الصينيون والتشيكيون بتدريب مناضلي
الكاميرون ، كما كان هناك سيل من المناضلين الذين تم تدريبهم في غانا . كذلك
حملت منظمة الوحدة الأفريقية على عاتقها واجب القيام بهذا النوع من
العمليات .

الصورة في غرب أفريقيا

ولقد تعرضت دول أفريقيا في السنتين الأخيرتين من منتصف الخمسينات
إلى الإطاحة بعدة أنظمة من الحكم ، بينما عاشت غانا ونيجريا وسط محاولات
تآمر من السياسيين ذوي المراكز الرفيعة . وعلى أية حال كانت الصورة العامة
الشائعة لدول غرب أفريقيا تكمن في عدم الاستقرار والفقر وقصور الخبرة في
التعامل مع المعارضة السياسية . وفي مقال افتتاحي نشر في صحيفة غرب أفريقيا
في ٩ من نوفمبر عام ١٩٦٣ ، حلل الكاتب هذه المواقف في ضوء صراعات
السلطة بين « الخوارج » و « الأنصار » ، مصاحبا ذلك قلق الجيل الصاعد إزاء
السياسات الاقتصادية التي يتبعها الزعماء الأكبر سنا . لقد جاء بهذا المقال :

« إن النقد موجه إلى ما كان يعدونه سياسات خارجية عفا عليها الزمن ،
وإلى الارتقاء باقتصاد الدولة في أحضان الرأسمالية الغربية . » إن القليل من
أولئك الشباب رفاق طريق للشيوعيين ، ولكن معظمهم من المثاليين . وهم عادة
منظمون تنظيماً رديئاً ، ولكنهم حينما يتحدون مع اتحادات العمال الأفضل تنظيماً
يصبحون قوة قادرة على وخز بالونة الحكومة غير المستقرة ولم يثبت
التدخل الأجنبي ، بالرغم من أنه لا يمكن إخراجه من الحساب . إذ قام
سيكوتوري بتوجيه التهم غير المدعمة فيما يتعلق ببرازفيل ، كما فعل الرئيس
هوفيه بوانيه فيما يختص بمؤامرة ساحل العاج . وقامت تشاد باتهام السودان

بعاوته لمعارضى النظام .

ولكن من هم مجموعات الشباب القلقة الرديئة التنظيم؟ يجب عن ذلك «كولارز» فى دراسة له عن المجموعات الماركسية فى غرب أفريقيا بقوله: «انها مجموعات ماركسية وان الماركسية الأفريقية ما زالت مائعة وتلقائية». وثمة تساؤل آخر: «هل يتلقى هؤلاء تدريبا فى موسكو؟» لقد قال الدكتور بوتخين فى نقده للاشراكية الأفريقية: «إن المرء ينبغي أن ينتظر بزوغ المجموعات الماركسية الأفريقية المدربة جيدا فى أفريقيا كي نستطيع نشر الاشتراكية العلمية تدريجيا.»

ومن ناحية أخرى نقتبس ما يلى مما قاله الرئيس بوانيه: «إذا أردت أن يصبح ابنك معاديا للشيوعية أرسله إلى موسكو، وإذا أردته شيوعيا أرسله إلى باريس». إن قدرا كبيرا من الصدق يكمن فى هذا القول، لأن الطلبة الذين يدرسون فى موسكو يحسون بقدر كبير من القيود فى الجامعات السوفيتية.

التجمعات الأفريقية

وهناك مراجع مشتتة حول دراسة المجموعات والتنظيمات الأفريقية. وتشير الدلائل إلى أن حركة الوحدة الأفريقية قد استجمعت قواها، وبدأت تتخذ الشكل التنظيمى فى السنين الأخيرة منذ منتصف الستينات. إن تقدير نجاح السوفيت مع هذه المجموعات أو اخفاقهم يعتمد على تحليل لمدى تأثير السوفيت فى المسائل الأفريقية، كذا على تحليل التنافس الصينى - السوفيتى فى المجال الأفريقى.

وبصورة عامة، هناك أربعة أنواع من التجمعات فى أفريقيا، أولها حركة الوحدة الأفريقية، التى نجد فى تاريخها سلسلة من المؤتمرات بدأت بمعاهدة فرساي عام ١٩١٩، وتطورت لتصبح حركة زنجية تدفعها أمريكا ودول الكاريبي. وفى المؤتمر الخاص الذى عقد فى لندن، حضر كينيا ونيروما كمنظمين فى المؤتمر، وأصبحت الوحدة الأفريقية قوة فعالة فى هذا العصر. ويمكننا أن ننظر إلى المؤتمر الذى عقد فى أديس أبابا عام ١٩٦٣ وحضره رؤساء

* West Africa, November 1963, p 1257.

اثنين وثلاثين دولة أفريقية، على أنه الخلف النهائي لمؤتمرات لندن. لقد بدأ نشاطه باجتماع لرؤساء الدول بالإضافة إلى مراقبين من الدول التي لم تكن قد حصلت على استقلالها بعد.

وتجيء بعد ذلك مؤتمرات التضامن الآسيوي الأفريقي، التي كانت تقع تحت تأثير نفوذ شيوعي قوي، والتي عقدت في عدة دول مثل القاهرة في يناير ١٩٥٨، وكوناكري ١٩٦٠، وموشي ١٩٦٣.

أما التجمع الثالث فيضم أفكارا متناقضة حول ما إذا كانت القارة الأفريقية ككل تشكل كيانا سياسيا، أو سلاليا أو ثقافيا؟ فعلى سبيل المثال هل تشكل مصر والمغرب وحدة على هذا الضوء مع دول أفريقيا السوداء؟ وأخيرا، هناك انقسام كان قائما ولا يزال قائما لحد كبير بين مجموعة دول الدار البيضاء - غانا، غينيا، المغرب، ومالي في بعض الاوقات - وبين دول منروفيا - نيجيريا، وساحل العاج، ومدغشقر، وسيراليون وأغلب البلاد الناطقة بالتعبير الفرنسي. ولقد قام الاتحاد السوفييتي منذ دخوله في المسائل الأفريقية بمساندة التجمع الآسيوي الأفريقي. وخلال فترة التعاون الوثيق بين مصر والسوفييت، قامت موسكو بمساعدة الرئيس جمال عبد الناصر بالسيطرة على المكتب التنفيذي في اللجنة التنظيمية للمؤتمر الآسيوي الأفريقي التي شاركت في تنمية المنظمات الفرعية المختلفة والمؤتمرات، وبخاصة مؤتمر الكتاب الأفريقيين الآسيويين الذي عقد في طشقند عام ١٩٥٨. ولقد بذلت موسكو عناية كبيرة في اختيار الوفود لهذه المؤتمرات التي تتكون أساسا من قوميات آسيوية أفريقية سوفييتية، كما روعى أن يكون الأفراد من ذوي الشخصيات البارزة من أواسط آسيا، أو القوقاز، وانتشرت منظمات التضامن الآسيوي في الدول الكبرى للاتحاد السوفييتي، وكان معظم الشخصيات البارزة والشعبية الذين يتحدثون في هذه المنظمات أعضاء في مجلس السلام العالمي.

وفي مؤتمر التضامن الآسيوي - الأفريقي، كذا في اجتماع المنظمات الفرعية، كانت القاعدة المتبعة هي الهجوم العنيف على سلوك الغرب، كما تعرض للهجوم الشديد كل من حلف بغداد وجنوب شرق آسيا ومنظمة حلف

شمال الأطلنطي .

وأدى انشغال الدول الأفريقية المتزايد بالتجمعات الافريقية كذا ظهور قوة التنظيمات الأفريقية سياسيا، إلى جذب انتباه السوفييت الى هذه التجمعات، وإلى إعادة تقييم الوحدة الأفريقية كفسلفة. ففي مؤتمر القمة الأفريقي الذي عقد في ديسمبر عام ١٩٥٨ في أكرا اثنى السوفييت على تجمع الدار البيضاء الذي كان يتكون من دول انسلخت جذريا عن الدول العالمية التي كانت تربطها، وتبنت سياسات اقتصادية موجهة بدرجات متفاوتة. وقد أبدت هذه الدول رغبة أكيدة لاقامة علاقات مع دول حلف وارسو. وهنا ينبغي أن نتذكر أن هذه الدول هي التي قام النظريون السوفييت وبرنامج الحزب الشيوعي الجديد بوضع توليفة «الديموقراطية الوطنية» لها.

لقد قامت دعاية موسكو برسم هذه الصورة، وبالرغم من نشاط السوفييت الإمبريالي في آسيا، فقد كانوا يبرزون عفونة الامبريالية في أفريقيا. ففي مؤتمر دار السلام الذي عقد في يونيو عام ١٩٦٣ وصف عضو أوغندي الولايات المتحدة وبريطانيا بأنها الصديقان الوفيان لأعداء أفريقيا. وقالت البرافدا في مقال لها عن مؤتمر اديس ابابا باقتباس ما تم مناقشته، وتبنت فكرة تصفية سيادة الاقتصاد الأجنبي والقواعد الأجنبية.

وكان «اوجنجا اودينا» الشخصية الزاهية في حزب الكانو - وزير داخلية كينيا فيما بعد - أول من ركز انتباه الأفريقيين على بداية الخلاف الصيني السوفييتي. كما كانت جهود «ميرزاد» رئيس الوفد السوفييتي في مؤتمر التضامن الأفريقي بمثابة قشة تلاقفتها الرياح، وذلك حينما حاول في مؤتمر الكتاب الآسيوي الأفريقي، الذي عقد في القاهرة في فبراير عام ١٩٦٢، أن يركز أعمال الاتحاد السوفييتي في آسيا وأفريقيا. وكان هذا المؤتمر أول فرصة عامة في مثل هذه الدوائر، حيث قامت الصين باظهار تحذ سافر لموسكو.

وعقد مؤتمر التضامن الآسيوي الافريقي الثالث في موشى وتنجانيقا في فبراير عام ١٩٦٣. وعلى الرغم من قيام الرئيس نيريى بتحذير بكين وموسكو في خطابه الذي القاه، من معاملة المؤتمر كساحة لنزاع خفي، فإن رئيس الوفد

السوفييتي « ميرزاد » والمندوبين الصينيين نشروا خلافات موسكو وبكين المذهبية. وكان المندوب الصيني « ليونج لي » قد قام قبل هذه الجلسة مباشرة بالإشارة إلى أن الروس ينتمون قبل كل شيء إلى الجنس الأبيض، شأنهم في ذلك شأن باقي الاستعماريين، وأن الصين تشارك نفس المصير الذي يواجه الشعوب الأفريقية الآسيوية.

ووضعت خطط تكفل بها اتحاد العمال الصيني ودعمها الحزب الشيوعي الهندي، لعقد مؤتمر لاتحادات العمال الآسيوية الأفريقية في اندونيسيا في نهاية عام ١٩٦٣. وقد استبعد الاتحاد السوفييتي من القوى المتكفلة بالمؤتمر، والتي ضمت كل من مصر، والمغرب، وغانا، وغينيا.

وبجانب هذه الأنشطة في مجال التضامن وتنظيمات الجبهة، بدأت الصين تقوم باتصالات مباشرة مختلفة مع الدول والمنظمات الأفريقية. ويعيد هذا النشاط ذكرى أنشطة السوفييت في مجال الحرب الثورية منذ منتصف الخمسينات، والتي تضمنت الزيارات التي يقوم بها السياسيون والشخصيات البارزة، والبعثات الثقافية، وترجمة الكتب، وتبادل الخبراء والاختصاصيين والإذاعة بلغات عدة - الإنجليزية والفرنسية والسواحلية والبرتغالية والهوسا - حيث وصلت جملة عدد ساعات الإرسال إلى حوالي سبعين ساعة اسبوعيا. ولقد أبرزت الصين ظهورها الملموس على المسرح في دول غرب أفريقيا وفي الجزائر، حيث أقيم بها في سبتمبر عام ١٩٦٣ معرض تجاري ضخم. وكانت الصين قد عقدت من قبل اتفاقية تجارية واتفاقية قروض مع غينيا، كما عقدت في مايو عام ١٩٦٣ اتفاقية قروض وتجارة مع الصومال. وجرت محادثات سياسية بين الصومال والصين في الوقت الذي كانت هناك بعثة عسكرية صومالية تجرى محادثات في موسكو. وفي شهر أكتوبر قام رئيس حكومة الصومال بزيارة موسكو وبكين. وفي شهر نوفمبر عام ١٩٦٣، أعلن كل من الاتحاد السوفييتي والصومال أن موسكو تقدم عوناً لتسليح جيش الصومال بأسلحة عصرية. ومن ناحية أخرى قام شواين لاي بزيارة عدد من الدول الأفريقية متضمنا ذلك الصومال في شتاء ٦٣ / ١٩٦٤. ولقد أسست الصين ادعاءها بحقها في تقديم العون للدول الآسيوية

الأفريقية - كما سبق أن ذكرنا - على أساس نقدها لسياسات خروشوف المتواطئة مع الحكومات الغربية، ولتقديمه المعونات الاقتصادية والسياسية للحكومات التي لا تقوم بتصفية رأس المال والرأسمالية.

الخلاصة:

لقد عاصرت نشأة الصين الشعبية أغلب الحركات التحررية في القارة الأفريقية وبذلت لها التأييد الأدبي بأمل أن يؤدي توطيد العلاقات بينها إلى:

١ - تدعيم مركز الصين الشعبية في المجتمع الدولي، رغم انكار عضوية الأمم المتحدة لها حينئذ.

٢ - نشر المذهب الصيني الشيوعي في هذه البلاد.

٣ - تدعيم مركز الصين الشعبية في محيط دول المعسكر الشرقي ذاتها.

٤ - تأمين اسواق لتصريف منتجاتها.

ولقد بذلت الصين الشعبية جهودا كبيرة لاجتذاب هذه الدول التي وصفتها بأنها عاشت ظروفًا من التخلف - نتيجة للامبريالية - شبيهة بما عانت منه الصين. فقدّمت لهذه الدول المنح الدراسية والمعلومات الاقتصادية والدعم السياسي.

وعملت الصين الشعبية في الوقت ذاته على إنشاء مجتمعات شيوعية في بعض تلك البلاد، عن طريق التسلل الى بعض تلك المستعمرات وتحويلها الى مراكز شيوعية في قلب القارة الأفريقية، مستغلة في ذلك سلاح الحاجة والتذمر من أنظمة الحكم.

وإذا كانت الصين الشعبية قد نجحت في توطيد علاقاتها ببعض الدول الأفريقية مثل غينيا والصومال وغانا، فقد أخفقت في علاقاتها مع غيرها مثل الكونغو نتيجة ما أحاط بها وبحكوماتها من أحداث.

أما الاتحاد السوفييتي فكان أسبق من الصين في التغلغل في أفريقيا، ولم تختلف الطرق التي استخدمها في محاولات غزوه لدول أفريقيا عن تلك التي استخدمها في أي مكان آخر. وكان استخدام ما اطلقوا عليه «الديمقراطية

الوطنية « بمثابة القاعدة العريضة التي تضم جميع القوى الوطنية، والتي اعدتها موسكو للتغلغل بواسطتها الى القارة السوداء .

لقد استخدمت موسكو التبادل الثقافي، والمعونات الاقتصادية، والتبادل التجاري وغيرها من الوسائل الأخرى، في شن حربها الثورية في أفريقيا. هذا فضلا عن تدريب حرب العصابات وإعدادها، ومعونة الدول بالاسلحة والخبراء. ولم تتوان موسكو عن استخدام اتحادات العمال كجبهة شيوعية تنفذ منها إلى الحكومات، كذا المنظمات الدولية مثل منظمة الصحفيين الدولية، واتحاد الكتاب والأدباء العالمي.. الخ، والتجمعات الأفريقية مثل منظمة الوحدة الأفريقية ومؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي.

إن أفريقيا اليوم لم تعد مسرح صراع بين الرأسمالية والشيوعية فحسب، بل أصبحت أيضا مركز تنافس حاد داخل المعسكر الشيوعي بين الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي.

الباب السادس

الحرب الثورية المضادة

الحرب الثورية المضادة أشبه بالهجوم المضاد في الحرب العسكرية. سواء من ناحية استكشاف نقاط الضعف أم من ناحية التخطيط ثم شن الهجوم المضاد. وكما أن للمعارك العسكرية المضادة أسلحة تستخدم في معاركها، فإن للحرب الثورية المضادة أسلحة، هي نفس أسلحة الحرب الثورية التي قمنا بشرحها في الأبواب السابقة. ومن ثم كان على العالم غير الشيوعي أن يشحذ أسلحته، ويقوم بالاستطلاع ثم يضع خطة شاملة لمواجهة التحدي الشيوعي.

وفيما يلي نص صدر به هذا الفصل ويحمل ذلك المعنى؛ وهذا النص للسناتور فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي، ويقول فيه:

«ينبغي أن نركز جهودنا على التحديات المخادعة

للتغفل النفسي والتخريب السياسي، والغزو الاقتصادي واستخدام
المعونة الأجنبية والتجارة كأسلحة سياسية. ولكي نواجه هذه التهديدات فقد
بدأنا فعلاً. نبتكر - وينبغي أن نستمر لنصل إلى حد الكمال - أدوات
جديدة متباينة لسياسة خارجية، تذهب أبعد من سياسة الاحتواء والمخالفات
العسكرية*»

والحق إن الهدف من هذا الباب كشف الأهداف المعرضة في النظام
الشيوعي التي يمكن مهاجمتها، كذا دراسة الخطة العامة للهجوم المضاد التي تبني
على عملية الاستطلاع هذه.

ومن ثم فإن الفصل الأول من هذا الباب يعرض لنقط الضعف الموجودة
لدى أولئك الذين يشنون الحرب الثورية الشاملة، وكيف يمكن استغلال هذه
النقط في تخفيض حدة الضغوط الشيوعية ضد الحرية.

وأما الفصل الثاني فيقف عند خطة الدفاع، وكيف يمكن لمجتمع ديمقراطي
مفتوح أن يعد نفسه حي يواجه التحدي الشيوعي، سواء من ناحية التدريب أو
الاستعداد.

* From a Speech in Public Politic Policy and Military Responsibility, Delivered to
the National War college, August 21, 1961, See the Congressional Record, Vol, 107 No
144.

الفصل الأول

الأهداف المعرضة للهجوم

قبل أن نحاول الحديث عن خطة الدفاع ضد الغزو الشيوعي، نرى أن نلم بطبيعة الدولة الشيوعية وعلاقتها بالحرب الثورية الشيوعية، كي نستطيع أن نتبين نقط الضعف في النظام الشيوعي المعرض للهجوم.

دولة الحزب.

الدولة الشيوعية لا تشبه الدول الأخرى إلا في المظهر، أما في جوهرها فهي أداة لنزاع شيوعي طويل الأمد ضد العالم غير الشيوعي. إنها آلة أنشئت لتدمير «العالم الخارجي المعادي» لخدمة الحزب الشيوعي ذي السلطة الشاملة. ولقد تصور لينين الدولة الشيوعية كأداة قوة لم تصمم لكي تضمن الحقوق لأي فرد فحسب بل قامت كذلك «لسحق كل المعادين». ولقد عاد لينين في ٦ من نوفمبر عام ١٩٢٠ ليؤكد تصوره بأن قيام روسيا السوفيتية، كان هدفه نشر الثورة في الدول الأخرى، إذ قال: إننا نعرف دائما، ولن ننسى قط أن مهمتنا مهمة عالمية، وأن انتصارنا ليس الا نصف انتصار أو ربما أقل من ذلك، حتى يعم الجيشان في كل الدول، بما في ذلك أكثر الدول ثراء أو مدنية*.

وبعد استيلاء الشيوعيين على السلطة عام ١٩١٧، قال لينين: «إن الثورة البلشفية كانت مجرد مرحلة واحدة، ينبغي أن نمر من خلالها إلى طريق الثورة

* Lenin, Collected Works, vol. xxx 1.

العالية»، فالإتحاد السوفييتي كان مرحلة من مراحل إنشاء دولة شيوعية عالية.

وتتركز كل السلطة السياسية في الإتحاد السوفييتي في يد جهاز الحزب الشيوعي الذي يسود الحكومة. وبالرغم من ذلك فإن الإتحاد السوفييتي يحتوي على كل زخارف الدولة: انتخابات، ابرلمان السوفييتي، رؤساء الحكومات والوزراء والقضاة.... الخ. وطالما كانت هذه الزخارف خاضعة تماما للحزب الشيوعي، يصبح من السذاجة أن يفكر المرء بأن هذه المؤسسات تشبه تماما او تقريبا المؤسسات الحكومية المعاونة التي تعمل في العالم غير الشيوعي.

وفي هذا الصدد يقول ليونارد سكايبيرو عام ١٩٦٠:

«ومهما تكن التنازلات المادية التي قام بها الزعماء الشيوعيون من عام ١٩٥٣ فقد اعادوا توضيحهم مرارا بأنهم سوف لا يتسامحون لقيام أي نوع من التراخي الأساسي لقبضة جهاز الحزب على حياة البلاد كلها. إن الهجمات المستمرة ضد «التنقيحية» التي كانت ملاحظة منذ ثورة المجر، تعد شاهد عيان على تأكيد حقيقة هي: حق آلة الحزب في السيطرة على كل المؤسسات داخل الدولة، وعلى الدولة ذاتها وعلى كل نشاط الفرد، بالقوة التي كان عليها من قبل... إن جهاز الحزب قد مد قبضته على البلاد ودعمها منذ عام ١٩٥٣ بدرجة أكبر مما مضى....»

«إن المؤسسات التي انشأها لينين، كانت منذ البداية من المؤسسات الزائفة التي يسيطر عليها الحزب، ولم تكن أجهزة منتخبة انتخابا حرا، وكان مألها أن تصبح سوفييتيات ومجالس اتحادات عمال، أو ما شابه ذلك. لقد أدى ذلك الى جعل الحزب في استطاعته أن يحافظ على مظهر النشاط الديموقراطي العام، وأن يدمر مع مرور الزمن كل الذكريات عن الطبيعة الحقيقية للمؤسسات الحرة، دون أن يعرض للخطر السيطرة التنفيذية على كل جوانب الحياة»^(١).

* Leonard Schapiro, Has Russia changed? Foreign Affairs, Vol xxx v111. No. 3, April 1960, p. 392.

إن للدولة الشيوعية جميع مستلزمات الحكومة المألوفة، وفي بعض الأوقات قد تتجاهل الحكومة أو تتجاوزها، ولكن التوليفة الأساسية للعمل في المسائل المتعلقة بالدولة من خلال الحكومة أو باسمها بدلا من اسم الحزب، تظل عملية مصالحة مؤقتة.

إن النقطة التي يجب أن تظل راسخة في أذهاننا، هي أن أي وحدة شيوعية حكومية هي على أي مستوى - العضو المقابل للحزب الشيوعي.

كما أن الإدراك الصحيح لعلاقات دولة الحزب ضرورة هامة، كي يستطيع المرء أن يتفهم دور الدولة في الحرب الثورية، فعلاقات الدولة - بالبلاد غير الشيوعية - علاقات حكومة لحكومة - ينبغي بالطبع أن تتم بالأسلوب المعتاد من خلال السفارات، والبعثات السياسية، والقنصليات خارج أرض الوطن، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد الذي يجعل السوفييت يجاهدون في سبيل الظهور كحكومة عصرية ممثلة عن طريق انتخاب شعبي. وهم يريدون أن يعدوا ديموقراطية جماهيرية حيث يكون كل شيء فيها ممتلكا ومدارا من الشعب في ظل القيادة الكريمة للحزب إن هذه الأحجية تستخدم لغرض الدعاية التي تصمم على أساس اكتساب العون السياسي من السذج خارج الستار الحديدي. ويعلم زعماء الكرمليين - افضل من أي انسان آخر - أنه لو عرف المصير الحقيقي لحرية الإنسان في ظل نظامهم خارج الستار الحديدي، فإن جاذبية الاتحاد السوفييتي « كبلد ديموقراطي » لا بد أن تدوى. ومن ثم فلكي يتم التغلغل السياسي الشيوعي في العالم الخارجي بدعاوى معنوية، ينبغي أن تعرض سلع طيبة، فإذا لم تظهر هذه السلع هنا، فيجب تزييفها.

المطامح القومية والإمبريالية الشيوعية

إن الطابع الامبريالي للاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية، قد أظهر نفسه حينما استولى الشيوعيون على السلطة في هاتين الدولتين. ومع ذلك، ينبغي أن نميز بين إخماد المطامح القومية للأقليات داخل دولة شيوعية، والسياسات الامبريالية ازاء الدول التابعة التي تحكم عن قرب من مركزي القوة الشيوعية، وبين السياسات ازاء العالم غير الشيوعي. فبينما الأخيرة تتبع ميدان العلاقات

الدولية وسياسات القوى التي تنفذ بواسطة خليط من الوسائل الثورية والتقليدية فإن الشكلين الأولين يختصان بالنظام الشيوعي وحده. وفي عصرنا هذا حيث تفككت الإمبراطوريات الإستعمارية واتجه العالم نحو الاستقلال الوطني حتى بين أكثر الشعوب تخلفا في العالم، فإن الشيوعيين مصرون على الاحتفاظ داخل الاستعباد السياسي بأجسام وطنية غريبة سوف تؤدي حتما إلى احتكاكات وتوترات داخل العالم الشيوعي.

على أن إخضاع الأقليات داخل الدولة الشيوعية، يمتلك أساسا طوابع مختلفة عن تلك التي وردت في الإمبراطوريات القديمة المتعددة القوميات. يقول والتر كولارز:

«إن المستعمر السوفييتي يرى أنه مكرس لإلغاء جميع المؤسسات الخاصة بأي جنسية معينة، لغرض كل اصلاح ممكن إذا كان هذا يتمشى مع خطط البرنامج الشيوعي. وهكذا فإن البلاشفة الروس لم يترددوا قط في تقديم مبادئ صراع الطبقة في أكثر الأجواء تخلفا. لقد اكتشفوا ما يتعادل مع «القوقاق» الروس في كل مكان من واحة صحراء «كاراكوم» في تركمانستان إلى المستعمرات على شاطئ القطب الشمالي»*.

على أن مشكلة الأقليات في روسيا السوفييتية أو الصين الشيوعية لا يمكن أن ينظر إليها منعزلة عن المشكلة الاستعمارية التي تفرض نفسها في أجزاء أخرى من العالم. وفي العالم الحديث حيث يتسم بالاتصالات الضخمة، فإن الصراع في سبيل تحقيق المطامح القومية بين الشعوب المستعمرة يتقدم على نمط مشابه. ويمكن استخلاص أربعة دروس من الاتجاه العام في الأراضي التي استعمرت خارج الاتحاد السوفييتي وهي:

أولا: إن الشعوب المستقلة الأكثر تقدما سوف تقدر الانجازات المادية فقط إذا سارت هذه يدا بيد مع التقدم السياسي....

* Walter Kolarz, *Russia And her Colonies*, London, philip, 1952, p. 310.

ثانياً: إن شعوب الأراضي المستعمرة كي تحقق أطاحتها الوطنية تخلق حركة سياسية وايدولوجية تتواءم مع التقاليد الوطنية والقبلية الخاصة بهم.

ثالثاً: إن المطامح الوطنية يمكن فقط أن تحدد تحديداً سليماً، إذا ما تمتعت المستعمرات على الأقل بقدر معين من الديمقراطية وحرية المناقشة على سبيل الحكم الذاتي والاستقلال الوطني.

رابعاً: إن الاعتراف بالحكم الذاتي لهدف سياسي محبب من جانب القوى الاستعمارية التقدمية، لا يعنى اعترافاً غير مقيد بكل المطامح الوطنية للشعوب المستعمرة

فإذا ما أقر المرء أن جوهر السياسة الاستعمارية الحديثة يكمن في تشجيع الحكم الذاتي، فإن النظام الاستعماري متضمناً ما يطلق عليه سياسة القوميات السوفييتية، ينبغي أن يحكم عليه على أساس هذا المعيار ذي الأربعة جوانب*

فإذا كان هذا هو الاتجاه العام بين الشعوب التي تستميت لتأكيد كيائها الوطني، فإن سياسة القوميات السوفييتية تصطدم به. ومع ذلك، فإن الموقف داخل الاتحاد السوفييت ليس كله أبيض أو أسود. ذلك أن الصفة الشيوعية غير الروسية في الاتحاد السوفييتي تتمتع بالوضع المميز ذاته الذي يتمتع به الروس. وفي الوقت ذاته، فإن المجموعات الأقل حظاً من السكان المحيطة بالروس، أفضل اقتصادياً على الأقل من المجموعات المقابلة لها في المناطق الروسية المحددة.

ومع ذلك فهناك تقسيم بارز لوجهة نظر الخبراء في حالة ما إذا كان الخصم الرئيسي داخل الاتحاد السوفييتي هو القومية الروسية في رداء شيوعي، أو الايدولوجية الشيوعية معلنة في كساء روسي. والواقع أن هناك عنصراً من كل منها يتضمنه هذا الرأي. فالشعب الروسي وبخاصة العمال والفلاحين، كانوا أنفسهم ضحايا النظام الشيوعي بينما يخدمون في الوقت ذاته كأدوات في أيدي

* Fredrick C. Barghoorn, Soviet Russian Nationalism, New York, Oxford University press, 1956.

قادة موسكو كلما تطلب الأمر ذلك، لكشف السكان المعادين في المناطق غير الروسية. ونتيجة لذلك، فإن المشاعر المعادية للروس بين الاقليات، كانت غالباً أقل شدة عن مشاعر الشعوب الخاضعة ضد القوى الاستعمارية في آسيا وأفريقيا.

هذا هو سبب تأكيد بعض الكتاب على ما يلي:

«إن استثارة القوميات غير الروسية في الاتحاد السوفييتي ضد الشعب الروسي بهدف تفكك الامبراطورية الروسية، سوف تكون سياسة قصيرة النظر... وفي كلمات أخرى،

ينبغي على الدول الغربية ألا تحاول تفتيت روسيا عن طريق الارتباط بالقوميات المحلية أكثر من ارتباطها بالشعب الروسي. ذلك أن تلك الشعوب التي يضمها الاتحاد السوفييتي، والتي لن تصلح لأسباب جغرافية وتاريخية وثقافية واقتصادية كي تندمج في دولة روسيا الفيدرالية، سوف تترك روسيا على أية حال، وذلك في سياق الهبّان السياسية الضخمة، التي من المحتمل ان تصاحب تغيير النظام. ومع ذلك فإن مسؤولية هذا العمل، ينبغي أن تبقى مع تلك الشعوب فقط»^(١)

على أنه بعيداً عن الموقف الواضح داخل روسيا، فهناك الظروف القائمة في الدول التابعة للفلك السوفييتي في وسط أوروبا وشرقها. وباستثناء بلغاريا، فإن المشاعر المعادية للروس عالية، وتختلط معها مشاعر السخط للأنظمة الشيوعية الحاكمة والتي تخضع لموسكو. إن العلاقات بين مركز السلطة في الاتحاد السوفييتي والدول التابعة، تتلاءم بدرجة أدق مع النموذج الامبريالي القديم في العالم غير الشيوعي. ذلك أن القوى الاستعمارية في الغرب - سواء اختيارياً أو في ظل ضغوط ما - استمر تفكك امبراطورياتها واستاتت هذه القوى في إنشاء علاقات مع المستعمرات السابقة على أساس منفعة متبادلة، وتسامح أكثر مما قبل. أما القوى الامبريالية الصينية والسوفييتية فهي تصر على تشديد قبضتها على السكان المعادين، وتدعيم سلطتها في الدول الشيوعية التابعة.

* Ibid, P. 316

وفي داخل كل من الاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية، تعد البورجوازية الوطنية الجريمة الكبرى ضد الدولة الشيوعية المستبدة، ففي كل من النظامين تخضع الشعوب التابعة إلى سلطة مركزية مطلقة، بغض النظر عن المنافع التي قد يحصلون عليها من الاندماج القهري في الفردوس الشيوعي. وفي كل من المنطقتين تخضع الشعوب إلى السيادة الشيوعية المركزية.

وربما تكون الزعامة الشيوعية على علم بأن جهودها «لسفينة» الدول التابعة قد تحترق، وأنه في حالة قيام حرب كبرى فإن المناطق الخاضعة شرق الألب قد تبرهن على أنها متحملة المسؤولية. على أنه يمكن الحدس أيضا، عما إذا كان الادمج الحقيقي لدول شرق أوروبا في الاتحاد السوفييتي محل تفكير الزعماء السوفييت. إن التفكير في مثل هذه الحركة سوف يؤجل حتى يجيء الوقت المناسب الذي تصبح فيه الأغلبية العظمى من البولنديين والمجريين والتشيك، والسلفواك والرومانين والآخرين متوائمة تماما مع الحكم الشيوعي، بعد أن تكون قد نبذت أي أمل للتحرر. ومع ذلك فإن طبيعة الشيوعية تمنع موسكو من التفكير في الانسحاب حتى من البلاد الأقل استقرارا. إن أي اقتطاع من الأراضي الواقعة تحت سيادتها سوف يقوض النهج الأساسي لحتمية الانتصار الشيوعي على المستوى العالمي. إن هذا النهج أصبح أحد الأعمدة الهامة التي تركز عليها الايديولوجية الشيوعية، ومن ثم فإن أي عائق في وسط أوروبا وشرقه سوف يغرس في عقول القادة والشعوب أبعاد الكارثة. إن الالتزام الايديولوجي للحفاظ على الامبراطورية السوفييتية وتوسيعها، يقلل فرص المناورة السوفييتية، ويجبر موسكو على تنفيذ سياسات غير نافعة، وفي بعض الاحيان تكون غير منطقية، بغرض واحد هو إنقاذ وجه الشيوعية الايديولوجي.

إن هذا الإصرار على احتفاظ الشيوعيين بممتلكاتهم وتوسيعها بغض النظر عن التكاليف، يترك النظام الشيوعي معرضا لهجوم سياسي واسع. إن النزاعات المحلية بين الحكومات العملية والسكان، والاحتكاكات بين الدول التابعة، كذا بين الدول التابعة وموسكو، بالإضافة إلى الالتزامات الدينية والسياسية والاقتصادية كل هذه العوامل تسمح بغرض غير محدود، كي يشن الغرب حربا

مضادة للحرب الثورية الشيوعية .

التناقضات في المجتمع السوفييتي .

من السهل دائما نقد كل بناء جديد . لقد وجد الرجال دائما أنه من الصعب التعريض باللينينية - الماركسية ، حينما كانت نظرية معارضة تعد ليوم جديد على الارض . إن رجل الشارع الذي كان يكذب بالمظالم ، كان يصبو دائما إلى أمل الحصول على شيء أفضل . وكانت اللينينية الماركسية ، التي كانت تعد أكثر النظريات الاجتماعية شمولا في العمق والمجال ، تمتلك قوتها من نقدها . ولا يكثرث الشيوعيون بمدى سلامة عقيدتهم ، بقدر اهتمامهم الوحيد بأثر الدعاية التي يمارسونها إستعدادا للاطاحة بالمجتمع التقليدي . إن قوة عقيدته تكمن في سلبياتها . ذلك أن معارضتهم العملية « تركز على اللامسؤولية . ولا يحتاج المرء للتعجب من أن ما تتبناه الشيوعية قبل الوصول إلى السلطة ، تبذره بعد ذلك . وبدلا من المجتمع اللاتبقي الذي وعدت به ، يقوم الشيوعيون بإنشاء نوع جديد من مجتمع طبقي في شكل أكثر هولا ، وقد حلَّ مكان المجموعات المألوفة القديمة مجموعة واحدة جديدة . إن الملكية الجماعية التي وعد الشيوعيون بها ، والتي قامت عليها نظرية إلغاء الطبقات تحولت الى « ملكية الأقلية » بواسطة الطبقة العليا الجديدة ، أو الصفوة البيروقراطية . وإذا ما نحينا العبارات النظرية الشيوعية جانبا فهناك اليوم في المجتمع السوفييتي نفس عينات الطبقات الموجودة ، في كل مكان - العمال الصناعيون أو البروليتاريا ، والفلاحون ، والمثقفون ، ولكن الشيوعيين فرضوا على المجتمع طبقة جديدة من بيروقراطية الحزب ، وفوق ذلك أنشأوا ضمن الكيان الكامل عنصرا لم يعرف في أي مكان آخر . هذا العنصر هو طبقة « عمال السخرة » للدولة . وهكذا نجد طبقتين جديدتين في المجتمع السوفييتي : الطبقة العليا في الحزب ، وطبقة عمال السخرة في القاع .

وفي ظل النظام الشيوعي ، قد يفقد عامل أو فلاح أو أي عضو من الطبقة البيروقراطية أو طبقة المثقفين وضعه كعضو حر في الدولة ، وينحدر إلى الدرجة الدنيا لعمال السخرة . إن أسلوب عمال السخرة في النظام الشيوعي لا يكثرث بأي

احترام للمكانة أو الوظيفة. فهو أسلوب سياسي شيوعي يستخدم للسيطرة على الأفراد.

ولقد حدثت بعض التغيرات في نظام «عمال السخرة» منذ عهد برياز. ذلك أن كل الاقتصاد السوفييتي ارتبط بعمال السخرة. ومن ثم بلغ عدد العبيد بالملايين. إن الذين حكم عليهم بالنفي لمدد طويلة في معسكرات السخرة نادرا ما ظلوا على قيد الحياة. ولا يرجع ذلك فقط إلى أن مدة أحكامهم كان من الممكن أن تمتد باجحاف وظلم، ولكن أيضا إلى نتيجة وحشية الاجراءات، وسوء الاستغلال الذي كان قائما في المعسكرات.

ولقد قام خروشوف بإدخال العصرية على النظام فأغلقت معسكرات كثيرة، بالرغم من أن أعدادا كبيرة من نزلاء المعسكرات أجبروا على الإستمرار في العمل في الأماكن القديمة «كعمال أحرار». وعلى أية حال. فإن النظام القديم الخاص بالنفي الجماعي ما زال يعمل به. ولكن على مستوى أقل. وتحت سائر زراعة «الأراضي البكر». فإن الآفا بل قل ملايين من الناس ارسلوا إلى مناطق النفي التقليدية في آسيا السوفييتية دون رغبتهم. وبالإضافة إلى ذلك. فإنه بالرغم من التحرير للموس لقوانين العمل القديمة، فإن ما يطلق عليه «العمل الحر» ما زال مقيدا. فالعامل حتى الآن لا يستطيع ان يغير مكان عمله.

التناقض دين الأيديولوجية والإنجاز

قال فردريك بارجهورن:

«إن الطابع الروسي القديم للملاءمة الخارجية يصاحبه جهد ماثبر للاحتفاظ بدرجة من الهبة الشخصية، وهو لم يتخلص منه نتيجة ضغط الحياة في دولة استبدادية. إن التملص السوفييتي قد أظهر نفسه بطرق مختلفة. مثل الميل إلى «الخروج للخارج» واشتهاء أشكال الترفيه المنحطة، والميل نحو السكر. ولقد قامت الصحافة السوفييتية بمعالجة هذه الأمور بدرجة واضحة منذ وفاة ستالين، وكانت بدرجة أوضح جهدا ماثبرا من جانب الشباب القادر على تجنب

السقطات السياسية ، بالانسحاب الى الماضي » *

وفي ضوء هذه الصورة للمجتمع السوفييتي ، يمكن ان نتساءل: كيف تمكن للوعد الاجتماعي الماركسية أن تنقلب ضد الحكام الشيوعيين؟

لقد صورت الماركسية اللينينية على أنها : « علم »... علم لتدمير مجتمع معين . « إن الطرق الخاصة للنقد والتنظيم المجددة في عقائدها يمكن - مع بعض التعديلات أن تستخدم بتأثير أكبر ضد الشيوعية عن استخدام الشيوعيين لها ضد الرأسمالية .

ويسخط المواطن السوفييتي العادي بشدة على حقيقة أن الدولة تسرقه وتستغله كل الوقت ، وبكل وسيلة ممكنة . ومع ذلك فإن هذا النوع من استغلال الدولة لشخصه ، لا تبدو عدوانية لكرامته الإنسانية وزهده ، كما لو كانت صادرة من فرد . إن نبذه فكرة أن يكون « خادما » لشخص آخر ، هي ظاهرة نفسية محضة نبتت من دعاية محابية لمدة تزيد عن نصف قرن من الزمان .

إن الأدب الماركسي واللينيني متيسر في أنحاء العالم الشيوعي ، وكل قطعة منه تحث على المعارضة ، وتوليد التمرد ضد الظروف القائمة في الامبراطورية السوفييتية .

ان التناقض بين الايديولوجية والانجاز يشكل كل واجهة من الحياة الشيوعية .

وبعدما يزيد على نصف قرن على الحكم الشيوعي ، أخفقت الشيوعية في كل وعودها الاجتماعية الجوهريّة ، واحلت محل النظام القديم حكما جديدا أسوأ من الأول بكثير . إن النظام السوفييتي معرض للهجوم التكتيكي مثل تعرضه للهجوم الفلسفي . وبالرغم من أن الشيوعيين قد ادعوا التفوق لمجتمعهم ، فقد أنتجوا دولة سياسية بربرية فظيعة :

فإذا ما وضعنا في أذهاننا أن الحركة الشيوعية شيدت على أساس الأيديولوجية ، وعلى أساس نقد المجتمع الرأسمالي ، حق علينا أن نصل إلى أن

* Fredrick Barghoorn, Soviet Russian Nationalism New York, Oxford University Press, 1956, p. 261.

الإخفاق في الانجاز هو نقطة تعرض كبيرة للهجوم عليها، وهو تنافس لو استغل بمهارة، لأصبح عاملا فعالا في تفكك الأنظمة الشيوعية. إن التفوق الأيديولوجي للغرب الذي قد تغشاه في بعض الأحيان دعاية موسكو، ينعكس في مجتمع يعد مع كل أخطائه أفضل بكثير من المجتمع الشيوعي.

تعثر الفلسفة

ويدعى الشيوعيون أنهم وحدهم يملكون الرؤية الحقيقية لمستقبل البشرية. لقد وعدوا برفاهية جميع المواطنين الذين يعيشون في ظل الدكتاتورية الشيوعية. وكانت إنجازاتهم الكبيرة مركزة في إخضاع المعارضة الداخلية النشطة، ثم العمل على التدعيم الفكري للامبراطورية الشيوعية. وفوق ذلك، يؤكد الشيوعيون أن حلهم هو الحل السليم الوحيد الذي يصلح لكل زمان ومكان. كذلك، تزعم أيديولوجيتهم أن التاريخ سوف يصل إلى حالة توقف ولكن التاريخ غير ثابت، كما أن الشيوعية ليست خالدة. إن هذا لا يحتاج إلى تأكيد أكثر من التمعن في تاريخ الامبراطوريات التي زالت منذ أقدم عصور التاريخ، والتي حكمت باسم الحق الإلهي، أو باسم الحق المطلق، أو الامبراطوريات المستبدة التي حاولت ان تقوم باسم «جنس بشري كالرايخ الثالث في عهد هتلر».

إن الكرملين ينظر إلى علاقاته مع الغرب ليس فقط كصراع قوة، ولكن أيضا كتنافس بين ثقافتين. وتصر موسكو على أن المؤسسات والثقافة الاشتراكية صممتا كي تنتشرا خلال العالم حتى يصبح الجنس البشري بأكمله يعيش في ظل الاشتراكية، وفي النهاية في ظل النظام الشيوعي. ومع ذلك فما لم تدعم خطة الشيوعية - التي تدعى لنفسها خلاص الشعوب على يديها - بقوة عسكرية ساحقة، فإن هذا الأمل ليس من المحتمل تحقيقه لأسباب ثلاثة:

(١) قابلية قاعدة الفلسفة الشيوعية للتهشم.

(٢) الطابع الجائر للامبريالية الشيوعية.

(٣) الهوة الواسعة بين نظرية الأيديولوجية الشيوعية والتجربة.

إن الفلسفة الشيوعية تركز على ما يطلق عليها «المادية التاريخية» وهي

فكرة تصورهما كارل ماركس. ووفقا لما قاله جيرهارد تيمير ، نرى التالي :

« لقد طور كارل ماركس فكرة عالمية وذلك قبل أن يخطط أي برنامج أو أي عمل شيوعي ، وكانت هذه الفكرة تفسيرا موجزا للوجود الانساني ، والتطور الاجتماعي ، ومعنى التغير التاريخي . إن المعتقدات الأساسية لهذا الرأي العالمي يمكن أن تلخص فيما يلي : اولا ، أن الحياة أساسا ليست علاقة بين الإنسان والخالق ولكنها علاقة بين الإنسان والمادة . وثانيا ، أن هناك قوانين للتاريخ ، يمكن ان تقرر من الناحية العلمية ، وان التفسير الماركسي للتغير في ضوء وسائل تطوير الانتاج الاقتصادي هو المفتاح العلمي الوحيد لمعرفة التاريخ . ثالثا ، نتيجة أن التاريخ بالضرورة عملية يعمل فيها المنطق الغريزي للمسائل البشرية ، فإن المرء يستطيع أن يجد حقيقة عامة عن المسائل البشرية بمشاركته في التغير التاريخي ، وليس فقط عن طريق التكهن المجرد به - ومن ثم فإن هدف الفلسفة ليس تفسير العالم ، ولكن بالأحرى العمل بنشاط لتغييره . »^(١)

إن الشيوعية نتاج شبه علمي للقرن التاسع عشر . إن فكرتيها الأساسيتين هما المادية ، وحقيقة التغير . ومنذ وفاة ستالين كشف الشيوعيون عن آفاق جديدة كثيرة في العلم ، ولكنهم ظلوا مع ذلك ، مقيدين بقاعدة فلسفية تبدو من الزاوية العلمية أدنى درجة من تلك الاكتشافات . ومن ثم فإن نظاما يؤكد أن عملية التاريخ تتكشف وفقا لقوى محددة ملاصقة لتكوين المادة ، إنما يقوم على أساس مزعزع . وبالمثل فإن الفكرة الشيوعية القائلة بأن الشخصية الإنسانية هي فقط نتاج البيئة الخارجية ، تكون في ضوء الأبحاث العصرية ، فكرة مشكوكا فيها ، أكثر من أي فكرة أخرى . إن الفكر الشيوعي يتنازع مع أي اعتقادات روحية ، وهو ينكر أي واجبات مقدسة على الإنسان نحو خالقه . لقد اكتشف علم الكيمياء الحيوية تكوين نواة الخلية الحية . ولقد ثبت أن بلازما

* Gerhard Niemeyer, the Ideological Core of Communism in Walter F. Hahn And Jhon C. Neff (ed), American Strategy for the Nuclear age, Garden City, Doubleday, 1960.

الخلية في كل انسان تختلف في نوعها ، ومعنى ذلك أن كل إنسان مخلوق فريد ،
وبعيد عن تناول أي معالجة خارجية . وهكذا فإن العلم والدين يدعمان
الاعتقاد في كرامة الانسان ، لأن كل شخص فريد وليس صورة مكررة من
الحياة .

إن سند التركيب الفلسفي للشيوعية ، في نزاعها مع فكر باقي العالم ليس
مأمونا ، ففي يوم ما ، فإن الصفوة الشيوعية التي تعمل على الافتراضات البائدة
إزاء العالم ومكان الإنسان منه ، سوف تتعثر فوق تماسك الطبيعة البشرية ،
والاكتشافات العلمية التي ستقرب الحقيقة . ومن ثم يمكن حينئذ قلب القيم
الشيوعية ضد الشيوعيين أنفسهم .

دولة الأفكار المحرمة

إن التناقضات في المجتمع الصيني - السوفييتي غير معروفة خارج الكتلة
الشيوعية ، ولقد اعترف بها ماوتسي تونج جزئيا في خطاب له عن التناقضات
القاء عام ١٩٥٨ . إن أعظم التناقضات في المجتمع الشيوعي ، ليست تلك المتعلقة
بالطبقات المتعددة ، ولكن تلك القائمة بين النظام والإنسان كمخلوق مفكر
بين الحرية - الدافع الطبيعي للانسان - وبين كبت الحريات كلها .

لقد بدأ كبت الشيوعيين للحريات بالقضاء على الطبقات المالكة القديمة
وتصفيتها . ومنذ البداية صنّف البلاشفة أعداءهم على النحو التالي :

(١) العدو الموضوعي ، أي أولئك الذين بموجب طبيعتهم الطبقيّة ومصالح
ملكيتهم سوف يقاومونهم .

(٢) العدو المذهبي أي أولئك المعادين لهم أيديولوجيا بغض النظر عن حالتهم
الطبقية او مقدار ما يملكون .

إن فكرة المعارضة الموضوعية يمكن تصويرها . لقد نظر إلى الاوكرانيين على
سبيل المثال - على أنهم وطنيون تقليديون متطرفون ، ومن ثم كانوا عرضة
لأعمال التطهير البربرية المستمرة ، متضمنا ذلك الشيوعيين الذين يعيشون بينهم .
وخلال الحرب ضد هتلر ، كان ألمان الفولجا موضع شك ، ومن ثم اعتقلوا وتم
تشتيتهم .

وكان نتيجة هذا الاتجاه أن أصبح السلوك العام يتسم بوجهين، إذ كان على كل مواطن أن يتعود على الحياة بوجهين، أحدها في علاقته مع رؤسائه، والآخر في علاقته مع نفسه.

وفي الماضي لم يكن في استطاعة المواطن السوفييتي أن يعبر عن مخالفته لأي شيء له نتائج سياسية، وكان يتجنب حتى مجرد أن يصبح موضع ارتياب السلطات. وظل يحس بالقلق، وربما عبر عن سلوك مخالف لحقيقته، وقد يستطيع الإنسان أن يحسن مركزه، وحينئذ ينبغي عليه ألا ينحرف قط عن خط الدعاية الرسمي. فإذا كان الخط يقول أنه ليس هناك طبقات في المجتمع السوفييتي، فعليه أن يتظاهر بالإيمان بذلك، حتى لو كان جميع من حوله يرون غير ذلك. وبغض النظر عما يعتقد، ينبغي عليه أن ينكر ما يراه هو، ويردد ما تريده الدعاية الرسمية. وهكذا فإن الشعب الذي يعيش داخل الاتحاد السوفييتي كان عليه أن يعيش حياة دعائية زائفة ليست حقيقة.

نقط التعرض في النظرية الشيوعية

يمكن أن تبدأ تغذية أي ثورة جديدة على العالم الشيوعي بالتركيز على الوعود القديمة التي لم تتحقق، كما أن الثورات التي لا تحقق وعودها تلقى الاتهامات على الديماجوجية التي انشأتها. ويود الشيوعيون أن يجعلوا العالم يعتقد بأن ثورتهم هي نهاية جميع الثورات، وذلك تصور لا يطابق مدى نجاحها في تحقيق الأهداف والوعود، كما أن ما يحشاه الشيوعيون حقا أن تقوم ثورة جديدة.

على أن وسائل الاتصال الحديثة والأساليب التنظيمية اللينينية - الماركسية قد أنشأت إمبراطوية ضخمة من السوفييتات في وقت قصير.

ولكن من ناحية أخرى، فإن المجتمع السوفييتي هو مجتمع التوتر والقلق كما يتضمن نقط ضعف عديدة يمكن الهجوم عليها. بل هناك نقاط يبدو وكأنها صممت لترد أسهم الهجوم إلى صدور الذين رموها.

المركزية المستبدة:

ان اللينينية - الماركسية كنظرية اجتماعية وكطريقة عمل، بنيت حول

العلاقات الاجتماعية والطبقية التي تطورت في القرن التاسع عشر. لقد كانت حينئذ زائفة جزئياً، كما صوبت رأس الحربة لهذه النظرية إلى الطبقات التي تمتلك ملكيات خاصة، فضلاً عن أنها تجنب بدقة شديدة كل تجارب الإنسان في التاريخ. ولقد أكدت على فكرة الملكية الجماعية كبديل للملكية الخاصة، ولكن لتقوم ملكية طبقة بيروقراطية فقط بواسطة حزب الدولة الواحد.

ومع ذلك فإن التاريخ السياسي العصري، لا يرتبط فقط بسلسلة من صراعات الطبقة، كما ظن ماركس في اكتشافه، بل إنه أكثر من ذلك.. إنه تاريخ لتراكم القوى المشتتة بواسطة الدولة! إن النظام البورجوازي في المجتمع نظام تنافسي، يميل إلى توزيع السلطة السياسية، وليس تركيزها. والطغيان القديم أو الحديث لم يبن فقط بواسطة أصحاب الملكيات الخاصة البورجوازية، إنما بنى أيضاً بواسطة منظمين عسكريين ذوى مواهب، وزعماء، وسلطات كهنوتية، أو بواسطة قادة عسكريين وايدولوجيين معا.

وإذا ما حللنا أي قانون لحركة سياسية خلال التاريخ، فإنه لن يكون قانون صراع الطبقة، بل يكون قانون تركيز السلطة وتوزيعها. إن الاتجاه نحو تراكم السلطة عند كل المستويات ملاصق للإنسان، كذا الميل لمعارضتها.

على أن الايدولوجيات الفعالة، سواء أكانت دينية أم دنيوية، ستظل دائماً القوة الدامغة لتقويض الامبراطوريات العظمى أو لبنائها واستقرارها. وكما كانت الايدولوجيات الدينية في الماضي سائدة، فإن عصرنا هو عصر النزاع بين الأيدولوجيات الدينية والايديولوجيات الدنيوية، أي عصر الايدولوجيات السياسية، عصر العلم وتجميع السلطة حيث تقوم العناصر المضادة للدين بدور المعتدى.

ويأتي التهديد الحالي لحرية الانسان من ايديولوجيات التركيز الشامل، وبخاصة الماركسية - اللينينية. ذلك أن التركيز عملية لو لم تكبح جماحها، فإنها تنقل علاقات السلطة في المجتمع من الأكثرية إلى الأقلية. فإذا ما وصلت إلى مرحلة الطفوائية، تصبح عملية استعباد تساندها القوة.

وقبل ظهور المركزية المستبدة كانت فكرة الحرية مع كل نقائصها منتشرة فوق الكرة الأرضية. لقد بدأت اللينينية الماركسية كناقذة لاطحاء المجتمع الغربي، ووعدت بحرية أعظم، فقط لكي تقوم بثورة مضادة ضد الحرية. وهكذا عكست في ظل سيادتها الخاصة صراع الإنسان في الاجيال القديمة ضد الحكومة الاوتوقراطية، وهي تستमित في تقييد باقي العالم باستخدام القوة والخداع.

دولة المجتمع المغلق

في المجتمع الحر، يمكن تقييد سلطة الإنسان أو كبح جماحها من خلال المنافسة الحرة والرقابة الشعبية. أما في المجتمع المغلق ذي السلطة المركزية، يحدث العكس. ذلك أن المجتمع المستبد يمكن أن يكون مجتمعا فاسدا فسادا شاملا، كما أنه يستر هذه الحقيقة، بينما يحدث في المجتمع الحر عكس ذلك، إذ ان الفساد الحزبي سوف يكتشف ويحارب ثم يقضى عليه. وفي المجتمع الحر يكون تراكم الثورة عملية متشعبة، ولا ينبغي أن تتم على حساب الدولة. ولا يمكن للدولة السوفيتية - مع ادعائها بالتنزه - ان تقر بأن هناك فساد على مستوى كبير في الدوائر الحاكمة، بغض النظر عن احتمال قيام هذا الفساد ومن ثم فإنها تغطي على هذه الحقيقة لأسباب سياسية، أعني اسباب تخص الدولة. إن الفساد سرطان اجتماعي، وكان عاملا رئيسا في تدمير الامبراطوريات العظمى. ولكن الفساد في العالم الشيوعي لم يصل بعد الى المرحلة التي يصبح فيها خارجا عن مدى سيطرته عليه. ولكن النظام الذي يتسامح مع عدم الامانة ويستخدمها كعنصر من عناصر الحكم يكون فعلا نظاما مريضا.

الانتهازية السياسية.

وفي تسلق السلم الشيوعي، تعد القدرة ذات أهمية قصوى، ولكن يأتي قبل القدرة الدهاء السياسي والانطوائية. ذلك أن الشيوعي كي ينجح، عليه أن يتبع الجماعة الراجحة والوقت المناسب، وأن يزحف على جسد الأصدقاء، ويعمل على إاداتهم. وفي ظل ستالين كان هذا هو الثمن الذي يدفعه المرء ليصبح من صفوة السلطة الشيوعية ويستمر معها.

واليوم أصبحت الصفوة أشد قوة، وهي تصمم على الاحتفاظ بوضعها المميز

وأمنها الشخصي. إن هذه الحقيقة ربما تفسر الإدانة الثانية للستالينية التي تعد في الواقع إعادة تصديق على «الماجاكارتا» الذي منح للصفوة في المؤتمر العشرين للحزب. وفي الوقت ذاته فإن الصفوة الجديدة فقدت الآن كل المبررات الأيديولوجية لوضعها المميز.

وهكذا، نجد أن هناك طبقة عليا سوف يحط دائما من قدرها، كما أن وضعها سيكون غير آمن، وسوف تحصل على حقوقها المؤقتة فقط وفقا لرغبة قمة بيروقراطية الحزب. وهنا ينشأ التساؤل: ما قوة هذا النظام؟ إن علينا أن نتمعن ظروف الجماهير، التي سوف تدفع تكاليف سوء الحكم. ومن ثم نجد ومضة لنقطة تعرض، يمكن الهجوم على الشيوعية من خلالها.

ضعف المجتمع السوفييتي:

ليست ردود فعل ضعف المجتمع السوفييتي لدى أعضائه على نسق واحد. فمثلا نجد أن بين المزارعين الذين يمثلون نصف السكان الروس، حالة سخط شديدة إزاء كل شيء شيوعي. إن سخط المزارعين ظهر في رفضهم إجهاد أنفسهم في فلاحة الأرض. لقد وصل تفكيرهم إلى الاعتقاد بأن الدولة القوية تسلبهم ثمار عملهم، ولا تستطيع أن تضمن لهم حتى مستوى المعيشة الذي كان في أيام آبائهم وأجدادهم قبل الثورة. ومن ثم كانت الأزمة الزراعية المزمنة، والنقص الناتج عن ذلك في مواد الطعام، بمثابة صداع شديد لزعماء موسكو الذين لم يجدوا علاجاً له. ولقد أخفقت التهديدات والدوافع في تشجيع زيادة الانتاج.

كذلك فإن الطبقة العاملة الصناعية - شأنها شأن المزارعين - غير سعيدة تقريبا لما يجري من شئون في الإتحاد السوفييتي، فالعمل شاق، وساعات العمل طويلة، ومستوى الأجور منخفض. ولا يتمتع بقدر أعلى من مستوى المعيشة، سوى أقلية صغيرة من عمال الصناعة المهرة، وهم غالبا أعضاء في الحزب، أو مشتركون في أنشطة «الكومسومول»، وهؤلاء يحصلون على مساكن أفضل، ويتمتعون بإجازات يقضونها في مناطق المصايف بأسعار مخفضة، كما يحصلون على ظروف عمل أفضل، وأجور أعلى. وإذ نرى الفلاحين يتوقفون عن التفكير

في أي أمل من تحسين الدولة لحالتهم، فإن العمال لا يزالون يأملون في تحسين وضعهم. إنهم لا يدرون أن العبء الضخم الملقى على كاهل الاقتصاد السوفييتي، نشأ نتيجة ضرورة جعل الطبقة الحاكمة تعيش في رفاهية، ونتيجة الانفاقات العسكرية الضخمة وتكاليف دفع القضية الشيوعية في أنحاء العالم، وأن كل هذه المصروفات تجعل تحسين حال العمال أمرا عسيرا.

ومع أن هناك درجة عالية نسبيا من السفسطة السياسية، فإن المجموعات الغالبة من السكان من الفلاحين والعمال والموظفين والضباط من أصحاب الأجور المنخفضة لا دراية لهم بالديموقراطية السياسية، ولا يهتمون بها كثيرا. ومن ثم، كان سلوكهم إزاء المسائل السياسية سلبيا.

وحتى على الرغم من أن السكان السوفييت ليس لديهم أي تجربة في الحكم الذاتي الديموقراطي خلال نصف القرن الاخير، فلم تزل هناك درجة مدهشة من الإدراك البديهي لمبادئه وطريقة عمله. وخلال المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية، أبدى الشعب في المناطق المحتلة من النازي قدرة مذهلة في تنظيم حكومة ذاتية محلية بواسطة طرق ديموقراطية كلاسيكية.

غير أن المثقفين السوفييت يمثلون مجموعة مختلطة. وهم ككل يميلون إلى تدعيم النظام الذي يمنحهم فرصة للتقدم في الوضع الاجتماعي والاقتصادي. ومن ثم فإن أولئك الذين نجحوا في الوصول إلى درجات عليا من سلم الحزب، سواء أكانوا أعضاء في الحزب أم غير أعضاء أبدوا رضاء تاما عن النظام. فإذا كانوا ينتمون إلى الجيل الأقدم، وتذكروا الواقع الصعب للحياة في عهد ستالين، فإنهم يميلون إلى الكف عن نقد أي تصور سوفييتي كسبيل لاستمرار بقائهم، ولكن الشباب الذين ما زالوا في بداية حياتهم العملية فانهم - كقاعدة عامة - أكثر جراءة، وأكثر ميلا لكشف المناطق الفكرية المحرمة. ذلك أنهم لن يفقدوا كثيرا لو وقعوا في مشاكل مع النظام، وهم غالبا يرغبون في إتخاذ طريق المخاطرة. إن إحدى المميزات للشباب المعاصر، هي عدم احتمالهم لبطء التقدم الذي يجري في البلاد إن الشباب في كل مكان حساس كما أنهم أكثر مثالية، وهم أكثر الناس ملاحظة وتفاعلا مع الأمور الجارية حولهم. لقد اثبتت التقارير أن

الشباب الذي يعيش في ظل الشيوعية لا يختلف عن أي شباب في أي مكان آخر، فهم غالبا ما يوجهون تفكيرهم نحو البحث عن طريق لتحسين النظام الشيوعي باستثناء أقلية منهم لا تعارض. ومن ثم يبدو الجميع على استعداد لنقد النظام، ويبدون رغبة في ممارسة حكمهم الخاص. ومع ذلك فإن هذا الاتجاه بين الشباب لا يمثل تهديدا خطيرا، ولكنه مفعم بإمكانات معينة يمكن كشفها في مجرى الحرب الثورية. إن كثيرا من كتابات ماركس ولينين، وبخاصة الأخيرة ملأى بالنصائح عن كيفية مقابلة عدو للاشتراكية، وعن كيفية إجراء التنظيم ضده.

إثارة النزاع الأيديولوجي:

إن نظرية توجيهية تعرض كيفية التنظيم ضد الحكم الاستبدادي. قد تأتي من الغرب أو قد تولد داخل العالم الشيوعي. كما أن كتابات نقاد النظام السوفييتي قد تستخدم لمهاجمة التجربة الماركسية - اللينينية. كذلك يمكن استخدام كتابات تروتسكي عن اللينينية وبخاصة تلك الفقرات التي كتبت بعد خلافاته مع ستالين، بالإضافة الى بيانات تيتو، كنقطة بداية.

ومن ثم، فإن إثارة القتال الايديولوجي داخل المعسكر الشيوعي قد تمكن من اختراق الأيديولوجية الشيوعية، ومن تفجيرها من الداخل. وقد يتطلب الأمر أيديولوجية كاملة مضادة للتعامل مع الشيوعية بفعالية. إن الشيوعيين المتنازعين لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك، ولكن ما أن تهتز عقيدتهم حتى يمكن استخدام كثير منهم في قضية الهجوم على الشيوعية. إن أكثر هؤلاء فعالية أولئك الذين يميلون إلى نبد أفكار المادية التاريخية وما يرتبط بها.

وهناك قطاعات كثيرة للنزاع المحتمل. فاتحادات العمال السوفييتية التي انحدرت سلطتها إلى درجة الصفر خلال عهد ستالين، تريد على الأقل استعادة السلطة التي كانت تملكها في عهد لينين، كما أن المديرين الصناعيين الذين أصبحوا قوة في الأربعين عاماً الأخيرة، يريدون أن يمارسوا أعمال الإدارة وهم يعارضون المركزية الشديدة للبيروقراطية. والسخط في المجال الزراعي متفش أيضا، كذا إزاء النقص في السلع الاستهلاكية. إن السوفييتات الوطنية والمحلية

المختلفة تريد أن تكون أكثر من مجرد أختام للبيروقراطية في موسكو.
ويبحث الزعماء في القمة عن وسائل لمعالجة هذه القوى وتحييدها
واخضاعها. كما أن القادة الحاليين الآن في مرحلة المعالجة والتحييد مع استخدام
الاخضاع بين حين وآخر. فإذا ما وصلوا إلى النقطة التي يستطيعون فيها
اخضاع المتنازعين بطرق بديئة، كما فعل ستالين فإن بريجنيف قد يصبح
حينئذ حاكما مطلقا.

صورة النظرية التوجيهية المعارضة

إن ما تحتاج إليه الخطة المضادة لإنشاء قوة مضادة، يشكل نظرية توجيهية
تخدم كهدف شامل للعمل... نظرية تتبنى قيا وأهدافا معارضة لأهداف وقيم
الشيوعية، وتنشد توحيد المعارضة.

ولنحاول أن نعرض بعض عناصر مثل هذه النظرية:

(١) العودة إلى حقوق الفرد، بما في ذلك حرية الكلمة، والاجتماع، والغاء
احتكار الحزب الواحد..... الخ.

(٢) نقد الاقتصاد السوفييتي، الذي يعني العودة إلى الملكية الخاصة بواسطة
تعاونيات شعبية، سواء في شكل شركات أسهم أو في أي شكل آخر.

(٣) عودة الأرض الى الفلاحين سواء عن طريق الملكية الفردية أو بواسطة
التعاونيات.

(٤) استعادة الحقوق الوطنية، بما في ذلك حق الانتخاب.

ومع ذلك فهذا لا يعدو أن يكون بعض نقط لبرنامج واسع النظام مخطط،
يدعو إلى الحرية وإلى حكومة ممثلة... برنامج يندد بالملكية الجماعية
الزائفة بواسطة الدولة. على أنه يمكن استثمار مثل هذه الملكية جماعيا إذا رغب
الشعب، بواسطة من يملكون هذه المشروعات وما زالوا يعملون فيها. بعد أن
اصبحت ملكا للدولة. إنها تمثل ملاءمة بين الملكية الفردية في الغرب وبين
ملكية الدولة، فهذه سوف تكون مجدية. للجانبين، وفي الوقت ذاته ترد على
اللاتهام الموجه إلى الرأسمالية، بأنه يريد إعادة ملك الأرض الكبار، واصحاب

المصانع ، الذين لا يزال اغلبهم على قيد الحياة .

ويمكن تقسيم الموضوعات الكبرى من هذا البرنامج إلى أهداف أكثر تحديدا ، وهي تبدو كأنها معروفة في ظل النظام السوفييتي ذاته . هذه الأهداف يمكن أن تكون :

(١) إعادة الديمقراطية الشاملة داخل الحزب الشيوعي .

إلغاء رقابة الحزب على اتحادات العمال ، التي قد تعيد إلى العمال بعض سلطاتهم التي ينبغي أن يحصلوا عليها في ظل النظام السوفييتي .

(٣) العودة الى المشاركة الاختيارية في المزارع الجماعية السوفييتية ، التي قد تعيد للفلاحين وضع تحالفهم الذي كان موجودا في ظل فكرة لينين إزاء عمال الدولة وفلاحها .

(٤) إلغاء الشرطة السياسية ونظامها الخاص بمعسكرات عمال السخرة .

أهمية قيام فلسفة عصرية للحرية .

لا ينتج السخط و حدم - بغض النظر عن مدى انتشاره وعمقه - ، تنظيما مضادا ، بل هو مجرد المطلب الموضوعي له . ذلك أنه لكي يقوم الإنسان بتنظيم معارضة ، ينبغي أن تكون لديه ايدولوجية تشحذ السخط وتحوله إلى هدف ايجابي يستحق المخاطرة بالتضحية . وبإيجاز ينبغي أن يضاف إلى العامل الموضوعي عامل وجداني هو : الايدولوجية :

وحينا بدأت الماركسية منذ أكثر من مائة عام مضت ، كان على ماركس أن يبتكر نظرية اجتماعية . ولقد عرض نظريات كانت تحتاج للبرهان ، وفي الوقت ذاته نسخت النظريات والتجارب القائمة ، وقام المجتمع الغربي بتحسين تلك الأشياء التي قصرت الشيوعية فيها ، أعني الانسانية وحرية أكبر ومستوى معيشة أوفر . وهكذا قد تجذب حركة مضادة الإلهام من التناقض الفعال بين النظرية والتجربة . ولا تحتاج الحركة المضادة الجديدة نظريات تركز عليها ، بل على العكس ، يمكنها أن تأخذ أفضل انجازات الغرب ، وتلائمه مع الظروف السائدة في روسيا ، ثم تبدأ من هذه النقطة ، محاولة إحداث تغييرات داخل الستار الحديدي .

لقد كانت الأيديولوجيات دائما المحركات الأساسية في كل العصور التاريخية، كما أن القوى الايديولوجية غالبا ما تكون أدوات استخدام للسلطة فهي تستطيع ان تغير المؤسسات، وتقود الشعوب وتدمر المجتمعات وتنشئها. ومن ثم فان تنافس الايديولوجيات السياسية - الاجتماعية يعد عاملا حيويا في النزاع الشامل على السلطة. إن تطور فلسفة عامة لحرية الانسان وتحرره وكرامته جزء ضروري من جهود العالم غير الشيوعي لمواجهة تحدي الامبريالية الشيوعية وابتهاالاتها الايديولوجية. ويبدو أن هناك إجماعا على الطابع الضروري والأهداف المستقبلية لمجتمع حر قادر على تشكيل فلسفة يمكن ان تتقبل على مدى واسع.

ويقترح الدكتور ستيفان بوسوفي بعض المبادئ لفلسفة عصرية حديثة للحرية نذكرها فيما يلي:

(١) فكرة أن الحكومة لا ينبغي أن تقوم بغرض ضمان مزايا الأقلية، ولكن ينبغي أن تكون معرضة للمحاسبة اذا لم تقم بخدمة المجتمع ككل، على أن يتم ذلك بنجاح وفعالية. ذلك أن الحكومة التي تعمل لمصلحة حكامها وليس لمنفعة كل عضو في المجتمع، هي حكومة سيئة، ويجب تغييرها.

(٢) يجب تفسير وضع الملكية والأمن الاقتصادي في المجتمع غير الشيوعي فقد استطاعت الماركسية ان تشوه المعنى الحقيقي للملكية، وجعلتها الأساس الفعلي للفقر بل للعبودية.

(٣) إن هذه الفلسفة سوف تميز ايضا بوضوح بين التحرر من القمع وبين حرية المرء في عمل ما يريد. وغالبا ما أسيء تفسير فكرة الحرية في كل مكان للتشديد على دور الفرد ومنحه الحق في عمل ما يريد، حتى لو كان على حساب المجتمع. إن هذا التفسير يربط الحرية غالبا بامبريالية القرن التاسع عشر ورأساليته وينبغي التأكيد على أن الحياة والتحرر ومناشدة السعادة حقوق، بمعنى أن الدولة لا تعرقل الأفراد في تحقيق اطاحتهم الشخصية طالما أنها لا تتنازع مع اطاحتهم الآخرين. ولكنها

ايضا واجبات يجب أن تنجز بالاشتراك بين الأفراد والمجموعات الاجتماعية
التعاونية المختلفة وبين الحكومة.

الخلاصة:

إن الشرط الأول لشن حرب ثورية مضادة ناجحة ضد الشيوعية هو
التصميم على القتال للحصول على النصر، وأخيرا لتدمير هذه الظاهرة المستبدة،
التي تهدد كيان الحضارات غير الشيوعية. إن جزءا من هذا التصميم يكمن في
التخلي للأبد عن كل وفاق ومعايشة بين المعسكرين.

ومن التناقض الطريف أنه كلما كانت قوة السوفييت تنمو كان الزعماء
السوفييت يعلنون تصميمهم على تدمير نظم خصومهم، بينما يقوم الغرب وعلى
رأسه الحكومة الأمريكية بتعديل سياساته إزاء الكتلة السوفيتية، من سياسة
تهدف إلى تفويض سلطة الحزب الشيوعي داخل الاتحاد السوفيتي إلى سياسة
معايشة ضمنية مع زعماء الشيوعية الدولية. وبعد بداية الحرب الكورية بقليل
نشرت الورقة رقم ٦٨ لمجلس الأمن القومي الأمريكي، وقد اقرت طبيعة صراع
الحياة والموت مع الشيوعيين، ووضعت تفويض جهاز الشيوعية الدولية كهدف
قومي. وفي بيانات تالية لمجلس الأمن، تعدل الهدف تدريجيا حتى بدا كأنه
استمرار لنوع من التعايش غير السلمي الذي ميز الخمسينات. وفي الوقت
ذاته، فإن تأكيد خروشوف على أن الشيوعية ستدفن «الأمريكيين؟»، قد نظر
إليه المسئولون عن وضع السياسة الأمريكية نظرة أكاديمية مجتة.

وجتى الوقت الحاضر فإن جهود الدعاية الغربية كانت توجه أساسا نحو
الذين يعتقد بهم أو من لهم قيمة «في العالم الشيوعي». لقد كان هذا التوجيه
لجهود الغرب خاطئا، ذلك لأن الذين يعتقد بهم لهم مصالح في المحافظة على
الشيوعية وتدعيمها واتساع نظامها. إن تحسين النظام الشيوعي لن يحل مشاكل
الغرب، ولن يعطى اجابات شافية عن مسألة الحرية إزاء العبودية للشعب الذي
يعيش في ظل الشيوعية.

ويتطرف الزعماء الشيوعيون في جعل رعاياهم معزولين عن النفوذ

الخارجي . إن تغيرا جذريا في اتجاه دعاية الغرب ولهجتها سوف يحد من شك على مضاعفة هذه الجهود . ولكن سيظل تفوق الغرب التكنولوجي . وفطنته ، يجدان في البحث عن طريق للوصول الى السكان في العالم الشيوعي ، والتأكد من وصول الرسائل اليهم .

إن العالم الحديث معزول عن بعضه بجواز صناعية مفروضة لمنع تبادل الأفكار ، فإذا ما سدت ثغرة التمزق ، فإن حرية الاتصالات بين الشعوب ينبغي أن تكون التصور العملي الرائد لتبادل الأفكار .

ولقد أعلن ميخائيل سوسلوف فيلسوف الحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٦٢ : أن التعايش السلمي يمكن أن يقوم في نطاق الايديولوجية « . لقد أقامت الأنظمة الشيوعية العراقية أمام الاتصالات الدولية لمنع ايديولوجيتهم من التفتت ، تلك الايديولوجية التي تؤكد على أن العالم ينبغي أن يظل مقسما حتى يتم الغزو الشيوعي للعالم .

وتكمن أحد مفاتيح النجاحات الشيوعية في حقيقة أن الشيوعيين أدخلوا عناصر مثالية في ابتهالاتهم إلى أولئك الذين يخوضون معارك ضد الغرب . ولقد خلقوا من زعماء هذه الحركات ابطالا ، وحثوا الزعماء على اتباع نهجهم . كما أن الشيوعيين لا يترددون قط عن مقاومة أي حركة او قضية تعمل او تعد بتقويض أوضاع الغرب .

على أن خطة الحرب الثورية المضادة تعتمد أساسا على اكتشاف نقاط التعرض الشيوعية ، والاستعداد للهجوم عليها . ولن تنجح هذه الخطة ما لم يتفهم الطرف الآخر متطلبات الحرب الثورية وطبيعتها وأسلحتها واسلوب ادارتها . وهنا يجب ان ننبه القارئ إلى أن هذا الصراع ما لم يصل إلى وفاق يعمل على استقرار حدة التوتر القائم اليوم في هذا العالم المضطرب ، فقد يؤدي هذا النزاع - نتيجة خطأ غير متعمد أو تهور مفاجيء - إلى حرب نووية رهيبة لا تبقى ولا تذر .

الفصل الثاني

خطة الدفاع

الإنسان ليس مجرد آلة

إن النظرية التي تنص على أن الإنسان تحركه أساسا معدته ، نظرية نصف صحيحة ، فالإنسان ليس مجرد آلة فحسب ، بل تحركه أيضا الأفكار السامية والعقائد الراسخة . حقا إن الجيوش تسير على بطونها كما قال نابليون بونابرت ، وبقينا أن الجوع يؤثر على سلوك الأفراد وتصرفاتهم ، ولكن الأفكار والعقائد تحترق عقل الانسان بغض النظر عن ظروف المعدة ، وما إن تقيم هذه الأفكار بالعقل حتى ترسخ به وتنتقل للآخرين ، فإذا ما كانت هذه الأفكار تحمل في أعطافها الخلاص والآمال للانسان - حتى لو كانت زائفة - فإن تأثيرها وقوتها سيكون لهما فعالية لاحد لها .

على أن الشيوعيين وهم يعدون للثورة ، أو حينما يقومون بالاستيلاء على السلطة لا يوزعون شهدا ولا طعاما ، إنما يوزعون مجرد آمال . هذه الآمال ليست بالضرورة واقعية أو صادقة ، فالشيوعيون من تجربتهم الطويلة ، لا يلتزمون بالصدق . وفي هذا العصر الذي يتسم بالسرعة ، قد تسود الأفكار قبل أن يتأمل الانسان نتائجها . فإذا ما جاءت النتائج بعكس ما بذل من وعود ، فإن الموقف يتأزم ويصبح معقدا يصعب الرجوع فيه . ولكن الشيوعيين لا يكثرثون بذلك ، فكل ما يهمهم هي أن تبدو وعودهم مقبولة خلال الفترة التي ينشدون فيها السلطة باسم هذه الوعود .

وعلى نحو ما ذكرنا من قبل تتغلغل الشيوعية في البلاد المتقدمة والمتخلفة

على حد سواء . ويبدو أن نجاحهم يرجع إلى أنه ليس هناك قوة تقابل نشاط الحزب الشيوعي الدولي، تستطيع بكفاءة أن تقا تل أنشطته وأساليبه . هذا فضلا عن أن الشيوعيين قد بزوا دول العالم غير الشيوعي في وسائل التثقيف السياسي، وساعدهم في ذلك التطور الضخم في وسائل الاتصال الجماهيري . لقد أصبح عقل الانسان في عصرنا هذا، مستعدا لاستقبال الخير والشر على حد سواء . وبالرغم من أن دول العالم غير الشيوعي تمتلك مصادر وكفاءات تستطيع أن تواجه الحرب الثورية الشيوعية، فإن الأمر يتطلب جهودا جبارة، وتخطيطا أشمل لمواجهة الغزو الشيوعي .

ضرورة التدريب ضد الصراع

والواقع أن التدريب على الحرب الثورية الشيوعية، كان دائما أحد الدوافع الأساسية الحيوية للغزو الشيوعي عن طريق الحرب الثورية الشيوعية . ولقد اكتسب الشيوعيون نتيجة اهتمامهم بهذا الموضوع أسبقية في الحرب الثورية عمرها نصف قرن من الزمان . ومن ثم يجيء الدور الآن على الدول غير الشيوعية وبخاصة الدول النامية والمتخلفة - كي تدرّب نفسها على استيعاب الأسلحة والوسائل التي تستخدم في الحرب الثورية، كذا على الاستعداد لهجوم مضاد يمنع غزو الشيوعيين الدولي .

ولقد قام لينين في عام ١٩٢٠، حينما كان حزبه البلشفي الناهض ما زال ضعيفا وردىء الاعداد، بتوجيه نصيحة حول أسلوب شن الصراع ضد البورجوازية، فقال:

« كل امرئ سوف يوافق على أن أى جيش لا يدرّب نفسه على استيعاب كل الاسلحة وكل وسائل الحرب وطرقها التي يستخدمها العدو، إنما يسلك سلوكا طائشا، إن لم يكن سلوكا ذا طابع اجرامي..... فإذا لم نستطع ان نتقن جميع أشكال الحروب، فإننا بذلك نقف عند حافة المخاطرة نقاسي من معاناة كبرى، وفي بعض الأحيان قد تكون المخاطرة هزيمة ساحقة.»^(١)

* Lenin, Selected Works, Vol X, P. 139.

وبعد أن استتب الأمر للشيوعيين بدأوا في شن هجوم على دول العالم غير الشيوعي، واستخدموا في ذلك أسلحة صراع مختلفة وغير عادية . ولقد ضربوا في كل طريق يبشر باقترابهم نحو أهدافهم، وظهروا قدرات تنظيمية فائقة في التغلغل داخل الأحزاب السياسية والمؤسسات والمنظمات في الدول النامية في الشرق الاوسط والشرق الأقصى وافريقيا وامريكا اللاتينية .

إن الخطر الذي يهدد احتمال تقويض حضارات هذه الدول، إنما يكمن في سوء تقدير القوى التي تغزو العقول، سواء أكانت افكارا صالحة ام طالحة، حقيقية ام زائفة. وبلا جدال، فإن الأفكار الشيوعية الرئيسية تعالجها تنظيمات تقاتل في سبيلها، دون مراعاة أى معايير أخلاقية، ودون كبح جماح الوسائل البربرية التي تستخدم لنشر هذه الافكار .

لقد قال خروشوف عام ١٩٥٩ في خطاب له: « .. إنه في مدى اربعين عام أخرى سوف يعيش اطفالكم في ظل الشيوعية » وحديثه هذا لم يكن مجرد زهو وخيلاء بل كانت تسانده امبراطورية تضم الف مليون من السكان، وقامت دعائها في مدى اثنتين واربعين سنة، على أساس وعود مسوفة وخداع ايدولوجي . ومن ثم اصبح على دول العالم غير الشيوعي أن تكشف هذا الخداع، وهذه الوعود الزائفة .

ولقد قام الاتحاد السوفيتي لدى نصف قرن من الزمان بتنفيذ برنامج بحث متقن لتنمية أساليب النزاع والتدريب عليها . ولقد مكن هذا البرنامج الشيوعيين من تطوير المنظر الشامل لأدوات الصراع، كما مكنهم من تدريب الذين يديرون الصراع على كل الوسائل والأسلحة التي جعلت منهم جوقه عدوانية شاملة .

إماطة اللثام عن الماركسية

على أن هناك نقطة هامة ينبغي أن نبرزها في سياق الحديث عن اغراض الحرب الثورية المضادة، أو حينما نتحدث عن أساليب الشيوعية الدولية التي تستخدمها موسكو في صراعها العالمي . هذه النقطة هي ضرورة كشفنا - بأسس علمية - النظريات والتطبيقات الماركسية اللينينية . فملا على سبيل المثال

يمكن أن نتساءل: « ماذا تعني « الامبريالية » في عقلية جاهلة باحدى الدول النامية »؟ إنها لا تعني بالطبع سوى ما يسمعه عن طريق الدعاية.

فإذا ما قال الدعاة النشطون أن الاستعمار أو التجارة مع الدول المتقدمة الغربية هي ضرب من الامبريالية، بينما العلاقات ذاتها داخل الكتلة السوفيتية ليست سوى مساعدات أخوية محضة، فإن كثيرا من السذج سوف يصدقون هذا الوهم. ومن ثم لا يمكن مواجهة هذه الدعاية بإنفاق الأموال أو زيادة المعونات لهذه البلدة، إنما القضية تتعلق بالعقل، ومن ثم لا يمكن مجابهة العقل إلا بالعقل.

إن منطقتنا - بلا جدال - هدف رئيس للشيوعية، وبالرغم من أن موقعها الاستراتيجي جذب إليها انظار الشيوعية الدولية، مثلما جذب من قبل الاستعمار، فالمنطقة تمتلك من الأسلحة ما تستطيع ان تدافع به عن نفسها. ومع أن الاسلحة ليست كلها مادية، فإن لها فعاليات حاسمة في تأثيرها على عقول الشعوب. ومن ثم يمكن محاربة الشيوعية الدولية عن طريق كشف هجومهم على الدين، ومعارضتهم للقيم الروحية والكيانات الأسرية التقليدية، واغتصابهم لحرية الانسان في سبيل ديمقراطيتهم المزعومة.

القوى الأيديولوجية والسياسية

على ان هذا لا يكفي وحده لمجابهة العدوان الشامل، بل يتطلب الأمر جهودا مخططة على أساس علمي، وعلى مستوى الدولة. إن القوى المضادة للشيوعية في المنطقة العربية يمكن ان تصبح فعالة لو وجهت بمهارة نحو المشكلة. وينبغي أن ندرك أن القوة الايديولوجية لا تقابلها إلا قوة ايديولوجية اخرى، كما ان الهجوم السياسي ينبغي ان تقابله اجراءات سياسية مضادة يقوم بها رجال مدريون محنكون.

ولنتساءل الآن: ما الواجب الملقى علينا؟ وما متطلبات إعداد مجتمع ديمقراطي حر كي يواجه القطاعات غير العسكرية في الحرب الثورية الشيوعية؟

الواقع أن هذا الامر يتضمن عدة مطالب يمكن ان نوجزها فيما يلي:

أولاً:

ينبغي على الشعب أن يتفهم الشيوعية عن وعي، وبخاصة أسلوب الصراع

الشيوعي، وطبيعة النزاع بين الشرق والغرب فيما يسمى بالحرب الباردة. وبالرغم من أن الحكومة هي التي تضع السياسة العامة للدولة، وبالرغم من أنها هي التي ترسم سياسة أمنها القومي، فإن مساندة الشعب بهذه السياسات تعد من أولى الضروريات التي تلعب دورا كبيرا في نجاحها. إن الارتباط بين الحكومة والشعب مسألة جوهرية في أي خطة دفاعية، كما أن معرفة الشعب بما تقوم به الدولة وإمامه بحقيقة الأشياء يعد بمثابة درع واق ضد الدعاة الشيوعيين المهرة، الذين تمرسوا على استخدام الرأي العام بخداع بارع.

ثانياً:

ينبغي أن يتفهم راسمو السياسة ورجال الحكومة في المستويات المختلفة أساليب الحرب الثورية الشيوعية، وتكتيكات الخداع والدعاية والإثارة، حتى يستطيعوا حماية أنفسهم من الدعاية الشيوعية. إن المعلومات والدراسات المبنية على أساس علمي ضرورية لهؤلاء حينما يضعون القرار لأي مسألة من مسائل النزاع.

ثالثاً:

يجب استغلال كل المواهب والملكات والقدرات التي يمتلكها المجتمع في مواجهة العدوان الشيوعي. فالمعركة هنا معركة أفكار وعقائد، وتتطلب استخدام كل الطاقات الفكرية والعقلية.

رابعاً:

ينبغي على واضعي القرار السياسي، ومستشاريهم الذين يقدمون لهم النصيحة أن يكونوا قادرين على ابتكار استراتيجية متكاملة، لتحقيق الأهداف القومية. وعليهم أن يضعوا خطة شاملة لمواجهة أي هجوم شيوعي. ويتطلب ذلك منهم استخدام كل الطاقات الممكنة غير العسكرية في وقت الغزو الشيوعي.

خامساً:

ينبغي على الشعب والحكومة أن يتفهما آلة الحرب الثورية الشيوعية التي تدير الصراع سواء من الناحية التنظيمية أم من الناحية العقائدية. كما ينبغي وضع

برنامج تثقيف شامل يدرّب بموجبه الشعب وأفراد الحكومة على وسائل مقاومة الحرب الثورية الشيوعية.

سادساً:

يجب استغلال رجال الدين في حملة توعية ضخمة، تقوم على أساس خطة جيدة الإعداد لتوعية الشعب عن أسلوب الشيوعية الدولية في تقويض الأديان والمعنويات. إن هذا يتطلب جهداً مشتركاً من جميع الأديان. ففي مصر مثلاً يمكن أن يقوم رجال الأزهر والكنيسة بعمل مشترك ضخم لكشف الأساليب الشيوعية، وتدعيم الإيمان في قلوب الشعب.

سابعاً:

وضع خطة دعائية شاملة على أساس الهجوم على نقاط الضعف في الشيوعية، وقد تحدثنا عنها في الفصل السابق. وينبغي أن يكون أسلوب الدعاية هادئاً متزنًا غير متحيز، يعتمد أساساً على الحقائق، وعلى دحض الأفكار المضادة بالحجج المقنعة.

على أن المطالب التي تحدثنا عنها تولا تفي الموضوع حقه، فهناك مطالب أخرى عدة. وما ذكرناه هو أهم المطالب الرئيسية. والواقع أن الغرب والدول غير الشيوعية قد أخفق إلى حد كبير في مواجهة هذه المطالب، إذ أنها لم تدرك الحاجة إلى برنامج تدريب وبحث واسع المدى، كذا لم تدرك مدى الوسائل التنظيمية والعملية المطلوبة، ومن ثم فإن برنامج التدريب القائم في هذه الدول اليوم غير كاف لمواجهة متطلبات الحرب الثورية الشيوعية كما تبين فيما بعد.

تصور جديد

إن التهديد الشيوعي ليس تحدياً بسيطاً، فهو من الناحية التاريخية مستمر ومنظم ومعقد وذو مراحل متعددة، وهو من الناحية التنظيمية يتطلب تخطيطاً حصيناً ماهراً، أما من الناحية العسكرية فيقوم على نسق معين. كما يتسم من الناحية الاخلاقية بالقسوة، ومن الناحية السياسية بالديناميكية.

وهكذا فإننا لكي نحمي أنفسنا من تهديد هذا الغزو، نحتاج إلى بعض

التغيرات من جانبنا، بعد تلك التجربة التي مررنا بها منذ اواسط الخمسينات. إننا نحتاج إلى تصور شامل، وتقييم جديد للتهديد الشيوعي، وإلى عقيدة راسخة تتبع من ديننا وتقاليدنا وتراثنا، بل أننا نحتاج إلى تغيير جذري عام في أجهزتنا البيروقراطية وفي كياننا الإداري. كذلك يتطلب الامر إعادة النظر في مؤسساتنا الدستورية وفي شكل الحكم في حد ذاته. وعلى نحو ما راينا في الفصول السابقة، فإن أى نظام يقوم على أساس حزب واحد مهما كانت تسميته، أو مهما كان شكله لا بد ان يؤدي الى قيام دكتاتورية ما، قد تعجل بتهيأة المجتمع لانقراض الشيوعية عليه.

وقد يؤدي التردد وفتور الهمة في إنجاز هذه التغيرات في النهاية سواء كان هروبا أو نتيجة الملاءمات السياسية - إلى إحاطتنا بكارثة قد تصيب وجودنا القومي. إن الاخفاق المستمر في التعرف على الطبيعة الحقيقية للتهديد الشيوعي، او في خوفنا من مخاطر المواجهة، قد يجعلنا كالنعامة التي تضع رأسها في الرمال.

وقد يكون من المفيد أن نلم بنموذج البحث والتدريب الذي اتبعه الخصم الاول للشيوعية - الا وهو الولايات المتحدة الامريكية - في مواجهته التهديد الشيوعي. إذ قد يمكننا ان نستنتج منه بعض الدروس المستفادة.

فمنذ ربع قرن من الزمان او أكثر قليلا، حينما احست الولايات المتحدة بقيام الحرب الباردة، بدأ مخططو السياسة الامريكية بتشكيل بعض الأفكار والبرامج لمواجهة التحدي غير العسكري. وما إن اشتدت حدة الحرب الباردة حتى أجريت مشروعات بحوث مختلفة في الجامعات الامريكية وبعض الوكالات الحكومية. وأولت الحكومة اهتماما بتعليم اللغات في معهد الخدمة الاجنبية، كما ادخلت دراسة الوسائل غير العسكرية في كليات الحرب الأمريكية *

ومع ذلك فليس هناك من الدلائل ما يشير إلي أنه كان ثمة بحث قومي كامل، أو برنامج تدريب شامل.

* The National War College, Under The JCS as Well as the Army, Navy And Air War College, The Industrial College of Armed Forces, And The Armed Forces Staff College

لقد كان التدريب الحكومي الامريكى الذي تيسر لمواجهة التحدي الشيوعى غير كاف إطلاقا. لقد خصصت كلية الحرب الامريكية فترة تدريب مدتها من أسبوعين إلى شهر، لتغطية دراسة عن الكتلة السوفيتية. وخلال هذه الفترة كانت معالجة الشيوعية وأساليب النزاع السوفيتي، نادرا ما تزيد على يومين او ثلاثة. ومع ذلك، فقد كان هذا الموضوع الوعر الذي يتطلب دراسة منسقة مناسبة ضرورة مطلقة لتفهم النزاع الطويل الممتد.

كما أن معهد الخدمة الاجنبية التابع لوزارة الخارجية الامريكية، كان يعقد دورات تعليمية لمدة اسبوعين، لمناقشة موضوع الشيوعية والاتحاد السوفيتي ولا تعد هذه الدورات أفضل أنواع الدورات التعليمية التي عقدتها واشنطن، ذلك لأنه نتيجة قيود عامل الزمن، لم يكن من المستطاع معالجة هذا الموضوع المتسع، إلا معالجة خفيفة تتضمن مسحا عاما للشيوعية وأساليب النزاع الشيوعي. فإذا ما عرفنا أن مدة التدريب الفعلية كانت لا تزيد عن عشرة ايام، نجد أن هذه الدورة كانت لا تستطيع أن تهيب أكثر من ساعة ونصف يوميا، لمحاضرة، يتلوها مناقشة حول الشيوعية في الشرق الاقصى وجنوب شرق آسيا واوربا الغربية وامريكا اللاتينية وافريقيا. ونظرا إلى النقاط القليلة التي يمكن أن تثار في محاضرة واحدة كهذه، فإن هذه الدورة تعد في الواقع دراسة سطحية.

على أن هناك دورة رئيسة اخرى تعقدها الإدارة الاجنبية في وزارة الخارجية لمدة تسعة اسابيع، ويحضرها جميع الضباط الأصغر عند تعيينهم. كذلك هناك دورة لموظفي الخارجية من المراتب المتوسطة ومدتها ثلاثون اسبوعا، وهذه لا تقدم شيئا تقريبا عن «انظمة النزاع». أما الدورة الاولى فيخصص فيها ست ساعات محاضرات حيث يقوم خبراء إدارة المحابرات المركزية بتغطية الموضوعات التالية فيها: الاتحاد السوفيتي، الحركة الشيوعية الدولية، تنظيم الشيوعية واستراتيجيتها، الدعاية السوفيتية العالمية، كيفية الاجابة عن النقد القادم من الشيوعيين خارج أرض الوطن. وتتضمن الدورة الثانية محاضرة لمدة ساعتين عن العقيدة الشيوعية والتطبيق وساعتين اخريين عن دور السلوكية في الاستراتيجية السوفيتية، ثم ساعتين عن التنظيمات السياسية السوفيتية.

وفي عام ١٩٥٨ ، افتتحت وزارة الخارجية دورة الدراسات العليا للسياسة الخارجية ، ومديتها تسعة أشهر ، ويحضر كل دورة عشرون ضابطاً عالياً. وتخصص هذه الدورة خمسة أيام لدراسة الاستراتيجية الشيوعية ويستنفذ جزء كبير من الوقت في شكل مناقشات المجموعات ، ومشاهدة الأفلام التعليمية. وبالرغم من أن جزءاً كبيراً من الدورة يرتبط بدراسة التهديد الشيوعي ، فإنه كما هو الحال في كليات الحرب - يفترض سلفاً في الطالب معرفته العملية بالحرب الثورية الشيوعية التي لا يكون مستوى الطلبة فيها عادة بالدرجة المفترضة.

ويقول الدكتور ستيفانت بوسوني ، وهو من الثقة البارزين في الشيوعية ومحاضر في كلية الحرب القومية ، ومستشار وزارة الدفاع الأمريكية للشؤون السوفيتية: « ليس هناك داخل الحكومة على قدر معلوماتي أيه مدرسة متخصصة في الشيوعية ».

ويستطرد معلقاً بقوله:

« دون الخط من قدر كليات الحرب ومدارسها لا يمكن القول جدياً ان هذه المدارس تغطي دراسة الشيوعية بقدر كاف. وفي الواقع هناك تغطية عريضة ، ولكن ليس هناك دراسة دقيقة ، كما أن هناك ثغرات كبيرة في هذه الدراسة. ولا يمكن أن يكون هذا على عكس ذلك ، لأن المعالجة الدراسية للشيوعية تظهر ثغرات واسعة. وبالإضافة إلى ذلك ، ليس هناك أية مراجع تسمح للدارس أن يحيط بمسألة المشكلة كلها من مؤلفين أو ثلاثة. وبدلاً من ذلك ، فإن المرء الذي يريد أن يحصل على معرفة عن الشيوعية مجبر على أن يقرأ ويحلل بعناية ما لا يقل عن دسنتين او ثلاث من الكتب ، وأن مثل هذا الاضطلاع لا يمكن أن يتسنى في دورة تعليمية مداها عشرة ايام (مدة دورة كلية الحرب).

قصور في المواجهة

فإذا ما حاولنا بحث المسألة لدينا ، لا نستطيع ان نقول انه ليس هناك جهد منظم منسق للتدريب على مواجهة التهديد الشيوعي بل قد نكون قد أفسحنا الطريق يوماً ما لهذا التهديد ، إما عن غير ادراك وإما لظروف قهرية. كما أن وسائل اعلامنا قد بلبلت عقل المرء بخليلط من المعلومات المشوهة غير المرتبطة

التي تترك الفرد غير المدرب بصورة غير حقيقية عن الشيوعية. ولا نستطيع أن نجزم بأن هناك مجموعة كبيرة من الكتب المحايدة عن الشيوعية في مكتباتنا، كما أن الذين يقرأون عن الشيوعية إما عددهم قليل وإما لا يقرأون بكفاية.

وينبغي أن نضع في أذهاننا، أنه في تجربتنا القريبة لم يعد الشعب لتفهم الصراع القائم أو التهديد الذي تتعرض له البلاد، أو نوع التحدي، أو الوسائل والطرق التي تستخدم ضدنا مثل الخداع البارع، أو غموض طابع التحرك الشيوعي، أو الأحداث غير المرتبطة في جميع أنحاء العالم، أو أعمال التخريب وما شابه ذلك.

إن جامعاتنا ومعاهدنا العليا أماكن مناسبة للدراسة المنتظمة للشيوعية والصراع الدولي القائم، ولكن يبدو أنها لا تولي هذا الموضوع أية أهمية. ودراسة الفلسفة في القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث يقرأ الطالب قشورا عن الشيوعية لا تعده كي يتفهم الصراع العالمي، بل أن تاريخ الروس منذ عام ١٩١٧ لا يكفي لتفهم المشكلة.

ومن ثم ينبغي أن تدرس التحديات الشيوعية وتكتيكاتها في المعاهد والجامعات، كذا التحديات القريبة حتى يتبين الطالب بعد تخرجه موقفنا من هذا الصراع القائم في العالم.

وينبغي على اساتذة الجامعات والمعاهد، ومدرسي المدارس الثانوية أن يعدوا إعدادا واعيا ليشاركوا في مهمة شرح ابعاد هذا التحدي، وليس هناك دلائل على أنهم فعلوا أي شيء لمعالجة الموقف أو إعداد أنفسهم لتدريس هذه الموضوعات. كما انه ليس هناك أي جهد منظم لتغطية هذا الموضوع.

نزاع الأنظمة

وعلى نحو ما وضعنا من قبل فإن الحزب الشيوعي السوفييتي يضع تحت تصرفه جميع المصادر المادية والبشرية للاتحاد السوفييتي كي يشن بها النزاع. ويقال دائما أن الشيوعيين يعملون مجد أكبر وبتكريس أعظم من خصومهم. إن هذا حقيقي لأن برنامج التدريب الشيوعي وعملية صياغة الكوادر يركزان على تحقيق التزام شخصي كامل. إن الفوز في نزاع الانظمة يتطلب أن يقبل

الرجال والنساء على حد سواء أي تضحيات مالية، أو أي جهد بدني لو كان ذلك يشارك في تحقيق النصر، وهؤلاء لن يسمحوا لأنفسهم بانتقال عدوى البلادة القائمة في المجتمع إليهم، ولن يسمحوا أيضا بأن تؤثر فيهم الضغوط النفسية.

ويهتم السوفييت بدراسة اللغات كما أنهم يعملون في منطقة واسعة ممتدة. ولكن ما يبيء لهم ميزة كبرى، الأسلوب المنسق الذي يتقنون به الأشكال التنظيمية والأساليب العملية التي يمكن استخدامها في صراع قوي شامل. وهم يطبقون هذه الأساليب بمرونة، ولكن بتنسيق وتماسك، وبغرس مفهوم داخل إطار تصوري شامل.

ولقد وضح الرئيس الراحل كينيدي في خطاب له القاه في ابريل عام ١٩٦١ ادراكه لقصور الاستراتيجية الامريكية، ووسائل الانجاز للنزاع غير العسكري بقوله:

« لا نجرؤ أن نحقق في رؤية الطابع المخادع لهذا الصراع الجديد العميق. كما لا نجرؤ أن نحقق في الامساك بتصورات جديدة، وأدوات جديدة، ومفاهيم جديدة للمتطلبات التي نحتاجها للقتال بها سواء في كوبا أو في فيتنام. ولا نجرؤ ان نحفي في التحقق من هذا الصراع القائم كل يوم - دون اسلحة او أبواق. في آلاف القرى والأسواق وفصول الدراسة في جميع انحاء العالم.... لقد ركزنا اعيننا زمنا طويلا على احتياجاتنا العسكرية التقليدية.... .. وينبغي أن ننتفع من هذا الدرس، وعلينا ان نعيد فحص قوانا من جميع الأنواع ونوجهها، كذا تكتيكاتنا ومؤسساتنا في هذا المجتمع. إن علينا ان نكشف جهودنا للصراع بطرق كثيرة أصعب من طرق الحرب.»

إن أكثر الجوانب ازعاجا في الوضع الظاهر لا يكمن في مكاسب الشيوعيين التي حصلوا عليها اليوم، ولكن يكمن في قدرتهم الشاملة على الصراع وجها لوجه مع الغرب. إن التساؤل الذي يتردد في الغرب بصورة جدية هو: هل ستمكّن قدرات الشيوعيين من تكملة عزلها للغرب قبل أن يعدد قدرات مضادة

كافية؟ إن أبحاث الشيوعيين وتنميتها وبرامج تدريبهم، ابتداء من مدارس لينين البلشفية الثورية الثلاث في إيطاليا وفرنسا قبل عام ١٩١٤، إلى التوسع خلال العشرينات في برامج البحوث والتدريبات الجماعية عبر التاريخ، قد منحت الشيوعيين حقا قدرات مخيفة.

ولكن بالرغم من الميزات التي تتمتع بها موسكو والقدرات التي تمتلكها، فإن المؤلفات الماركسية واللينينية المنتشرة في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي وخارجه تحت كل منها، بل تولد دوافع التمرد على كل الظروف القائمة في ظل الحكم الشيوعي، كما أن التناقض بين الايديولوجية والانجاز يلون كل واجهة من واجهات الحياة في البلاد التي تسيطر عليها الشيوعية.

ذلك أنه بعد ما يربى عن نصف قرن من الزمان من الحكم الشيوعي لم تنجز الشيوعية كل وعودها الاجتماعية الضرورية، ولم تفعل أكثر من أنها أحلت مكان الحكم القديم حكما جديدا أشد قسوة وضراوة من الحكم السابق.

وبالرغم من أن هناك كثيرا من الأخطاء في العالم الخارجي - وسوف تظل هذه الأخطاء قائمة - فإن الأخطاء القائمة في العالم الشيوعي أسوأ بكثير. لقد جاء التطرف الشيوعي نتيجة قصور الوعي الاجتماعي، حيث حل البغض مكان التسامح. ولا شك أن للشيوعية فضائل بقدر ما عليها من مثالب، كما أن كل مجتمع في العالم له فضائله ونقائضه، ولكن النقطة الأساسية التي تصبح محل التساؤل هي: «ما القوة الحقيقية لنظام معين يعتمد على استخدام القهر المنظم في حكمه؟»

حقيقة ليس هناك أي مجتمع إنساني كامل. وتخطط الحرب الثورية الشيوعية هجومها كي تكشف القصور والعوائق والخلافات الاجتماعية في العالم غير الشيوعي، وتعمل على تضخيمها. ومع ذلك فإن النظام الشيوعي تنفث في أيضا مواطن الضعف الايديولوجية والسياسية والاقتصادية.

وبالرغم من تجارب «السبوتنيك» الباهظة التكاليف، فما زال الشيوعيون يواجهون أزمة قائمة في انتاج الطعام. وفي كثير من المناطق التي تسيطر عليها الشيوعية، يعاني السكان من الجوع والفاقة.

على أنه بتعمق النزاع العالمي الحالي، فإن الاخفاق في مهاجمة نقط ضعف الشيوعية بفعالية، ينبغي أن ينظر اليه من زاوية الإهمال الجسيم لسياسة الغرب واستراتيجيته. ولكن ما هو السبب في ذلك؟

هناك الكثير من الناس يناقشون الامر بقولهم: إن تشديد الشيوعيين قبضتهم الحديدية على الشعوب التي تحكمها، يناقض فكرة قيام أي ضعف ملاصق في المجتمع الشيوعي، كما ينكر أي ضعف في كيان تركيب الكتلة الشيوعية.

إن الحكم المستبد الحديث القائم على الجماعية، يصعب سحقه. ولقد كشف تاريخ كل من الاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية أنه غير ممكن تقريبا أن تقوم دكتاتورية جماعية عن طريق قيام ثورة من الداخل.

وفي الواقع، كان من الصعب الاطاحة بدولة بوليسية من الداخل بواسطة التآمر، او التخريب أو بواسطة عمليات سرية اخرى. ففي الرايخ الثالث خلال الحرب العالمية الثانية، كان هناك الملايين من عمال السخرة الاجانب معادين للنازي، ومع ذلك لم تحدث أعمال تخريب حقيقية ولم تقم مظاهرات سياسية ضخمة. وحتى في أوروبا المحتلة بواسطة النازي فإن العقاب الوحشي ضد أي تفرقة، خدم كأداة ردع فعالة، ولكن الحكام الشيوعيين في الاتحاد السوفييتي والصين لا يعتمدون على الإرهاب فحسب، بل إنهم ايضا يثقون رعاياهم، وذلك بالتأثير النفسي على عقولهم وارواحهم.

ويميل الناس إلى التسامح حتى مع أقسى الحكومات، طالما كانت انجازاتها ترضى زهوهم القومي. ويتغلب الظغيان عادة على العواصف الداخلية، طالما بدا أن النظام يحرز انتصارات أخاذة في الخارج، ويحقق تقدما صغيرا في الداخل. واليوم لا يوجد غير قلة في الغرب يتوقعون أن الاستبدادية الشيوعية سوف يطاح بها نتيجة هبات من الداخل. ومع ذلك، فمنذ أكثر من خمس وثلاثين عاماً، ظن قلة من الناس أن الفاشية الايطالية سوف تحتفى، وان الايطاليين سوف يعودون الى الحياة البرلمانية، وقد تحقق ذلك.

وفي السنوات الحديثة، اكتسبت نظرية جديدة أرضا في الدوائر الاكاديمية.

ووفقا لهذه النظرية، فإن الأنظمة الشيوعية مجبرة على أن تتحمل عملية طبيعية من التفكك، والمرونة التدريجية.

ذلك أنه حينما ترتفع مستويات المعيشة العامة والتعليم. تبدأ الشعوب في المناقشة، وتطالب بحرية أكبر، وبتسهيلات رفاهية أخرى، لا تعيرها صفوة الحزب أهمية كبرى. ومن المفروض أن يصبح قادة الحزب أنفسهم أقل ميلا للعدوان، وأكثر تحضرا. وسوف تضعف عزيمتهم نتيجة الرفاهية النسبية التي يتمتعون بها كطبقة مميزة.

فمثلا أبرز أسلوب حكم خروشوف - الذي اختلف حقيقة عن حكم ستالين - مؤشرا ظاهريا بأن الأسلوب الانساني للنظام قد بدأ، ولكن اذا ما عنى للمرء ان يقارن خروشوف او بريجنيف بـ لينين، فقد يصبح من العسير عليه أن يؤكد أن القيادة العالمية أكثر إنسانية، أو أكثر حضارة، أو أقل عزيمة عن النظام الأصلي في أي جانب من جوانب الحياة.

وبالرغم من ذلك، فإن الأنظمة الشيوعية تعاني نقط ضعف كيانية أساسية، منها على سبيل المثال، ميلها إلى الانجذاب نحو دكتاتورية فردية. كما أن هناك ضعفا اخرًا يكمن في انه ليس هناك طريقا شرعيا لنقل السلطة من دكتاتور لآخر. إن مشكلة الخلافة الشيوعية تشبه لحد كبير مشكلة الامبراطورية الرومانية التي لم تجد لها حلا قط. وهكذا كلما يموت دكتاتور، تنشأ في الشيوعية فترة ازمات.

وتهدف الطعنة الرئيسة للحرب الثورية الشيوعية إلى تفتيت إرادة الغرب بجعله يستخدم القوى التي يحتاجها لبقائه. وسوف تعتمد محصلة الصراع - مهما طالته مدته - على الالتزامات الايديولوجية، وعلى عزيمة الشعوب التي تعيش في ظل النظامين المتنافسين. إن الجانب الذي سيصمد فترة أطول هو الذي سينتصر.

ويعتقد البعض في الغرب أن النظام السوفييتي قدر له أن يحكم للأبد، ما لم تدمره حرب من الخارج. ولكن التاريخ لم يثبت وجهة النظر هذه. فالثورة المجرية على سبيل المثال، كانت صراعا شعبيا حقيقيا نحو الحرية، وينبغي ألا

بتجاهل إنجازاتها؛ ففي الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦، بدأت مظاهرات معادية ضد الحكومة المجرية الشيوعية في بودابست. وكانت هذه المظاهرات تقصد مد العون إلى الاتجاهات المعادية للشيوعية التي كانت سائدة في بولندا. وكان من ضمن طليعة الثورة المجرية مثقفون وطلبة وعمال - وهي المجموعات التي ركز عليها الشيوعيون جهودهم التثقيفية. لقد أزيلت بعض الشعارات الشيوعية من العلم المجرى، وهدم تمثال ستالين. وانتشر النزاع كالنار في الهشيم خلال المدن والقرى في جميع أنحاء البلاد. وقام نظام جديد برئاسة إيبرى ناجي، الذي كان يهدف إلى اعلان استقلال بلاده عن الكتلة الشيوعية، وإزالة الحكم العسكري الأجنبي البائد.

وسرعان ما انضم الجيش المجرى إلى جانب الثورة، وحتى بعض القوات السوفييتية العسكرية انضمت الى المقاتلين الأحرار ضد الشرطة السرية الشيوعية المحلية البغيضة. وبنهاية شهر أكتوبر، كانت الجيوش السوفييتية تنسحب من بودابست، وانطلقت الأحزاب السياسية التي طال كبتها وانضمت الى تآلف ناجي. وبسرعة فائقة تفككت الشيوعية المجرية. ولقد مارس الشعب المجرى لخمسة أيام ظافرة حرية لم تعرف في شرق اوربا لسنين طويلة. لقد عادت حرية الحديث، وبدأت الصحف تظهر بانباء حقيقية في الشوارع. ولكن النصر المجرى لم يعيش طويلا، ففي الثاني من نوفمبر، دعا السوفييت وفدا من الحكومة المجرية لعقد اجتماع خارج بودابست لاجراء الترتيبات النهائية لانسحاب القوات السوفييتية. ووفقا لتقرير لاحق للأمم المتحدة، فإن رئيس شرطة الأمن السوفييتية ظهر، واعتقل الوفد المجرى.

وفي الساعة الخامسة والدقيقة العشرين من صباح يوم ٤ نوفمبر عام ١٩٥٦ القى الرئيس ناجي آخر خطاب له على الراديو حيث قال:

« في فجر هذا اليوم، قامت القوات السوفييتية بالهجوم على عاصمتنا بقصد واضح، وهو الإطاحة بالحكومة الديمقراطية المجرية الشرعية ».

وخلال هذا اليوم، وفدت الى بودابست مئات من الدبابات « طراز

